

تَقْسِيمُ النَّسْفِ

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

تأليف

أبي البركات عبد بن أحمد بن محمود النسفي

(ت ٧١٠ هـ)

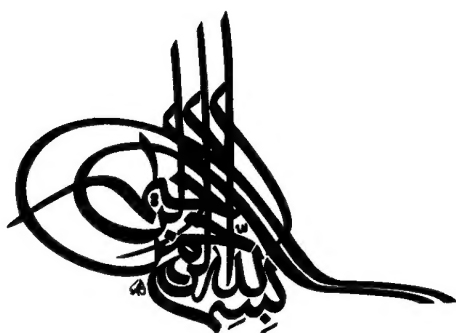
حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
يوسف علي بدوي

رَاجَعَهُ وَفَتَّ مَرَلَهُ
محيي الدين ديبستو

أَجْزَاءُ الثَّالِثُ

دار الكتب للطباعة

بيروت



تفسير النسي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

حُقوقُ الطَّبْعِ وَالصُّوْرِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ
الطَّبْعَةُ الْأُولَى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

١، ٢ - ﴿الْم﴾ - على أنها اسم السورة - مبتدأ، وخبره: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾. وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع ﴿تنزيل﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف. أو: هو مبتدأ خبره: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. أو: يرتفع بالابتداء، وخبره: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراض لا محل له. والضمير فيه راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي: في كونه منزلاً من رب العالمين؛ لأنه معجز للبشر ومثله أبعد شيء من الريب. ثم أضرب عن ذلك إلى قوله:

٣ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ - أي: اختلقه محمد ﷺ - لأن ﴿أم﴾ هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل، والهمزة. معناه: بل يقولون افتراه، إنكاراً لقولهم، وتعجيباً منه؛ لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ ولم يفتره محمد ﷺ كما قالوا تعنتاً وجهلاً ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي: العرب ﴿مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ «ما» للنفي. والجملة صفة لـ ﴿قَوْمًا﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ على

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٤﴾

الترجي من رسول الله ﷺ كما كان ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [طه: ٤٤] على الترجي من موسى وهارون.

٤ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استولى عليه بإحداثه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أي: ناصراً ينصركم، ولا شفيعاً يشفع لكم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون بمواعظ الله.

٥ - ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: أمر الدنيا ﴿وَمِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ إلى أن تقوم الساعة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر كله، أي: يصير إليه ليحكم فيه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو: يوم القيامة ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيام الدنيا. ولا تمسك للمشبهة بقوله ﴿إِلَيْهِ﴾ في إثبات الجهة؛ لأن معناه: إلى حيث يرضاه، أو: أمره، كما لا تشبث لهم بقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصفات: ٩٩] ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

٦ - ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: الموصوف بما مرّ عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب أمره وتديره ﴿الرَّحِيمُ﴾ البالغ لطفه وتيسيره. وقيل: لا وقف عليه، لأن:

٧ - ﴿الَّذِي﴾ صفته ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: حسنه، لأن كل شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة ﴿خَلَقَهُ﴾ كوفي، ونافع، وسهل، على الوصف، أي: كل شيء خلقه فقد أحسن. ﴿خَلَقَهُ﴾ غيرهم على البدل، أي: أحسن خلق كل شيء ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ﴾ آدم ﴿مِنْ طِينٍ﴾.

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

٨ - ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ذريته ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ من نطفة ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ أي: مني. وهو بدل من ﴿سلالة﴾ ﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيف، حقير.

٩ - ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ قومه، كقوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ [التين: ٤]. ﴿وَنَفَخَ﴾ أدخل ﴿فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ﴾ الإضافة للاختصاص، كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به، ويعلمه ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتسمعوا، وتبصروا، وتعقلوا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون قليلاً.

١٠ - ﴿وَقَالُوا﴾ القائل: أبي بن خلف. ولرضاهم بقوله: أسند إليهم ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: صرنا تراباً، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه، كما يضل الماء في اللبن. أو: غبنا في الأرض بالدفن فيها. وقرأ علي: ﴿ضَلَلْنَا﴾ بكسر اللام، يقال: ضلَّ يَضِلُّ، وضلَّ يَضِلُّ. وانتصب الظرف في ﴿إِذَا ضَلَلْنَا﴾ بما يدل عليه ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بُعِثُ ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ جاحدون. لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالبعث وحده.

١١ - ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: ﴿يتوفاكم ملك الموت الذي وكلَّ بقبض أرواحكم﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ترجعون ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بعد ذلك مبعوثين للحساب، والجزاء. وهذا معنى لقاء الله. والتوفي: استيفاء النفس وهي الروح، أي: يقبض أرواحكم أجمعين. من قولك: توفيت حقي من فلان: إذا أخذته وافياً كملاً من غير نقصان. وعن مجاهد: حُوِّتَ لملك الموت الأرض، وجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. وقيل: ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الأمر بذلك كله، وهو الخالق لأفعال المخلوقات. فهذا وجه الجمع بين هذه

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

الآية، وبين قوله: ﴿تَوَقَّهٖ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

١٢ - ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو: لكل أحد. و«لو» امتناعية. والجواب محذوف، أي: لرأيت أمراً عظيماً ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]. و«لو» و«إِذَا» للضمي. وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود. ولا يقدر له ﴿تَرَىٰ﴾ ما يتناوله؛ كأنه قيل: ﴿ولو﴾ تكون منك الرؤية. و﴿إِذَا﴾ ظرف له ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ من الذل، والحياء، والندم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿عِنْدَ﴾ حساب ﴿رَبِّهِمْ﴾. ويوقف عليه حق الحذف، إذا التقدير: يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ صدق وعدك، ووعدك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك. أو كنا عمياً وصماً، فأبصرنا وسمعنا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي: الإيمان، والطاعة ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بالبعث، والحساب الآن.

١٣ - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ﴾ في الدنيا ﴿هُدًى﴾ أي: لو شئنا أعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا، لكن لم نعطهم ذلك اللطف، لما علمنا منهم اختيار الكفر، وإيثاره. وهو حجة على المعتزلة، فإن عندهم: شاء الله أن يعطي كل نفس ما به اهتدت، وقد أعطاه، لكنها لم تهتد، وهم أولوا الآية بمشيئة الجبر، وهو تأويل فاسد؛ لما عرف في تبصرة الأدلة ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولكن وجب القول مني لما علمت أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنم، وهو ما علم منهم أنهم يختارون الرد والتكذيب. وفي تخصيص الجن والإنس إشارة إلى أنه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم.

١٤ - ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ﴾ بما تركتم عمل لقاء ﴿يَوْمِكُمْ﴾

هَذَا إِنَّا نَسِيتَكُمْ وَذُقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ

هَذَا ﴿ وهو: الإيمان به ﴾ ﴿ إِنَّا نَسِيتَكُمْ ﴾ وتركناكم في العذاب كالمنسي ﴿ وَذُقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أي: العذاب الدائم، الذي لا انقطاع له ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر، والمعاصي.

١٥- ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ أي: وعظوا بها ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ سجدوا لله تواضعاً، وخشوعاً، وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ونزهوا الله عما لا يليق به، وأثنوا عليه حامدين له ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الإيمان، والسجود له.

١٦- ﴿ نَتَجَافَى ﴾ ترتفع، وتتخى ﴿ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ عن الفرش ومواضع النوم. قال سهل: وهب لقوم هبة، وهو أن أذن لهم في مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته، ثم مدحهم عليه، فقال: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يدعون ﴿ دَاعِينَ ﴾ عابدين له ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ مفعول له، أي: لأجل خوفهم من سخطه، وطمعهم في رحمته، وهم المتهجدون. عن النبي ﷺ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل»^(١). وعن ابن عطاء: أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط القربة. يعني: صلاة الليل. وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كان أناس من أصحاب النبي ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة، فنزلت فيهم^(٢). وقيل: هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في طاعة الله تعالى.

١٧- ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾ «ما» بمعنى الذي ﴿ أُخْفِيَ ﴾ على حكاية النفس: حمزة ويعقوب ﴿ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي: لا يعلم أحد ما أعد لهؤلاء من

(١) رواه أحمد (٢٣٢/٥، ٢٤٢).

(٢) رواه ابن مردويه. (حاشية الكشف ٣/٥١٢).

جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّ هُمُ الْعَذَابَ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ

الكرامة ﴿جَزَاءٌ﴾ مصدر، أي: جوزوا ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عن الحسن - رحمه الله -: أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. وفيه: دليل على أَنَّ المراد: الصلاة في جوف الليل؛ ليكون الجزاء وفاقاً.

١٨ - ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي نَوْرِ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ لَا يَسْتَوِي مَعَ مَنْ هُوَ فِي ظِلْمَةِ الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا﴾، أي: كافرًا، وهما محمولان على لفظ ﴿مَنْ﴾، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ على المعنى، بدليل قوله:

١٩ - ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ هي نوعٌ مِنَ الْجَنَّةِ تَأْوِي إِلَيْهَا أَرْوَاحُ الشَّهَدَاءِ. وقيل: هي عن يَمِينِ الْعَرْشِ ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عطاءٌ بِأَعْمَالِهِمْ. والنزل: عطاء النازل، ثُمَّ صَارَ عَامًّا.

٢٠ - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: ملجؤهم، ومنزلهم ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: يقول لهم خزانة النار ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ وهذا دليل على أَنَّ الْمَرَادَ بِالْفَاسِقِ: الْكَافِر، إِذِ التَّكْذِيبُ يُقَابِلُ الْإِيمَانَ.

٢١ - ﴿وَلَنَذِيقَنَّ هُمُ الْعَذَابَ الْأَدْنَىٰ﴾ أي: عذاب الدنيا مِنَ الْأَسْرِ، وما مَحْنُوا بِهِ مِنَ السَّنَةِ سَبْعَ سِنِينَ ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة، نَذِيقُهُم عَذَابَ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْآخِرَةِ. وعن الداراني: الْعَذَابُ الْأَدْنَى: الْخِذْلَانُ، وَالْعَذَابُ الْأَكْبَرُ: الْخُلُودُ فِي النَّارِ. وقيل: الْعَذَابُ الْأَدْنَى: عَذَابُ الْقَبْرِ - ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لَعْلَ الْمَعْذِينَ بِالْعَذَابِ الْأَدْنَى ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عَنِ الْكُفْرِ.

٢٢ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ﴾ وعظ ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: بِالْقُرْآنِ ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ

عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ

عَنْهَا ﴿٢٢﴾ أي: فتولى عنها، ولم يتدبر فيها. و﴿ثم﴾ للاستبعاد، أي: أن الإعراض عن مثل هذه الآيات في وضوحها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تتنزهها؟! استبعاداً لتركه الانتهاز ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ ولم يقل: منه؛ لأنه إذا جعله أظلم كل ظالم، ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم؛ فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام. ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

٢٣ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ من لقاء موسى الكتاب، أو: من لقائك موسى ليلة المعراج، أو: يوم القيامة، أو: لقاء موسى ربه في الآخرة. كذا عن النبي ﷺ ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وجعلنا الكتاب المنزل على موسى هدى لقومه.

٢٤ - ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً﴾ بهزتين: كوفي، وشامي ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس، ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله، وشرائعه ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيتاهم بذلك حين صبروا على الحق وطاعة الله. أو: عن المعاصي ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾^(١): حمزة وعلي، أي: لصبرهم عن الدنيا. وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ التوراة ﴿يُوقِنُونَ﴾ يعلمون علماً لا يخالجه شك.

٢٥ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بين الأنبياء وأممهم، أو: بين المؤمنين والمشركين ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيظهر المحق من المبطّل.

٢٦ - ﴿أَوَلَمْ﴾ الواو للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف، أي: ﴿أ﴾ لم يدع ﴿يَهْدِ﴾ يبين، والفاعل: الله؛ بدليل قراءة زيد عن يعقوب

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة (لَمَّا صَبَرُوا). وهي قراءة من ذكرهم.

لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا
 نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
 يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿نَهَدِ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ لأهل مكة ﴿كَمْ﴾ لا يجوز أن يكون فاعل ﴿يهد﴾؛ لأنَّ ﴿كَمْ﴾ للاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله. وعمله نصب بقوله: ﴿أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ كعاد، وثمود، وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ أي: أهل مكة يَمْشُونَ في متاجرهم على ديارهم، وبلادهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ فيتعظون.

٢٧ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ﴾ نجري المطر، والأنهار ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي: الأرض التي جرز نباتها، أي: قطع، إما لعدم الماء، أو: لأنه رُعي. ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ: جرز، بدليل قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء ﴿زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَمُهُمْ﴾ من عَصْفِهِ ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ من حَبِّهِ ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ بأعينهم، فيستدلوا على إحياء الموتى.

٢٨ - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ النصر، أو: الفصل بالحكومة من قوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. وكان المسلمون يقولون: إِنَّ اللَّهَ سَيَفْتَحُ لَنَا عَلَى الْمَشْرِكِينَ. أو: يفتح بيننا وبينهم. فإذا سمع المشركون قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي: في أي وقت يكون ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنه كائن.

٢٩ - ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: يوم القيامة - وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويوم نصرهم عليهم، أو: يوم بدر، أو: يوم فتح مكة - ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾. وهذا الكلام لا ينطبق جواباً على سؤالهم ظاهراً. ولكن لما كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم، فقليل لهم: لا تستعجلوا به، ولا تستهزئوا، فكأنني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتكم فلم ينفعكم الإيمان واستنظرتكم في إدراك العذاب فلم تنظروا. ومن

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

فسره بيوم الفتح، أو: بيوم بدر، فهو يريد المقتولين منهم، فإنهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند الغرق.

٣٠ - ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾ النصره عليهم، وهلاكهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ الغلبة عليكم، وهلاككم. وكان عليه الصلاة والسلام لا ينام حتى يقرأ: ﴿ألم تنزل﴾ السجدة و﴿تبارك الذي بيده الملك﴾. وقال: «من قرأ: ﴿ألم تنزل﴾ في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام»^(١) وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: سورة ﴿ألم تنزل﴾ هي المانعة، تمنع من عذاب القبر.

* * *

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشف ٣ / ٥١٧).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ

قال أبي بن كعب - رضي الله عنه - لزرر: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قال: ثلاثاً وسبعين، قال: فوالذي يحلف به أبي، إن كانت لتعدل سورة البقرة، أو: أطول. ولقد قرأنا منها آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» نكالاً من الله والله عزيز حكيم. أراد أبي: أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة - رضي الله عنها - فأكلتها الداجن، فمن تأليفات الملاحدة، والروافض.

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وبالهزمة: نافع، أي: يا أيها المخبر عنا، المأمون على أسرارنا، المبلغ خطابنا إلى أحبائنا. وإنما لم يقل: يا محمد، كما قال: ﴿يَا آدَمُ﴾ ﴿يَا مُوسَى﴾ تشريفاً له، وتنوياً بفضلته. وتصريحه باسمه في قوله ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] ونحوه لتعليم الناس بأنه رسول الله ﴿أَتَى اللَّهَ﴾ أثبت على تقوى الله، ودُم عليه، وازدّد منه، فهو باب لا يدرك مداه ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ولا تساعدهم على شيء، واحترس منهم، فإنهم أعداء الله

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ

والمؤمنين. ورؤي: أن أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي، قدموا المدينة بعد قتال أحد، فنزلوا على عبد الله بن أبي، وأعطاهم النبي^(١) الأمان على أن يكلموه. فقالوا له: ارفض ذكر آلهتنا، وقل: إنها تشفع وتنفع. ووازرهم المنافقون على ذلك، فهم المسلمون بقتلهم؛ فنزلت. أي: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ في نقض العهد ﴿وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَالْمُنافِقِينَ﴾ من أهل المدينة فيما طلبوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخبث أعمالهم ﴿حَكِيمًا﴾ في تأخير الأمر بقتالهم.

٢ - ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في الثبات على التقوى، وترك طاعة الكافرين والمنافقين ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي يُوحى إليك ﴿كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لم يزل عالماً بأعمالهم، وأعمالكم. وقيل: إنما جمع لأن المراد بقوله: ﴿اتَّبِعْ﴾ هو وبالياء: أبو عمرو، أي: بما يعمل الكافرون والمنافقون من كيدهم لكم، ومكرهم بكم.

٣ - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وأسند أمرك إليه، وكله إلى تدبيره ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظاً، موكولاً إليه كل أمر. وقال الزجاج: لفظه وإن كان لفظ الخبر، والمعنى: اكتفِ بالله وكيلاً.

٤ - ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجة وأمومة في امرأة، ولا بنوة ودعوة في رجل. والمعنى: أنه تعالى كما لم يجعل لإنسان قلبين - لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضلة غير محتاج إليه، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك،

ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظاناً، موقناً شاكاً، في حالة واحدة - لم يحكم أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أمّاً لرجل وزوجاً له؛ لأنّ الأمّ مخدومة والمرأة خادمة، وبينهما منافاة، وأن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل وابناً له؛ لأن النبوة أصالة في النسب، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير، لئلا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل.

وهذا مثل ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة، وهو رجلٌ من كلب سبي صغيراً، فاشتراه حكيم بن حزام لعمة خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، فطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله ﷺ فأعتقه، وتبناه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج النبي ﷺ زينب - وكانت تحت زيد - قال المنافقون: تزوج محمدٌ امرأة ابنه، وهو ينهى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان قلب معكم وقلب مع أصحابه. وقيل: كان أبو معمر أحفظ العرب، فقيل له: ذو القلين، فأكذب الله قولهم، وضربه مثلاً في الظهار والتبني. والتنكير في ﴿رجل﴾ وإدخال ﴿من﴾ الاستغرافية على ﴿قلين﴾ وذكر الجوف للتأكيد. ﴿اللاتي﴾ بياء بعد الهمزة حيث كان، كوفي، وشامي. ﴿اللاء﴾ نافع، ويعقوب، وسهل. وهي جمع التي ﴿تَظَاهِرُونَ﴾ عاصم، من: ظاهر؛ إذا قال لامرأته: أنت علي كظهر أمي ﴿تَظَاهِرُونَ﴾ عليّ، وحمة، وخلف ﴿تَظَاهِرُونَ﴾ شامي من اظاهر بمعنى تظاهر. غيرهم ﴿تَظْهَرُونَ﴾ من: اظهر بمعنى: تظهر. وعدي بـ ﴿مِنْ﴾ لتضمنه معنى البعد؛ لأنه كان طلاقاً للجاهلية ونظيره: آلى من امرأته لما ضمن معنى التباعد منها عدي بـ ﴿مِنْ﴾. وإلا، فـ ﴿آلى﴾ في أصله - الذي هو معنى حلف وأقسم - ليس هذا بحكمه. والدعي: فعل بمعنى مفعول، وهو الذي يدعى ولداً. وجمع على أفعلاء شاذاً - لأنّ بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقي وأتقياء، وشقي وأشقياء، ولا يكون ذلك في نحو: رمي وسمي - للتشبيه اللفظي ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي: أن قولكم للزوجة: هي أم، وللدعي: هو ابن قول تقولونه بالستكم، لا حقيقة له، إذ الابن يكون بالولادة، وكذا الأم ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: ما هو حق ظاهره وباطنه ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي:

أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ
وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ

سبيل الحق. ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق وهو قوله:

٥ - ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾. وبين أن دعاءهم لأبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل ضمه إلى نفسه، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان ينسب إليه فيقال: فلان بن فلان. ثم انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجمل الطليية، ثم فصل الخبرية عنها، ووصل بينها، ثم فصل الاسمية عنها، ووصل بينها، ثم فصل بالطليية ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبوا إليهم، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، وأولياؤكم في الدين، فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي، ويا مولاي، يريد: الأخوة في الدين، والولاية فيه ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أي: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي، ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهي، أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يا بني! على سبيل الخطأ، وسبق اللسان، ولكن إذا قلتموه متعمدين. و﴿مَا﴾ في موضع الجر عطف على ﴿مَا﴾ الأولى. ويجوز أن يراد العفو عن الخطأ دون العمد على سبيل العموم، ثم تناول لعمومه خطأ التبني وعمده. وإذا وجد التبني، فإن كان المتبني مجهول النسب، وأصغر سنًا منه، ثبت نسبه منه، وعق إن كان عبدًا له. وإن كان أكبر سنًا منه لم يثبت النسب، وعق عند أبي حنيفة - رحمه الله - وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبني، وعق إن كان عبدًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لا يؤاخذكم بالخطأ، ويقبل التوبة من المتعمد.

٦ - ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أحق بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، فعليهم أن يذلوها دونه، ويجعلوها فداءه. أو: هو أولى بهم، أي: أرأف بهم، وأعطف عليهم، وأنفع

وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْلَهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

لهم، كقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَهْ وُقْتُ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وفي قراءة ابن مسعود: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم) وقال مجاهد: كل نبي أبو أمته. ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْلَهُمْ﴾ في تحريم نكاحهن، ووجوب تعظيمهن، وهن فيما وراء ذلك كالإرث وغيره كالأجنبيات، ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وذوو القربات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث. وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثم نسخ ذلك، وجعل التوارث بحق القرابة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه، أو: في اللوح المحفوظ، أو: فيما فرض الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام، أي: الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، وأن يكون لا ابتداء الغاية، أي: أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين أي: الأنصار بحق الولاية في الدين، ومن المهاجرين بحق الهجرة ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ الاستثناء من خلاف الجنس، أي: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز، وهو: أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء، فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث. وعدي ﴿تَفْعَلُوا﴾ بإلى لأنه في معنى: تُسَدُّوا. والمراد بالأولياء: المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: التوارث بالأرحام كان مسطوراً في اللوح.

٧ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ واذكر حين ﴿أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين القيم ﴿وَمِنْكَ﴾ خصوصاً. وقدم رسول الله على نوح ومن بعده؛ لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنهم أولو العزم، وأصحاب الشرائع. فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء قدم عليهم، ولولا ذلك لقد من قدمه زمانه ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا

وثيقاً - وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه - وإنما فعلنا ذلك :

٨ - ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ الله ﴿الصَّدِيقِينَ﴾ أي: الأنبياء ﴿عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ عما قالوه لقومهم. أو: ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ المصدقين للأنبياء عن تصديقهم؛ لأن من قال للصادق: صدقت، كان صادقاً في قوله. أو: ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ الأنبياء ما الذي أجابتهم به أمهم. وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالرسول ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وهو عطف على ﴿أَخَذْنَا﴾ لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أو: على ما دلّ عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّادِقِينَ﴾ كأنه قال: فأتاب المؤمنين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾.

٩ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق، وكان بعد حرب أحد بسنة ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي: الأحزاب. وهم: قريش، وغطفان، وقريظة، وبنو النضير ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: الصبا. قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالْصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالْدُبُورِ»^(١) ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، وكانوا ألقاً، بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاطئة فأخسرتهم، وسَفَتِ التراب في وجوههم. وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فانهزموا من غير قتال. وحين سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم، ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذَّراري والنسوان فَرُفِعُوا فِي الْأَطَامِ^(٢)، واشتدَّ الخوفُ. وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من

(١) رواه أحمد (١/٢٢٨ و٣٢٤) والبخاري (٤١٠٥) ومسلم (٩٠٠).

(٢) «الآطام»: الحصون.

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾

الأحباش، وبنو كنانة، وأهل تهامة، وقائدهم أبو سفيان. وخرج غطفان في ألف ومَنْ تابعهم من أهل نجد، وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن، وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ومضى على الفريقين قريب من شهر، لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة، حتى أنزل الله النصر ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق، والنيات على معاونة النبي ﷺ ﴿بَصِيرًا﴾. وبالياء: أبو عمرو، أي: بما يعمل الكفار من البغي، والسعي في إطفاء نور الله.

١٠ - ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ﴾ بدل من ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ﴾ ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قبل المشرق، بنو غطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب، قريش ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت عن ستنها ومستوى نظرها حيرة، أو: عدلت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ الحنجرة: رأس الغلصمة، وهي: منتهى الحلقوم. والحلقوم: مدخل الطعام والشراب. قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب ربت، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مثل في اضطراب القلوب وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة. روي: أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم. قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»^(١) ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ خطاب للذين آمنوا، ومنهم: بُتت القلوب والأقدام، والضعاف القلوب، والمنافقون. فظن الأولون بالله أنه يتليهم فخافوا الزلل، وضعف الاحتمال. وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكي عنهم. قرأ أبو عمرو وحمة: ﴿الظنون﴾ بغير ألف في الوصل والوقف، وهو القياس. وبالألف فيهما: مدني، وشامي، وأبو بكر إجراء للوصل مجرى الوقف. وبالألف في الوقف: مكِّي، وعلي، وحفص،

(١) رواه أحمد (٢٥/٢) وأبو داود (٥٠٧٤) وابن ماجه (٣٨٧١) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠).

هَٰذَاكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَآهَلُ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ

ومثله: ﴿الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦] و﴿السَّيْلَ﴾ [الأحزاب: ٦٧] زادوها في الفاصلة، كما زادها في القافية من قال:

أَقْبَلُ اللُّومَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا^(١)

وهن كلهن في الإمام بألف.

١١ - ﴿هَٰذَاكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ امتحنوا بالصبر على الإيمان ﴿وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا﴾ وحركوا بالخوف تحريكاً بليغاً.

١٢ - ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ عطف على الأولى ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قيل: هو وصف المنافقين بالواو، كقوله:

إلى الملك القزم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم
وقيل: هم قوم لا بصيرة لهم في الدين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ روي: أن معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً^(٢)! ما هذا إلا وعد غرور.

١٣ - ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين، وهم: عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿يَتَآهَلُ يَثْرِبَ﴾ هو اسم المدينة ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾^(٣) وبضم الميم: حفص، أي: لا قرار لكم - هاهنا - ولا مكان تقومون فيه، أو: تقيمون ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى الكفر. أو: من عسكر رسول الله إلى المدينة ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ أي:

(١) صدر بيت لجريز، وعجزه: وقولي إن أصبت لقد أصابا.

(٢) «فرقاً»: خوفاً.

(٣) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿مَقَامَ﴾ وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وآخرين. معجم القراءات القرآنية (١١٤/٥).

يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُمِّلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

بنو حارثة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ذات عورة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ العورة: الخلل. والعورة: ذات العورة. وهي قراءة ابن عباس: يقال: عور المكان عوراً؛ إذا بدا منه خلل يخاف منه العدو، والسارق. ويجوز أن يكون ﴿عورة﴾ تخفيف عورة. اعتذروا أن بيوتهم عرضة للعدو والشراق، لأنها غير محصنة، فاستأذنوه ليحصنوها، ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار من القتال.

١٤ - ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ المدينة، أو: بيوتهم، من قولك: دخلت على فلان داره ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها، أي: ولو دخلت هذه العساكر المتحيزة التي يفرّون خوفاً منها مدينتهم، أو: بيوتهم من نواحيها كلها، وانثالت^(١) على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين ﴿ثُمَّ سُمِّلُوا﴾ عند ذلك الفرع ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي: الردة والرجعة إلى الكفر، ومقاتلة المسلمين ﴿لَآتَوْهَا﴾ لأعطوها ﴿لَآتَوْهَا﴾ بلا مد: حجازي، أي: لجأوها، وفعلوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا﴾ بإجابتها ﴿إِلَّا بَسِيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف. أو: ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم ﴿إِلَّا بَسِيرًا﴾ فإن الله يهلكهم. والمعنى: أنهم يتعلّلون بإعوار بيوتهم ليفرّوا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤوهم هولاً ورعباً. وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا^(٢) عليهم أرضهم وديارهم، وعرض عليهم الكفر، وقيل لهم: كونوا على المسلمين لسارعوا إليه، وما تعلّلوا بشيء. وما ذاك إلا لمقتهم الإسلام، وحبهم الكفر.

١٥ - ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بنو حارثة من قبل الخندق، أو: من قبل نظرهم إلى الأحزاب ﴿لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ﴾ منهزمين ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ مطلوباً مقتضى، حتى يوفى به.

(١) «انثالت»: انصبّت.

(٢) «كبسوا»: أغاروا فجأة.

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ جِدَادٍ

١٦ - ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إن كان حضر أجليكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر وفرتم لم تتمتعوا في الدنيا إلا قليلاً، وهو مدة أعماركم وذلك قليل. وعن بعض الروائية: أنه مر بحائط مائل فأسرع، فتليت له هذه الآية، فقال: ذلك القليل نطلب.

١٧ - ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بما أراد الله إنزاله بكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ في أنفسكم من قتل، أو: غيره ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: إطالة عمر في عافية وسلامة. أي: من يمنع الله من أن يرحمكم إن أراد بكم رحمة؛ لما في العصمة من معنى المنع ﴿وَلَا يَحِذُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ناصراً.

١٨ - ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ أي: من يعوق عن نصره رسول الله ﷺ، أي: يمنع، وهم المنافقون ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في الظاهر من المسلمين ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: قربوا أنفسكم إلينا، ودعوا محمداً. وهي لغة أهل الحجاز، فإنهم يسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما تميم فيقولون: هلم يا رجل، وهلموا يا رجال. وهو صوت سمي به فعل متعد، نحو: أحضر، وقرب ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾ الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً قليلاً، أي: يحضرون ساعة رياء، ويقفون قليلاً مقدار ما يرى شهودهم، ثم ينصرفون.

١٩ - ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح، وهو: البخيل. نصبت على الحال من الضمير في ﴿يَأْتُونَ﴾، أي: يأتون الحرب بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالظفر والغنيمة ﴿فَإِذَا جَاءَ لَخَوْفُ﴾ من قبل العدو، أو منه عليه الصلاة والسلام ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في تلك الحالة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يميناً وشمالاً ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً، وخوراً، ولو إذا بك ﴿فَإِذَا ذَهَبَ لَخَوْفُ﴾ زال ذلك الخوف، وأمنوا، وحيزت الغنائم ﴿سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ جِدَادٍ﴾

أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ

خاطبوكم مخاطبة شديدة، وأذكركم بالكلام. خطيب مَسْلَق: فصيح، ورجل مَسْلَق: مبالغ في الكلام، أي: يقولون: وفروا قسمتنا، فإننا قد شاهدناكم، وقاتلنا معكم، ويمكننا غلبتم عدوكم ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: خاطبوكم أشحة على المال، والغنيمة. و﴿أَشْحَةً﴾ حال من فاعل ﴿سَلَفُوكُمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أبطل بإضمارهم الكفر ما أظهروه من الأعمال ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ إحباط أعمالهم ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً.

٢٠ - ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: لجنبتهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا، ولم ينصرفوا، مع أنهم قد انصرفوا ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كَرَّة ثانية ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ البادون: جمع البادي، أي: يتمنى المنافقون لجنبتهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية، حاصلون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا مما فيه المؤمنون من القتال ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ عن أخباركم، وعمّا جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان قتال ﴿مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء، وسمعة.

٢١ - ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ بالضم حيث كان؛ عاصم - أي: قدوة. وهو: المؤتسى به، أي: المُقْتَدَى به - كما تقول: في البيضة عشرون مناحديد، أي: هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد، أو: فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها حيث قاتل بنفسه ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: يخاف الله، ويخاف اليوم الآخر. أو: يأمل ثواب الله، ونعيم اليوم الآخر. قالوا: ﴿لِمَنْ﴾ بدل من ﴿لكم﴾. وفيه ضعف؛ لأنه لا يجوزُ البدل من ضمير المخاطب. وقيل: ﴿لِمَنْ﴾ يتعلق بحسنة، أي: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ كائنة ﴿لِمَنْ كَانَ﴾

وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ

﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ أي: في الخوف والرجاء، والشدة والرخاء.

٢٢ - ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ وعدمهم الله أن يُزْلزلوا حتى يستغيثوه، ويستنصروه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. فلما جاء الأحزاب، واضطربوا، ورعبوا الرعب الشديد ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وعلموا أن الجنة والنصرة قد وجبا لهم. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «إِنَّ الْأَحْزَابَ سَائِرُونَ إِلَيْكُمْ فِي آخِرِ تِسْعِ لَيَالٍ أَوْ عَشْرٍ». فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك^(١). و﴿هَذَا﴾ إشارة إلى الخطب، أو: البلاء ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوا من اجتماع الأحزاب عليهم، ومجيئهم ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله، ويمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاياه وأقداره.

٢٣ - ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: فيما عاهدوه عليه. فحذف الجار كما في المثل: «صَدَقَنِي سَنٌ بَكَرِهِ»^(٢) أي: صدقني في سنٍ بكره بطرح الجار، وإيصال الفعل إليه. نَذَرَ رجالٌ من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يُستشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة، وسعد بن زيد، وحزمة، ومصعب، وغيرهم ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي: مات شهيداً كحزمة، ومصعب - رضي الله عنهما -. وقضاء النحب: صار عبارة عن الموت؛ لأن كلَّ حيٍّ من المحدثات لا بدَّ له أن يموت، فأكنه نَذَرَ لازم في رقبته، فإذا مات فقد قضى نَحْبَهُ، أي: نذره ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ﴾

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشف ٣/ ٥٣١).

(٢) وأصله: أن رجلاً ساوم رجلاً ببيعير، وسأله عن سنّه، فزعم أنه بازل - أي: عمره تسع سنين - فبينما هما كذلك نَفَرَ، فدعاه: هِرْعَ هِرْعَ! فسكن. وهي كلمة تسكن بها الصغار، فقال المشتري ذلك، يريد: أنه صدق في سنّه الآن لما دعاه بتلك الكلمة، وقد كان كاذباً. (المستقصى ٢/ ١٤٠).

وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ

الموت، كعثمان، وطلحة ﴿وَمَا بَدَلُوا﴾ العهد ﴿تَبْدِيلًا﴾ ولا غيره، لا المُسْتَشْهَد، ولا من ينتظر الشهادة. وفيه تعريض لمن بدّلوا من أهل النفاق ومرض القلوب، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْآذِينَ﴾ [الأحزاب: ١٥].

٢٤ - ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ بوفائهم العهد ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ﴾ غذا لم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ بقبول التوبة ﴿رَحِيمًا﴾ بغفو الحوبة. جُعل المنافقون كأنهم قصدوا عاقبة السوء، وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم؛ لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما، والسعي في تحصيلها.

٢٥ - ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأحزاب ﴿بِعَيْثِهِمْ﴾ حال. أي: مغيظين، كقوله: ﴿تَبَّتْ يَالُذَّهَنَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ ظفراً، أي: لم يظفروا بالمسلمين. وسماه خيراً بزعمهم. وهو حال، أي: غير ظافرين ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح، والملائكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ قادراً، غالباً.

٢٦ - ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ عاونوا الأحزاب ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني قريظة ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم. والصيضة: ما تُحصن به. روي: أن جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله ﷺ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا سلاحهم، على فرسه الحيزوم، والغبار على وجه الفرس وعلى السرج. فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: من متابعة قريش. [فجعل رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه الفرس

وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ
قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ إِنَّ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكَ

وعن سرجه^(١). فقال يا رسول الله! [إن الملائكة لم تضع السلاح]^(٢). إن الله يأمرك بالمشير إلى بني قريظة، وأنا عاهدٌ عليهم؛ فإن الله دأبهم دق البيض على الصفا، وإنهم لكم طعمة. فأذن في الناس: أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة. فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة. فقال لهم رسول الله ﷺ: «تزلون على حكمي؟! فابوا. فقال: «على حكم سعد بن معاذ؟! فرضوا به. فقال سعد: حكمتُ فيهم: أن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم ونسأؤهم. فكبر النبي ﷺ وقال: «لقد حكمتُ بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». ثم استنزلهم، وخندق في سوق المدينة خندقاً، وقدمهم فضرب أعناقهم، وهم من ثمانئة إلى تسعمئة. وقيل: كانوا ستمئة مقاتل وسبعمئة أسير^(٣) ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف. وبضم العين: شامي، وعلي ﴿فَرِيقًا﴾ ونصب بقوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء، والذراري.

٢٧ - ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: المواشي، والنقود، والأمتعة. روي: أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال لهم: «إنكم في منازلكم»^(٤) ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا﴾ بقصد القتال، وهي مكة، أو: فارس والروم، أو: خيبر، أو: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ قادراً.

٢٨ - ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ إِنَّ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: السعادة، وكثرة الأموال ﴿فَتَعَالَيْكَ﴾ أصل تعال: أن يقوله من في المكان

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٤) وما بعدها.

(٤) أخرجه الواقدي. (حاشية الكشف ٣/ ٥٣٤).

أُمِّتَكُمْ وَأَسْرَحَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يٰٓيَسَّاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ
بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ

المرتفع لمن في المكان المستوطىء، ثم كثر حتى استوت في استعماله
الأمكنة. ومعنى ﴿تعالين﴾: أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين، ولم
يرد نهوضهن إليه بأنفسهن، كقوله: قام يهددني ﴿أُمِّتَكُمْ﴾ أعطكن متعة
الطلاق. وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوضة قبل الوطاء ﴿وَأَسْرَحَكُمْ﴾
وأطلقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لا ضرار فيه.

أردن شيئاً من الدنيا من ثياب، وزيادة نفقة، وتغايير، فغم ذلك رسول الله
ﷺ فنزلت. فبدأ بعائشة - رضي الله عنها - وكانت أحبهن إليه، فخيرها، وقرأ
عليها القرآن، فاختارت الله، ورسوله، والدار الآخرة، فروي الفرح في وجه
رسول الله ﷺ، ثم اختارت جميعهن اختيارها. وروي: أنه قال لعائشة: «إني
ذاكر لك امرأ، عليك ألا تغجلي فيه حتى تستأمري أبويك». ثم قرأ عليها
القرآن. فقال: «أفي هذا أستمأمر أبوي! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»^(١).

وحكم التخيير في الطلاق: أنه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترت
نفسي، أن تقع تطليقة بائنة. وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء. وعن علي
- رضي الله عنه -: إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية، وإن اختارت نفسها
فواحدة بائنة.

٢٩ - ﴿وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ
مِنْ: للبيان، لا للتبعض ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣٠ - ﴿يٰٓيَسَّاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ سيئة بليغة في القبح ﴿مُبِينَةٍ﴾
ظاهر فحشها. مِنْ: بين، بمعنى: تبين. ويفتح الياء: مكّي، وأبو بكر. قيل:
هي عصيانهن رسول الله ﷺ، ونشوزهن. وقيل: الزنى، والله عاصم رسول
من ذلك ﴿يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾ ﴿يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾ مكّي، وشامي،

ضَعُفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى

﴿يُضَعَّفُ﴾: أبو عمرو، ويزيد، ويعقوب ﴿ضَعُفَيْنِ﴾ ضعفي عذاب غيرهن من النساء؛ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ؛ ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبح؛ ولذا فضل حد الأحرار على العبيد، ولا يُرجم الكافر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي: تضعيف العذاب عليهن ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هينا.

٣١ - ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الأقنوت: الطاعة ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا﴾ وبالياء فيهما: حمزة، وعلي ﴿أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مثلي ثواب غيرهما ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ جليل القدر، وهو: الجنة.

٣٢ - ﴿يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، إذا نُقِصَتِ أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل. وأحد في الأصل بمعنى وحيد، وهو: الواحد. ثم وضع في النفي العام مستويا فيه المذكر والمؤنث، والواحد وما وراءه ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ إن أردتن التقوى، أو: إن كنتن متقيات ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب، فلا تجتن بقولكن خاضعا، أي: ليتنا خشنا مثل كلام المربيات ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب، على جواب النهي ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ ريبة، وفجور ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ حسنا مع كونه خشنا.

٣٣ - ﴿وَقَرْنَ﴾ مدني، وعاصم غير هبيرة، وأصله: إقررن، فحذفت الراء تخفيفا، وألقيت فتحتها على ما قبلها، أو: من: قار يقار، إذا اجتمع. والباقون ﴿قَرْنَ﴾ من: وقر، وقاراً، أو: من قر، يقر، حذفت الأولى من راء، أي: إقررن فراراً من التكرار، ونقلت كسرتها إلى القاف ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بضم الباء، بصري، ومدني، وحفص ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي: القديمة.

وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْتُ مَا يُثَلَّى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ

والتبرج: التبختر في المشي، أو: إظهار الزينة. والتقدير: ﴿لا تبرجن﴾ تبرجا مثل تبرج النساء في الجاهلية الأولى، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم، أو: ما بين آدم ونوح - عليهما السلام - أو: زمن داود وسليمان - عليهما السلام -. والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد - عليهما السلام -. أو: الجاهلية الأولى الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ خص الصلاة والزكاة بالأمر، ثم عم بجميع الطاعات تفضيلاً لهما؛ لأن من واطب عليهما جرتاه إلى ما وراءهما ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ الإثم ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نصب على النداء، أو: على المدح. وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته. وقال: ﴿عنكم﴾ لأنه أريد الرجال والنساء من آله ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من نجاسة الآثام. بين أنه إنما نهانهم، وأمرهم، ووعظهم؛ لثلاث يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم، وليتصوتوا عنها بالتقوى. واستعار للذنوب الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما المحسنات فالعرض منها نقي كالثوب الطاهر. وفيه تنفير لأولي الأبواب عن المناهي، وترغيب لهم في الأوامر.

٣٤- ﴿وَأَذْكُرْتُ مَا يُثَلَّى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾

أي: السنة، أو: بيان معاني القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالماً بغوامض الأشياء ﴿خَبِيرًا﴾ عالماً بحقائقها، أي: هو عالم بأفعالكن، وأقوالكن، وأحوالكن، فاحذرن مخالفة أمره، ونهيه، ومعصية رسوله.

٣٥- ولما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء؟! فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ المسلم: الداخل في السلم بعد الحرب، المنقاد الذي لا يعاند، أو: المفوض أمره إلى الله، المتوكل عليه، من

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

أسلم وجهه إلى الله ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بالله ورسوله، وبما يجب أن يصدق به ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ﴾ القائمين بالطاعة ﴿وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ في النيات، والأقوال، والأعمال ﴿وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على الطاعات، وعن السيئات ﴿وَالْخَاشِعِينَ﴾ المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أو: الخائفين ﴿وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً ﴿وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً. وقيل: من تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين، ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين ﴿وَالْخَافِضِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عما لا يحل ﴿وَالْخَافِضَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ بالتسبيح، والتحميد، والتلهيل، والتكبير، وقراءة القرآن، والاشتغال بالعلم من الذكر. والمعنى: ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ فروجهن ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾ الله فحذف لدلالة ما تقدم عليه. والفرق بين عطف الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين: أنَّ الأول نظير قوله: ﴿تُبَيَّنَتْ وَأُبْكَرَتْ﴾ [التحریم: ٥] في أنهما جنسان مختلفان، واشتركا في حكم واحد، فلم يكن بد من توسط العاطف بينهما. وأما الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع. ومعناه: أنَّ الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعاتهم.

٣٦ - خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أئمة على مولاه زيد بن حارثة فأبت، وأبى أخوها عبد الله. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وما صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: رسول الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور، ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(١) أن يختاروا من أمرهم

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿تَكُونُ﴾ بالتاء، وهي قراءة: ابن =

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ

ما شاؤوا. بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلوّاً لاختياره، فقالوا: رضينا يا رسول الله! فأنكحها إياه، وساق عنه إليها مهرها. وإنما جمع الضمير في ﴿لهم﴾ وإن كان من حقه أن يوحد؛ لأنّ المذكورين وقعا تحت النفي، فعما كلّ مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ. و﴿يكون﴾ بالياء: كوفي. والخيرة: ما يتخير. ودلّ ذلك على أنّ الأمر للوجوب ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ فإن كان العصيان عصيان رذ، وامتناع عن القبول، فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعلٍ مع قبول الأمر، واعتقاد الوجوب، فهو ضلال خطأ وفسق.

٣٧ - ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو أجلّ النعم ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق والتبني - فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله. وهو زيد بن حارثة: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زينب بنت جحش، وذلك: أنّ رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه، فوقع في نفسه^(١)، فقال: «سبحان الله مقلب القلوب». وذلك أنّ نفسه كانت تحفو عنها قبل ذلك لا تريدها، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطن، وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله، فقال لرسول الله ﷺ: إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: «مالك؟ أراك منها شيء؟» قال: لا والله ما رأيت منها إلاّ خيراً! ولكنها تتعظم عليّ لشرفها، وتؤذي، فقال له: أمسك عليك زوجك ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ فلا تطلقها - وهو نهي تنزيه إذ الأولى ألا يطلق، أو: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ فلا تدمها بالنسبة إلى الكبر، وأذى الزوج ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تخفي في نفسك نكاحها إن طلقها زيد، وهو الذي أبداه الله تعالى. وقيل: الذي أخفى في نفسه

= كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وآخرين. معجم القراءات القرآنية (١٢٥/٥).

(١) هذا كلام باطل، ولا أصل له، ويتنافى مع منصب النبوة، فهي ابنة عمته يعرفها ﷺ من قدم، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل تزويجه إياها من زيد.

وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ

تعلّق قلبه بها، ومودة مفارقة زيد إياها. والواو في ﴿وتخفي في نفسك﴾، ﴿وتخشى الناس﴾ أي: قاله الناس بأنه نكح امرأة ابنه ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ واور الحال، أي: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة ألا يمسكها؛ وتخفي خاشياً قاله الناس، وتخشى الناس حقيقة في ذلك بأن تخشى الله. وعن عائشة - رضي الله عنها -: لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أوحى إليه لكنتم هذه الآية ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾ الوطر: الحاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة، قيل: قضى منه وطره. والمعنى: ﴿فلما﴾ لم يبق فيها حاجة وتقاصرت عنها همته، وطلّقها، وانقضت عدتها ﴿زوّجناكها﴾. روي: أنها لما اعتدت قال رسول الله ﷺ لزيد: «ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، اخطب عليّ زينب». قال زيد: فانطلقت، وقلت: يا زينب! أبشري، إنّ رسول الله ﷺ يخطبك، وفرحت، وتزوجها رسول الله ﷺ، ودخل بها، وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها: ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم حتّى امتدّ النهار^(١) ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً﴾ قيل: قضاء الوطر: إدراك الحاجة، وبلوغ المراد منه ﴿وكان أمر الله﴾ الذي يريد أن يكونه ﴿مفعولاً﴾ مكتوباً لا محالة. وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ﷺ زينب.

٣٨ - ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ أحلّ له، وأمره، وهو نكاح زينب امرأة زيد. أو قدر له من عدد النساء ﴿سنة الله﴾ اسم موضوع موضع المصدر - كقولهم: ثرباً، وجندلاً - مؤكّد لقوله: ﴿ما كان على النبي من حرج﴾، كأنه قيل: سنّ الله ذلك سنة في الأنبياء الماضين، وهو: ألاّ يُحرّج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم، ووسّع عليهم في باب النكاح وغيره. وقد

(١) ذكره الثعلبي بغير سند. (حاشية الكشف ٣ / ٥٤١).

فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

كانت تحتهم المهائر^(١) والسراري، وكانت لداود مئة امرأة، وثلاثمئة سرية، ولسليمان ثلاثمئة حرة وسبعمئة سرية! ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ في الأنبياء الذين مضوا من قبله ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ قضاء مقضياً، وحكماً مبتوتاً. ولا وقف عليه إن جعلت :

٣٩ - ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ بدلاً من ﴿الذين﴾ الأول. وقف إن جعلته في محل الرفع، أو: النصب على المدح، أي: هم ﴿الذين يبلغون﴾ أو: أعني: ﴿الذين يبلغون﴾ ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ وصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله، تعريض بعد التصريح في قوله: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف. أو: محاسباً على الصغيرة والكبيرة، فكان جديراً بأن يُخْشَى منه.

٤٠ - ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أي: لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر، والنكاح. والمراد: من رجالكم البالغين. والحسن والحسين: لم يكونا بالغين حينئذ. والطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم: توفوا صبياناً ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾. وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة، والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمكم. والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بفتح التاء: عاصم بمعنى الطابع، أي: آخرهم، يعني: لا ينبت أحد بعده. وعيسى ممن نبيء قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد ﷺ، كأنه بعض أمته. وغيره بكسر التاء بمعنى الطابع، وفاعل الختم. وتقويته قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه -: (ولكن نبياً ختم النبيين) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

(١) المهائر: جمع المهيضة، وهي الحرائر، ضد السراري.

يَتَّابِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ يَحْيِيهِمْ يَوْمَ

٤١ ، ٤٢ - ﴿يَتَّابِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء، وأكثروا ذلك ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار، وخصاً بالذكر؛ لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة: قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والفعالان - أي: اذكروا الله، وسبحوه - موجّهان إلى البكرة والأصيل، كقولك: صم، وصل يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر. وإنما اختص من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة إبانة لفضله على سائر الأذكار؛ لأن معناه: تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات. وجاز أن يُراد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات والعبادات، فإنها من جملة الذكر. ثم خص من ذلك التسبيح ﴿بُكْرَةً﴾ وهي صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ وهي صلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، أو: صلاة الفجر، والعشاءين.

٤٣ - ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لما كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده، استعير لمن ينعطف على غيره حنواً عليه، وترؤفاً، كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأة في حنوها على ولدها. ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف. ومنه قولهم: صلى الله عليك، أي: ترحم عليك، وترأف. والمراد بصلاة الملائكة: قولهم: اللهم صل على المؤمنين. جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة. والمعنى: هو الذي يترحم عليكم، وترأف حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار الذكر، والتوفر على الصلاة، والطاعة ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ هو دليل على أن المراد بالصلاة: الرحمة. ورُوي: أنه لما نزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال أبو بكر: ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه، فنزلت:

٤٤ - ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: تحية الله لهم ﴿يَوْمَ

يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ
فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

يَلْقَوْنَهُ ﴿٤٤﴾ يرونه ﴿سَلَامٌ﴾ يقول الله تبارك وتعالى: السلام عليكم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا﴾ يعني: الجنة.

٤٥ - ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ على من بعثت إليهم، وعلى تكذيبهم
وتصديقهم، أي: مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم، كما يقبل قول الشاهد
العدل في الحكم. وهو حال مقدرة، كما تقول: مررت برجل معه صقر صائداً
به غداً، أي: مقدراً به الصيد غداً ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾
للكافرين بالنار.

٤٦ - ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ بأمره، أو: تيسيره - والكل منصوب على الحال
- ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ جلى به الله ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يُجلى
ظلام الليل بالسراج المنير، ويهتدى به. والجمهور على أنه القرآن. فيكون
التقدير: وذا سراج منير، أو: وتالياً سراجاً منيراً. ووصف بالإنارة؛ لأن من
السرج مالا يضيء إذا قل سليطه، ودقت فتيلته. أو: ﴿شاهداً﴾ بوحدانيتنا
﴿ومبشراً﴾ برحمتنا، ﴿ونذيراً﴾ بنقمتنا، ﴿وداعياً إلى﴾ عبادتنا، ﴿وسراجاً﴾
وحجة ظاهرة لحضرتنا.

٤٧ - ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ثواباً عظيماً.

٤٨ - ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ المراد به: التهيج، والدوام والثبات
على ما كان عليه ﴿وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ هو بمعنى: الإيذاء. فيحتمل أن يكون مضافاً
إلى الفاعل، أي: اجعل إيدائهم إيتاك في جانب، ولا تبال بهم، ولا تخف من
إيذائهم. أو: إلى المفعول، أي: دع إيذاءك إيتاهم مكافأة لهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ﴾ فإنه يكفيهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ وكفى به مفوضاً إليه.

وقيل: إن الله تعالى وصفه بخمسة أوصاف، وقابل كلاً منها بخطاب

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

مناسب له. قابل الشاهد بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه يكون شاهداً على أمته، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضل الكبير؛ والمبشّر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين؛ لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين، وهو مناسبٌ للبشارة؛ والتذير بـ ﴿دَعِ أَذَاهُمْ﴾ لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر، والأذى لا بدّ له من عقاب عاجل، أو: آجل، كانوا منذرين به في المستقبل؛ والداعي إلى الله بتيسيره بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ لأنّ من توكل على الله يسر عليه كلّ عسير، والسراج المنير بالاكْتِفَاءَ به وكَيْلًا؛ لأنّ من أناره الله برهاناً على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفى به عن جميع خلقه.

٤٩ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: تزوجتم. والنكاح هو: الوطء في الأصل. وتسمية العقد نكاحاً لملاسته له من حيث إنه طريق إليه، كتسمية الخمر إثماً لأنها سببه وكقول الراجز:

أَسْنَمَةُ الْآبَالِ^(١) فِي سَحَابِهِ

سَمَّى الماء بأسنمة الآبال؛ لأنه سبب سمن الآبال، وارتفاع أسنمته. ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلّا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة، والمماسّة، والقربان، والتغشي، والإتيان. وفي تخصيص المؤمنات - مع أنّ الكتابيات تساوي المؤمنات في هذا الحكم - إشارة إلى أنّ الأولى بالمؤمن أن ينكح مؤمنة ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ والخلوة الصحيحة كالمنس ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ فيه دليل على أنّ العدة تجب على النساء للرجال. ومعنى ﴿تَعُدُّوهنَّ﴾ تستوفون عددها، تفتعلون، من: العدّ ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ والمتعة تجب للتي طلقها قبل الدخول بها، ولم يُسم لها مهراً دون غيرها ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: لا تمسكوهنّ ضراراً، وأخرجوهنّ من منازلكنّ؛ إذ لا عدة لكم عليهنّ.

(١) «الآبال»: جمع الإبل.

يَكَايُهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتَ أَجُورَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عِمَكَ وَنَبَاتٍ عَمَلِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَلْلِكَ النَّبِيِّ هَاجِرَن مَعَكَ وَأَمْرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً

٥٠ - ﴿يَكَايُهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتَ أَجُورَهُمْ﴾ مهورهن؛ إذ المهر أجر على البضع. ولهذا قال الكرخي: إنَّ النكاح بلفظ الإجارة جائز. وقلنا: التأييد من شرط النكاح، والتأقيت من شرط الإجارة، وبينهما منافاة. وإيتاؤها: إعطاؤها عاجلاً، أو: فرضها وتسميتها في العقد ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ وهي صفة، وجويرية، فأعتقهما، وتزوجهما ﴿وَنَبَاتٍ عِمَكَ وَنَبَاتٍ عَمَلِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَلْلِكَ﴾ والنبي هاجرَ مَعَكَ ﴿وَمَعَ﴾ ليس للقران، بل لوجودهما فحسب، كقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٤٤] وعن أم هانئ بنت أبي طالب: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت، فعذرني، فأنزل الله هذه الآية فلم أحلَّ له لأنِّي لم أهاجر معه ^(١) ﴿وَأَمْرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها، ولا تطلب مهرًا من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك؛ ولذلك نكرها. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو بيان حكم في المستقبل، ولم يكن عنده أحدٌ منهنَّ بالهبة. وقيل: الواهبة نفسها: ميمونة بنت الحارث، أو: زينب بنت خزيمة، أو: أم شريك بنت جابر، أو: خولة بنت حكيم. وقرأ الحسن: ﴿أَنْ﴾ بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام. وقرأ ابن مسعود - رضي الله عنه - بغير ﴿إِنْ﴾ ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ استنكاحها: طلب نكاحها، والرغبة فيه. وقيل: نكح واستنكح بمعنى. والشرط الثاني تقييد للشرط الأول. شرط في الإحلال هبتها نفسها. وفي الهبة: إرادة استنكاح رسول الله ﷺ، كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها؛ أو إرادته هي: قبول الهبة، وما به تتم. وفيه دليل جواز النكاح بلفظ الهبة؛ لأنَّ رسول الله ﷺ وأُمته سواء في الأحكام، إلَّا فيما خصَّه الدليل ﴿خَالِصَةً﴾ بلا مهر - حال من الضمير في

لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ

﴿وهبت﴾ أو: مصدر مؤكد- أي: خلص لك إحلال ما أحللنا لك ﴿خالصة﴾ بمعنى خلوصاً. والفاعلة في المصادر غير عزيز، كالعافية، والكاذبة ﴿لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يجب المهر لغيرك، وإن لم يسمه، أو: نفاه. عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله لِلنَّبِيِّ: ﴿إن أراد النبي﴾. ثم رجع إلى الخطاب ليؤذن أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوة. وتكريره تفخيم له ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: ما أوجبنا من المهور على أمتك في زواجهم، أو: ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك. وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ضيق. متصل بـ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وقوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ جملة اعتراضية ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ بالتوسعة على عباده.

٥١ - ﴿تَرْجِي﴾ بلا همز. مدني، وحمة، وعلي، وخلف، وحفص. وبهمز. غيرهم: تؤخر ﴿مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ﴾ تضم، يعني: ترك مضاجعة من تشاء منهم، وتضاجع من تشاء، أو: تطلق من تشاء، وتمسك من تشاء، أو: لا تقسم لأيتهم شئت، وتقسم لمن شئت، أو: ترك تزوج من شئت من نساء أمتك، وتزوج من شئت. وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض؛ لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك، فإذا أمسك ضاجع أو ترك، وقسم أو لم يقسم. وإذا طلق وعزل فإما أن يخلّي المعزولة لا يبتغيها أو: يبتغيها، ورؤي: أنه أرجى منهم: جويرية، وسودة، وصفية، وميمونة، وأم حبيبة - رضي الله عنهم -. فكان يقسم لهم ما شاء كما شاء. وكانت ممن آوى إليه: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب - رضي الله عنهم -. أرجى خمساً، وآوى أربعاً^(١). ورؤي: أنه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن جرير، وعبد الرزاق عن معمر، كلاهما عن منصور، عن أبي رزين، وهذا مرسل. (حاشية الكشف ٥٥٢/٣).

وَمِنْ أَمْنَيْتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزِبَ
وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ

كان يسوي مع ما أطلق له، وخير فيه إلا سودة، فإنها وهبت ليلتها لعائشة،
وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساءك ﴿وَمِنْ أَمْنَيْتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكَ﴾ أي: ومن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن
نفسك بالإرجاء، فلا ضيق عليك في ذلك، أي: ليس إذا عزلتها لم يجز لك
ردّها إلى نفسك. و﴿من﴾: رفع بالابتداء، وخبره: ﴿فلا جناح﴾ ﴿ذلك﴾
التفويض إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزِبَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ
كُلُّهُنَّ﴾ أي: أقرب إلى قرّة عيونهن، وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً؛ لأنهن
إذا علمن أنّ هذا التفويض من عند الله اطمأنت نفوسهن، وذهب التغاير،
وحصل الرضا، وقرّت العيون. ﴿كلهن﴾ بالرفع تأكيد لنون ﴿يرضين﴾ وقرئ
(ويرضين كلهن بما آتيتهن) على التقديم. وقرئ شاذّاً ﴿كلهن﴾ بالنصب تأكيداً
لهن في ﴿آتيتهن﴾ ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر
الله من ذلك، وفوض إلى مشيئة رسوله ﴿وكان الله عليماً﴾ بذات الصدور
﴿حليماً﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يتقي ويحذر.

٥٢ - ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ وبالنساء: أبو عمرو، ويعقوب، وغيرهما بالتذكير؛
لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقي، وإذا جاز بغير فصل: في ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾
[يوسف: ٣٠] فمع الفصل أجوز ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد التسع؛ لأنّ التسع نصاب
رسول الله ﷺ من الأزواج، كما أنّ الأربع نصاب أمته ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾
بالطلاق. والمعنى: ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً آخر بكلهن، أو بعضهن،
كرامة لهن، وجزاء على ما اخترن، ورضين، وقصر رسول الله ﷺ عليهن، وهنّ
التسع التي مات عنهنّ: عائشة، حفصة، أمّ حبيبة، سودة، أمّ سلمة، صفية،
ميمونة، زينب بنت جحش، جويرية. و﴿من﴾ في ﴿من أزواج﴾ لتأكيد التفي،
وفائدته: استغراق جنس الأزواج بالتحريم ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في موضع

إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ

الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تبدّل﴾ أي: تبدّل، لا من المفعول الذي هو ﴿من أزواج﴾ لتوغّله في التنكير، وتقديره: مفروضاً إعجابك بهن. وقيل: هي أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب، فإنّها ممن أعجبه حسنهن. وعن عائشة، وأم سلمة - رضي الله عنهما -: ما مات رسول الله ﷺ حتّى أحلّ له أن يتزوَّج من النساء ما شاء. يعني: أنّ الآية نسخت، ونسخها إمّا بالسنة، أو: بقوله: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ﴾ استثنى ممن حرم عليه الإمام، ومحلّ ﴿ما﴾ رفع بدل من ﴿النساء﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ حافظاً. وهو تحذير عن مجاوزة الحدود.

٥٣ - ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ ﴿أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾: في موضع الحال، أي: ﴿لا تدخلوا﴾ إلا مأذوناً لكم. أو: في معنى الطّرف، تقديره: وقت أن يؤذن لكم. و﴿غير ناظرين﴾: حال من ﴿لا تدخلوا﴾. وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً. كأنّه قيل: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا ﴿غير ناظرين﴾، أي: غير منتظرين. وهؤلاء قوم كانوا يتحيّنون طعام رسول الله ﷺ، فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه. ومعناه: ﴿لا تدخلوا﴾ يا هؤلاء المتحيّنون للطعام ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾. وإنّي الطعام: إدراكه. يقال: أتى الطعام إنى، كقولك: قلاه قلبى. وقيل: إناه: وقته، أي: ﴿غير ناظرين﴾ وقت الطعام، وساعة أكله. وروى: أنّ النّبي ﷺ أولم على زينب بتمر وسويق وشاة، وأمر أنساً أن يدعو بالناس، فترادفوا أفواجاً، يأكل فوج فيخرج، ثم يدخل فوج، إلى أن قال: يا رسول الله! دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: «ارفعوا طعامكم» وتفرّق الناس، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون، فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا، فطاف رسول الله ﷺ بالحجرات، وسلّم عليهنّ، ودعون له، ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون.

وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا

وكان رسول الله ﷺ شديد الحياء فتولى، فلما رأوه متولين خرجوا، فرجع، ونزلت ^(١) ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ فتفرقوا ﴿وَلَا مُسْتَقْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ هو مجرور معطوف على ﴿ناظرين﴾ أو: منصوب، أي: ﴿ولا﴾ تدخلوها ﴿مستأنسين﴾. نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني: أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يُستحيا منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال قيل: ﴿لا يستحي من الحق﴾ أي: لا يمتنع منه، ولا يتركه ترك الحي منكم. وهذا أدب أدب الله به الثقاء. وعن عائشة - رضي الله عنها -: حسبك في الثقاء أن الله تعالى لم يحتملهم، وقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء رسول الله ﷺ لدلالة بيوت النبي؛ لأن فيها نساءه ﴿مَتَاعًا﴾ عارية، أو: حاجة ﴿فَسْأَلُوهُنَّ﴾ المتاع ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من خواطر الشيطان، وعوارض الفتن. وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال، وكان عمر - رضي الله عنه - يحب ضرب الحجاب عليهن، ويود أن ينزل فيه، وقال: يا رسول الله! يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فنزلت ^(٢). وذكر: أن بعضهم قال: أنهى أن نكل بنات عمنا إلا من وراء حجاب؟! لئن مات محمد - صلى الله عليه وسلم - لاتزوجن فلانة، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾. أي: وما صَحَّ لكم إيذاء رسول الله ﷺ، ولا نكاح أزواجه من

(١) رواه أحمد (٣/ ٩٨ و ١٠٥ و ٢٠٠) والبخاري (٤٧٩٤) ومسلم (١٤٢٨) (٨٧ و ٨٩ و ٩٠).

(٢) رواه البخاري (٤٧٩٠).

إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ كَانُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ

بعد موته ^(١) ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ذنباً عظيماً.

٥٤ - ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾ من أذى النبي ﷺ، أو: من نكاحهن ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ في أنفسكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعاقبكم به.

٥٥ - ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله! أو نحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ أي: نساء المؤمنات ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي: لا إثم عليهن في ألا يحتجن من هؤلاء. ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاءت تسمية العم أباً، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ءَاتَاكَ إِزْرَهُمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وإسماعيل عم يعقوب - عليهم السلام.. وعبيدهن عند الجمهور كالأجانب. ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب، وفي هذا النقل فضل تشديد، كأنه قيل: ﴿وَآتَيْنَ اللَّهُ﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب، وأنزل فيه الوحي من الاستتار، واحتطن فيه ﴿إِبْرَاهِيمَ كَانُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ عالماً. قال ابن عطاء: الشهيد: الذي يعلم خطرات القلوب، كما يعلم حركات الجوارح.

٥٦ - ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أي:

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن سعد عن الواقدي. (حاشية الكشف ٣ / ٥٥٦).

وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا

قولوا: اللهم صل على محمد، أو: صلى الله على محمد ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: قولوا: اللهم سلم على محمد، أو: انقادوا لأمره وحكمه انقياداً. وسئل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية، فقال: «إِنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بِي مَلَكِينَ فَلَا أُذَكِّرُ عِنْدَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ فَيُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا قَالَ ذَاكَ الْمَلَكَانِ: غُفِرَ اللَّهُ لَكَ، وَقَالَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ جَوَاباً لَذِيْنِكَ الْمَلَكَيْنِ: آمِينَ. وَلَا أُذَكِّرُ عِنْدَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا وَقَالَ ذَاكَ الْمَلَكَانِ: لَا غُفِرَ اللَّهُ لَكَ، وَقَالَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ جَوَاباً لَذِيْنِكَ الْمَلَكَيْنِ: آمِينَ»^(١). ثم هي واجبة مرة عند الكرخي - رحمه الله -، وكلما ذكر اسمه عند الطحاوي - رحمه الله -، وهو الاحتياط، وعليه الجمهور. وإن صلى على غيره على سبيل التبع كقولك: صلى الله على النبي وآله، فلا كلام فيها، وأما إذا أفرده غيره من أهل البيت بالصلاة فمكروه، وهو من شعائر الروافض.

٥٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يؤذون رسول الله. وذكر اسم الله للتشريف، أو عبر بإيذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يرضى به الله ورسوله كالكفر، وإنكار النبوة، مجازاً. وإنما جعل مجازاً فيهما، وحقيقة الإيذاء يتصور في رسول الله لثلاث يجمع المجاز والحقيقة تحت لفظ واحد ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ طردهم الله عن رحمته في الدارين ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ في الآخرة.

٥٨ - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأنَّ ذا يكون غير حق أبداً. وأما هذا فمنه حق - كالحد، والتعزير - ومنه باطل. قيل: نزلت في ناس من المنافقين يؤذون علياً - رضي الله عنه - ويسمعونه، وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات. وعن الفضيل: لا يحل لك أن تؤذي كلباً، أو: خنزيراً

فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا ﴿٥٨﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

بغير حق، فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات؟! ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلُوا﴾ تحملوا ﴿بُهْتَنَا﴾ عظيمًا ﴿وَإِنَّمَا مِثْلُنَا﴾ ظاهرًا.

٥٩ - ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ الجلباب: ما يستر الكلّ مثل الملحفة، عن المبرد. ومعنى: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ يرخيها عليهن، ويغطي بها وجوههن وأعطافهن، يقال: إذا زل الثوب عن وجه المرأة أدنى ثوبك على وجهك. و﴿من﴾ للتبعيض، أي: ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها، تتقنع، حتى تتميز من الأمة. أو: المراد أن يتجلبن ببعض ما لهن من الجلابيب، أي: لا تكون متبدلة في درع وخمار كالأمة، ولها جلبابان فصاعدًا في بيتها. وذلك أن النساء كنّ في أول الإسلام على هجيراهن^(١) في الجاهلية، متبدلات، تبرز المرأة في درع وخمار لا فصل بين الحرة والأمة. وكان الفتيان يتعرضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان للإماء، وربما تعرّضوا للحرة بحسبان الأمة، فأمرن أن يخالفن بزينة عن زينة الإماء بلبس الملاحف، وستر الرؤوس والوجوه، فلا يطمع فيهن طامع. وذلك قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾ أي: أولى وأجدر بأن يعرفن، فلا يتعرّض لهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط ﴿رَحِيمًا﴾ بتعليمهن آداب المكارم.

٦٠ - ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ فجور، وهم: الزناة. من قوله: ﴿فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هم ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ، فيقولون: هزموا، وقُتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب

لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ﴿١١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٣﴾

المؤمنين. يقال: أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة، لكونه خبراً مترزلاً، غير ثابت، من الرجفة، وهي: الزلزلة ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنامرتك بقتالهم، أو: لنسلطتك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ في المدينة. وهو عطف على ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ﴾ لأنه يجوز أن يجاب به القسم لصحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يجاورونك. ولما كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بتم لبعد حاله عن حال المعطوف عليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً. والمعنى: ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم ﴿والمرجفون﴾ عما يؤلفون من أخبار السوء، لنامرتك بأن تفعل بهم الأفعال التي تسوؤهم، ثم بأن تضطرهم إلى طلب إخلاء عن المدينة، وإلى ألا يسكنوك فيها إلا زماناً قليلاً ريثما يرحلون. فسمي ذلك إغراء - وهو التحريش - على سبيل المجاز.

٦١ - ﴿مَلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم، أو: الحال، أي: ﴿لا يجاورونك﴾ إلا ﴿ملعونين﴾. فالاستثناء دخل على الظرف والحال معاً كما مر. ولا ينتصب عن ﴿أُخِذُوا﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلهما ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ وجدوا ﴿أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا﴾ التشديد يدل على التكثير.

٦٢ - ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ في موضع مصدر مؤكد، أي: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا أينما وجدوا ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا يبدل الله سنته، بل يجريها مجرى واحداً في الأمم.

٦٣ - ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء، واليهود يسألونه امتحاناً، لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة، وفي كل كتاب، فأمر رسوله بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٦﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿١٨﴾ رَبَّنَا إِنِّهِمْ ضَعُفَتْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِمْ لَعْنَا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

شيئاً قريباً. أو: لأن الساعة في معنى الزمان.

٦٤، ٦٥ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ نارا شديدة الإيقاد ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هذا يردّ مذهب الجهمية لأنهم يزعمون أن الجنة والنار تفتيان. ولا تقف على ﴿سعيراً﴾ لأن قوله ﴿خالدين﴾ حال عن الضمير في ﴿لهم﴾ ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ناصراً يمنعهم.

٦٦ - اذكر ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ تُصَرَّفُ في الجهات، كما ترى البضعة^(١) تدور في القدر إذا غلت. وخصّصت الوجوه؛ لأنّ الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو يكون الوجه عبارة عن الجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال ﴿يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فتخلص من هذا العذاب. فتمنوا حين لا ينفعهم التمني.

٦٧ - ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ جمع سيد. (ساداتنا): شامي، وسهل، ويعقوب، جمع الجمع. والمراد: رؤساء الكفرة الذين لقنوهم الكفر، وزينوه لهم ﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ ذوي الأسنان منا، أو: علماءنا ﴿فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ يقال: ضلّ السبيل، وأضله إياه. وزيادة الألف لإطلاق الصوت، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها: الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف.

٦٨ - ﴿رَبَّنَا إِنِّهِمْ ضَعُفَتْنَا مِنَ الْعَذَابِ﴾ للضلال، والإضلال ﴿وَالْعَنَتِمْ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ بالباء: عاصم؛ ليدلّ على أشدّ اللعن، وأعظمه. وغيره: بالياء، تكثيراً لأعداد اللعائن.

٦٩ - ونزل في شأن زيد وزينب، وما سمع فيه من قالة بعض الناس

(١) البضعة: من اللحم وغيره: القطعة.

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ «ما» مصدرية، أو: موصولة. وأيهما كان، فالمراد: البراءة عن مضمون القول ومؤداه، وهو الأمر المغيب. وأذى موسى - عليه السلام - هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها، أو: اتهمهم إياه بقتل هارون، فأحياه الله تعالى، فأخبرهم ببراءة موسى - عليه السلام - كما برأ نبينا ﷺ بقوله ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ذا جاه، ومنزلة، ومستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش: (وكان عبد الله وجيهاً).

٧٠ - ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ صدقاً وصواباً، أو: قاصداً إلى الحق. والسداد: القصد إلى الحق، والقول بالعدل. والمراد: نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول، والبعث على أن يسددوا قولهم في كل باب؛ لأن حفظ اللسان، وسداد القول رأس كل خير. ولا تقف على ﴿ سديداً ﴾ لأن جواب الأمر قوله:

٧١ - ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ يقبل طاعتكم، أو: يوفقكم لصالح الأعمال ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أي: يمحها. والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم، والإثابة عليها، ومن مغفرة سيئاتكم، وتكفيرها. وهذه الآية مقررة للتي قبلها، بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان؛ ليرادف عليهم النهي والأمر، مع إتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى - عليه السلام - وإتباع الأمر الوعد البليغ، فيقوى الصارف عن الأذى، والداعي إلى تركه. ولما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أتبعه قوله:

٧٢ - ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ وهو يريد بالأمانة:

فَأَيُّكَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

الطاعة لله، وبحمل الأمانة: الخيانة. يقال: فلان حامل الأمانة، ومحمّل لها، أي: لا يؤدّيها إلى صاحبها حتّى تزول عن ذمّته، إذ الأمانة كأنّها راكبة للمؤمن عليها، وهو حاملها؛ ولهذا يقال: ركبته الديون، ولي عليه حقّ، فإذا أداها لم تبق راكبة له، ولا هو حاملها لها، يعني: أنّ هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت بأمر الله انقياد مثلها، وهو ما يتأتّى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تليقُ بها، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاباً، وتكويناً، وتسوية على هيئات مختلفة، وأشكال متنوعة، كما قال ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ أَسْمَاءَ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وأخبر أنّ الشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب يسجدون لله، وإنّ من الحجارة لما يهبط من خشية الله. وأمّا الإنسان فلم تكن حاله فيما يصحّ منه من الطاعة، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه، وهو حيوان عاقل، صالح للتكليف، مثل حال تلك الجمادات فيما يصحّ منها، ويليق بها من الانقياد، وعدم الامتناع، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَيُّكَ أَنْ يَحْمِلَهَا﴾ أي: أيّن الخيانة فيها، وألا يؤدّيها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وخِفْنَ من الخيانة فيها ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ أي: خان فيها، وأبى إلا أن يكون محملاً لها، لا يؤدّيها ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ لكونه تاركاً لأداء الأمانة ﴿جَهُولًا﴾ لإخطائه ما يُسَعِّدُهُ مع تمكّنه منه، وهو أداؤها. قال الزّجاج: الكافر والمنافق حملا الأمانة، أي: خانا، ولم يُطيعا. ومن أطاع من الأنبياء والمؤمنين فلا يقال: كان ظلوماً جهولاً.

وقيل: معنى الآية: أنّ ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه أنّه عُرضَ على أعظم ما خلق الله من الإجرام، وأقواه، فأبى حمّله، وأشفق منه ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ على ضعفه ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ حيث حمل الأمانة، ثمّ لم يف بها، وضمنها، ثمّ خان بضمّانه فيها. ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم. من ذلك قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب؟ لقال: أسوي العوج.

٧٣ - واللام في: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾

وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

للتعليل؛ لأنَّ التعذيبَ هنا نظير التأديب في قولك: ضربته للتأديب. فلا تقف على ﴿جهولاً﴾، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وقرأ الأعمش: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ بالرفع ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل، ويبتدىء ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾. ومعنى المشهورة: ليعذب الله حامل الأمانة، ويتوب على غيره ممن لم يحملها؛ لأنه إذا تيب على الوافي كان نوعاً من عذاب الغادر. أو: للعاقبة، أي: حملها الإنسان، فآل الأمر إلى تعذيب الأشقياء، وقبول توبة السعداء ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للتائبين ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده المؤمنين.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمُوتْ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا

١ - ﴿الْحَمْدُ﴾ إن أجري على المعهود، فهو بما حمد به نفسه محمود. وإن أجري على الاستغراق، فله لجلُّ المحامد الاستحقاق ﴿لِلَّهِ﴾ بلام التمليك؛ لأنه خالق ناطق الحمد أصلاً، فكان بملكه مالك الحمد، للتحميد أهلاً ﴿الَّذِي لَمْ يَمُوتْ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، وقهراً، فكان حقيقاً بأن يُحمد سراً، وجهرًا ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا؛ إذ النعم في الدارين من المولى، غير أن الحمد هنا واجب؛ لأنَّ الدنيا دار تكليف؛ وثمَّ لا؛ لعدم التكليف. وإنما يحمد أهل الجنة سروراً بالنعيم، وتلذُّذاً بما نالوا من الأجر العظيم، بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّمُ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ بتدبير ما في السماء والأرض، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بضمير من يحمده ليوم الجزاء، والعرض.

٢ - ﴿يَعْلَمُ﴾ مستأنف ﴿مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من الأموات، والدفائن، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات، وجوهر المعادن، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار، وأنواع البركات، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد إليها من

وَهُوَ الرَّجِيمُ الْعَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

الملائكة، والدعوات ﴿وَهُوَ الرَّجِيمُ﴾ يأنزال ما يحتاجون إليه، ﴿الْعَفُورُ﴾ لما يجترئون عليه .

٣ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: منكرو البعث ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ نفى للبعث، وإنكار لمجيء الساعة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أوجب ما بعد النفي بـ ﴿بلى﴾ على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم أعيد إيجابهم مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد، والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله - عز وجل - ثم أمد التوكيد القسمي بما أتبع المقسم به من الوصف بقوله: ﴿عَلَيْهِ الْغَيْبُ﴾ لأنَّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه، ويشدَّة ثباته، واستقامته؛ لأنَّه بمنزلة الاستشهاد على الأمر. وكلَّما كان المستشهد به أرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى، وأكد، والمستشهد عليه أثبت، وأرسخ. ولما كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها في الخفية، كان الوصف بما يرفع إلى علم الغيب أولى، وأحق. ﴿عالم الغيب﴾: مدني، وشامي، أي: هو ﴿عالم الغيب﴾. (علام الغيب): حمزة، وعلي، على المبالغة ﴿لَا يُعْزِبُ عَنْهُ﴾ وبكسر الزاي: علي. يقال: عزب، ويعزب إذا غاب، وبعد ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ من مثقال ذرة ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ من مثقال ذرة ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إلا في اللوح المحفوظ ﴿وَلَا أَصْغَرُ، وَلَا أَكْبَرُ﴾ بالرفع عطف على ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾. ويكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن. أو: رفعاً بالابتداء، والخبر ﴿فِي كِتَابٍ﴾.

٤ - واللام في: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما قصرُوا فيه من مدارج الإيمان ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان. متعلق بـ ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، تعليلًا له.

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

٥ - ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ جاهدوا في رد القرآن ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين، ظانين أنهم يفوتوننا. ﴿مُعْجِزِينَ﴾: مكّي، وأبو عمرو، أي: مُبْطِئِ الناس عن اتباعها، وتأملها، أو: ناسين الله إلى العجز ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع الميم: مكّي، وحفص، ويعقوب، صفة لعذاب، أي: عذاب أليم من بين العذاب. قال قتادة: الرجز: سوء العذاب. وغيرهم: بالجر، صفة. لـ ﴿رجز﴾

٦ - ﴿وَيَرَى﴾ في موضع الرفع بالاستئناف، أي: ويعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ - يعني: أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يطأ أعقابهم من أمته، أو: علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وكعب الأحمار - ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ - يعني: القرآن - ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الصدق. و﴿هو﴾ فصل، و﴿الحق﴾ مفعول ثان. أو: في موضع النصب معطوف على ﴿ليجزي﴾، أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق، علماً لا يزداد عليه في الإيقان. ﴿وَيَهْدِي﴾ الله، أو: الذي أنزل إليك ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهو دين الله.

٧ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال^(١) قريش بعضهم لبعض ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ. وإنما نكروه - مع أنه كان مشهوراً علماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم - تجاهلاً به، وبأمره. وباب التجاهل في البلاغة والي سخرها. ﴿يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يحدّثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تُبعثون، وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً، ويمزق أجسادكم البلى ﴿كلّ ممزق﴾ أي: يفرّقكم كلّ فريق. فالممزق مصدر بمعنى التمزيق، والعامل في ﴿إذا﴾ ما دلّ عليه ﴿إنكم لفي خلق

(١) أي: قال رجال قريش، أو سادة قريش وزعماؤها.

أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ
الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَ
نَحْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

جديد ﴿٨﴾ أي: تبعثون. والجديد: فعيل بمعنى فاعل عند البصريين، تقول: جدّ فهو جديد، لـ «قلّ» فهو قليل، ولا يجوز أنكم بالفتح للآم في خبره.

٨ - ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أهو مفتر على الله كذباً فيما نسب إليه من ذلك؟ والهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون يوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ثم قال سبحانه وتعالى: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء، وهو مبرأ منهما، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار، وفيما يؤذيه من الضلال عن الحق، وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجنّ الجنون. جعل وقوعهم في العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال، كأنهما كائنان في وقت واحد، لأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه جعلاً كأنهما مقترنان. ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازي؛ لأنّ البعيد صفة الضال إذا بُعد عن الجادة.

٩ - ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَ نَحْسِفَ بِهِمْ﴾ وبالإدغام: عليّ، للتقارب بين الفاء والباء. وضعفه البعض لزيادة صوت الفاء على الباء ﴿الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ﴾ الثلاثة بالياء: كوفي غير عاصم، لقوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿عَلَيْهِمْ كِسْفًا﴾^(١) كسفاً: حفص ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ أي: أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانوا، وأينما ساروا أمامهم وخلفهم، محيطتان بهم، لا يقدر أن ينفذوا من أقطارهما، وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم، أو: يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات، وكفرهم بالرسول، وبما جاء به، كما فعل بقارون، وأصحاب الأيكة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض، والفكر فيهما،

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة ﴿كِسْفًا﴾: وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٤٥/٥).

لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰجِبَالُ اَوْبِيْ مَعْمُ وَالطَّيْرُ
وَالنَّالُ الْحَدِيْدُ ﴿١٠﴾ اَنْ اَعْمَلَ سَبِيْعَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ

وما تدلان عليه من قدرة الله تعالى ﴿لَايَةً﴾ لدلالة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له؛ إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث، ومن عقاب من يكفر به.

١٠ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰجِبَالُ﴾ بدل من ﴿فَضْلًا﴾ أو: من ﴿آتَيْنَا﴾ بتقدير قولنا ﴿يا جبال﴾ أو: قلنا ﴿يا جبال﴾ ﴿اَوْبِيْ مَعْمُ﴾ من التأويب. أي: رجعي معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال: أن الله يخلق فيها تسبيحاً فيسمع منها كما يسمع من المسبح، معجزة لداود - عليه السلام - ﴿وَالطَّيْرُ﴾ عطف على محلّ الجبال، ﴿وَالطَّيْرُ﴾ زيد، عطف على لفظ الجبال.

وفي هذا النظم من الفخامة التي لا تحفى، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء؛ الذين إذا أمرهم أطاعوا، وإذا دعاهم أجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجاد إلّا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى. ولو قال: آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال معه، والطير، لم تكن فيه هذه الفخامة.

﴿وَالنَّالُ الْحَدِيْدُ﴾ وجعلناه له ليناً كالطين والعجين يصرفه بيده كيف شاء، من غير نار، ولا ضرب بمطرقة. وقيل: لان الحديد في يده لما أوتي من شدة القوة.

١١ - ﴿اَنْ اَعْمَلَ﴾ «أن» بمعنى: أي، أي: أمرناه: ﴿اَنْ اَعْمَلَ﴾ «سَبِيْعَتٍ» دروعاً واسعة تامة، من: السبوغ، وهو: أول من اتخذها. وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف، فينفق منها على نفسه وعياله، ويتصدق على الفقراء. وقيل: كان يخرج متكرراً، فيسأل الناس عن نفسه، ويقول لهم: ما تقولون في داود؟ فيثنون عليه. فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي، فسأله على عادته، فقال: نعم الرجل لولا خصلة فيه، وهو: أنه يطعم عياله من بيت المال. فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلمه صنعة الدروع ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فيقلق، ولا غلاظاً فيفصم الحلق. والسرد: نسج الدروع

وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلَسْلَيْتُمْ لِرِيحٍ غُذُوهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَكُمْ عَيْنَ الْقَطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَكُم مَّا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَّحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ

﴿وَأَعْمَلُوا﴾ الضمير لداود، وأهله ﴿صَالِحًا﴾ خالصاً يصلح للقبول ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

١٢ - ﴿وَلَسْلَيْتُمْ لِرِيحٍ﴾ أي: سخرنا ﴿لسليمان الريح﴾ وهي الصبا. ورفع ﴿الريح﴾ أبو بكر، وحماد، والفضل، أي: ﴿لسليمان الريح﴾ مُسَخَّرَةٌ ﴿غُذُوهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشي كذلك. وكان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر فارس، وبينهما مسيرة شهر، ويروح من إصطخر فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: كان يتغذى بالري، ويتعشى بسمرقند ﴿وَأَسَلْنَا لَكُمْ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ أي: معدن النحاس. فالقطر: النحاس، وهو: الصُّفْر، ولكنه أساله، فكان يسيل في الشهر ثلاثة أيام، كما يسيل الماء، وكان قبل سليمان - عليه السلام - لا يذوب. وسمّاه: عين القطر باسم ما آل إليه ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ «من»: في وضع نصب، أي: ﴿و﴾ سخرنا له من الجن من يعمل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ ومن يعدل ﴿مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان - عليه السلام - ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة. وقيل: كان معه ملك بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان - عليه السلام - ضربه ضربة أحرقتة.

١٣ - ﴿يَعْمَلُونَ لَكُم مَّا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ﴾ أي: مساجد، أو: مساكن ﴿وَتَمَثِيلٍ﴾ أي: صور السباع، والطيور. رُوي: أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. وكان التصويرُ مباحاً حينئذ ﴿وَحِفَانٍ﴾ جمع جفنة ﴿كَالْجَوَابِ﴾ جمع جابية، وهي: الحياض الكبار. قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل. (كالجوابي) في الوصل والوقف: مكّي، ويعقوب، وسهل. وافق أبو عمرو في الوصل. الباقيون بغير ياء اكتفاء بالكسرة ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾ ثابتات

اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها، وقيل: إنها باقية باليمن. وقلنا لهم: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي: ارحموا أهل البلاد، واسألوا ربكم العافية، عن الفضيل. و﴿شكراً﴾ مفعول له، أو: حال، أي: شاكرين. أو: اشكروا شكراً؛ لأنَّ ﴿اعملوا﴾ فيه معنى اشكروا، من حيث إنَّ العمل للمنعم شكر له. أو: مفعول به، يعني: إننا سخّرنا لكم الجنَّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً. وسُئِلَ الجنيدُ - رحمه الله - عن الشكر فقال: بذل المجهود بين يدي العبود ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾^(١) بسكون الياء: حمزة، وغيره بفتحها ﴿الشَّاكِرُونَ﴾ المتوفّر على أداء الشكر، الباذل وسعه فيه، قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً، واعترافاً، وكدحاً. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من يشكر على أحواله كلّها. وقيل: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود - عليه السلام - أنّه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود - عليه السلام - قائم يصلي.

١٤ - ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان - عليه السلام - ﴿مَا دَلَّمُمْ﴾ أي: الجنّ، أو آل داود - عليه السلام - ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ﴾ أي: الأرضة، وهي: دويبة يقال لها: سُرْفَةٌ، والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أَرْضَتِ الخشبة أرضاً؛ إذا أكلتها الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ والمِنْسَاءُ العصا؛ لأنّه ينسأ بها، أي: يطرد. ﴿ومنسأته﴾ بغير همز: مدني، وأبو عمرو ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سقط سليمان - عليه السلام - ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علمت الجنُّ علماً بيّناً بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم ﴿أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا﴾ بعد موت سليمان - عليه السلام - ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. ورُوي: أنّ داود - عليه السلام - أسّس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى - عليه السلام - فمات قبل أن

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿عبادني﴾ بسكون الياء.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لِمَوْلَاةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿١٥﴾

يتمه، فوصى به إلى سليمان - عليه السلام -، فأمر الشياطين بإقامته. فلما بقي من عمره سنة سأل ربه أن يعطي عليهم موته حتى يفرغوا منه، ولتبطل دعواهم علم الغيب. وكان عمر سليمان - عليه السلام - ثلاثاً وخمسين سنة. ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فبقي في ملكه أربعين سنة. وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. وزوي: أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه، فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها، فلم يجسر أحد بعده أن يدنو منه.

١٥ - ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بالصرف بتأويل الحي، وبعده أبو عمرو بتأويل القبيلة ﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾: حمزة، وحفص ﴿مَسْكِنِهِمْ﴾: علي، وخلف. وهو موضع سكناهم. وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها باليمن، أو مسكن كل واحد منهم. غيرهم: (مساكنهم) ﴿آيَةٌ﴾ اسم كان ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من ﴿آيَةٍ﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الآية ﴿جَنَّتَانِ﴾. ومعنى كونهما آية: أن أهلها لما أعرضوا عن شكر الله تعالى سلبهم الله النعمة ليعتبروا، ويتعظوا، فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، وغمط النعم. أو: جعلهما آية، أي: علامة دالة على قدرة الله، وإحسانه، ووجوب شكره ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أراد: جماعة من البساتين عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها. وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها، وتضامها كأنها جنة واحدة، كما تكون بساتين البلاد العامرة. أو: أراد: بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه، وشماله ﴿كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَوْلَاةٍ﴾ حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو: لما قال لهم لسان المقال، أو هم أحقأ بأن يقال لهم ذلك. ولما أمرهم بذلك أتبعه قوله: ﴿بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ﴾ أي: هذه البلدة التي فيها رزقكم ﴿بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وربكم الذي رزقكم، وطلب شكركم ﴿رَبِّ غَفُورٍ﴾ لمن شكره. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد، تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل، فتعمل بيديها، وتسير بين تلك الشجر، فيمتلئ المكتل بما يتساقط فيه من الثمر، وأطيبها، ليس فيها

فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ
وَشَقِئٌ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾

بعوض، ولا ذباب، ولا برغوث، ولا عقرب، ولا حية، ومن يمر بها من الغرباء يموت قمله لطيب هواها.

١٦ - ﴿فَأَعْرِضُوا﴾ عن دعوة أنبيائهم - عليهم السلام - وكذبوهم، وقالوا: ما نعرف الله علينا نعمة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: المطر الشديد، أو: العرم: اسم الوادي، أو: الجرد الذي نقب عليهم السكر. قالوا: لما طغوا سلط الله عليهم الجرد، فنقبه من أسفله، فغرقهم ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وتسمية البدل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلة، وازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَاؤُهُ سِنَتُهُ سِنَتُهُمَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿ذَوَاتِ أَكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأكل: الثمر يثقل ويخفف. وهو قراءة نافع، ومكي. والخمط: شجر الأراك. أو: كل شجر ذي شوك ﴿وَأَثَلٍ وَشَقِئٌ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ الأثل: شجر يشبه الطرفاء، أعظم منه، وأجود عوداً. ووجه من نون الأكل - وهو غير أبي عمرو - أن: أصله: ذواتي أكل أكل خمطٍ فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. أو: وصف الأكل بالخمط، كأنه قيل: ذواتي أكل بشع. ووجه أبي عمرو: أن أكل الخمط في معنى البربر^(١) فكأنه قيل: ذواتي بربر. والأثل والسدر معطوفان على ﴿أكل﴾ لا على خمط؛ لأن الأثل لا أكل له. وعن الحسن: قلل السدر لأنه أكرم ما بدّلوا؛ لأنه يكون في الجنان.

١٧ - ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: جزيناهم ذلك بكفرهم، فهو مفعول ثانٍ مقدّم ﴿وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾ كوفي غير أبي بكر. ﴿وهل يجازى إلا الكفور﴾، غيرهم. يعني: ﴿وهل يجازى﴾ مثل هذا الجزاء إلا من كفر النعمة ولم يشكرها، أو: كفر بالله. أو: هل يعاقب؛ لأنّ الجزاء وإن كان عامّاً على يُستعمل في معنى المعاقبة، وفي معنى الإثابة، لكن المراد الخاص، وهو: العقاب.

وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد - عليهما السلام -.

(١) البربر: ثمر الأراك، واحدها: بريرة.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَٰهٌ ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ

١٨ - ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين سبا ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعة على أهلها في النعم والمياه - وهي: قرى الشام - ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة يُرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين. و﴿ظَاهِرَةً﴾ للسَّابِلَةِ لم تبعد عن مسالكهم حتى لا تخفى عليهم. وهي أربعة آلاف وسبعمئة قرية متصلة من سبا إلى الشام ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم، يقلل المسافر في قرية، ويروح في أخرى، إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ وقلنا لهم: ﴿سيروا﴾. ولا قول ثم، ولكنهم لما مكثوا من السير، وسويت لهم أسبابه، فكأنهم أمروا بذلك ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: ﴿سيروا فيها﴾ إن شتتم بالليل، وإن شتتم بالنهار، فإنَّ الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو: سيروا فيها ﴿آمين﴾ لا تخافون عدوًّا، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وإن تطاولت مدة سفركم، وامتدت أيَّاماً وليالي.

١٩ - ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا: ياليتها كانت بعيدة، ففسر على نجائبنا، ونربح في التجارات، ونفاخر في الدواب والأسباب. بطروا النعمة، وملؤا العافية، وطلبوا الكد والتعب ﴿بَعْدَ﴾: مكثي، وأبو عمرو ﴿وَزَلَمُوا﴾ بما قالوا ﴿أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم، ويتعجبون من أحوالهم ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وفرقناهم تفريقاً، اتخذه الناس مثلاً مضروباً، يقولون: ذهبوا أيدي سبا، وتفرقوا أيادي سبا. فلحق غسان بالشام، وأنمار ييثرب، وجدام بتهامة، والأزد بعمان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي ﴿شَكُورٍ﴾ للنعم. أو: لكل مؤمن؛ لأنَّ الإيمان نصفان: نصفه شكر، ونصفه صبر.

٢٠ - ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَٰهٌ ظَنُّهُ﴾ بالتشديد: كوفي، أي: حقق عليهم ظنه، أو: وجده صادقاً. وبالتخفيف: غيرهم، أي: صدق في ظنه ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾

إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ
بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ
زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا
لَهُمْ فِيهِمَا مِّنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ
أُذِنَ لَهُ

الضمير في ﴿عليهم﴾، و﴿اتبعوه﴾ لأهل سبأ، أو: لبني آدم. وقُلَّ المؤمنين
بقوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لقلتهم بالإضافة إلى الكفار ﴿وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ
شُرَكَاءَ﴾ [الأعراف: ١٧].

٢١ - ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقاً ﴿مِّن
سُلْطَانٍ﴾ من تسليط، واستيلاء بالوسوسة، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ موجوداً ما علمناه
معدوماً. والتغَيَّرَ على المعلوم لا على العلم ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ
وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظ عليه. وفعل ومفاعل: متآخيان.

٢٢ - ﴿قُلِ﴾ لشركي قومك: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي:
زعمتموهم آلهة من دون الله. فالمفعول الأول: الضمير الراجع إلى الموصول،
وحذف كما حذف في قوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ﴾ [الفرقان: ٤١] استخفافاً
لطول الموصول بصلته. والمفعول الثاني: آلهة، وحذف؛ لأنه موصوف بصفته
﴿من دون الله﴾ والموصوف يجوز حذفه، وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً.
فإذاً مفعولاً زعم محذوفان بسببين مختلفين. والمعنى: ﴿ادعوا الذين﴾ عبدتموهم
من دون الله من الأصنام والملائكة، وسميتهم باسمه، والتجئوا إليهم فيما
يعروكم كما تلجئون إليه، وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون
استجابته. ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو
شر، أو نفع أو ضرر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِّنْ شَرِكٍ﴾ ومالهم
في هذين الجنسين من شركة في الخلق، ولا في الملك ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ تعالى ﴿مِنْهُمْ﴾
من آلهتهم ﴿مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ من عَويْن يعينه على تدبير خلقه. يريد: أنهم على هذه
الصفة من العجز، فكيف يصح أن يُدْعُوا كما يدعى، ويُرْجَوْا كما يرجى؟

٢٣ - ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ﴾ الله، يعني: إلا لمن وقع الإذن

حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

للسفيع لأجله، وهي: اللام الثانية في قولك: أَذِنَ لِزَيْدٍ لِعَمْرٍو، أي: لأجله. وهذا تكذيب لقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿أُذِنَ لَهُ﴾: كوفي غير عاصم، إلا الأعشى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن. و﴿فَزِعَ﴾: شامي، أي: الله تعالى. والتفريع: إزالة الفزع. و﴿حَتَّى﴾ غاية لما فهم من أن ثم، انتظاراً للإذن، وتوقفاً، وفرعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم، أولا يؤذن لهم؟! كأنه قيل: يترصدون، ويتوقعون ملياً فزعين ﴿حَتَّىٰ غَذَا فَزَعٍ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿قَالُوا﴾ سأل بعضهم بعضاً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ قال: ﴿الْحَقُّ﴾ أي: قول الحق. وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه، وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

٢٤ - ﴿قُلْ﴾ أمره بأن يقرّهم بقوله: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾. ثم أمره بأن يتولى الإجابة، والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم ﴿اللَّهُ﴾، وذلك للإشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم، إلا أنهم ربّما أبوا أن يتكلموا به؛ لأنهم إن تفوّهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم، وتوثرون عليه من لا يقدر على الرزق؟ وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بالسنتهم لم يتقاصر عنه: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. ومعناه: وإن أحد الفريقين من الموحدّين ومن المشركين لعلّ أحد الأمرين من الهدى والضلال. وهذا من الكلام المنصف الذي كلّ من سمعه من مؤال، أو مناف قال لمن خاطب به: قد أنصفك صاحبك. وفي دَرَجَةٍ بعد تَقَدُّمِهِ ما قُدِّمَ من التقدير: دلالة غير خفية على مَنْ هو من الفريقين على الهدى، ومَنْ هو في الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض. ونحوه قولك للكاذب: إن أحدنا لكاذب. وخُولف بين

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْتَلَعُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْمَظْزُورُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾

حرفي الجزر الداخلين على الهدى والضلال؛ لأن صاحب الهدى كأنه مستعمل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في الظلام لا يدري أين يتوجه.

٢٥ - ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْتَلَعُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أدخل في الإنصاف من الأول، حيث أسند الإجماع إلى المخاطبين، وهو مأمور به مشكور، والعمل إلى المخاطبين. وهو مزجور عنه محذور.

٢٦ - ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يحكم ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ بلا جور، ولا ميل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الحاكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالحكم.

٢٧ - ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِ﴾ بالله ﴿شُرَكَاءَ﴾ في العبادة معه. ومعنى قوله: ﴿أروني﴾ - وكان يراهم - أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يطلعهم على حالة الإشراك به ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه أي: ارتدعوا عن هذا القول، وتنهوا عن ضلالكم ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ الغالب، فلا يشاركه أحد - و﴿هو﴾ ضمير الشأن - ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيره.

٢٨ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالاً عامة لهم، محيطاً بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجاج: معنى الكافة في اللغة: الإحاطة؛ والمعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف. والتاء على هذا للمبالغة، كثناء الراوية، والعلامة ﴿بَشِيرًا﴾ بالفضل لمن أقر ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعدل لمن أصر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

٢٩ - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: القيامة المشار إليها في قوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ [سبا: ٢٦] ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ
عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

٣٠ - ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ الميعاد: ظرف الوعد من مكان، أو زمان. وهو - هنا - الزمان، ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿ميعادٌ يومٌ﴾^(١) فأبدل منه اليوم. وأما الإضافة فإضافة تبين، كما تقول: بغير سانية ﴿لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال، ولا التقدم إليه بالاستعجال. ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أنهم سألوا عن ذلك، وهم منكرون له، تعنتاً لا استرشاداً، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً للسؤال على سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم مُرصدون ليوم يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخراً عنه، ولا تقدماً عليه.

٣١ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أبو جهل، وذووه ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما نزل قبل القرآن من كتب الله، أو: القيامة، والجنة، والنار. يعني: أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ﴾، يرد ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ في الجدل. أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة، فقال لرسول الله ﷺ، أو: للمخاطب: ولو ترى في الآخرة موقفهم، وهم بتجادبون أطراف المحاورة، ويتراجعونها بينهم، لرأيت العجب، فحذف الجواب ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ أي: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: للرؤوس، والمقدمين ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله، ورسوله.

(١) انظر هذه القراءة في التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٥٨/٢٥)، والبحر المحيط (٢٨٢/٧).

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ

٣٢ - ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ أولي الاسم، أي: ﴿نحن﴾ حرف الإنكار؛ لأن المراد إنكار أن يكونوا هم الصادقون لهم عن الإيمان، وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه، وأنهم أوتوا من قبل اختيارهم ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ إنما وقعت ﴿إِذْ﴾ مضافاً إليها، وإن كانت إذ، وإذا من الظروف اللازمة للظرفية؛ لأنه قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فأضيف إليها الزمان ﴿بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ﴾ كافرين لاختياركم، وإيثاركهم الضلال على الهدى، لا لقولنا، وتسويلنا.

٣٣ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لم يأت بالعاطف في: ﴿الذين استكبروا﴾ وأُتِيَ في ﴿وقال الذين استضعفوا﴾ لأن الذين استضعفوا مر أولاً كلامهم، فجاء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جاء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأول ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بل مكرهم بنا في الليل والنهار، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، وإضافة المكر إليه، أو: جعل ليلهم ونهارهم مكرين على الإسناد المجازي، أي: الليل والنهار مكرًا بطول السلامة فيهما حتى ظننا أنكم على حق ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ أشباهاً. والمعنى: أن المستكبرين لما أنكروا بقولهم: ﴿أنحن صددناكم﴾ أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، وأثبتوا بقولهم: ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أن ذلك بكسبهم، واختيارهم، كثر عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجراء من جهتنا، بل من جهة مكرهم لنا دائماً ليلاً ونهاراً، وحملكم إيتانا على الشرك، واتخاذ الأنداد ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ أضمرنا، أو: أظهروا، وهو من الأضداد. وهم الظالمون في قوله: ﴿إِذْ أَفْلَحَ الْمُتَّقُونَ﴾ [سبا: ٣١] يندم المستكبرون على ضلالهم، وإضلالهم. والمستضعفون على ضلالهم، واتباعهم المضللين ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الجحيم

وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَءَمَنٌ وَعَمِلَ صَالِحًا

﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في أعناقهم، فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقوا به الأغلال ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

٣٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ نبي ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ متنعموها، ورؤساؤها: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾. هذه تسلية للنبي ﷺ مما مُني به من قومه من التكذيب، والكفر بما جاء به، وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهل مكة، وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد، كما قال:

٣٥- ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾، أرادوا: أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا، فظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرّمهم، فأبطل الله ظنهم بأنّ الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء. فربما وسّع على العاصي، وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسّع عليهما، وضيق عليهما، فلا ينقاس عليه أمر الثواب بقوله:

٣٦- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ - قدّر الرزق: تضييقه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الطلاق: ٧] - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٣٧- ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي: وما جماعة أموالكم، ولا جماعة أولادكم ﴿بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ﴾ وذلك: أن الجمع المكسر؛ عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التانيث. والزلفى والزلفة، كالقربى والقربة. وعملها النصب، أي: تقربكم قربة، كقوله: ﴿وَاللَّهُ أَتَقَرَّبُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] ﴿إِلَّا مَنَءَمَنٌ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الاستثناء من «كُم» في «تقربكم» يعني: أن الأموال

فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ؕ ؕ ؕ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي
 ؕ آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ ؕ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ؕ ؕ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ؕ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ
 الرَّاٰزِقِينَ ؕ

لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرب
 أحداً إلا من علمهم الخير، وفقهم في الدين، ورسخهم للصالح والطاعة.
 وعن ابن عيسى^(١): ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن، و﴿مَنْ﴾ شرط جوابه ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ
 الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾
 أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف، ثم جزاء الضعف. ومعنى جزاء
 الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً. وقرأ يعقوب: ﴿جزاءُ
 الضَّعْفُ﴾ على ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ الضعف جزاءُ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بأعمالهم ﴿وَهُمْ فِي
 الْغُرُفَاتِ﴾ أي: غرف منازل الجنة. (في الغرفة): حمزة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من كل
 هائل، وشاغل.

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ؕ آيَاتِنَا ؕ فِي إِبْطَالِهَا. ؕ مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ
 مُحْضَرُونَ ؕ﴾.

٣٩- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ ؕ يَوْسَعُ ؕ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ؕ وَمَا
 أَنْفَقْتُمْ ؕ﴾ «ما» شرطية، في موضع نصب ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيانه ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾
 يعوضه. لا معوض سواء إما عاجلاً بالمال، أو آجلاً بالثواب. جواب الشرط
 ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّاٰزِقِينَ﴾ المطعمين، لأن كل ما رزق غيره من سلطان، أو:
 سيد، أو: غيرهما، فهو من رزق الله، أجراه على أيدي هؤلاء، وهو خالق
 الرزق، وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم: الحمد
 لله الذي أوجدني، وجعلني ممن يشتهي، فكم من مشتهٍ لا يجد، وواجد
 لا يشتهي!

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُرَّ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالِیَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

٤٠ - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُرَّ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(١) وبالياء فيهما: حفص، ويعقوب. هذا خطابٌ للملائكة، وتقريع للكفار، وارد على المثل السائر: إياك أعني، واسمعي يا جارة^(٢). ونحو قوله: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

٤١ - ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة. ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك ﴿أَنْتَ وَلَيْسْنَا﴾ الموالة: خلاف المعادة، وهي: مفاعلة، من الولي، وهو: القرب. والولي يقع على الموالي والموالى جميعاً. والمعنى: أنت الذي نواليه ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ إذ لا موالة بيننا وبينهم. فبينوا بإثبات موالة الله، ومعادة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ لأنَّ مَنْ كان على هذه الصفة كانت حاله منافيةً لذلك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله، أو: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عُبدت، فيُعبدون بعبادتها، أو: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن، وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر الإنس، أو: الكفار ﴿بِهِمْ﴾ بالجن ﴿مُؤْمِنُونَ﴾.

٤٢ - ﴿قَالِیَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأنَّ الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة، ولا مضرة لأحد؛ لأنَّ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو: الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار التكليف، والناس فيها غلّٰ بينهم يتضارّون، ويتنافعون. والمراد: أنه

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿نَحْشُرُهُمْ، نقول﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (١٦٥/٥).

(٢) هذا المثل في: مجمع الأمثال (٨٠/١). يُضْرَبُ لمن يتكلم بكلامٍ ويريد به شيئاً غيره.

وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَتَنَتَّنَزَّاتِينَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَفْكٌ مُمْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا ءَايَتُنَّهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَتْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو. ثم ذكر عاقبة الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بوضع العبادة في غير موضعها - معطوف على ﴿لا يملك﴾ -: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

٤٣ - ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ أي: إذا قرئ عليهم القرآن ﴿يَتَنَتَّنَزَّاتِينَ﴾ واضحات ﴿قَالُوا﴾ أي: المشركون ﴿مَا هَذَا﴾ أي: محمد ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ وقالوا ﴿مَا هَذَا﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا أَفْكٌ مُمْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وقالوا - والعدول عنه دليل على إنكار عظيم، وغضب شديد - ﴿لِلْحَقِّ﴾ للقرآن، أو: لأمر النبوة كله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وعجزوا عن الإتيان بمثله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: الحق ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. بثوه على أنه سحر، ثم بثوه على أنه بين ظاهر؛ كل عاقل تأمله سماء سحراً.

٤٤ - ﴿وَمَا ءَايَتُنَّهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أعطينا مشركي مكة كتباً يدرسونها، فيها برهان على صحة الشرك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا.

٤٥ - ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: وكذب الذين تقدموهم من الأمم والقرون الخالية الرسل، كما كذبوا ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَتْنَهُمْ﴾ أي: وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتي الأولون من طول الأعمار، وقوة الأجرام، وكثرة الأموال، ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للمكذبين الأولين. فليحذروا من مثله - وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب - أي: فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم مستظهرون، فما بال هؤلاء؟ وإنما قال: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ وهو مستغنى عنه بقوله: ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾؛ لأنه لما كان معنى قوله: ﴿وكذب

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُجَّةٍ وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

الذين من قبلهم ﴿ وفعل الذين من قبلهم التكذيب، وأقدموا عليه، جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه. وهو كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ.

٤٦ - ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةٍ ﴾ بخصلة واحدة. وقد فسرها بقوله:

﴿ أَنْ تَقُومُوا ﴾ على أنه عطف بيان لها، وقيل: هو بدل. وعلى هذين الوجهين هو في محل الجر. وقيل: هو في محل الرفع على تقدير: هي ﴿ أَنْ تَقُومُوا ﴾، أو: النصب على تقدير: أعني. فأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله ﷺ، وتفرقهم عن مجتمعهم عنده، أو: قيام القصد إلى الشيء دون النهوض والانتصاب. والمعنى: إنما أعظمكم بوحدة إن فعلتموها أصبتم الحق، وتخلصتم، وهي: ﴿ أَنْ تَقُومُوا ﴾ ﴿ لِلَّهِ ﴾ أي: لوجه الله خالصاً - لا لحمية، ولا عصبية، بل لطلب الحق - ﴿ مِثْلَ شُجَّةٍ ﴾ اثنين اثنين ﴿ وَفَرَادَى ﴾ وفرداً فرداً ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ في أمر محمد ﷺ، وما جاء به، أما الاثنان فيتفكران، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤدبهما النظر الصحيح إلى الحق. وكذلك الفرد يتفكر في نفسه بعدل، ونصفه، ويعرض فكره على عقله. ومعنى تفرقهم مثني وفردى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الروية، ويقل الإنصاف فيه، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب. و﴿ تَتَفَكَّرُوا ﴾ معطوف على ﴿ تَقُومُوا ﴾ ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ جنون. والمعنى: ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ فتعلموا ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قدام ﴿ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وهو عذاب الآخرة. وهو كقوله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة»^(١).

(١) رواه أحمد (٣١٠/٢) ومسلم (٨٦٧) (٤٥٤ و٤٥٥) والنسائي (١٨٨/٣) وابن ماجه (٤٥).

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي بِقَذْفٍ بِالْحَقِّ عَلِيمٌ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

٤٧- ثم بين أنه لا يطلب أجراً على الإنذار بقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ على إنذارى، وتبليغي الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جزاء الشرط، تقديره: أي: شيء سألتكم من أجر كقوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] ومعناه: نفي مسألة الأجر رأساً، نحو: مالي في هذا فهو لك، أي: ليس لي فيه شيء ﴿إِنَّ أَجْرِيَ﴾ مدني، وشامي، وأبو عمرو، وحفص. وبسكون الياء: غيرهم ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيعلم أنني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه.

٤٨- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي بِقَذْفٍ بِالْحَقِّ﴾ بالوحي. والقذف: توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويستعار لمعنى الإلقاء. ومنه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦] ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ [طه: ٣٩]. ومعنى ﴿يقذف بالحق﴾ يليقه، وينزله إلى أنبيائه، أو: يرمي به الباطل فيدمغه، ويزهقه ﴿عَلِمَ الْغُيُوبِ﴾ مرفوع على البدل من الضمير في ﴿يقذف﴾، أو: على أنه خبر مبتدأ محذوف.

٤٩- ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الإسلام، والقرآن ﴿وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: زال الباطل، وهلك؛ لأن الإبداء والإعادة من صفات الحي، فعدمهما عبارة عن الهلاك. والمعنى: جاء الحق، وزهق الباطل، كقوله: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: دخل النبي ﷺ مكة، وحول الكعبة أصنام، فجعل يطعنها بعود نَبْعَةٍ^(١) يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»^(٢).

وقيل: الباطل: الأصنام. وقيل: إبليس؛ لأنه صاحب الباطل، أو: لأنه هالك. كما قيل له الشيطان، من شاط: إذا هلك، أي: لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحداً ولا يبعثه، فالمنشئ والباعث هو الله.

(١) النَّبْعُ: شجر تتخذ منه السهام والقسي.

(٢) رواه أحمد (٣٧٧/١) والبخاري (٢٤٧٨) ومسلم (١٧٨١).

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

٥٠- ولما قالوا: قد ضللت بترك دين آبائك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ أي: إن ضللت فمني وعليّ، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّ﴾ فبتسديده بالوحي إليّ. وكان قياس التقابل أن يقال: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا، كقوله: ﴿فَمَنْ اهْتَكَفَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]. ولكن هما متقابلان معنى؛ لأن النفس كلّ ما عليها وضارّ لها فهو بها، وبسببها؛ لأنها الأثارة بالسوء، ومالها ممّا ينفعها فبهداية ربّها وتوفيقه، وهذا حكم عامّ لكلّ مكلف. وإنما أمر رسوله أن يسنده إلى نفسه؛ لأنّ الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله، وسداد طريقته، كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما أقوله لكم ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم، يجازيني ويجازيكم.

٥١- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابه محذوف، أي: لو رأيت أمراً عظيماً، وحالاً هائلة ﴿إِذْ فَرَغُوا﴾ عند البعث، أو: عند الموت، أو: يوم بدر ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ فلا مهرب، أو: فلا يفوتون الله، ولا يسبقونه ﴿وَأُخِذُوا﴾ عطف على ﴿فَرَغُوا﴾ أي: فرغوا، وأخذوا، فلا فوت لهم. أو: على ﴿لَا قُوَّةَ﴾ على معنى ﴿إِذْ فَرَغُوا﴾ فلم يفوتوا وأخذوا ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أو: ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو: من صحراء بدر إلى القلب.

٥٢- ﴿وَقَالُوا﴾ حين عاينوا العذاب: ﴿ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ بمحمد ﷺ لمرور ذكره في قوله: ﴿مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، أو: بالله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ التناوش: التناول، أي: كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم، يريد: أنّ التوبة كانت تُقبل منهم في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا وبعدت عن الآخرة. وقيل: هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو: أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا. مثلك حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة، كما يتناول الآخر من قيس ذراع. ﴿التناوش﴾ بالهمزة: أبو عمرو، وكوفي غير حفص. همزت الواو؛ لأنّ كلّ واو مضمومة ضمتها

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ

لازمة إن شئت أبدلتها همزة، وإن شئت لم تبدل، نحو قولك: أدور، وتقاوم، وإن شئت قلت: أدور، وتقاوم. وعن ثعلب: التناؤش - بالهمز -: التناول من بُعد، وبغير همز: التناول من قرب.

٥٣- ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل العذاب، أو: في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ معطوف على ﴿قد كفروا﴾ على حكاية الحال الماضية، يعني: وكانوا يتكلمون بالغيب، أو: بالشيء الغائب، يقولون: لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عن الصدق، أو: عن الحق، والصواب. أو: هو قولهم في رسول الله ﷺ: شاعر، ساحر، كذاب. وهذا تكلم بالغيب، والأمر الخفي؛ لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً، ولا شعراً، ولا كذباً. وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله؛ لأن أبعد شيء مما جاء به السحر والشعر، وأبعد شيء من عاداته التي عرفت بينهم، وجربت الكذب. ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ محبوب عن أبي عمرو على البناء للمفعول، أي: تأتيهم به شياطينهم، ويلقنونهم إياه. وإن شئت فعلقه بقوله: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ على أنه مثلمهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: ﴿آمَنَّا﴾ في الآخرة، وذلك مطلب مستبعد، بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه بعيداً. ويجوز أن يكون الضمير في ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ للعذاب الشديد في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. وكانوا يقولون: وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة، والعقاب، والثواب، ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا، قائلين أمر الآخرة على أمر الدنيا. فهذا كان قذفهم بالغيب. وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة؛ لأن دار الجزاء لا ينقاس على دار التكليف.

٥٤- ﴿وَحِيلَ﴾ وحجز ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة، أو: من الرد إلى الدنيا كما حكي عنهم بقوله: ﴿فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]. والأفعال التي هي فزعوا، وأخذوا،

كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

وحيل؛ كلها للمعنى، والمراد بها: الاستقبال؛ لتحقيق وقوعه ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ بأشباههم من الكفرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من أمر الرسل، والبعث ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع للريبة، من أرابه؛ إذا أوقعه في الريبة. هذا رد على من زعم: أن الله لا يعذب على الشك.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرُبُّعٌ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد ذاته تعليمياً، وتعظيماً ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ﴾ مبتدئها، ومبتدعها. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما كنت أدري معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرته، أي: ابتدأتها ﴿وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا﴾ إلى عباده ﴿أُولَىٰ﴾ ذوي. اسم جمع لـ «ذو». وهو بدل من ﴿رُسُلًا﴾ أو: نعت له ﴿أَجْنَحَةٍ﴾ جمع جناح ﴿مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرُبُّعٌ﴾ صفات لـ «أجنحة»، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ آخر، كما عدل عمر عن عامر، وعن تكرير إلى غير تكرير. وقيل: للعدل والوصف. والتعويل عليه. والمعنى: أَنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ طائفة أجنحتهم اثنان اثنان، أي: لكل واحد منهم جناحان، وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، ولعلّ الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وغيره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ وقيل: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن، والخط الحسن، والملاحة في العينين. والآية مطلقة تتناول كلّ زيادة في الخلق من: طول قامة، واعتدال صورة، وجزالة في الرأي، وذلاقة^(١) في اللسان، ومحبة في قلوب المؤمنين، وما أشبه ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

(١) «الذلاقة»: الحدة والطلاقة.

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفٍ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

٢- ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ نكر الرحمة للإشاعة والإيهام. كأنه قال: مِنْ
أَيَّةِ ﴿رحمة﴾ رزق، أو: مطر، أو: صحة، أو: غير ذلك ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فلا
أحد يقدرُ على إمساكها وحبسها. واستعير الفتح للإطلاق والإرسال. أَلَا تَرَى
إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ يمنع، ويحبس ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهُ﴾ مُطْلَقٌ لَهُ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من
بعد إمساكه. وَأَنْتَ الضمير الراجع إلى الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى
الرحمة. ثُمَّ ذَكَرَهُ حَمَلًا عَلَى اللفظ المرجوع إليه، إذ لا تَأْنِيثَ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ فَسَّرَ
بِالرحمة، فَحَسَنَ إِتْبَاعَ الضمير التفسير، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير.
وعن معاذ مرفوعاً: «لَا تَزَالُ يَدُ اللَّهِ مَبْسُوطَةً عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا لَمْ يَرْفُقْ خِيَارَهُمْ
بَشَرَارَهُمْ، وَيَعْظُمَ بَرُّهُمْ فَاجِرَهُمْ، وَتَعَنَ قَرَاؤُهُمْ أَمْرَاءَهُمْ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ. فَإِذَا
فَعَلُوا ذَلِكَ نَزَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَنْهُمْ»^(١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب، القادر عَلَى الْإِرْسَالِ
وَالْإِمْسَاكِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

٣- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا﴾ باللسان، والقلب ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهي التي
تقدّمت من بسط الأرض كالمهاد، ورفع السماء بلا عماد؛ وإرسال الرسل لبيان
السُّبُلِ دعوة إليه، وزلفة لديه؛ والزيادة في الخلق، وفتح أبواب الرزق. ثُمَّ نَبّه
عَلَى رَأْسِ النِّعَمِ، وَهُوَ اتِّحَادُ النِّعَمِ، بِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ برفع ﴿غَيْرِ﴾
عَلَى الْوَصْفِ حَمَلًا لِأَنَّ ﴿خَالِقُ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي: لكم. وبالجذر: عَلِيّ،
وحزمة، عَلَى الْوَصْفِ لَفْظًا ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً، ويجوز أن يكون
صفة لخالق ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بأنواع النبات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة
مفصولة، لا محلّ لها ﴿فَآفٍ تُؤْفَكُونَ﴾ فبأي وجه تصرفون عن التوحيد إلى
الشرك.

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٢/١٥٠).

وَلَا يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

٤ - ﴿وَلَا يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله، وتكذيبهم بها، وسلى رسوله بأن له في الأنبياء قبله أسوة. ولهذا نكر ﴿رسل﴾ أي: رسل ذوو عدد كثير، وأولو آيات ونذر، وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم؛ لأنه أسلى له. وتقدير الكلام: ﴿وَلَا يَكْذِبُوكَ﴾ فتأس بتكذيب الرسل من قبلك؛ لأن الجزاء يتعقب الشرط. ولو أجرى على الظاهر يكون سابقاً عليه. فوضع: ﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ موضع فتأس، استغناء بالسبب عن المسبب، أي: بالتكذيب عن التأسى ﴿وَلِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كلام يشمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه، ومجازاة المكذب والمكذب^(١). ﴿تُرْجَعُ﴾ بفتح التاء: شامي، وحمزة، وعلي، وخلف، ويعقوب، وسهل.

٥ - ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا تخدعكم الدنيا، ولا يذهلتكم التمتع بها، والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة، وطلب ما عند الله ﴿وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: الشيطان، فإنه يمنيكم الأمانى الكاذبة، ويقول: إن الله غني عن عبادتك، وعن تعذيبك.

٦، ٧ - ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّوٌّ﴾ ظاهر العداوة. فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته في سركم وجهركم. ثم لخص سر أمره، وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذي يؤتمه في دعوة شيعته هو أن يوردهم مورد الهلاك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ أي: فمن أجابه حين دعى فله عذاب شديد؛ لأنه صار من حزبه،

(١) زاد في المطبوع: بما يستحقانه.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

أي: أتباعه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يجبيوه، ولم يصيروا من حزبه، بل عادوه ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لكبر جهادهم.

٨- ولما ذكر الفريقين قال لنبينه ﷺ: ﴿أَفَمَنْ زُينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا﴾ بتزيين الشيطان، كمن لم يزين له. فكان رسول الله ﷺ قال: لا، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾. وذكر الزجاج أن المعنى: ﴿أَفَمَنْ زُينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ ذهبت نفسك عليه حسرة. فحذف الجواب لدلالة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ عليه. أو: أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، فحذف لدلالة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ عليه. ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾: يزيد، أي: لا تهلكها ﴿حسرات﴾ مفعول له، يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات. و﴿عليهم﴾ صلة ﴿تذهب﴾ كما تقول: هلك عليه حباً، ومات عليه حزناً. ولا يجوز أن يتعلق بحسرات؛ لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وعيدٌ لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

٩- ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ ﴿الرِّيحَ﴾ مكّي، وحزة، وعلي ﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ بالتشديد: مدني، وحزة، وعلي، وحفص. وبالتخفيف: غيرهم ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يسها. وإنما قيل ﴿فتثير﴾ لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتُسْتَحْضَرُ تلك الصورة الدالة على القدرة الربانية. وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة، قيل: فسقنا، وأحيينا، معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص، وأدل عليه ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ الكاف في محل الرفع، أي: مثل إحياء الموات، نشور

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ
وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ

الأموات. قيل: يحیی الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش تنبت منه أجساد الخلق.

١٠ - ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: العزة كلها مختصة بالله؛ عزة الدنيا، وعزة الآخرة. وكان الكافرون يتعززون بالأصنام، كما قال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]. والذين آمنوا بألستهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشرکین، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فبين أن لا عزة إلا لله. والمعنى: فليطلبها عند الله، فوضع قوله: ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ موضعه، استغناء به عنه، لدلالته عليه؛ لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه، ومالكة. ونظيره قولك: مَنْ أَرَادَ النَّصِيحَةَ؛ فهي عند الأبرار، تريد: فليطلبها عندهم، إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه. وفي الحديث: «إِنْ رَبَّكُمْ يَقُولُ كُلَّ يَوْمٍ: أَنَا الْعَزِيزُ، فَمَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ فَلْيَطْعِ الْعَزِيزَ»^(١). ثم عرّف أن ما يطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ومعنى قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى محلّ القبول والرضا، وكلّ ما اتّصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود. وإلى حيث لا ينفذ فيه إلا حكمه. و﴿الكلم الطيب﴾ كلمات التوحيد، أي: لا إله إلا الله. وكان القياس: الطيبة، ولكن كلّ جمع ليس بينه وبين واحد إلا التاء يذكر، ويؤنث. و﴿العمل الصالح﴾ العبادة الخالصة. يعني: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ الكلم الطيب. فالرافع: الكلم. والمرفوع: العمل؛ لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد. وقيل: الرافع: الله، والمرفوع: العمل، أي: ﴿العمل الصالح يرفعه﴾ الله. وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع، والكلم الطيب يصعد بنفسه. وقيل: العمل الصالح يرفع العامل، ويشرفه، أي: من أراد العزّ فليعمل عملاً صالحاً، فإنه هو الذي يرفع العبد ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ هي صفة لمصدر محذوف، أي:

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/١٢١).

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

المكرات ﴿السيئات﴾ لأن مكر فعل غير متعد. لا يقال: مكر فلان عمله. والمراد مكر قریش به ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾ فصل ﴿يُبْورُ﴾ خبر، أي: ﴿ومكر أولئك﴾ الذين مكروا ﴿هُوَ﴾ خاصة ﴿يُبور﴾ أي: يفسد، ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة، وقتلهم، وأثبتهم في قلب بدر. فجمع عليهم مكراتهم جميعاً، وحقق فيهم قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

١١- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ أي: أباكم ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ﴾ أنشأكم ﴿مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً، أو: ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ هو في موضع الحال، أي: إلا معلومة له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: ﴿وما يعمر من أحد - وإنما سماه معمراً بما هو صائر إليه -﴾ ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني: اللوح، أو: صحيفة الإنسان ﴿وَلَا يُنْقَصُ﴾ زيد. فإن قلت: الإنسان إما معمر، أي: طويل العمر، أو: منقوص العمر، أي: قصيره. فإمّا أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال، فكيف صحّ قوله: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد. وعليه كلام الناس. يقولون: لا يثيب الله عبداً، ولا يعاقبه إلا بحق. أو: تأويل الآية: أنه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي على آخره، فذلك نقصان عمره. وعن قتادة: المعمر: من بلغ ستين سنة. والمنقوص من عمره: من يموت قبل ستين سنة ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إحصاءه، أو: زيادة العمر ونقصانه ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ يُتَنَبَّهُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُؤَلِّجُ الْبَلَدَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ

١٢ - ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا﴾ أي: أحدهما ﴿عَذَبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة - وقيل: هو الذي يكسر العطش - ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ مريء، سهل الانحدار لعذوبته، وبه يرتفع شرابه ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة. وقيل: هو الذي يحرق بملوحته ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ ومن كل واحد منهما ﴿تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ، والمرجان ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ﴾ في كل ﴿مَوَاحِرَ﴾ شواقٍ للماء بجريها - يقال: خرت السفينة الماء، أي: شقته. وهي جمع ماخرة - ﴿يُتَنَبَّهُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من فضل الله - ولم يجر له ذكر في الآية، ولكن فيما قبلها. ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه - ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما آتاكم من فضله. ضرب البحرين - العذب والملح - مثلين للمؤمن والكافر. ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه: ويحتمل غير طريقة الاستطراد، وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر، بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك، واللؤلؤ، وجري الفلك فيه، والكافر خلوا من النفع، فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثم قال: ﴿وَلَا يَنْفَعُ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَلَا مِنْهَا لَمَا يَشْقُوقُ مِنْهُ الْمَاءُ وَلَا مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

١٣ - ﴿يُؤَلِّجُ الْبَلَدَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يُدخل من ساعات أحدهما في الآخر، حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة، والناقص تسعاً ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلل أضواء صورة، لأنشأ سيرة ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة ينقطع جريهما ﴿ذَلِكَ كُمْ﴾ مبتداً ﴿اللَّهُ رُبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة. أو: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خبر إن. و﴿له الملك﴾ جملة مبتدأة

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

واقعة في قران قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونها من دون الله - ﴿يَدْعُونَ﴾ قتيبة - ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ وهي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة.

١٤- ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أي: الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جاد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية، ويتبرؤون منها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ﴾ بإشراككم لهم، وعبادتك إياهم، ويقولون: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] ﴿وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ ولا ينبتك - أيها المفتون بأسباب الغرور - كما ينبتك الله الخبير بخبايا الأمور. وتحقيقه: ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به، يريد: أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به. والمعنى: أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق؛ لأنّي خبير بما أخبرت به.

١٥- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ قال ذو النون - رحمه الله -: الخلق محتاجون إليه في كل نفس، وخطوة، ولحظة، وكيف لا؟ ووجودهم به، وبقاؤهم به ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الأشياء أجمع، ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود بكل لسان.

ولم يستهم بالفقراء للتحقير، بل للتعريض على الاستغناء؛ ولهذا وصف نفسه بالغني الذي هو مُطْعِمُ الأغنياء. وذكر ﴿الحميد﴾ ليدلّ به على أنّه الغني النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، إذ ليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً. فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم. قال سهل: لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغني، ولهم بالفقر، فمن ادّعى الغنى حُجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه. فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه، حتى تكون عبوديته محضة، فالعبودية هي: الذل

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا

والخضوع، وعلامته: ألا يسأل من أحد. وقال الواسطي: مَنْ استغنى بالله لا يفتقر، ومن تعزز بالله لا يذل. وقال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غناه بالله، وكلما ازداد افتقاراً ازداد غنى. وقال يحيى - رحمه الله -: الفقر خيرٌ للعبد من الغنى؛ لأنَّ الذلَّةَ في الفقر، والكبر في الغنى. والرجوع إلى الله بالتواضع والذلَّة، خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال. وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كلِّ شيء، والفقر إليه في كلِّ شيء، والرجوع إليه من كلِّ شيء. وقال الشبلي - رحمه الله -: الفقر يجرّ البلاء، وبلاؤه كله عزّ.

١٦، ١٧ - ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلِّكم إلى العدم، فإنَّ غناه [بذاته] (١) لا بكم في القدم؛ ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بدون حمدكم حميد ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ الإنشاء والإفتاء ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يخلق بعدكم من يعبد لا يشرك به شيئاً.

١٨ - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى. والوزر والوقر أخوان. ووزر الشيء: إذا حمله. والوازية: صفة للنفس. والمعنى: أنَّ كلَّ نفس يوم القيامة لا تحمل إلاَّ وزرها؛ الذي اقترفته، لا تؤخذ نفس بذنب نفس، كما تأخذ جبايرة الدنيا الوليَّ بالولي، والجار بالجار. وإنَّما قيل: ﴿وازية﴾ ولم يقل ﴿ولا تزر﴾ نفس ﴿وزر أخرى﴾ لأنَّ المعنى: أنَّ النفوس الوازرات لا ترى منهنَّ واحدة إلاَّ حاملة وزرها لا وزر غيرها. وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وارد في الضالِّين المضلِّين. وإنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم. ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] بقوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالذنوب أحداً ﴿إِلَىٰ جَمِلِهَا﴾ ثقلها، أي: ذنوبها ليتحمَّل عنها بعض ذلك

لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۖ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي
الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا
يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المدعو - وهو مفهوم من قوله ﴿وإن تدع﴾ -
﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ ذا قرابة قريبة كآب، أو: ولد، أو: أخ. والفرق بين معنى قوله:
﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، ومعنى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه
شيء﴾، أن الأول دالٌّ على عدل الله في حكمه، والآ يؤاخذ نفساً بغير ذنبها،
والثاني: في بيان أن لا غياث يومئذ لمن استغاث، حتى إن نفساً قد أثقلتها
الأوزار لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب، ولم تُغث، وإن كان المدعو
بعض قرابتها ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي: إنما يتنفع بإنذارك هؤلاء
﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل، أو: المفعول، أي: يخشون ربهم غائبين عن
عذابه. أو: يخشون عذابه غائباً عنهم. وقيل: ﴿بالغيب﴾ في السر حيث
لا اطلاع للغير عليه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ في مواقيتها ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر بفعل
الطاعات، وترك المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾. وهو اعتراض مؤكد
لخشيتهم، وإقامتهم الصلاة؛ لأنهما من جملة التزكي ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع.
وهو وعد للمتركين بالثواب.

١٩- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للكافر والمؤمن، أو: للجاهل والعالم.

٢٠- ﴿وَلَا الظُّلُمَتُ﴾ مثل للكفر ﴿وَلَا النُّورُ﴾ الإيمان.

٢١- ﴿وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحَرُورُ﴾ الحق والباطل، أو: الجنة والنار. والحرور:

الريح الحار كالسموم، إلا أن السموم تكون بالنهار، والحرور بالليل والنهار؛
عن الفراء.

٢٢- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم
يدخلوا فيه. وزيادة «لا» لتأكيد معنى التثني. والفرق بين هذه الواوَات: أن
بعضها ضمت شفعاً إلى شفع، وبعضها وترأ إلى وتر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ
بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يعني: أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل

إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

فيه، فيهدي من يشاء هدايته، وأما أنت فخفي عليك أمرهم؛ فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين. شبه الكفار بالموتى؛ حيث لا ينتفعون بمسموعهم.

٢٣- ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المُنذِرُ ممَّن يسمع الإنذار نفع، وإن كان من المصرين فلا عليك.

٢٤- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ حال من أحد الضميرين، يعني: محققاً، أو: محققين، أو: صفة للمصدر، أي: إرسالاً مصحوباً ﴿بالحق﴾ ﴿بشيراً﴾ بالوعد ﴿ونذيراً﴾ بالوعيد ﴿وإن من أمة﴾ وما ﴿من أمة﴾ قبل أمتك - والأمة: الجماعة الكثيرة ﴿وجاءته أمة من النكاس﴾ [القصص: ٢٣] ويقال لأهل كل عصر: أمة. والمراد هنا: أهل العصر. وقد كانت آثارُ النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد - عليهما السلام - فلم تخل تلك الأمم من نذير. وحين اندرست آثارُ نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد ﷺ ﴿إلا خلا﴾ مضى ﴿فيها نذير﴾ يخوفهم وخامة الطغيان، وسوء عاقبة الكفران. واكتفى بالنذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؛ لأن النذارة مشفوعة بالبشارة، فدلَّ ذكر النذارة على ذكر البشارة.

٢٥- ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم﴾ رسلهم ﴿جاءتهم رسلهم﴾ حال، و﴿قد﴾ مضمرة ﴿بالبينات﴾ بالمعجزات ﴿وبالزُّبُرِ﴾ وبالصحف ﴿وبالكتاب المنير﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزبور. ولما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضها في جميعهم، وهي: البينات، وبعضها في بعضهم، وهي: الزبور، والكتاب. وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ.

٢٦- ﴿ثم أخذت﴾ عاقبت ﴿الذين كفروا﴾ بأنواع العقوبة ﴿فكيف كان نكير﴾ إنكارهم عليهم، وتعذبي لهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ
بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ
وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

٢٧- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بالماء ﴿ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾
أجناسها من: الرمان، والتفاح، والتين، والعنب، وغيرها مما لا يحصر. أو:
هياتها من: الحمرة، والصفرة، والخضرة، ونحوها ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ طرق
مختلفة اللون، جمع جُدَّة، كمُدَّة ومُدَد ﴿بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾
جمع غريب. وهو تأكيد للأسود. يقال: أسود غريب، وهو الذي أبعد في
السواد، وأغرب فيه. ومنه: الغراب. وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكّد،
كقولك: أصفر فاقع، إلّا أنّه أضمر المؤكّد قبله. والذي بعده تفسير للمضمر.
وإنّما يفعل ذلك لزيادة التوكيد، حيث يدلّ على المعنى الواحد من طريقي
الإظهار والإضمار جميعاً. ولا بدّ من تقدير حذف المضاف، أي: في قوله:
﴿ومن الجبال﴾ ذو جدد بيض، وحمّر، وسود، حتّى يؤول إلى قولك: ومن
الجبال مختلف ألوانه، كما قال: ﴿ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

٢٨- ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يعني: ومنهم بعض
مختلف ألوانه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمرات، والجبال. ولما قال: ﴿أَلَمْ
تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وعدّد آيات الله، وأعلام قدرته، وآثار صنعته،
وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يستدلّ به عليه وعلى صفاته، أتبع
ذلك: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: العلماء به؛ الذين علموه بصفاته،
فعظّموه. ومن ازداد ١٣٦ علماً به ازداد منه خوفاً، ومن كان علمه به أقلّ كان
آمن. وفي الحديث: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»^(١). وتقدير اسم الله تعالى
وتأخير العلماء يؤدّن أنّ معناه: أنّ الذين يخشون الله من عباده العلماء دون
غيرهم. ولو عكس لكان المعنى: أنّهم لا يخشون إلّا الله، كقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. وفي الصحيح: «أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية».
(حاشية الكشاف ٣/ ٦١١).

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَكْثُرَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

اللَّهُ ﴿[الأحزاب: ٣٩]﴾. وبينهما تغاير، ففي الأول بيان أَنَّ الخاشين ^(١) هم العلماء، وفي الثاني بيان أَنَّ المخشِي منه هو الله تعالى. وقرأ أبو حنيفة، وعمر بن عبد العزيز، وابن سيرين - رحمهم الله -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. والخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إِنَّمَا يعظم الله من عبادته العلماء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. تعليل لوجوب الخشية بدلالته على عقوبة العصاة، وقهرهم، وإثابة أهل الطاعة، والعفو عنهم، والمعاقب المثيب حقّه أن يُخْشَى.

٢٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يداومون على تلاوة القرآن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: سرّين النفل، ومعلنين الفرض. يعني: لا يقنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إن ﴿تَجَرَّةً﴾ هي: طلب الثواب بالطاعة ﴿لَّنْ تَكْثُرَ﴾ لن تكسد، يعني: تجارة ينتفي عنها الكساد، وتنفق عند الله.

٣٠- ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ﴾ متعلّق ب: لن تبور، أي: ﴿ليؤفّقهم﴾ بنفاقها عنده ﴿أَجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم، أو بتضعيف حسناتهم، أو: بتحقيق وعد لقائه. أو: يرجون في موضع الحال، أي: راجين. واللام تتعلّق بيتلون وما بعده، أي: فعلوا جميع ذلك من التلاوة، وإقامة الصلاة، والإنفاق لهذا الغرض. وخبر ﴿إِنَّ﴾: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: ﴿غفور﴾ لهم ﴿شكور﴾ لأعمالهم، أي: يعطي الجزيل على العمل القليل.

٣١- ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن. و﴿مِّن﴾ للتبيين ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة؛ لأنَّ الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

(١) في الأصل المخطوط: الخاشعين. والمثبت هو الصواب.

إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

لما تقدمه من الكتب ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فعلمك، وأبصر أحوالك، وراك أهلاً لأن يُوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز؛ الذي هو عيار على سائر الكتب.

٣٢ - ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ أي: أوحينا إليك القرآن، ثم أورثناه من بعدك - أي: حكمنا بتوريثه ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمته من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، ومن بعدهم - رضي الله عنهم أجمعين - إلى يوم القيامة؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله. ثم رتبهم على مراتب، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو المرجأ لأمر الله ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾. وهذا التأويل يوافق التنزيل، فإنه تعالى قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]، وقال بعده: ﴿وَالْآخِرُونَ الْآخِرُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]، وقال بعده: ﴿وَالْآخِرُونَ مَثْرُجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ١٠٦] والحديث: فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»^(١) وعنه ﷺ: «السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، وأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يظن أنه لن ينجو، ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة»^(٢). رواه أبو الدرداء.

والأثر: فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - السابق: المخلص، والمقتصد: المرائي، والظالم: الكافر بالنعمة غير الجاحد له؛ لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة.

(١) رواه ابن مردويه كما في (الدر المنثور ٧/ ٢٥) وذكره القرطبي في تفسيره (١٤/ ٣٤٦) ورواه العقيلي في (الضعفاء الكبير ٣/ ٤٤٣) في ترجمة الفضل بن عميرة.

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٩٨) وانظره في مجمع الزوائد (٧/ ٩٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٣) وطريق الهجرتين (ص ٣٦٦).

يَا ذِينَ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾

وقول السلف: فقد قال الربيع بن أنس: الظالم: صاحب الكبائر، والمقتصد: صاحب الصغائر، والسابق: المجتنب لهما. وقال الحسن البصري: الظالم: من رجحت سيئاته، والسابق: من رجحت حسناته، والمقتصد: من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف - رحمه الله - عن هذه الآية، فقال: كلهم مؤمنون، وأما صفة الكفار فبعد هذا، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦] وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده، فإنه قال: فمنهم، ومنهم، ومنهم، والكل راجع إلى قوله: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أهل الإيمان، وعليه الجمهور. وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم، فإنَّ المقتصدين قليلٌ بالإضافة إليهم. والسابقون أقلُّ من القليل. وقال ابن عطاء - رحمه الله -: إنما قدم الظالم لثلاث يأس من فضله. وقيل: إنما قدمه ليعرفه أنَّ ذنبه لا يبعده من ربِّه. وقيل: لأنَّ أوَّلَ الأحوال معصية، ثمَّ توبة، ثمَّ استقامة. وقال سهل: السابق العالم، والمقتصد: المتعلم، والظالم: الجاهل. وقال أيضاً: السابق: الذي اشتغل بمعاده، والمقتصد: الذي اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم: الذي اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم: الذي يعبد على الغفلة والعادة، والمقتصد: الذي يعبد على الرغبة والرغبة، والسابق: الذي يعبد على الهيبة والاستحقاق. وقيل: الظالم من أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً، والمقتصد: من يجتهد ألا يأخذها إلا من حلال، والسابق: من أعرض عنها جملة. وقيل: الظالم: طالب الدنيا، والمقتصد: طالب العقبى، والسابق: طالب المولى ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ بأمره، أو: بعلمه، أو: بتوفيقه ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيراد الكتاب ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

٣٣ - ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ خبر ثانٍ لـ «ذلك»، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: مبتدأ، والخبر: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: الفرق الثلاث ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أبو عمرو ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، جمع سوار ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: من ذهب مرصع باللؤلؤ. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب والهمز: نافع، وحفص، عطفاه على محل ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ أي: يحلون أساور ولؤلؤاً ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما فيه من اللذة، والزينة.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ

٣٤- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ خوف النار، أو: خوف الموت، أو: هموم الدنيا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ يغفر الجنايات وإن كثرت ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل الطاعات وإن قلت.

٣٥- ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها، يقال: أقمت، إقامة، ومقاماً، ومقامة ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ من عطائه وإفضاله، لا باستحقاقنا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب، ومشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب وفترة، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿لُغُوبٌ﴾ بفتح اللام، وهو شيء يلغب منه، أي: لا نتكلف عملاً يلغبنا.

٣٦- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ جواب النفي، ونصبه بإضمار أن، أي: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بموت ثان فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ من عذاب نار جهنم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ نجزي كل: أبو عمرو.

٣٧- ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون، فهو يفتعلون من الصراخ، وهو: الصياح بجهد وشدة. واستعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوته ﴿رَبَّنَا﴾ يقولون ربنا ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: أخرجنا من النار، وردنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر، ونطع بعد المعصية. فيجابون بعد قدر عمر الدنيا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ يجوز أن يكون ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة، أي: تعميراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾. وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتناول أعظم. ثم قيل: هو ثماني عشرة سنة. وقيل: أربعون، وقيل: ستون ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾

فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ

الرسول ﷺ، أو: المشيب. وهو عطف على معنى ﴿أولم نعمركم﴾ لأن لفظه استخبار، ومعناه: إخبار، كأنه قيل: قد عمرناكم ﴿وجاءكم النذير﴾ ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ناصر يعينهم.

٣٨- ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما عنكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كالتعليل؛ لأنه إذا علم ما في الصدور - وهو أخفى ما يكون - فقد علم كل غيب في العالم. وذات الصدور: مضمراتها. وهي تأنيث ذو، في نحو قول أبي بكر - رضي الله عنه -: «ذو بطن خارجة جارية»^(١) أي: ما في بطنها من الحبل لأن الحبل يصحب البطن. وكذا المضمرات تصحب الصدور. و«ذو» موضوع لمعنى الصلبة.

٣٩- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يقال للمستخلف: خليفة، ويجمع على: خلائف. والمعنى: أنه جعلكم خلفاء في أرضه، قد ملككم مقاليد التصرف فيها، وسلطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ منكم، وغمط مثل هذه النعمة السنية ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فوبال كفره راجع عليه. وهو مقت الله، وخسار الآخرة، كما قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا﴾، وهو أشد البغض ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾: هلاكاً، وخسراناً.

٤٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ ألهمتكم التي أشركتموهم في العبادة ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿أرأيتم﴾ لأن معنى ﴿أرأيتم﴾: أخبروني، كأنه قيل: أخبروني عن هؤلاء الشركاء، وعمّا استحقوا به الشركة،

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا
إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا
نُفُورًا ﴿٤٢﴾

﴿أروني﴾ أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي
السَّمَوَاتِ﴾ أم لهم مع الله شركة في خلق السموات ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ
مِّنْهُ﴾ أي: معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه، فهم على حجة وبرهان
من ذلك الكتاب. ﴿بَيِّنَات﴾: علي، وابن عامر، ونافع، وأبو بكر ﴿بَلْ إِن
يَعِدُ﴾ ما يعدُّ ﴿الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ﴾ - بدل من ﴿الظالمون﴾ وهم الرؤساء - ﴿بَعْضًا﴾
أي: الاتباع ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ هو قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

٤١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ يمنعها من أن تزولا؛ لأن
الإمساك منع ﴿وَلَئِن زَالَتَا﴾ على سبيل الفرض ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما
﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إمساكه. و﴿مِنْ﴾ الأولى مزيدة لتأكيد النفي، والثانية
للابتداء ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما، وكانتا
جديرتين بأن تهذا هداً لعظم كلمة الشرك، كما قال: ﴿تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَفْقَطَرْنَ
مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ الآية [مريم: ٩٠].

٤٢ - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ نصب على المصدر، أي: إقساماً بليغاً، أو:
على الحال، أي: جاهدين في أيمانهم. ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ إِحْدَى
الْأُمَمِ﴾ بلغ قريشاً قبل مبعث النبي ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فقالوا:
لئن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول
﴿لنكوننَّ أهدى من إحدى الأمم﴾ أي: من الأمة التي يقال فيها: هي إحدى
الأمم، تفضيلاً لها على غيرها في الهدى، والاستقامة، كما يقال للداهية
العظيمة: هي إحدى الدواهي ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ فلما بعث رسول الله ﷺ ﴿مَّا
زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم مجيء الرسول ﷺ إلا تباعداً عن الحق - وهو
إسناد مجازي -.

أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مَسْنَتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٧﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١٨﴾ وَلَوْ يَوَازِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا

٤٣- ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ مفعول له. وكذا ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾. والمعنى: ﴿وما زادهم إلا نفورًا﴾ للاستكبار ﴿ومكر السيء﴾. أو: حال، يعني: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ. وأصل قوله: ﴿ومكر السيء﴾ وأن مكروا السيء، أي: المكر السيء، ثم ومكراً السيء، ثم ومكر السيء. والدليل عليه قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يحيط وينزل ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ولقد حاق بهم يوم بدر. وفي المثل: «من حفر لأخيه جباً، وقع فيه مُنكباً»^(١) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مَسْنَتَ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو إنزال العذاب على الذين كذبوا برسولهم من الأمم قبلهم. والمعنى: ﴿فهل ينظرون﴾ بعد تكذيبك إلا أن ينزل بهم العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم من مكذبي الرسل. جعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بين أن سنته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل سنة لا يبدلها في ذاتها، ولا يحولها عن أوقاتها، وأن ذلك مفعول لا محالة.

٤٤- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسائرهم إلى الشام، واليمن، والعراق من آثار الماضين، وعلامات هلاكهم، ودمارهم ﴿وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ اقتداراً، فلم يتمكنوا من الفرار ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ ليسبقه ويفوته ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا﴾ بهم ﴿قَدِيرًا﴾ قادراً عليهم.

٤٥- ﴿وَلَوْ يَوَازِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ بما اقترفوا من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ على ظهر الأرض؛ لأنه جرى ذكر الأرض في قوله:

(١) ذكره الزخشي في: «المستقصى في أمثال العرب» رقم (١٣٠٢).

مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

﴿لَيُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من نسمة تدبُّ
عليها ﴿وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ
اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أي: لم تخف عليه حقيقة أمرهم، وحكمة حكمهم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾

- ١- ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: معناه: يا إنسان في لغة طييء. وعن ابن الحنفية: يا محمد. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّاني فِي الْقُرْآنِ بِسَبْعَةِ أَسْمَاءَ: مُحَمَّد، وَأَحْمَد، وَطَه، وَيَس، وَالْمَزْمَل، وَالْمُدَّثِّر، وَعَبْدَ اللَّهِ»^(١). وقيل: يا سيّد ﴿يَس﴾ بالإمالة: عليّ، وهزّة، وخلف، وحمّاد، ويحيى.
- ٢- ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ قسم ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة، أو: لأنّه دليل ناطق بالحكمة، أو: لأنّه كلام حكيم، فوصف بصفة المتكلّم به.
- ٣- ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم. وهو ردّ على الكفار حين قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].
- ٤- ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر، أو: صلة للمرسلين، أي: الذين أرسلوا ﴿على صراط مستقيم﴾ أي: طريقة مستقيمة، وهو: الإسلام.

(١) رواه بنحوه ابن عدي وابن عساكر. (كنز العمال ٣٢١٦٩).

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ
عَلَيْ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ
مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾

٥- ﴿تَنْزِيلَ﴾ بنصب اللام: شامي، وكوفي غير أبي بكر، علي: اقرأ ﴿تنزيل﴾ أو: على أنه مصدر، أي: نزل ﴿تنزيل﴾. وغيرهم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿تنزيل﴾. والمصدر بمعنى المفعول ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوي العناد ﴿الرَّحِيمِ﴾ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولي الرشاد.

٦- واللام في: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متصل بمعنى ﴿المرسلين﴾ أي: أرسلت ﴿لتنذر قوما﴾ ﴿مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ ﴿مَا﴾ نافية عند الجمهور، أي: ﴿قوما﴾ غير منذر آبائهم على الوصف، بدليل قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبا: ٤٤]. أو: موصولة منصوبة على المفعول الثاني، أي: العذاب الذي أُنْذِرُهُ آبَاءَهُمْ، كقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠] أو: مصدرية، أي: لتنذر قوما إنذار آبائهم، أي: مثل إنذار آبائهم ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ إن جعلت ﴿مَا﴾ نافية، فهو متعلق بالنفي، أي: لم ينذروا ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾. وإلا فهو متعلق بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.. لتنذر﴾ كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل، أو: فهو غافل.

٧- ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] أي: تعلق بهم هذا القول، وثبت عليهم، ووجب؛ لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

٨- ثم مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم؛ بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم، في الآ تأمل لهم، ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾، معناه: فالأغلال واصله إلى الأذقان، ملزوزة إليها ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ مرفوعة رؤوسهم، يقال: قمع

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا

البعير فهو قاصح؛ إذا روي ورفع رأسه، وهذا لأن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن، حلقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن، فلا يخلّيه يطاقط رأسه، فلا يزال مقحماً.

٩- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ بفتح السين: حمزة، وعلي، وحفص. وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وما كان من خلق الله كالجبل، ونحوه، فبالضم ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ فأغشينا أبصارهم، أي: غطيناها، وجعلنا عليها غشاوة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الحق، والرشاد.

وقيل: نزلت في بني مخزوم؛ وذلك أن أبا جهل حلف: لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه، فأثاه وهو يصلي، ومعه حجر ليدمغه به؛ فلما رفع يده انثنت إلى عنقه، ولزق الحجر بيده، حتى فكّوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه، فأخبرهم، فقال مخزومي آخر: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله بصره.

١٠- ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: سواء عليه الإنذار وتركه، والمعنى: من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار. روي: أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية على غيلان القدري، فقال: كأني لم أقرأها، أشهدك أنني تأيب عن قولي في القدر. فقال عمر: اللهم إن صدق فتب عليه، وإن كذب فسلط عليه من لا يرحمه. فأخذه هشام ابن عبد الملك من عنده فقطع يديه ورجليه، وصلبه على باب دمشق.

١١- ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك من اتبع القرآن ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ﴾ وخاف عقاب الله، ولم يره ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ وهي العفو عن ذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنة.

١٢- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ نبعثهم بعد مماتهم، أو: نخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحات، وغيرها

وَأَثَرَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٣﴾ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ

﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ ما هلكوا عنه من أثر حسن: كعلم علموه، أو: كتاب صنفوه، أو: حبس، أو: رباط، أو: مسجد صنعوه، أو سبى: كوظيفة وظفها بعض الظلمة، وكذلك كل سبب حسنة، أو: سيئة يستن بها، ونحوه قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] أي: قدم من أعماله، وأخر من آثاره. وقيل: هي خطاهم إلى الجمعة، أو: إلى الجماعة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ عددناه، وبيّناه ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ؛ لأنه أصل الكتب، ومقتداها.

١٣- ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ومثل لهم. من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي: من هذا المثل، و: هذه الأشياء على ضرب واحد، أي: على مثال واحد. والمعنى: ﴿واضرب لهم مثلاً﴾ مثل أصحاب القرية، أي: أنطاكية، أي: اذكر لهم قصة عجيبة، قصة أصحاب القرية. والمثل الثاني بيان للأول. وانتصاب ﴿إِذْ﴾ بدل من أصحاب القرية ﴿جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ رسل عيسى - عليه السلام -، بعثهم دعاءً إلى الحق، وكانوا عبدة أوثان.

١٤- ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى. ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ﴾ أي: أرسل عيسى - عليه السلام - بامرنا ﴿اثْنَيْنِ﴾ صادقاً وصدوقاً، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب التجار، فسأل عن حالهما، فقالا: نحن رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن. فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض، ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ابنٌ مريض من سنين، فمسحاه، فقام، وآمن حبيب. وفشا الخبر، فشفي على أيديهما خلق كثير، فدعاهما الملك، وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم. من أوجدك وآلهتك. فقال: حتى أنظر في أمركما. فتبعهما الناس، وضربوهما. وقيل: حبسا. ثم بعث عيسى - عليه السلام - شمعون، فدخل متكرراً، وعاشر حاشية الملك، حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك، فأنس به. فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين، فهل سمعت قولهما؟ قال: لا. فدعاهما.

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَبَّوْا بِآيَاتِ الْكِتَابِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَعَلَّ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾

فقال شمعون: مَنْ أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء، ورزق كل حي، وليس له شريك. فقال: صفاه وأجزاه. قالا: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك. فدعا بغيلا أمه، فدعوا الله، فأبصر الغلام. فقال له شمعون: أرايت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله الشرف؟ قال الملك: ليس لي عنك سر، إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع، ولا يضرب، ولا ينفع. ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به. فدعوا بغيلا مات من سبعة أيام، فقام، وقال: إني دخلت في سبعة أودية من النار لما مت عليه من الشرك، وأنا أحذركم ما أنتم فيه! فأمنوا. وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة. قال الملك: ومن هم؟ قال: شمعون وهذان؟ فتعجب الملك. فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فأمن، وآمن قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فكذب أصحاب القرية الرسولين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ ففوقناهما - ﴿فَعَزَّزْنَا﴾: أبو بكر، من: عزّه يعزّه؛ إذا غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا - ﴿بِآيَاتِ الْكِتَابِ﴾ وهو شمعون. وترك ذكر المفعول به، لأن المراد ذكر المعزّز به و[هو] ^(١) شمعون، وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق، وذلل الباطل. وإذا كان الكلام منصّباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له، وتوجهه إليه كأن ما سواه مرفوض ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: قال الثلاثة لأهل القرية.

١٥- ﴿قَالُوا﴾ أي: أصحاب القرية ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ رفع ﴿بَشَرٌ﴾ هنا، ونصب في قوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] لانتقاض النفي بإلا، فلم يبق لـ «ما» شبه بليس وهو الموجب بعمله ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وحياً ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ما أنتم إلا كذبة.

١٦- ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَعَلَّ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ﴾ أكد الثاني باللام دون الأول؛ لأن الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار، فيحتاج إلى زيادة تأكيد. و﴿رَبَّنَا

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطْغُرُ نَابَكُمْ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾

يعلم ﴿ جاز مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله. ١٧- ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: التبليغ الظاهر، المكشوف بالآية الشاهدة لصحته.

١٨- ﴿قَالُوا إِنَّا نَطْغُرُ نَابَكُمْ﴾ تشاء منا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه، وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه، وكرهوه، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا: بشؤم هذا، وبركة ذلك. وقيل: حبس عنهم المطر، فقالوا ذلك ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهُوا﴾ عن مقاتل هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لنقتلنكم، أو لنطردنكم، أو: لنشتمنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وليصيبنكم عذاب الحريق، وهو أشد عذاب.

١٩- ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: سبب شؤمكم ﴿مَعَكُمْ﴾ وهو: الكفر ﴿أَيْنَ﴾ بهمة الاستفهام وحرف الشرط: كوفي، وشامي ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ وعظم، ودعيتهم إلى الإسلام، وجواب الشرط مضمرة. وتقديره: تطيرتم. ﴿أَيْنَ﴾ بهمة ممدودة، بعدها ياء مكسورة: أبو عمرو. و﴿أَيْنَ﴾ بهمة مقصورة بعدها ياء مكسورة: مكّي، ونافع ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ بالتخفيف: يزيد ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مجاوزون الحد في العصيان. فمن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله، وتذكيرهم. أو: بل أنتم مسرفون في ضلالكم وغيتكم، حيث تشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله.

٢٠-٢٢- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب النجار، وكان في غار من الجبل يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاها، وأظهر دينه، فقال: أتسألون على ما جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ﴿قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي: الرسل. فقالوا: أو أنت على دين هؤلاء؟ فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقتني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه مرجعكم. ﴿وَمَا لِيَ﴾: حمزة.

ءَاتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ يَضْرِبَ لَكَ تَغْنِ عَفَى شَفَعَتْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾

٢٣- ﴿ءَاتَّخِذْ﴾ بهمزتين: كوفي ﴿مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ يعني: الأصنام ﴿إِنْ يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ يَضْرِبَ﴾ شرط جوابه ﴿لَا تَغْنِ عَفَى شَفَعَتْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ من مكروه. ﴿وَلَا يُنْقِذُونِي﴾ ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥] في الحالين: يعقوب.

٢٤- ﴿إِنِّي إِذَا﴾ أي: إذا اتخذت. ﴿لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ظاهر بيّن.

٢٥- ولما نصح قومه أخذوا يرجونه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال لهم: ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي: اسمعوا إيماني لتشهدوا لي به. ولما قتل:

٢٦، ٢٧- ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وقبره في سوق أنطاكية. ولم يقل: قيل له؛ لأنّ الكلام سيق لبيان المقول لا لبيان المقول له مع كونه معلوماً. وفيه دلالة أنّ الجنة مخلوقة. وقال الحسن: لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إليه، وهو في الجنة، ولا يموت إلّا بفناء السموات والأرض! فلما دخل الجنة، ورأى نعيمها: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بمغفرة ربّي لي، أو: بالذي غفر لي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بالجنة.

٢٨- ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ «ما»: نافية ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ قوم حبيب ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد قتله، أو: رفعه ﴿مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لتعذيبهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ وما كان يصحّ في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء؛ وذلك لأنّ الله تعالى أجرى هلاك كلّ قوم على بعض الوجوه دون بعض لحكمة اقتضت ذلك.

٢٩- ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ الأخذة، أو: العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح جبريل - عليه السلام - صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ميتون، كما تحمد النار.

يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا

والمعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدر، والخذق.

٣٠- ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الحسرة: شدة الندم. وهذا نداء للحسرة عليهم، كأنما قيل لها: تعالي يا حسرة، فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرسول. والمعنى: أنهم أحقأ بأن يتحسّر عليهم المتحسّرون ويتلهّف على حالهم المتلهّفون. أو هم مُتَحَسَّرٌ عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

٣١- ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ «كم» نصب بأهلكنا، و﴿يروا﴾ معلق عن العمل في ﴿كم﴾ لأن ﴿كم﴾ لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام، أو: للخبر؛ لأن أصلها الاستفهام، إلا أن معناه نافذ في الجملة. وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كم أَهْلَكْنَا﴾ على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ﴿ألم يروا﴾ كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم أنهم غير راجعين إليهم.

٣٢- ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ «لما» بالتشديد: شامي، وعاصم، وحزة، بمعنى إلا، و﴿إن﴾ نافية. وغيرهم بالتخفيف، على أن ﴿ما﴾ صلة للتأكيد و﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة. وهي متلقة باللام لا محالة. والتنوين في ﴿كل﴾ عوض من المضاف إليه. والمعنى: إن كلهم محشورون، مجموعون، محضرون للحساب، أو: معذبون، وإنما أخبر عن كل بجميع لأن «كلاً» يفيد الإحاطة. والجميع: فاعل، بمعنى مفعول، ومعناه: الاجتماع، يعني: أن المحشر يجمعهم.

٣٣- ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ مبتدأ وخبر، أي: علامة تدل على أن الله يبعث الموتى إحياء الأرض الميتة، ويجوز أن يرتفع ﴿آية﴾ بالابتداء، و﴿لهم﴾ صفتها، وخبرها ﴿الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾ الياسة. وبالتشديد: مدني ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالمطر. وهو استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك «نسلخ». ويجوز أن توصف

وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿الأرض﴾ و﴿الليل﴾ بالفعل؛ لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض وليل بأعيانهما، فعموما معاملة النكرات في وصفها بالأفعال، ونحوه:
ولقد أُمِرُّ على اللّثيم يُسْبِئِي^(١)

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أريد به الجنس ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدّم الظرف ليدلّ على أنّ الحبّ هو الشيء الذي يتعلّق به معظم العيش، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنسان. وإذا قلّ جاء القحط، ووقع الضرّ، وإذا فقد حضر الهلاك، ونزل البلاء.
٣٤- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿زائدة عند الأخفش. وعند غيره: المفعول محذوف، تقديره: ما ينتفعون به.

٣٥- ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ الضمير لله تعالى، أي: ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ ممّا خلقه الله من الثمر ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وممّا عملته أيديهم من الغرس، والسقي، والتلقيح، وغير ذلك من الأعمال، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعني: أنّ الثمر في نفسه فعل الله وخلق، وفيه آثار من كدّ بني آدم. وأصله: من ثمرنا، كما قال: ﴿وجعلنا﴾. ﴿وفجّرنا﴾ فنقل الكلام من التكلّم إلى الغيبة على طريق الالتفات. ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل، وترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنّه علم أنّها في حكم النخيل مما علّق به من أكل ثمره. ويجوز أن يراد من ثمر المذكور، وهو الجنّات، كما قال رؤية:

فيها خطوط من بياض ويُلَقُّ كأنه في الجلدِ تَوَلَّيعُ الْبَهَقِ
فقل له، فقال: أردت كأنّ ذلك. (وما عَمِلَتْ) كوفيّ غير حفص. وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحف أهل الحرمين، والبصرة، والشام، مع الضمير. وقيل: ﴿ما﴾ نافية، على أنّ الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس، ولا يقدرون عليه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استبطاء، وحثّ على شكر النعمة.

(١) صدر بيت لرجل من بني سلول، وعجزه: فمضيتُ ثمة قلت: لا يعنيني.

سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

٣٦- ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النخل، والشجر، والزرع، والثمر ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الأولاد ذكوراً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها، ولا توصلوا إلى معرفتها، ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس.

٣٧- ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار، أو: ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض، فيعري نفس الزمان كشخص زنجي أسود؛ لأنَّ أصل ما بين السماء والأرض من الهواء الظلمة، فاكتمى بعضه ضوء الشمس كبيت مظلم أسرج فيه، فإذا غاب السراج أظلم ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام.

٣٨- ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ وآية لهم الشمس تجري ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ لحد لها مؤقت مقدر، تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة. شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره. أو: لحد لها من مسيرها كل يوم في مرائي عيوننا، وهو المغرب. أو: لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا ﴿ذَلِكَ﴾ الجري على ذلك التقدير، والحساب الدقيق ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل معلوم.

٣٩- ﴿وَالْقَمَرَ﴾ نصب بفعل يفسره ﴿قَدَرْنَاهُ﴾. وبالرفع: مكّي، ونافع، وأبو عمرو، وسهل، على الابتداء، والخبر: ﴿قَدَرْنَاهُ﴾ أو على: وآية لهم القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه، ولا يتقاصر عنه، على تقدير مستو يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستسر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر. ولا بد في ﴿قَدَرْنَاهُ﴾ منازل من تقدير مضاف؛ لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل، أي: قدرنا نوره يزيد وينقص، أو: قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ فيكون ظرفاً. فإذا كان في آخر منازلها دق، واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ - هو عود الشمر أخ إذا يبس

الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْلَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

واعوج. ووزنه فعلون، من الانعراج، وهو: الانعطاف - ﴿الْقَدِيرِ﴾ العتيق المُنْخُول، وإذا قدم دق، وانحنى، واصفر. فشبّه القمر به من ثلاثة أوجه.

٤٠ - ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ أي: لا يتسهّل لها، ولا يصحّ، ولا يستقيم ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فاجتمع معه في وقت واحد، وتداخله في سلطانه فطمس نوره؛ لأنّ لكل واحد من النّيرين سلطاناً على حياله. فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، ﴿وَلَا الْلَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ ولا يسبق الليل النهار، أي: آية الليل آية النهار، وهما النيران، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن تقوم القيامة، فيجمع الله بين الشمس والقمر، وتطلع الشمس من مغربها ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين فيه عوضٌ من المضاف إليه، أي: وكلّهم. والضمير للشمس والأقمار ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسرون.

٤١ - ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (ذُرِّيَّاتِهِمْ): مدني، وشامي. ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء. والمراد بالذرية: الأولاد، ومن يهتمهم حملة. وكانوا يبعثونهم إلى التجارات براً أو بحراً. أو: الآباء لأنها من الأضداد. والفلك على هذا: سفينة نوح - عليه السلام - . وقيل: معنى حمل الله ذريّاتهم فيها: أنّه حمل آباءهم الأقدمين، وفي أصلاهم هم وذريّاتهم. وإنّما ذكر ذريّاتهم دونهم لأنّه أبلغ في الامتنان عليهم.

٤٢ - ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل. وهي سفائن البر.

٤٣ - ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ فلا مغيث، أو: فلا إغاثة ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ لا يُنْجُونَ.

٤٤ - ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: ولا ينقذون إلا لرحمة منا، ولتمتع بالحياة إلى انقضاء الأجل. فهما منصوبان على المفعول له.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾

٤٥- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر مما أنتم تعملونه من بعد، أو: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها، وما خلفكم من أمر الساعة، أو: فتنة الدنيا وعقوبة الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله. وجواب ﴿إِذَا﴾ مضمر، أي: أعرضوا. وجاز حذفه لأن قوله:

٤٦- ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يدل عليه. و﴿من﴾ الأولى لتأكيد النفي، والثانية للتبعية، أي: ودأبهم الإعراض عند كل آية، وموعظة.

٤٧- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لمشركي مكة ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: تصدقوا على الفقراء ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله! أيفقره الله، ونطعمه نحن؟! ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قول الله لهم، أو: حكاية قول المؤمنين لهم، أو: هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

٤٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وعد البعث، والقيامة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما يقولون. خطاب للنبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم -.

٤٩- ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي: النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد، من: خصمه: إذا غلبه في الخصومة. وشدد الباقون الصاد، أي: يخصمون بإدغام التاء في الصاد، لكنه مع فتح الخاء مكى بنقل حركة التاء المدغمة إليها، وبسكون الخاء: مدني، ويكسر الياء والخاء: يحيي، فأتبع الياء الخاء في الكسر، وفتح الياء وكسر الخاء غيرهم. والمعنى: تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً في معاملاتهم.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۚ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ ﴿٥٥﴾

٥٠- ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ فلا يستطيعون أن يوصوا في شيء من أمورهم توصية ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا يقدرّون على الرجوع إلى منازلهم، بل يموتون حيث يسمعون الصّيحة.

٥١- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية. والصور: القرن، أو: جمع صورة ﴿فَإِذَا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يَغْدُونَ.

٥٢- ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار ﴿يَتَوَلَّوْنَا مَن بَعَثَنَا﴾ من أنشأنا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ مضجعنا. وقف لازم: عن حفص. وعن مجاهد: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم. فإذا صبح بأهل القبور قالوا: ﴿مَن بَعَثَنَا؟﴾ ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ كلام الملائكة، أو: المتقين، أو: الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم، أو: بعضهم بعضاً. أو ﴿مَا﴾ مصدرية. ومعناه: هذا وعدُ الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق. أو: موصولة، وتقديره: هذا الذي وعده الرحمن، والذي صدقه المرسلون، أي: والذي صدق فيه المرسلون.

٥٣- ﴿إِن كَانَتْ﴾ النفخة الأخيرة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب.

٥٤- ثم ذكر ما يقال لهم في ذلك اليوم: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥٥- ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ﴾ بضمّتين: كوفي، وشامي، وبضمة وسكون: مكّي، ونافع، وأبو عمرو. والمعني: في أيّ شغل، وفي شغل لا يوصف، وهو: افتضاض الأبقار، على شط الأنهار، تحت الأشجار، أو: ضرب الأوتار، أو: ضيافة الجبار ﴿فَاكِهِونَ﴾ خبر ثان ﴿فَاكِهِونَ﴾: يزيد.

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظُلُلٍ عَلَى الْأَرْيَافِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾
 سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَأْخُذْ بِعَهْدٍ إِلَيْكُمْ
 يَنْبِئُ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا

والفاكهة والفكه: المتنعم المتلذذ. ومنه الفكاهة؛ لأنه مما يتلذذ به. وكذلك الفكاهة.

٥٦- ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ عطف عليه ﴿فِي ظُلُلٍ﴾ حال، جمع ظلّ، وهو الموضع الذي لا تقع عليه الشمس. كذب وذئاب. أو: جمع ظُلة، كبرمة وبرام، دليله قراءة: حمزة، وعليّ. ﴿ظُلُلٍ﴾ جمع ظُلة، وهي: ما سترك عن الشمس ﴿عَلَى الْأَرْيَافِ﴾ جمع: أريكة، وهي: السرير في الحَجَلَة، أو: الفراش فيها ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبر، أو: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ خبر، و﴿عَلَى الْأَرْيَافِ﴾ مستأنف.

٥٧- ﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ يفتعلون، من: الدعاء، أي: كلّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم، أو: يتمنون، من قولهم: ادَّعِ عليّ ما شئت، أي: تمنّه عليّ. الفراء: هو من الدعوى، ولا يدعون: ما لا يستحقون.

٥٨- ﴿سَلَامٌ﴾ بدل من: ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾. كأنه قال لهم: سلام، يقال ﴿قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾. والمعنى: أنّ الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو: بغير واسطة تعظيماً لهم، وذلك متمناه، ولهم ذلك لا يُمنَعونه. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من ربّ العالمين.

٥٩- ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة. وذلك حين يحشر المؤمنون، ويُسار بهم إلى الجنة. وعن الضحاك: لكلّ كافر بيت من النار، يكون فيه، لا يرى، ولا يرى أبداً. ويقول لهم يوم القيامة:

٦٠- ﴿أَلَمْ نَأْخُذْ بِعَهْدٍ إِلَيْكُمْ يَنْبِئُ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ العهد: الوصية. وعهد إليه: إذا وصّاه. وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلة العقل، وأنزل عليهم من دلائل السمع. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم، ويُرِيته لهم.

٦١- ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ وحدوني، وأطيعوني ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما عهد

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾

إليهم من معصية الشيطان، وطاعة الرحمن ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: صراط بليغ في استقامته، ولا صراط أقوم منه.

٦٢- ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء والتشديد: مكّي، وعاصم، وسهل ﴿جِبِلًّا﴾ بضم الجيم والباء والتشديد: يعقوب ﴿جِبِلًّا﴾ مخففاً: شامي، وأبو عمرو ﴿جِبِلًّا﴾ بضم الجيم والباء وتخفيف اللام: غيرهم. وهذه لغات في معنى الخلق ﴿كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام تقييد على تركهم الانتفاع بالعقل.

٦٣- ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها.

٦٤- ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ادخلوها بكفركم، وإنكاركم لها.

٦٥- ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: نمنعهم من الكلام. ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يروى: أنهم يجحدون، ويخاصمون. فيشهد عليهم جيرانهم، وأهاليهم، وعشائهم، فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم، وتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجيزُ عليّ إلا شاهداً من نفسي، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لَكُنَّ وسحقاً، فعنك كنت أناضل»^(١).

٦٦- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ لأعميناهم، وأذهبنا أبصارهم. والطمس: تغطية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ على حذف الجار، وإيصال الفعل. والأصل: فاستبقوا إلى الصراط ﴿فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ﴾

(١) رواه مسلم (٢٩٦٩) والنسائي في الكبرى (١١٦٥٣).

«أناضل»: أجادل.

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۖ

كفيف ﴿يُصِرُّونَ﴾ حينئذ، وقد طمسنا أعينهم؟!

٦٧- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ فردة، وخنازير، أو: حجارة ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ (على مكاناتهم): أبو بكر، وحماد. والمكانة والمكان واحد، كالقامة والمقام، أي: ﴿لمسخناهم﴾ في منازلهم حيث يجترحون المآثم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء، أو: ﴿مُضِيًّا﴾ أمامهم ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ خلفهم.

٦٨- ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ﴾: عاصم، وحمة. والتنكيس: جعل الشيء أعلاه أسفله. الباقون ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: نقلبه فيه، يعني: من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوة ضعفاً، وبدل الشباب هرماء، وذلك أننا خلقناه على ضعفٍ في جسده، وخلق من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته، ويعقل، ويعلم ماله وما عليه، فإذا انتهى نكسناه ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ فجعلناه يتناقض حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده، وقلة عقله، وخلوه من العلم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله. قال عز وجل: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرْدُّ إِلَىٰ أَوَّلِ أَلْعُمُرِ لَئِنْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عَلِيمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن من قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز، قادرٌ على أن يطمس على أعينهم، ويمسحهم على مكانتهم، ويبعثهم بعد الموت. وبالتالي: مدني، ويعقوب، وسهل.

٦٩- وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، فنزل ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾. أي: وما علمنا النبي عليه الصلاة والسلام قول الشعراء. أو: ﴿وما علمناه﴾ بتعليم القرآن ﴿الشعر﴾ على معنى: أن القرآن ليس بشعر، فهو كلامٌ موزونٌ مقفى، يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ فلا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وما يصح له، ولا يليق بحاله، ولا يتطلب لو طلبه،

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾

أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له، ولم يتسهّل، كما جعلناه أميًا لا يتهدّى للخطّ لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدهش. وأما قوله: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب وقوله:

هل أنت إلا أصبع دميّ وفي سبيل الله ما لقيت

فما هو إلا من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة، من غير صنعة فيه، ولا تكلف، إلا أنه اتفق من غير قصد إلى ذلك، ولا التفات منه أن جاء موزوناً، كما يتفق في خطب الناس، ورسائلهم، ومحاورتهم أشياء موزونة، ولا يُسمّيها أحد شعراً؛ لأنّ صاحبه لم يقصد الوزن. ولا بدّ منه. على أنّه عليه الصلاة والسلام قال: لقيت بالسكون، وفتح الباء في: كذب، وخفض الباء في: المطلب. ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر، قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: المعلّم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هو إلا ذكر من الله يوعظ به الإنس والجنّ، وما هو إلا قرآن كتاب سماويّ يقرأ في المحاريب، ويتلى في المتعبدات، وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين!

٧٠- ﴿لِيُنذِرَ﴾ القرآن، أو: الرسول. ﴿لِيُنذِرَ﴾: مدنيّ، وشاميّ، وسهل، ويعقوب ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً، متأملاً؛ لأنّ الغافل كالميت، أو: حيّاً بالقلب ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ ونجب كلمة العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يتأملون، وهم في حكم الأموات.

٧١- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ أي: ممّا تولّينا نحن إحداثه، ولم يقدر على تولّيه غيرنا ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملكتها إيّاهم، فهم متصرّفون فيها تصرّف الملاك، مختصّون بالانتفاع بها، أو: فهم لها ضابطون، قاهرون.

وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٨﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨٠﴾

٧٢- ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وصيّرناها منقادة لهم، وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذييله تعالى، وتسخيره لها؛ ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ وهو ما يركب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: سخرناها لهم ليركبوا ظهرها، ويأكلوا لحمها.

٧٣- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الجلود، والأوبار، وغير ذلك ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ من اللبن، وهو: جمع مشرب، وهو: موضع الشرب، أو: الشرب ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على إنعام الأنعام؟!

٧٤- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لعل أصنامهم تنصرهم إذا حاربهم أمرّ.

٧٥- ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: آلهتهم. ﴿نَصْرَهُمْ﴾ نصر عابديهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: الكفار للأصنام أعوان وشيعة يخدمونهم، ويدبّون عنهم. أو: اتخذوهم لينصروهم عند الله، ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم، محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار.

٧٦- ﴿فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ﴾ وبضم الياء، وكسر الزاي: نافع، من: حزنه، وأحزنه، يعني: فلا يُهمّك تكذيبهم، وأذاهم، وجفائهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ من عداوتهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإنا مجازوهم عليه. فحقّ مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم، ولا يرهقه الحزن. ومن زعم أن من قرأ ﴿أَنَا نَعْلَمُ﴾ بالفتح فسدت صلاته، وإن اعتقد معناه كفر، فقد أخطأ؛ لأنه يمكن حمله على حذف لام التعليل، وهو كثير في القرآن، والشعر، وفي كلّ كلام. وعليه تلبية رسول الله ﷺ: «أَنَّ الْحَمْدَ

أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

والنعمه لك^(١). كسر أبو حنيفة، وفتح الشافعي - رحمة الله عليهما - وكلاهما تعليل. فإن قلت: إن كان المفتوح بدلاً من ﴿قولهم﴾ كأنه قيل: ﴿فلا يحزنك﴾ أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون، ففساده ظاهر. قلت: هذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً، وعدم تعلقه، لا يدوران على كسر إن وفتحها، وإنما يدوران على تقديرك، فيفضل إن فتحت؛ بأن تقدّر معنى التعليل، ولا تقدر معنى البدل، كما أنك تفضل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت، ولا تقدر معنى المفعولية. ثم إن قدرته كاسراً، أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل، فما فيه إلا نهي رسول الله ﷺ عن الحزن على علمه تعالى بسرهم وعلايتهم، والنهي عن حزنه ليس إثباتاً لحزنه بذلك، كما في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

٧٧- ونزل في أبي بن خلف حين أخذ عظماً بالياً، وجعل يفتنه بيده، ويقول: يا محمد! أترى الله يحبي هذا بعد ما رم؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك جهنم»^(٢) ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مذكورة، خارجة من الإحليل؛ الذي هو قناة النجاسة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ بين الخصومة، أي: فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله، يتصدى لمخاصمة ربّه، وينكر قدرته على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له، وألصقه به، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات. وهو غاية المكابرة.

٧٨- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ بفتة العظم ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ من النسي، فهو أغرب من إحياء العظم. المصدر مضاف إلى المفعول، أي: خلقنا إياه ﴿قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ هو اسم لما يلي من العظام، غير صفة، كالرمة والرفات،

(١) رواه البخاري (١٥٤٩) ومسلم (١١٨٤).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٤٦).

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

فلهذا لم يؤنث، وقد وقع خبراً لمؤنث. ومن يثبت الحياة في العظام، ويقول: إن عظام الميت نجسة؛ لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها، يتشبث بهذه الآية. وهي عندنا طاهرة، وكذا الشعر، والعصب؛ لأن الحياة لا تحلها، فلا يؤثر فيها الموت. والمراد بإحياء العظام في الآية: ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس.

٧٩- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ خلقها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتداء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه أجزاءه وإن تفرقت في البر والبحر، فيجمعه، ويعيده كما كان.

٨٠- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْقِدُونَ﴾ تقدحون. ثم ذكر من بدائع خلقه انقذاح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء، وانطفائها به، وهي الزناد التي تُوري بها الأعراب، وأكثرها من المَرخ والعفار. وفي أمثالهم: «في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار»^(١) يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهي أنثى - فتندح النار بإذن الله. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب؛ لمصلحة الدق للثياب. فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر، قدر على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر. وإجراء أحد الضدين على الآخر بالتعقيب أسهل في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب. و: «الأخضر» على اللفظ، وقرئ: «الخضراء» على المعنى. ثم بين أن من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر بقوله:

٨١- ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الصَّغر بالإضافة إلى السموات والأرض، أو: أن يعيدهم؛ لأن المعاد مثل للمبتدأ،

(١) انظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص ٢٠٢).

بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

وليس به ﴿بَلَى﴾ أي: قل: ﴿بَلَى﴾ هو قادرٌ على ذلك ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الكثير المخلوقات ﴿الْعَلِيمُ﴾ الكثير المعلومات.

٨٢- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ شأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ أن يكونه ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحدث، أي: فهو كائن موجود لا محالة، فالحاصل: أن المكونات بتخليقه وتكوينه، ولكن عبر عن إيجاده بقوله: ﴿كُنْ﴾ من غير أن كان منه كاف ونون، وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد، كأنه يقول كما لا يثقل قول ﴿كُنْ﴾ عليكم، فكذا لا يثقل على الله ابتداء الخلق، وإعادتهم ﴿فَيَكُونُ﴾: شاميّ وعليّ، عطف على ﴿يقول﴾. وأما الرفع فلائها جملة من مبتدأ وخبر؛ لأن تقديرها: فهو يكون، معطوفة على مثلها، وهي: ﴿أمره أن يقول له كن﴾.

٨٣- ﴿فَسُبْحَنَ﴾ تنزيه مما وصفه به المشركون، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: ملك كل شيء، وزيادة الواو والتاء للمبالغة، يعني: هو مالك كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تعادون بعد الموت بلا فوت ﴿تُرْجَعُونَ﴾ يعقوب.

قال عليه الصلاة والسلام: «إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس. من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله له، وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ يس أمام حاجته قضيت له»^(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأها إن كان جائعاً أشبعه الله، وإن كان ظمآن أرواه الله، وإن كان غريباً ألبسه الله، وإن كان خائفاً أمنه الله، وإن كان مستوحشاً آنسه الله، وإن كان فقيراً أغناه الله، وإن كان في السجن أخرجه الله، وإن كان أسيراً خلّصه الله، وإن كان ضالاً هده الله، وإن كان مدينوناً قضى الله دينه من خرائنه». وتُدعى: الدافعة، والقاضية تدفع عنه كل سوء، وتقضي له كل حاجة.

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٧).

(٢) رواه الدارمي عن عطاء بن أبي رباح بلاغاً. (الدر المنثور ٧ / ٣٨).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴿١﴾ فَالزَّجَرَتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّلَايَتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾

١-٣- ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ ﴿١﴾ فَالزَّجَرَتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّلَايَتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ أقسم سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة، أو: بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة، فالزاجرات السحاب سوقاً، وعن المعاصي بالإلهام، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها. وهو قول ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد - رضي الله عنهم - أو: بنفوس العلماء العمال ﴿الصافات﴾ أقدامها في التهجد، وسائر الصلوات: ﴿فالزاجرات﴾ بالمواعظ والنصائح ﴿فالتاليات﴾ آيات الله، والدارسات شرائعه. أو: بنفوس الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك. و﴿صفاً﴾ مصدر مؤكد. وكذلك ﴿زجراً﴾ والفاء تدل على ترتيب الصفات في التفاضل، فتقيد الفضل للصف، ثم للزجر، ثم للتلاوة، أو: على العكس.

٤- وجواب القسم: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ قيل: هو جواب قولهم: ﴿أَجْمَلُ إِلَهِةَ إِلَهِهَا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥].

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ
الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ

٥- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿رَبُّ﴾ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أي: مطالع الشمس، وهي ثلاثمائة وستون مشرقاً. وكذلك المغرب. تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها، وتغرب في مغرب. ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين. وأما ﴿رَبُّ المشرقين ورب المغربين﴾ فإنه أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما، وأما ﴿رَبُّ المشرق والمغرب﴾ فإنه أراد به الجهة. فالمشرق جهة والمغرب جهة.

٦- ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القربى منكم. تأنيث الأدنى ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ حمزة وحفص، على البدل من ﴿زينة﴾. والمعنى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ بالكواكب ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ أبوبكر، على البدل من محل ﴿بِزِينَةِ﴾ أو: على إضمار: أعني، أو: على إعمال المصدر منوئاً في المفعول ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ غيرهم بإضافة المصدر إلى الفاعل، أي: بأن زانتها الكواكب. وأصله: بزينة الكواكب. أو: على إضافته إلى المفعول، أي: بأن زان الله الكواكب وحسنها؛ لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها، وأصله: بزينة الكواكب؛ لقراءة أبي بكر.

٧- ﴿وَحِفْظًا﴾ محمول على المعنى؛ لأنّ المعنى: إِنَّا خَلَقْنَا الْكَوَاكِبَ زِينَةً لِلْسَّمَاءِ وَحِفْظًا مِنَ الشَّيَاطِينِ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] أو: الفعل المعلل مقدّر كأنه قيل: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ زيناها بالكواكب، أو: معناه حفظناها حفظاً ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ خارج من الطاعة.

٨- والضمير في: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ لـ ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ لأنه في معنى الشياطين. ﴿يَسْمَعُونَ﴾ كوفي غير أبي بكر. وأصله: يستمعون. والسمع: تطلب السماع، يقال: تسمع فسمع، وينبغي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ، اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع، وأنهم لا يقدرّون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة، أو: يستمعوا. وقيل: أصله لثلاثاً يسمعون، فحذفت اللام كما حذفت في جئتكم أن تكرمني، فبقي ألا يسمعون فحذفت أن، وأهدر عملها، كما في قوله:

إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْنِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا

أَلَا أَيُّهُدَا الزَّاجِرِ أَحْضَرُ الْوَعْيِ ^(١)

وفيه تعسف يجب صَوْنُ القرآن عن مثله، فإنَّ كُلَّ واحد من الحذفين غير مردود على انفراده، ولكن اجتماعهما منكر. والفرق بين سمعت فلاناً يتحدث، وسمعت إليه يتحدث، وسمعت حديثه وإلى حديثه: أنَّ المعدى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدى يلى يفيد الإصغاء مع الإدراك ﴿إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي: الملائكة؛ لأنهم يسكنون السموات. والإنس والجن هم الملاء الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾ يرمون بالشهب ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للاستراق.

٩- ﴿دُحُورًا﴾ مفعول له، أي: ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾ للدحور، وهو الطرد. أو: مدحورين على الحال، أو: لأنَّ القذف والطرد متقاربان في المعنى، فكأنه قيل: يدحرون، أو: قذفاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم، من: الوصوب، أي: أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب. وقد أعدَّ لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم، غير منقطع.

١٠- و«مَنْ» في: ﴿إِلَّا مَنْ﴾ في محلِّ الرفع بدل من الواو في ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي ﴿خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: سلب السلبة. يعني: أخذ شيئاً من كلامهم بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ لحقه ﴿شَهَابٌ﴾ أي: نجم رجم ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء.

١١- ﴿فَاسْتَفْنِهِمْ﴾ فاستخبر كفار مكة ﴿أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أقوى خلقاً، من قولهم: شديد الخلق، وفي خلقه شدة، أو: أصعب خلقاً وأشق، على معنى الردِّ لإنكارهم البعث، وأنَّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة، ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ يريد ما ذكر من خلقاته من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما. وجيء بـ«مَنْ» تغليبا

(١) صدر بيت لطرفة بن العبد، وعجزه: وأن أشهد اللذات هل أنت غلدي.

إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾
وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوَلَا مَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَلَا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا أَلَوْ لَوْنٌ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾

للعقلاء على غيرهم. ويدل عليه قراءة من قرأ (أم من عددنا) بالتخفيف والتشديد ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ لاصق، أو: لازم. وقرئ به. وهذا شهادة عليهم بالضعف؛ لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة. أو: احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: ﴿أَوَلَا كُنَّا تُرَابًا﴾ [الرعد: ٥]؟ وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث.

١٢- ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من تكذيبهم إياك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم منك ومن تعجبك. أو: ﴿عجبت﴾ من إنكارهم البعث ﴿و﴾ هم ﴿يسخرون﴾ من أمر البعث ﴿بل عجب﴾: حمزة، وعلي، أي: استعظمت. والعجب روعة تعزي الإنسان عند استعظام الشيء، فُجِرِدَ لمعنى الاستعظام في حقه تعالى؛ لأنه لا يجوز عليه الروعة. أو: معناه: قل يا محمد ﴿بل عجب﴾.

١٣- ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به.

١٤- ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزة كانشقاق القمر، ونحوه ﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾ يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها، أو: يبالغون في السخرية.

١٥- ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا﴾ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر.

١٦- ﴿أَوَلَا﴾ استفهام إنكار ﴿مَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَلَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: أنبعث إذا كنّا تراباً، وعظاماً.

١٧- ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ معطوف على محلّ إنّ واسمها، أو: على الضمير في ﴿مبعوثون﴾ والمعنى: أبيعث أيضاً أبائنا؛ على زيادة الاستبعاد، يعنون: أنهم أقدم. فبعثهم أبعد وأبطل ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ بسكون الواو: مدني، وشامي، أي: أبيعث واحد منّا على المبالغة في الإنكار ﴿أَلَوْ لَوْنٌ﴾ الأقدمون.

١٨- ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون. ﴿نَعَمْ﴾: علي. وهما لغتان ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَتْلُوَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُوكَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْذَوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَجِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفَّوهُمْ لِيَتِمَّ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾

١٩- ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان كذلك فما ﴿هِيَ﴾ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. و﴿هِيَ﴾: لا ترجع إلى شيء إنما هي مبهمة موضحها خبرها. ويجوز فإنما البعثة ﴿زجرة واحدة﴾ وهي النفخة الثانية. والزجرة: الصيحة. من قولك: زجر الراعي الإبل أو الغنم: إذا صاح عليهم ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياء بصراء ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى سوء أعمالهم، أو: ينتظرون ما يحلُّ بهم.

٢٠- ﴿وَقَالُوا يَتْلُوَنَا﴾ الويل: كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ﴿هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: اليوم الذي ندان فيه، أي: نُجازى بأعمالنا.

٢١- ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلال ﴿الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُوكَ﴾. ثم يحتمل أن يكون ﴿هذا يوم الدين﴾ إلى قوله: ﴿احشُرُوا﴾ من كلام الكفرة بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون ﴿يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ من كلام الكفرة و﴿هذا يوم الفصل﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم.

٢٢، ٢٣- ﴿احْشُرُوا﴾ خطاب الله للملائكة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: وأشباههم أو قرناءهم من الشياطين، أو: نساءهم الكافرات. والواو: بمعنى مع. وقيل: للعطف. وقرئ بالرفع عطفاً على الضمير في ﴿ظلموا﴾ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ من دُونِ اللَّهِ أي: الأصنام ﴿فَأَهْذَوْهُمْ﴾ دلَّوهم، عن الأصمعي. هديته في الدين هدى، وفي الطريق هداية ﴿إِلَى صِرَاطِ الْحَجِيمِ﴾ طريق النار.

٢٤- ﴿وَقَفَّوهُمْ﴾ احبسوهم. ﴿لِيَتِمَّ مَسْئُولُونَ﴾ عن أقوالهم، وأفعالهم.

٢٥- ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً، وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا متناصرين في الدنيا. وقيل: هو جواب لأبي جهل حيث قال يوم بدر: ﴿مَنْ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، وهو في موضع النصب على الحال، أي: ﴿مالككم﴾ غير متناصرين.

بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَالِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾

٢٦- ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون. أو: قد أسلم بعضهم بعضاً، وخذله عن عجز، فكلهم مستسلم غير منتصر.

٢٧- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: التابع على المتبوع ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتخاصمون.

٢٨- ﴿قَالُوا﴾ أي: الأنباغ للمتبوعين ﴿كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن القوة، والقهر؛ إذ اليمين موصوفة بالقوة، وبها يقع البطش، أي: أنكم كنتم تحملوننا على الضلال، وتقسروننا عليه.

٢٩- ﴿قَالُوا﴾ أي: الرؤساء ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بل أبيتم أنتم الإيمان، وأعرضتم عنه مع تمككنكم منه، مختارين له على الكفر، غير ملجئين.

٣٠- ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تسلط نسلبكم به تمككنكم، واختياركم ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ بل كنتم قوماً مختارين الطغيان.

٣١- ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ فلزمننا جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ﴾ يعني: وعيد الله بأننا ذائقون لعذابه لا محالة؛ لعلمه بحالنا. ولو حكى الوعيد كما هو لقال: إنكم لذائقون، ولكنه عدل به إلى لفظ التكلم لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم. ونحوه قوله:

فقد زَعَمْتُ هَٰوَ زَنْ قُلَّ مَالِي^(١)

ولو حكى قولها لقال: قُلَّ مَالِك.

٣٢- ﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ﴾ فدعوناكم إلى الغي ﴿إِنَّا كُنَّا غَالِينَ﴾، فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا.

٣٣- ﴿فَأَنَّهُمْ﴾ فإن الأنباغ والمتبوعين جميعاً ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ كما كانوا مشتركين في الغواية.

إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَارِكُوا ءَالِهَتَنَا لِشَاعِرٍ تَجْتُنِمْ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَّكُهُمْ وَهُمْ يَخْرَوْنَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾

٣٤- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: بالمشركون ﴿إِنَّا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نَفْعَلُ﴾ بكل مجرم.

٣٥- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إنهم كانوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد استكبروا عنها، وأبوا إلا الشرك.

٣٦- ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَارِكُوا ءَالِهَتَنَا لِشَاعِرٍ تَجْتُنِمْ﴾ يعنون: محمداً ﷺ. وهمزتين: شامي، وكوفي ﴿لَتَارِكُوا ءَالِهَتَنَا لِشَاعِرٍ تَجْتُنِمْ﴾

٣٧- ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ ردّ على المشركون ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ كقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣].

٣٨، ٣٩- ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿بلا زيادة.

٤٠- ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام: كوفي، ومدني. وكذا ما بعده. أي: لكن عباد الله - على الاستثناء المنقطع.

٤١، ٤٢- ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ فسر الرزق المعلوم بالفواكه، وهي: كل ما يتلذذ به، ولا يتقوت لحفظ الصحة، يعني: أن رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد، فما يأكلونه للتلذذ. ويجوز أن يراد: ﴿رزق معلوم﴾ منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم، ورائحة، ولذة، وحسن منظر. وقيل: معلوم الوقت، كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]. والنفس إليه أسكن ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ معظّمون.

٤٣- ﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً، وأن يكون حالاً، وأن يكون خبراً بعد خبر. وكذا:

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِلَافِ عَيْنٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾

٤٤- ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ التقابل أتم للسور، وأنس.

٤٥- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ﴾^(١) بغير همز: أبو عمرو، وحمزة في الوقف، وغيرهما: بالهمزة. يقال للزجاجة فيها الخمر كأس. وتسمى الخمر نفسها كأساً. وعن الأخفش: كل كأس في القرآن فهي الخمر. وكذا في تفسير ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ من شراب معين، أو: من نهر معين، وهو: الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون. وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ حَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

٤٦- ﴿بَيَّضَاءَ﴾ صفة للكأس ﴿لَذَّةٍ﴾ وصفت باللذة، كأنها نفس اللذة وعينها، أو: ذات لذة ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾.

٤٧- ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم كخمور الدنيا. وهو من: غاله، يغو له، غولاً: إذا أهلكه، وأفسده ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ يسكرون، من: نُزِفَ الشارب: إذا ذهب عقله. ويقال للسكران: نزيف، ومنزوف ﴿يُنْزَفُونَ﴾: عليّ، وحمزة، أي: لا يسكرون، أو: لا يُنْفَدَ شرابهم، من: أنزف الشارب؛ إذا ذهب عقله، أو: شرابه.

٤٨- ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِلَافِ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿عَيْنٌ﴾ جمع عيناء، أي: نجلاء، واسعة العين.

٤٩- ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ مصون. شبهن ببيض النعام المكنون في الصفاء. وبها تشبه العرب النساء، وتسميهن بيضات الخدور.

٥٠- ﴿وَعُطِفَ﴾ فاقبل بعضهم ﴿يَعْنِي﴾: أهل الجنة ﴿عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ على

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: (بكاس) بغير همز. وهي قراءة: أبي عمرو، وأبي جعفر، والسوسي. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٣٥).

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لَئِن الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظْمًا أَهْلًا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ
تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ
بِمَبِيتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٥٩﴾

﴿يطاف عليهم﴾ والمعنى: يشربون، فيتحدثون على الشراب كعادة الشُّرب^(١).
قال:

وما بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكَرَامِ عَلَى الْمُدَامِ^(٢)
فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا، إِلَّا أَنَّهُ
جِيءَ بِهِ مَاضِيًا عَلَى مَا عُرِفَ فِي أَخْبَارِهِ.

٥١، ٥٢ - ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ ﴿٥٢﴾﴾ بهمزتين: شامي،
وكوفي ﴿لَئِن الْمَصْدِقِينَ﴾ بيوم الدين.

٥٣ - ﴿أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهْلًا لَمَدِينُونَ﴾ لمجزيون. من الدين، وهو: الجزء.

٥٤ - ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين؟
قيل: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ كَوَىٰ يَنْظُرُ أَهْلُهَا مِنْهَا إِلَى أَهْلِ النَّارِ. أو: قال الله تعالى لأهل
الجنة: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ﴾ إلى النار فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار.
٥٥ - ﴿فَأَطْلَعَ﴾ المسلم ﴿قَرَاءَهُ﴾ أي: قرينه ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ في وسطها.

٥٦ - ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتُرْدِينَ﴾ ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة. وهي تدخل على
كاد كما تدخل على كان، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والإرداء:
الإهلاك. وبالياء في الحالين: يعقوب.

٥٧ - ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ وهي: العصمة، والتوفيق في الاستمسك بعروة الإسلام
﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا العذاب، كما أحضرته أنت وأمثالك.

٥٨، ٥٩ - ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ الفاء للعطف
على محذوف تقديره: ﴿أ﴾ نحن مخلصون منعمون ﴿فَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ﴾

(١) «الشرب»: جمع شارب.

(٢) البيت للفرزدق.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَيعْمَلَ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾

ولا معذيين. والمعنى: أن هذه حال المؤمنين، وهو: ألا يذوقوا إلا الموتة الأولى، بخلاف الكفار فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة. وقيل لحكيم: ما شرُّ من الموت؟ قال: الذي يُتمنى فيه الموت. وهذا قولٌ يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله بمسمع من قرينه ليكون توبيخاً له، وزيادة تعذيب. و﴿موتتنا﴾: نصب على المصدر. والاستثناء متصل، تقديره: لا نموت إلا مرة، أو: منقطع، وتقديره: لكن الموتة الأولى قد كانت في الدنيا. ثم قال لقرينه تقريباً له: ٦٠- ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: الأمر الذي نحن فيه ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. ثم قال الله عز وجل.

٦١- ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَيعْمَلَ الْعَمِلُونَ﴾ وقيل هو أيضاً من كلامه.

٦٢- ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً﴾ تمييز، أي: نعيم الجنة وما فيها من اللذات والطعام والشراب خير نزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ خير نزلاً؟ والنزل: ما يقام للنازل بالمكان من الرزق. والزقوم: شجر مَرَّ يكون بتهامة.

٦٣- ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة، أو: ابتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر؟ فكذبوا.

٦٤- ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ قيل: منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتهما.

٦٥- ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها. وشبه برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة، وقبح المنظر؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض. وقيل: الشيطان: حية عرفاء، قبيحة المنظر، هائلة جداً.

٦٦- ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرة، أو: من طلعها ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلفَوْا
 ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهِرُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

فما لئو بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد.

٦٧- ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على أكلها ﴿لَشَوْبًا﴾ لخلطاً ولمزاجاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حارّ، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، كما قال في صفة شراب أهل الجنة: ﴿وَمَزَاجُهُم مِّنْ تَنْمِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]. والمعنى: ثم إنهم يملؤون البطون من شجرة الزقوم، وهو حارّ، يحرق بطونهم، ويعطشهم، فلا يسقون إلاّ بعد مليّ تعذيباً لهم ذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحرّ، وهو: الشراب المشوب بالحميم.

٦٨- ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: أنهم يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم - وهي: الدركات التي أسكنوها - إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يتملؤوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم. ومعنى التراخي في ذلك ظاهر.

٦٩، ٧٠- ﴿إِنَّهُمْ أَلفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهِرُونَ ﴿٦٩﴾ علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد بتقليد الآباء في الدين، واتباعهم إياهم في الضلال، وترك اتباع الدليل. والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يجثّون حثّاً.

٧١- ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قوم قريش ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: الأمم الخالية بالتقليد، وترك النظر والتأمل.

٧٢- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ أنبياء - عليهم السلام - حذروهم العواقب.

٧٣- ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: الذين أنذروا، وحذروا. أي: أهلكوا جميعاً.

٧٤- ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: إلاّ الذين آمنوا منهم، وأخلصوا لله دينهم، أو: أخلصهم الله لدينه، على القراءتين.

٧٥- ولما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية، وسوء عاقبة المنذرين، أتبع

وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾

ذلك ذكر نوح، ودعائه إياه حين أيس من قومه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا﴾ دعانا لننجاه من الغرق. وقيل: أريد به قوله: ﴿أَيَّ مَعْلُوبٍ فَاتَّصِرَ﴾ [القمر: ١٠] ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ اللام الداخلة على «نِعْمَ»: جواب قسم محذوف. والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: ﴿ولقد نادانا نوح﴾ فوالله لنعم المجيبون نحن. والجمع دليل العظمة والكبرياء. والمعنى: أنا أجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه، وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون.

٧٦- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ ومَنْ آمَنَ بِهِ، وأولاده ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ غَمُّ الغرق.

٧٧- ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ وقد فني غيرهم. قال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح. وكان لنوح - عليه السلام - ثلاثة أولاد: سام: وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام: وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث: وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج.

٧٨- ﴿وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهي:

٧٩- ﴿سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ﴾ يعني: يسلّمون عليه تسليماً، ويدعون له. وهو من الكلام المحكي، كقولك: قرأت سورة أنزلناها ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي: ثبت هذه التحية فيهم جميعاً، ولا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح، وأدامه في الملائكة والثقلىن، يسلّمون عليه عن آخرهم.

٨٠- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ علّل مجازاته بتلك التكرمة السنية بأنه كان محسناً.

٨١- ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم علّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً؛ ليريك جلالة محلّ الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح، والتعظيم.

٨٢- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ أي: الكافرين.

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ ٨٣ ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ٨٤ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ٨٥ ﴿أَفَكَاةَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ٨٦ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٨٧ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ٨٨ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ٨٩

٨٣- ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من شيعة نوح، أي: ممن شايعه على أصول الدين، أو: شايعه على التصلب في دين الله، ومصابرة المكذبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمئة وأربعون سنة، وما كان بينهما إلا نبيان: هود، وصالح.

٨٤- ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ «إذ» تعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة. يعني: ﴿وَإِنَّ﴾ ممن شايعه على دينه وتقواه حين ﴿جاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك، أو: من آفات القلوب، ﴿لإبراهيم﴾. أو: بمحذوف، وهو: اذكر. ومعنى المجيء بقلبه ربه: أنه أخلص لله قلبه، وعلم الله ذلك منه، فضرب المجيء مثلاً لذلك.

٨٥، ٨٦- ﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَفَكَاةَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ «إفكاً» مفعول له، تقديره: أتريدون آلهة من دون الله إفكاً. وإنما قدم المفعول به على الفعل للعناية، وقدم المفعول له على المفعول به؛ لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون ﴿إفكاً﴾ مفعولاً به، أي: أتريدون إفكاً. ثم فسر الإفك بقوله: آلهة من دون الله، على أنها إفك في نفسها؛ أو: حالاً، أي: أتريدون آلهة من دون الله آفكين.

٨٧- ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ أي شيء ظنكم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأنتم تعبدون غيره. و﴿ما﴾ رفع بالابتداء. والخبر: ﴿ظنكم﴾. أو: فما ظنكم به ماذا يفعل بكم، وكيف يعاقبكم، وقد عبدتم غيره، وعلمتم أنه المنعم على الحقيقة، فكان حقيقاً بالعبادة؟

٨٨- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي: نظر في النجوم رامياً يبصره إلى السماء، متفكراً في نفسه كيف يحتال. أو: أراهم أنه ينظر في النجوم لاعتقادهم علم النجوم، فأوهمهم أنه استدلل بأماره على أنه يسقم.

٨٩- ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مشارف للسقم - وهو: الطاعون، وكان أغلب

فَنُؤَلِّوْا عَنْهُ مُدْرِبِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ فَقَالَ آَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾

الأسقام عليهم. وكانوا يخافون العدو - ليتفرقوا عنه. فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد. ففعل بالأصنام ما فعل. وقالوا: علم النجوم كان حقاً، ثم نسخ الاشتغال بمعرفته. والكذب حرام إلّا إذا عرّض. والذي قاله إبراهيم - عليه السلام - مغراض من الكلام، أي: سأسقم. أو: من في عنقه الموت سقيم. ومنه المثل: كفى بالسلامة داءً. ومات رجل فجأة، فقالوا: مات، وهو صحيح. فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه؟ أو: أراد ﴿إني سقيم﴾ النفس لكفركم، كما يقال: أنا مريض القلب من كذا.

٩٠- ﴿فَنُؤَلِّوْا﴾ فأعرضوا ﴿عَنْهُ مُدْرِبِينَ﴾ مولين الأدبار.

٩١- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ﴾ فمال إليهم سراً ﴿فَقَالَ﴾ استهزاء: ﴿آَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ وكان عندها طعام.

٩٢- ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ والجمع بالواو والنون لما أنه خاطبها خطاب من يعقل.

٩٣- ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ فأقبل عليهم مستخفياً، كأنه قال: فضربهم ﴿ضَرْبًا﴾ لأن ﴿راغ عليهم﴾ بمعنى: ضربهم. أو: ﴿فراغ عليهم﴾ يضربهم ﴿ضَرْبًا﴾ أي: ضارباً ﴿بِالْيَمِينِ﴾ أي: ضرباً شديداً قوياً؛ لأنّ اليمين أقوى الجارحتين، وأشدّهما، أو: بالقوة والمتانة، أو: بسبب الحلف الذي سبق منه، وهو قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

٩٤- ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم ﴿يَزْفُونَ﴾ يسرعون. من الزفيف، وهو: الإسراع ﴿يَزْفُونَ﴾: حمزة، من: أزف، إذا دخل في الزفيف، إزفافاً، وكأنه قد رآه بعضهم يكسرها، وبعضهم لم يره، فأقبل من رآه مسرعاً نحوه، ثم جاء من لم يره يكسرها، فقال لمن رآه: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهِنَا إِنَّهُ لَإِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] فأجابوه على سبيل التعريض بقولهم: ﴿سَمِعْنَا فَقَدْ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ثم قالوا بأجمعهم: نحن نعبدها وأنت تكسرها؟! فأجابهم بقوله:

قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي
الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي
سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ

٩٥- ﴿قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم.

٩٦- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وخلق ما تعملونه من الأصنام؟ أو: ﴿مَا﴾ مصدرية، أي: وخلق أعمالكم. وهو دليلنا في خلق الأفعال، أي: الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟

٩٧- ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ﴾ أي: لأجله ﴿بُيُوتًا﴾ من الحجر، طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً ﴿فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدة. وقيل: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم.

٩٨- ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ بإلقائه في النار ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ المهوورين عند الإلقاء.

٩٩- فخرج من النار ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إلى موضع أمرني بالذهاب إليه ﴿سَيِّدِينَ﴾ سيرشدني إلى ما فيه صلاح في ديني، ويعصمني، ويوفقني. ﴿سَيِّدِينَ﴾ فيهما: يعقوب.

١٠٠- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بعض الصالحين، يريد الولد؛ لأن لفظ الهبة غلب في الولد.

١٠١- ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم؛ لأن الصبي لا يُوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً؛ وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ثم استسلم لذلك؟!.

١٠٢- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ﴾ بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله، وحوائجه. و﴿معه﴾ لا يتعلق بـ «بلغ» لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي، ولا بالسعي؛ لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه، فبقي أن يكون بياناً، كأنه لما قال «فلما بلغ السعي» أي: الحد الذي يقدر فيه على السعي، قيل: مع من؟ قال: مع أبيه.

قَالَ يَبْنُئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى^١ قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٤﴾ وَتَدْنِيَهُ أَنْ
يَبْرَأَهُمْ ﴿١٠٥﴾ قَدْ صَدَّقَت الرُّؤْيَا

وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿قَالَ يَبْنُئُ﴾ حفص . والباقون بكسر الياء
﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ ويفتح الياء فيهما: حجازي، وأبو عمرو، قيل له
في المنام: اذبح ابنك . ورؤيا الأنبياء وحي، كالوحي في اليقظة . وإنما لم يقل:
رأيت؛ لأنه رأى مرة بعد مرة . فقد قيل: رأى ليلة التروية كأن قائلًا يقول له:
إنَّ الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روى في ذلك من الصباح إلى
الرواح: أمن الله هذا الحلم، أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية، فلما
أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، فمن ثم سمي يوم عرفة، ثم رأى
مثل ذلك في الليلة الثالثة، فهم بنحره، فسَمِيَ يوم النحر ﴿فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾
من الرأي على وجه المشاورة، لا من رؤية العين . ولم يشاوره ليرجع إلى رأيه
ومشورته، ولكن ليعلم أيجز أم يصبر؟ ﴿تُرَى﴾: علي، وحزة، أي: ماذا
تبصر من رأيك، وتبديه ﴿قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ﴿ما تؤمر﴾ به . وقرئ
به ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على الذبح . روي: أنَّ الذبيح قال لأبيه:
يا أبت! خذ بناصيتي، واجلس بين كتفي، حتى لا أؤذيكَ إذا أصابتنِي الشفرة،
ولا تذبحني وأنت تنظر في وجهي، عسى أن ترحمني، واجعل وجهي إلى
الأرض . ويروى: اذبحني وأنا ساجد، وقرأ على أمي سلامي، وإن رأيت أن
ترد قميصي على أمي فافعل، وإنه عسى أن يكون أسهل لها .

١٠٣-١٠٥- ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ انقادا لأمر الله، وخضعا - وعن قتادة - رحمه الله -:
أسلم هذا ابنه، وهذا نفسه - ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ وصرعه على جبينه، ووضع السكين
على حلقه فلم يعمل، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، ونودي: يا
إبراهيم قد صدقت الرؤيا . روي أنَّ ذلك المكان عند الصخرة التي بمنى .
وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف، تقديره: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ﴿وَتَدْنِيَهُ أَنْ
يَبْرَأَهُمْ﴾ ﴿قَدْ صَدَّقَت الرُّؤْيَا﴾ - أي: حققت ما أمرناك به في المنام من تسليم
الولد للذبح - كان ما كان بما ينطق به الحال، ولا يحيط به الوصف من

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٧﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٨﴾

استبشارهما، وحمدهما الله، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله. أو: الجواب: قبلنا منه، و: ﴿ناديناه﴾ معطوف عليه ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتحويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة.

١٠٦- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم، أو: المحنة البينة.

١٠٧- ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ﴾ هو ما يذبح. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو الكبش الذي قرب به هابيل فقبل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فُدي به إسماعيل. وعنه: لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنة، وذبح الناس أبناءهم ﴿عَظِيمٍ﴾ ضخم الجثة، سمين. وهي السنة في الأضاحي. وروي: أنه هرب من إبراهيم عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتى أخذه، فبقيت سنة في الرمي. وروي: أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر، الله أكبر. وقال: الذبيح - عليه السلام -: لا إله إلا الله، والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبر، والله الحمد، فبقي سنة. وقد استشهد أبو حنيفة - رحمه الله - بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده: أنه يلزمه ذبح شاة.

والأظهر: أن الذبيح إسماعيل، وهو قول أبي بكر، وابن عباس، وابن عمر، وجماعة من التابعين - رضي الله عنهم - لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنا ابن الذبيحين»^(١) فأحدهما جدّه إسماعيل والآخر أبوه عبد الله. وذلك: أن عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح آخر ولده تقرباً، وكان عبد الله آخراً ففداه بمئة من الإبل، ولأنّ قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في زمن الحجاج وابن الزبير. وعن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعي! أين عزب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحصر بمكة. وعن علي، وابن مسعود، والعباس، وجماعة من التابعين - رضي الله عنهم - أنه إسحاق. ويدلّ عليه كتاب يعقوب إلى يوسف

(١) انظر مستدرک الحاكم (٢/٥٥٤).

وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا

- عليهما السلام -: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وإنما قال: ﴿وفدّيناه﴾ وإن كان الفادي إبراهيم - عليه السلام - والله تعالى هو الْمُفْتَدَى منه؛ لأنّه الأمر بالذبح؛ لأنّه تعالى وهب له الكبش ليفتدي به. وهاهنا إشكال: وهو أنّه لا يخلو إمّا أن يكون ما أتى به إبراهيم - عليه السلام - من بطحه على شقه، وإمرار الشفرة على حلقه في حُكِّم الذبح أم لا؟ فإن كان في حُكِّم الذبح، فما معنى الفداء، والفداء هو: التخليص من الذبح ببدل؟ وإن لم يكن، فما معنى قوله: ﴿قد صدّقت الرؤيا﴾؟ وإنّما كان يصدّقها لو صدّح منه الذبح أصلاً أو بدلاً. ولم يصحّ. والجواب: أنّه - عليه السلام - قد بذل وسعه، وفعل مايفعل الذابح، ولكنّ الله تعالى جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه. وهذا لا يقدر في فعل إبراهيم - عليه السلام - ووهب الله له الكبش ليقم ذبحه مقام تلك الحقيقة في نفس إسماعيل - عليه السلام - بدلاً منه. وليس هذا بنسخ للحكم، كما قال البعض، بل ذلك الحكم كان ثابتاً، إلّا أنّ المحلّ الذي أضيف إليه لم يحلّه الحكم على طريق الفداء دون النسخ، وكان ذلك ابتلاء ليستقرّ حكم الأمر عند المخاطب في آخر الحال، على أنّ المبتغى منه في حقّ الولد أن يصير قريباً بنسبة الحكم إليه، مكرماً بالفداء الحاصل لمعرة الذبح، مبتلى بالصبر والمجاهدة إلى حال المكاشفة، وإنّما النسخ بعد استقرار المراد بالأمر لا قبله. وقد سمي فداء في الكتاب لا نسخاً.

١٠٨، ١٠٩ - ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ لا وقف عليه لأنّ: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ مفعول ﴿وَرَكْنَا﴾.

١١٠ - ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل إنّنا هنا كما في غيره؛ لأنّه قد سبق في هذه القصّة، فاستخفّ بطرحه اكتفاءً بذكره مرّة عن ذكره ثانية.

١١١، ١١٢ - ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا ﴿١١١﴾ حال مقدرة من إسحاق. ولا بدّ من تقدير مضاف محذوف، أي: ﴿وبشرناه به﴾ وجود

مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ
 مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَخَيَّجْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ
 الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ ﴿١١٧﴾
 وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾

﴿إسحاق نبياً﴾، أي: بأن يوجد مقدرة نبوته، فالعامل في الحال الوجود لا فعل
 البشارة ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال ثانية. وورودها على سبيل الثناء؛ لأن كل نبي
 لا بد أن يكون من الصالحين.

١١٣- ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا.
 وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده وعلى إسحاق بأن أخرجنا من صلبه ألف
 نبي، أولهم يعقوب، وآخرهم عيسى - عليهم السلام - ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾
 مؤمن ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ كافر ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر. أو: محسن إلى الناس، وظالم
 على نفسه بتعديه عن حدود الشرع. وفيه تنبيه على أن الخبث والطيب لا يجري
 أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البر الفاجر، والفاجر البر، وهذا مما
 يهدم أمر الطبائع والعناصر، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعب
 ولا نقیصة، وأن المرء يعاب بسوء فعله، ويُعاقب على ما اجتاحت يده لا على
 ما وجد من أصله، أو فرعه.

١١٤- ﴿وَلَقَدْ مَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ بالنبوة.

١١٥- ﴿وَخَيَّجْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الغرق،
 أو: من سلطان فرعون، وقومه، وغشهم.

١١٦- ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ أي: موسى وهارون، وقومهما ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾
 على فرعون، وقومه.

١١٧- ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ﴾ البليغ في بيانه، وهو: التوراة.

١١٨- ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صراط أهل الإسلام، وهي صراط
 الذين أنعم الله عليهم ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾

١١٩-١٢٣ - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ هو إيلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى. وقيل: هو
إدريس النبي - عليه السلام -. وقرأ ابن مسعود - رضي الله عنه -: (وَإِنَّ
إِدْرِيْسَ) في موضع ﴿إِلْيَاسَ﴾.

١٢٤ - ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تخافون الله!

١٢٥ - ﴿أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾ - هو علم لصنم كان من ذهب. وكان
طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه. فتنوا به، وعظموه حتى أخدموه أربعمئة
سادن، وجعلوهم أنبياءه. وكان بموضعهم يقال له بك، فركب وصار بعلبك،
وهو من بلاد الشام - وقيل: إيلياس مُوَكَّلٌ بالفيافي، كما وكل الخضر بالبحار.
والحسن يقول: قد هلك إيلياس والخضر، ولا نقول كما يقول الناس: إنهما
حَيَّان ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن
المقْدَرين!؟

١٢٦ - ﴿اللَّهُ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بنصب الكل: عراقي غير أبي
بكر، وأبي عمرو، على البدل من ﴿أحسن﴾. وغيرهم بالرفع على الابتداء.
١٢٧، ١٢٨ - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ من
قومه.

١٢٩، ١٣٠ - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ أي: إيلياس وقومه
المؤمنين، كقولهم: الخبيون، يعني: أبا خبيب عبد الله بن الزبير، وقومه ﴿آل
ياسين﴾: شامي، ونافع؛ لأن ياسين اسم أبي الياص، فأضيف إليه الآل.

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٨﴾ إِذْ بَجَّعْنَاهُ وَآهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٤٠﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٤١﴾ وَلِنُكْزِرَ لَنُكْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْهِحِينَ ﴿١٤٢﴾ وَيَأْتِلُّ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١٤٣﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٤﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٥﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤٦﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٧﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٨﴾

١٣١ - ١٣٥ - ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٨﴾ إِذْ بَجَّعْنَاهُ وَآهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٩﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٤٠﴾ في الباقيين .

١٣٦ - ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا﴾ أهلكنا ﴿الْآخَرِينَ﴾ .

١٣٧ - ﴿وَلِنُكْزِرَ﴾ يا أهل مكة ﴿لَنُكْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْهِحِينَ﴾ داخلين في الصباح .

١٣٨ - ﴿وَيَأْتِلُّ﴾ والوقف عليه مطلق ﴿أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ يعني : تَمْرُونَ على منازلهم في متاجرهم إلى الشام ليلاً ونهاراً، فما فيكم عقول تعتبرون بها؟! وإنما لم يختتم قصة لوط ويونس بالسلام، كما ختم قصة من قبلهما؛ لأن الله تعالى قد سلم على جميع المرسلين في آخر السورة، فاكتمى بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام .

١٣٩ ، ١٤٠ - ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إِذْ أَبَقَ ﴿الإباق﴾ : الهرب إلى حيث لا يُهْتَدَى إليه الطلب، فَسُمِّيَ هربه من قومه بغير إذن ربه إباقاً مجازاً ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء . وكان يونس - عليه السلام - وعد قومه العذاب . فلَمَّا تأخر العذاب عنهم خرج كالمستور منهم . فقصده البحر، وركب السفينة، فوفقت، فقالوا: ها هنا عبد أبى من سيده . وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها أبى لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس - عليه السلام - فقال: أنا الآبق، وزج بنفسه في الماء . فذلك قوله :

١٤١ - ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارعهم مرة أو: ثلاثاً بالسهم . والمساهمة : إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوتين بالقرعة .

١٤٢ - ﴿فَالْتَقَمَهُ﴾ فابتلعه ﴿الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل في الملامة .

١٤٣ - ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح؛ أو :

لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُنْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَتَأَمَّنُوا فَمَرَّعْتَهُمْ إِلَى جِئٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتَاهُمُ أَلَيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

من القائلين: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أو: من المصلين قبل ذلك. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - كل تسبيح في القرآن فهو صلاة. ويقال: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

١٤٤ - ﴿لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُنْعَثُونَ﴾ الظاهر لبثه حياً إلى يوم البعث. وعن قتادة: لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة. وقد لبث في بطنه ثلاثة أيام، أو: سبعة، أو: أربعين يوماً. وعن الشعبي - رحمه الله -: التقمه ضحوة، وَلَفَّظَهُ عَشِيَّةً.

١٤٥ - ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ فألقيناه بالمكان الخالي الذي لا شجر فيه ولا بناء ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عليل مما ناله من التقام الحوت. وروى: أنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد.

١٤٦ - ﴿وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾ أنبتناها فوقه مظلة له، كما كان يطنّب البيت على الإنسان ﴿مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ الجمهور على أنه القرع. وفائدته: أن الذباب لا يجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتاً، وامتداداً، وارتفاعاً. وقيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع. قال: «أجل، هي شجرة أخي يونس»^(١).

١٤٧ - ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ﴾ المراد به: القوم الذين بعث إليهم قبل الانتقام. فيكون قد مضى في مرأى الناظر، إذا رآها الرائي قال هي: مئة ألف أو أكثر. وقال الزجاج: قال غير واحد: معناها: بل يزيدون. قال ذلك الفراء وأبو عبيدة. ونقل عن ابن عباس كذلك.

١٤٨ - ﴿فَتَأَمَّنُوا﴾ به، وبما أرسل به ﴿فَمَرَّعْتَهُمْ إِلَى جِئٍ﴾ إلى منتهى آجالهم.

١٤٩ - ﴿فَاسْتَفْتَاهُمُ أَلَيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ معطوف على مثله في أول السورة، أي: على ﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ [الصافات: ١١] وإن تباعدت

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكِيَّةَ إِنْسًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ
لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

بينهما المسافة. أَمَرَ رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً، ثم ساق الكلام موصولاً ببعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها، حيث جعلوا الله تعالى الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراحتهم الشديدة لهن، ووأدهم، واستنكافهم من ذكرهن.

١٥٠- ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكِيَّةَ إِنْسًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ حاضرون. تخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم، وتجهيل؛ لأنه كما لم يعلموا ذلك مشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر. أو: معناه أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس؛ لإفراط جهلهم، كأنهم شاهدوا خلقهم.

١٥١، ١٥٢- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم.

١٥٣- ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام. وهو استفهام توبيخ. وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام.

١٥٤- ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد.

١٥٥- ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعلي، وحفص.

١٥٦- ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ حجة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله.

١٥٧- ﴿فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

١٥٨- ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ﴾ بين الله ﴿وَبَيْنَ الْجَنَّةِ﴾ الملائكة لاستتارهم ﴿نِجَالًا﴾ وهو زعمهم أنهم بناته. وقالوا: إِنَّ الله تزوج من الجن، فولدت له الملائكة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار.

سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ
بِقَدْرَتَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

١٥٩- ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ نزه نفسه عن الولد، والصاحبة.

١٦٠- ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المحضرين، معناه: ولكن
المخلصين ناجون من النار. و﴿سبحان الله﴾ اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع
منه. ويجوز أن يقع الاستثناء من واو ﴿يصفون﴾ أي: يصفه هؤلاء بذلك.
ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه به.

١٦١-١٦٣- ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ومعبوديكم ﴿مَا أَنتُمْ﴾ وهم
جميعاً ﴿عَلَيْهِ﴾ على الله ﴿بِقَدْرَتَيْنِ﴾ بمضلين ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ بكسر اللام،
أي: لستم تضلّون أحداً إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم بسوء
أعمالهم يستوجبون أن يصلوها. يقال: فتن فلان على فلان امرأته، كما تقول:
أفسدها عليه. وقال الحسن: فإنكم أيها القائلون بهذا القول والذي تعبدونه من
الأصنام، ما أنتم على عبادة الأوثان بمضلين أحداً إلا من قدر عليه أن يصلى
البحيم، أي: يدخل النار. وقيل: ما أنتم بمضلين إلا من أوجبت عليه
الضلال في السابقة. و: ﴿ما﴾ في ﴿ما أنتم﴾ نافية. و﴿من﴾ في موضع النصب
بـ ﴿فانتين﴾. وقرأ الحسن: ﴿صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ بضم اللام، ووجهه أن يكون
جمعاً فحذفت النون للإضافة، وحذف الواو لالتقاء الساكنين، هي واللام في:
﴿البحيم﴾ و﴿من﴾ موحد اللفظ مجموع المعنى، فحمل ﴿هو﴾ على لفظه،
والصالون على معناه.

١٦٤- ﴿وَمَا مِنَّا﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ في العبادة لا يتجاوزه، فحذف
الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه.

١٦٥- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ نصف أقدامنا في الصلاة، أو: نصف حول العرش
داعين للمؤمنين.

١٦٦- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون، أو: المصلون. والوجه: أن يكون هذا

وَأَن كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾

وما قبله من قوله: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله: ﴿ولقد علمت الجنة﴾ كأنه قيل: ولقد علم الملائكة، وشهدوا: أَنَّ المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة، وقالوا ﴿سبحان الله﴾ فنزهوه عن ذلك، واستثنوا عباد الله المخلصين، وبرؤوهم منه، وقالوا للكفرة: وآلهتكم لا تقدر أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه، وتضلوه إلا مَنْ كان من أهل النار، وكيف نكون مناسيين لرب العزة، وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه، لكلِّ منا مقام معلوم من الطاعة، لا يستطيع أن يزلَّ عنه ظفراً خشوعاً لعظمته، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته، مسبحين، ممجدين، كما يجب على العباد لربهم. وقيل: هو من قول رسول الله ﷺ، يعني: وما من المسلمين أحد إلا له المقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله، من قوله تعالى: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. ثم ذكر أعمالهم، وأنهم الذين يصطفون في الصلاة، ويسبحون الله، وينزهونه عما لا يجوز عليه.

١٦٧ - ١٧٠ - ﴿وَأَن كَانُوا يَقُولُونَ﴾ أي: مشركو قريش قبل مبعثه ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة لله، ولما كذبنا كما كذبوا، ولا خالفنا كما خالفوا. فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ مغبة تكذيبهم، وما يحل بهم من الانتقام. ﴿وَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول، جادين فيه، فكم بين أول أمرهم وآخره!

١٧١ - ١٧٣ - ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ الكلمة قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ ﴿وَأَنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. وإنما سماها كلمة، وهي كلمات؛ لأنها لما انتظمت في معنى واحد، كانت في حكم كلمة مفردة. والمراد: الموعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في

فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٥﴾ وَأَبْصِرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ

الآخرة. وعن الحسن: ما غلب نبي في حرب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في العقبى. والحاصل: أنَّ قاعدة أمرهم، وأساسه، والغالب منه: الظفر، والنصرة، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء، والمحنة. والعبرة للغالب.

١٧٤- ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة يسيرة، وهي المدة التي أمهلوا فيها، أو: إلى يوم بدر، أو: إلى فتح مكة.

١٧٥- ﴿وَأَبْصِرْتُمْ﴾ أي: أبصر ما ينالهم يومئذ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ذلك. وهو للوعيد لا للتبعيد. أو: انظر إليهم إذا عذبوا ﴿فسوف يبصرون﴾ ما أنكروا، أو: أعلمهم فسوف يعلمون.

١٧٦- ﴿أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قبل حينه؟

١٧٧- ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ﴾ بفنائهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ صباحهم. واللام في: ﴿المنذرين﴾ مبهم في جنس ما أنذروا؛ لأنَّ ساء وبش يقتضيان ذلك. وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة. مثل العذاب النازل بهم - بعد ما أنذروه فأنكروه - بجيش أنذر بهجومه قومه بعضُ نصاحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنَّ عليهم الغارة. وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً، فسميت الغارة صباحاً، وإن وقعت في وقت آخر.

١٧٨، ١٧٩- ﴿وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿وإنما ثنى ليكون تسلياً على تسلي، وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة، وهي: إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، وأنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة. وقيل: أريد بأحدهما: عذاب الدنيا، وبالأخر: عذاب الآخرة.

١٨٠- ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها؛ كأنه

﴿١٨٠﴾ وَمَا يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾

قيل: ذو العزة، كما نقول: صاحب صدق؛ لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يُراد أنه ما من عزة لأحد إلا وهو ربها ومالكها، كقوله: ﴿تُعَزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿وَمَا يَصِفُونَ﴾ من الولد، والصاحبة، والشريك.

١٨١- ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ عمّ الرسل بالسلام بعد ما خصّ البعض في السورة؛ لأنّ في تخصيص كل بالذكر تطويلاً.

١٨٢- ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء.

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله، ونسبوه إليه ممّا هو منزّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خولّوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عمّا وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين، والحمد لربّ العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب. والمراد: تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلّوا به، ولا يغفلوا عن مضمّنات كتابه الكريم، ومودعات قرآنه المجيد.

وعن عليّ - رضي الله عنه -: من أحبّ أن يكتال بالملكيات الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿سبحان ربك...﴾ إلى آخر السورة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَـ

١- ﴿ص﴾ ذكر هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي، والتنبيه على الإعجاز. ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه، كأنه قال: ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ أي: ذي الشرف إنه لكلام معجز. ويجوز أن يكون ﴿ص﴾ خبر مبتدأ محذوف، على أنه اسم للسورة، كأنه قال: هذه ﴿ص﴾ أي: هذه السورة التي أعجزت العرب ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ كما تقول: هذا حاتم والله. تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله. وكذلك إذا أقسم بها، كأنه قال: أقسمت بص القرآن ذي الذكر إنه لمعجز. ثم قال:

٢- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ﴾ تكبر عن الإذعان لذلك، والاعتراف بالحق ﴿وَشِقَاقِي﴾ خلاف لله ولرسوله. والتنكير في: ﴿عِزَّةً وَشِقَاقِي﴾ للدلالة على شدتهما، وتفاقمهما. وقرىء ﴿فِي غِرَّةٍ﴾ أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر، واتباع الحق.

٣- ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وعيد لذوي العزة، والشقاق ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قومك ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ أمة ﴿فَنَادَوا﴾ فدعوا، واستغاثوا حين رأوا العذاب ﴿وَلَا تَ﴾ هي

حِينَ مَنَاصٍ ﴿٢﴾ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ ﴿٣﴾ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾

«لا» المشبهة بـ «ليس» زيدت عليها تاء التانيث، كما زيدت على «رب» و«ثم» للتوكيد. وتغير بذلك حكمها، حيث لم تدخل إلا على الأحيان، ولم يبرز إلا أحد مقتضيهما، إما الاسم أو الخبر، وامتنع بـ «و» جمعاً. وهذا مذهب الخليل وسيبويه، وعند الأخفش أنها «لا» النافية للجنس، زيدت عليها التاء، وخصت بنفي الأحيان. وقوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منجى منصوب بها، كأنك قلت: ولا حين مناص لهم. وعندهما أن النصب على: ولات الحين حين مناص، أي: وليس الحين حين مناص.

٤ - ﴿وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ﴾ من أن جاءهم ﴿مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ رسول من أنفسهم يعني: استبعدوا أن يكون النبي من البشر ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

٥ - ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ ولم يقل: وقالوا؛ إظهاراً للغضب عليهم، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر، المنهمكون في الغي، إذ لا كفر أبلغ من أن يسموا من صدقه الله: كاذباً ساحراً، ويتعجبوا من التوحيد، وهو الحق الأبلج، ولا يتعجبوا من الشرك، وهو باطلٌ لجلج. روي: أن عمر - رضي الله عنه - لما أسلم فرح به المؤمنون، وشق على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم، ومشوا إلى أبي طالب، وقالوا: أنت كبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء - يريدون الذين دخلوا في الإسلام - وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي! هؤلاء قومك يسألونك سؤالاً فلا تمل كل الميل على قومك. فقال عليه الصلاة والسلام: «ماذا تسألوني؟» فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهمنا، وندعك وإلهك. فقال ﷺ: «أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟» قالوا: نعم، وعشراً. أي: نعطيكمها وعشر كلمات معها. فقال: «قولوا: لا إله إلا الله». فقاموا، وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟﴾ - أي: أصير - ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(١) أي:

(١) رواه أحمد (٣٦٢/١) والترمذي (٣٢٣٢) والحاكم (٤٣٢/٢) وابن حبان (٦٦٨٦).

وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
الْأَمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ﴿٧﴾ أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي
بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

بليغ في العجب . وقيل : العجيب ماله مثل ، والعجاب ما لا مثل له .

٦- ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا﴾ وانطلق أشراف قريش عن مجلس أبي طالب ،
بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد ، قائلين بعضهم لبعض : ﴿أمشوا﴾
و«أن» بمعنى أي ؛ لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ،
ويتفاوضوا فيما جرى لهم ، فكان انطلاقهم متضمنًا معنى القول ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ﴾
عبادة ﴿آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا﴾ الأمر ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي : يريد الله تعالى ، ويحكم
بإمضائه ، فلا مرد له ، ولا ينفع فيه إلا الصبر . أو : إن هذا الأمر لشيء من
نوائب الدهر يراد بنا ، فلا انفكاك لنا منه .

٧- ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ بالتوحيد ﴿فِي الْأَمَلَةِ الْآخِرَةِ﴾ في ملة عيسى ؛ التي هي آخر
الملل ؛ لأن النصرى مثلثة غير موحدة ، أو : في ملة قريش التي أدركنا عليها
آباءنا ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما هذا ﴿إِلَّا خُلُقٌ﴾ كذب اختلقه محمد ﷺ من تلقاء نفسه .

٨- ﴿أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾؟! أنكروا أن يختص بالشرف من
بين أشرافهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم حسداً ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ من
القرآن ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ بل لم يذوقوا عذابي بعد ، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم
من الشك ، والحسد حينئذ ، أي : إنهم لا يصدقون به إلا أن يمسه العذاب
فيصدقون حينئذ .

٩- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ يعني : ما هم بمالكي خزائن
الرحمة حتى يصيبوا بها من شأوا ، أو يصرفوها عمّن شأوا ، ويتخيروا للنبوة
بعض صناديدهم ، ويرفعوا بها عن محمد . وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها
العزیز القاهر على خلقه ، الوهاب الكثير المواهب ، المصيب بها مواقعها ، الذي
يقسمها على ما تقتضيه حكمته . ثم رشح هذا المعنى فقال :

١٠- ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حتى يتكلموا في الأمور الزبانية ،

فَلْيَرْقُؤْا فِي الْأَسْبَبِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ
الْأَحْزَابِ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ

والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء. ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرف في قسمة الرحمة ﴿فَلْيَرْقُؤْا فِي الْأَسْبَبِ﴾ فليصعدوا في المearج والطرق التي يتوصل بها إلى السماء، حتى يدبروا أمر العالم، وملكوت الله، وينزلوا الوحي إلى من يختارون. ثم وعد نبيه ﷺ النصر عليهم بقوله:

١١- ﴿جُنْدٌ﴾ مبتدأ. ﴿مَا﴾ صلة مقوية للنكرة المبتدأة ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى بدر، ومصارعهم، أو: إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن يتدب لأمر ليس من أهله: لست هنالك. خبر المبتدأ ﴿مَهْزُومٌ﴾ مكسور ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ متعلق بجند، أو: بمهزوم. يريد: ما هم إلا جند من الكفار المتحزبين على رسول الله مهزوم عما قريب، فلا تبال بما يقولون، ولا تكثر لما به يهدون.

١٢- ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسى ﴿ذُو الْأَوْدَادِ﴾. قيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه، وقيل: يوتد من يعذب بأربعة أوتاد في يديه ورجليه.

١٣- ﴿وَتَمُودُ﴾ - وهم قوم صالح - صالحاً ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً ﴿وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾: الغيضة شعيباً ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أراد بهذه الإشارة: الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب.

١٤- ﴿إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ﴾ ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، حيث لم يبين المكذب، ثم جاء بالجملة الاستثنائية، فأوضحه فيها، وبين المكذب وهم الرسل، وذكر أن كل واحد من الأحزاب كذب جميع

فَحَقَّقَ عِقَابِ ﴿١١﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ

الرسول؛ لأنَّ في تكذيب الواحد منهم تكذيب الجميع لاتِّحاد دعوتهم. وفي تكرير التكذيب، وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً، وبالاستثنائية ثانياً، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشدَّ العقاب، وأبلغه. ثم قال: ﴿فَحَقَّقَ عِقَابِ﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حقَّ عقابهم. (عذابي) (عقابي) في الحالين: يعقوب.

١٥- ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾ وما ينتظر أهل مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: النفخة الأولى، وهي: الفرع الأكبر ﴿مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ وبالضم: حمزة وعلي، أي: ما لها من توقف مقدار فواق، وهو ما بين حلتبي الحالب، أي: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما لها من رجوع وترداد، من: أفاق المريض: إذا رجع إلى الصَّحَّة. وفواق الناقة: ساعة يرجع الدر إلى ضرعها، يريد: أنها نفخة واحدة فحسب، لا تشتي، ولا تردّد.

١٦- ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا﴾ حظنا من الجنة؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام ذكر وعد الله المؤمنين الجنة، فقالوا على سبيل الهزاء: ﴿عَجِّلْ لَنَا﴾ نصيبنا منها، أو: نصيبنا من العذاب الذي وعده، كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وأصل القط: القسط من الشيء؛ لأنَّه قطعة منه، من: قطعه: إذا قطعه. ويقال لصحيفة الجائزة: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

١٧- ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ فيك، وصنْ نفسك أن تزلَّ فيما كلَّفت من مصابرتهم، وتحمل أذاهم ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ وكرامته على الله كيف زلَّ تلك الزلَّة اليسيرة، فلقي من عتاب الله ما لقي ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ذا القوة في الدين ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجاع إلى مرضاة الله تعالى. وهو تعليلٌ لذي الأيد. روي: أنه كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وهو أشدُّ الصوم، ويقوم نصف الليل.

١٨- ﴿إِنَّا سَخَرْنَا﴾ ذلَّلنا ﴿الْجِبَالَ مَعَهُ﴾. قيل: كان تسخيرها أنها تسير معه

يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَءَاثَيْنَهُ
الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾

- إذا أراد سيرها - إلى حيث يريد ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في معنى: مستبحات، على الحال.
واختار ﴿يسبحن﴾ على مستبحات؛ ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً
بعد شيء، وحالاً بعد حال ﴿بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: في طرفي النهار. والعشي:
وقت العصر إلى الليل، والإشراق: وقت الإشراف، وهو حين تشرق الشمس،
أي: تضيء، وهو وقت الضحى. وأما شروقها: فطلوعها، تقول: شرقت
الشمس ولما تشرق. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما عرفت صلاة
الضحى إلا بهذه الآية.

١٩- ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ وسخرنا ﴿الطير﴾ مجموعة من كل ناحية. وعن
ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان إذا سبَّح جاوبته الجبال بالتسبيح،
 واجتمعت إليه الطير فسبَّحت؛ فذلك حشرها ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ كل واحد من
الجبال والطير لأجل داود، أي: لأجل تسبيحه مسبح؛ لأنها كانت تُسبِّح
لتسبيحه ووضع الأواب موضع المسبح؛ لأن الأواب، وهو التواب، الكثير
الرجوع إلى الله، وطلب مرضاته من عاداته أن يكثر ذكر الله، ويدم تسبيحه،
وتقديسه. وقيل: الضمير لله، أي: كل من داود والجبال والطير لله أواب،
أي: مسبح، مرجع للتسبيح.

٢٠- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾ قويناها. قيل: كان بيتٌ حول محرابه ثلاثة وثلاثون
ألف رجل يحرسونه ﴿وَأَثَيْنَهُ الْحِكْمَةَ﴾ الزبور، وعلم الشرائع. وقيل: كل
كلام وافق الحق فهو حكمة ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ علم القضاء، وقطع الخصام،
والفصل بين الحق والباطل. والفصل هو: التمييز بين الشئين. وقيل للكلام
البيت: فصل؛ بمعنى المفاصل؛ كضرب الأمير. وفصل الخطاب: البين من
الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه. وجاز أن يكون
الفصل بمعنى الفاصل؛ كالصَّوم والزَّور. والمزاد بفصل الخطاب: الفاصل من
الخطاب؛ الذي يفصل بين الصحيح والفساد، والحق والباطل. وهو كلامه في
القضايا، والحكومات، وتدابير الملك، والمشورات. وعن علي - رضي الله

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ ﴿٢٢﴾

عنه -: هو الحكم بالبيّنة على المدعى واليمين على المدعى عليه، وهو من الفصل بين الحق والباطل. وعن الشعبي: هو قوله أما بعد، وهو أول من قال أما بعد، فإن من تكلم في الأمر الذي له شأن يفتح بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أما بعد.

٢١- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ ظاهره الاستفهام، ومعناه: الدلالة على أنه من الأنبياء العجبية. والخصم: الخصماء. وهو يقع على الواحد والجمع؛ لأنه مصدر في الجمع^(١) تقول: خصمه خصماً. وانتصاب ﴿إِذْ﴾ بمحذوف، تقديره: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ﴾ تحاكم ﴿الخصم﴾، أو: بالخصم لما فيه من معنى الفعل ﴿سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ تصعدوا سوره، ونزلوا إليه. والسور: الحائط المرتفع. والمحراب: الغرفة، أو: المسجد، أو: صدر المسجد.

٢٢- ﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى. ﴿دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ رُوي: أَنَّ الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين، فطلبا أن يدخلوا عليه، فوجداه في يوم عبادته. فمنعهما الحرس، فتسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم دخلوا عليه المحراب في غير يوم القضاء، ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: نحن ﴿خصمان﴾ ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ تعدى، وظلم ﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تجر، من: الشطط، وهو: مجاوزة الحد، وتخطي الحق ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ وأرشدنا إلى وسط الطريق، ومحجته، والمراد: عين الحق، ومحضه. رُوي: أَنَّ أهل زمان داود - عليه السلام - كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته، فيتزوجها إذا أعجبه، وكان لهم عادة في المواساة بذلك، وكان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتفق أَنَّ عين داود - عليه السلام - وقعت على امرأة

إِنَّ هَذَا أَخِي

أوريا فأحبها، فسأله النزول له عنها، فاستحى أن يردّه، ففعل، فتزوّجها، وهي أم سليمان، فقيل له: إنك مع عظم منزلتك، وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول [عنها لك]^(١) بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنت به. وقيل: خطبها أوريا، ثم خطبها داود، فأثره أهلها، فكانت زلتة أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه. وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزاة اللقاء^(٢)، وأحب أن يقتل ليتزوّجها فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين^(٣) فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء.

وقال عليّ - رضي الله عنه -: من حدّثكم بحديث داود - عليه السلام - على ما يرويه القصّاص جلدته مئة وستين، وهو حدّ الفرية على الأنبياء - عليهم السلام - . وروى: أنه حدّث بذلك عمر بن عبد العزيز، وعنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدث به، وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك! وإن كانت على ما ذكرت، وكفّ الله عنها سترأ على نبيّه، فما ينبغي إظهارها عليه. فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحب إليّ ممّا طلعت عليه الشمس.

والذي يدلّ عليه المثل الذي ضربه الله لقصّته - عليه السلام - ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب. وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح؛ لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرّض به كان أوقع في نفسه، وأشدّ تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة.

٢٣- ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ هو بدل من هذا، أو: خبر لأن. والمراد: أخوة الدين، أو: أخوة الصداقة والألفة، أو: أخوة الشركة والخلطة؛ لقوله: ﴿وإن كثيراً من

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) «اللقاء»: مدينة بالشام.

(٣) «أفناء المسلمين»: يقال: هو من أفناء الناس؛ إذا لم يعلم ممن هو.

لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ

الخطاء ﴿٢٣﴾ ﴿لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(١): ﴿وَلِي﴾ حفص. والنعجة: كناية عن المرأة^(٢). ولما كان هذا تصويراً للمسألة، وفرضاً لها لا يمتنع أن يفرض الملائكة في أنفسهم، كما تقول: لي أربعون شاة ولك أربعون، فخلطناها، ومالكما من الأربعين أربعة ولا ربعا ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ ملكنيها، وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: اجعلها كفلي، أي: نصيبي ﴿وَعَزَّنِي﴾ وغلبي - يقال: عزه، يعزّه - ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ في الخصومة، أي: أنه كان أقدر على الاحتجاج مني. وأراد بالخطاب: مخاطبة المحاجّ المجادل، أو: أراد خطبت المرأة، وخطبها هو، فخاطبني خطاباً، أي: غالبني في الخطبة، فغلبي حيث زوّجها دوني. ووجه التمثيل: أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة، وخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمّة المئة، فطمع في نعجة خليطه، وأراده على الخروج من ملكها إليه، وحاجّه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده. وإنما كان ذلك على وجه التحاكم إليه، ليحكم بما حكم به من قوله:

٢٤- ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ حتّى يكون محجوباً بحكمه. وهذا جواب قسم محذوف. وفي ذلك استنكارٌ لفعل خليطه. والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول. وقد ضمن معنى الإضافة، فعدي تعديتها، كأنه قيل: بإضافة ﴿نجمتك إلى نعاجه﴾ على وجه السؤال والطلب. وإنما ظلّم الآخر بعد ما اعترف به خصمه، ولكنه لم يُحك في القرآن لأنّه معلوم. ويروى: أنّه قال: أنا أريد أن آخذها منه، وأكمل نعاجي مئة. فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة ﴿وَلِي﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٥/٢٦١).

(٢) الصواب أن يبقى التفسير على ظاهر القرآن، وحقيقة ما ورد فيه من أن الخصمين بشران، وأن النعاج شياء. انظر: تفسير الرازي (١٨٩/٢٦) والبحر المحيط (٣٩١/٧).

وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ يَتَّبِعِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَازْفَنًى وَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٢٦﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

منك هذا وهذا، وأشار إلى طرف الأنف والجهة، فقال: ياداود! أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا؛ وأنت فعلت كيت وكيت. ثم نظر داود فلم ير أحداً، فعرف ما وقع فيه ﴿وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ﴾ الشركاء، والأصحاب ﴿يَتَّبِعِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المستثنى منصوب، وهو من الجنس. والمستثنى منه ﴿بعضهم﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ «ما» للإبهام، و﴿هم﴾ مبتدأ. و﴿قليل﴾ خبره ﴿وَقَنَّ دَاوُدُ﴾ أي: علم، وأيقن. وإنما استعير له؛ لأنَّ الظنَّ الغالب يداني العلم ﴿أَتَمَّا فَتَنَّهُ﴾ ابتليناه ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لزلته ﴿وَوَخَّرَ رَاكِعًا﴾ أي: سقط على وجهه ساجداً لله. وفيه دليل على أنَّ الركوع يقوم مقام السجود في الصلاة إذا نوى؛ لأنَّ المراد مجزء ما يصلح تواضعاً عند هذه التلاوة. والركوع في الصلاة يعمل هذا العمل، بخلاف الركوع في غير الصلاة ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة. ورؤي: أنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة، لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة، أو: مالا بدَّ منه، ولا يرقأ دمه حتى نبت العشب من دمه، ولم يشرب ماءً إلا وثلاثه دمع.

٢٥- ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: زلته ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَازْفَنًى﴾ قُرْبَةً ﴿وَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ مرجع، وهو: الجنة.

٢٦- ﴿يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الملك في الأرض، أو: جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق. وفيه دليل على أنَّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بحكم الله إذ كنت خليفة، أو: بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس في قضائك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بنسيانهم يوم العذاب.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبُوا ءَايَاتِهِ

٢٧- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق. ﴿بَطْلًا﴾ خلقاً باطلاً، لا لحكمة بالغة، أو: مبطلين عابثين. كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦] وتقديره: ذوي باطل، أو: عبثاً، فوضع باطلاً موضعاً، أي: ما خلقناها وما بينهما للعبث واللعب، ولكن للحق المتين، وهو: أنا خلقنا نفوساً أودعناها العقل، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها، ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعدنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الظن بمعنى المظنون، أي: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا، وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما؛ بقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] لأنه لما كان إنكارهم للبعث، والحساب، والثواب، والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل، جُعلوا كأنهم يظنون ذلك، ويقولونه؛ لأنَّ الجزاء هو الذي سيقى إليه الحكمة في خلق العالم، فمن جحدته فقد جحد الحكمة في خلق العالم ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

٢٨- ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ «أم» منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار. والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكفار لاستوت أحوال من أصلح، وأفسد، واتقى، وفجر. ومن سوى بينهم كان سفيهاً، ولم يكن حكيماً.

٢٩- ﴿كَتَبَ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن ﴿مُبْرَكٌ﴾ صفة أخرى ﴿لِيَذَّبُوا ءَايَاتِهِ﴾ وأصله: ﴿ليتدبروا﴾. وقرئ به، ومعناه: ليتفكروا فيها، فيقفوا على ما فيه، ويعملوا به. عن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه، وضيّعوا حدوده. ﴿لتدبروا﴾

وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْجَيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي

على الخطاب بحذف إحدى التاءين: يزيد ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وليتعض بالقرآن أولو العقول.

٣٠- ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي: سليمان. وقيل: داود، وليس بالوجه، فالمخصوص بالمدح محذوف ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وعلل كونه ممدوحاً بكونه أواباً، أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى.

٣١- ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ على سليمان. ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ بعد الظهر ﴿الصَّفِيفَتُ﴾ الخيول القائمة على ثلاث قوائم، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر ﴿الْجَيَادُ﴾ السراع جمع جواد؛ لأنه يجود بالركض، وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهُجن، وإنما هو في العراب. وقيل: وصفها بالصفون وبالجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين وافقة وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقعها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها. وقيل: الجياد، الطوال الأعناق، من الجيد. روي: أن سليمان - عليه السلام - غزا أهل دمشق ونصيبين، فأصاب ألف فرس. وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة. وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة، فقعد يوماً بعد ما صلى الظهر على كرسيه، واستعرضها، فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن العصر. وكانت فرساً عليه، فاغتم لما فاته فاستردّها، وعقرها تقريباً لله وبقي مئة، فما في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها. وقيل: لما عقرها أبدله خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره.

٣٢- ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: أثرت حب الخيل عن ذكر ربي، كذا عن الزجاج. فأحببت بمعنى: أثرت، كقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] و ﴿عن﴾ بمعنى على. وسمى الخيل خيراً لأنها نفس الخير؛ لتعلق الخير بها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(١). وقال أبو علي - رحمه الله -: ﴿أحببت﴾ بمعنى

(١) رواه البخاري (٢٨٤٩) ومسلم (١٨٧١).

حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنُفِيقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

جلست، من: إحياب البعير، وهو بروكه ﴿حَبَّ الْخَيْرِ﴾ مفعول له مضاف إلى المفعول ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾. والذي دلَّ على أَنَّ الضمير للشمس مرور ذكر العشي ولا بدَّ للمضمر من جزي ذكر، أو: دليل ذكر. أو: الضمير لـ «الصفافنات»، أي: حتى توارت بحجاب الليل، يعني: الظلام.

٣٣- ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ أي: قال للملائكة: ردوا الشمس عليَّ لأصلي العصر. فَرُدَّتِ الشمس له، وصلى العصر. أو: ردوا الصفافنات ﴿فَنُفِيقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فجعل يمسح ﴿مَسْحًا﴾ أي: يمسح السيف بسوقها - وهي جمع ساق، كدار ودور - وأعناقها. يعني: يقطعها؛ لأنها منعه عن الصلاة. تقول: مسح علاوته: إذا ضرب عنقه. ومسح المسفر الكتاب^(١): إذا قطع أطرافه بسيفه، وقيل: إنما فعل ذلك كفارة لها، أو: شكرًا لردِّ الشمس. وكانت الخيلُ مأكولةً في شريعته، فلم يكن إتلافًا. وقيل: مسحها بيده استحساناً لها، وإعجاباً بها.

٣٤- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابتليناه ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ﴾ سرير ملكه ﴿جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله. قيل: فتن سليمان - عليه السلام - بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة. وكان من فتنته: أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم نفك من السخرة، فسييلنا أن نقتله، أو: نُخَبِّلَهُ. فعلم ذلك سليمان - عليه السلام - فكان يغذوه^(٢) في السحابة خوفاً من مضرة الشياطين، فألفى ولده ميتاً على كرسِيه، فتنبه على زلته في أن لم يتوكل فيه على ربه. وروى عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة منهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، فجيء به على كرسِيه،

(١) في الصحاح: سمرت الكتاب أسفره سفراً. وسمرت المرأة: كشفت عن وجهها. وأسفر

الصبح: أي: أضاء. وأسفر وجهه حسناً، أي: أشرق.

(٢) «يغذوه»: غذوت الصبي باللبن؛ أي: ربيته به فاغتنى.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ
الرَّيْحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُكَّاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ
فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

فوضع في حجره. فوالذي نفس محمد بيده! لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل
الله فرساناً أجمعون»^(١). وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشیطان وعبادة الوثن
في بيت سليمان - عليه السلام - فمن أباطيل اليهود.

٣٥- ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ قدّم الاستغفار على استيهاب الملك، جرياً
على عادة الأنبياء عليهم السلام والصالحين في تقديم الاستغفار على السؤال ﴿لَا
يَنْبَغِي﴾ لا يتسهّل، ولا يكون ﴿لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: دوني. وبفتح الياء:
مدني، وأبو عمرو. وإنما سأل بهذه الصفة ليكون معجزة له لا حسداً. وكان
قبل ذلك لم يُسَخَّرْ له الريح والشیاطين، فلما دعا بذلك سُخِّرَتْ له الريح
والشیاطين. وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

٣٦- ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ (الرياح): أبو جعفر ﴿تَجْرِي﴾ حال من الريح
﴿بِأَمْرِهِ﴾ بأمر سليمان. ﴿رُكَّاءَ﴾ لينة طيبة، لا تززع. وهو حال من ضمير
﴿تَجْرِي﴾ ﴿حَيْثُ﴾ ظرف تجري ﴿أَصَابَ﴾ قصد، وأراد. والعرب تقول:
أصاب الصواب، وأخطأ الجواب.

٣٧- ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على الريح، أي: وسخّرنا له الشیاطين ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾
بدل من ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ﴿وَعَوَّاصٍ﴾ أي:
ويغوصون له في البحر لإخراج اللؤلؤ، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من
البحر. والمعنى: سخّرنا له ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ من الشیاطين.

٣٨- ﴿وَعَوَّاصٍ﴾ عطف على ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ داخل في حكم البدل ﴿مُقَرَّنِينَ فِي
الْأَصْفَادِ﴾ وكان يقرن مردة الشیاطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل
للتأديب، والكفّ عن الفساد. والصفّد: القيد. وسُمّي به العطاء لأنه ارتباط
للمنعم عليه. ومنه قول عليّ - رضي الله عنه -: من برك فقد أسرك، ومن
جفاك فقد أطلقك.

هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَفًا وَحُشْنَ مَنَابٍ ﴿٤٠﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ

٣٩- ﴿هَذَا﴾ الذي أعطيناك من الملك، والمال، والبسطة ﴿عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ فأعط منه ما شئت، من: المنة، وهي: العطاء ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن الإعطاء - وكان إذا أعطى أجراً، وإن منع لم يَأثم بخلاف غيره - ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ متعلق بـ ﴿عَطَاؤُنَا﴾ وقيل: هو حال منه، أي: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ جمّاً كثيراً، لا يكاد يقدر على حصره. أو: ﴿هَذَا﴾ التسخير ﴿عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ على من شئت من الشياطين بالإطلاق ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ من شئت منهم في الوثاق ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا حساب عليك في ذلك.

٤٠- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَفًا وَحُشْنَ مَنَابٍ﴾ ﴿لُزْلَفًا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ والخبر ﴿له﴾ والعامل في ﴿عند﴾ الخبر.

٤١- ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو بدل من ﴿عبدنا﴾ أو: عطف بيان ﴿إِذْ﴾ بدل اشتغال منه ﴿نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ دعاه ﴿أَنِّي مَسْنِي﴾ بآتي مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه، ولو لم يحك لقال: بأنه مسّه؛ لأنه غائب ﴿الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ﴾ قراءة العامة: ﴿يَنْصُبْ﴾ يزيد: بتشديد نُصْب ﴿يَنْصُبْ﴾ كرشد ورشد: يعقوب ﴿يَنْصُبْ﴾ على أصل المصدر: هبيرة، والمعنى واحد، وهو: التعب، والمشقة ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم. يريد: مرضه، وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب^(١)، وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو: بالتوفيق في دفعه، وردّه بالصبر الجميل. ورُوي: أنه كان يعود ثلاثاً من المؤمنين، فارتدّ أحدهم، فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أنّ الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين. وذكر في سبب بلائه: أنه ذبح شاة فأكلها، وجاره جائع، أو: رأى منكراً فسكت عنه، أو: ابتلاه الله لرفع الدرجات بلا زلة سبقت منه.

٤٢- ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكاية ما أجيب به أيوب - عليه السلام - أي: أرسلنا

(١) «الوصب»: المرض.

هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى
الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّآ وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ
أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

إليه جبريل - عليه السلام - فقال له: ﴿اركض برجلك﴾ أي: اضرب برجلك الأرض، وهي أرض الجابية^(١)، فضربها، فنبعت عين، فقيل: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: هذا ماء تغتسل به، وتشرب منه، فيراً باطنك وظاهره. وقيل: نبعت له عينان فاغتسل من إحداها، وشرب من الأخرى، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله.

٤٣ - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ قيل: أحياهم الله بأعيانهم، وزاده مثلهم ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ مفعول لهما، أي: الهبة كانت للرحمة له، ولتذكير أولي الأبواب؛ لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره، رغبهم في الصبر على البلاء.

٤٤ - ﴿وَخُذْ﴾ - معطوف على ﴿اركض﴾ - ﴿بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ حُزْمَةٌ صغيرة من حشيش، أو: رِيحَان، أو: غير ذلك. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قبضة من الشجر ﴿فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ﴾ وكان حلف في مرضه ليضربن امرأته مئة إذا برأ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها؛ لحسن خدمتها إياه. وهذه الرخصة باقية. ويجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المئة. والسبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة، فخرج صدره، وقيل: باعت ذؤابتها برغيفين، وكانتا متعلقن أيوب - عليه السلام - إذا قام! ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ علمناه ﴿صَابِرًا﴾ على البلاء. نعم قد شكنا إليه ما به، واسترحمه، لكن الشكوى إلى الله لا تسمى جزعاً، فقد قال يعقوب - عليه السلام -: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَفِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] على أنه - عليه السلام - كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم: أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به، وإرادة القوة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان ﴿نِّعَمَ الْعَبْدُ﴾ أيوب - عليه السلام - ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

(١) «الجابية»: مدينة بالشام.

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ
ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾

٤٥- ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ ﴿عبدنا﴾: مكي ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فمن جمع إبراهيم ومن بعده عطف بيان لـ: ﴿عبدنا﴾، ومن وحد إبراهيم - عليه السلام - وحده عطف بيان له، ثم عطف ذريته على ﴿عبدنا﴾. ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غُلِبَتْ، فقليل في كل عمل: هذا مما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا تتأتى فيه المباشرة بالأيدي، أو: كان العمال جذماً لا أيدي لهم، وعلى هذا ورد قوله: ﴿أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ أي: أُولَى الأعمال، والفكر؛ كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يتفكرون أفكار ذوي الديانات في حكم الزماني، الذين لا يقدرّون على إعمال جوارحهم، والمسلوب العقول الذين لا استبصار لهم. أو فيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل، مع كونهم متمكنين منهما.

٤٦- ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ جعلناهم لنا خالصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بخصلة خالصة، لا شوب فيها ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ﴿ذكرى﴾: في محلّ النصب، أو: الرفع بإضمار: أعني، أو: هي، أو الجر على البدل من ﴿خالصة﴾ والمعنى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ بـ ﴿ذكرى الدار﴾ و﴿الدار﴾ هنا: الدار الآخرة، يعني: جعلناهم لنا خالصين بأن جعلناهم يذكرون الناس الدار الآخرة، ويزهدونهم في الدنيا، كما هو ديدن الأنبياء - عليهم السلام - . أو: معناه: أنهم يكثرّون ذكر الآخرة، والرجوع إلى الله، وينسون ذكر الدنيا. ﴿بخالصة ذكرى﴾ على الإضافة: مدني وهي من إضافة الشيء إلى ما يبيته؛ لأنّ الخالصة تكون ذكرى، وغير ذكرى. و﴿ذكرى﴾ مصدر ومضاف إلى المفعول، أي: بأن خلص ذكرى الدار. وقيل: ﴿خالصة﴾ بمعنى خلوص، فهي مضافة إلى الفاعل، أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم آخر، إنّما همّهم ذكرى الدار لا غير. وقيل: ﴿ذكرى الدار﴾ الثناء الجميل في الدنيا، وهذا شيء قد أخلصهم به، فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به، يقويه قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

وَلَا يُنَبِّئُهُمْ عِنْدَنَا لِيَمِّنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْآخِيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ أَرْابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾

٤٧- ﴿وَلَا يُنَبِّئُهُمْ عِنْدَنَا لِيَمِّنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين من بين أبناء جنسهم ﴿الْآخِيَارِ﴾ جمع خير، أو: خير على التخفيف، كاموات في جمع ميت، أو: ميت.

٤٨- ﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ كَأَنَّ حرف التعريف دخل على يسع ﴿وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض من المضاف إليه، أي: وكلهم ﴿مِنَ الْآخِيَارِ﴾.

٤٩- ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾ أي: ﴿هذا﴾ شرف، وذكر جميل، يذكرون به أبداً. ﴿وَإِنَّ﴾ لهم مع ذلك لحسن مرجع، يعني: يذكرون في الدنيا بالجميل، ويرجعون في الآخرة إلى مغفرة رب جليل. ثم بين كيفية حسن ذلك المرجع، فقال:

٥٠- ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿حسن مَّأَبٍ﴾ ﴿مُّفْتَحَةٌ﴾ حال من ﴿جَنَّاتٍ﴾ لأنها معرفة لإضافتها إلى ﴿عدن﴾ وهو علم، والعامل فيها ما في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ من معنى الفعل ﴿لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ ارتفاع الأبواب بأنها فاعل ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ والعائد محذوف، أي: ﴿مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ منها، فحذف كما حذف في قوله: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٩] أي: لهم. أو: أبوابها، إلا أن الأول أجود. أو: هي بدل من الضمير في ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ وهو ضمير الجئات، تقديره: مفتحة هي ﴿الأبواب﴾ وهو من بدل الاشتمال.

٥١- ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من المجرور في ﴿لَهُمُ﴾ والعامل ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ ﴿فِيهَا يَدْعُونَ﴾ فيها بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ﴾ أي: ﴿وشراب﴾ كثير، فحذف اكتفاء بالأول.

٥٢- ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ﴾ قصرن طرفهن على أزواجهن ﴿أَرْابٌ﴾ لِدَاتٍ أسنانهن كأسنانهم؛ لأنَّ التحاب بين الأقران أثبت؛ وكأنَّ اللدات سمين أتراباً؛ لأنَّ التراب مسهن في وقت واحد.

٥٣- ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ وبالياء: مكّي، وأبو عمرو ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: ليوم تجزى كل نفس بما عملت.

إِنَّ هَذَا الرَّزْقَ مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِفِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ
الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ
مُقْتَنِحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ

٥٤- ﴿إِنَّ هَذَا الرَّزْقَ مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ من انقطاع. والجملة حال من الرزق،
والعامل الإشارة.

٥٥- ﴿هَذَا﴾ خبر، والمبتدأ محذوف، أي: الأمر هذا، أو: هذا كما ذكر
﴿وَإِنَّ لِلطَّالِفِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ﴾ مرجع.

٥٦- ﴿جَهَنَّمُ﴾ بدل منه ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَيَنْسُ الْمِهَادُ﴾ شبه ما تحتهم من
النار بالمهاد الذي يفرشه النائم.

٥٧- ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه. فهذا:
مبتدأ، و﴿حَمِيمٌ﴾ خبره، و﴿غَسَّاقٌ﴾ عطف على الخبر، ﴿فليذوقوه﴾ اعتراض.
أو: العذب ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ثم ابتداء فقال: هو ﴿حَمِيمٌ﴾ و﴿غَسَّاقٌ﴾
بالتشديد: حمزة، علي، وحفص. والغساق بالتشديد والتخفيف: ما يَغْسَقُ من
صديد أهل النار. يقال: غَسَقَتِ العين؛ إذا سال دمعها. وقيل: الحميم يحرق
بحرّه، والغساق يحرق ببرده.

٥٨- ﴿وَآخَرُ﴾ أي: ﴿و﴾ عذاب ﴿آخِرُ﴾ أو: مذوق آخر ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾
من مثل العذاب المذكور ﴿وَأَخْرُ﴾ بصري، أي: ﴿و﴾ مذوقات ﴿أَخْرُ﴾ من
شكل هذا المذوق في الشدة، والفظاعة ﴿أَزْوَاجُ﴾ صفة لآخر؛ لأنه يجوز أن
يكون ضرباً.

٥٩- ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِحٌ مَعَكُمْ﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، أي:
دخل النار في صحبتكم. والافتحام: الدخول في الشيء بشدة، والقُحمة:
الشدة. وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض، أي: يقولون هذا.
والمراد بالفوج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة، فيقتحمون معهم العذاب
﴿لَا مَرْجَأَ لَهُمْ﴾ دعاء منهم على أتباعهم. تقول لمن تدعو له: مرحباً، أي: أتيت
رحباً من البلاد لا ضيقاً. أو: رَحُبْتُ بلادك رحباً. ثم تدخل عليه «لا» في

إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾

دعاء السوء و﴿بهم﴾ بيان للمدعو عليهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ داخلوها، وهو تعليل على لاستجابههم الدعاء عليهم. وقيل: ﴿هذا فوج مقتحم﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم، و﴿لا مرحباً بهم﴾ إنهم صالوا النار ﴿كلام الرؤساء، وقيل: هذا كله كلام الخزنة.

٦٠- ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع؛ ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: الدعاء الذي دعوتهم به علينا أنتم أحق به. وعللوا ذلك بقوله: ﴿أَنتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا﴾ والضمير للعذاب، أو: لصليهم، أي: إنكم دعوتونا إليه، فكفرنا باتباعكم ﴿فَيَسَّ الْقَرَارُ﴾ أي: النار.

٦١- ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفاً ﴿فِي النَّارِ﴾ ومعناه: ذا ضعف. ونحوه قوله: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وهو أن يزيد على عذابه مثله.

٦٢- ﴿وَقَالُوا﴾ الضمير لرؤساء الكفرة ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا﴾ يعنون: فقراء المسلمين ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ من الأرذال؛ الذين لا خير فيهم، ولا جدوى.

٦٣- ﴿أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾^(١) بلفظ الإخبار: عراقى غير عاصم، على أنه صفة لرجالاً، مثل ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ وبهزمة الاستفهام: غيرهم، على أنه إنكار على أنفسهم في الاستسخار منهم. ﴿سِخْرِيًّا﴾: مدني، وحزمة، وعلي، وخلف، والمفضل ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾. هو متصل بقوله: ﴿مالنا﴾ أي: مالنا لا نراهم في النار، كأنهم ليسوا فيها؟ بل أزاغت عنهم

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ موصولة الألف، وهي قراءة: أبي عمرو، وحزمة، والكسائي، وابن كثير، ويعقوب، وخلف، والأعمش، واليزيدي، وعبد الله. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٧٣).

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٦﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٧﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٩﴾ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٧٠﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧١﴾

أبصارنا، فلا نراهم وهم فيها؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة، وبين أن يكونوا من أهل النار، إلا أنه خفي عليهم مكانهم.

٦٤- ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لصدق كائن لا محالة، لا بد أن يتكلموا به. ثم بين ماهو، فقال: هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾. ولما شبه تقاولهم، وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين سماء تخاصماً، ولأن قول الرؤساء: ﴿لا مرحباً بهم﴾ وقول أتباعهم: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصماً؛ لاشتماله على ذلك.

٦٥- ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ ما أنا إلا رسول منذر، أنذركم عذاب الله ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وأقول لكم: إن دين الحق توحيد الله، وأن تعتقدوا أن لا إله إلا الله ﴿الْوَاحِدُ﴾ بلا ند، ولا شريك ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء.

٦٦- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ له الملك والربوبية في العالم كله ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب ﴿الْغَفُورُ﴾ لذنوب من التجأ إليه.

٦٧- ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً، وأن الله واحد لا شريك له ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة، ثم:

٦٨- ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ غافلون.

٦٩- ﴿مَا كَانَ لِي﴾ : - حفص - ﴿مِن عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ احتج بصحة نبوته بأن ما ينبيء به عن الملأ الأعلى، واختصاصهم، أمر ما كان له به من علم قط. ثم علمه، ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا، وهو: الأخذ من أهل العلم، وقراءة الكتب، فعلم أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحي من الله.

٧٠- ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: لـ ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ومعناه:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجْدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي

ما يوحى إليّ إلاّ للإنذار، فحذف اللام، وانتصب بإفضاء الفعل إليه. ويجوز أن يرتفع على معنى: ما يوحى إليّ إلاّ هذا، وهو أن أنذر، وأبلغ، ولا أفترط في ذلك، أي: ما أومر إلاّ بهذا الأمر وحده، وليس إليّ غير ذلك. ويكسر ﴿إنما﴾ يزيد على الحكاية، أي: إلاّ هذا القول، وهو أن أقول لكم: ﴿إنما أنا نذير مبين﴾ ولا أدعي شيئا آخر. وقيل: النبأ العظيم: قصص آدم، والإنباء به من غير سماع من أحد. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: القرآن. وعن الحسن: يوم القيامة. والمراد بالملا الأعلى: أصحاب القصة، الملائكة، وآدم، وإبليس؛ لأنهم كانوا في السماء، وكان التناول بينهم. و﴿إذ يختصمون﴾ متعلق بمحذوف، إذ المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملا الأعلى وقت اختصاصهم.

٧١- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ - بدل من ﴿إذ يختصمون﴾ في شأن آدم - حين قال تعالى على لسان ملك ﴿لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

٧٢- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ فإذا أتممت خلقته، وعدّلته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ الذي خلقته - وأضافه إليه تخصيصاً، ك: بيت الله، وناقة الله. والمعنى: أحْيَيْتُهُ، وجعلته حساساً، متنفساً - ﴿فَقَعُوا﴾ أمر من: وقع يقع، أي: اسقطوا على الأرض. والمعنى: اسجدوا ﴿لَهُمْ سَجْدِينَ﴾. قيل: كان انحناء يدلّ على التواضع، وقيل: كان سجدة لله، أو: كان سجدة التحية.

٧٣- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ كلّ للإحاطة. و﴿أجمعون﴾ للاجتماع، فأفاد أنهم سجدوا عن آخرهم جميعهم في وقت واحد غير متفرقين في أوقات.

٧٤- ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ تعظّم عن السجود ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بإباء الأمر.

٧٥- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ ما منعك عن السجود ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾
قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾

أي: بلا واسطة، امتثالاً لأمرى، وإعظماً لخطايي. وقد مرّ: أن ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيده، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما، حتى قيل: في عمل القلب: هو ما عملت يداك، وحتى قيل لمن لا يدي له: «يداك أوكتا وفوك نفخ»^(١) وحتى لم يبق فرق بين قولك: هذا مما عملته، وهذا مما عملته يداك. ومنه قوله: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَ﴾ [يس: ٧١] و ﴿لَمَّا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ استفهام إنكار ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ تمن علوت وفقت. وقيل: ﴿أستكبرت﴾ الآن، أم لم تزل مذ كنت من المستكبرين.

٧٦- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له؛ لأنه مخلوق مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني؟ لأنه من طين، والنار تغلب الطين، وتأكله. وقد جرت الجملة الثانية من الأولى - وهي ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ - مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

٧٧- ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو: من السموات، أو: من الحلقة التي أنت فيها؛ لأنه كان يفتخر بخلقته، فغير الله خلقته، واسودّ بعد ما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً ﴿فَأَنكَ رَجِيمٌ﴾ مرجوم، أي: مطرود. تكبر إبليس أن يسجد لمن خلق من طين، وزلّ عنه: أن الله أمر به ملائكته، واتبعوا أمره إجلالاً لخطابه، وتعظيماً لأمره، فصار مرجوماً ملعوناً بترك أمره.

٧٨- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ ويفتح الياء: مدني، أي: إبعادي من كل الخير ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء. ولا يُظنُّ أن لعنته غايتها يوم الدين، ثم تنقطع؛ لأنّ معناه: أنّ عليه اللعنة في الدنيا وحدها، فإذا كان يوم الدين اقترن بها العذاب فينقطع الانفراد. أو: لما كان عليه اللعنة في أوان الرحمة، فأولى أن تكون عليه في غير أوانها. وكيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنَّ

(١) هذا مثل، انظره في: جمهرة الأمثال (٢/٢٤٣ و ٤٣٠) وجمع الأمثال (١/٥٥ و ٢/٤١٤).

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿[الأعراف: ١٩٤]﴾.

٧٩-٨١- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ فامهلني ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ إلى يومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ إلى يومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى، ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه. ومعنى المعلوم: أنه معلوم عند الله معين، لا يتقدم، ولا يتأخر.

٨٢، ٨٣- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أقسم بعزة الله، وهي: سلطانه، وقهره ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ وبكسر اللام: مكِّي، وبصري، وشامي.

٨٤- ﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾ بالرفع: كوفي غير علي، على الابتداء، أي: الحق قسمي، أو: على الخبر، أي: أنا الحق. وبالنصب وغيرهم على أنه مقسم به، كقوله: الله لأفعلن كذا، يعني: حذف عنه الباء فانتصب، وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ ﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، وهو منصوب بأقول، ومعناه: ولا أقول إلا الحق. والمراد بالحق إما اسمه عز وجل الذي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢] أو: الحق الذي هو نقيض الباطل، عظمه الله بإقسامه به.

٨٥- ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ من جنسك. وهم: الشياطين ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا أترك منهم أحداً.

٨٦، ٨٧- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الضمير للقرآن، أو: للوحي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قط متصنعاً، ولا مدعياً بما ليس عندي، حتى أنتحل النبوة، وأتقول القرآن ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلين أوحى إلي فانا أبلغه.

وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم»^(١).

٨٨- ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ﴾ نَبَأُ القرآن وما فيه من الوعد والوعيد، وذكر البعث والنشور ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت، أو: يوم بدر، أو: يوم القيامة. ختم السورة بالذكر كما افتتحها بالذكر.

* * *

(١) أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ١٠٩/٤).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ

١- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن، مبتدأ خبره: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: نزل من عند الله، أو: خبر مبتدأ محذوف، والجارّ صلة التّنزيل، أو: غير صلة، بل هو خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ هذا من الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ في سلطانه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره.

٢- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ هذا ليس بتكرار؛ لأنّ الأوّل كالعنوان للكتاب، والثاني لبيان ما في الكتاب ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾ حال ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ أي: محضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر، فالدين منصوب بـ ﴿مُخْلِصًا﴾.

٣- ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلّص له الطاعة من كلّ شائبة كدّر لاطلاعه على الغيوب والأسرار. وعن قتادة: الدين الخالص: شهادة أن لا إله إلا الله. وعن الحسن: الإسلام ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: آلهة. وهو مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: ﴿وَالَّذِينَ﴾

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٢﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا
 لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣﴾ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ

عبدوا الأصنام يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ مصدر، أي: تقريباً
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين المسلمين والمشركين ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل:
 كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا
 قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ﴿وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
 زُلْفَىٰ﴾ والمعنى: إن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
 يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يهدي من هو في علمه أنه يختار الكفر،
 يعني: لا يوفقه للهدى، ولا يعينه وقت اختياره الكفر، ولكنه يخذله. وكذبهم:
 قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء: بنات الله. ولذا عقبه محتجاً
 عليهم بقوله:

٤- ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لو جاز اتخاذ
 الولد على ما تظنون، لاختار مما يخلق ما يشاء، لا ما تختارون أنتم، وتشاؤون
 ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولياء والأولاد،
 ودل على ذلك بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يعني: أنه واحد، متبرئ عن
 انضمام الأعداد، متعالٍ عن التجزؤ والولاد، قهار غلاب لكل شيء، ومن
 الأشياء ألهمهم، فأنى يكون له أولياء وشركاء؟

٥- ثم دل بخلق السموات والأرض وتكوين كل واحد من الملوئين^(١) على
 الآخر، وتسخير النيرين، وجريهما لأجل مسمى، وبث الناس على كثرة عددهم
 من نفس واحدة، وخلق الأنعام، على أنه واحد لا يشارك، قهار لا يغالب
 بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى
 اللَّيْلِ﴾. والتكوين: اللف واللي، يقال: كار العمامة على رأسه، وكورها،

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ
 الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ
 ثَمَنِيَّةً ۖ أَزْوَاجٌ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ۖ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ
 ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ
 غَنِيٌّ عَنْكُمْ

والمعنى: إنَّ كلَّ واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه. فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لفَّ عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار، أو: أنَّ هذا يكرّ على هذا كروراً متتابعاً، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عقاب من لم يعتبر بتسخير الشمس والقمر، فلم يؤمن بمسخرهما ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن فكر واعتبر، فأمن بمدبرهما.

٦- ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: آدم - عليه السلام - ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء من قصيراه^(١). قيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، ثم خلق بعد ذلك حواء ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: جعل، عن الحسن. أو: خلقها في الجنة مع آدم - عليه السلام - ثم أنزلها. أو: لأنها لا تعيش إلا بالنبات، والنبات لا يقوم إلا بالماء، وقد أنزل الماء، فكانه أنزلها ﴿ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجٌ﴾ ذكراً وأنثى، من: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، كما بين في سورة الأنعام. والزواج اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد، ووتر ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نقطة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم إلى تمام الخلق ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن، والرحم، والمشيمة. أو: ظلمة الصلب، والبطن، والرحم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي هذه مفعولاته هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فكيف يُعدّل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثم بين أنه غني عنهم بقوله:

٧- ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ عن إيمانكم، وأنتم محتاجون إليه

(١) «قصيراه»: منى القصيرى، وهي أعلى الأضلاع وأسفلها. وهما قصيران.

وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ آمَنَ هُوَ قَلْبُكَ

لتضرركم بالكفر، وانتفاعكم بالإيمان ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لأن الكفر ليس برضا الله تعالى وإن كان بإرادته ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ فتؤمنوا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرض الشكر لكم؛ لأنه سبب فوزكم، فيشيكم عليه الجنة. ﴿يرضه﴾ بضم الهاء والإشباع: مكّي، وعليّ ﴿يرضه﴾ بضم الهاء بدون الإشباع نافع، وهشام، وعاصم غير يحيى وحمّاد. وغيرهم: ﴿يرضه﴾ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يؤاخذ أحدٌ بذنب آخر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ إلى جزاء ربكم رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ﴾ بخفيات القلوب.

٨- ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ هو: أبو جهل، أو: كل كافر ﴿ضُرٌّ﴾ بلاء، وشدة. والمسّ في الأعراض مجاز ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إلى الله بالدعاء، لا يدعو غيره ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أعطاه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ من الله عز وجل ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه. و﴿مَا﴾ بمعنى من، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ٣]. أو: ﴿نَسِيَ﴾ الضّر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أمثالا ﴿لِيُضِلَّ﴾: ﴿لِيُضِلَّ﴾: مكّي، وأبو عمرو، ويعقوب ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: الإسلام ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَمَتَّعْ﴾ أمر تهديد ﴿بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ من أهلها.

٩- ﴿آمَنَ﴾ قرأ بالتخفيف: مكّي، ونافع، وحمزة، على إدخال همزة الاستفهام على ﴿من﴾ وبالتشديد غيرهم، على إدخال ﴿أم﴾ عليه. و﴿من﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: آمن ﴿هُوَ قَلْبُكَ﴾ كغيره، أي: آمن هو مطيع كمن هو عاص، والقانت: المطيع لله، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جزي ذكر الكافر قبله، وقوله بعده ﴿قُلْ﴾ هل يستوي الذي يعملون والذين

ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ

لا يعلمون ﴿٩﴾ ءَانَاءَ اللَّيْلِ ﴿٩﴾ ساعاته ﴿٩﴾ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴿٩﴾ حالان من الضمير في
﴿قَانَتْ﴾ ﴿٩﴾ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴿٩﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿٩﴾ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴿٩﴾ أي: الجنة.
ودلّت الآية على أَنَّ المؤمن يجبُ أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته
لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله. ثم الرجاء إذا جاوز حدّه
يكون أمنًا، والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياسًا. وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فيجب ألا يجاوز أحدهما حدّه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون ويعملون، كأنه جعل مَنْ لا يعمل غير عالم.
وفيه ازدراءٌ عظيمٌ بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون، ويفتنون فيها ثم
يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء. أو: أريد
به التشبيه، أي: كما لا يستوي العالم والجاهل، كذلك لا يستوي المطيع
والعاصي ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ جمع لب، أي: إِنَّمَا يَتَعَّظُ بوعظ الله أولو
العقول.

١٠- ﴿قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بلا ياء، عند الأكثر. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بامثال
أوامره، واجتناب نواهيهِ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: أطاعوا الله
في الدنيا. و﴿فِي﴾ يتعلّق بأحسنوا لا بـ ﴿حَسَنَةٌ﴾، معناه: الذين أحسنوا في هذه
الدنيا، فلهم حسنة في الآخرة، وهي: دخول الجنة، أي: حسنة لا توصف.
وقد علّق السدي بـ ﴿حَسَنَةٌ﴾ ففسّر الحسنة بالصحّة، والعافية. ومعنى:
﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أي: لا عذر للمفترطين في الإحسان ألّبتة، حتّى إن اعتلوا
بأنهم لا يتمكّنون في أوطانهم من التوفّر على الإحسان، قيل لهم: فإنّ أرض الله
واسعة، وبلاده كثيرة، فتحوّلوا إلى بلاد آخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في
مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم
﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على مفارقة أوطانهم وعشائرتهم وعلى غيرها من تجرّع

أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
 الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ
 دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾

الغصص، واحتمال البلايا في طاعة الله، وازدياد الخير ﴿أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. عن
 ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا يهتدي إليه حساب الحساب ولا يعرف. وهو
 حال من الأجر، أي: موفراً.

١١- ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ بأن أعبد الله ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أمرت
 بإخلاص الدين.

١٢- ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون أول
 المسلمين. أي: مقدمهم، وسابقهم في الدنيا والآخرة. والمعنى: أن الإخلاص
 له السبقة في الدين، فمن أخلص كان سابقاً. فالأول أمر بالعبادة مع
 الإخلاص، والثاني بالسبق. فلاختلاف جهتهما نزلتا منزلة المختلفين، فصح
 عطف أحدهما على الآخر.

١٣- ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لمن دعاك بالرجوع إلى دين
 آبائك، وذلك: أن كفار قريش قالوا له عليه الصلاة والسلام: ألا تنظر إلى
 أبيك، وجدك، وسادات قومك يعبدون اللات والعزى؟! فنزلت ردّاً عليهم.

١٤- ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ فهذه الآية إخبار بأنه يخص الله وحده
 بعبادته، مخلصاً له دينه دون غيره. والأولى إخبار بأنه مأمور بالعبادة
 والإخلاص، فالكلام أولاً واقع في نفس الفعل وإثباته، وثانياً فيمن يفعل الفعل
 لأجله؛ ولذلك رتب عليه قوله:

١٥- ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ وهذا أمر تهديد. وقيل له: إن خالفت دين
 آبائك فقد خسرت، فنزلت: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران،
 الجامعين لوجوهه، وأسبابه ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بإهلاكها في النار ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾
 أي: وخسروا أهلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لأنهم أضلّوهم، فصاروا إلى النار. ولقد
 وصف خسراهم بغاية الفظاعة في قوله: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ حيث صدر

لَهُمْ مِّنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُ
فَآتَقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾
الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ

الجملة بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران، ونعته بالمبين، وذلك لأنهم استبدلوا بالجنة ناراً، وبالدرجات دركات.

١٦- ﴿لَهُمْ مِّنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق ﴿مِنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق من النار هي ﴿ظلل﴾ لآخرين، أي: النار محيطة بهم ﴿ذَلِكَ﴾ الذي وصف من العذاب، أو: ﴿ذَلِكَ﴾ الظلل ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ليؤمنوا به، ويجتنبوا عن مناهيه ﴿يَعْبَادُ فَآتَقُونِ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. خوفهم بالنار، ثم حذرهم نفسه.

١٧- ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الشياطين. فعلوت، من الطغيان، كالملكوت والرحموت؛ إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على الغين. أطلقت على الشيطان، أو: الشياطين لكون الطاغوت مصدراً، وفيها مبالغات، وهي التسمية بالمصدر، كأن عين الشيطان طغيان، وأن البناء بناء مبالغة، فإن الرحموت: الرحمة الواسعة، والملكوت: الملك المبسوط، والقلب وهو للاختصاص؛ إذ لا تطلق على غير الشيطان، والمراد بها - هاهنا - الجمع. وقرىء ﴿الطواغيت﴾ ﴿أَن يَّعْبُدُوهَا﴾ بدل الاشتمال من ﴿الطاغوت﴾ أي: عبادتها ﴿وَأَنَابُوا﴾ رجعوا ﴿إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارة بالثواب، تتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين، وحين يحشرون ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

١٨- ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ هم الذين اجتنبوا، وأنابوا. وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير. أراد أن يكونوا نقاداً في الدين، يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل. فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب اختاروا الواجب، وكذا المباح والندب - حراساً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً. أو: يسمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، أو: يسمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو: القصاص، والعفو، ونحو ذلك، أو: يسمعون الحديث مع

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رَهْمَهُمْ هُمْ عُرِفُوا بِفَوْقَهَا عُرْفٌ مَبِينَةٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا

القوم فيه محاسن ومساوىء، فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: المتفعلون بعقولهم.

/ ١٩- ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أصل الكلام: أمن حق عليه كلمة العذاب - أي: وجب - فأنت تنقذه. جملة شرطية دخلت عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف، تقديره: أنت مالك أمرهم؟ فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه؟ والهمزة الثانية هي الأولى، كررت لتوكيد معنى الإنكار. ووضع ﴿من في النار﴾ موضع الضمير، أي: تنقذه. فالآية على هذا جملة واحدة، أو: معناه ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب﴾ ينجو منه؟ فأنت تنقذه؟! أي: لا يقدر أحد أن ينقذ من أضله الله، وسبق في علمه أنه من أهل النار.

٢٠- ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رَهْمَهُمْ هُمْ عُرِفُوا بِفَوْقَهَا عُرْفٌ﴾ أي: لهم منازل في الجنة رفيعة، وفوقها منازل أرفع منها، يعني: للكفار ظلل من النار، وللمتقين غرف ﴿مَبِينَةٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت منازلها ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿وَعَدَّ﴾: مصدر مؤكد؛ لأن قوله ﴿لهم غرف﴾ في معنى: وعدهم الله ذلك.

٢١- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر. وقيل: كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة، ثم يقسمه الله ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فادخله ﴿يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ عيوناً، ومسالك، وبحاري كالعروق في الأجساد. و﴿ينابيع﴾ نصب على الحال، أو: على الظرف. و﴿في الأرض﴾ صفة لينابيع ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء ﴿زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ هيئاته من: خضرة، وحمرة، وصفرة، وبياض. أو: أصنافه من: برّ، وشعير، وسمسم، وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يجف ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد نضارته، وحسنه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا﴾ فتاتاً متكسراً.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٔ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ

فالحطام: ما تفتت وتكسر من النبات وغيره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في إنزال الماء، وإخراج الزرع ﴿لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لتذكيراً، وتنبيهاً على أنه لا بد من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن إهمال وتعطيل.

٢٢- ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ أي: وسع صدره ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ فاهتدى. وسُئِلَ رسول الله ﷺ عن الشرح، فقال: «إذا دخل القلب انشرح وانفسح». فقيل: هل له علامة؟ قال: «نعم: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»^(١) ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بيان وبصيرة. والمعنى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ فاهتدى، كمن طبع على قلبه فقسا قلبه؟! فحذف؛ لأن قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ يدل عليه ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: من ترك ذكر الله، أو: من أجل ذكر الله، أي: إذا ذكر الله عندهم، أو: آياته ازدادت قلوبهم قساوة، كقوله: ﴿فَوَادَّوْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ غواية ظاهرة.

٢٣- ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ في إيقاع اسم الله مبتدأ، وبناء ﴿نَزَّلَ﴾ عليه، تفخيماً لأحسن الحديث ﴿كِتَابًا﴾ بدل من ﴿أحسن الحديث﴾ أو: حال منه ﴿مُتَشَبِّهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً في الصدق، والبيان، والوعظ، والحكمة، والإعجاز، وغير ذلك ﴿مَّثَانِيَ﴾ نعت ﴿كِتَابًا﴾ جمع مثني، بمعنى: مردد ومكرر لما ثنى من قصصه، وأنبائه، وأحكامه، وأوامره، ونواهي، ووعد، ووعيده، ومواعظه. فهو بيان لكونه متشابهاً؛ لأن القصص المكررة وغيرها لا تكون إلا متشابهة. وقيل: لأنه يثنى في التلاوة فلا يمل. وإنما جاز وصف الواحد بالجمع؛ لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشيء هي: جملة. ألا تراك

(١) رواه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول (١٢٧). وانظره في تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٠-١٨١) والدر المنثور (٣/ ٣٥٥) وتنبيه الغافلين للسمرقندي (ص ٣٧) تحقيق

نَقْشَعُرٌ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ
ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اسْتَكْبَرَ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَبْقَىٰ
بُوجْهِهِ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

تقول: القرآن أسباع، وسور وآيات؟! فكذلك تقول: أقاصيص، وأحكام، ومواعظ مكررات. أو: منصوب على التمييز من ﴿متشابهاً﴾ كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل، والمعنى: متشابهة مثانيه ﴿نَقْشَعُرٌ﴾ تضطرب، وتتحرك ﴿مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. يقال: اقشعر الجلد، إذا تقبض تقبضاً شديداً، والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن، وبآيات وعيده، أصابهم خشية تقشعر منها جلودهم. وفي الحديث: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحأت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»^(١) ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة. وعدي بـ «إلى» لتضمنه معنى فعل متعد بـ «إلى»، كأنه قيل: اطمأنت إلى ذكر الله ليتة غير منقبضة. واقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؛ لأن رحمة سبقت غضبه، فلأصالة رحمته إذا ذكر الله لم يخطر بالبال إلا كونه رؤوفاً رحيماً. وذكرت الجلود وحدها أولاً، ثم قرنت بها القلوب ثانياً؛ لأن محل الخشية: القلب، فكان ذكرها يتضمن ذكر القلوب ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب. وهو ﴿هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنِ اسْتَكْبَرَ﴾ من عباده، وهم من علم منهم اختيار الاهتداء ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ يخلق الضلالة فيه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ إلى الحق.

٢٤- ﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بُوجْهِهِ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كمن أمن من العذاب؟! فحذف الخبر كما حذف في نظائره. وسوء العذاب: شدته، ومعناه: أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه؛ لأنه أعز أعضائه عليه. والذي يلقى في النار يلقى مغلوله يده إلى عنقه، فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره، وقاية له، ومحاماة عليه

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٣١٠).

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ فَاَنذَرُوهُمْ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: تقول لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُوا﴾ وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: كسبكم.

٢٥- ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش ﴿فَاَنذَرُوهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها. بينا هم آمنون إذ فوجئوا من مأمهم.

٢٦- ﴿فَاَذَاهُمُ اللَّهُ الْحَزَنُ﴾ الذل، والصغار، كالمسخ، والخسف، والقتل، والجلاء، ونحو ذلك من عذاب الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لآمنوا.

٢٧- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليتعظوا.

٢٨- ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة، كما تقول: جاءني زيد رجلاً صالحاً، وإنساناً عاقلاً. فتذكر رجلاً وإنساناً تأكيداً. أو: نصب على المدح ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ مستقيماً، بريئاً من التناقض والاختلاف. ولم يقل: مستقيماً؛ للإشعار بالآ يكون فيه عوج قط. وقيل: المراد بالعوج: الشك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر.

٢٩- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ بدل. ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ متنازعون، ومختلفون ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ - مصدر: سلم، والمعنى: ذا سلامة - ﴿لِرَجُلٍ﴾ أي: ذا خلوص له من الشركة. (سالماً): مكّي، وأبو عمرو، أي: خالصاً له ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفة، وهو تمييز، والمعنى: هل تستوي صفاتها وحالهما؟! وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرئ: ﴿مَثَلَيْنِ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي لا إله إلا هو ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره. مثل الكافر

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَمَاتٌ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّصُونَ ﴿٣١﴾
 ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾

ومعبوديه بعد اشتراك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف، كل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجادبون، ويتعاورونه في مهن شتى وهو متحير، لا يدري أيهم يرضي بخدمته، وعلى أيهم يعتمد في حاجاته، ومن يطلب رزقه، ومن يلتبس رفقه، فهمه شعاع^(١)، وقلبه أوزاع^(٢)، والمؤمن: بعبد له سيد واحد، فهمه واحد، وقلبه مجتمع.

٣٠- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: ستموت ﴿وَلَهُمْ مَمَاتٌ﴾. وبالتخفيف: مَنْ حَلَّ بِهِ الموت. قال الخليل: أنشد أبو عمرو:

وتسألني تفسيرَ ميِّتٍ وميِّتٍ فدونك وقد فسرْتُ إن كنت تعقل
 فمن كان ذا روح فذلك ميِّتٌ وما الميِّتُ إلا مَنْ إلى القبر يُحمل
 كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر: أنَّ الموت يعمهم، فلا معنى للتربص وشماته الفاني بالفاني. وعن قتادة - رحمه الله -: نعى إلى نبيِّه نفسه، ونعى إليكم أنفسكم. أي: إنَّك وإياهم في عداد الموتى؛ لأنَّ ما هو كائن فكأن قد كان.

٣١- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أي: إنَّك وإياهم - فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب - ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّصُونَ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنَّك بلغت فكذبوا، واجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته. تقول الأتباع: أطعنا ساداتنا وكبراءنا، ويقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون. قالت الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلما قُتل عثمان - رضي الله عنه - قالوا: هذه خصومتنا. وعن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة، وذلك في الدماء والمظالم التي بينهم. والوجه هو الأول؛ ألا ترى إلى قوله:

٣٢- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ

(١) أي: متفرق.

(٢) «الأوزاع»: مشتت أو مفترق.

وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ
بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ
جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۚ

به ﴿[الزمر: ٣٣]﴾ وما هو إلا بيان وتفسير للذين تكون بينهم الخصومة ﴿كذب على الله﴾: افترى عليه بإضافة الولد، والشريك إليه ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو: ما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال رويته، أو: اهتمام بتمييز بين حق وباطل، كما يفعل أهل التصفة فيما يسمعون ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين كذبوا على الله، وكذبوا بالصدق. واللام في ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ إشارة إليهم.

٣٣- ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو رسول الله ﷺ، جاء بالحق، وآمن به. وأراد به: إياه ومن تبعه، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩] فلذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. وقال الزجاج: روي عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ محمد رسول الله ﷺ، ﴿و﴾ الذي ﴿صدق به﴾ أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -. وروي: أن الذي جاء بالصدق محمد رسول الله ﷺ، ﴿صدق به﴾: المؤمنون. والكل صحيح. كذا قالوا. والوجه في العربية أن يكون ﴿جاء﴾ و﴿صدق﴾ لفاعل واحد؛ لأن التغاير يستدعي إضمار الذي وذا غير جائز، أو: إضمار الفاعل من غير تقدم الذكر، وذا بعيد.

٣٤، ٣٥- ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إضافة أسوأ وأحسن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل، كقولك: الأشج أعدل بني مروان.

٣٦- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية، وتقريرها ﴿عَبْدَهُ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿عباده﴾: همزة، وعلي، أي: الأنبياء والمؤمنين. وهو مثل: ﴿إِنَّا كُنْزُكَ الْمُسْتَهِزِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: بالأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه، وذلك: أن قريشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخاف أن تحبلك آلهتنا، وإنا نخشى عليك مضرتها لعلك إياها ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

٣٧- ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ بغالب، منيع ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه. وفيه وعيد لقريش، ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم، وينصرهم عليهم. ثم أعلم بأنهم مع عبادتهم الأوثان مقررون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض بقوله:

٣٨- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ - بفتح الياء سوى حمزة - ﴿يُضَرُّ﴾ مرض، أو: فقر، أو: غير ذلك ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ دافعات شدته عني ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ صحة، أو: غنى، أو: نحوهما ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ كاشفات ضره ﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ بالتثنية على الأصل: بصري. وفرض المسألة في نفسه دونهم؛ لأنهم خوفوه معرة الأوثان وتخيلها، فأمر بأن يقرهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده، ثم يقول لهم بعد التقرير: فإن أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضر أو برحمة، هل تقدرون على خلاف ذلك؟ فلما أفحمهم قال الله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافياً لمعرة أوثانهم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

يروى: أن النبي ﷺ سألهم فسكتوا، فنزل: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وإنما قال: ﴿كاشفات﴾ و﴿ممسكات﴾ على التأنيث بعد قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ لأنهن إناث، وهن: اللات، والعزى، ومناة. وفيه تهكم بهم، وبمعبودهم.

قُلْ يَتَقَوِّمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ

٣٩، ٤٠- ﴿قُلْ يَتَقَوِّمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ على حالكم التي أنتم عليها

وجهتكم من العداوة التي تمكتم منها، والمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت عن العين للمعنى، كما يستعار هنا وحيث للزمان، وهما للمكان ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ أي: على مكاتي. وحذف للاختصار، ولما فيه من زيادة الوعيد والإيذان بأن حالته تزداد كل يوم قوة؛ لأن الله تعالى ناصره ومعينه. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم عالياً عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب، فذاك عزه وغلبته من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه، وبذل ذليل من أعدائه. و﴿يخزيه﴾ صفة للعذاب، كمقيم، أي: عذاب يخز له، وهو يوم بدر، وعذاب دائم، وهو عذاب النار ﴿مكاناتكم﴾: أبو بكر، وحماد.

٤١- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، ولأجل حاجتهم إليه؛ ليبشروا، وينذروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ﴿بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْ فَلِنَفْسِهِ﴾ فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن اختار الضلالة فقد ضرها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ. ثم أخبر بأنه الحفيظ القدير عليهم بقوله:

٤٢- ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الأنفس: الجمل كما هي. وتوفيها: إمامتها، وهو: أن تسلب ما هي به حية حساسة ذراكة ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي: يتوفاها حين تنام، تشبيهاً للنائمين بالموتى، حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أن الموتى كذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الأنفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ﴾: حمزة، وعلي ﴿عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ الحقيقي، أي:

وَيُرْسِلُ الْآخَرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

لا يردّها في وقتها حيّة ﴿وَيُرْسِلُ الْآخَرَىٰ﴾ النائمة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت ضربه لموتها. وقيل: ﴿يتوفى الأنفس﴾ أي: يستوفىها، ويقبضها، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ﴿و﴾ يتوفى الأنفس ﴿التي لم تمت في منامها﴾ وهي أنفس التمييز. قالوا: فالتّي تُتوفى في المنام هي نفس التمييز لا نفس الحياة؛ لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النّفس، والنائم يتنفس. ولكلّ إنسان نفسان: إحداهما: نفس الحياة، وهي: التي تفارق عند الموت، والآخرى: نفس التمييز، وهي: التي تفارقه إذا نام.

وروا عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: في ابن آدم نفس وروح [بينهما شعاع]^(١) مثل شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النّفس والتحرّك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه.

وعن عليّ - رضي الله عنه - قال: تخرج الروح عند النوم، ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا نُبّه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة.

وعنه: ما رأت نفس النائم في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت بعد الإرسال فيلقبها الشيطان فهي كاذبة.

وعن سعيد بن جبیر: إنّ أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقي في المنام، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ إلى أجسادها إلى انقضاء مدّة حياتها.

وروي: أنّ أرواح المؤمنين تعرج عند النوم في السماء، فمن كان منهم طاهراً أذن له في السجود، ومن لم يكن منهم طاهراً لم يؤذن لهم فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إنّ في توفى الأنفس مائة ونائمة، وإمساكها وإرسالها إلى أجل ﴿لَآيَاتٍ﴾ على قدرة الله، وعلمه ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يجيلون فيه أفكارهم، ويعتبرون.

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ

٤٣- ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذ قريش - والهمزة للإنكار - ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من دون إلهه ﴿شُفَعَاءَ﴾ حين قالوا: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: ﴿أ﴾ يشفعون ﴿ولو كانوا لا يملكون شيئاً﴾ قط، ولا عقل لهم.

٤٤- ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مالکها، فلا يستطيع أحد شفاعته إلا بإذنه. وانتصب ﴿جميعاً﴾ على الحال ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقوله: ﴿لله الشفاعة جميعاً﴾ لأنه إذا كان له الملك كله، والشفاعة من الملك، كان مالکاً لها ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ متصل بما يليه. معناه: ﴿له ملك السموات والأرض﴾ اليوم ﴿ثمَّ إليه ترجعون﴾ يوم القيامة. فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له، فله ملك الدنيا والآخرة.

٤٥- ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ مدار المعنى على ﴿وحده﴾ أي: إذا أفرد الله بالذكر، ولم تذكر معه آلهتهم ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت، وانقبضت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: آلهتهم ذكر الله معهم، أو: لم يذكر ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لافتتانهم بها. أو: إذا قيل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نفروا؛ لأنَّ فيها نفياً لآلهتهم. ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز، إذ كل واحد منهما غاية في بابه، فالاستبشار: أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه، ويتهلل، والاشمئزاز: أن يمتلئ غمّاً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه. والعامل في ﴿إذا ذكر﴾ هو العامل في ﴿إذا﴾ المفاجأة. تقديره: وقت ذكر الذين من دونه فاجؤوا وقت الاستبشار.

٤٦- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يا ﴿فاطر﴾ - وليس بوصف كما يقوله المبرد، والفراء - ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ السر، والعلانية ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ﴾

بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

تقضي ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الهدى والضلالة، وقيل: هذه محاكمة من النبي للمشركين إلى الله. وعن الربيع ابن المسيب: لا أعرف آية قرئت فدعي عندها إلا أجيب، سواها. وعن الربيع بن خثيم - وكان قليل الكلام - أنه أخبر بقتل الحسين - رضي الله عنه - وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. ورؤي: أنه قال على أثره: قُتِلَ مَنْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه.

٤٧ - ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ الهاء تعود إلى ما ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ شدته ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم، ولا يحدثون به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات فإذا هي سيئات. وعن سفيان الثوري: أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر - رحمه الله - عند موته فقبل له، فقال: أخشى آية من كتاب الله، وتلاها، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه.

٤٨ - ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: سيئات أعمالهم التي كسبوها، أو: سيئات كسبهم حين تعرض صحائفهم وكانت خافية عليهم، أو: عقاب ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ ونزل بهم، وأحاط ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جزاء هزئهم.

٤٩ - ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أعطيناه تفضلاً - يقال: خولني: إذا أعطاك على غير جزاء - ﴿نِعْمَةً مِنَّا﴾ - ولا تقف عليه؛ لأن جواب ﴿إذا﴾ - ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني أني سأعطاه لما في من فضل، واستحقاق. أو: ﴿على علم﴾ مني بوجوه الكسب، كما قال قارون: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. وإنما ذكر الضمير في ﴿أوتيته﴾ وهو للنعمة، نظراً إلى المعنى؛ لأن

بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

قوله: ﴿نِعْمَةٌ مِّنَّا﴾ شيئاً من النعمة، وقسماً منها. وقيل: ﴿مَا﴾ في ﴿إِنَّمَا﴾ موصولة لا كافة، فيرجع الضمير إليها، أي: إِنَّ الذي أوتيته على علم ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ - إنكار لقوله، كأنه قال: ما خولناك من النعمة لما تقول ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاء وامتحان لك، أتشكر أم تكفر. ولما كان الخبر مؤثراً، أعني: ﴿فِتْنَةٌ﴾. ساغ تأنيث المبتدأ لأجله. وقرئ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ على وفق ﴿إِنَّمَا أوتيته﴾ - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها فِتْنَةٌ. والسبب في عطف هذه الآية بالفاء، وعطف مثلها في أول السورة بالواو: أَنَّ هذه وقعت مسببة عن قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ على معنى: أنهم يشمئزون عن ذكر الله، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسَّ أحدهم ضرٌّ دعا من اشمأزَّ عن ذكره دون من استبشر بذكره. وما بينهما من الآي اعتراض. فإن قلت: حقّ الاعتراض أن يؤكد المعارض بينه وبينه. قلت: ما في الاعتراض من دعاء الرسول ﷺ ربه بأمر من الله، وقوله: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ ثم ما عقبه من الوعيد العظيم، تأكيد لإنكار اشمئزازهم، واستبشارهم، ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم، كأنه قيل: قل يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء، الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة، إلا أنت. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ متناول لهم ولكل ظالم إن جعل عامّاً، أو: إياهم خاصة إن عنيتهم به، كأنه قيل: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ لهؤلاء الظالمين ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ حين أَحْكَمَ عليهم بسوء العذاب. وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة، وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها، فعطفت عليها بالواو، نحو: قام زيد، وقعد عمرو. وبيان وقوعها مسببة أنك تقول: زيد مؤمن بالله، فإذا مسَّ ضرَّ التجأ إليه. فهذا تسيبٌ ظاهر، ثم تقول: زيد كافر بالله، فإذا مسَّ ضرَّ التجأ إليه، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة، كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجأ المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان في جعله سبباً في الالتجاء.

٥٠ - ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ هذه المقالة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَا أوتيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]

﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قارون وقومه، حيث قال: ﴿إِنَّمَا أوتيته على علم عندي﴾ وقومه راضون بها، فكأنهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأهم الخالية

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفَوْا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

اخرى قائلون مثلها ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا، وما يجمعون منها.

٥١- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات كسبهم، أو سقى جزاء السيئة سيئة لازدواج، كقوله: ﴿وَجَزَاوُا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿مِن هَٰؤُلَاءِ﴾ مشركي قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: سيصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فقتل صناديدهم بيد، وحبس عنهم الرزق، فمحطوا سبع سنين ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفاتتين من عذاب الله. ثم بسط لهم، فمطروا سبع سنين، فقبل لهم:

٥٢- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق؟ وقيل: يجعله على قدر القوت ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأنه لا قابض ولا باسط إلا الله - عز وجل -.

٥٣- ﴿قُلْ﴾ يا محمد يقول الله: ﴿يَبْعَادَى الَّذِينَ﴾ - وبسكون الياء: بصري، وحمة، وعلي - ﴿اسْتَرْفَوْا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي، والغلو فيها ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ لا تيأسوا - وبكسر النون: علي، وبصري - ﴿مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بالعفو عنها إلا الشرك. وفي قراءة النبي ﷺ: (يعفو الذنوب جميعاً ولا ييالي). ونظير نفى المبالاة: نفى الخوف في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]. قيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة - رضي الله عنه - . وعن رسول الله ﷺ: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية»^(١) ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ بستر عظام الذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بكشف فظائع الكروب.

وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِمِمَّن قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾
وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ
وَأِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾

٥٤- ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿وَأَسْلِمُوا لِمِمَّن﴾ وأخلصوا له العمل
﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إن لم تتوبوا قبل نزول العذاب.

٥٥- ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ
الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: يفجؤكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تحشون شيئاً
لفرط غفلتكم.

٥٦- ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ لثلاث أقوال. ﴿نَفْسٌ﴾ إنما نكرت؛ لأن المراد بها بعض
الأنفس، وهي: نفس الكافر. ويجوز أن يُراد نفس متميزة من الأنفس إما
بلجاج في الكفر شديد، أو: بعذاب عظيم. ويجوز أن يُراد التكثير ﴿بِحَسْرَتِي﴾
الألف بدل من ياء المتكلم. وقرئ ﴿يا حسرتي﴾ على الأصل، و﴿يا حسرتاي﴾
على الجمع بين العوض والمعوّض منه ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ﴾ قصرت. و﴿مَا﴾ مصدرية
مثلها في ﴿يَمَّا رَجَبْتُ﴾ [التوبة: ٢٥]. ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ في أمر الله، أو: في
طاعة الله، أو: في ذاته. وفي حرف عبد الله بن مسعود (في ذكر الله). والجانب:
الجانب. يقال: أنا في جنب فلان، وجانبه، وناحيته، وفلان لئن الجانب
والجنب. ثم قالوا: فرط في جنبه، وفي جانبه، يريدون: في حقه. وهذا من
باب الكناية؛ لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل، وحيزه، فقد أثبتته فيه.
ومنه الحديث: «مِنَ الشُّرَكَاءِ الْخَفِيِّ: أَنْ يَصِلِيَ الرَّجُلُ لِمَكَانِ الرَّجُلِ»^(١) أي:
لأجله. وقال الزجاج: معناه: فرط في طريق الله، وهو: توحيده، والإقرار
بنبوة محمد ﷺ ﴿وَأِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ المستهزئين. قال قتادة: لم يكفه أن

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي
فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ
كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ

ضئيع طاعة الله حتى سخر من أهلها. ومحل ﴿وإن كنت﴾: النصب على الحال،
كأنه قال: فرطت وأنا ساخر، أي: فرطت في حال سخريتي.

٥٧- ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ أي: أعطاني الهداية ﴿لَكُنْتُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ﴾ من الذين يتقون الشرك. قال الشيخ الإمام أبو منصور - رحمه الله
تعالى -: هذا الكافر أعرف بهداية الله من المعتزلة. وكذا أولئك الكفرة الذين
قالوا لأتباعهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ يقولون: لو وفقنا الله للهداية،
وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه، ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية،
فخذلنا، ولم يوفقنا، والمعتزلة يقولون: بل هداهم، وأعطاهم التوفيق لكنهم لم
يهتدوا. والحاصل: أن عند الله لطفاً؛ من أعطي ذلك اهتدى، وهو التوفيق
والعصمة، ومن لم يعطه ضلّ وغوى، وكان استحبابه العذاب وتضييعه الحق
بعد ما أمكن من تحصيله، لذلك.

٥٨- ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ
مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الموحدين.

٥٩- ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾
﴿بلى﴾: رد من الله عليه، كأنه يقول: ﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ وبيئت لك
الهداية من الغواية، وسبيل الحق من الباطل، ومكنتك من اختيار الهداية على
الغواية، واختيار الحق على الباطل. ولكن تركت ذلك، وضيعته، واستكبرت
عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، واشتغلت بضد ما أمرت به، فإنما جاء
التضييع من قبلك، فلا عذر لك. و﴿بلى﴾ جواب لنفي تقديرِي؛ لأن معنى
﴿لو أن الله هداي﴾: ما هُديت. وإنما لم يقرن الجواب به؛ لأنه لا بُدَّ من حكاية
أقوال النفس على ترتيبها، ثم الجواب من بينها عما اقتضى الجواب.

٦٠- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه من

وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثْقَاتِ نَفْسِهِمْ لَّا يَمَسُّهُمْ أَلْسُوءٌ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾

إضافة الشريك والولد إليه، ونفي الصفات عنه ﴿وَجُوهُهُمْ﴾ مبتدأ ﴿مُسْوَدَّةٌ﴾ خبر. والجملة في محلّ النصب على الحال إن كان ﴿ترى﴾ من رؤية البصر، وإن كان من رؤية القلب فمفعول ثانٍ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ منزل ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هو إشارة إلى قوله: ﴿واستكبرت﴾.

٦١- ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ و﴿يُنَجِّي﴾ رَوْحُ ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ من الشرك ﴿بِمِثْقَاتِ نَفْسِهِمْ﴾ بفلاحهم. يقال: فاز بكذا؛ إذا أفلح به، وظفر بمراده منه وتفسير المفازة: ﴿لَّا يَمَسُّهُمْ أَلْسُوءٌ﴾ النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كأنه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: ﴿لَّا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ﴾ أي: ينجيهم بنفي السوء، والحزن عنهم، أي: لا يمسّ أبدانهم أذى، ولا قلوبهم حزن. أو: بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمِثْقَاتِ رَمْلِ الْعَدَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي: بمنجاة منه؛ لأنّ النجاة من أعظم الفلاح، وسبب نجاتهم: العمل الصالح. ولهذا فسّر ابن عباس - رضي الله عنهما -: المفازة بالأعمال الحسنة. ويجوز بسبب فلاحهم؛ لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح، وهو دخول الجنة. ويجوز أن يسمّى العمل الصالح في نفسه مفازة؛ لأنّه سببها. ولا محلّ لـ ﴿لَّا يَمَسُّهُمْ﴾ على التفسير الأول؛ لأنّه كلام مستأنف، ومحلّ النصب على الحال على الثاني. ﴿بِمِثْقَاتِهِمْ﴾ كوفي، غير حفص.

٦٢- ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ردّ على المعتزلة، والثنوية ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حافظ.

٦٣- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو مالك أمرها، وحافظها. وهو من باب الكناية؛ لأنّ حافظ الخزائن، ومدبّر أمرها هو الذي يملك مقاليدها. ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك، وهي: المفاتيح، واحداً: مَقْلِد. وقيل: لا واحد لها من لفظها. والكلمة أصلها فارسية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هو متصل بقوله: ﴿ويُنَجِّي الله الذين اتقوا﴾ أي:

قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٢﴾

ينجي الله المتقين بمفازاتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. واعترض بينهما بأنه خالق كل شيء وهو مهيمن عليه، فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها، وما يجزون عليها. أو: بما يليه على أن كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه، وفاتح بابه ﴿والذين كفروا﴾ ووجدوا أن يكون الأمر كذلك ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾. وقيل: سأل عثمان - رضي الله عنه - رسول الله ﷺ عن تفسير قوله: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ فقال: «يا عثمان! ما سألتني عنها أحد قبلك، تفسيرها لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير»^(١). وتأويله على هذا: أن الله هذه الكلمات يوحد بها، ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض، من تكلم بها من المتقين أصابه، و﴿الذين كفروا بآيات الله﴾ وكلمات توحيده وتمجيده ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾.

٦٤- ﴿قُلْ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ ﴿تأمروني﴾: مكي. ﴿تأمروني﴾ على الأصل: شامي. ﴿تأمروني﴾: مدني. وانتصب ﴿أفغير﴾ بـ ﴿أعبد﴾. و﴿تأمروني﴾ اعتراض، ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم بعد هذا البيان ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ بتوحيد الله؟

٦٥- ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء - عليهم السلام - ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وإنما قال: ﴿لئن أشركت﴾ على التوحيد، والموحى إليهم جماعة؛ لأن معناه: (أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك)، وإلى الذين من قبلك مثله. واللام الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب. وهذا الجواب ساد مسد الجوابين، أعني: جوابي القسم والشرط. وإنما صح هذا الكلام، مع علمه تعالى بأن رسله لا يشركون؛ لأن

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٤١/١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٥/١٠).

بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا
قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ

الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره، ولأنه على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها. وقيل: لئن طالعت غيري في السر ليحبطن ما بيني وبينك من السر.

٦٦- ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ﴾ رد لما أمروه به من عبادة آلهتهم، كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن عبدت فاعبد الله، فحذف الشرط، وجعل تقديم المفعول عوضاً عنه ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم.

٦٧- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عظموه حق عظمته؛ إذ دعوك إلى عبادة غيره. ولما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حق تقديره، عظمه حق تعظيمه، قيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل، فقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ والمراد بهذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه: تصوير عظمته، والتوقيف على كنهه جلالة لاغير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو: جهة مجاز. والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾ ولأن الموضع موضع تعظيم فهو مقتضى للمبالغة ﴿وَالْأَرْضُ﴾: مبتدأ، و﴿قَبْضَتُهُ﴾ الخبر، و﴿جَمِيعًا﴾: منصوب على الحال. أي: والأرض إذا كانت مجتمعة قبضته يوم القيامة. والقبضة: المرة من القبض. والقُبْضة: المقدار المقبوض بالكف، ويقال: أعطني قُبْضة من كذا، تريد: معنى القُبْضة تسمية بالمصدر، وكلا المعنيين محتمل. والمعنى: والأرضون ﴿جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ أي: ذوات قبضته، يقبضهن قبضة واحدة، يعني: أن الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة، كما تقول: الجزور أكلة لقمان. أي: لا تفي إلا بأكلة فذة من أكلاته. وإذا أريد معنى القُبْضة فظاهر؛ لأن المعنى: أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة. والمطويات من الطي الذي هو ضد النشر، كما قال:

سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاوي السجل أن يطويه يمينه. وقيل: ﴿قبضته﴾: ملكه بلا مدافع ولا منازع. و﴿يمينه﴾ بقدرته. وقيل: ﴿مطويات يمينه﴾ مُفْنِيَات بِقَسَمِهِ؛ لَأَنَّهُ أَقْسَمَ أَنْ يَفْنِيهَا ﴿سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعد من هذه قُدْرَتُهُ وعظمته! وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء!

٦٨ - ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ﴾ مات ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت - عليهم السلام - وقيل: هم حملة العرش، أو: الرضوان، والخور، ومالك، والزبانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ هي في محلّ الرفع؛ لأنّ المعنى: ﴿ونفخ في الصور﴾ نفخة واحدة ﴿ثَنَ نفخ فيه﴾ نفخة ﴿أخرى﴾. وإنما حذفت لدلالة ﴿أخرى﴾ عليها، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ يقبلون أبصارهم في الجهات نظر المبهوتين إذا فاجأه خطب، أو: ينظرون أمر الله فيهم. ودلت الآية على أنّ النفخة اثنتان: الأولى للموت، والثانية للبعث، والجمهور على أنّها ثلاث: الأولى للفرع، كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ﴾ [النمل: ٨٧] والثانية للموت، والثالثة للإعادة.

٦٩ - ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: بعدله بطريق الاستعارة. يقال للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك. كما يقال: أظلمت البلاد بجور فلان. وقال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(١). وإضافة اسمه إلى الأرض؛ لأنه يزيتها حيث ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها. ولا ترى أزين للبقيع من العدل، ولا أعمر لها منه. وقال الإمام أبو منصور - رحمه الله -: يجوز أن يخلق الله نوراً فينور به أرض الموقف. وإضافته إليه تعالى للتخصيص ك: بيت الله،

(١) رواه البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩).

وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالْثِّينِ وَالشَّهَادَةِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
 وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ
 جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
 يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ
 كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ
 مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

وناقة الله ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: صحائف الأعمال، ولكنه اكتفى باسم الجنس،
 أو: اللوح المحفوظ ﴿وَجَاءَ بِالْثِّينِ﴾ ليسألهم ربهم عن تبليغ الرسالة،
 وما أجابهم قومهم ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: الحفظة. وقيل: هم الأبرار في كل زمان،
 يشهدون على أهل ذلك الزمان ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين العباد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل
 ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ختم الآية بنفي الظلم، كما افتتحها بإثبات العدل.

٧٠- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاءه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من غير
 كتاب، ولا شاهد. وقيل: هذه الآية تفسير قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي:
 ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر، لا يزداد في شر، ولا ينقص من خير.

٧١- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقاً عنيفاً كما يفعل بالأسارى،
 والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس، أو: قتل ﴿زُمَرًا﴾ حال، أي:
 أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ﴾ بالتخفيف فيهما:
 كوفي ﴿أَبْوَابُهَا﴾ وهي سبعة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ حفظة جهنم، وهم: الملائكة
 الموكلون بتعذيب أهلها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من بني آدم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
 رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار
 لا يوم القيامة ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أتونا، وتلوا علينا ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى
 الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولكن وجبت علينا كلمة الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣]
 بسوء أعمالنا، كما قالوا: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:
 ١٠٦] فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب، وهو: الكفر، والضلال.

٧٢- ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة، أي: مقدرين
 الخلود ﴿فِئَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس؛ لأن مَثْوَى المتكبرين

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُومُ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَبُوءًا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ

فاعل ﴿بش﴾ وبش فاعلها اسم معرف بلام الجنس، أو: مضاف إلى مثله. والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: فبش مشوى المتكبرين جهنم.

٧٣- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ المراد: سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يكرم، ويشرف من الوافدين على بعض الملوك ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل، والجمل المحكية بعدها هي الشرطية، إلا أن جزاءها محذوف، وإنما حذف؛ لأنه في صفة ثواب أهل الجنة، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف. وقال الزجاج: تقديره: حتى إذا جاؤوها ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ﴾ فدخلوها. فحذف دخولها؛ لأن في الكلام دليلاً عليه. وقال قوم: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ جاؤوها ﴿وفتحت أبوابها﴾ فعندهم جاؤوها محذوف، والمعنى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ وقع مجيئهم مع فتح أبوابها. وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٍ لَّهُمُ الْأَنْبُوبُ﴾ [ص: ٥٠]. فلذلك جيء بالواو، كأنه قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ وقد ﴿فتحت أبوابها﴾. ﴿طبتم﴾ من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا. وقال الزجاج: أي: كنتم طيبين في الدنيا، ولم تكونوا خبيثين، أي: لم تكونوا أصحاب خبائث. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: طاب لكم المقام. وجعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة؛ لأنها دار الطيبين، ومشوى الطاهرين. قد طهرها الله من كل دنس، وطيبها من كل قدر، فلا يدخلها إلا مناسب لها، موصوف بصفتها.

٧٤- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ أنجزنا ما وعدنا في الدنيا من

نعيم العقبى ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ﴾ أرض الجنة. وقد أورثوها، أي: ملكوها، وجعلوا ملوكها. وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون، تشبيهاً بحال الوارث، وتصرفه فيما يرثه، واتساعه فيه ﴿نَبُوءًا﴾ - حال - ﴿مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾

فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

أي: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوا أي: فيتخذ مقراً ومتبواً من جنته حيث يشاء ﴿فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ في الدنيا: الجنة.

٧٥- ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ﴾ حال من الملائكة ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: محققين من حوله و﴿من﴾ لابتداء الغاية، أي: ابتداء حشوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿حَافِينَ﴾ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يقولون: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. أو: سُبُّوح قُدُّوس، رب الملائكة والروح؛ وذلك للتلذذ دون التعبد؛ لزوال التكليف ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الأنبياء والأمم، أو: بين أهل الجنة والنار ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: يقول أهل الجنة: شكراً حين دخولها، وتم وعد الله لهم، كما قال: ﴿وَمَا آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] وكان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر^(١).

* * *

(١) رواه أحمد (٦ / ٦٨ و ١٢٢ و ١٨٩) والترمذي (٣٤٠٢) والحاكم (٤٣٤ / ٢) وأبو يعلى في مسنده (٤٦٤٣) وانظره في مجمع الزوائد (٢ / ٢٧٢).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ

الحواميم كلها مكيات؛ عن ابن عباس.

١- ﴿حَمْدٌ﴾ وما بعده بالإمالة: حمزة، وعليّ، وخلف، ويحيى، وحمّاد - رحمهم الله - وبين الفتح والكسر: مدني، وغيرهم: بالتفخيم. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه اسم الله الأعظم.

٢- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع بسلطانه عن أن يتقول عليه متقول ﴿الْعَلِيمِ﴾ بمن صدق به، وكذب فهو تهديد للمشركين، وبشارة للمؤمنين.

٣- ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ سائر ذنب المذنبين ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ قابل توبة الراجعين ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذي الفضل على العارفين، أو: ذي الغنى عن الكل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ لمن قال: لا إله إلا الله ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لمن لا يقول: لا إله إلا الله. والتوب، والثوب، والأوب: أخوات، في معنى الرجوع. والطول: الغنى،

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٢﴾ مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا

والفضل. فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة؟ قلت: أمّا ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ فمعرفتان؛ لأنه لم يُردّ بهما حدوث الفعلين حتّى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه. وأمّا ﴿شديد العقاب﴾ فهو في تقدير: شديد عقابه، فتكون نكرة، فقيل: هو بدل، وقيل: لما وجدت هذه النكرة بين هذه المعارف آذنت بأنّ كلّها أبدال غير أوصاف. وإدخال الواو في: ﴿وقابل التوب﴾ لنكتة، وهي: إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محاة للذنوب كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة، والقبول.

وروي: أنّ عمر - رضي الله عنه - افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم﴾ إلى قوله: ﴿إليه المصير﴾ وختم الكتاب. وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتّى تجده صاحباً، ثمّ أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها، ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذّرني عقابه. فلم يبرح يردّها حتّى بكى. ثمّ نزع، فأحسن النزوع، وحسنت توبته. فلما بلغ عمر - رضي الله عنه - أمره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحاكم قد زلّ زلّة فسددوه^(١)، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه^(٢) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة أيضاً ك: ﴿ذي الطول﴾ ويجوز أن يكون مستأنفاً ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: المرجع.

٤ - ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ما يخاصم فيها بالكذب بها،

(١) زاد في المطبوع والكشاف (٤/١٥٠): ووقفوه.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/٩٧).

فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ﴿٤﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ
وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
النَّارِ ﴿٦﴾

والإنكار لها. وقد دلّ على ذلك في قوله: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]. وأما الجدل فيها لإيضاح ملتبسها، وحلّ مشكلها، واستنباط معانيها، وردّ أهل الزيف بها، فأعظم جهاد في سبيل الله ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْيَلْدِ﴾ بالتجارات النافقة، والمكاسب المربحة، سالين غانمين، فإنّ عاقبة أمرهم إلى العذاب. ثم يبين كيف ذلك، فأعلم أنّ الأمم الذين كذبت قبلهم أهلك، فقال:

٥- ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ أي: الذين تحزّبوا على الرسل، وناصبهم - وهم: عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم - ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأمم التي هي: قوم نوح، والأحزاب ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه فيقتلوه. والأخذ: الأسير ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بالكفر ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليبتلوا به الإيمان ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ مظهر^(١): مكّي، وحفص. يعني: أنّهم قصدوا أخذه، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذ الرسل أن أخذتهم، فعاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وبالياء: يعقوب، أي: وإنكم تمرّون على بلادهم تعابنون أثر ذلك. وهذا تقريرٌ فيه معنى التّعجب.

٦- ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ - ﴿كلمات ربك﴾: مدني، وشامي - ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في محلّ الرفع بدل من ﴿كلمة ربك﴾، أي: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة. أو: في محلّ النصب بحذف لام التعليل، وإيصال الفعل. والذين كفروا: قريش، ومعناه: كما وجب إهلاك أولئك الأمم، كذلك وجب إهلاك

(١) أي: لم تدغم الذال مع التاء كما في قراءة نافع وغيره.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا

هؤلاء؛ لأنّ علة واحدة تجمعهم ﴿أنهم﴾ من ﴿أصحاب النار﴾. ويلزم الوقف على النار؛ لأنّه لو وصل لصار:

٧ - ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ - يعني: حاملي العرش، والخافين حوله، وهم الكروبيّون سادة الملائكة - صفة لأصحاب النار، وفساده ظاهر.

رُوي: أنّ حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم. وفي الحديث: «إنّ الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا، ويروحوا بالسلام على حملة العرش، تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»^(١). وقيل: حول العرش سبعون ألف صف قيام، يطوفون به مهلّلين، مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صفّ من الملائكة قيام، يهلّلون ويكبرون ومن ورائهم مئة ألف صفّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحدٌ إلا وهو يُسَبِّح بما لا يسبّح به الآخر ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبر المبتدأ، وهو: ﴿الذين﴾، ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: مع حمده، أو: الباء تدلّ على أنّ تسييحهم بالحمد له ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وفائدته - مع علمنا بأنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون -: إظهار شرف الإيمان، وفضله، والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع بالصّلاح لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧] فأبان بذلك فضل الإيمان. وقد روعي التناسب في قوله: ﴿ويؤمنون به﴾ ﴿ويستغفرون للذين ءامنوا﴾ كأنه قيل: ويؤمنون به ويستغفرون لمن في مثل حالهم. وفيه دليل على أنّ الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة والشفقة، وإن تباعدت الأماكن ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ وهذا المحذوف حال ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فالرحمة والعلم هما اللذان وسعا كلّ شيء في المعنى؛ إذ الأصل: وسع كلّ شيء رحمتك، وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن

(١) قال الحافظ: لم أجده. (الكشاف ٤ / ١٥٢).

فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ
عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ
مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ

أسند الفعل إلى صاحب الرحمة، والعلم، وأخرجنا منصوبين على التمييز، مبالغة
في وصفه بالرحمة، والعلم ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: للذين علمت منهم التوبة
لتناسب ذكر الرحمة، والعلم ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: طريق الهدى الذي دعوت
إليها ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

٨- ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ «مَنْ»: في
موضع نصب عطف على ﴿هم﴾ في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو: في ﴿وَعَدْتَهُمْ﴾ والمعنى:
﴿وَعَدْتَهُمْ وَ﴾ وعدت من صلح من آباءهم ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الملك الذي لا يغلب. وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل
شيئاً خالياً عن الحكمة. وموجب حكمتك: أن تفني بوعدك.

٩- ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: جزاء السيئات، وهو عذاب النار ﴿وَمَنْ تَقِ
السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ﴾ أي: دفع العذاب ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ يوم القيامة إذا دخلوا النار ومقتوا
أنفسهم، فتناديهم خزنة النار: ﴿لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي:
لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم. فاستغنى بذكرها مرة، والمقت: أشد
البغض. وانتصاب: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾ بـ «المقت» الأول عند الزمخشري،
والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء
والكفر - حين كان الأنبياء - عليهم السلام - يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون
قبوله، وتختارون عليه الكفر - أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار، إذ
أوقعنكم فيها باتباعكم هواهن. وقيل: معناه: ﴿لمقت الله﴾ إياكم الآن ﴿أكبر﴾
من مقت بعضكم لبعض، كقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. و﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ تعليل. وقال

فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَشْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

«جامع العلوم» وغيره: ﴿إِذْ﴾ منصوب بفعل مضمر دلّ عليه ﴿لَمَلَقْتُ اللَّهَ﴾، أي: يملقهم الله حين دُعُوا إلى الإيمان فكفروا. ولا ينتصب بالملق الأول؛ لأنّ قوله: ﴿لَمَلَقْتُ اللَّهَ﴾ مبتدأ، وهو: مصدر، وخبره: ﴿أكبر من مقتكم﴾ فلا يعمل في ﴿إِذْ تدعون﴾؛ لأنّ المصدر إذا أخبر عنه لم يجز أن يتعلّق به شيء يكون في صلته؛ لأنّ الإخبار عنه يؤذن بتمامه، وما يتعلّق به يؤذن بنقصانه، ولا بالثاني لاختلاف الزمانين، وهذا لأنهم مقتوا أنفسهم في النار، وقد دُعُوا إلى الإيمان في الدنيا ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ فتصرون على الكفر.

١١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَشْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَثْنَتَيْنِ﴾ أي: إمامتين وإحياءتين، أو: موتيتين وحياتين. وأراد بالإمامتين: خلقهم أمواتاً أولاً، وإمامتهم عند انقضاء آجالهم. وصحّ أن يُسمّى خلقهم أمواتاً إماتة، كما صحّ أن يقال: سبحانه من صغّر جسم البعوضة، وكبّر جسم الفيل. وليس ثمة نقل من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر. والسبب فيه أنّ الصغر والكبر جائزان على المصنوع الواحد، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين، فقد صرف المصنوع من الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه. وبالإحياءتين: الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقيل: الموتة الأولى في الدنيا، والثانية في قبره بعد الإحياء للسؤال. والإحياء الأول: إحياءه في قبره بعد موتها للسؤال، والثاني: للبعث ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ لما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم، علموا أنّ الله قادر على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث، وما تبعه من معاصيهم ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ من النار - أي: إلى نوع من الخروج سريع، أو: بطيء لتخلص - ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه؟ وهذا كلامٌ من غلب عليه اليأس، وإنّما يقولون ذلك تحيراً، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله:

ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ۖ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ
 الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا
 يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ
 الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ

١٢ - ﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي:

ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيلَ لكم إلى خروج قطّ بسبب كفركم بتوحيد الله، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمذ - ﴿الْعَلِيِّ﴾ شأنه، فلا يردّ قضاؤه، ﴿الْكَبِيرِ﴾ العظيم سلطانه، فلا يحذّ جزاؤه. وقيل: كأنّ الحُرورية^(١) أخذوا قولهم: «لا حكم إلا الله» من هذا. وقال قتادة: لما خرج أهل حروراء قال عليّ - رضي الله عنه -: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قيل: المحكمون. أي: يقولون: لا حكم إلا لله. فقال عليّ - رضي الله عنه -: كلمة حقّ أريد بها باطل.

١٣ - ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ﴾ من الريح، والسحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، ونحوها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وبصريّ. ﴿رِزْقًا﴾ مطراً؛ لأنّه سبب الرزق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ وما يتعظّ، وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك، ويرجع إلى الله، فالمعاند لا يتذكّر ولا يتعظّ. ثمّ قال للمنيين:

١٤ - ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وإن عاب ذلك أعداءكم؛ ممن ليس على دينكم.

١٥ - ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ ثلاثة أخبار؛ لقوله: ﴿هو﴾ مرتبة على قوله ﴿الذي يريكم﴾. أو: أخبار مبتدأ محذوف. ومعنى ﴿رفيع الدرجات﴾: رافع السموات بعضها فوق بعض، أو: رافع درجات عبادته في الدنيا بالمنزلة، أو: رافع منازلهم في الجنة. و﴿ذو العرش﴾ مالك عرشه الذي فوق السموات. خلقه مطافاً للملائكة إظهاراً لعظمته مع استغنائه في مملكته.

(١) «الحُرورية»: طائفة من الخوارج تُنسب إلى «حرور» اسم قرية.

مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ ﴿١٨﴾ مَا لِلظَّالِمِينَ

و﴿الروح﴾ جبريل - عليه السلام - أو: الوحي الذي تحيا به القلوب ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ من أجل ﴿أمره﴾ أو: بأمره ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ﴾ أي: الله، أو الملقى عليه وهو النبي عليه الصلاة والسلام، ويدل عليه قراءة يعقوب ﴿لتنذر﴾ ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يوم القيامة؛ لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والأولون والآخرون ﴿التلاقي﴾: مكي، ويعقوب.

١٦ - ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾ ظاهرون، لا يسترهم شيء من جبل، أو: أكمة، أو: بناء ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: من أعمالهم، وأحوالهم ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك حين لا أحد يجيبه، ثم يجيب نفسه بقوله: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قهر الخلق بالموت. ويتنصب ﴿اليوم﴾ بمدلول ﴿لَمَنْ﴾ أي: ﴿لَمَنْ﴾ ثبت ﴿الملك﴾ في هذا اليوم. وقيل: ينادي مناد، فيقول: ﴿لَمَنْ الملك اليوم﴾؟ فيجيبه أهل المحشر: ﴿لله الواحد القهار﴾.

١٧ - ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لما قرّر: أَنَّ الملك لله وحده في ذلك اليوم عدد نتائج ذلك، وهي: أَنَّ كل نفس تُجْزَى ﴿بما كسبت﴾ عملت في الدنيا من خير وشر، وَأَنَّ الظلم مأمون منه؛ لأنه ليس بظلام للعبيد، وَأَنَّ الحساب لا يبطيء؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد، وهو أسرع الحاسبين.

١٨ - ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾ القيامة، سميت بها لأزوفها، أي: لقربها. ويدل من يوم الأزفة: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أي: التراقي، يعني: ترتفع قلوبهم عن مقارّها، فتلتصق بحناجرهم، فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا، ويتروّحوا ﴿كَظِيمِينَ﴾ مسكين بحناجرهم. من كظم القربة: شدّ رأسها. وهو مُحَالٌ من القلوب محمولٌ على أصحابها. وإنما جمع الكاظم جمع السلامة؛ لأنه وصفها بالكظم؛ الذي هو من أفعال العقلاء. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾

مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

للكافرين ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ محب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ أي: يشفع. وهو مجاز؛ لأن الطاعة حقيقة لا تكون إلا لمن فوقك. والمراد: نفي الشفاعة والطاعة، كما في قوله:

... .. ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرُ^(١)

يريد نفي الضب وانجحاره، وإن احتمل اللفظ انتفاء الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن: والله ما يكون لهم شفيع البتة.

١٩- ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة. والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وما تسره من أمانة، أو خيانة. وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة، ثم يتفكر بقلبه في جمالها، ولا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرته، والله يعلم ذلك كله. و﴿يعلم خائنة الأعين﴾: خبر من أخبار ﴿هو﴾ في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [غافر: ١٣] مثل ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ [غافر: ١٥] ولكن ﴿يلقي الروح﴾ قد علل بقوله: ﴿لينذر يوم التلاق﴾. ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فبعد لذلك عن أخواته.

٢٠- ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: والذي هذه صفاته لا يحكم إلا بالعدل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ وآلهتهم لا يقضون شيء. وهذا تهكم بهم؛ لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي، أو: لا يقضي. ﴿تدعون﴾: نافع؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ووعد لهم بأنه يسمع ما يقولون، ويُبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعرض بما يدعون من دونه، وأنها لا تسمع، ولا تبصر.

(١) عجز بيت لابن أحر، وصدرة: لا تفرع الأرنب أهوالها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُوتَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾

٢١- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: آخر أمر الذين كذبوا الرسل من قبلهم ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿هم﴾: فصل، وحقه أن يقع بين معرفتين، إلا أن ﴿أشد منهم﴾ ضارعة المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام، فأجري مجراه. (منكم): شامي ﴿وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: حصونا، وقصوراً ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ﴾ عاقبهم بسبب ذنوبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ولم يكن لهم شيء يقيهم من عذاب الله.

٢٢- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: الأخذ بسبب أنهم ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ قَوِيٌّ﴾ قادر على كل شيء ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

٢٣، ٢٤- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وحجة ظاهرة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُوتَ فَقَالُوا﴾: هو ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ فسموا السلطان المبين: سحراً، وكذباً.

٢٥- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالنبوة ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أي: أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ للخدمة ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: ضياع. يعني: أنهم باشروا قتلهم أولاً فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغني هذا القتل الثاني.

وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان، فلما بعث موسى - عليه السلام - وأحسن بأنه قد وقع، أعاده عليهم غيظاً، وظناً منه أنه يصدّهم بذلك عن مظاهره موسى - عليه السلام - وما علم أن كيده ضائع في الكرّتين جميعاً.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

٢٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لئله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾. كان إذا هم بقتله كفّوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقل من ذلك، وما هو إلا ساحر، وإذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة. والظاهر أن فرعون قد استيقن أنه نبي، وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن كان فيه خب، وكان قتلاً، سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحسن بأنه هو الذي يهدم ملكه؟ ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ شاهد على فرط خوفه منه، ومن دعوته ربه. وكان قوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفرع ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه. وكانوا يعبدونه، ويعبدون الأصنام ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ﴾ موسى ﴿فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ بضم الياء، ونصب الدال: مدني، وبصري، وحفص، وغيرهم: بفتح الياء، ورفع الدال، والأول أولى لموافقة ﴿يُبَدِّلُ﴾، والفساد في الأرض: القتال، والتهاجر الذي يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعاش، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً. كأنه قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو: يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه. وقرأ غير أهل الكوفة: ﴿وَأَنْ﴾. ومعناه: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ فساد دينكم ودنياكم معاً.

٢٧- ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لما سمع بما أجراه فرعون من حديث قتله لقومه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. وفي قوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ بعث لهم على أن يقتلوا به، فيعوذوا بالله عياده، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه. وقال: ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لتشمل استعاضته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض، فيكون أبلغ. وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق. وهو أقبح استكبار، وأدله على دناءة صاحبه، وعلى فرط

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَفِيَ
 اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ
 صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾

ظلمه. وقال: ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر،
 والتكذيب بالجزاء، وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة
 على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبتها. وعدت، ولدت: أخوان.
 و(عت) بالإدغام: أبو عمرو، وحمزة، وعلي.

٢٨- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قيل: كان قبطياً، ابن
 عم لفرعون، آمن بموسى سراً. و﴿من آل فرعون﴾: صفة لرجل. وقيل: كان
 إسرائيلياً. و﴿من آل فرعون﴾ صلة ليكنتم، أي: يكتُم إيمانه من آل فرعون.
 واسمه: سمعان، أو: حبيب، أو: خربيل، أو: حزيل. والظاهر الأول
 ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ﴾ ل: ﴿أن يقول﴾. وهذا إنكارٌ منه عظيم، كأنه قال:
 أترتكبون الفعل الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة، وما لكم علة في ارتكابها إلا
 كلمة الحق؟ وهي قوله: ﴿رَفِيَ اللَّهُ﴾ وهو ربُّكم أيضاً لا ربه وحده ﴿وَقَدْ
 جَاءَكُمْ﴾ الجملة حال ﴿بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: أنه لم يُظهر لتصحيح قوله
 بيّنة واحدة، ولكن بينات من عند من نُسبت إليه الربوبية. وهو استدراج لهم
 إلى الاعتراف به ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
 يَعِدُكُمْ﴾ احتج عليهم بطريق التقسيم، فإنه لا يخلو من أن يكون كاذباً، أو:
 صادقاً. فإن: ﴿يك كاذباً فعليه﴾ وبال ﴿كذبه﴾ ولا يتخطاه ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا
 يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ من العذاب. ولم يقل: كل الذي يعدكم - مع أنه
 وعد من نبي صادق القول - مداراة لهم، وسلوكاً لطريق الإنصاف. فجاء بما
 هو أقرب إلى تسليمهم له. وليس فيه نفي إصابة الكل، فكأنه قال لهم: أقل
 ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل، وفي
 ذلك هلاككم. وكان وعدهم عذاب الدنيا والآخرة. وتقديم الكاذب على
 الصادق من هذا القبيل أيضاً. وتفسير البعض بالكل مزيف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ
 هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مجاوز للحد ﴿كَذَابٌ﴾ في ادعائه. وهذا أيضاً من باب المجاملة،

يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا
قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
ءَامَنَ يَقُولُوا إِنِّي لَا خَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

والمعنى: أنه إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله، وأهلكه، فتخلصون منه. أو: لو
كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله بالنبوة، ولما عضده بالبينات. وقيل: أوهم أنه
عنى بالمسرف موسى، وهو يعني به: فرعون.

٢٩- ﴿يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾: عالين - وهو حال من ﴿كم﴾ في
﴿لكم﴾ - ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟﴾
يعني: أن لكم ملك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم
على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله، أي: عذابه، فإنه لا طاقة لكم به إن
جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. وقال: ﴿يَنْصُرُنَا﴾ و﴿جاءنا﴾ لأنه منهم في
القراية، وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا
أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: ما أشير عليكم برأيي إلا بما أرى من قتله، يعني:
لا أستصوب إلا قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا
الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ طريق الصواب والصلاح. أو: ما أعلمكم إلا ما أعلم
من الصواب، ولا أذكر منه شيئاً، ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر، يعني: أن
لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف
الشديد من جهة موسى - عليه السلام - ولكنه كان يتجلد. ولولا استشعاره لم
يستشر أحداً، ولم يقف الأمر على الإشارة.

٣٠- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقُولُوا إِنِّي لَا خَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي: مثل
أيامهم؛ لأنه لما أضافه إلى الأحزاب، وفسرهم بقوله:

٣١- ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ولم يُبَسَّنْ أن كل حزب
منهم كان لهم يوم دمار، اقتصر على الواحد من الجمع. ودأب هؤلاء: دؤوبهم
في عملهم من: الكفر، والتكذيب، وسائر المعاصي، وكون ذلك دأباً منهم
لا يفترون عنه. فلا بد من حذف مضاف، أي: ﴿مثل﴾ جزاء دأبهم. وانتصاب

وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَذْرِبِينَ
مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ
قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ

﴿مثل﴾ الثاني بأنه عطف بيان لمثل الأول ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: وما يريد الله أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب، أو: يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب، يعني: أن تدميرهم كان عدلاً؛ لأنهم استحقوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَمَارَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] حيث جعل المنفي إرادة ظلم منكراً، وَمَنْ بعد عن إرادة ظلم ما لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد. وتفسير المعتزلة بأنه لا يريد لهم أن يظلموا، بعيد؛ لأن أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: لا أريد ظملاً لك، معناه: لا أريد أن أظلمك. وهذا تخويف بعذاب الدنيا. ثم خوفهم من عذاب الآخرة بقوله:

٣٢- ﴿وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾^(١) - أي: يوم القيامة. ﴿التَّنَادِ﴾: مكّي، ويعقوب، في الحالين. وإثبات الباء هو الأصل، وحذفها حسن؛ لأن الكسرة تدلّ على الباء، وأواخر هذه الآي على الدال. وهو ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨] وقيل: ينادى: ألا إن فلاناً سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ألا إن فلاناً شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

٣٣- ﴿يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَذْرِبِينَ﴾ منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ مانع، ودافع ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مرشد.

٣٤- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هو يوسف بن يعقوب - عليهما السلام-. وقيل: يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب. أقام فيهم نبياً عشرين سنة. وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمّر إلى زمنه.

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿التنادي﴾ وهي قراءة: ورش، وابن وردان، وعبد الوارث، وقالون. معجم القراءات القرآنية (٤٤/٦).

فَإِزَلْتُمْ فِي شَكِّ يَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ آيِنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾

وقيل: هو فرعون آخر. ويخهم بأن يوسف أتاكم من قبل موسى بالمعجزات ﴿فَإِزَلْتُمْ فِي شَكِّ يَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ فشككتهم فيها، ولم تزالوا شاكين ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان، أي: أقمتهم على كفركم، وظننتهم أنه لا يجدد عليكم إيجاب الحجة ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي: مثل هذا الإضلال يضل الله كل مسرف في عصيانه، مرتاب، شاك في دينه.

٣٥- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ - بدل من ﴿من هو مسرف﴾ وجاز إيداله منه، وهو جمع؛ لأنه لا يريد مسرفاً واحداً، بل كل مسرف - ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ في دفعها، وإبطالها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ حجة ﴿أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا﴾ أي: عظم بغضاً. وفاعل ﴿كبر﴾ ضمير ﴿من هو مسرف﴾ وهو جمع معنى، وموحد لفظاً. فحمل البدل على معناه. والضمير الراجع إليه على لفظه، ويجوز أن يرفع ﴿الذين﴾ على الابتداء، ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في ﴿كبر﴾ تقديره: جدال ﴿الذين يجادلون كبر مقْتًا﴾ ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿قَلْبٍ﴾ بالتثنية: أبو عمرو. وإنما وصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه منبعضهما، كما تقول: سَمِعَتِ الْأُذُنُ، وهو كقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ءَاتَتْهُمُ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وإن كان الآثم هو الجملة.

٣٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ تمويهاً على قومه، أو: جهلاً منه: ﴿يَهْمَنُنْ آيِنِ لِي صَرْحًا﴾ قصراً - وقيل: الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، ومنه يقال: صَرَحَ الشَّيْءُ: إذا ظهر - ﴿لَعَلِّي﴾ - ويفتح الياء: حجازي، وشامي، وأبو عمرو - ﴿أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾، ثم أبدل منها تفخيماً لشأنها، وإبانة أنه يقصد أمراً عظيماً:

أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ

٣٧- ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: طرقها، وأبوابها، وما يؤدي إليها - وكل ما أذاك إلى شيء فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه - ﴿فَأَطْلَعَ﴾ بالنصب حفص، على جواب الترجي، تشبيهاً للترجي بالتمني. وغيره بالرفع عطفاً على ﴿أبلغ﴾ ﴿إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى﴾ والمعنى: فأنظر إليه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ أي: موسى ﴿كَذِبًا﴾ في قوله: له إله غيري ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التزيين، وذلك الصد ﴿زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ المستقيمة. ويفتح الصاد: غير كوفي ويعقوب، أي: غيره صدأ، أو: هو بنفسه صدوداً. والمزتين: الشيطان بوسوسته، كقوله: ﴿وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]. أو الله تعالى، ومثله: ﴿زَيْنًا لَهُمُ أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤] ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ خسران، وهلاك.

٣٨- ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ ﴿اتَّبِعُونِ﴾ في الحالين: مكّي، ويعقوب، وسهل ﴿أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ هو نقيض الغي. وفيه تعريض شبيه بالتصريح: أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي. أجمل أولاً، ثم فسر، فافتتح بذكر الدنيا، وتصغير شأنها بقوله:

٣٩- ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ تمتع يسير. فالإخلاذ إليها أصل الشر، ومنع الفتن. وثنى بتعظيم الآخرة، وبين أنها هي الوطن والمستقر بقوله: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

ثم ذكر الأعمال سيئها وحسنها، وعاقبة كل منهما ليثبت عما يتلف، وينشط لما يُزلف، بقوله:

٤٠- ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾ وَيَقُولُ مَا
لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤٢﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ
بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾ - ﴿يَدْخُلُونَ﴾: مكّي،
وبصري، ويزيد، وأبو بكر.

٤١، ٤٢- ثم وازن بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة،
ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد؛ الذي عاقبته النار، بقوله: ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ﴾
- وبفتح الياء: حجازي، وأبو عمرو - ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ﴾ أي: الجنة
﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤٢﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ ﴿٤٣﴾ - هو بدل من ﴿تدعونني﴾
الأول. يقال: دعاه إلى كذا، ودعاه له، كما يقال: هداه إلى الطريق، وهداه
له - ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: بربوبيته. والمراد بنفي العلم: نفي
المعلوم، كأنه قال: ﴿وأشرك به ما ليس﴾ بآله، وما ليس بآله كيف يصح أن
يعلم إلهاً؟ ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى. وتكرير
النداء لزيادة التنبيه لهم، والإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنهم قومه، وأنه من
آل فرعون. وجيء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؛ لأن الثاني داخل على
كلام هو بيان للمجمل، وتفسير له بخلاف الثالث.

٤٣- ﴿لَا جَرَمَ﴾ عند البصريين ﴿لَا﴾ ردّ لما دعاه إليه قومه، و﴿جرم﴾ فعل
بمعنى حق، و﴿أَنَّ﴾ مع ما في حيزه فاعله، أي: حق، ووجب بطلان دعوته
﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ معناه: ﴿أَنَّ ما تدعونني
إليه ليس له دعوة﴾ إلى نفسه قط، أي: من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد
إلى طاعته. وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، ولا يدعي
الربوبية. أو: معناه ليس له استجابة دعوة ﴿في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أو:
﴿دعوة﴾ مستجابة. جعلت الدعوة التي لا استجابة لها، ولا منفعة كلا دعوة.
أو: سميت الاستجابة باسم الدعوة، كما سمي الفعل المجازي عليه باسم

وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ

بالجزاء، في قولهم: «كما تدين تدان»^(١) ﴿وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ وأن رجوعنا إليه ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المشركين ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

٤٤- ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: من النصيحة عند نزول العذاب ﴿وَأَفَوتُ أَمْرِي﴾ وأسلم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وبفتح الياء: مدني، وأبو عمرو - ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لأنهم توعدوه. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ بأعمالهم، ومآلهم.

٤٥- ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ شذائد مكرهم، وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل: إنه خرج من عندهم هارباً إلى جبل، فبعث قريباً من ألف في طلبه، فممنهم من أكلته السباع، ومن رجع منهم صلبه فرعون ﴿وَحَاقَ﴾ ونزل ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

٤٦- ﴿النَّارُ﴾ بدل من ﴿سوء العذاب﴾ أو: خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار. أو: مبتدأ، خبره: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وعرضهم عليها: إحراقهم بها - يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف؛ إذا قتلهم به - ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: في هذين الوقتين يعذبون بالنار. وفيما بين ذلك إما أن يعذبوا بجنس آخر، أو: بنفس عنهم. ويجوز أن يكون ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ عبارة عن الدوام. هذا في الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يقال خزنة جهنم: ﴿أَدْخِلُوا﴾ من: الإدخال. مدني، وحمزة، وعلي، وحفص، وخلف، ويعقوب. وغيرهم: ﴿ادْخُلُوا﴾ أي: يقال لهم: ﴿ادْخُلُوا﴾ يا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: عذاب جهنم. وهذه الآية دليل على عذاب القبر.

٤٧- ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ و﴿و﴾ اذكر وقت تحاصمهم ﴿فِي النَّارِ فَيَقُولُ﴾

(١) انظره في: الأمثال النبوية (٥٣/٢) ومجمع الأمثال (١٥٥/٢ و ١٦٢).

الضُّعْفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾

الضُّعْفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿يعني: الرؤساء﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تبعاء، كخدم في جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ جزءاً ﴿مِّنَ النَّارِ﴾.

٤٨- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾. التنوين عوض من المضاف إليه، أي: ﴿إِنَّا﴾ كلنا ﴿فيها﴾ لا يغني أحدٌ عن أحد ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ قضى بينهم بأن أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

٤٩- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ للقوام بتعذيب أهلها. وإنما لم يقل لخزنتها؛ لأن في ذكر ﴿جهنم﴾ تهويلاً وتفظيلاً. ويحتمل أن جهنم هي أبعاد النار قعراً؛ من قولهم: بئر جهنم؛ بعيدة القعر، وفيها أعتى الكفار، وأطغاهم، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله؛ فلهذا تعتمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم- ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قدر يوم من الدنيا ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

٥٠- ﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة توبيخاً لهم بعد مدة طويلة: ﴿أَوْلَمْ تَأْتِكُمْ﴾ أولم تكن القصة. وقوله: ﴿تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ تفسير للقصة ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار: ﴿بَلَىٰ قَالُوا﴾ أي: الخزنة تهكماً بهم: ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم، فلا استجابة لدعائكم ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ بطلان. وهو من قول الله تعالى عز وجل. ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة.

٥١- ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأَوَّلَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَسَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ

مخالفيهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتصر من أعدائهم ولو بعد حين. ﴿يوم﴾ نصب محمول على موضع الجاز والمجور، كما تقول: جئتك في أمس واليوم. و﴿الأشهاد﴾ جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الأنبياء والحفظة، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالتكذيب، والحفظة يشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال. ﴿تقوم﴾: الرازي، عن هشام.

٥٢- ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ هذا بدل من ﴿يوم يقوم﴾، أي: لا يقبل عذرهم ﴿لا ينفع﴾: كوفي، ونافع ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: ﴿سوء﴾ دار الآخرة، وهو: عذابها.

٥٣- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ يريد به: جميع ما أتاه في باب الدين من: المعجزات، والتوراة، والشرائع ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزبور، لأن الكتاب جنس.

٥٤- ﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾ إلهاداً وتذكرة. وانتصابهما على المفعول له، أو: على الحال ﴿لِأَوَّلَى الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول.

٥٥- ﴿فَأَصْبِرْ﴾ على ما يجرعك قومك من الغصص ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: أن ما سبق به وعدي من نصرتك، وإعلاء كلمتك ﴿حَقٌّ﴾ ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾ أي: لذنب أمتك ﴿وَسَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: دُم على عبادة ربك، والثناء عليه. وقيل: هما صلاتا العصر والفجر. وقيل: قل: سبحان الله، ويحمده.

٥٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ لا وقف

إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ
لَأَنِيَّةٌ لَّارْتَبَ فِيهَا

عليه؛ لأن خبر إن ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ تعظم، وهو إرادة التقدم؛
والرياسة، وألا يكون أحدٌ [فوقهم] ^(١) فلذلك عادوك، ودفعوا آياتك خيفة أن
تتقدمهم، ويكونوا تحت يدك، وأمرك، ونهيك؛ لأن النبوة تحتها كل ملك
ورياسة. أو: إرادة أن تكون لهم النبوة دونك حسداً، وبغياً. ويدل عليه قوله:
﴿لَوْ كَانَ خِزْياً مَا سَخَّرْنَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. أو: إرادة دفع الآيات بالجدل
﴿مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ﴾ ببالغي موجب الكبر ومقتضاه، وهو متعلق بإرادتهم من
الرياسة، والنبوة، أو: دفع الآيات ﴿فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتجىء إليه من كيد من
يحسدك، ويبغي عليك ﴿إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ بما تقول ويقولون ﴿الْبَصِيرُ﴾
بما تعمل ويعملون، فهو ناصرٌ عليهم، وعاصمٌ من شرهم.

٥٧- ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ لما كانت مجادلتهم
في آيات الله مشتملة على إنكار البعث، وهو أصلُ المجادلة، ومدارها، حجوا
بخلق السموات والأرض؛ لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها، فإن من قدر على
خلقها مع عظمها، كان على خلق الإنسان مع مهاتته أقدر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يتأملون؛ لغلبة الغفلة عليهم.

٥٨- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا
الْمُسَوِّءُ﴾ «لا» زائدة ﴿قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون. بتاءين: كوفي. وبياء،
وتاء: غيرهم. و﴿قَلِيلًا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: تذكر أقل قليلاً يتذكرون.
و﴿ما﴾ صلة زائدة.

٥٩- ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيَّةٌ لَّارْتَبَ فِيهَا﴾ لا بد من مجيئها، وليس بمرتاب فيها؛

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

لأنه لا بد من جزاء؛ لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بها.

٦٠- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ اعبدونني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أثبكم . فالدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن؛ ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾. وقال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، وقرأ هذه الآية ﷺ^(١). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: وُحِّدُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. وهذا تفسير للدعاء بالعبادة. ثم للعبادة بالتوحيد. وقيل: سلوني أعطكم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾: مكِّي، وأبو عمرو ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرین.

٦١- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ هو من الإسناد المجازي، أي: مبصراً فيه؛ لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار. وقرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال، ولم يكونا حالين، أو: مفعولاً لهما، رعاية لحق المقابلة؛ لأنهما متقابلان معنى؛ لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه؛ فانت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً، لم تتميز الحقيقة من المجاز إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة. ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج؟! وساكن لا ریح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ولم يقل: لَمْفُضٌ، أو: لَمْتَفَضَّلٌ؛ لأن المراد تكثر الفضل، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل، وذلك إنما يكون بالإضافة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: ولكن أكثرهم؛ حتى لا يتكرر ذكر الناس؛ لأن في هذا التكرير تخصيصاً لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

(١) رواه أحمد (٢٦٧/٤) وأبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٢٤٧) وابن ماجه (٣٨٢٨).

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَن تَوَفَّوْنَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

٦٢- ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي خلق لكم الليل والنهار ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة، أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من: الإلهية والربوبية، وخلق كل شيء، والوحدانية ﴿فَاَن تَوَفَّوْنَ﴾ فكيف، ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟

٦٣- ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كل من جحد بآيات الله، ولم يتأملها، ولم يطلب الحق؛ أفك كما أفكوا.

٦٤- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقراً ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفاً فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ قيل: لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان. وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللذيات ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

٦٥- ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي: الطاعة من الشرك والرياء، قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: مَنْ قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: والحمد لله رب العالمين.

٦٦- ولَمَّا طلب الكفار منه ﷺ عبادة الأوثان نزل: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ هي: القرآن، وقيل: العقل، والوحي ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أستقيم، وأنقاد ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرِفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ

٦٧- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: أصلكم ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ اقتصر على الواحد؛ لأن المراد بيان الجنس ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: ﴿ثُمَّ﴾ يبيكم ﴿لِتَبْلُغُوا﴾. وكذلك ﴿ثُمَّ لِيَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ وبكسر الشين: مكّي، وحمة، وعلي، وحماد، ويحيى، والأعشى ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: من قبل بلوغ الأشد، أو: من قبل الشيخوخة ﴿وَلْيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى﴾ معناه: ﴿و﴾ يفعل ذلك ﴿لِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى﴾ وهو وقت الموت، أو: يوم القيامة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من العبر، والحجج.

٦٨- ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: فإنما يكونه سريعاً من غير كلفة.

٦٩- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرِفُونَ﴾ ذكر الجدل في هذه السورة في ثلاثة مواضع، فجاز أن يكون في ثلاثة أقوام، أو: ثلاثة أصناف، أو: للتأكيد.

٧٠- ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بالقرآن ﴿وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من الكتب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٧١، ٧٢- ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ إذ: ظرف زمان ماض، والمراد به الاستقبال هنا؛ لقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ وهذا لأن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله تعالى مقطوعاً بها، عبر عنها بلفظ ما كان، ووجد، والمعنى: على الاستقبال ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ عطف على ﴿الأغلال﴾. والخبر: ﴿في أعناقهم﴾. والمعنى: ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ﴾ والسلاسل في أعناقهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ في الحميم يمزون

ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تُرِيدُكَ

في الماء الحار ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ من: سجر التنور: إذا ملأه بالوقود، ومعناه: أنهم في النار، فهي محيطة بهم، وهم مسجورون بالنار، مملوءة بها أجوافهم.

٧٣، ٧٤- ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: تقول لهم الخزنة: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِ اللَّهِ يعني: الأصنام التي تعبدونها ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عن عيوننا، فلا نراهم، ولا ننتفع بهم ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً، كما تقول: حسبت أن فلاناً شيء، فإذا هو ليس بشيء، إذا خبرته فلم تر عنده خيراً ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم، حتى لو طلبوا الآلهة، أو: طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا، أو: كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين؛ الذين علم منهم اختيار الضلالة على الدين.

٧٥- ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق، وهو: الشرك، وعبادة الأوثان. فيقال لهم:

٧٦- ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم - قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] - ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود ﴿فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق، جهنم.

٧٧- ﴿فَأَصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بإهلاك الكفار ﴿حَقٌّ﴾ كائن. ﴿فَكَيْمًا تُرِيدُكَ﴾ أصله: فإن نرك، و﴿ما﴾ مزيدة، لتوكيد معنى الشرط؛ ولذلك ألحقت النون بالفعل. ألا تراك لا تقول: إن تكرمني أكرمك، ولكن:

بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّى بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾

إِذَا تَكْرَمْتِي أَكْرَمَكَ ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ هذا الجزء متعلق بتتوفايتك، وجزء ﴿نريتك﴾ محذوف، وتقديره: ﴿فإِذَا نريتك بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب، وهو: القتل يوم بدر، فذاك ﴿أو﴾ إن ﴿تتوفايتك﴾ قبل يوم بدر ﴿فإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ يوم القيامة، فننتقم منهم أشد الانتقام.

٧٨- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى أهمهم ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن علي - رضي الله عنه -: إن الله تعالى بعث نبياً أسود، فهو ممن لم تذكر قصته في القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِرُّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هذا جواب اقتراحهم الآيات عناداً، يعني: إِنَّا قد أرسلنا كثيراً من الرسل، وما كان لواحد منهم أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فمن أين لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله، ويأذن في الإتيان بها؟ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة. وهو وعيد ورد عقيب اقتراحهم الآيات ﴿فُضِّى بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون؛ الذين اقترحوا الآية^(١).

٧٩- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ خلق ﴿لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ الإبل ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها.

٨٠- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: الألبان، والأوبار ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: لتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: على الأنعام وحدها لا تحملون، ولكن عليها، وعلى الفلك في البر، والبحر.

(١) كذا في الأصل المخطوط، وفي المطبوع: الآيات عناداً.

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا
بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾

٨١- ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ أنها ^(١) من عند الله. و﴿أَيَّ﴾ نصب بـ ﴿تُنْكِرُونَ﴾. وقد جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك: فآية آيات الله قليل؟ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات، نحو: حمار وحماره غريب، وهي في «أَيَّ» أغرب لإيهامه.

٨٢- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ بدلاً ^(٢) ﴿وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ قصوراً، ومصابيح ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ - ما نافية - ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

٨٣- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يريد علمهم بأمور الدنيا، ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات - وهي: أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا، والظلف ^(٣) عن الملائد والشهوات - لم يلتفتوا إليها وصغروها، واستهزؤوا بها، واعتقدوا: أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به. أو: علم الفلاسفة والدهريين؛ فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه، وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط: أنه سمع بموسى - عليه السلام - وقيل له: لو هاجرت إليه! فقال: نحن قوم مهذبون، فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا. أو: المراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه، واستهزاء به، كأنه قال: استهزؤوا بالبينات، وبما جاؤوا به من علم الوحي فرحين، مرحين. ويدل عليه قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. أو: الفرح للرسول، أي: الرسل لما رأوا جهلهم،

(١) زاد في الأصل المخطوط: ليست، ولم تر إثباتها؛ لأن المعنى سيتغير.

(٢) كذا في الأصل المخطوط، و«بدل الشيء»: الخلف منه.

(٣) «الظلف»: الكف.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللّٰهُ اَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

واستهزاءهم بالحق، وعلموا سوء عاقبتهم، وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم، واستهزائهم، فرحوا بما أوتوا من العلم، وشكروا الله عليه، وحق بالكافرين جزاء جهلهم، واستهزائهم.

٨٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدة عذابنا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾.

٨٥- ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: فلم يصح، ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم ﴿سُنَّتَ اللّٰهُ﴾ - بمنزلة وعد الله، ونحوه من المصادر المؤكدة - ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أن الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع، وأن العذاب نازل بمكذي الرسل ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿هنالك﴾: مكان مستعار للزمان. والكافرون خاسرون في كل أوان، ولكنه يتبين خسارتهم إذا عاينوا العذاب.

وفائدة ترادف الفاءات في هذه الآيات: أن ﴿فما أغنى عنهم﴾ نتيجة قوله: ﴿كانوا أكثر منهم﴾؛ و﴿فلما جاءتهم﴾ كالبيان والتفسير لقوله: ﴿فما أغنى عنهم﴾ كقوله: رزق زيد المال، فمنع المعروف، فلم يحسن إلى الفقراء؛ و﴿فلما رأوا بأسنا﴾ تابع لقوله: ﴿فلما جاءتهم﴾ كأنه قال: فكفروا ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ آمنوا. وكذلك ﴿فلم يك ينفعهم﴾ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَدَّثَنَا ① تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كَتَبْتُ فَصَّلَاتٍ ءَايَاتُهَا ٥٤ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④

٣، ١ - ﴿حَدَّثَنَا﴾ إن جعلته اسماً للسورة كان مبتدأ، و: ﴿تَنْزِيلٌ﴾: خبره. وإن جعلته تعديداً للحروف كان ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف. و﴿كِتَابٌ﴾ بدل من تنزيل، أو: خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: ﴿تَنْزِيلٌ﴾: مبتدأ ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ صفة ﴿كَتَبْتُ﴾ خبره ﴿فُصِّلَتْ ءَايَاتُهَا﴾ مبرز، وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من: أحكام، وأمثال، ومواعظ، ووعد، ووعد، وغير ذلك ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الاختصاص والمدح، أي: أريد بهذا الكتاب المفصل ﴿قُرْآنًا﴾ من صفة كيت وكيت، أو: على الحال، أي: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ في حال كونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ﴿لِقَوْمٍ﴾ عرب ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ما نزل عليهم من الآيات المفصلة، الميَّنة بلسانهم العربي. و﴿لِقَوْمٍ﴾ يتعلق بتنزيل، أو: بفصلت. أي: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ من الله لأجلهم، أو: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ لهم. والأظهر أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده. أي: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ كائناً ﴿لِقَوْمٍ﴾ عرب.

٤ - ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان لقُرْآنًا ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي:

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ ءَاذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

لا يقبلون، من قولك: تشفعت إلى فلان، فلم يسمع قولي، ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله، ولم يعمل بمقتضاه، فكأنه لم يسمعه.

٥- ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية، جمع: كنان، وهو: الغطاء ﴿مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿فِيءِ ءَاذَانِنَا وَقَرْ﴾ ثقل يمنع من استماع قولك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ ستر. وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق، واعتقاده، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها، ومجّ أسماعهم له، كأن بها صمماً عنه، ولتباعد المذهبين والدينين، كأن بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجاباً ساتراً، وحاجزاً منيعاً من جبل، أو: نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فَأَعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّمَا عَمِلُونَ﴾ على ديننا. أو: ﴿فَاعْمَلْ﴾ في إبطال أمرنا ﴿إِنَّمَا عَمِلُونَ﴾ في إبطال أمرك. وفائدة زيادة ﴿مِنْ﴾ أن الحجاب ابتداءً منا، وابتداءً منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها. ولو قيل: بيننا وبينك حجاب؛ لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين.

٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾. ووجهه: أنه قال لهم: إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم، وقد أوحى إليّ دونكم، فصحت نبوتي بالوحي إليّ وأنا بشر، وإذا صحت نبوتي وجب عليكم اتباعي، وفيما يوحى إليّ: أن إلهكم إله واحد ﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد، وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسؤل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

٧- ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لا يؤمنون بوجوب الزكاة، ولا يعطونها، أو: لا يفعلون ما يكونون به أزكياء، وهو: الإيمان ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ﴾ بالبعث،

﴿٧﴾ هُمْ كَفَرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾
 ﴿٩﴾ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسٍ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

والثواب، والعقاب ﴿هُمْ كَفَرُونَ﴾ وإنما جمع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؛ لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته، وصدق نيته، ونصوح طويته. وما خدع^(١) المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة^(٢) من الدنيا، فقرت عصبيتهم، ولانت شكيمتهم. وما ارتدت بنو حنيفة إلا بمنع الزكاة. وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها.

٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع. قيل: نزلت في المرضى، والزمى، والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة، كتب لهم الأجر كما كانوا يعملون^(٣).

٩- ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الأحد والإثنين، تعليماً للآناة، ولو أراد أن يخلقها في لحظة لفعل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَندَادًا﴾ شركاء، وأشباهاً ﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلق ما سبق ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خالق جميع الموجودات، وسيدها، ومرتيها.

١٠- ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿رُوسٍ﴾ جبلاً ثوابت ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾. وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، كلها مفتقرة إلى ممسك، وهو: الله عز وجل ﴿وَبَرَكَ﴾ بالماء، والزرع، والشجر، والثمر ﴿فِيهَا﴾ في الأرض. وقيل: ﴿وبارك فيها﴾ وأكثر خيرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أرزاق أهلها، ومعاشهم، وما يصلحهم. وقرأ ابن مسعود - رضي الله عنه -: (وقسم فيها أقواتها) ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تنمة أربعة أيام. يريد بالتنمة: اليومين، تقول: سرت من البصرة

(١) استعمال «خدع» غير لائق؛ لأنه ﷺ إنما تألفهم عن قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة.

(٢) «اللمظة»: لمظ: إذا تنبعت بلسانه بقية الطعام في فمه.

(٣) أي: في حال صحتهم.

سَوَاءٌ لِّلسَّالِئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

إلى بغداد في عشرة، وإلى الكوفة في خمسة عشر، أي: في تمة خمسة عشر. ولا بد من هذا التقدير؛ لأنه لو أجري على الظاهر لكانت ثمانية أيام، لأنه قال: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ ثم قال: ﴿وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام﴾ ثم قال: ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ فيكون خلاف قوله ﴿في ستة أيام﴾ في موضع آخر. وفي الحديث: «إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر، والماء، والعمران، والخراب، فتلك أربعة أيام. وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم، والشمس، والقمر، والملائكة، وخلق آدم - عليه السلام - في آخر ساعة من يوم الجمعة»^(١). قيل: هي الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿سَوَاءٌ﴾: يعقوب، صفة للأيام، أي: في أربعة أيام مستويات، تامات ﴿سَوَاءٌ﴾: يزيد، أي: هي سواء. غيرهما: على المصدر، أي: استوت ﴿سواء﴾ أي: استواء، أو: على الحال ﴿لِّلسَّالِئِلِينَ﴾ متعلق بـ ﴿قَدَّرَ﴾، أي: قدر فيها الأوقات لأجل الطالين لها، المحتاجين إليها؛ لأن كلاً يطلب القوت، ويسأله، أو: بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض، وما فيها؟

١١ - ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ هو مجاز عن إيجاد الله تعالى السماء على ما أراد. تقول العرب: فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا، يريدون: أنه أكمل الأول، وابتدأ الثاني. ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض. وبه قال ابن عباس - رضي الله عنهما - . وعنه: أنه قال: أول ما خلق الله تعالى جوهرة طولها وعرضها مسيرة ألف سنة، في مسيرة عشرة آلاف سنة، فنظر إليها بالهيبة فذابت واضطربت، ثم ثار منها دخان بتسليط النار عليها فارتفع، واجتمع زيد، فوق الماء، فجعل الزبد أرضاً، والدخان سماء.

فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١١﴾

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتنالهما: أنه أراد أن يكونتهما، فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالأمر المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع. وإنما ذكر الأرض مع السماء في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؛ لأنه قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فالمعنى: اثتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، اثتي يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك، واثتي يا سماء مقببة سقفاً لهما. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما تقول: أتى عمله مرضياً. وقوله: ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ لبيان تأثير قدرته فيهما، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال، كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً. وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين، أو: مكرهتين. وإنما لم يقل طائعتين على اللفظ، أو: طائعات على المعنى؛ لأنهما سموات، وأرضون؛ لأنهن لما جعلن مخاطبات ومجيبات، ووصفن بالطوع والكره قيل: ﴿طائعتين﴾ في موضع طائعات، كقوله: ﴿سَجِدْ﴾ [يوسف: ٤].

١٢ - ﴿فَقَضَّاهُنَّ﴾ فأحكم خلقهن. قال:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا^(١)

والضمير يرجع إلى السماء؛ لأن السماء للجنس، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بقوله: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾. والفرق بين النصيبين: أن الأول: على الحال، والثاني: على التمييز، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ في يوم الخميس، والجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ ما أمر به فيها، ودبره من خلق الملائكة والنيران، وغير ذلك ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القريبة من الأرض ﴿بِمَصْبِيحٍ﴾ بكواكب ﴿وَحِفْظًا﴾ وحفظناها من المسترقة بالكواكب حفظاً ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿الْعَلِيمِ﴾ بمواقع الأمور.

(١) صدر بيت لأبي ذؤيب، وعجزه: داود؛ أو صنع السوابغ تبع.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

١٣- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم ﴿صَاعِقَةً﴾ عذاباً شديداً الوقع، كأنه صاعقة، وأصلها: رعد معه نار ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

١٤- ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: أتوهم من كل جانب، وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا الإعراض. وعن الحسن: أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم، وعذاب الآخرة. ﴿أَنْ﴾ بمعنى أي، أو: مخففة من الثقيلة، أصله: بأنه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا﴾ أي: القوم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل - فمفعول شاء محذوف - ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾. معناه: فإذا أنتم بشر، ولستم بملائكة، فإننا لا نؤمن بكم، وبما جئتم به. وقوله: ﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه تهكم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وقوله: ﴿فإننا بما أُرْسِلْتُمْ به كافرون﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء؛ الذين دعوا إلى الإيمان بهم.

رُوي: أن قريشاً بعثوا عتبة بن ربيعة - وكان أحسنهم حديثاً - ليكلّم رسول الله ﷺ وينظر ما يردُّ. فأتاه وهو في الحطيم، فلم يسأل شيئاً إلا أجابه، ثم قرأ ﷺ عليه السورة إلى قوله: ﴿مثل صاعقة عاد و ثمود﴾ فناشده بالرحم، وأمسك على فيه، ووثب مخافة أن يصب عليهم العذاب، فأخبرهم به، وقال: لقد عرفتُ السحر والشعر، فوالله ما هو بساحر ولا بشاعر، فقالوا: لقد صبأت، أما فهمت منه كلمة؟ فقال: لا، ولم أهتم إلى جوابه، فقال عثمان بن مظعون: ذلك والله لتعلموا أنه من رب العالمين.

ثم بين ما ذكر من صاعقة عاد و ثمود، فقال:

١٥- ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: تعظّموا فيها على أهلها

وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَلُونِ

بما لا يستحقّون به التعظّم، وهو القوة، وعظم الأجرام. أو: استولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا ذوي أجسام طوال، وخلق عظيم، وبلغ من قوتهم أنّ الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا﴾ أولم يعلموا علماً يقوم مقام العيان ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أوسع منهم قدرة؛ لأنّه قادرٌ على كلّ شيء، وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ معطوف على ﴿فاستكبروا﴾، أي: كانوا يعرفون أنّها حق، ولكنهم جحدوها، كما يجحد المودعُ الوديعة.

١٦- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ غاصفة تصرصر، أي: تصوّت في هبوبها، من: الصرير. أو: باردة، تحرق بشدّة بردها. تكرير لبناء الصرّ، وهو البرد. قيل: إنّها الدبور ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ مشؤومات عليهم ﴿نَحْسَاتٍ﴾: مكّي، وبصريّ، ونافع. نُحِسْ نَحْسًا: نقيض سعد سعدًا. وهو نَحِس. وأما نَحْس فإمّا مخفف نحس، أو: صفة على فعل، أو: وصف بمصدر. وكانت من الأربعاء في آخر شوال إلى الأربعاء. وما عذب قوم إلّا في الأربعاء ﴿لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أضاف العذاب إلى الخزي، وهو: الذلّ، على أنّه وصف للعذاب، كأنّه قال: عذاب خزي، كما تقول: فعل السوء، تريد الفعل السيّء، ويدلّ عليه قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ﴾ وهو من الإسناد المجازي. ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به، فشتان ما بين قوليك: هو شاعر، وله شعر شاعر ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ من الأصنام التي عبدوها، على رجاء النصر لهم.

١٧- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالرفع على الابتداء هو الفصيح لوقوعه بعد حرف الابتداء. والخبر: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾. وبالنصب المفضل بإضمار فعل يُفسّره ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيّنا لهم الرشد ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ داهية العذاب ﴿الْهُونِ﴾ الهوان، وصف

يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا

به العذاب مبالغة، أو: أبدله منه ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بكسبهم، وهو شركهم ومعاصيهم. وقال الشيخ أبو منصور: يحتمل ما ذكر من الهداية التبيين كما بينا، ويحتمل خلق الاهتداء فيهم، فصاروا مهتدين، ثم كفروا بعد ذلك، وعقروا الناقة؛ لأن الهدى المضاف إلى الخالق يكون بمعنى البيان، والتوفيق، وخلق فعل الاهتداء. فأما الهدى المضاف إلى الخلق يكون بمعنى البيان لا غير. وقال صاحب «الكشاف» فيه: فإن قلت: أليس معنى قولك هديته حصّلت فيه الهدى؟ الدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، بمعنى تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: ردعته فارتدع، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ قلت: للدلالة على أنه مكنهم، فأزاح عللهم، ولم يبق لهم عُذْرًا، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها، ويقتضيها.

وإنما تمحل بهذا؛ لأنه لا يتمكّن من أن يفسره بخلق الاهتداء؛ لأنه يخالف مذهبه الفاسد.

١٨- ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: اختاروا الهدى على العمى من تلك الصاعقة ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ اختيار العمى على الهدى.

١٩- ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ أي: الكفار من الأولين والآخرين. ﴿نَحْشُرُ أَعْدَاءَ﴾: نافع، ويعقوب ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجس أولهم على آخرهم، أي: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم، وهي عبارة عن كثرة أهل النار. وأصله: من وزعته، أي: كلفته.

٢٠- ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ صاروا بحضرتها. و﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد: أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ شهادة الجلود باللامسة للحرام، وقيل: هي كناية عن الفروج.

٢١- ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ لما تعاضهم من شهادتها عليهم

قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ تَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَيْرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ

﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الحيوان. والمعنى: أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله؛ الذي قدر على إنطاق كل حيوان ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ تَرْجِعُونَ﴾ أي: وهو قادرٌ على إنسانكم أول مرة، وعلى إعادتكم، ورجعكم إلى جزائه.

٢٢- ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَيْرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشاهدتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث، والجزاء أصلاً ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولكنكم إنما استترتم لظنكم: ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم.

٢٣- ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَكُونَ بِكُمْ كَذِبٌ﴾ وذلك الظن هو الذي أهلككم ﴿وَذَلِكُمْ﴾ مبتدأ، و﴿ظَنُّكُمْ﴾ خبر. و﴿الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ صفة، و﴿أَرَدْتُمْ﴾ خبر ثان. أو: ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدل من ذلکم، و﴿أَرَدْتُمْ﴾ الخبر ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

٢٤- ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الشقاء في النار ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ وإن يطلبوا الرضا فمالهم من المرضيين، أو: وإن يسألوا العتبي - وهي: الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه - لم يعتبوا: لم يُعطوا العتبي، ولم يُجابوا إليها.

٢٥- ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ أي: قدرنا لمشركي مكة، يقال: هذان ثوبان قَيَّضَانُ أي: مثلان. والمقايضة: المعاوضة. وقيل: سلطنا عليهم ﴿قُرَنَاءَ﴾ أخذاناً من الشياطين؛ جمع قرين، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ

فَرِيتُوا لَهُمْ مَا يَتَنَبَّأُ أَفْئِدَتُهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
 مِنَ الْغَنَى وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ
 وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا
 يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ

فَرِيتٌ ﴿ [الزخرف: ٣٦] ﴾ فَرِيتُوا لَهُمْ مَا يَتَنَبَّأُ أَفْئِدَتُهُمْ وَمَا خَلَفَهُمْ ﴿ أي: ما تقدم من
 أعمالهم، وما هم عازمون عليها. أو: ﴿ ما بين أيديهم ﴾ من أمر الدنيا، واتباع
 الشهوات ﴿ وما خلفهم ﴾ من أمر العاقبة، وأن لا يَبْعَثَ ولا حساب ﴿ وَحَقَّ
 عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ كلمة العذاب ﴿ فِي أَمْرٍ ﴾ في جملة أمم. ومحله النصب على الحال
 من الضمير في ﴿ عليهم ﴾، أي: ﴿ حق عليهم القول ﴾ كائنين ﴿ في ﴾ جملة أمم
 ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قبل أهل مكة ﴿ مِنَ الْغَنَى وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ هو
 تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير لهم، وللأمم.

٢٦- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ إذا قُرِئَ ﴿ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴾ وعارضوه بكلام غير مفهوم حتى تشوشوا عليه، وتغلبوا على قراءته.
 واللغو: الساقط من الكلام؛ الذي لا طائل تحته.

٢٧- ﴿ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا: هؤلاء
 اللاعنين، والآخرين لهم باللغو خاصة، وأن يذكر الذين كفروا عاقبة لينطوي
 تحت ذكرهم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: ﴿ ولنجزيتهم ﴾ أعظم عقوبة
 على أسوأ أعمالهم، وهو الكفر.

٢٨- ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴾ ﴿ ذلك ﴾: إشارة إلى الأسوأ. ويجب أن يكون
 التقدير: ﴿ أسوأ ﴾ جزاء ﴿ الذي كانوا يعملون ﴾ حتى تستقيم هذه الإشارة
 ﴿ النَّارُ ﴾ عطف بيان للجزاء، أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ أي:
 النار في نفسها دار الخلد. كما تقول: لك في هذه الدار دار السرور، وأنت
 تعني الدار بعينها ﴿ جَزَاءُ ﴾ أي: جوزوا بذلك جزاء ﴿ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾.

٢٩- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا ﴾ وبسكون الراء؛ لثقل الكسرة، كما قالوا
 في فَخْذٍ فَخْذٌ: مكِّي، وشامي، وأبو بكر. وبالاختلاس: أبو عمرو ﴿ الَّذِينَ

أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

أَضَلَّانَا ﴿٢٩﴾ أي: الشيطانين الذين أضلانا ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾؛ لأنَّ الشيطان على ضريين: جنِّي، وإنسِي. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١١٢] - ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ في النار جزاء إضلالهم إيانا.

٣٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: نطقوا بالتوحيد ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن الصديق - رضي الله عنه -: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه: أنه تلاها، ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشده. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر - رضي الله عنه -: «لم يروغوا روغان الثعالب» أي: لم ينافقوا. وعن عثمان - رضي الله عنه -: أخلصوا العمل. وعن عليّ - رضي الله عنه -: أدوا الفرائض. وعن الفضيل - رحمه الله -: زهدوا في الفانية، ورجبوا في الباقية.

وقيل: حقيقة الاستقامة: القرار بعد الإقرار، لا الفرار بعد الإقرار - ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أن بمعنى: أي، أو: مخففة من الثقيلة. وأصله: بأنه ﴿لا تخافوا﴾ والهاء ضمير الشأن، أي: لا تخافوا ما تقدمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتم. فالخوف: غم يلحق الإنسان لتوقع المكروه، والحزن: غم يلحق لوقوعه من فوات نافع، أو: حصول ضرر. والمعنى: أن الله كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا. وقال محمد بن عليّ الترمذي: ﴿تتنزل عليهم﴾ ملائكة الرحمن، عند مفارقة الأرواح عن الأبدان، ﴿أن لا تخافوا﴾ سلب الإيمان، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما كان من العصيان، ﴿وَأَبشروا﴾ بدخول الجنان ﴿التي كنتم توعدون﴾ في سالف الأزمان.

٣١ - ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ كما أن الشياطين، قرناء

وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزْلَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا أَلَّا دُو حَظٌّ عَظِيمٌ ﴿٣٥﴾

العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين، وأحبّاءهم في الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ من النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ تتمنون.

٣٢- ﴿تَزْلَا﴾ هو رزق التزيل، وهو: الضيف. وانتصابه على الحال من الهاء المحذوفة، أو: من ﴿مَا﴾ ﴿مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ نعت له.

٣٣- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ هو رسول الله - ﷺ - دعا إلى التوحيد ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ خالصاً ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخراً بالإسلام، ومعتقداً له. و: أصحابه عليه الصلاة والسلام، أو: المؤذنون، أو: جميع الهداة، والدعاة إلى الله.

٣٤- ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني: أن السيئة والحسنة متفاوتتان في أنفسهما، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان، فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك، كما لو أساء إليك رجل إساءة، فالحسنة أن تعفو عنه، والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه، أو: يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك. ثم قال:

٣٥- ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا﴾ أي: وما يلقي هذه الخصلة التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ إلا أهل الصبر ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا دُو حَظٌّ عَظِيمٌ﴾ إلا رجل خير، وفق لحظ عظيم من الخير. وإنما لم يقل: فادفع بالتي هي أحسن؛ لأنه على تقدير قائل قال: فكيف أصنع؟ فقل: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾. وقيل: ﴿لَا﴾ مزيدة للتأكيد. والمعنى: لا تستوي الحسنة والسيئة. وكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة، ولكن وضع «التي هي

وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ

أحسن» موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأنَّ مَنْ دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿بالتي هي أحسن﴾: الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة. وفسر الحظ بالثواب. وعن الحسن: والله ما عظم حظّ دون الجنة. وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وكان عدواً مؤذياً للنبي ﷺ، فصار ولياً مُصافياً.

٣٦- ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزغ: شبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان، كأنه ينخسه؛ يبعثه على ما لا ينبغي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جدّ جدّه، أو: أريد ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ نازغ، وصفاً للشيطان بالمصدر، أو: لتسويله. والمعنى: وإن صرفك الشيطان عمّا وُصِّيتَ به من الدفع بالتّي هي أحسن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرّه، وامض على حلمك، ولا تطعه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنزغ الشيطان.

٣٧- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ في تعاقبهما على حدّ معلوم، وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ في اختصاصهما بسير مقدر، ونور مقرر ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مخلوقان وإن كثرت منافعهما ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. الضمير في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ للآيات، أو: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ؛ لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى، أو: الإناث، تقول: الأقلام بريتها، وبريتهن. ولعلّ ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصّابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنّهم يقصدون بالسجود لها السجود لله تعالى، فنُها عن هذه الواسطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله خالصاً إن كانوا إيّاه يعبدون، وكانوا موحدّين غير مشركين، فإنّ مَنْ عبَدَ مع الله غيره لا يكونُ عابداً لله.

٣٨- ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ

وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونُ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾

وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونُ ﴿٣٨﴾ لا يملّون. والمعنى: ﴿فإن استكبروا﴾ ولم يمتثلوا ما أمروا به، وأبوا إلا الوساطة فدعهم وشأنهم، فإن الله تعالى لا يعدم عابداً وساجداً بالإخلاص، وله العباد المقربون؛ الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد. و﴿عند ربك﴾ عبارة عن الزلفى، والمكانة، والكرامة. وموضع السجدة عندنا ﴿لا يسأمون﴾، وعند الشافعي - رحمه الله - عند ﴿تعبدون﴾. والأول أحوط.

٣٩- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسة مغبرة. والخشوع: التذلل، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لانبات فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادراً على البعث ضرورة.

٤٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يميلون عن الحق في أدلتنا^(١) - يقال: ألحد الحافر ولحد؛ إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شق، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة. ﴿يُلْحِدُونَ﴾ حمزة - ﴿لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ وعيد لهم على التحريف ﴿أَفَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ هذا تمثيل للكافر والمؤمن ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ هذا نهاية في التهديد، ومبالغة في الوعيد ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

٤١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ بالقرآن؛ لأنهم لكفروهم به طعنوا فيه، وحرّفوا تأويله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حين جاءهم. وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف، أي: يعذبون، أو: هالكون. أو: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ وما بينهما اعتراض ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع، محمي بحماية الله.

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ

٤٢ - ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ التبديل، أو: التناقض ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: بوجه من الوجوه ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ مستحق للحمد.

٤٣ - ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ ما يقول لك كفار قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ إلا مثل ما قال للرسول كفار قومهم من الكلمات المؤذية، والمطاعن في الكتب المنزلة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم. ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسول من قبلك، والمقول هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٤٤ - ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الذكر ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة العجم. كانوا لتعتنهم يقولون: هلاً نزل القرآن بلغة العجم! فقل: لو كان كما يقترحون ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ﴾ - أي: بينت - بلسان العرب حتى نفهمها - تعنتاً - ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ ^(١) بهزتين كوفي غير حفص، الهمزة للإنكار، يعني: لأنكروا، وقالوا: ﴿أ﴾ قرآن ﴿أعجمي﴾ ورسول ﴿عربي﴾ أو: مرسل إليه عربي. الباقون بهمزة واحدة ممدودة مستفهمة. والأعجمي: الذي لا يفصح، ولا يفهم كلامه، سواء كان من العجم أو العرب. والعجمي منسوب إلى أمة العجم، فصيحاً كان أو غير فصيح. والمعنى: إن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً؛ لأنهم غير طالبين للحق، وإنما يتبعون أهواءهم. وفيه إشارة إلى أنه لو أنزله بلسان العجم لكان قرآناً، فيكون دليلاً لأبي حنيفة - رحمه الله - في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسية ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ إرشاد إلى الحق ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في الصدور من الشك؛ إذ

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿أعجمي﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، وروح. معجم القراءات القرآنية (٧٥/٦).

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ

الشك مرض ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ في موضع الجز لكونه معطوفاً على ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: هو ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هدى وشفاء و﴾ هو لـ ﴿الذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ أي: صمم، إلا أن فيه عطفًا على عاملين، وهو جائز عند الاخفش. أو: الرفع، وتقديره: ﴿والذين لا يؤمنون﴾ هو ﴿في آذانهم وقر﴾ على حذف المبتدأ، أو: ﴿في آذانهم﴾ منه ﴿وقر﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ظلمة وشبهة ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم لعدم قبولهم وانتفاعهم، كأنهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة. وقيل: ﴿ينادون﴾ في القيامة ﴿من مكان بعيد﴾ بأقبح الأسماء.

٤٥- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ - فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل - كما اختلف قومك في كتابك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير العذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكهم إهلاك استتصال. وقيل: الكلمة السابقة هي العدة بالقيامة، وأن الخصومات تُفصل في ذلك اليوم. ﴿ولولا﴾ ذلك ﴿لُقِضَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن الكفار ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ موقع في الرية.

٤٦- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ فنفسه نفع ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فنفسه ضرر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فيعذب غير المسيء.

٤٧- ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم قيامها يرد إليه، يجب على المسؤول أن يقول: الله يعلم ذلك ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ - : مدني، وشامي، وحفص. غيرهم: بغير ألف - ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها قبل أن تنشق - جمع كم - ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ حملها ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ أي: ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضح إلا وهو عالم به يعلم عدد أيام الحمل،

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجٍّ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ
وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي

وساعاته، وأحواله من: الخداج، والتمام، والذكورة، والأنوثة، والحسن،
والقبح، وغير ذلك ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ أضافهم إلى نفسه على
زعمهم، وبيانه في قوله: أين شركائي الذين زعمتم. وفيه تهكم، وتقرير
﴿قَالُوا أَدْنَاكَ﴾ أعلمناك، وقيل: أخبرناك، وهو الأظهر؛ إذ الله تعالى كان عالماً
بذلك. وإعلام العالم محال، أما الإخبار للعالم بالشيء فيتحقق بما علم به، إلا
أن يكون المعنى: إنك علمت من قلوبنا الآن: أنا لا نشهد تلك الشهادة
الباطلة؛ لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي:
مما أحد يشهد بأن لك شريكاً، وما منا إلا من هو موحد لك. أو: ﴿مَا مِنَّا
من﴾ أحد يشاهدهم؛ لأنهم ضلوا عنهم، وضلت عنهم آلتهم، لا يبصرونها في
ساعة التوبخ. وقيل: هو كلام الشركاء. أي: ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ يشهد بما
أضافوا إلينا من الشراكة.

٤٨- ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ وأيقنوا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجٍّ﴾ مهرب.

٤٩- ﴿لَا يَسْتَمُ﴾ لا يمل ﴿الْإِنْسَانُ﴾ الكافر - بدليل قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] - ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في المال والنعمة،
والتقدير: من دعائه الخير، فحذف الفاعل، وأضيف إلى المفعول ﴿وَإِنْ مَسَّهُ
الشَّرُّ﴾ الفقر ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ من الخير ﴿قَنُوطٌ﴾ من الرحمة. بولغ فيه من طريقتين:
من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير. والقنوط: أن يظهر عليه أثر اليأس
فيتضاءل وينكسر، أي: يقطع الرجاء من فضل الله، وروحه. وهذا صفة الكافر؛
بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

٥٠- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ وإذا فرجنا عنه
بصحة بعد مرض، أو: سعة بعد ضيق، قال: ﴿هَذَا لِي﴾ أي: هذا حقّي وصل

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بَٰجَانِيَةً وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

إِلَيَّ؛ لَأَتِي استوجبه بما عندي من خير، وفضل، وأعمال برّ. أو: ﴿هذا لي﴾ لا يزول عني ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: ما أظنها تكون قائمة ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ كما يقول المسلمون: ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ﴾ عند الله ﴿لَلْحُسْبَىٰ﴾ أي: الجنة. أو: الحالة الحسنى من الكرامة، والنعمة، قائماً أمر الآخرة على أمر الدنيا ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد، لا يفتر عنهم.

٥١- ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان؛ إذا أصابه الله بنعمة أبطرت النعمة، ففسي المنعم، وأعرض عن شكره ﴿وَنَا بَٰجَانِيَةً﴾ وتباعد عن ذكر الله، ودعائه، أو: ذهب بنفسه، وتكبر، وتعظم، وتحقيقه: أن يوضع جانبه موضع نفسه؛ لأنّ مكان الشيء وجهته ينزل منزلة نفسه، ومنه قول الكتاب: وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون: نفسه، وذاته، فكأنه قال: وناء بنفسه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضر، والفقر ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، أي: أقبل على دوام الدعاء، وأخذ في الابتغال، والتضرّع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه، وهو من صفة الأجرام، كما استعير الغلظ لشدة العذاب. ولا منافاة بين قوله: ﴿فِيؤوس قنوط﴾ وبين قوله: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ لأن الأول في قوم، والثاني في قوم. أو: قنوط في البرّ، وذو دعاء في البحر. أو: قنوط بالقلب، ذو دعاء باللسان. أو: قنوط من الصنم، ذو دعاء لله تعالى.

٥٢- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ ثم جحدتم أنه من عند الله ﴿مَّنْ أَضَلُّ﴾ منكم؟ إلا أنه وضع قوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ موضع منكم بياناً لحالهم، وصفتهم.

سَرُّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنَ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ ﴿٥٤﴾

٥٣- ﴿سَرُّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ من فتح البلاد شرقاً وغرباً ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فتح مكة ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: القرآن، أو: الإسلام ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ موضع ﴿بِرَبِّكَ﴾ الرفع على أنه فاعل، والمفعول محذوف. وقوله: ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، تقديره: أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد، أي: أولم تكفهم شهادة ربك على كل شيء. ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الأفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب؛ الذي هو على كل شيء شهيد.

٥٤- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنَ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾ عالم بجمل الأشياء، وتفاصيلها، وظواهرها، وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية، فيجازيهم على كفرهم، ومريتهم في لقاء ربهم.

* * *

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَمْ يَأْتِ
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾

١، ٢- فصل ﴿حَمْدٌ﴾ من ﴿عَسَقٌ﴾ كتابة مخالفاً لـ: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم: ١] تلفيقاً بأخواتها، ولأنه آيتان و﴿كَهَيْعَصَ﴾ آية واحدة.

٣- ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي: مثل ذلك الوحي، أو: مثل ذلك الكتاب ﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وإلى الرسل من قبلك ﴿اللَّهُ﴾ يعني: أنَّ ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه إلى من قبلك، يعني: إلى رسله. والمعنى: أنَّ الله كرَّر هذه المعاني في القرآن، وفي جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ، واللطف العظيم لعباده. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس من نبيٍّ صاحب كتاب إلا أوحى إليه بـ ﴿حَمْدٌ عَسَقٌ﴾ ﴿يُوحَىٰ﴾ بفتح الحاء: مكِّي، ورافع اسم ﴿اللَّهُ﴾ على هذه القراءة مادَّل عليه ﴿يُوحَىٰ﴾ كأن قائلًا قال: مَنْ الموحى؟ فقيل: الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب بقره ﴿الْحَكِيمُ﴾ المصيب في فعله، وقوله.

٤- ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكاً وَمِلْكاً ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ شأنه ﴿الْعَظِيمُ﴾

برهانه.

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

- ٥- ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ - وبالياء: نافع، وعليّ - ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ -
يتشقّقن. ﴿ينفطرن﴾ بصريّ، وأبو بكر. ومعناه: يكدن ينفطرن من علوّ شأن
الله وعظمته، يدلّ عليه مجيئه بعد: ﴿العليّ العظيم﴾. وقيل: من دعائهم له
ولداً، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠]. ومعنى ﴿من
فوقهن﴾ أي: يبتدئ الانفطار من جهتهنّ فوقانيّة، وكان القياس أن يقال:
ينفطرن من تحتهنّ، من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر؛ لأنّها جاءت من
الذين تحت السموات، ولكنّه بولغ في ذلك؛ فجعلت مؤثرة في جهة الفوق،
كأنه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهنّ، دع الجهة التي تحتهنّ. وقيل:
﴿من فوقهن﴾ من فوق الأرض، فالكناية راجعة إلى الأرض؛ لأنه بمعنى
الأرضين. وقيل: يتشقّقن لكثرة ما على السموات من الملائكة. قال عليه الصلاة
والسلام: «أطت السماء وحُق لها أن تنطّ، ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك
قائم أو راعع أو ساجد»^(١) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خضوعاً لما يرون من
عظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ للمؤمنين منهم - كقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧] - خوفاً عليهم من سطواته، أو: يوحدون الله، وينزهونه
عما لا يجوز عليه من الصفات، حامدين له على ما أولاهم من الطافه، متعجبين
تأّراً من تعرّضهم لسخط الله تعالى، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ لمؤمني أهل الأرض؛
الذين تبرّؤوا من تلك الكلمة، أو: يطلبون إلى ربّهم أن يحلم عن أهل الأرض،
ولا يعاجلهم بالعقاب ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لهم.

- ٦- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: جعلوا له شركاء، وأنّاداً ﴿اللَّهُ
حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، فيجازيهم
عليها ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ بموكل عليهم، ولا مفوض إليك
أمرهم، إنّما أنت منذر فحسب.

(١) رواه أحمد (١٧٣/٥) والترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠).

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فُحْكُمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ

٧- ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية التي قبلها من أن الله رقيب عليهم لا أنت، بل أنت منذر؛ لأن هذا المعنى كرره الله في كتابه، فالكاف: مفعول به لأوحينا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال من المفعول به، أي: أوحينا إليك، وهو قرآن عربي بين ﴿لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي: مكة؛ لأن الأرض دحيت من تحتها، أو: لأنها أشرف البقاع، والمراد: أهل أم القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ يوم القيامة؛ لأن الخلائق تجمع فيه ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له، يقال: أنذرتك كذا، وأنذرتك بكذا. وقد عدي ﴿لتنذر أم القرى﴾ إلى المفعول الأول ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ إلى المفعول الثاني ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي: ومنهم ﴿فريق في الجنة﴾ ومنهم ﴿فريق في السعير﴾ والضمير للمجموعتين؛ لأن المعنى: يوم جمع للخلائق.

٨- ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: مؤمنين كلهم ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: يكرم من يشاء بالإسلام، ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ والكافرون ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ شافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ دافع.

٩- ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الفاء لجواب شرط مقدر، كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه: إن أرادوا ولياً بحق ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ بالحق، وهو الذي يجب أن يتولى وحده، ولا ولي سواه ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء.

١٠- ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين، أي: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلقتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، ﴿فُحْكُمُهُ﴾ أي: حكم ذلك المختلف فيه مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وهو إثابة المحققين فيه من المؤمنين، ومعاقبة المبطلين ﴿ذَلِكُمْ﴾ الحاكم بينكم

اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فيه ردُّ كيد أعداء الدين ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كفاية شرهم. وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم؛ التي لا تتصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح، وغيره.

١١ - ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ارتفاعه على أنه أحد أخبار ﴿ذلكم﴾ أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ خلق لكم من جنسكم من الناس ﴿أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿يَذُرُوكُمْ﴾ يكثرهم. يقال: ذرأ الله الخلق: بثهم، وكثرهم ﴿فيه﴾ - في هذا التدبير، وهو: أن جعل الناس والأنعام أزواجاً، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد؛ والتناسل. واختير ﴿فيه﴾ على به؛ لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع، والمعدن للبت، والتكثير. والضمير في ﴿يَذُرُوكُمْ﴾ يرجع إلى المخاطبين والأنعام، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب تماماً لا يعقل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ قيل: إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التماثل، وتقديره: ليس مثله شيء، وقيل: المثل زيادة، وتقديره: ليس كهو شيء. كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧] وهذا لأن المراد نفي المثلية، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل. وقيل: المراد ليس كذاته شيء؛ لأنهم يقولون: مثلك لا يبخل، يريدون به: نفي البخل عن ذاته، ويقصدون المبالغة في ذلك بسلوك طريق الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسدّه فقد نفوه عنه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء، وبين قوله: ليس كمثل شيء، إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها. وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد، وهو نفي المماثلة عن ذاته. ونحوه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فمعناه: بل هو جوادٌ من غير تصوّر يد، ولا بسط لها؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود، حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل، ومن لا مثل له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع

الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بِغَيَابَتِهِمْ

المسموعات بلا أذن ﴿الْبَصِيرُ﴾ لجميع المراتب بلا حدقة، وكأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له، كما لا مثل له.

١٢- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَرَّ فِي «الزمر» ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَي: يَضِيقُ. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٣- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أَي: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ دين نوح ومحمد وَمَن بينهما من الأنبياء - عليهم السلام - ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ والمراد: إقامة دين الإسلام؛ الذي هو توحيد الله، وطاعته، والإيمان برسله، وكتبه، ويوم الجزاء، وسائر ما يكون المرء بإقامته مسلماً، ولم يرد به الشرائع فإنها مختلفة. قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ومَحَلٌّ ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ نصب بدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفين عليه. أو: رفع على الاستئناف، كأنه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في الدين. قال علي - رضي الله عنه -: لا تتفرقوا، فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عظم عليهم، وشق عليهم ﴿مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله، والتوحيد ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي﴾ يختلب، ويجمع ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الدين بالتوفيق، والتسديد ﴿مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يقبل على طاعته.

١٤- ﴿وَمَا نَفَرَقُوا﴾ أَي: أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ﴾ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ عَلِمُوا أَنَّ الْفِرْقَةَ ضَلَالٌ، وأمر متوعد عليه على السنة الأنبياء - عليهم السلام - ﴿بَغَيَابَتِهِمْ﴾ حسداً، وطلباً للرئاسة، والاستطالة بغير

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّى بَيْنَهُمْ وَلَئِنْ الَّذِينَ أُرْسِلُوا
 الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٥﴾ فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَقِمَ كَمَا
 أُمِرْتُ وَلَا نَنْبَغُ أَهْوَاءُهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
 بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ
 يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

حق ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ - وهي: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾
 [القمر: ٤٦] - ﴿لَفُضِّى بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكوا حين افرقوا لعظم ما افرقوا ﴿وَلَئِنْ الَّذِينَ
 أُرْسِلُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهل الكتاب؛ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ
 ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان ﴿مُرِيبٍ﴾ مدخل في
 الريبة. وقيل: وما تفرق أهل الكتاب ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بمبعث
 رسول الله ﷺ - كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
 الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] - ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُرْسِلُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم المشركون
 أورشوا القرآن من بعد ما أورش أهل الكتاب: التوراة، والإنجيل.

١٥ - ﴿فَلِذَلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر
 شعباً ﴿قَادَعُ﴾ إلى الاتفاق والاتلاف على الملّة الخنيفة القديمة ﴿وَأَسْتَقِمَ﴾
 عليها، وعلى الدعوة إليها ﴿كَمَا أُمِرْتُ﴾ كما أمرك الله ﴿وَلَا نَنْبَغُ أَهْوَاءُهُمْ﴾
 المختلفة الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي كتاب صح أن الله
 تعالى أنزله، يعني: الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأن المتفرقين آمنوا ببعض،
 وكفروا ببعض، كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ إلى قوله:
 ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١] - ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ في
 الحكم إذا تخاضعتم فتحاكمتم إليّ ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: كلنا عبيده ﴿لَنَا
 أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ هو كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].
 ويجوز أن يكون معناه: إنا لا نؤاخذ بأعمالكم، وأنتم لا تؤاخذون بأعمالنا ﴿لَا
 حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لا خصومة؛ لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به،
 فلا حاجة إلى المحااجة، ومعناه: لا إيراد حجة بيننا؛ لأن المتحاجين يورد هذا
 حجته وهذا حجته ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع لفصل
 لقضاء، فيفصل بيننا، وينتقم لنا منكم.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحْتُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

١٦- ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ﴾ استجاب له الناس، ودخلوا في الإسلام، ليردوهم إلى دين الجاهلية - كقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]. كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، فنحن خير منكم، وأولى بالحق. وقيل: ﴿من بعد ما استجيب﴾ لمحمد عليه الصلاة والسلام دعاؤه في المشركين يوم بدر - ﴿جَحْتُهُمْ دَاخِضَةً﴾: باطلة - وسمّاها حجة - وإن كانت شبهة - لزعمهم أنها حجة - ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

١٧- ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، أي: ملتبساً به ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والعدل والسوية. ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزل. وقيل: هو عين الميزان، أنزله في زمن نوح - عليه السلام - ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: لعل الساعة قريب منك وأنت لا تدري. والمراد: مجيء الساعة. والساعة في تأويل البعث. ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان: أن الساعة يوم الحساب، ووضع الموازين بالقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل، والتسوية، والعمل بالشرائع، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

١٨- ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون، وجلون لهولها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ - المماراة: الملاجة؛ لأن كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه - ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق؛ لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله تعالى. وقد دلّ الكتاب والسنة على وقوعها، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ
الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ

١٩- ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ في إيصال المنافع، وصرف البلاء من وجهٍ يلطف إداركه. أو: برّ بليغ البرّ بهم، قد توصل برّه إلى جميعهم. وقيل: من لطف بالغوامض علمه، وعظم عن الجرائم حلمه. أو: من ينشر المناقب، ويستر المثالب. أو: من يعفو عمّن يهفو. أو: يعطي العبد فوق الكفاية، ويكلفه الطاعة دون الطاقة، وعن الجنيد - رحمه الله -: لطف بأوليائه فعرفوه، ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته فيه. في الحديث: «إِنَّ من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلّا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك. وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلّا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»^(١) ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغْلَب.

٢٠- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ سُمِّيَ ما يعملُه العاملُ ممّا يتغي به الفائدة حرثاً مجازاً ﴿نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ﴾ بالتوفيق في عمله، أو: التضعيف في حسناته، أو: بأن ينال به الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ أي: مَنْ كان عمله للدنيا، ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ شيئاً ﴿مِنْهَا﴾ - لأنّ من للتبعيض - وهو رزقه الذي قُسم له، لا ما يريده، ويتغيه ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ وماله نصيب قطّ في الآخرة. ولم يذكر في عوامل الآخرة أنّ رزقه المقسوم يصل إليه للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله، وفوزه في المآب.

٢١- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ قيل: هي «أم» المنقطعة، وتقديره: بل ألهم شركاء، وقيل: هي المعادلة لألف الاستفهام. وفي الكلام إضمار، تقديره: أيقبلون ما شرع الله من الدين ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ ألهة ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾

وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى
الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ

أي: لم يأمر به ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي: القضاء السابق بتأجيل الجزاء أو:
ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين
والمؤمنين، أو: لعجلت لهم العقوبة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأن
المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة، وإن أخر عنهم في دار الدنيا.

٢٢- ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ المشركين في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا
كَسَبُوا﴾ من جزاء كفرهم ﴿وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ نازل بهم لا محالة، أشفقوا أو
لم يشفقوا ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ كأن روضة
جنة المؤمن أطيب بقعة فيها، وأنزهها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ نصب بالظرف
لا بـ ﴿يَشَاءُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ على العمل القليل.

٢٣- ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الفضل الكبير ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ ﴿يُبَشِّرُ﴾: مكي، وأبو
عمرو، وحمة، وعلي ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: به، فحذف الجار،
كقوله: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثم حذف الراجع إلى
الموصول، كقوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]. ولما قال
المشركون: أيتنغي محمد على تبليغ الرسالة أجراً؟ نزل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على
التبليغ ﴿أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾. يجوز أن يكون استثناء متصل، أي: لا أسألكم
عليه أجراً إلا هذا، وهو: أن تودوا أهل قرابتي. ويجوز أن يكون منقطعاً،
أي: لا أسألكم عليه أجراً قط، ولكني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم
قرابتكم ولا تؤذوهم. ولم يقل إلا مودة القربى، أو: المودة للقربى؛ لأنهم
جعلوا مكاناً للمودة، ومقرراً لها، كقولك: لي في آل فلان مودة، ولي فيهم حب
شديد، تريد: أحبهم، وهم مكان حبي ومحله. وليست ﴿في﴾ بصلة للمودة
كاللام، إذا قلت: إلا المودة للقربى، إنما هي متعلقة بمحذوف، تعلق الظرف

وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ

به، في قولك: المال في الكيس. وتقديره: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ ثابتة ﴿في القربى﴾ و متمكنة فيها. والقربى مصدر، كالزلفى، والبشرى، بمعنى القرابة. والمراد: ﴿في﴾ أهل ﴿القربى﴾. وروي: أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله! من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي، وفاطمة، وابناهما - رضي الله عنهم - وقيل: معناه: إلا أن تؤذوني لقرابتي فيكم، ولا تؤذوني، ولا تهيجا علي، إذ لم يكن من بطون قريش إلا بين رسول الله وبينهم قرابة. وقيل: القربى: التقرب إلى الله تعالى، أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة، والعمل الصالح ﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً﴾ يكتسب طاعة. عن السدي - رحمه الله -: أنها المودة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه - ومودته فيهم. والظاهر: العموم في أي حسنة كانت، إلا أنها تتناول المودة تناولاً أولياً لذكرها عقيب ذكر المودة في القربى ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نضاعفها، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقرئ (حسنى) وهو مصدر كالبشرى، والضمير يعود إلى الحسنة، أو: إلى الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنب بطلوه ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بفضل. وقيل: قابل للتوبة، حامل عليها. وقيل: الشكور في صفة الله تعالى عبارة عن الاعتداد بالطاعة، وتوفية ثوبها، والتفضل على المثاب.

٢٤ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ «أم» منقطعة، ومعنى الهمزة فيه التوبيخ، كأنه قيل: أيتما لكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم القرى، وأفحشها؟ ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ قال مجاهد: أي: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، وعلى قولهم: افترى على الله كذباً؛ لئلا تدخله مشقة بتكذيبهم ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ أي: الشرك، وهو كلام مبتدأ غير معطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ لأن محو الباطل غير مُعَلَّقٍ بالشرط، بل هو وعد مطلق، دليله: تكرار اسم الله، ورفْعُ ﴿وَيُحْيِي﴾. وإنما سقطت الواو في الخط كما سقطت في ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١] و﴿سَنَنْعُ الزَّيَّاتَةَ﴾ [العلق: ١٨] على أنها مثبتة في مصحف نافع ﴿وَيُحْيِي الْحَقَّ﴾ ويظهر الإسلام، ويثبت ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾

إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا ﴿٢٥﴾ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

بما أنزل من كتابه على لسان نبيه ﷺ. وقد فعل الله ذلك، فمحا باطلهم، وأظهر الإسلام ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: ﴿عليهم﴾ بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك.

٢٥- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ يقال: قبلت منه الشيء: إذا أخذته منه، وجعلته مبدأ قبولي. ويقال: قبلته عنه، أي: عزلته عنه، وأبنته عنه. والتوبة: أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما، والعزم على ألا يعود، وإن كان لعبد فيه حق لم يكن بد من التفصي على طريقه. وقال علي رضي الله عنه -: هو اسم يقع على ستة معان؛ على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذابة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. وعن السدي: هو صدق العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب. وعن غيره: هو ألا يجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره. وعن سهل - رحمه الله -: هو الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وعن الجنيد - رحمه الله -: هو الإعراض عما دون الله ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ هو ما دون الشرك، يعفو لمن يشاء بلا توبة ﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا﴾ بالتاء: كوفي غير أبي بكر، أي: من التوبة، والمعصية. ولا وقف عليه للعطف عليه، واتصال المعنى.

٢٦- ﴿وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: إذا دعوهم استجاب دعاءهم، وأعطاهم ما طلبوا، وزادهم على مطلوبهم. واستجاب وأجاب بمعنى. والسين في مثله لتوكيد الفعل، كقولك: تعظم، واستعظم. والتقدير: ويجيب الله الذين آمنوا، وقيل: معناه: ويستجيب للذين، فحذف اللام. من عليهم بأن يقبل توبتهم إذا تابوا، ويعفو عن سيئاتهم، ويستجيب لهم إذا دعوهم، ويزيدهم على ما سألوا. وعن إبراهيم بن أدهم: أنه قيل له:

وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ

ما بالناس ندعوه فلا نجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

٢٧- ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: لو أغناهم جميعاً ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ من البغي: الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة^(١). وكفى بحال فرعون عبدة. أو: من البغي، وهو: الكبر، أي: لتكبروا في الأرض ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ﴾ وبالتخفيف: مكّي، وأبو عمرو ﴿يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ﴾ بتقدير. يقال: قدره، قدرأ، وقدرأ ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعلم أحوالهم فيقدر لهم ما تقتضيه حكمته، فيفقر ويغني، ويمنع، ويعطي، ويقبض، ويسبط، ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم لهلكوا. وما ترى من البسط على من يبغي، ومن البغي بدون البسط، فهو قليل. ولا شك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب.

٢٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ بالتشديد: مدني، وشامي، وعاصم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ وقرئ ﴿قَنَطُوا﴾ ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: بركات الغيث، ومنافعه، وما يحصل به من الخصب. وقيل لعمر - رضي الله عنه -: اشتد القحط، وقنط الناس! فقال: مُطِرُوا إذا. أراد هذه الآية. أو أراد رحمته في كل شيء ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

٢٩- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من علامات قدرته ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع عظمهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فزق و﴿مَا﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً حملاً على المضاف، أو: المضاف إليه ﴿فِيهِمَا﴾ في السموات والأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ الدواب تكون في الأرض وحدها، لكن يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان

(١) «مأشرة»: الأشر: البطر، وهو قلة احتمال النعمة، والطغيان بها، وشدة المَرَح.

وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ

ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد، وإنما هو في فخذ^(١) من
أفخاذهم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما
يخرج من الملح. ولا يبعد أن يخلق في السموات حيواناً يمشون فيها مشي
الأناسي على الأرض، أو: يكون للملائكة مشي مع الطيران، فوصفوا بالذئيب
كما وصف به الأناسي ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾. إذا تدخل
على المضارع كما تدخل على الماضي، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَفْتُنِي﴾ [الليل: ١].

٣٠- ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ﴾ ومكروه ﴿فِيمَا كَسَبَتْ﴾
أَيْدِيكُمْ أي: بجناية كسبتموها عقوبة عليه (بما كسبت) مدني، وشامي، على
أن ﴿ما﴾ مبتدأ و﴿بما كسبت﴾ خبره من غير تضمين معنى الشرط، ومن أثبت
الفاء فعلى تضمين معنى الشرط. وتعلق بهذه الآية من يقول بالتناسخ، وقال:
لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألموا. وقلنا: الآية
مخصوصة بالملكفين بالسباق والسياق، وهو ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من
الذنوب، فلا يُعاقب عليه، أو: عن كثير من الناس، فلا يعاجلهم بالعقوبة.
وقال ابن عطاء - رحمه الله -: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب
باكتسابه، وأن ما عفا عنه مولاه أكثر، كان قليل النظر في إحسان ربه إليه.

وقال محمد بن حامد: العبد ملازم للجنايات في كل أوان، وجناياته في
طاعته أكثر من جنایاته في معاصيه؛ لأن جناية المعصية من وجه، وجناية الطاعة
من وجوه، والله يُطهّر عبده من جنایاته بأنواع المصائب ليخفف عنه أثقاله
في القيامة، ولولا عفو ورحمته لهلك في أول خطوة.

وعن علي - رضي الله تعالى عنه -: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن، لأن
الكریم إذا عاقب مرة لا يُعاقب ثانياً، وإذا عفا لا يعود.

٣١- ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ بفاتتين ما قضيَ عليكم من المصائب

(١) «فخذ»: العشائر أقلها فخذ، وفوقه البطن، ثم العمارة، ثم الفصيلة، ثم القبيلة، ثم
الشعب، وهو أكثرها.

وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ يَسَاءَ يَسْكُنِ الْرِيحَ فَيُظِلِّلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَنَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ متولٍ بالرحمة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يدفع عنكم العذاب إذا حل بكم.

٣٢- ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ جمع جارية، وهي: السفينة ﴿الجواري﴾ في الحالين: مكّي، وسهل، ويعقوب. وافقهم مدني، وأبو عمرو في الوصل ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال.

٣٣- ﴿إِنَّ يَسَاءَ يَسْكُنِ الْرِيحَ﴾ (الرياح): مدني ﴿فَيُظِلِّلَنَّ رَوَاكِدَ﴾ ثوابت لا تحجري ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، أي: لكل مؤمن مخلص. فالإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر. أو: ﴿صَبَّارٍ﴾ على طاعته ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمته.

٣٤- ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ﴾ يهلكهن، وهو عطف على ﴿يَسْكُنِ﴾ والمعنى: ﴿إِنْ يَسَاءَ يَسْكُنِ الْرِيحَ﴾ فيركدن، أو: يعصفها فيغرقن بعصفها ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ منها فلا يجازي عليها. وإنما أدخل العفو في حكم الإيباق، حيث جزم جزمه؛ لأن المعنى: أو إن يَسَاءَ يهلك ناساً، وينج ناساً على طريق العفو عنهم.

٣٥- ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنصب، عطف على تعليل محذوف، تقديره: لينتقم منهم ﴿وَيَعْلَمَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: في إبطالها ودفعها ﴿وَيَعْلَمَ﴾: مدني، وشامي على الاستئناف ﴿مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من عذابه.

٣٦- ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَنَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأولى ضمنت معنى الشرط، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حين تصدق بجميع ماله، فلامه الناس.

وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

٣٧- ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ﴾ عطف على الذين آمنوا، وكذا ما بعده ﴿كَثِيرَ الْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر من هذا الجنس. (كبير الإثم): علي، وحمة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كبير الإثم هو الشرك ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ قيل: ما عظم قبحه فهو فاحشة كالزنى ﴿وَالْإِثْمَ﴾ من أمور دنياهم ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب. والمجيء بـ ﴿هُمْ﴾ وإيقاعه مبتدأ، وإسناد ﴿يَغْفِرُونَ﴾ إليه: لهذه الفائدة. ومثله: ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عز وجل للإيمان به، وطاعته، فاستجابوا له بأن آمنوا به، وأطاعوه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وأتموا الصلوات الخمس ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شورى، يعني: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه. وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هُتدوا لأرشد أمورهم. والشورى مصدر، كالفيتا بمعنى التشاور ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون.

٣٩- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ الظلم ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ينتقمون ممن ظلمهم، أي: يقتصرون في الانتصار على ما جعله الله تعالى لهم، ولا يعتدون. وكانوا يكرهون أن يذللوا أنفسهم فيجترء عليهم الفساق، وإنما حمدوا على الانتصار؛ لأن من انتصر، وأخذ حقه، ولم يجاوز في ذلك حد الله، فلم يسرف في القتل إن كان وليّ دم، فهو مطيع لله، وكلّ مطيع محمود.

٤٠- ثم بين حد الانتصار، فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ فالأولى سيئة حقيقة، والثانية لا، وإنما سميت سيئة؛ لأنها مجازاة السوء، أو: لأنها تسوء من تنزل به، ولأنه لو لم تكن الأولى لكانت الثانية سيئة لأنها إضرار، وإنما صارت حسنة لغيرها، أو: في تسمية الثانية سيئة إشارة إلى أن العفو مندوب إليه. والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو، والإغضاء ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عِدَّةٌ مبهمه لا يقاس

إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٤﴾

أمرها في العظم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يدؤون بالظلم، أو: الذين يجاوزون حد الانتصار. في الحديث: «ينادي مناد يوم القيامة من كان له أجر على الله فليقم، فلا يقوم إلا من عفا»^(١).

٤١ - ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: أخذ حقه بعد ما ظلم - على إضافة المصدر إلى المفعول - ﴿فَأُولَئِكَ﴾ - إشارة إلى معنى ﴿من﴾ دون لفظه - ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعائب.

٤٢ - ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يتدثرونهم بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يتكبرون فيها، ويعلون، ويفسدون ﴿يَغْيِرُ الْحَقُّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وفسر السبيل بالتبعة، والحجة.

٤٣ - ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ﴾ على الظلم، والأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: الصبر، والغفران منه ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي ندب إليها، أو: مما ينبغي أن يوجهه العاقل على نفسه، ولا يترخص في تركه. وحذف الراجع - أي: منه - لأنه مفهوم، كما حذف من قولهم: السمن منوان بدرهم. وقال أبو سعيد القرشي: الصبر على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروه يصيبه، ولم يجزع، أورثه الله تعالى حال الرضا، وهو أجل الأحوال، ومن جزع من المصيبات، وشكا وكله الله تعالى إلى نفسه، ثم لم تنفعه شكواه.

٤٤ - ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فما له من أحد يلي هدايته من بعد إضلال الله إياه، ويمنعه من عذابه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يوم القيامة ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ حين يرون العذاب - واختير لفظ الماضي للتحقيق - ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا به.

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٤٧ - ٤٤٨).

وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَنْبِذْ ﴿٤٦﴾ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاءُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً

٤٥ - ﴿وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار؛ إذ العذاب يدل عليها ﴿خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ متضائلين، متقاصرين مما يلحقهم من الذل ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى النار ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضعيف بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ «يوم» متعلق بخسروا - وقول المؤمنين واقع في الدنيا - أو: بـ ﴿قال﴾، أي: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم.

٤٦ - ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من دون عذابه ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَنْبِذْ﴾ إلى النجاة.

٤٧ - ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أي: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يتصل بـ ﴿لا مرد﴾، أي: لا يرده الله بعد ما حكم به، أو: بـ ﴿يأتي﴾، أي: ﴿من قبل أن يأتي﴾ من الله يوم لا يقدر أحد على رده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم مخلص من العذاب، ولا تقدر أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه، ودون في صحائف أعمالكم. والنكير: الإنكار.

٤٨ - ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رقيباً ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاءُ﴾ ما عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد فعلت ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ المراد: الجمع ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة، وسعة، وأمناً، وصحة ﴿فَرَحَ بِهَا﴾ بطر لأجلها ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً﴾ بلاء كالمرض، والفقر، ونحوهما - وتوحيد ﴿فرح﴾

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَزُوجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا

باعتبار اللفظ، والجمع في ﴿وإن تصبهم﴾ باعتبار المعنى - ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب معاصيهم ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾. ولم يقل: فإنه كفور؛ ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، كما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. والكفور: البليغ الكفران. والمعنى: أنه يذكر البلاء، وينسى النعم، وَيَغْمُطُهَا. قيل: أريد به كفران النعمة. وقيل: أريد به الكفر بالله تعالى.

٤٩، ٥٠ - ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَزُوجُهُمْ﴾ أي: يقرنهم ﴿ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾. لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة، وإصابته بضدها، أتبع ذلك: أن له تعالى الملك، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء، فيخصّ بعضاً بالإناث، وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويجعل البعض عقيماً. والعقيم: التي لا تلد. وكذلك رجل عقيم؛ إذا كان لا يولد له. وقدم الإناث أولاً على الذكور، لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم. ويلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاءً ذكر البلاء. ولما أخرج الذكور - وهم أحقاء بالتقديم - تدارك تأخيرهم لتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشهير. ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر، فقال: ﴿ذَكَرًا وَإِنثًا﴾. وقيل: نزلت في الأنبياء - عليهم السلام - حيث وهب للوط وشعيب إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، ولمحمد ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عليهما السلام عقيمين ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على كل شيء.

٥١ - ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾

أَوْ مِّنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ

أي: إلهاماً - كما روي: «نفث في روعي»^(١)، أو: رؤيا في المنام؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «رؤيا الأنبياء وحي»^(٢). وهو كأمير إبراهيم - عليه السلام - بذبح الولد - ﴿أَوْ مِّنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ أي: يسمع كلاماً من الله، كما سمع موسى - عليه السلام - من غير أن يبصر السامع من يكلمه. وليس المراد به حجاب الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يجوزُ عليه ما يجوزُ على الأجسام من الحجاب، ولكن المراد به: أن السامع محجوبٌ عن الرؤية في الدنيا ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: يرسل ملكاً ﴿فَيُوحِيَ﴾ الملك إليه. وقيل: ﴿وحيّاً﴾ كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿أو يرسل رسولاً﴾ أي: نبياً، كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم. و﴿وحيّاً﴾ و«أن يرسل» مصدران واقعان موقع الحال؛ لأن أن يرسل في معنى إرسالاً. و﴿من وراء حجاب﴾ ظرف واقع موقع الحال؛ كقوله ﴿وَعَلَىٰ جُثُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. والتقدير وما صحَّ أن يكلم أحداً إلا موحياً، أو مسمعاً من وراء حجاب، أو: مرسلأ. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا﴾ بأن يوحى، أو: أن يُسمعَ من وراء حجاب، أو: أن يُرسلَ رسولاً، وهو اختيار الخليل. ﴿أو يرسل رسولاً فيوحي﴾ بالرفع: نافع، على تقدير ﴿أو﴾ هو ﴿يرسل رسولاً فيوحي﴾ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ إذن الله ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من الوحي ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ﴾ قاهر، فلا يمانع ﴿حَكِيمٌ﴾ مصيب في أقواله، وأفعاله، فلا يعارض.

٥٢- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أوحينا إلى الرسل قبلك، أو: كما وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إيحاءً كذلك ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يريد: ما أوحى إليه؛ لأن الخلق يحيون به في دينهم، كما يحيا الجسد بالروح. ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ - الجملة حال من الكاف في ﴿إليك﴾ - ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ القرآن ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: شرائعه، ﴿ولا الإيمان﴾ بالكتاب؛ لأنه إذا كان لا يعلم بأن الكتاب ينزلُ عليه لم يكن عالماً بذلك الكتاب. وقيل: الإيمان يتناولُ أشياء؛ بعضها الطريق إليه العقل،

(١) رواه أحمد (٥٠/٣).

(٢) رواه البخاري (٨٥٩).

وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾
 صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل، وذلك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب ﴿نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ لتدعو - وقرىء به - ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الإسلام.

٥٣ - ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ - بدل - ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً ومُلكاً ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ هو وعيد بالبحيم، ووعد بالنعيم.

* * *

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ۝ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَلْفِ ۝ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ

١-٣- ﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أقسم بالكتاب المبين، وهو القرآن، وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ جواباً للقسم. وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه. والمبين: البين للذين أنزل عليهم؛ لأنه بلغتهم وأساليبهم، أو: الواضح للمتدبرين، أو: الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة، وأبان كل ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه.

٤- ﴿وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَلْفِ ۝ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ وإن القرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ، دليله قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢] وسُمِّي أم الكتاب؛ لأنه الأصل الذي أثبت فيه الكتب، منه تنقل وتستنسخ. ﴿أم الكتاب﴾ بكسر الألف: عليّ وحمزة ﴿لَعَلِّي﴾ خبر إن، أي: في أعلى طبقات البلاغة، أو: رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزاً من بينها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة.

٥- ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ﴾ ﴿أ﴾ فننحي عنكم الذكر، ونذوده عنكم.

صَفْحًا ۖ أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا

على سبيل المجاز، من قولهم: ضرب الغرائب^(١) عن الحوض. والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنهم لكم ﴿فَنضرب عنكم الذكر﴾ إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب، وجعله قرآناً عربياً ليعقلوه، وليعملوا بمواجهه ﴿صَفْحًا﴾ مصدر، من: صفح عنه؛ إذا أعرض، متتصب على أنه مفعول له، على معنى: أفغزل عنكم إنزال القرآن، وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم. ويجوز أن يكون مصدراً على خلاف الصدر؛ لأنه يقال: ضربت عنه؛ أي: أعرضت. كذا قاله الفراء ﴿أَن كُنْتُمْ﴾ لأن كنتم ﴿إِنْ كنتم﴾: مدني، وحزة، وعليّ. وهو من الشرط الذي يصدر عن المدلّ بصحة الأمر المتحقق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملتُ لك فوفني حقّي، وهو عالم بذلك ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ مفرطين في الجهالة، مجاوزين الحدّ في الضلالة.

٦- ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أي: كثيراً من الرسل أرسلنا إلى من تقدّمك.

٧- ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هي حكاية حال ماضية مستمرة، أي: كانوا على ذلك. وهذه تسليّة لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

٨- ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ تمييز. والضمير للمسرفين؛ لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصّتهم، وحالهم العجيبة التي حقّها أن تسير مسير المثل^(٢). وهذا وعد لرسول الله ﷺ، ووعد لهم.

٩، ١٠- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا - : كوفي.

(١) «الغرائب»: جمع غريبة، وهي الإبل الغريبة عن إبل صاحب الحوض.

(٢) في الأصل المخطوط: مثل المسير، والمثبت من الكشاف للزمخشري (٤٧٨/٣).

وَجَعَلْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لِّتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٥﴾

أي: موضع قرارٍ وغيره ﴿مهاداً﴾ أي: موضع قرار - ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقاتاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا في أسفاركم.

١١ - ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ بمقدار يسلم معه العباد، وتحتاج إليه البلاد ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾ فأحيينا - عدول من المغاية إلى الإخبار لعلم المراد بالمخاطب بالمراد ﴿بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ يزيد: ﴿مَيِّتًا﴾ ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء. ﴿تُخْرَجُونَ﴾: حمزة، وعلي. ولا وقف على ﴿العليم﴾ لأن ﴿الذي﴾ صفته. وقد وقف عليه أبو حاتم، على تقدير: هو ﴿الذي﴾؛ لأن هذه الأوصاف ليست من مقول الكفار؛ لأنهم ينكرون الإخراج من القبور، فكيف يقولون: ﴿كذلك تخرجون﴾؟ بل الآية حجة عليهم في إنكار البعث.

١٢ - ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: تركبونه. يقال: ركبوا في الفلك، وركبوا الأنعام، فَعَلَّبَ المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة، فقليل: تركبونه.

١٣ - ﴿لِّتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ على ظهور ما تركبونه، وهو: الفلك، والأنعام ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا﴾ بألسنتكم ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ذل هذا المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين. يقال: أقرن الشيء: إذا أطاقه. وحقيقة أقرنه: وجده قرينته؛ لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف.

١٤ - ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ لراجعون قيل: يذكرون عند ركوبهم مركب الدنيا آخر مركبهم منها، وهو: الجنابة. وعن النبي ﷺ: «أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا﴾ إلى قوله ﴿لمنقلبون﴾ وكبر ثلاثاً، وهلل

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

ثلاثاً^(١). وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: ﴿يَسِّرِ اللَّهُ بَحِيرَهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَمَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

وحكي: أَنَّ قوماً ركبوا، وقالوا ﴿سبحان الذي سَخَّرَ لنا...﴾ الآية، وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هزاً، فقال: إِنِّي مقرن لهذه، فسقط منها لوثتها، واندقت عنقه.

وينبغي ألا يكون ركوبُ العاقل للتنزه والتلذذ، بل للاعتبار، ويتأمل عنده أنه هالك لا محالة، ومنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه.

١٥- ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ﴿و﴾ قد ﴿جعلوا له﴾ مع ذلك الاعتراف ﴿من عباده جزءاً﴾ أي: قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له، وبعضاً منه، كما يكون الولد جزءاً لوالده. ﴿جُزْؤاً﴾: أبو بكر، وحماد ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ لجحود للنعمة، ظاهر جحوده؛ لأن نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله.

١٦- ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ أي: بل أتخذ. والهمزة للإنكار تهجيلاً لهم، وتعجيباً من شأنهم، حيث ادّعوا أنه اختار لنفسه المنزلة الأدنى، ولهم الأعلى.

١٧- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً، أي: شبيهاً - لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً لله، وبعضاً منه، فقد جعله من جنسه، ومماثلاً له؛ لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد - ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس، ومن حالهم: أَنَّ أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت، اغتم، واربد وجهه غيظاً^(٢) وتأسفاً، وهو مملوء من

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٢) والترمذي (٣٤٤٦).

(٢) أي: تغير إلى الغيرة من الغضب.

أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ

الكر. والظلول: بمعنى الصيرورة.

١٨ - ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: ﴿أو﴾ يُجْعَلُ للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته، وهو أنه ﴿ينشأ في الحلية﴾ أي: يترتب في الزينة، والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم^(١)، ومجاراة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان؛ وذلك لضعف عقولهم^(٢). قال مقاتل - رحمه الله -: لا تتكلم المرأة إلا وتأتي بالحجة عليها. وفيه أنه جعل النشأ في الزينة من المعايب، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك، ويتزين بلباس التقوى. و﴿من﴾ منصوب المحل. والمعنى: ﴿أو﴾ جعلوا ﴿من ينشأ في الحلية﴾ - يعني: البنات - لله عز وجل ﴿ينشأ﴾: حمزة، وعلي، وحفص، أي: يربى. قد جمعوا في كفر ثلاث كفرات، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخس النوعين، وجعلوه من الملائكة المكرمين، فاستخفوا بهم.

١٩ - ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ أي: سموا، وقالوا: إنهم إناث ﴿عند الرحمن﴾: مكّي، ومدني، وشامي، أي: عندي منزلة ومكانة، لا منزل ومكان، والعباد جمع: عبد. وهو ألزم في الحجاج مع أهل العناد، لتضاد بين العبودية والولاد ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ وهذا تهكم بهم، يعني: أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، ولم يشاهدوا خلقهم حتى يخبروا عن المشاهدة ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها. وهذا وعيد.

٢٠ - ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: الملائكة. تعلقت المعتزلة بظاهر هذه الآية في أن الله تعالى لم يشأ الكفر من الكافر، وإنما شاء الإيمان، فإن

(١) «مجاثاة الخصوم»: جثا: برك على ركبته.

(٢) في الأصل المخطوط: «عقولهم».

مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ أَلَيْسَتْكُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهَمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢٢﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا

الكفار ادعوا: أَنَّ الله شاء منهم الكفر، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام، حيث ﴿قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ أي: لو شاء منا أن نترك عبادة الأصنام لمنعنا عن عبادتها، ولكن شاء منا عبادة الأصنام. والله تعالى ردّ عليهم قولهم، واعتقادهم بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ المقول ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون. ومعنى الآية عندنا: أنهم أرادوا بالمشيئة: الرضا. وقالوا: لو لم يرض بذلك لعجل عقوبتنا، أو: لمنعنا عن عبادتها منع قهر، واضطرار، وإذ لم يفعل فقد رضي بذلك، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ما لهم بذلك من علم...﴾ الآية. أو: قالوا هذا القول استهزاء لا جدّاً واعتقاداً، فأكذبهم الله تعالى فيه، وجهلهم حيث لم يقولوا عن اعتقاد، كما قال مخبراً عنهم: ﴿أَنْظِعُمْ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعْتُمْ﴾ [يس: ٤٧] وهذا حق في الأصل، ولكن لما قالوا ذلك استهزاء، كذبهم الله بقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] وكذلك قال الله تعالى: ﴿قَالُوا فَشَاهِدْ إِنَّكَ لَمُرْسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] لأنهم لم يقولوه عن اعتقاد، وجعلوا المشيئة حجة لهم فيما فعلوا باختيارهم، وظنوا أن الله لا يعاقبهم على شيء فعلوه بمشيئته، وجعلوا أنفسهم معذورين في ذلك، فردّ الله تعالى عليهم.

٢٢، ٢١- ﴿أَمْ أَلَيْسَتْكُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن، أو: من قبل قولهم هذا ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ آخذون، عاملون. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: ﴿أشهدوا﴾ خلقهم أم أتيناهم كتاباً، فيه: أن الملائكة إناث؟! ﴿بَلْ قَالُوا﴾ بل لا حجة لهم يتمسكون بها، لا من حيث العيان، ولا من حيث العقل، ولا من حيث السنع إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ على دين، فقلدناهم، وهي من الأم، وهو القصد. فالأمة: الطريقة التي تؤم، أي: تقصد ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الظرف صلة لمهتدون، أو: هما خبران.

٢٣- ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ نبي ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي:

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰؤِ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَإِن نَّقِمْنَا مِنْهُمُ فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا
تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ

منتعموها، وهم: الذين أترفهم النعمة، أي: أبطرتهم، فلا يحبون إلا الشهوات،
والملاهي، ويعافون مشاق الدين، وتكاليفه ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ
مُقْتَدُونَ﴾ وهذه تسلية للنبي ﷺ وبيان: أن تقليد الآباء داء قديم.

٢٤- ﴿قُلْ﴾: شامي، وحفص، أي: النذير. (قل) غيرهما، أي: قيل
للنذير: قل ﴿أُولَٰؤِ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: أتتبعون آباءكم، ولو
جنتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟! ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ثابتون على
دين آبائنا، وإن جئنا بما هو أهدى، وأهدى.

٢٥- ﴿فَإِن نَّقِمْنَا مِنْهُمُ﴾ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم ﴿فَإِنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢٦- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ أي: اذكر إذ قال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ أي:
بريء - وهو مصدر يستوي فيه الواحد والاثان والجمع، والمذكر والمؤنث، كما
تقول: رجل عدل، وامرأة عدل، وقوم عدل، والمعنى: ذو عدل، وذات
عدل - ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

٢٧- ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذي فطرني ﴿فَإِنَّهُ
سَيَهْدِينِ﴾ يثبتني على الهداية.

٢٨- ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم - عليه السلام - كلمة التوحيد التي تكلم بها
- وهي قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ إلا الذي فطرني ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي
عَقِبِهِ﴾ في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله، ويدعو إلى توحيده ﴿لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾ لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم. والترجي لإبراهيم
- عليه السلام -

٢٩- ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعني: أهل مكة، وهم من عقب إبراهيم

حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحِمْتُ رَجُلًا خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

- عليه السلام - بالمد في العمر، والنعمة، فاغترّوا بالمهلة، وشغلوا بالنعم، واتباع الشهوات، وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ﴾ أي: محمد عليه الصلاة والسلام ﴿مُبِينٌ﴾ واضح الرسالة بما معه من الآيات البينة.

٣٠- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

٣١- ﴿وَقَالُوا﴾ متحكمين بالباطل: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ - فيه استهانة به - ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: على رجل عظيم من إحدى القريتين، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدهما. والقريتان: مكة والطائف. وعنوا بعظيم مكة: الوليد بن المغيرة، وبعظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفي. وأرادوا بالعظيم: مَنْ كان ذا مال، وجاه، ولم يعرفوا: أَنَّ العظيم مَنْ كان عند الله عظيماً.

٣٢- ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: النبوة. والهمزة للإنكار المستقل بالتجھيل والتعجيب من تحكّمهم في اختيار مَنْ يصلح للنبوة. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ﴾ ما يعيشون به، وهو أرزاقهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: لم نجعل قسمة الأودن إليهم، وهو الرزق، فكيف النبوة؟ أو: كما فضّلت البعض على البعض في الرزق، فكذا أخصّ بالنبوة من أشاء ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالي، والبعض ضعفاء وفقراء وخداماء ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْخِيًّا﴾ ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مهنتهم، ويسخروهم في أشغالهم، حتّى يتعاشوا، ويصلوا إلى منافعهم، هذا بماله، وهذا بأعماله ﴿وَرَحِمْتُ رَجُلًا﴾ أي: النبوة، أو: دين الله، وما يتبعه من الفوز في المآب ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا.

٣٣- ولما قلل أمر الدنيا، وصغرها أردفه ما يقرّر قلة الدنيا عنده، فقال:

وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُئْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ
 فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِيُؤْتِيَهُمْ آتُونًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾
 وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾
 وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولولا كراهة^(١) أن يجتمعوا على الكفر،
 ويطبقوا عليه ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُئْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ
 فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

٣٥، ٣٤- ﴿وَلِيُؤْتِيَهُمْ آتُونًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ ☆ ﴿وَزُخْرَفًا﴾ أي: لجعلنا للكفار
 سقوفاً، ومصاعد، وأبواباً، وسرراً، كلها من فضة، وجعلنا لهم زخرفاً، أي:
 زينة من كل شيء. والزخرف: الذهب، والزينة. ويجوز أن يكون الأصل:
 سقفاً من فضة وزخرف، أي: بعضها من فضة، وبعضها من ذهب، فنصب
 عطفاً على محلٍّ من فضة. ﴿ليؤتيهم﴾ بدل اشتغال من ﴿لمن يكفر﴾. ﴿سُقْفًا﴾
 على الجنس: مكّي، وأبو عمرو، ويزيد. والمعارج: جمع معرج، وهي: المصاعد
 إلى العلالي. ﴿عليها يظهرون﴾ على المعارج ﴿يظهرون﴾ السطوح، أي: يعلونها
 ﴿وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿إِنَّ﴾ نافية، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلّا، أي:
 وما ﴿كل ذلك﴾ إلّا ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. وقد قرئ به. وقرأ ﴿لَمَّا﴾ غير
 عاصم، وحزة، على أن اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية. و﴿ما﴾
 صلة، أي: إنّ كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أي: ثواب الآخرة
 ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لمن يتقي الشرك.

٣٦- ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ وقرئ ﴿ومن يعش﴾. والفرق بينهما: أنه إذا حصلت
 الآفة في بصره، قيل: عشي يعشى. وإذا نظر نظر العُشي ولا آفة به، قيل:
 عشا^(٢). ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وهو القرآن،
 كقوله: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِي﴾ [البقرة: ١٨] ومعنى القراءة بالضم: ومن يتعام عن
 ذكره، أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل، كقوله: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا﴾

(١) من المطبوع.

(٢) مضارعه: يعشو.

نُقِضَ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسُ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

أَنْفُسُهُمْ ﴿النمل: ١٤﴾ ﴿نُقِضَ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: نسلطه عليه، فهو معه في الدنيا والآخرة، يحملُه على المعاصي، وفيه إشارة إلى أن مَنْ دأوم عليه لم يقرنه الشيطان.

٣٧- ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ ليمنعون العاشين ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن سبيل الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشون ﴿أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾. وإنما جمع ضمير ﴿مَنْ﴾ وضمير الشيطان؛ لأنَّ ﴿مَنْ﴾ مبهم في جنس العاشي، وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه، فجاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا.

٣٨- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ - على الواحد: عراقي في غير أبي بكر، أي: العاشي. (جاءنا) غيرهم. أي: العاشي، وقرينه - ﴿قَالَ﴾ لشيطان: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يريد المشرق والمغرب، فغلب، كما قيل: العُمران، والقُمران. والمراد: بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق ﴿فَيَلْسُ الْقَرِينُ﴾ أنت.

٣٩- ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ إذ صحَّ ظلمكم، أي: كفركم، وتبين، ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين - و﴿إِذْ﴾ بدل من اليوم - ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾. ﴿أَنَّكُمْ﴾ في محل الرفع على الفاعلية، أي: ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب، أو: كونكم مشتركين في العذاب، كما كان عموم البلوى يُطَيَّبُ القلب في الدنيا، كقول الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ولا يكون مثل أخي ولكن أعزِّي النفس عنه بالتأسي

أما هؤلاء فلا يؤسّيهم اشتراكهم، ولا يروّحهم لعظم ما هم فيه. وقيل: الفاعل مضمّر، أي: ولن ينفعكم هذا التمتي، أو: الاعتذار لـ ﴿أَنَّكُمْ﴾ في العذاب مشتركون ﴿لاشتراككم في سببه، وهو: الكفر. ويؤيده قراءة من قرأ: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بالكسر.

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

٤٠- ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أي: مَنْ فقد سمع العقول ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْى﴾ أي: مَنْ فقد البصائر ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ومن كان في علم الله أنه يموت على الضلالة.

٤١- ﴿فَإِنَّمَا﴾ - دخلت ﴿مَا﴾ على ﴿إِنْ﴾ تأكيداً للشرط، وكذا النون الثقيلة في ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ - نتوفينك قبل أن نصرك عليهم، ونسفي صدور المؤمنين منهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ أشد الانتقام في الآخرة.

٤٢- ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾ قبل أن نتوفينك - يعني: يوم بدر - ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قادرون. وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ...﴾ الآية. ثم أوعدهم بعذاب الدنيا والآخرة بقوله: ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ...﴾ الآيتين.

٤٣- ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ فتمسك ﴿بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن، واعمل به ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على الدين الذي لا عوج له.

٤٤- ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن الذي أوحى إليك ﴿لَذِكْرٌ لَكَ﴾ لشرف لك ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ ولأمتك ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقه، وعن تعظيمكم له، وعن شكركم هذه النعمة.

٤٥- ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ ليس المراد بسؤال الرسل: حقيقة السؤال، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم، والفحص عن مللهم؛ هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز، المصدق لما بين يديه، وإخبار الله فيه بأنهم ﴿يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ [الحج: ٧١]. وهذه الآية

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ

في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها. وقيل: إنه ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء فأثمهم، وقيل له: سلهم، فلم يشكك، ولم يسأل. وقيل: معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين^(١). وإنما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء، ومعنى هذا السؤال التقرير لعبدة الأوثان أنهم على الباطل. ﴿وسل﴾ بلا همز: مكّي، وعليّ. ﴿رُسُلنا﴾: أبو عمرو.

٤٦- ثُمَّ سَلَّى رَسُولُهُ ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما أجابوه به عند قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ محذوف دلّ عليه قوله:

٤٧- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾. وهو مطالبتهم إياه بإحضار البيّنة على دعواه، وإبراز الآية. ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يسخرون منها، ويهزؤون بها، ويسمونها سحراً. و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة. وهو جواب ﴿فَلَمَّا﴾ لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو عامل النصب في محلّ ﴿إِذَا﴾ كأنه قيل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ فاجؤوا وقت ضحكهم.

٤٨- ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قرينتها، وصاحبها التي كانت قبلها في نقض العادة. وظاهر النظم يدلّ على أنّ اللاحقة أعظم من السابقة، وليس كذلك، بل: المراد بهذا الكلام: أنهم موصوفات بالكبر، ولا يكدن يتفاوتن فيه. وعليه كلام الناس، يقال: هما أخوان، كلّ واحد منهما أكرم من الآخر ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ - هو ما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] الآية - ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر إلى الإيمان.

٤٩- ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ﴾ كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لتعظيمهم

أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٢﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ

علم السحر ﴿يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ﴾ بضم الهاء بلا ألف: شامي، ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت لالتقاء الساكنين أتبعته حركتها حركة ما قبلها ﴿أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ بعهدك عندك من أن دعوتك مستجابة، أو: بعهدك عندك، وهو: النبوة. أو: ﴿بما عهد عندك﴾ من كشف العذاب عمن اهتدى ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ مؤمنون.

٥٠- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ينقضون العهد بالإيمان، ولا يفون به.

٥١- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ نادى بنفسه عظماء القبط، أو: أمر منادياً فنادى، كقولك: قطع الأمير اللص؛ إذا أمر بقطعه ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ جعلهم محلاً لندائه، وموقعاً له ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: أنهار النيل - ومعظمها أربعة - ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ من تحت قصري، وقيل: بين يدي في جناني، والواو عاطفة للأنهار على ﴿ملك مصر﴾. و﴿تجري﴾ نصب على الحال منها، أو: الواو للحال، واسم الإشارة مبتدأ، و﴿الأنهار﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿تجري﴾ خبر للمبتدأ. وعن الرشيد: أنه لما قرأها قال: لأوليئها أخس عبيدي، فولأها الخصيب، وكان خادمه على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر: أنه وليها، فخرج إليها، فلما شارفها، قال: أهى القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: ﴿أليس لي ملك مصر؟﴾ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها، فثنى عنانه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قوتي وضعف موسى، وغناي وفقره.

٥٢- ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ «أم» منقطعة بمعنى بل والهمزة، كأنه قال: أثبت عندكم، واستقر أني ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ - وهذه حالي - ﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥١﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٢﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اِنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٤﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا

حقير ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما كان به من الرتبة ^(١).

٥٣- ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاً ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾: حفص، ويعقوب، وسهل، جمع: سوار. غيرهم: (أساوره) جمع إسوار، وهو: السوار، حذف الياء من أساوير، وعوض منها التاء ﴿مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أراد بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوره سوار، وطوقوه بطوق من ذهب ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يمشون معه، يقرن بعضهم ببعض؛ ليكونوا أعضاده، وأنصاره.

٥٤- ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ﴾ استفزهم بالقول، واستزلهم، وعمل فيهم كلامه. وقيل: طلب منهم الخفة في الطاعة، وهي الإسراع إليها ﴿فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن دين الله.

٥٥- ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اِنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ آسف: منقول من آسف أسفاً: إذا اشتد غضبه. ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا، وانتقامنا، وألا نحلم عنهم.

٥٦- ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا﴾ جمع سالف، كخادم وخدم ﴿سُلَفًا﴾: حمزة، وعلي، جمع سليف، أي: فريق قد سلف ﴿وَمَثَلًا﴾ وحديثاً عجيب الشأن، سائراً مسير المثل، يضرب بهم الأمثال، ويقال: مثلكم مثل قوم فرعون ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ لمن يجيء بعدهم، ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم؛ لإتيانهم بمثل أفعالهم، ومثلاً يحذون به.

٥٧- ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ لما قرأ رسول الله ﷺ على قریش:

إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا
بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] غضبوا. فقال ابن الزبيري: يا محمد! أخاصة لنا ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم». فقال: ألسنت تزعم أن عيسى ابن مريم نبي، وتثني عليه خيراً وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما؟ وعزير يعبد. والملائكة يعبدون. فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم. ففرحوا، وضحكوا، وسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ...﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١] فترلت هذه الآية^(١). والمعنى: ﴿ولمّا﴾ ضرب ابن الزبيري عيسى ابن مريم مثلاً لآلهتهم، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً، وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجذله. ﴿يَصِدُّونَ﴾: مدني، وشامي، وعلي، والأعشى، من الصدود، أي: من أجل هذا المثل يصدون عن الحق، ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد، وهو الجلبة، وأنهما لغتان، نحو: يعكف، ويعكف. ٥٨- ﴿وَقَالُوا أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون: أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي: ما ضربوا هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب المنزلة بين الحق والباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لد، شداد الخصومة، دأبهم اللجاج، وذلك: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لم يرد به إلا الأصنام؛ لأن ما لغير العقلاء، إلا أن ابن الزبيري بخداعه لما رأى كلام الله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير، وجد للحيلة مساعاً، فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريق اللجاج، والجدال، وحب المغالبة، والمكابرة، وتوقع في ذلك، فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه.

(١) قال الحافظ: رواه الثعلبي والبغوي. (حاشية الكشف ٢/ ١٣٦).

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ
مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا
صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُمْ لَكُذَّبُونَ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى
بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾

٥٩- ﴿إِنْ هُوَ﴾ وما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العباد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة
﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل.

٦٠- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بدلاً منكم. كذا قاله
الزجاج. وقال في «جامع العلوم»: لجعلنا بدلکم. و﴿من﴾ بمعنى البدل
﴿يَخْلُقُونَ﴾ يخلقونكم في الأرض، أو: يخلق الملائكة بعضهم بعضاً. وقيل:
﴿ولو نشاء﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور ﴿لجعلنا منكم﴾ لولدنا منكم يا رجال
﴿ملائكة﴾ يخلقونكم في ﴿الأرض﴾ كما يخلقكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من
أنثى من غير فعل، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة أجسام
لا تتولد إلا من أجسام، والقديم متعال عن ذلك.

٦١- ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ وإن عيسى بما يعلم به مجيء الساعة. وقرأ ابن
عباس - رضي الله عنهما -: ﴿لَعَلَّمُ﴾ وهو العلامة، أي: وإن نزوله علم
للساعة ﴿فَلَا تَمْتَرُ بِهَا﴾ فلا تشك فيهما، من المرية، وهو: الشك ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾
وبالياء فيهما: سهل، ويعقوب، أي: واتبعوا هداي وشرعي، أو: رسولي.
أو: هو أمر لرسول الله ﷺ أن يقوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: ﴿هذا﴾ الذي
يدعوكم إليه.

٦٢- ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن الإيمان بالساعة، أو: عن الاتباع ﴿إِنَّهُمْ
لَكُذَّبُونَ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة إذ أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور.

٦٣- ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات، أو: بآيات الإنجيل، والشرائع
البيّنات الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل، والشرائع ﴿وَلِأُبَيِّنَ
لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو أمر الدين، لا أمر الدنيا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿١٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿١٤﴾ يَتَّبِعُونَ لَكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتَايُنَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١٦﴾

٦٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا تمام كلام عيسى عليه السلام -.

٦٥ - ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى - عليه السلام -، وهم: اليعقوبية، والنسطورية، والمكائنية، والشمعونية ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حيث قالوا في عيسى ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ وهو يوم القيامة.

٦٦ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضمير لقوم عيسى، أو: للكفار ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من الساعة، أي: ﴿هل ينظرون إلا﴾ إتيان الساعة ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم غافلون لاشتغالهم بأمر دنياهم، كقوله: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

٦٧ - ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ جمع خليل ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي: المؤمنين. وانتصاب ﴿يَوْمئِذٍ﴾ بـ ﴿عدو﴾، أي: تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالفين في غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتاً إلا خلة المتصادقين في الله، فإنها الخلة الباقية.

٦٨ - ﴿يَتَّبِعُونَ لَكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ بالياء في الوصل والوقف: مدني، وشامي، وأبو عمرو. ويفتح الياء: أبو بكر. الباقون: بحذف الياء ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ هو حكاية لما يُنادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ.

٦٩ - ﴿الَّذِينَ﴾ منصوب المحل صفة لعبادي؛ لأنه منادى مضاف ﴿ءَامَنُوا بِتَايُنَاتِنَا﴾ صدقوا بآياتنا ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ لله، منقادين له.

أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ
وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَرِّغُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ

٧٠- ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ المؤمنين في الدنيا ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سروراً يظهر حبارهُ، أي: أثره على وجوهكم.

٧١- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ﴾ جمع: صحيفة ﴿مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: من ذهب أيضاً، والكوب: الكوز لا عروة له ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنة ﴿مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ﴾ -: مدني، وشامي، وحفص بإثبات الهاء العائدة إلى الموصول، وحذفها غيرهم لطول الموصول بالفعل، والفاعل، والمفعول - ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وهذا حصر لأنواع النعم؛ لأنها إما مشتهيات في القلوب، أو: مستلذة في العيون ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٧٢- ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة، وهي مبتدأ، و﴿الجنة﴾ خبر، و﴿التي أورثتموها﴾ صفة ﴿الجنة﴾ أو: الجنة صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة، و﴿التي أورثتموها﴾ خبر المبتدأ، أو: التي أورثتموها صفة، و﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الخبر، والباء تتعلق بمحذوف، أي: حاصلة، أو كائنة، كما في الظروف التي تقع أخباراً، وفي الوجه الأول تتعلق بـ ﴿أورثتموها﴾، وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة.

٧٣- ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿مِّنْ﴾ للتبعية، أي: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في شجرها، فهي مزينة بالثمار أبداً. وفي الحديث: «لا ينزع رجلٌ في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاًها»^(١).

٧٤- ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ خبر بعد خبر.

٧٥- ﴿لَا يُفَرِّغُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ﴾ خبر آخر، أي: لا يخفف، ولا ينقص ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٣٥٣٠).

مُبِلْسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنِكُوتٌ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

العذاب ﴿مُبِلْسُونَ﴾ آيسون من الفرج، متحيرون.

٧٦- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ «هم»: فصل.

٧٧- ﴿وَنَادَا يَمَلِكُ﴾ لما آيسوا من فتور العذاب ﴿نَادَا يَا مَالِكُ﴾ وهو خازن النار - وقيل لابن عباس - رضي الله عنهما -: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قرأ ﴿يَا مَالُ﴾ فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم - ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا، من: قضى عليه: إذا أماته ﴿فَوَكَّرْهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَنِكُوتٌ﴾ لاثبون في العذاب، لا تتخلصون عنه بموت ولا فتور.

٧٨- ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ كلام الله تعالى. ويجب أن يكون في ﴿قَالَ﴾ ضمير الله. لما سألوا مالكا أن يسأل الله القضاء عليهم أجابهم الله بذلك، وقيل: هو متصل بكلام مالك^(١) والمراد بقوله: ﴿جِئْتَكُمْ﴾ الملائكة، إذ هم رسل الله، وهو منهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ لا تقبلونه، وتنفرون منه؛ لأنَّ مع الباطل الدعة، ومع الحق التعب.

٧٩- ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ أم أحكم مشركو مكة ﴿أَمْرًا﴾ من كيدهم، ومكرهم بمحمد ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا، كما أبرموا كيدهم.

٨٠- وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ في دار الندوة، فنزل: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديث أنفسهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يتحدثون فيما بينهم، ويخفونه عن غيرهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعهما، ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلْنَا﴾ أي: الحفظة ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ عندهم يكتبون ذلك. وعن يحيى بن معاذ: مَنْ سَرَّ مِنَ النَّاسِ ذَنْبَهُ، وَأَبْدَاهَا لِمَنْ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَقَدْ جَعَلَهُ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ. وهو من أمارات النفاق.

(١) أي: فضمير قال يعود على مالك.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ

٨١- ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ وصحَّ ذلك ببرهان ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ فأننا أول من يعظم ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته، والانقياد إليه، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه. وهذا كلام وارد على سبيل الفرض، والمراد: نفى الولد، وذلك: أنه علّق العبادة بكيونة الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها. ونظيره: قول سعيد بن جبير للحجاج - حين قال له: والله لأبدلك بالدينار ناراً تلظى: لو عرفت أنّ ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك. وقيل: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: الموحدين لله المكذّبين قولكم بإضافة الولد إليه. وقيل: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم فأننا أول الآتئين من أن يكون له ولد. من: عبد يعبد: إذا اشتدّ أنفه، فهو عبد وعابد. وقرئ ﴿العبدین﴾. وقيل: هي ﴿إِنْ﴾ النافية، أي: ما ﴿كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ فأننا أول من قال بذلك، وعبد، ووحد. ورُوي: أنّ النضر قال: إن الملائكة بنات الله، فتزلت، فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدّقني. فقال له الوليد: ما صدّقك، ولكن قال: ما ﴿كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ فأننا أول الموحدين من أهل مكّة أن لا ولد له ﴿وُلْدٌ﴾: حمزة، وعليّ. ثم نزّه ذاته عن اتّخاذ الولد، فقال:

٨٢- ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: هو رب السموات والأرض والعرش، فلا يكون جسماً؛ إذ لو كان جسماً لم يقدر على خلقها، وإذا لم يكن جسماً لا يكون له ولد، لأنّ التولّد من صفة الأجسام.

٨٣- ﴿فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ أي: القيامة. وهذا دليل على أنّ ما بقولونه من باب الجهل، والخوض، واللعب.

٨٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ ضمن اسمه تعالى معنى وصف، فلذلك علّق به الظرف في قوله: في السماء، وفي الأرض، كما تقول: هو حاتم

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَكْرَبُ

في طي، وحاتم في تغلب، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به، كأنك قلت: هو جواد في طي، جواد في تغلب. وقرئ: (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله). ومثله قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] كأنه ضمن معنى المعبود، والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام، كقولهم: ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً، والتقدير: ﴿وهو الذي﴾ هو ﴿في السماء إله﴾. ﴿إله﴾ يرتفع على أنه خبر مبتدأ مضمرة، ولا يرتفع ﴿إله﴾ بالابتداء، و﴿في السماء﴾: خبرٌ لخلو الصلة حيثئذ من عائد يعود إلى الموصول ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أقواله، وأفعاله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما كان ويكون.

٨٥- ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم قيامها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿يُرْجَعُونَ﴾: مكّي، وحمة، وعليّ.

٨٦- ﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ آلهتهم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعوهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿الشَّفْعَةَ﴾ كما زعموا: أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: ولكن ﴿من شهد بالحق﴾ بكلمة التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله ربهم حقاً، ويعتقدون ذلك، هو الذي يملك الشفاعة. وهو استثناء منقطع، أو: متصل؛ لأن في جملة الذين يدعون من دون الله الملائكة.

٨٧- ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لا الأصنام والملائكة ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف، أو: من أين يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟

٨٨- ﴿وَقِيلَ لَهُ﴾ بالجر: عاصم، وحمة، أي: وعنده علم الساعة وعلم قبله ﴿يَكْرَبُ﴾ والهاء يعود إلى محمد ﷺ لتقدم ذكره في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١] وبالنصب، الباقون عطفاً على محل ﴿الساعة﴾ أي: يعلم الساعة، ويعلم ﴿قيله﴾ أي: قيلَ مُحَمَّدٍ ﴿يَا رَبِّ﴾. والقليل، والقول، والقال، والمقال واحد. ويجوز أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم

﴿٨٨﴾ فَإِصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

وحذفه. وجواب القسم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كأنه قيل: وأقسم بقبيله: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وإقسام الله بقبيله رفع منه، وتعظيم لدعائه، والتجاءه إليه.

٨٩- ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم، وودّعهم، وتاركهم ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تَسَلَّمَ منكم ومشاركة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد من الله لهم، وتسلية لرسوله ﷺ. وبالثناء: مدني، وشامي.

* * *

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ

في الخبر: «من قرأها في ليلة جمعة أصبح مغفوراً له»^(١).

١- ٣- ﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: القرآن. الواو في ﴿والكتاب﴾ واو القسم إن جعلت ﴿حم﴾ تعديداً للحروف، أو: اسماً للسورة مرفوعاً على خبر الابتداء المحذوف، وواو العطف إن كانت ﴿حم﴾ مقسماً بها. وجواب القسم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي: ليلة القدر، أو: ليلة النصف من شعبان. وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة. والجمهور على الأول؛ لقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان. ثم قالوا: أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل في وقت وقوع الحاجة إلى نبيّه محمد ﷺ، وقيل: ابتداء نزوله في ليلة القدر. والمباركة: الكثيرة الخير؛ لما ينزل فيها من الخير والبركة، ويستجاب من الدعاء، ولو لم يوجد فيها

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٩) وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدم يُضَعِّف، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة.

إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾

إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾.

٤- ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسر بهما جواب القسم، كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار، والتحذير من العقاب. وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم. ومعنى ﴿يفرق﴾ يفصل، ويكتب ﴿كل أمر﴾ من أرزاق العباد، وأجالهم، وجميع أمرهم من هذه الليلة إلى ليلة القدر التي تحيى في السنة المقبلة ﴿حكيم﴾ ذي حكمة، أي: مفعول على ما تقضيه الحكمة. وهو من الإسناد المجازي؛ لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصف الأمر به مجاز.

٥، ٦- ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ نصب على الاختصاص، جعل كل أمر جزلاً فحماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وفخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر ﴿أمرًا﴾ حاصلًا ﴿من عندنا﴾ كما اقتضاه علمنا، وتديبرنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بدل من ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]. و﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ مفعول له، على معنى: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا؛ لأجل الرحمة عليهم. أو: تعليل لقوله: ﴿أمرًا من عندنا﴾. و﴿رحمة﴾ مفعول به. وقد وصف الرحمة بالإرسال، كما وصفها به في قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُمْ بَعْدَهُ﴾ [فاطر: ٢] والأصل: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رحمة﴾ متا. فوضع الظاهر موضع الضمير إيداناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

٧- ﴿رَبِّ﴾ كوفي بدل من ﴿رَبِّكَ﴾، وغيرهم بالرفع، أي: هو رب ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. ومعنى الشرط: أنهم كانوا يقرّون بأنّ للسموات والأرض رباً وخالقاً، فقليل لهم: إن إرسال الرسل، وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل: إن هذا الرب هو السميع العليم؛ الذي

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

أنتم مقرون به، ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم، وإيقان، كما تقول: إن هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه إن بلغك حديث، وَحُدِّثَتْ بِقِصَّتِهِ.

٨- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو ربكم ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ عطف عليه. ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله:

٩- ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وإن إقرارهم غير صادر عن علم، وتيقن، بل قول مخلوط بهزؤ، ولعب.

١٠-١٢- ومفعول: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيد^(١)، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصائص. وقيل: إن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللَّهُم اشْدُدْ وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف». فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعِلْهِز^(٢). وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان. وكان يحدث الرجل، فيسمع كلامه، ولا يراه من الدخان^(٣) ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر حاله، لا يشك أحد في أنه دخان ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يشملهم، ويلبسهم، وهو في محل الجر صفة لـ: «دخان». وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ - أي: سنؤمن إن كُشِفَ عَنَّا العذاب - منصوب المحل بفعل مضمر، وهو: يقولون. و: يقولون: منصوب المحل على الحال، أي: قائلين ذلك.

(١) «الحنيد»: المشوي.

(٢) «العِلْهِز»: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة.

(٣) رواه أحمد (١/٤٤١) والبخاري (٤٨٢٤) ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩).

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَن أَذْوَإِيَ عِبَادِ اللَّهِ

١٣، ١٤- ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ كيف يذكرون، ويتعظون، ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ أي: وقد جاءهم ما هو أعظم، وأدخل في وجوب الازكار من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات والبينات من الكتاب المعجز وغيره، فلم يذكروا، وتولوا عنه، وبهتوه بأن عداساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه، ونسبوه إلى الجنون.

١٥- ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ أو: كشفاً ﴿قَلِيلًا﴾ ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى الكفر الذي كنتم فيه، أو: إلى العذاب.

١٦- ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ هو يوم القيامة، أو: يوم بدر ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ أي: ننتقم منهم في ذلك اليوم. وانتصاب ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ بـ «اذكر»، أو: بما دلّ عليه: ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ وهو: ننتقم، لا بمنتقمون؛ لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها.

١٧- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء المشركين - أي: فعلنا بهم فعل المختبر؛ ليظهر منهم ما كان باطناً - ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين، أو: كريم في نفسه حسيب نسيب؛ لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه، وكرامهم.

١٨- ﴿أَن أَذْوَإِيَ﴾ هي «أن» المفسرة؛ لأن مجيء الرسول إلى من بعث إليهم متضمن لمعنى القول؛ لأنه لا يجيئهم إلا مبشراً، وتذيراً، وداعياً إلى الله. أو: المخففة من الثقيلة. ومعناه: ﴿وجاءهم﴾ بأن الشأن والحديث ﴿أَذْوَإِيَ﴾ سلموا إلي ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ هو مفعول به، وهم بنو إسرائيل، يقول: أذوهم إلي، وأرسلوهم معي، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآبِقِ إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧] ويجوز أن يكون نداء لهم، على معنى: ﴿أَذْوَإِيَ﴾ يا «عباد الله» ما هو واجب لي

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عَذْتُ
 بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ
 مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾

عليكم من الإيمان لي، وقبول دعوتي، واتباع سبيلي. وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: على رسالتي، غير متهم.

١٩- ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ هذه مثل الأولى في وجهيها، أي: لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه، أو: لا تستكبروا على نبي الله ﴿إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة واضحة تدل على أني نبي.

٢٠- ﴿وَإِنِّي عَذْتُ﴾ - «عُتْ»: مدغم: أبو عمرو، وحمزة، وعليّ - ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أن تقتلوني رجماً، ومعناه: أنه عائدٌ بربه، متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه من الرجم، والقتل.

٢١- ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ﴾ أي: إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن، فتنحوا عني، أو: فخلوني كفافاً لالي ولا عليّ، ولا تتعرضوا لي بشركم وأذاكم، فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ذلك. ﴿تَرْجُمُونِ﴾ فاعزّلوني في الحالين: يعقوب.

٢٢- ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ شاكياً قومه ﴿أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ بأن هؤلاء، أي: دعا ربه بذلك. قيل: كان دعاؤه: اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم. وقيل: هو قوله ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوِّمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]. وقرىء: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ بالكسر؛ على إضمار القول، أي: ﴿فدعا ربه﴾ فقال: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾.

٢٣- ﴿فَأَسْرِ﴾ من: أسرى ﴿فأسر﴾ بالوصل: حجازي، من: سرى. والقول مضمر بعد الفاء ﴿ف﴾ قال: أسر ﴿بِعِبَادِي﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ أي: دبر الله أن تتقدموا، ويتبعكم فرعون وجنوده، فينجي المتقدمين، ويغرق التابعين.

وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

٢٤- ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ساكناً. أراد موسى - عليه السلام - لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق، فأمر بأن يتركه ساكناً على هيئته قاراً على حاله؛ من انتصاب الماء، وكون الطريق ييساً، لا يضربه بعصاه، ولا يغير منه شيئاً ليدخله القبط، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم. وقيل: الرهو: الفجوة الواسعة، أي: أتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ بعد خروجك من البحر. وقرئ بالفتح، أي: لأنهم.

٢٥، ٢٦- ﴿كَمْ﴾ عبارة عن الكثرة، ومنصوب بقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ﴾ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ هو ما كان لهم من المنازل الحسنة. وقيل: المنابر.

٢٧- ﴿وَنَعْمَةً﴾ تنعم ﴿كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ﴾ متنعمين.

٢٨- ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك. فالكاف في موضع الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمّر ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة، ولا دين، ولا ولاء. وهم: بنو إسرائيل.

٢٩- ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ لأنهم ماتوا كفاراً. والمؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، فيبكي على المؤمن من الأرض مُصلّاه، ومن السماء مَضْعُدُ عمله. وعن الحسن - رحمة الله عليه -: أهل السماء والأرض ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ أي: لم يُنظروا إلى وقت آخر، ولم يُمهلوا.

٣٠- ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: الاستخدام، والاستعباد، وقتل الأولاد.

٣١- ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿العذاب المهين﴾ بإعادة الجار، كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيبهم، وإهانتهم. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك ﴿من فرعون﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان، أي: كان متكبراً مسرفاً.

وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَتْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنذَرْنَا يُبَاقِيَانَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ

٣٢- ﴿وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من ضمير الفاعل، أي: عالين بمكان الخير، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

٣٣- ﴿وَأَيَّتْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ نعمة ظاهرة، أو: اختبار ظاهر؛ لننظر كيف يعملون.

٣٤، ٣٥- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ﴾ كفار قريش ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ﴿إِنَّ هِيَ﴾ ما الموتة ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾. والإشكال: أن الكلام وقع في الحياة الثانية لا في الموت، فهلاً قيل: إن هي إلا حياتنا الأولى؟ وما معنى ذكر الأولى؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى جحدوها، وأثبتوا الأولى. والجواب: أنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتبعها حياة؛ كما تقدمتكم موتة قد تعقبها حياة. وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى، فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] في المعنى. ويحتمل أن يكون هذا إنكاراً لما في قوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ بمبعوثين. يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم: إذا بعثهم.

٣٦- ﴿فَأَنذَرْنَا يُبَاقِيَانَا﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور من رسول الله ﷺ والمؤمنين، ﴿إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن صدقتم فيما تقولون، فاجعلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك، حتى يكون دليلاً على أن ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق.

٣٧- ﴿أَهْمُ خَيْرٌ﴾ في القوة، والمنعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تبّع الحميري، كان

وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

مؤمناً وقومه كافرين. وقيل: كان نبياً. وفي الحديث: «ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي»^(١) ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مرفوع بالعطف على ﴿قوم تبع﴾ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين، منكرين للبعث.

٣٨- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وما بين الجنسين ﴿لِعَيْبٍ﴾ حال. ولو لم يكن بعث ولا حساب ولا ثواب، كان خلق الخلق للفناء خاصة، فيكون لعباً.

٣٩- ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بالجد، ضد اللعب ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه خلق لذلك.

٤٠- ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل، وهو يوم القيامة ﴿مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقت مواعدهم كلهم.

٤١- ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى﴾ أي: ولي؛ أي ولي كان عن أي ولي كان ﴿شَيْئًا﴾ من إغناء، أي: قليلاً منه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير للموالي؛ لأنهم في المعنى كثير لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى.

٤٢- ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ﴾ في محل الرفع على البدل من الواو في ﴿ينصرون﴾ أي: لا يمنع من العذاب ﴿إِلَّا مَنْ﴾ رحمه الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الغالب على أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ لأوليائه.

٤٣- ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ هي على صورة شجر الدنيا لكنها في النار. والزقوم: ثمرها، وهو كل طعام ثقيل.

(١) قال ابن حجر: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشف ٤/ ٢٨٠).

طَعَامُ الْإِثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

٤٤- ﴿طَعَامُ الْإِثِيمِ﴾ هو: الفاجر الكثير الآثام. وعن أبي الدرداء: أنه كان يقرئ رجلاً، فكان يقول: طعام اليتيم، فقال: قل طعام الفاجر يا هذا. وبهذا تستدل على أن إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها^(١). ومنه أجاز أبو حنيفة - رحمه الله - القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدي القارئ المعاني كلها على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة؛ لأن في كلام العرب - خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته، وغرابة نظمه وأساليبه - من لطائف المعاني والدقائق مالا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها. ويروى رجوعه إلى قولهما، وعليه الاعتماد.

٤٥- ﴿كَالْمُهْلِ﴾ هو دُردي^(٢) الزيت. والكاف رفع خبر بعد خبر ﴿يَغْلِي﴾ في ﴿الْبُطُونِ﴾^(٣) - وبالياء: مكّي، وحفص، فالتاء للشجرة، والياء للطعام -.

٤٦- ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أي: الماء الحار الذي انتهى غليانه. ومعناه: غلياً ﴿كغلي الحميم﴾. فالكاف منصوب المحل. ثم يقال للزبانية:

٤٧- ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ فقودوه بعنف وغلظة - ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ مكّي، ونافع، وشامي، وسهل، ويعقوب - ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ إلى وسطها ومعظمها.

٤٨- ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ المصبوب هو الحميم

(١) قال أحمد بن المنير الإسكندري في «الانتصاف»: لا دليل فيه لذلك. وقول أبي الدرداء محمولٌ على إيضاح المعنى؛ ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوفاً على أن يأتي بالقراءة كما أنزلت. وعلى هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب «الانتصار» وهو الوجه. (حاشية الكشف/٤/٢٨١).

(٢) «الدردي»: ما رسب أسفل الزيت ونحوه.

(٣) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿تَغْلِي﴾. بالتاء. وهي قراءة: نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، والكسائي، وعاصم، وخلف، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (١٤٢/٦).

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥٢﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٣﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَنِينَ ﴿٥٤﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٥﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِينَ ﴿٥٥﴾

لا عذابه، إلا أنه إذا صبَّ عليه الحميم، فقد صبَّ عليه عذابه، وشدته. وصب العذاب: استعارة. ويقال له:

٤٩- ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ له على سبيل الهزؤ والتهمك ﴿أَنْتَ﴾ أي: لأنك، علي.

٥٠- ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب، أو: هذا الأمر هو ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون.

٥١- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ بالفتح، وهو: موضع القيام. والمراد: المكان. وهو من الخاص الذي وقع مستعملاً في معنى العموم. وبالضم: مدني، وشامي. وهو: موضع الإقامة ﴿أَمِينَ﴾ من: أمن الرجل أمانة، فهو أمين. وهو ضد الخائن. فوصف به المكان استعارة؛ لأنَّ المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقي فيه من المكاره.

٥٢- ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من ﴿مَقَامٍ أَمِينَ﴾.

٥٣- ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ﴾ ما رقَّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه. وهو تعريب: استبر. واللفظ إذا عَرَبَ خرج من أن يكون أعجمياً؛ لأنَّ معنى التعريب أن يجعلَ عربياً بالتصريف فيه، وتغييره عن منهجه، وإجرائه على أوجه الإعراب، فساغ أن يقعَ في القرآن العربي ﴿مُتَقَنِينَ﴾ في مجالسهم. وهو أتمُّ للأنس.

٥٤- ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف مرفوعة، أي: الأمر ﴿كَذَلِكَ﴾ ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ وقرناهم. ولهذا عَدِي بالباء ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء، وهي: الشديدة سواد العين، والشديدة بياضها ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء، وهي: الواسعة العين.

٥٥- ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ يطلبون في الجنة ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِينَ﴾ من الزوال، والانقطاع، وتولد الضرر من الإكثار.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾
 فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْتِهُ لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

٥٦- ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿الْمَوْتَ﴾ البتة ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ أي: سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا. وقيل: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا ﴿وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

٥٧- ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: للفضل. فهو مفعول له، أو: مصدر مؤكد لما قبله؛ لأنّ قوله: ﴿وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ تفضل منه لهم؛ لأنّ العبد لا يستحقّ على الله شيئاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: صرف العذاب، ودخول الجنة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٥٨- ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْتِهُ﴾ أي: الكتاب. وقد جرى ذكره في أول السورة ﴿لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

٥٩- ﴿فَأَرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلّ بهم ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون ما يحلّ بك من الدوائر.

* * *

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ؕ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَقَصْرِيفِ الرِّيحِ ؕ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

١ ، ٢ - ﴿حَمَّ﴾ : إن جعلتها اسماً للسورة فهي مرفوعة بالابتداء، والخبر: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ صلة للتزليل. وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾: مبتداً، والظرف: خبراً ﴿الْعَزِيزِ﴾ في انتقامه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره.

٣ ، ٤ - ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾ لدلالات على وحدانيته. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿إِنَّ فِي﴾ خلق ﴿السموات والأرض لآيات﴾ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. دليله قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾. ويعطف ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ على الخلق المضاف؛ لأنَّ المضاف إليه ضمير مجرور متصل يقبح العطف عليه ﴿آيَاتٌ﴾ حمزة وعلي بالنصب، وغيرهما بالرفع، مثل قولك: إن زيدا في الدار وعمراً في السوق، أو: وعمرو في السوق ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٥ - ﴿وَأَخْلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ - أي: مطر. وسمي به لأنه سبب الرزق - ﴿فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَقَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ - ﴿الرِّيحِ﴾ حمزة وعلي - ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بالنصب: علي وحمزة، وغيرهما بالرفع. وهذا من

تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتُهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيَلِكُلْ أَفَاكِ
 أَتِيرِ ﴿٧﴾

العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت. فالعاملان إذا نصبت ﴿إِنَّ﴾ و﴿فِي﴾. أقيمت الواو مقامهما فعملت الجرّ في ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ والنصب في ﴿آيات﴾. وإذا رفعت فالعاملان الابتداء وحرف ﴿فِي﴾. عملت الواو الرفع في آيات، والجرّ في ﴿واختلاف﴾. وهذا مذهب الأخفش؛ لأنه يجوز العطف على عاملين، وأما سيبويه فإنه لا يجيزه. وتخريج الآية عنده أن يكون على إضمار ﴿فِي﴾. والذي حسنه تقدّم ذكر ﴿فِي﴾ في الآيتين قبل هذه الآية. ويؤيده قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه -: (وفي اختلاف الليل والنهار). ويجوز أن ينتصب ﴿آيات﴾ على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله، أو: على التكرير توكيداً لآيات الأولى. كأنه قيل: آيات آيات. ورفعها بإضمار ﴿هي﴾ والمعنى في تقديم الإيمان على الإيقان، وتوسيطه، وتأخير الآخر: أنّ المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض نظراً صحيحاً علموا أنّها مصنوعة، وأنّه لا بُدَّ لها من صانع فأمنوا بالله، فإذا نظروا في خلق أنفسهم، وتنقلها من حال إلى حال، وفي خلق ما ظهر على الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً، وأيقنوا، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدّد في كلّ وقت، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بها بعد موتها، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً، عقلوا، واستحكم علمهم، وخلص يقينهم.

٦- ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة، أي: تلك الآيات ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ﴾. قوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾ في محلّ الحال، أي: متلوة ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾. والعامل دلّ عليه ﴿تِلْكَ﴾ من معنى الإشارة ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتُهُ﴾ أي: بعد آيات الله. كقولهم: أعجبني زيد وكرمه، ويريدون: أعجبني كرم زيد ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ حجازي، وأبو عمرو، وسهل، وحفص. وبالتاء غيرهم، على تقدير: قل يا محمّد.

٧- ﴿وَيَلِكُلْ أَفَاكِ﴾ كذاب ﴿أَتِيرِ﴾ متبالغ في اقرار الآثام.

يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةُ عَذَابٍ إِلَيْهِ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن رَّآيِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

٨- ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ في موضع جرّ صفة ﴿تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾ حال من ﴿آيات الله﴾ ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقبل على كفره، ويقيم عليه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحقّ، مزدرياً لها، معجباً بما عنده. قيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث العجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن. والآية عامة في كلّ مَنْ كان مضاراً لدين الله. وجيء بتم؛ لأنّ الإصرار على الضلالة والاستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن مستبعد في العقول ﴿كَأَن﴾ مخففة. والأصل: كأنه ﴿لَمْ يَسْمَعْهَا﴾. والضمير ضمير الشأن. ومحلّ الجملة: النصب على الحال، أي: ﴿يُصِرُّ﴾ مثل غير السامع ﴿فَبَشِيرَةُ عَذَابٍ إِلَيْهِ﴾ فأخبره خبراً يظهر أثره على البشرية.

٩- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا، وعلم أنّه منها ﴿اتَّخَذَهَا﴾ اتَّخَذَ الآيات ﴿هُزُوًا﴾. ولم يقل: اتَّخَذَهُ؛ للإشعار بأنه إذا أحسن بشيء من الكلام أنّه من جملة الآيات؛ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الشيء؛ لأنّه في معنى الآية، كقول أبي العتاهية:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا مُعَلِّقَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا^(١)
حيث: أراد عتبة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ - إشارة إلى ﴿كُلَّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لشموله الأفاكين - ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مخز.

١٠- ﴿مِّن رَّآيِهِمْ﴾ من قدامهم - وراء: اسم للجهة التي يوارىها الشخص من خلف، أو: قدام - ﴿جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ - ﴿مَا﴾ فيهما مصدرية، أو: موصولة - ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿أُولَٰئِكَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في جهنم.

(١) كَتَى بالشيء عن جارية من حظايا المهدي اسمها: عتبة؛ ولذلك أعاد عليه الضمير مؤنثاً.

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا

١١- ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ إشارة إلى القرآن. يدلُّ عليه ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾؛ لأنَّ آيات ربِّهم هي القرآن، أي: هذا القرآن كاملٌ في الهداية، كما تقول: زيد رجل، أي: كامل في الرجولية ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ ﴾ - هو أشدُّ العذاب - ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بالرفع: مكِّي، ويعقوب، وحفص، صفة لعذاب. وغيرهم: بالجرِّ صفة لرجز. ١٢- ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ بإذنه ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بالتجارة، أو: بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، واستخراج اللحم الطري ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

١٣- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ هو تأكيد ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾. وهو مفعول ﴿ سَخَّرَ ﴾. وقيل: ﴿ جَمِيعًا ﴾: نصب على الحال ﴿ مِّنْهُ ﴾ حال، أي: سخر هذه الأشياء كائنه ﴿ مِنْهُ ﴾ وحاصلة من عنده، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه النعم كلها ﴿ مِنْهُ ﴾، أو: صفة للمصدر، أي: تسخيراً ﴿ مِنْهُ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

١٤- ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ أي: ﴿ قل ﴾ لهم اغفروا ﴿ يَغْفِرُوا ﴾ - فحذف المقول؛ لأنَّ الجواب يدلُّ عليه. ومعنى ﴿ يَغْفِرُوا ﴾ يغفوا، ويصفحوا. وقيل: إنَّه مجزوم بلام مضمرة، تقديره: ليغفروا، فهو أمر مستأنف. وجاز حذف اللام للدلالة على الأمر - ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه. من قولهم لوقائع العرب: «أيام العرب». وقيل: لا يؤملون الأوقات التي وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت في عمر - رضي الله عنه - حين شتمه رجلٌ من المشركين من بني غفار، فهم أن يبطش به ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، أي: إنما أمروا بأن يغفروا ليوفيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. وتنكير ﴿ قَوْمًا ﴾ على المدح لهم، كأنه قيل: ﴿ ليجزى ﴾ أيما قوم، وقوماً مخصوصين بصبرهم على أذى أعدائهم - ﴿ لنجزى ﴾: شامي، وحزمة، وعلي.

يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ وَأَتَيْنَاهُم بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ

﴿لِيُجْزِيَ قَوْمًا﴾ يزيد، أي ﴿لِيُجْزِيَ﴾ الخير ﴿قَوْمًا﴾. فأضمر الخير لدلالة الكلام عليه، كما أضمر الشمس في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] لأنَّ قوله ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ [ص: ٣١] دليلٌ على توارى الشمس. وليس التقدير: ﴿لِيُجْزِيَ﴾ الجزء ﴿قَوْمًا﴾ لأنَّ المصدر لا يقوم مقام الفاعل، ومعك مفعول صحيح. أمّا إقامة المفعول الثاني مقام الفاعل فجائز، وأنت تقول: جزاك الله خيرًا - ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الإحسان.

١٥ - ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: لها الثواب، وعليها العقاب ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى جزائه.

١٦ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة، والفقه، أو: فصل الخصومات بين الناس؛ لأنَّ الملك كان فيهم ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ خصَّها بالذكر لكثرة الأنبياء - عليهم السلام - فيهم ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ بما أحلَّ الله لهم ما طاب من الأرزاق ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

١٧ - ﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيْنَاتٍ﴾ آيات، ومعجزات ﴿مِنْ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فما وقع الخلاف بينهم في الدين ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب لزوال الخلاف، وهو العلم. وإنما اختلفوا لبغي حدث بينهم، أي: لعداوة وحسد ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: المراد: اختلافهم في أوامر الله ونواهيه في التوراة حسداً، وطلباً للرئاسة، لا عن جهل يكون الإنسان به معذوراً.

١٨ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ بعد اختلاف أهل الكتاب ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على طريقة، ومنهاج ﴿مِنْ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ فاتَّبِعْ شريعتك الثابتة بالحجج والدلائل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ

أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ

أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني
على هوى وبدعة. وهم رؤساء قريش حين قالوا: ارجع إلى دين آبائك.

١٩ - ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن هؤلاء الكافرين ﴿لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهم موالوه. وما أبين الفضل بين الولايتين!

٢٠ - ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع
بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعل روحاً وحياة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة
﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لمن آمن، وأيقن بالبعث.

٢١ - ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ «أم»: منقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان
﴿أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ اكتسبوا المعاصي والكفر. ومنه: الجوارح، وفلان جارحة
أهله، أي: كاسبهم ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيرهم. وهو من «جعل» المتعدي إلى
مفعولين. فأولهما الضمير، والثاني الكاف في ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
والجملة التي هي ﴿سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل من الكاف؛ لأن الجملة تقع
مفعولاً ثانياً، فكانت في حكم المفرد «سواء»: علي، وحمزة، وحفص بالنصب
على الحال من الضمير في «نَجْعَلُهُمْ». ويرتفع محياهم ومماتهم بـ «سواء»، وقرأ
الأعمش «ومماتهم» بالنصب. جعل «محياهم ومماتهم» ظرفين، كمقدم الحاج،
أي: سواء في محياهم وفي مماتهم. والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون
محياً، وأن يستووا مماتاً؛ لافتراق أحوالهم أحياء، حيث عاش هؤلاء على القيام
بالطاعات، وأولئك على اقتراف السيئات، ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشري
بالرحمة والكرامة، وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة. وقيل: معناه: إنكار
أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة في الرزق والصحة. وعن تميم
الداري - رضي الله عنه -: أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية،
فجعل يبكي، ويرددها إلى الصباح. وعن الفضيل - رحمه الله عليه -: أنه بلغها،

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

فجعل يرددها^(١)، ويقول: يا فضيل! ليت شعري من أي الفريقين أنت؟! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بش ما يقضون؛ إذ حسبوا أنهم كالمؤمنين، فليس من أقعد على بساط الموافقة، كمن أقعد في مقام المخالفة، بل نفرق بينهم فتعلي المؤمنين، ونخزي الكافرين.

٢٢- ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ليدل على قدرته ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ معطوف على هذا المعلل المحذوف ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٢٣- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ أي: هو مطواع لهوى النفس، يتبع ما يدعوه إليه، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ﴾ منه باختياره الضلال. أو: أنشأ فيه فعل الضلال ﴿على علم﴾ منه بذلك ﴿وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فلا يقبل وعظاً ﴿وقلبه﴾ فلا يعتقد حقاً ﴿وجعل على بصره غشوة﴾ فلا يبصر عبرة - ﴿غشوة﴾ حمزة، وعلي - ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ من بعد إضلال الله إياه ﴿أفلا تذكرون﴾ بالتخفيف: حمزة، وعلي، وحفص، وغيرهم: بالتشديد، فأصل الشر: متابعة الهوى، والخير كله في مخالفته، فنعم ما قال:

إذا طلبتك النفس يوماً بشهوة وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما هواك عدو والخلاف صديق

٢٤- ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ﴾ أي: ما الحياة - لأنهم وعدوا حياة ثانية - ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها. ﴿نموت ونحيا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا، أو: يموت بعض ويحيا بعض، أو: نكون مواتاً نطفاً في الأصلاب ونحياً بعد ذلك، أو: يصيبنا الأمران الموت والحياة - يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها - وليس وراء ذلك حياة. وقيل: هذا كلام من يقول بالتناسخ، أي: يموت الرجل، ثم

(١) ليست في الأصل المخطوط، واستدركت من المطبوع ليستقيم المعنى.

وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ مَا يُنَادِي بَيْنَهُ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا أَتَابَانَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾ قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُمِيطُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ الْمَظِلُّوتِ ﴿٢٨﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ

تجعل روحه في موت فيحيا به ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كلَّ حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان، ومنه قوله ﷺ: «لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»^(١). أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث، لا الدهر ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وما يقولون ذلك من علم ويقين، ولكن عن ظنٍّ وتخمين.

٢٥- ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ مَا يُنَادِي﴾ - أي: القرآن، يعني: ما فيه من ذكر البعث. ﴿بَيْنَهُ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ - وسمى قولهم حجة وإن لم يكن حجة؛ لأنه في زعمهم حجة - ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا أَتَابَانَا﴾. أي: أحيوهم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى البعث. و﴿حُجَّتَهُمْ﴾ خبر كان. واسمها ﴿أَنْ قَالُوا﴾. والمعنى: ﴿ما كان حُجَّتَهُمْ إِلَّا﴾ مقاتلهم ﴿اتَّبَوْنَا أَتَابَانَا﴾. وقرئ ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بالرفع على أنها اسم ﴿كان﴾ و﴿أَنْ قَالُوا﴾: الخبر.

٢٦- ﴿قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ﴾ فيها عند انتهاء أعماركم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يبعثكم يوم القيامة جميعاً. ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائكم ضرورة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في الجمع ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله على البعث؛ لإعراضهم عن التفكير في الدلائل.

٢٧- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ الْمَظِلُّوتِ﴾ عامل النصب في ﴿يوم تقوم﴾ هو ﴿ينفخ﴾. و﴿يومئذ﴾ بدل من ﴿يوم تقوم﴾.

٢٨- ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ جالسة على الركب. يقال: جثا فلان يجثو؛ إذا جلس على ركبتيه. وقيل: ﴿جاثية﴾ مجتمعة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ - بالرفع على الابتداء.

(١) رواه البخاري (٦١٨١) ومسلم (٢٢٤٦).

نُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلِي عَلَيْكُمْ فَأَسْتَغْبِئْهُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ وَيَدَّاهُم سِيَاتٌ مَا عَلِمُوا أَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

﴿كل﴾: يعقوب، على الإبدال من ﴿كل أمة﴾ - ﴿نُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ إلى صحائف أعمالها - فاكثفى باسم الجنس - فيقال لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

٢٩- ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ أضيف الكتاب إليهم لملاسته إيّاهم؛ لأن أعمالهم مثبتة فيه، وإلى الله تعالى؛ لأنه مالكه، والأمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عبادهم ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم لما عملتم ﴿بِالْحَقِّ﴾ من غير زيادة، ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نستكتب الملائكة أعمالكم. وقيل: نسخت، واستنسخت: بمعنى. وليس ذلك بنقل من كتاب، بل معناه: ثبت.

٣٠- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ جنته ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

٣١- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلِي عَلَيْكُمْ﴾. والمعنى: ﴿أ﴾ لم يأتكم رسلي ﴿فلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ - فحذف المعطوف عليه - ﴿فَأَسْتَغْبِئْهُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين.

٣٢- ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالجزاء ﴿حَقٌّ وَالسَّاعَةُ﴾ - بالرفع عطف على محلّ إن واسمها ﴿والساعة﴾ حمزة. عطف على ﴿وعد الله﴾ - ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي شيء الساعة ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾. أصله: نظن ظناً، ومعناه: إثبات الظنّ فحسب، فأدخل حرف النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظنّ مع نفي ما سواه. وزيد نفي ما سوى الظنّ تأكيداً بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِرِينَ﴾.

٣٣- ﴿وَيَدَّاهُم﴾ ظهر لهؤلاء الكفار ﴿سَيَّاتٌ مَا عَلِمُوا﴾ قبائح أعمالهم، أو: عقوبات أعمالهم السيئات، كقوله: ﴿وَعَزَّوْا سَيِّئَةً مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ونزل بهم جزاء استهزائهم.

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوِيكُمُ النَّارُ وَمَالُكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿٣٤﴾
 بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُمْخِرُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
 يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

٣٤- ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: نترككم في العذاب كما تركتم عُدَّة لقاء يومكم، وهي: الطاعة، وإضافة اللقاء إلى اليوم كإضافة المكر في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: ﴿نَسِيتُمْ لِقَاءَ﴾ الله تعالى في ﴿يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ولقاء جزائه ﴿وَمَاوِيكُمُ النَّارُ﴾ أي: منزلكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾.

٣٥- ﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنكم ﴿أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُمْخِرُونَ مِنْهَا﴾ لا يخرجون منها ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي: يرضوه.

٣٦- ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السموات والأرض والعالَمين، فإنَّ مثل هذه الربوبية العامة توجب الحمد والثناء على كل مربوب.

٣٧- ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكبروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته في السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ﴿الْعَلِيمُ﴾ في أحكامه.

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْفِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾

١ - ٣ - ﴿حَمِّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحكمة ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينتهي إليه، وهو: يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا﴾ عما أُنذروه من هول ذلك اليوم؛ الذي لا بد لكل مخلوق من انتهائه إليه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يؤمنون به، ولا يهتمون بالاستعداد له. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم.

٤ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعبدونه من الأصنام: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي شيء خلقوا مما في الأرض إن كانوا آلهة؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ شركة مع الله في خلق السموات؟ ﴿أَتُنْفِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: من قبل هذا الكتاب، وهو القرآن، يعني: أن هذا الكتاب ناطقٌ بالتوحيد، وإبطال الشرك. وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطقٌ بمثل ذلك، فاثبتوا بكتاب واحد منزل من قبله، شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أو: بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الله أمركم بعبادة الأوثان.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِتَنبِئِ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ

٥ - ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ أي: أبداً.

٦ - ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: الأصنام لعبادتها ﴿وَكَانُوا﴾ أي: الأصنام ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بعبادة عبدتهم ﴿كَافِرِينَ﴾ تقول: ما دعوناهم إلى عبادتنا. ومعنى الاستفهام في: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام، حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على كل شيء، ويدعون من دونه جهاداً لا يستجيب لهم، ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ﴿وَإِذَا﴾ قامت القيامة، وحشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضداً، فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة: لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة، وفي الآخرة تعاديهم، وتجحد عبادتهم. ولما أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة قيل: ﴿مَنْ﴾ و﴿هُمْ﴾ ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التكبر بها وبعيدتها. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

٧ - ﴿وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِتَنبِئِ﴾ جمع بينة، وهي: الحجة والشاهد، أو: واضحات مبينات ﴿قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ المراد بالحق: الآيات، وبالذين كفروا: المثلون عليهم. فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر، وللمثلون بالحق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: باداهوه بالجحود ساعة أتاهاهم، وأول ما سمعوه من غير إجابة فكر، ولا إعادة نظر ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر أمره في البطلان، لا شبهة فيه.

٨ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات: سحراً إلى ذكر قولهم: إن محمداً ﷺ افتراه أي: اختلقه، وأضافه إلى الله كذباً. والضمير

قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ

للحق، والمراد به: الآيات ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: ﴿إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ﴾ على سبيل الفرض عاجلني الله بعقوبة الافتراء عليه، فلا تقدرُونَ على كفه عن معاجلتي، ولا تطيقون دفع شيء من عقابه، فكيف أفتريه، وأتعرض لعقابه؟! ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تندفعون فيه من القدح في وحي الله، والظعن في آياته، وتسميته سحراً تارة، وفرية أخرى ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالجوحد والإنكار. ومعنى ذكر العلم والشهادة: وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ موعدة بالغفران والرحمة إن تابوا عن الكفر، وآمنوا.

٩- ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: بديعاً، كالحفّ بمعنى الخفيف. والمعنى: إني لست بأول مرسل فتكروا نبوتي ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ﴿ما﴾ يفعل الله ﴿بي﴾ و﴿بكم﴾ فيما يستقبل من الزمان. وعن الكلبي: «قال له أصحابه - وقد ضجروا من أذى المشركين -: حتى متى نكون على هذا؟ فقال: ﴿ما أَدْرِي ما يفعل بي ولا بكم﴾ أترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرضٍ قد رفعت لي، ورأيتها - يعني: في منامه - ذات نخيل وشجر؟»^(١) و﴿ما﴾ في ﴿ما يفعل﴾ يجوز أن تكون موصولة منصوبة، وأن تكون استفهامية مرفوعة. وإنما دخل ﴿لا﴾ في قوله: ﴿ولا بكم﴾، مع أن ﴿يُفْعَلُ﴾ مثبت غير منفي، لتناول النفي في ﴿ما أَدْرِي﴾ ما، وما في حيزه ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هو عبد الله بن سلام عند الجمهور. ولهذا قيل: إن هذه الآية مدنية لأن إسلام ابن سلام بالمدينة. روي: أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر إلى

عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ

وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، قال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرار الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشرار الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزع، وإن سبق ماء المرأة نزعته». فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً^(١) ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ الضمير للقرآن، أي: مثله في المعنى، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من: التوحيد، والوعد، والوعيد، وغير ذلك. ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله، وكفرتم به، وشهد شاهد على نحو ذلك، يعني: كونه من عند الله ﴿فَقَامَنَ﴾ الشاهد ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به. وجواب الشرط محذوف، تقديره: ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفَرْتُمْ بِهِ﴾ أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ؟! ويدل على هذا المحذوف: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. والواو الأولى عاطفة لـ: ﴿كُفَرْتُمْ﴾ على فعل الشرط، وكذلك الواو الأخيرة عاطفة لـ: ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على ﴿شَهِدَ شَاهِدًا﴾. وأما الواو في ﴿وَشَهِدَ﴾ فقد عطفت جملة قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ قَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على جملة قوله: ﴿كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفَرْتُمْ بِهِ﴾ والمعنى: ﴿قُلْ﴾ أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله، فإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به، أَلَسْتُمْ أَضَلَّ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمْ؟

١١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم، وهو كلام كفار مكة،

قالوا: عامة من يتبع محمداً السقاط، يعنون: الفقراء، مثل: عمار، وصهيب، وابن مسعود ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ العامل في ﴿إِذْ﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه،

(١) رواه أحمد (٣/ ١٠٨) والبخاري (٣٣٢٩) والنسائي في عشرة النساء (١٨٩) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٨-٥٢٩) وابن حبان (٧١٦١).

فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا

تقديره: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ ظهر عنادهم. وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبب عنه. وقولهم: ﴿إفك قديم﴾ أي: كذب متقادم، كقولهم: ﴿أَسْطِيطِرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

١٢- ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: القرآن ﴿كَتَبْتُ مُوسَى﴾ أي: التوراة. وهو مبتدأ و﴿من قبله﴾ ظرف واقع خبراً مقدماً عليه. وهو ناصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، نحو: في الدار زيد قائماً. ومعنى ﴿إِمَامًا﴾: قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه، كما يؤتم بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به، وعمل بما فيه ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كَتَبْتُ مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى، ولما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير الكتاب في ﴿مُصَدِّقٌ﴾. والعامل في ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أو: من ﴿كتاب﴾ لتخصّصه بالصفة، ويعمل فيه معنى الإشارة. وجوز أن يكون مفعولاً لـ: ﴿مُصَدِّقٌ﴾، أي: يصدّق ذا لسان عربي، وهو الرسول ﴿لِيُنْذِرَ﴾ أي: الكتاب ﴿لِيُنْذِرَ﴾: حجازي، وشامي ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿وَيُشْرَىٰ﴾ في محل النصب معطوف على محل ﴿لِيُنْذِرَ﴾ لأنه مفعول له ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ للمؤمنين المطيعين.

١٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على توحيد الله، وشرعية نبيه محمد ﷺ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عند الموت.

١٤- ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ والعامل فيه معنى الإشارة؛ الذي دلّ عليه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَزَاءً﴾: مصدر لفعل دلّ عليه الكلام، أي: جوزوا ﴿جَزَاءً﴾.

١٥- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ كوفي، أي: وصّيناه بأن يحسن ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ غيرهم، أي: وصّيناه بوالديه أمراً ذا حسن، أو: بأمر ذي حسن، فهو في موضع البدل من قوله ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وهو من بدل الاشتمال

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَفَصَّلَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَلِإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ بفتح الكاف: حجازي، وأبو عمرو. وهما لغتان في معنى المشقة. وانتصابه على الحال، أي: ذات كره، أو: على أنه صفة للمصدر، أي: حملاً ذا كره ﴿وَحَمَلَهُ وَفَصَّلَتْهُ﴾ ومدة حملة وطاقمه ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بقيت للحمل ستة أشهر. وبه قال أبو يوسف ومحمد - رحمهما الله -. وقال أبو حنيفة - رحمه الله -: المراد به: الحمل بالأكف ﴿وفصله﴾: يعقوب. والفصل والفصال كالقطم والقطام، بناءً ومعنى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ هو جمع، لا واحد له من لفظه. وكان سيويه يقول: واحده شدة. وبلوغ الأشد: أن يكتهل، ويستوفي السن التي تستحكم فيها قوته وعقله، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة. ووجهه: أن يكون ذلك أول الأشد، وغايته الأربعين ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ - المراد به: نعمة التوحيد والإسلام. وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه؛ لأن النعمة عليهما نعمة عليه - ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ - قيل: هي الصلوات الخمس - ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: اجعل ذريتي موقعاً للصالح، ومظنة له ﴿إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ﴾ من كل ذنب ﴿وَلِإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من المخلصين.

١٦ - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: حمزة وعلي وحفص. ﴿يُنْقَبَلُ﴾ ﴿وَيُتَجَاوَزُ﴾ ﴿أَحْسَنُ﴾: غيرهم ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ هو كقولك: أكرمني الأمير في ناس من أصحابه. تريد: أكرمني في جملة من أكرم منهم ونظمني في عدادهم. وعمله النصب على الحال على معنى كائنين ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ ومعدودين فيهم ﴿وَعَدَ الصَّادِقُ﴾ مضدر مؤكد لأن قوله يتقبل ويتجاوز وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز

الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِ لَكُمْ أَنْ تُعَدِّينِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ

قيل: نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وفي أبيه أبي قحافة، وأمه
أم الخير، وفي أولاده، واستجابة دعائه فيهم. فإنه آمن بالنبي ﷺ وهو ابن ثمان
وثلاثين سنة. ودعا لهما وهو ابن أربعين سنة. ولم يكن أحد من الصحابة من
المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر - رضي الله
عنهم - ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

١٧ - ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿أولئك الذين حق عليهم
القول﴾. والمراد بالذي قال: الجنس القائل ذلك القول؛ ولذلك وقع الخبر
مجموعاً. وعن الحسن - رضي الله عنه -: هو في الكافر العاق لوالديه، المكذب
بالبعث. وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنه - قبل إسلامه.
ويشهد لبطلانه كتاب معاوية إلى مروان ليأمر الناس بالبيعة ليزيد. فقال
عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هرقلية. أتبايعون لأبنائكم؟ فقال مروان:
يا أيُّها الناس هذا الذي قال الله تعالى فيه ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾.
فسمعت عائشة رضي الله عنها فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن
أسميه لسميته، ولكن الله تعالى لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فضض من لعنة
الله^(١). أي: قطعة ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ مدني وحفص ﴿أَف﴾ مكِّي وشامي ﴿أَف﴾
غيرهم. وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر، كما إذا قال:
حسن؛ علم أنه متوجع. واللام للبيان. أي: هذا التأنيف لكما خاصة
ولأجلكما دون غيركما ﴿أُعَدِّينِي أَنْ أَخْرَجَ﴾ أن أبعث و﴿أخرج﴾ من الأرض
﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ ولم يبعث منهم أحد ﴿وهما﴾ أبواه ﴿يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ﴾
يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله، ويقولان له:
﴿وبيك﴾ دعاء عليه بالثبور. والمراد به: الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة
الهلاك ﴿ءَامِنُ﴾ بالله وبالبعث ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حق﴾ صدق ﴿فَيَقُولُ﴾

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١٤٩١).

مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَيْنِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

لهما: ﴿مَا هَذَا﴾ القول ﴿إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾.

١٨- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] ﴿فِي أَمْرٍ﴾ في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَيْنِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾.

١٩- ﴿وَلِكُلِّ﴾ من الجنسين المذكورين الأبرار والفسّاق ﴿دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: منازل ومراتب ﴿مِنْ﴾ جِزَاءٍ ﴿مَا عَمِلُوا﴾ من الخير والشر. أو ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿مَا عَمِلُوا﴾ منهما. وقيل: ﴿درجات﴾، وقد جاء: الجنة درجات، والنار دركات، على وجه التغليب ﴿وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ﴾ بالياء: مكِّي، وبصري، وعاصم ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾. أي: ﴿وليُوفيَهُمْ أعمالهم﴾ ولا يظلمهم حقوقهم، قدّر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات، فاللام متعلقة بمحذوف.

٢٠- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ عرضهم على النار: تعذيبهم بها. من قولهم: عَرَضَ بنو فلان على السيف إذا قتلوا به وقيل: المراد: عرض النار عليهم، من قولهم: «عرضت الناقة على الحوض» يريدون: عرض الحوض عليها، فقلبوا ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي: يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ وهو ناصب الظرف ﴿طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾. أي: ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم. وقد ذهبتم به وأخذتموه. فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها. وعن عمر - رضي الله عنه - : لو شئت لكنت أطيكم طعاماً، وأحسنكم لباساً، ولكنني أستقي طيباتي ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ بالطيبات ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: الهوان. وقرئ به ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تتكبرون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: باستكباركم وفسقكم.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢) ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا بِجَهْلُوهُمْ﴾ (٢٣) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِفًا﴾

٢١- ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: هوداً ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حَقْف، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، من: احقوق الشيء إذا اعوجَّ. عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو واد بين عمان ومهرة ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر، أو: الإنذار ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من قبل هود ومن خلف هود. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ وقع اعتراضاً بين: ﴿أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾ وبين: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. والمعنى: ﴿واذكر﴾ إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك.

٢٢- ﴿قَالُوا﴾ أي: قوم هود ﴿أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ﴾ لتصرفنا. فالأفك: الصرف. يقال: أفكه عن رأيه ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من معالجة العذاب على الشرك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك.

٢٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ولا علم لي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وبالتخفيف أبو عمرو. أي: الذي هو شأني أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف ﴿وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا بِجَهْلُوهُمْ﴾ أي: ولكنكم جاهلون لا تعلمون: أن الرسل بعثوا منذرين، لا مقترحين، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

٢٤، ٢٥- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿ما تعدنا﴾ أو: هو مبهم وضح أمره بقوله: ﴿عَارِضًا﴾ إما تمييزاً أو حالاً. والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق من السماء ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِفًا﴾. روي: أن المطر قد احتبس عنهم فرأوا سحابة استقبلت أوديتهم، فقالوا: هذا سحاب يأتينا بالمطر،

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا
يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ
فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُؤَادَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا
أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

وأظهروا من ذلك فرحاً. وإضافة «مستقبل» و«مطر» مجازية غير معرفة؛ بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود ﴿بَلْ هُوَ﴾. ويدل عليه قراءة من قرأ: (قال هود بل هو) ﴿مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب. ثم فسره فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجَمَّ الكثير. فعبّر عن الكثرة بالكليّة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ربّ الريح ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ عاصم وحزة وخلف. أي: ﴿لا يرى﴾ شيء ﴿إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾. غيرهم: ﴿لا ترى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ والخطاب للرائي من كان ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك ﴿نَجْزِي﴾ من أجرم مثل جرمهم. وهو تحذير لمشركي العرب. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: اعتزل هود - عليه السلام - ومن معه في حظيرة، ما يصيبهم من الريح إِلَّا ما تلذه الأنفُس، وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة.

٢٦ - ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية. أي: فيما ما مكنّاكم فيه. إِلَّا أَنْ ﴿إِنْ﴾ أحسن في اللفظ لما في جماعة ما مثلها من التكرير المستبشع. ألا ترى: أَنَّ الأصل في مهما ما ما، فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء. وقد جعلت ﴿إِنْ﴾ صلة وتؤول بأنّا ﴿مَكَنَّاكُمْ فِي﴾ مثل ما ﴿مَكَنَّاكُمْ فِيهِ﴾. والوجه هو الأول. لقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَاوَرِيكَا﴾ [مريم: ٧٤] ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا﴾ [غافر: ٨٢]. و﴿مَا﴾ بمعنى الذي، أو: نكرة موصوفة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُؤَادَةً﴾ أي: آلات الدرك والفهم ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ﴿من شيء﴾ من الإغناء، وهو القليل منه ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ «إِذْ»: نصب بقوله: ﴿فَمَا أَغْنَى﴾. وجرى مجرى التعليل لاستواء مؤدّى التعليل والظرف في قولك: ضربته لإساءته، وضربته إِذْ أساء. لأنك إِذَا ضربته في وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه، إِلَّا

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا
الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ
ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ
يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا

أَن إِذْ، وحيث غلبنا دون سائر الظروف في ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ ونزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جزاء استهزائهم. وهذا تهديد لكفار مكة، ثم زادهم تهديداً بقوله:

٢٧- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿مِنَ الْقُرَىٰ﴾ نحو: حجر ثمود، وقرى قوم لوط. والمراد: أهل القرى. ولذلك قال: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: كررنا عليهم الحجج وأنواع العبر ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الطغيان إلى الإيمان فلم يرجعوا.

٢٨- ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاً ﴿نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ القربان ما تقرب به إلى الله تعالى. أي: اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله تعالى؛ حيث قالوا: هؤلاء شفعائنا عند الله. وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين محذوف. أي: اتخذوهم. والثاني ﴿آلِهَةً﴾. و﴿قُرْبَانًا﴾ حال ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرتهم ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وذلك: إشارة إلى امتناع نصره آلهم لهم، وضلالهم عنهم. أي: ﴿وَذَلِكَ﴾ أثر ﴿إِفْكِهِمْ﴾ الذي هو اتخاذهم إيها آلهم، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب.

٢٩- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك. والنفر دون العشرة ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ جن نصيين ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ منه - عليه الصلاة والسلام - ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: الرسول ﷺ أو القرآن. أي: ﴿فَلَمَّا﴾ كانوا منه بحيث يسمعون ﴿قَالُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض ﴿أَنْصِتُوا﴾ اسكتوا مستمعين. روي: أَنَّ الْجِنَّ كَانَتْ تَسْرِقُ السَّمْعَ، فَلَمَّا حَرَسَتْ السَّمَاءَ وَرَجَعُوا بِالشَّهْبِ قَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا لِنَبِيٍّ حَدَثَ، فَنَهَضَ سَبْعَةَ نَفَرٍ، أَوْ تِسْعَةً مِنْ أَشْرَافِ جَنِّ

فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ
مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا
دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

نصييين، أو نينوى، منهم: زوبعة. فضربوا حتى بلغوا تهامة. ثم اندفعوا إلى وادي نخلة فوافقوا رسول الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلي، أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته^(١). وعن سعيد بن جبير: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا زآهم، وإنما كان يتلو في صلاته، فمروا به، فوقفوا مستمعين، وهو لا يشعر، فأنبأه الله باستماعهم^(٢). وقيل: بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم، فصرف إليه نفرأ منهم، فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعني؟ قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لم يحضره ليلة الجن أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون، فخط لي خطأ وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً. فقال لي رسول الله ﷺ: «هل رأيت شيئاً؟» قلت: نعم، رجالاً سوداً. فقال: «أولئك جن نصييين». وكانوا اثني عشر ألفاً، والسورة التي قرأها عليهم «اقرأ باسم ربك»^(٣) ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فرغ النبي ﷺ من القراءة ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ إياهم.

٣٠، ٣١ - ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ وإنما قالوا من بعد موسى لأنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى - عليه السلام - ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ إلى الله تعالى ﴿وَالِإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿وَأَمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾. قال أبو حنيفة - رحمه الله -: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار لهذه الآية. وقال مالك وابن

(١) متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله.

(٢) هو في الحديث الذي قبله.

(٣) قال الحافظ: لم أجده بتمامه في سياق واحد (حاشية الكشاف ٤/٣١٢).

وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

أبي ليلي وأبو يوسف ومحمد - رحمهم الله - : لهم الشواب والعقاب. وعن الضحاك : أنهم يدخلون الجنة، ويأكلون، ويشربون؛ لقوله تعالى : ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَٰهٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌ﴾ [الرحمن : ٥٦].

٣٢- ﴿وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : لا ينجي منه مهرب ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

٣٣- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَقَدِيرٍ﴾ هو كقوله : ﴿وَمَا مَسْكَنًا مِنْ أَفْئِدَةٍ﴾ [ق : ٣٨]. ويقال : عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ﴿بَقَدِيرٍ﴾ محله الرفع ؛ لأنه خبر «أَنَّ» يدل عليه قراءة عبد الله (قادر)، وإنما دخلت الباء لاشتغال النفي في أول الآية على : أَنَّ وما في حيزها. وقال الزجاج : لوقلت : ما ظننت أَنَّ زيداً بقائم جاز كأنه قيل : أليس الله بقادر؟ ألا ترى إلى وقوع : «بلى» مقررّة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره لا لرؤيتهم ﴿عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى﴾ هو جواب للنفي ﴿إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣٤- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يقال : لهم : ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟ فناسب الظرف القول المضمّر. و«هذا» إشارة إلى العذاب ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم في الدنيا.

٣٥- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ﴾ أولو الجِدِّ والثبات والصبر ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ «من» : للتبعية. والمراد بأولي العزم : ما ذكر في الأحزاب : ﴿وَلِإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧]. ويونس ليس منهم ؛ لقوله : ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم : ٤٨]. وكذا آدم لقوله : ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه : ١١٥]. أو : للبيان، فيكون أولو العزم صفة

وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَ
يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

الرسول كلهم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لكفار قريش بالعذاب. أي: لا تدع لهم بتعجيله، فإنه نازلٌ بهم لا محالة وإن تأخر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ أي: أنهم يستقصرون حينئذ مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ساعة من نهار ﴿بَلَّغَ﴾ هذا ﴿بَلَغَ﴾. أي: هذا الذي وعظمت به كفاية في الموعظة. أو: هذا تبليغ من الرسول ﴿فَبَلَ يُهْلِكُ﴾ هلاك عذاب. والمعنى: فلن يَهْلِكَ بعذاب الله ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: المشركون الخارجون عن الاعتاظ به والعمل بموجبه.

* * *

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَعَمَلُوا يُمَازِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

١ - ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أعرضوا، وامتنعوا عن الدخول في الإسلام، أو صدّوا غيرهم عنه. قال الجوهري: صدّ عنه، يصدّ، صدوداً: أعرض. وصدّه عن الأمر، صدّاً: منعه، وصرفه عنه. وهم المطعمون يوم بدر، أو: أهل الكتاب، أو: عامٌّ في كلّ من كفر وصدّ ﴿أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها، وحقيقته: جعلها ضالّةً ضائعةً ليس لها من يتقبّلها، ويثيب عليها؛ كالضالّة من الإبل. وأعمالهم: ما عملوه في كفرهم من صلة الأرحام، وإطعام الطعام، وعمارة المسجد الحرام. أو ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصد عن سبيل الله.

٢ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هم ناس من قريش، أو: من الأنصار، أو: من أهل الكتاب، أو: عامٌّ ﴿وَعَمَلُوا يُمَازِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن. وتخصيص الإيمان بالمتزل على رسوله من بين ما يجب الإيمان به لتعظيم شأنه. وأكّد ذلك بالجملة الاعتراضية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: القرآن. وقيل: إنّ دين محمد ﷺ هو الحق؛ إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لغيره ﴿كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها، وتوبتهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور

ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْفُكٌ أَوْ قَتْلٌ أَوْ مَبْرَءٌ

الدين، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

٣ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. وما بعده خبره. أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر، وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني، والإصلاح كائن بسبب اتباع هؤلاء ﴿الباطل﴾ وهو الشيطان، وهؤلاء ﴿الحق﴾ وهو القرآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ أي: يبين الله ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾. والضمير راجع إلى الناس. أو: إلى المذكورين من الفريقين على معنى: أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم. وقد جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكافرين واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. أو: جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز الأبرار.

٤ - ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل، وقدم المصدر، فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنك تذكر المصدر وتدلّ على الفعل بالنسبة التي فيه. و﴿ضرب الرقاب﴾ عبارة عن القتل، لا أن الواجب تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء، ولأنّ قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته، فوقع عبارة عن القتل وإن ضرب غير رقبته ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ فأسروهم. والوثاق بالفتح والكسر: اسم ما يوثق به. والمعنى: ﴿فشدوا﴾ وثاق الأسارى حتى لا يفلتوا منكم ﴿فَإِمَّا مَأْفُكٌ﴾ أي: بعد أن تأسروهم ﴿وَأَمَّا فِدَاءٌ﴾ ﴿وَمَنَّا﴾ وفداء منصوبان بفعليهما مضميرين أي: ﴿فإمّا﴾ تمنون ﴿مَنّا﴾ أو تفدون ﴿فداء﴾. والمعنى: التخيير بين الأمرين بعد الأسر: بين أن يمتنوا عليهم، فيطلقوهم، وبين أن يفادوهم. وحكم أسارى المشركين عندنا: القتل أو الاسترقاق. والمنّ والفداء المذكوران في الآية منسوخ بقوله: ﴿فَأَقْضُوا الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٥] لأنّ

حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ
وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾

سورة براءة من آخر ما نزل. وعن مجاهد - رحمه الله -: ليس اليوم من ولا فداء [إنما هو الإسلام أو ضرب العنق]^(١) أو المراد بالمن: أن يمن عليهم بترك القتل، ويسترقوا. أو يمن عليهم، فيخلّوا لقبولهم الجزية. وبالفداء: أن يفادي بأسارهم أسارى المشركين^(٢). فقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة - رحمه الله - وهو قولهما. والمشهور: أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لئلا يعودوا حرباً علينا. وعند الشافعي - رحمه الله -: للإمام أن يختار أحد الأمور الأربعة: القتل، والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين، والمن ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أثقالها، وآلاتها التي لا تقوم إلّا بها؛ كالسلاح، والكراع. وقيل: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ آثامها. يعني: ﴿حَتَّى﴾ يترك أهل الحرب؛ وهم المشركون شركهم بأن يسلموا. أو: ﴿حَتَّى﴾ لا يخلو من أن يتعلق بالضرب والشدة أو بالمن والفداء. فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي - رحمه الله -: أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى ألا يكون حرب مع المشركين. وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى - عليه السلام -. وعند أبي حنيفة - رحمه الله -: إذا علّق بالضرب والشدة فالمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين، وإذا علّق بالمن والفداء فالمعنى: أنه يمن عليهم، ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها، إلّا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذَلِكَ﴾ فهو مبتدأ وخبر، أو افعلوا بهم ﴿ذَلِكَ﴾ فهو في محلّ النصب ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم بغير قتال ببعض أسباب الهلاك؛ كالخسف، أو الرجة، أو غير ذلك ﴿وَلَكِنْ﴾ أمرهم بالقتال ﴿لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: المؤمنين بالكافرين تمحيصاً للمؤمنين، وتمحيصاً للكافرين ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ بصريّ وحفص ﴿قَاتِلُوا﴾ غيرهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) كذا في الأصل المخطوط: المشركين وبذلك نعيد الضمير في: (بأسارهم) إلى المسلمين.

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

٥- ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى طريق الجنة أو إلى الصواب في جواب مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ يرضي خصماءهم، ويقبل أعمالهم.

٦- ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ عن مجاهد: عَرَفَهُمْ مساكنهم فيها حتى لا يحتاجوا أن يسألوا، أو: طَيَّبَهَا لَهُمْ من: العَرَفِ، وهو طيب الرائحة.

٧- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: دين الله ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على عدوكم، ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب، أو على محجة الإسلام.

٨- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في موضع رفع بالابتداء. والخبر ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾. وعطف قوله ﴿وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ على الفعل الذي نصب ﴿تَعَسَا﴾؛ لأنَّ المعنى: ﴿فـ﴾ قال: ﴿تَعَسَا لَهُمْ﴾. والتعس: العثور. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يريد: في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردي في النار.

٩- ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التعس والضلال ﴿يَأْذَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: القرآن، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

١٠- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني كفار أمتك ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أهلكتهم هلاك استئصال ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ مشركي قريش ﴿أَمْثَلُهَا﴾ أمثال تلك الهلكة لأن التدمير يدُلُّ عليها.

١١- ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿يَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وليهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا ناصر لهم، فالله مولى العبد من جهة الاختراع، وملك التصرف فيه، والنصرة، فهو مولى المؤمنين والكافرين من جهة الاختراع والتصرف فيهم، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النَّصْرَةِ.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا

١٢ - إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ ﴿١﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿٢﴾ وَيَأْكُلُونَ ﴿٣﴾ غافلين غير مفكرين في العاقبة ﴿٤﴾ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴿٥﴾ في معالفاها ومسارحها غافلة عما هي بصده من النحر والذبح ﴿٦﴾ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿٧﴾ منزل ومقام.

١٣ - ﴿١﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ ﴿٢﴾ أي: وكم ﴿٣﴾ من قرية ﴿٤﴾ - للتكثير. وأراد بالقرية أهلها. ولذلك قال: ﴿٥﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿٦﴾ - ﴿٧﴾ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ ﴿٨﴾ أي: وكم من قرية أشد قوة من قومك الذين أخرجوك؛ أي: كانوا سبب خروجك ﴿٩﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٠﴾ أي: فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم.

١٤ - ﴿١﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴿٢﴾ أي: ﴿٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى ﴿٤﴾ حجة من عنده وبرهان، وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات. يعني: رسول الله ﷺ ﴿٥﴾ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴿٦﴾ هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله. وقال: ﴿٧﴾ سُوءُ عَمَلِهِ ﴿٨﴾ وَالَّتِي أَهْوَاءَهُمْ ﴿٩﴾ للحمل على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

١٥ - ﴿١﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴿٢﴾ صفة الجنة العجيبة الشأن ﴿٣﴾ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴿٤﴾ عن الشرك ﴿٥﴾ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴿٦﴾ داخل في حكم الصلة؛ كالتركيب لها، ألا ترى إلى صحة قولك: التي فيها أنهار. أو حال: أي: مستقرة. فيها أنهار ﴿٧﴾ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴿٨﴾ غير متغير اللون والريح والطعم - يقال: أسن الماء: إذا تغير طعمه وريحه. ﴿٩﴾ أَسِنَ ﴿١٠﴾ مَكِّي ﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴿١٣﴾ كما تتغير ألوان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿١٤﴾ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ ﴿١٥﴾ تأنيث لذ، وهو اللذيذ ﴿١٦﴾ لِلشَّارِبِينَ ﴿١٧﴾. أي: ما هو إلا التلذذ الخالص، ليس معه ذهاب عقل، ولا خمار، ولا صداع، ولا آفة من آفات الخمر ﴿١٨﴾ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴿١٩﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ فِيهَا

مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُونَهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴿١٥﴾ مثل ﴿١٥﴾ مبتدأ خبره ﴿١٥﴾ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴿١٥﴾ حازاً في النهاية ﴿١٥﴾ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾. والتقدير: أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ وهو كلام في صورة الإثبات، ومعناه: النفي لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيّزه. وهو قوله: ﴿١٥﴾ أَفَن كَانَ عَلَىٰ يَنبُوتٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن يُزِي لَمْ سُوءَ عَلَيْهِ ﴿١٥﴾ [محمد: ١٤] وفائدة حذف حرف الإنكار: زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينّة والتابع لهواه، وأنّه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يُسقى أهلها الحميم.

١٦ - ﴿١٦﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴿١٦﴾ هم المنافقون، كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه ولا يعونه، ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم. فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال الساعة؟ على جهة الاستهزاء ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾.

١٧ - ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُونَهُمْ ﴿١٧﴾ الله ﴿١٧﴾ هُدًى ﴿١٧﴾ علماً وبصيرة، أو شرح صدورهم ﴿١٧﴾ وَءَانَّهُمْ يَقُونَهُمْ ﴿١٧﴾ أعانهم عليها. أو: آتاهم جزاء تقواهم. أو: بين لهم ما يتقون.

١٨ - ﴿١٨﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ﴿١٨﴾ أي: ينتظرون ﴿١٨﴾ أَن تَأْتِيَهُمْ ﴿١٨﴾ أي: إتيانها. فهو بدل اشتمال من الساعة ﴿١٨﴾ بَغْتَةً ﴿١٨﴾ فُجَاءَةً ﴿١٨﴾ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴿١٨﴾ علاماتها، وهو مبعث محمد ﷺ، وانشقاق القمر، والدخان. وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللثام ﴿١٨﴾ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ قال الأخفش: التقدير: فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم.

١٩ - ﴿١٩﴾ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ كَذَّبُوا اللَّهَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿١٩﴾. والمعنى: فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله، وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب مَنْ على دينك. وفي شرح التأويلات: جاز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار له ولكننا لا نعلمه، غير أن ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر. وقيل: الفاءات في هذه الآيات لعطف جملة على جملة بينهما اتصال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في معاشكم ومتاجرکم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ ويعلم حيث تستقرون من منازلکم. أو: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في حياتکم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في القبور. أو: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أعمالکم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ من الجنة والنار. ومثله حقيق بأن يتقى، ويخشى، وأن يستغفر. وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ فأمر بالعمل بعد العلم.

٢٠- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكر الجهاد ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿مُحْكَمَةٌ﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتل وجهاً إلا وجوب القتال. وعن قتادة - رحمه الله - كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة؛ لأن النسخ لا يرد عليها من قبل: أن القتال نسخ ما كان من الصفح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: أمر فيها بالجهاد ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ نفاق. أي: رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: تشخص أبصارهم جبناً وجزعاً؛ كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ وعيد بمعنى: فويل لهم. وهو أفعل من الولي، وهو القرب. ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

٢١- ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف. أي: ﴿طاعة وقول معروف﴾ خير لهم ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ فإذا جد الأمر ولزمهم فرض القتال ﴿فَلَوْ كَذَّبُوا اللَّهَ﴾

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا
 أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ
 الْفُرْعَانَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ
 لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

في الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ من كراهة الجهاد.

٢٢- ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب بضرب من التوبيخ والإرهاب فقال:
 ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: فلعلكم، إن
 أعرضتم عن دين رسول الله ﷺ وستته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية
 من الإفساد في الأرض بالتغاور، والتناهب، وقطع الأرحام بمقاتلة بعض
 الأقارب بعضاً، وواد البنات. وخبر عسى: ﴿أَنْ تَفْسِدُوا﴾ والشرط اعتراض
 بين الاسم والخبر. والتقدير: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا
 أرحامكم إن توليتم.

٢٣- ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبغدهم عن رحمته
 ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الموعظة ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ عن إبصارهم طريق الهدى.

٢٤- ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ﴾ فيعرفوا ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد
 العصاة حتى لا يجسروا على المعاصي؟ و﴿أَمْ﴾ في ﴿أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ بمعنى
 بل، وهمزة التقرير؛ للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر،
 ونكرت القلوب لأن المراد: على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك. والمراد:
 بعض القلوب، وهي قلوب المنافقين. وأضيفت الأقفال إلى القلوب؛ لأن المراد
 الأقفال المختصة بها. وهي أقفال الكفر التي استغلقت، فلا تنفتح، نحو:
 الرين، والختم، والطبع.

٢٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: المنافقون،
 رجعوا إلى الكفر سراً بعد وضوح الحق لهم - ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زين ﴿لَهُمْ﴾
 جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لـ: ﴿إِنَّ﴾، نحو: إن زيدا عمرو مَرَّ به -
 ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدّ لهم في الآمال والأمان. ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ أبو عمرو. أي: أمهلوا،
 ومدّ في عمرهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ

٢٦- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي: المنافقون قالوا لليهود ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: عداوة محمد - ﷺ -، والقعود عن نصرته ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ على المصدر من أسر، حمزة وعلي وحفص. ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾ غيرهم. جمع سر.

٢٧- ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ﴿فَكَيْفَ﴾ يعملون؟ وما حيلتهم حيثذا؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره.

٢٨- ﴿ذَٰلِكَ﴾ - إشارة إلى التوفي الموصوف - ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾ من معاونة الكافرين ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ من نصره المؤمنين ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

٢٩- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ أحقادهم. والمعنى: أظنَّ المنافقون: أن الله تعالى لا يبرز بغضهم وعداوتهم للمؤمنين؟

٣٠- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعرفناكم ودللتناك عليهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾ بعلامتهم، وهو أن يسمهم الله بعلامة يُعلمون بها. وعن أنس - رضي الله عنه -: «ما أخفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحدٌ من المنافقين. كان يعرفهم بسيماهم» ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في نحوه وأسلوبه الحسن في فحوى كلامهم؛ لأنهم كانوا لا يقدرون على كتمان ما في أنفسهم. واللام في ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ داخله في جواب ﴿لو﴾ كالتي في ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ كزرت في المعطوف. وأما اللام في ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣١﴾ وَلَتَبْلُوُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ ﴿٣٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٥﴾ فَلَاتَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٦﴾

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣١﴾ فيميز خيرها من شرها.

٣١- ﴿وَلَتَبْلُوُنَّكُمْ﴾ بالقتال إعلاماً لا استعلاماً. أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العدل ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ على الجهاد. أي: نعلم كائناً ما علمنا أنه سيكون ﴿وَتَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أسراركم. ﴿وَلِيلُوُنَّكُمْ﴾ حتى يعلم... ويبلو أبو بكر. وعن الفضيل - رحمه الله -: أنه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لا تبلىنا؛ فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا، وعذبتنا.

٣٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ وعادوه، يعني: المطعمين يوم بدر. وقد مر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنه الحق، وعرفوا الرسول ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها في مشاققة الرسول. أي: سيبتلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم.

٣٣- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بالنفاق أو بالرياء.

٣٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قيل: هم أصحاب القليب. والظاهر العموم.

٣٥- ﴿فَلَاتَهِنُوا﴾ فلا تضعفوا، ولا تذلوا للعدو ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ وبالكسر حمزة وأبو بكر وأبو عمرو. وهما المسألة. أي: ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ﴿وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ﴾ أي: لأغلبون. و﴿تَدْعُوا﴾ مجزوم لدخوله في حكم النهي ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالنصرة. أي: ناصركم ﴿وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْمَالَكُمْ﴾ ولن ينقصكم أجر أعمالكم.

إِنَّمَا لِلْعِيْزَةِ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ
 أَمْوَالُكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ بِبَخْلِهِمْ وَتُخْرِجْ أَصْفَنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ
 هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ
 عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

٣٦- ﴿إِنَّمَا لِلْعِيْزَةِ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ تنقطع في أسرع مدة ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ بالله
 ورسوله ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الشرك ﴿يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ﴾ ثواب إيمانهم وتقواكم ﴿وَلَا يَسْتَلْكُمْ
 أَمْوَالُكُمْ﴾ أي: ولا يسألكم جميعها. بل ربع العشر. والفاعل الله أو الرسول.
 وقال سفيان بن عيينة: غيضاً من فيض.

٣٧- ﴿إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ﴾ أي: يجهدكم ويطلبه كله. والإخفاء:
 المبالغة، وبلوغ الغاية في كل شيء. يقال: أخفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من
 الإلحاح، وأخفى شاره: إذا استأصله ﴿تَبْخُلُوا وَتُخْرِجْ﴾ أي: الله، أو: البخل
 ﴿أَصْفَنَكُمْ﴾ عند الامتناع، أو عند سؤال الجميع؛ لأنه عند مسألة المال تظهر
 العداوة والحق.

٣٨- ﴿هَآأَنْتُمْ﴾ ﴿هَآ﴾ للتنبيه ﴿هَؤُلَاءِ﴾ موصول بمعنى الذين، صلته
 ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي: أنتم الذين تدعون ﴿لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هي النفقة في الغزو
 أو الزكاة. كأنه قيل: الدليل على أنه لو أخفاكم لبخلتم، وكرهتم العطاء: أنكم
 تدعون إلى أداء ربع العشر ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ بالرفع لأن ﴿مَنْ﴾ هذه ليست
 للشرط. أي: فمنكم ناس يبخلون به ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة
 ﴿فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ﴾ أي: يبخل عن داعي نفسه لا عن داعي ربه. وقيل:
 ﴿يبخل﴾ على نفسه، يقال: بخلت عليه، وعنه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾
 أي: إنه لا يأمر بذلك لحاجته إليه؛ لأنه غني عن الحاجات، ولكن لحاجتكم
 وفقركم إلى الثواب ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ وإن تعرضوا أيها العرب عن طاعته وطاعة
 رسوله والإنفاق في سبيله - وهو معطوف على ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ -
 ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قوماً خيراً منكم، وأطوع، وهم فارس. وسئل
 رسول الله ﷺ عن القوم - وكان سلمان إلى جنبه - فضرب على فخذه، وقال:

ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ

«هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجالٌ من فارس»^(١) ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا﴾ في الطاعة ﴿أَمْثَلَكُمْ﴾ بل أطوع منكم.

* * *

(١) رواه أحمد (٤١٧/٢) والبخاري (٤٨٩٨) ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١).

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ

١ - ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ الفتح: الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو بغير حرب؛ لأنه مُنْغَلِقٌ ما لم يظفر به، فإذا ظفر به فقد فتح. ثم قيل: هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح. وجيء به على لفظ الماضي لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر عنه ما لا يخفى. وقيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، فرموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم، وسألوا الصلح، فكان فتحاً مبيناً. وقال الزجاج: كان في فتح الحديبية آية عظيمة، وذلك: أنه نزع مأواها، ولم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم تيمم في البئر، فدرت بالماء حتى شرب جميع الناس. وقيل: هو فتح خيبر. وقيل: معناه: قضينا لك قضاء بيتاً على أهل مكة؛ أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل؛ لتطوفوا بالبيت. من: الفتاحة، وهي: الحكومة.

٢ - ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ قيل: الفتح ليس بسبب للمغفرة. والتقدير: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فاستغفر ﴿ليغفر لك الله﴾. ومثله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأْخَرُ وَيُثَبِّتْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمَ السَّوَاءِ

إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١ - ٣]. ويجوز أن يكون فتح مكة - من حيث إنه جهاد للعدو - سبباً للغفران. وقيل: الفتح لم يكن ليغفر له، بل لإتمام النعمة، والنصر العزيز. ولكنه لما عدد عليه هذه النعم وصلها بما هو أعظم النعم. كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، أو كذا؛ لنجمع لك بين عز الدارين، وأغراض الآجل والعاجل ﴿مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأْخَرُ﴾ يريد: جميع ما فرط منك. أو ﴿ما تقدم﴾ من حديث مارية ﴿وما تأخر﴾ من امرأة زيد ﴿وَيُثَبِّتْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء دينك، وفتح البلاد على يدك ﴿وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويثبتك على الدين المرضي.

٣- ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ قوياً منيعاً لا ذلَّ بعده أبداً.

٤- ٦- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ السكينة للسكون كالبهية للبهتان. أي: أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح؛ ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم. وقيل: السكينة: الصبر على ما أمر الله، والثقة بوعده الله، والتعظيم لأمر الله ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي: ﴿والله جنود السموات والأرض﴾ يسلط بعضها على بعض، كما يقتضيه علمه وحكمته. ومن قضيته: أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية، ووعدهم أن يفتح لهم. وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه، ويشكروها، فيشبههم، ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهه ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمَ السَّوَاءِ﴾ وقع السوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده.

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
 وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَازِيًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا
 وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
 وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

يقال: فَعَلَ سَوْءًا؛ أي: مسخوط فاسد. والمراد: ظنهم أن الله لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ (١) مكي وأبو عمرو. أي: ما يظنونونه ويترتبصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم. والسَّوْءُ: الهلاك والدمار. غيرهما ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بالفتح. أي: الدائرة التي يذمونها، ويسخطونها. السَّوْءُ والسَّوْءُ كالكَرِه والكُرْه والضعف والضعف. إلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء. وأما السوء فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم.

٧- ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيدفع كيد من عادى نبيه ﷺ والمؤمنين بما شاء منها ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَازِيًا﴾ غالباً، فلا يردّ بأسه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر.

٨- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ تشهد على أمتك يوم القيامة، وهذه حال مقدرة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار.

٩- ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ولأُمَّته ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوّه بالنصرة ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظّموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح أو من السبحة، والضمائر لله عزّ وجلّ. والمراد بتعزيز الله: تعزيز دينه ورسوله، ومن فرق الضمائر فجعل الأولين للنبي ﷺ فقد أبعده. ﴿ليؤمنوا﴾ مكي وأبو عمرو. والضمير للناس وكذا الثلاثة الأخيرة بالياء عندهما ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ الصلوات الأربع.

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: بيعة الرضوان. ولما قال ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أكده تأكيداً على طريقة التخييل فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. يريد: أن يد

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: (السَّوْءُ). وهي قراءة: مكي، وأبي عمرو.

فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

رسول الله ﷺ التي تعلقو أيدي المبايعين هي يد الله، والله منزّه عن الجوارح، وعن صفات الأجسام. وإِنَّمَا المعنى: تقرير أنّ عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما؛ كقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. و﴿إِنَّمَا يَبَايَعُونَ اللَّهَ﴾ خبر إنّ ﴿فَمَنْ نَّكَثَ﴾ نقض العهد ولم يف بالبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلّا عليه. قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت وعلى إلّا نفرًا: فما نكث أحد منا البيعة إلّا جذ بن قيس، وكان منافقًا. اختبأ تحت إبطٍ بعيره، ولم يسر مع القوم^(١) ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ﴾ يقال: وفيت بالعهد، وأوفيت به. ومنه قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَالْمُؤُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ حفص ﴿فَمِيسُورٌ بِهِ﴾ - وبالنون حجازي وشامي - ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الجنة.

١١ - ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم الذين خلفوا عن الحديبية. وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والدليل. وذلك أنّه ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت. وأحرم هو ﷺ، وساق معه الهدى لِيُعْلَمَ: أنّه لا يريد حربًا. فتناقل كثير من الأعراب، وقالوا: يذهب إلى قوم غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم. وظنّوا: أنّه يهلك، فلا ينقلب إلى المدينة ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ هي جمع أهل. اعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنّه ليس لهم من يقوم بأشغالهم ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ليغفر لنا الله تخلفنا عنك ﴿يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم، وأنّ الذي خلفهم ليس ما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق،

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. (حاشية الكشف ٤/٣٣٥). وروى بعضه أحمد

(٣/٣٩٦) ومسلم (١٨٥٦) (٦٨ و ٦٩) والترمذي (١٥٩١) والنسائي (٧/١٤٠).

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ

وطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادقٍ عن حقيقة ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿ضَرًّا﴾ حمزة وعلي ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ من غنيمه وظفر ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١٢ - ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ زينه الشيطان ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا﴾ من علو الكفر وظهور الفساد ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ جمع بائر كعائد وعوذ. من: بار الشيء: هلك، وفسد. أي: ﴿وكنتم قوما﴾ فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم، لا خير فيكم. أو: هالكين عند الله مستحقين لسخطه وعقابه.

١٣ - ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: لهم، فأقيم الظاهر مقام الضمير للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين: الإيمان بالله، والإيمان برسوله فهو كافر. ونكر ﴿سَعِيرًا﴾ لأنها نار مخصوصة. كما نكر ﴿نَارًا تَلْقَى﴾ [الليل: ١٤].

١٤ - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يغفر ويعذب بمشيئته وحكمته. وحكمته: المغفرة للمؤمنين، والتعذيب للكافرين ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ سبقت رحمته غضبه.

١٥ - ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى غنائم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾. ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾ حمزة وعلي. أي: يريدون أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية.

قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِّحُوا لَهُ تَحْسُدُونَ لَهُ كَانُوا لَا
يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٩﴾ قُلِ الْمَخْلُوفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ
يَقْتُلُونَ نِسَاءَهُمْ أَوْ يَسْلُبُونَ أَوْ يَطْغَوْنَ بِتُوكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وذلك : أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغنم مكة مغنم خيبر إذا قفلوا مواعدين ، لا يصيبون منهم شيئاً ﴿ قُلْ لَنْ تَنفَعُونَا ﴾ إلى خيبر . وهو إخبار من الله بعدم اتباعهم ، ولا يبدل القول لديه ﴿ كَذَلِكَم قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ انصرفهم إلى المدينة : إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية دون غيرهم ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أي : لم يأمركم الله به ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نشارككم في الغنيمة ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴾ من كلام الله ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إلا شيئاً قليلاً . يعني مجرد القول . والفرق بين الإضرابين : أنّ الأول : ردّ أن يكون حكم الله ألاّ يتبعوهم وإثبات الحسد ، والثاني : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه .

١٦- ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمًا أَولَىٰ بِأَنِسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: بني حنيفة، قوم مسيلمة، وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر رضي الله عنه؛ لأنّ مشركي العرب والمرتدّين هم الذين لا يقبل منهم إلّا الإسلام أو السيف. وقيل: هم فارس، وقد دعاهم عمر - رضي الله عنه - ﴿تَقْنَلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكون أحد الأمرين؛ إما المقاتلة، أو الإسلام. ومعنى ﴿يسلمون﴾ على هذا التأويل: ينقادون؛ لأنّ فارس مجوس تقبل منهم الجزية. وفي الآية دلالة صحّة خلافة الشيخين حيث وعدهم الثواب على طاعة الداعي عند دعوته بقوله: ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا﴾ من دعاكم إلى قتاله ﴿يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ فوجب أن يكون الداعي مفترض الطاعة. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: عن الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

١٧ - ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ نفى الحرج عن ذوي العاهات في التخلف عن الغزو ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الجهاد وغير

يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ

ذلك ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الطاعة ﴿يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿ندخله﴾ و﴿نعذبه﴾ مدني وشامي.

١٨ - ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هي بيعة الرضوان. سميت بهذه الآية. وقصتها: أنَّ النبي ﷺ حين نزل بالحديبية بعث حوَّاس بن أمية الخزاعي رسولاً إلى مكة، فهموا به، فمنعه الأحابيش. فلما رجع دعا بعمر - رضي الله عنه - لبيعه، فقال: إني أخافهم على نفسي لما عُرف من عداوتي إياهم. فبعث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فخبّرهم: أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً للبيت، فوَقَرُوهُ، واحتبس عندهم، فأزجف بأنهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم. ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه على أن يناجزوا قريشاً ولا يفرّوا. ﴿تحت الشجرة﴾ وكانت سمرة. وكان عدد المبايعين ألفاً وأربعمئة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَبَهُمْ﴾ وجازاهم ﴿فَتَحًّا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة.

١٩ - ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغنم خيبر. وكانت أرضاً ذات عقار وأموال، فقسّمها عليهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعاً فلا يغالب ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يحكم فلا يعارض.

٢٠ - ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي ما أصابوه هم مع النبي ﷺ وبعده إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ المغنم. يعني: مغنم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني: أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم. فقذف الله في قلوبهم الرعب فانصرفوا. وقيل: أيدي أهل مكة

وَلْيَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلِ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ

بالصلح ﴿وَلْيَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله عز وجل بمكان، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم، وفعل ذلك ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة، ويقيناً، وثقة بفضل الله.

٢١- ﴿وَأُخْرَى﴾ معطوفة على ﴿هذه﴾. أي: فَعَجَّلَ لَكُمْ ﴿هذه﴾ المغنم ﴿و﴾ مغنم ﴿أُخْرَى﴾ هي مغنم هوازن في غزوة حنين ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: قدر عليها، واستولى، وأظهركم عليها. ويجوز في ﴿أُخْرَى﴾ النصب بفعل مضمر يفسره ﴿قد أحاط الله بها﴾ تقديره ﴿و﴾ قضى الله ﴿أُخْرَى﴾ قد أحاط بها. وأما ﴿لم تقدرُوا عليها﴾ فصفة لأخرى. والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بـ ﴿لم تقدرُوا﴾ و﴿قد أحاط الله بها﴾ خبر المبتدأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ قادراً.

٢٢- ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يصلحوا - أو من حلفاء أهل خيبر - ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ﴾ لغلّبوا وانهزموا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

٢٣- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكد. أي: سنّ الله غلبة أنبيائه سنّة. وهو قوله: ﴿لَا غَلَبَتْ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلِ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

٢٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أي: أيدي أهل مكة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ عن أهل مكة. يعني: قضى بينهم وبينكم المكافئة والمجازة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة. وذلك يوم الفتح. وبه استشهد أبو حنيفة - رضي الله عنه - على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً. وقيل: كان في غزوة الحديبية؛ لما روي: أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمئة، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه، وأدخله

يَبْطِنُ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ

حيطان مكة^(١). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت ﴿يَبْطِنُ مَكَّةَ﴾ أي: بمكة. أو بالحديبية لأن بعضها منسوب إلى الحرم ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أقدركم وسلطكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وبالبيان أبو عمرو.

٢٥ - ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ﴾ هو ما يهدي إلى الكعبة. ونصبه عطفاً على ﴿كَمْ﴾ في ﴿صَدُّوكُمْ﴾ أي: ﴿صَدُّوكُمْ﴾ و﴿وَصَدُّوا﴾ الهدي ﴿مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ﴾ محبوساً عن ﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾. و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال. وكان ﷺ ساق سبعين بدنة ﴿مَحْلُهُ﴾ مكانه الذي يحل فيه نحره. أي: يجب. وهذا دليل على أَنَّ المحصر محلُّ هديه الحرم. والمراد: المحلُّ المعهود، وهو منى ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ﴾ بمكة ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للرجال والنساء جميعاً ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ بدل اشتغال منهم، أو من الضمير المنصوب في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾ ﴿فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾ إثم وشدة. وهي مفعلة من: عَرَّه، بمعنى عَرَّاهُ: إذا دهاه ما يكرهه، ويشقُّ عليه. وهو الكفارة إذا قتله خطأ، وسوء قالة المشركين: أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والإثم إذا قصر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾. يعني: ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ غير عالين بهم. والوطة: عبارة عن الإيقاع والإبادة. والمعنى: أَنَّهُ كَانَ بِمَكَّةَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَخْتَلَطُونَ بِالْمَشْرِكِينَ غَيْرَ مُمْتَازِينَ مِنْهُمْ. فقيل: ﴿وَلَوْلَا﴾ كراهة أَنْ تَهْلِكُوا نَاسًا مُؤْمِنِينَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمَشْرِكِينَ، وَأَنْتُمْ غَيْرُ عَارِفِينَ بِهِمْ، فَيُصِيبُكُمْ بِإِهْلَاكِهِمْ مَكْرَهُهُ وَمَشَقَّةٌ؛ لَمَا كَفَّ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ. وقوله: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعليل لما دلت عليه الآية وسيقت له من كف الأيدي عن أهل مكة والمنع عن قتلهم صوتاً

لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى

لمن بين أظهرهم من المؤمنين. كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ﴿ليدخل الله في رحمته﴾ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنهم، أو: ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين وجواب ﴿لولا﴾ محذوف أغنى عنه جواب ﴿لو﴾. ويجوز أن يكون ﴿لو تزيّلوا﴾ كالتكرير لـ ﴿لولا رجال مؤمنون﴾ لرجعهما إلى معنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو الجواب. تقديره: ﴿ولولا﴾ أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف ﴿منهم﴾ من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢٦ - والعامل في: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قريش ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ أي: لعذبناهم في ذلك الوقت. أو: اذكر ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بحمية الذين كفروا، وهي الأنفة، وسكينة المؤمنين، وهي الوقار: ما يروي: أن رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام. ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً. فقال ﷺ لعلي - رضي الله عنه -: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا. ولكن اكتب: باسمك اللهم. ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة». فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة. فقال ﷺ: «اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أنني رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا^(١) ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ الجمهور على أنها كلمة

(١) رواه البخاري (٢٧٣١ و ٢٧٣٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٤/١٠٥).

وَكَاْنُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ
الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ

الشهادة. وقيل: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. والإضافة إلى التقوى باعتبار أنها
سبب التقوى وأساسها. وقيل: ﴿كلمة﴾ أهل ﴿التقوى﴾ ﴿وَكَاْنُوا﴾ أي:
المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَأَهْلَهَا﴾ بتأهيل الله إياهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجري الأمور على مصالحها.

٢٧ - ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أي: صدقه في رؤياه ولم يكذبه - تعالى
الله عن الكذب - فحذف الجارّ وأوصل الفعل؛ كقوله: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ
عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] روي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى
الْحُدَيْبِيَةِ كَأَنَّهُ وَأَصْحَابُهُ قَدْ دَخَلُوا مَكَّةَ آمِنِينَ وَقَدْ حَلَقُوا وَقَصَرُوا. فَقَصَّ الرُّؤْيَا
عَلَى أَصْحَابِهِ، ففَرَحُوا، وَحَسِبُوا أَنَّهُمْ دَاخِلُوهَا فِي عَامِهِمْ. وَقَالُوا: إِنَّ رُؤْيَا
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَقٌّ. فَلَمَّا تَأَخَّرَ ذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَغِيْرِهِ: وَاللَّهِ!
مَا حَلَقْنَا، وَلَا قَصَرْنَا، وَلَا رَأَيْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. فَتَزَلَّتْ ^(١) ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق
بـ ﴿صَدَقَ﴾ أي: صدقه فيما رأى في كونه وحصوله صدقاً ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾
أي: بالحكمة البالغة. وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن الخالص
وبين من في قلبه مرض. ويجوز أن يكون ﴿بِالْحَقِّ﴾ قسماً؛ إمَّا بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ
نَقِيضُ الْبَاطِلِ، أَوْ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ مِنْ أَسْمَائِهِ. وَجَوَابُهُ: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ﴾. وَعَلَى الْأَوَّلِ هُوَ جَوَابُ قِسْمٍ مَحْذُوفٍ ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ حكاية من الله
تعالى قول رسوله لأصحابه وقصهم عليه. أو تعليم لعباده أن يقولوا في عداتهم
مثل ذلك متأدين بأدب الله، ومقتدين بستته ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، والشرط
معترض ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿آمِنِينَ﴾ ﴿رُءُوسَكُمْ﴾ أي: جميع
شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بعض شعورها ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٤٥). وروى ابن جرير بعضه كما
في: الدر المنثور (٧/ ٥٣٨).

فَتَحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ تَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُّجْتَدِدًا بَيِّتُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ

أي من دون فتح مكة ﴿فَتَحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

٢٨- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ بالتوحيد ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جنس الدين. يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين وأهل الكتاب، ولقد حقق ذلك سبحانه، فإنك لا ترى ديناً قط إلا وللإسلام دونه العزة والغلبة. وقيل: هو عند نزول عيسى عليه السلام؛ حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن. عن الحسن - رضي الله عنه -: شهد على نفسه أنه سيظهر دينه. والتقدير: وكفاه الله شهيداً. و﴿شَهِيدًا﴾ تمييز، أو حال.

٢٩- ﴿تَحْمَدُ﴾ خبر مبتدأ. أي: هو ﴿مُحَمَّدٌ﴾ لتقدم قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾. أو مبتدأ خبره ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾. وقف عليه نصير ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ - أي: أصحابه: مبتدأ. والخبر ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾. أو: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ. و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ عطف بيان و﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ عطف على المبتدأ. و﴿أَشِدَّاءُ﴾ خبر عن الجميع. ومعناه: غلاظ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ متعاطفون. وهو خبر ثان. وهما جمعاً شديداً، ورحيم، ونحوه ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وبلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتزق بشياهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم. وبلغ من تراحمهم فيما بينهم: أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه ﴿تَرْتَهُمُ رُكْعًا﴾ راكعين ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين ﴿بَيِّتُونَ﴾ حال، كما أن ﴿رُكْعًا﴾ و﴿سُجَّدًا﴾ كذلك ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي: من التأثير الذي يؤثره السجود. وعن عطاء - رحمه الله -: استنارت وجوههم من طول ما صلوا

ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

بالليل، لقوله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»^(١) ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾ وعليه وقف ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ﴾ فراخه. يقال: أسطأ الزرع: إذا فرخ ﴿فَآزَرَهُ﴾ قواه. ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ شامي فصار من الرقة إلى الغلظ ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فاستقام على قصبه. جمع ساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يتعجبون من قوته. وقيل: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرهم بالمعروف، وينهون عن المنكر. وعن عكرمة - رضي الله عنه - ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ بأبي بكر ﴿فَآزَرَهُ﴾ بعمر ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ بعثمان ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ بعلي - رضي الله عنهم -. وهذا مثل ضربه الله تعالى لبدء أمر الإسلام وترقيته في الزيادة إلى أن قوي واستحكم؛ لأن النبي ﷺ قام وحده، ثم قواه الله تعالى بمن آمن معه؛ كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرع ﴿لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة. ويجوز أن يعلل به ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك. و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْهُمْ﴾ للبيان كما في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] أي: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ الذي هو الأوثان. وقولك: أنفق من الدراهم. أي: اجعل نفقتك هذا الجنس. وهذه الآية ترد قول الروافض: إنهم كفروا بعد وفاة النبي ﷺ. إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنما يكون أن لو ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

١ - ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا﴾ قدمه وأقدمه منقولان بثقل الحشو والهمزة، من قدمه؛ إذا تقدمه في قوله تعالى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ [هود: ٩٨]. وحذف المفعول ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم من القول أو الفعل. وجاز ألا يقصد مفعول، والنهي متوجه إلى نفس المقدمة. كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّمُ وَيُمَيِّتُ﴾ [المؤمنون: ٨٠] أو هو من قدم بمعنى تقدم كوجه [بمعنى توجه] ^(١). ومنه: مقدمة الجيش. وهي الجماعة المتقدمة منه. ويؤيده قراءة يعقوب ﴿لَا تَقْدَمُوا﴾ بحذف إحدى تاءي تقدموا ﴿بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان: أن تجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريباً منه. فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً؛ كما يسمّى الشيء باسم غيره إذا جاوره. وفي هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمّى تمثيلاً. وفيه فائدة جليّة وهي: تصوير الهُجْنَةِ والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. ويجوز أن

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط، واستدرك من المطبوع.

وَأَقْوَأُ اللَّهِ إِنَّا اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ

يجري مجرى قولك: سرتني زيد وحُسنُ حاله. أي: سرتني حسن حال زيد. فكَذلك هنا المعنى بين يدي رسول الله ﷺ. وفائدة هذا الأسلوب: الدلالة على قوة الاختصاص. ولَمَّا كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به هذا المسلك. وفي هذا تمهيد لما نُقِمَ منهم من رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ؛ لأنَّ من فضله الله بهذه الأثرة، واختصه هذا الاختصاص كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يُخَفَّضَ بين يديه الصوت. وعن الحسن - رضي الله عنه -: أَنَّ أَنَسًا ذَبَحُوا يَوْمَ الْأَضْحَى قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَتَزَلَّتْ وَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعِيدُوا ذَبْحًا آخَرَ^(١). وعن عائشة - رضي الله عنها -: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الشَّكِّ^(٢) ﴿وَأَقْوَأُ اللَّهِ﴾ فَإِنَّكُمْ إِنْ اتَّقَيْتُمُوهُ عَاقَتَكُمْ التَّقْوَى عَنِ التَّقَدُّمَةِ الْمُنْهَى عَنْهَا ﴿إِنَّا اللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لَمَا تَقُولُونَ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَحَقَّ مِثْلُهُ أَنْ يُتَّقَى.

٢- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتحريك منهم لئلا يغفلوا عن تأملهم ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهه باهراً لجهركم، حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته لديكم واضحة ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: إذا كلمتموه وهو صامت؛ فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت. بل عليكم ألا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر. أو لا تقولوا له: يا محمداً! يا أحداً! وخاطبوه بالنبوة والسكينة والتعظيم. ولَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَا كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارِ^(٣). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ

(١) رواه عبد الرزاق. (حاشية الكشف ٤/ ٣٥٠).

(٢) ذكره الثعلبي والدارقطني. المصدر السابق.

(٣) رواه البخاري (٤٨٤٥).

أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

شماس، وكان في أذنه وقر، وكان جَهْوَري الصوت، وكان إذا كَلَّمَ رفع صوته، وربّما كان يكَلِّم النبي ﷺ فيتأدّى بصوته. وكاف التشبيه في محلّ النصب. أي: ﴿لا تجهروا له﴾ جهراً مثل ﴿جهر بعضكم لبعض﴾. وفي هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتّى لا يسوغ لهم إلّا أن يكلموه بالمخافتة. وإنّما نهوا عن جهر مخصوص. أعني: الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم. وهو الخلق من مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ منصوب الموضع على أنّه مفعول له متعلّق بمعنى النهي. والمعنى: انتهوا عمّا نهيتم عنه لحبوط أعمالكم. أي: لخشية حبوطها، على تقدير حذف المضاف ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ تمّ اسم ﴿إِنْ﴾ عند: ﴿رسول الله﴾. والمعنى: يخفضون أصواتهم في مجلسه تعظيماً له ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وتمّ صلة ﴿الذين﴾ عند قوله: ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾. و﴿أُولَٰئِكَ﴾ مع خبره: خبر ﴿إِنْ﴾. والمعنى: أخلصها للتقوى. من قولهم: امتحن الذهب، وفتنه: إذا أذابه، فخلص إبريزه من خبثه، ونقاها. وحقيقته: عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة. وعن عمر - رضي الله عنه -: أذهب الشهوات عنها. والامتحان: افتعال من: محنة. وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ جملة أخرى. قيل: نزلت في الشيخين رضي الله عنهما لِمَا كان منهما من غضّ الصوت. وهذه الآية - بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لـ: ﴿إِنْ﴾ المؤكدة، وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ: اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره دالّة على غاية الاعتداد والارتضاء بفعل الخافضين أصواتهم. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم.

إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ نزلت في وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد، وفيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرج إلينا يا محمد؛ فإنّ مدحنا زين، وذمنا شين، فاستيقظ وخرج^(١)، والوراء: الجهة التي يوارىها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام. ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان. والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوِّط عليها. وهي فعلة بمعنى مفعولة؛ كالفُبْضَةِ. وجمعها: الحجرات - بضمّتين - والحجرات - بفتح الجيم - وهي قراءة يزيد. والمراد: حجرات نساء رسول الله ﷺ. وكانت لكلّ منهنّ حجرة، ومناداتهم من ورائها ولعلّهم تفرّقوا على الحجرات متطلّبين له أو نادوه من وراء الحجرة التي كان ﷺ فيها. ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ. والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين فكأنّهم تولّوه جميعاً ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون فيهم من قَصِدَ استنائه. ويحتمل أن يكون المراد: النفي العام؛ إذ القلة تقع موقع النفي.

وورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى من إجلال محلّ رسول الله ﷺ. منها: التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل. ومنها: إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه. ومنها: التعريف باللام دون الإضافة. ولو تأمل متأمّل من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية لوجدها كذلك. فتأمل كيف ابتدأ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلّها من غير تقييد. ثمّ أردف ذلك النهي عمّا هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كأنّ الأوّل بساط للثاني. ثمّ أثنى على الغاضين أصواتهم ليدلّ على عظيم موقعه عند الله. ثمّ عبّ به بما هو أطمّ، وهجنته أتمّ من الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته من وراء الجدر، كما

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة وابن مردويه وابن منده والثعلبي. (حاشية الكشف ٣٥٨/٤).

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا

يصاح بأهون الناس قدراً؛ لينبئه على فظاعة ما جسروا عليه؛ لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ في التفاحش مبلغاً.

٥- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ أي: ﴿ولو﴾ ثبت صبرهم. وحل ﴿أنهم صبروا﴾: الرفع على الفاعلية. والصبر: حِس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] وقولهم: صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس. وقيل: الصبر مَرٌّ، لا يتجرعه إلا حَزٌّ. وقوله: ﴿حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ يفيد: أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم ﴿لَكَانَ﴾ الصبر ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ في دينهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بليغ الغفران والرحمة، واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

٦- ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ أجمعوا أنها نزلت في الوليد بن عقبة، وقد بعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم إحنة في الجاهلية، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فبعث خالد بن الوليد، فوجدهم يصلون، فسلموا إليه الصدقات فرجع^(١). وفي تنكير الفاسق والنبا شياخ في الفساق والأنباء. كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق؛ لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه. وفي الآية دلالة قبول خبر الواحد العدل؛ لأننا لو توقفنا في خبره لسوينا بينه وبين الفاسق، ولخلا التخصيص به عن الفائدة. والفسوق: الخروج من الشيء، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه: فقسست البيضة: إذا كسرتها

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦١).

أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً

وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضاً: قفست الشيء: إذا أخرجته من يد مالكه مغتصباً له عليه. ثم استعمل في الخروج عن القصد بركوب الكبائر. حمزة وعلي: ﴿فتثبتوا﴾. والتثبت والتبين متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعرف ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا﴾ لئلا تصيبوا ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ حال. يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة ﴿فَتُصْحِرُوا﴾ فتصيروا ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. الندم: ضرب من الغم، وهو أن تغتم على ما وقع منك، تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام.

٧- ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تكذبوا؛ فإن الله يخبره، فينهتك ستر الكاذب. أو: فارجعوا إليه، واطلبوا رأيه. ثم قال مستأنفاً: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ لوقعتم في الجهد والهلاك. وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زيتوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وأن بعضهم كانوا يتصوتون ويزعمهم جدهم في التقوى عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ وقيل: هم ﴿الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾. ولما كانت صفة الذين حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ غايرت صفة المتقدم ذكرهم وقعت ﴿لكن﴾ في حاق موقعها من الاستدراك، وهو مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيًا وإثباتاً ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ وهو تغطية نعم الله وغمطها بالجحود ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ وهو الخروج عن محجة الإيمان بركوب الكبائر ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ وهو ترك الانقياد لما أمر به الشارع ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي ﴿أولئك﴾ المستنون ﴿هم الراشدون﴾ يعني: أصابوا طريق الحق، ولم يميلوا عن الاستقامة. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه. من: الرشادة، وهي: الصخرة.

٨- ﴿فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ الفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام.

وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ

والانتصاب على المفعول له. أي: حيب وكزه للفضل والنعمة ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حين يُفضل وينعم بالتوفيق على الأفاضل.

٩- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وقف رسول الله ﷺ على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار، فبال الحمار فأمسك ابن أبي بن نفه، وقال: خل سبيل حمارك فقد آذانا ننته. فقال عبد الله بن رواحة: والله إن بول حماره لأطيب من مسبكك! ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتى استبأ، وتجالدا، وجاء قوماهما - وهما الأوس والخزرج - فتجالدوا بالعصي، وقيل: بالأيدي، والنعال، والسَّعَف، فرجع إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم، ونزلت^(١). وجمع ﴿اقتتلوا﴾ حملاً على المعنى؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وثنى في ﴿فأصلحوا بينهما﴾ نظراً إلى اللفظ ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ البغي: الاستطالة، والظلم، وإياء الصلح ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾ أي: ترجع، والفِيء: الرجوع. وقد سُمِّيَ به الظل والغنيمة لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين. وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت، فإذا كَفَتْ وقبضت عن الحرب أيديها تركت ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ المذكور في كتابه من الصلح، وزوال الشحنة ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ عن البغي إلى أمر الله ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بالإنصاف ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ واعدلوا. وهو أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أُمِرَ به في إصلاح ذات البين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين. والقُسْط: الجور. والقِسْط: العدل. والفعل منه: أقسط. وهمزته للسلب، أي: أزال القسط وهو الجور.

١٠- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ هذا تقرير لما ألزمه من تولي

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ

الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاققة من المؤمنين، وبيان: أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة لم ينقص عنها. ثم قد جرت العادة على أنه إذا نشب مثل ذلك بين الأخوين ولاداً أُلزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما. فالإخوة في الدين أحق بذلك ﴿إِخْوَتُكُمْ﴾ يعقوب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فالتقوى تحملكم على التواصل والاتلاف، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم مرجواً. والآية تدلّ على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان؛ لأنه سماهم مؤمنين مع وجود البغي.

١١ - ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ القوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القوام بأمور النساء. قال الله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] هو في الأصل جمع قائم؛ كصوم، وزور في جمع صائم وزائر. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية؛ إذ لو كانت النساء داخلة في ﴿قَوْمٍ﴾ لم يقل: ﴿ولا نساء﴾ وحقق ذلك زهير في قوله:

وما أذري ولستُ إخال أذري أقوم آل حِصْنٍ أم نساء؟

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين. ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن. وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين: أن يراد ﴿لا يسخر﴾ بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، وأن يقصد إفادة الشيعاء، وأن يصير كلّ جماعة منهم منهية عن السخرية. وإنما لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلاماً بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسايتهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه. وقوله: ﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ كلام مستأنف ورد مورد جواب المستخبر عن علّة النهي. وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء. والمعنى: وجوب أن يعتقد كلّ واحد: أن

وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ

المسخور منه ربّما كان عند الله خيراً من الساخر؛ إذ لا اطلاع للناس إلّا على الظواهر، ولا علم لهم بالسرائر. والذي يزن عند الله خلوص الضمائر. فينبغي ألاّ يجترى أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبق في محادثته. فلعلّه أخلص ضميراً، وأتقى قلباً ممن هو على ضدّ صفته. فيظلم نفسه بتحقيق من وقّره الله تعالى. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً^(١) ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لا تطعنوا أهل دينكم. واللمز: الطعن، والضرب باللسان ﴿وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ يعقوب وسهل. والمؤمنون كنفس واحدة. فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه. وقيل: معناه: لا تفعلوا ما تلمزون به. لأنّ من فعل ما استحقّ به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ التنابز بالألقاب: التداعي بها. والنبز: لقب السوء. والتلقيب المنهي عنه هو ما يتداخل المدعوّ به كراهة لكونه تقصيراً به وذمّاً له، فأمّا ما يحبه فلا بأس به. وروي: أنّ قوماً من بني تميم استهزؤوا ببلال وخبّاب وعمار وصهيب - رضي الله عنهم - فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة وكانت قصيرة. وعن أنس رضي الله عنه: عيّرت نساء النبي ﷺ أمّ سلمة بالقصر^(٢). وروي: أنّها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر، فكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ لسمع، فأتى يوماً وهو يقول: تفسّحوا حتّى انتهى إلى رسول الله ﷺ. فقال لرجل: تنحّ؛ فلم يفعل. فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: بل أنت ابن فلانة. يريد أمّاً كان يعير بها في الجاهليّة فخجل الرجل. فنزلت. فقال ثابت: لا أفخر على أحدٍ في الحسب بعدها أبداً^(٣) ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ الاسم هاهنا بمعنى الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم. وحقيقته ما سما من ذكره

(١) رواه ابن أبي شيبة في الأدب المفرد. (حاشية الكشف ٤/ ٣٦٨).

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٣٥-١٣٦) والترمذي (٣٨٩٤) والنسائي في عشرة النساء (٣٣).

(٣) ذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند. (حاشية الكشف ٤/ ٣٧٠).

وَمَنْ لَّمْ يَنْبُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ
الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَحْسَسُوهُ وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا

وارتفع بين الناس. كأنه قيل: بشئ الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه
الجرائر أن يذكروا بالفسق. وقوله: ﴿بعد الإيمان﴾ استقباح للجمع بين الإيمان
وبين الفسق الذي يحظره الإيمان كما تقول: بشئ الشأن بعد الكبرة الصبوة.
وقيل: كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي! يا فاسق! فنهوا عنه.
وقيل لهم: بشئ الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ﴿وَمَنْ لَّمْ
يَنْبُ﴾ عما نهى عنه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وحّد وجمع اللفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

١٢ - ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ يقال: جنبه الشر: إذا أبعده عنه.
وحقيقته: جعله في جانب. فيعدى إلى مفعولين. قال الله تعالى: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ
أَنْ نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ومطاوعه: اجتنب الشر، فنقص مفعولاً.
والمأمور باجتنابه بعض الظن. وذلك البعض موصوف بالكثرة. ألا ترى إلى
قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. قال الزجاج: هو ظنك بأهل الخير سوءاً. فأما
أهل الفسق فلنا أن نظنّ فيهم مثل الذي ظهر منهم. أو معناه: اجتناباً ﴿كثيراً﴾
أو: احترزوا من الكثير ليقع التحرز عن البعض. والإثم: الذنب الذي يستحق
صاحبه العقاب. ومنه قيل لعقوبته: الأثام، فعال منه، كالنكال والعذاب ﴿وَلَا
يَحْسَسُوهُ﴾ أي: لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايهم. يقال: تحسس الأمر: إذا
تطلبه وبحث عنه. تَفَعَّلَ من الجسّ. وعن مجاهد: خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر
الله. وقال سهل: لا تبحثوا عن طلب معايب ما ستره الله على عباده ﴿وَلَا يَغْتَبَ
بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: الذكر بالغيب في ظهر الغيب. وهي من الاغتيال،
كالغيلة من الاغتيال. وفي الحديث: «هو أن تذكر أخاك بما يكره»^(١). فإن كان
فيه فهو غيبة؛ وإلا فهو بهتان. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - الغيبة: إدام
كلام الناس ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ﴿مَيْتًا﴾ مدني. وهذا

(١) رواه أحمد (٣٨٤/٢) ومسلم (٢٥٨٩) وأبو داود (٤٨٧٤) والترمذي (١٩٣٤).

فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه. وفيه مبالغات، منها: الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها: جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. ومنها: إسناد الفعل إلى ﴿أحدكم﴾ والإشعار بأنّ أحداً من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها: أن لم يُقْتَصَرْ على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً. ومنها: أن يُقْتَصَرْ على لحم الأخ حتى جعل ميتاً. وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدوذة أن تأكل منها؛ كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي. وانتصب ﴿ميتاً﴾ على الحال من اللحم، أو من أخيه. ولما قرّره بأنّ أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل. فليتحقق أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة باستقامة الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ التواب: البليغ في قبول التوبة. والمعنى ﴿واتقوا الله﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه: والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم، وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين. وروي: أنّ سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوي لهما طعامهما، فنام عن شأنه يوماً. فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغى لهما إداماً. وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ. فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان. فقالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى حمرة اللحم في أفواهكما؟» فقالا: ما تناولنا لحماً. قال: «إنكما قد اغتبتما، ومن اغتاب مسلماً فقد أكل لحمه» ثم قرأ الآية^(١). وقيل: غيبة الخلق، إنّما تكون من الغيبة عن الحق.

١٣ - ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ من آدم وحواء. أو كل واحد منكم من أب وأم. فما منكم من أحد إلا وهو يلدي بمثل ما يلدي به الآخر سواء بسواء. فلا معنى للتفاخر والتفاضل في النسب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشُّعْبُ: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب. وهي: الشعب،

(١) هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راو (حاشية الكشاف ٤/٣٧٤).

لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ

والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العماثر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل، خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. وسميت الشعوب؛ لأن القبائل تشعبت منها ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: إنما رتبكم على شعوب وقبائل ليعرف بعضكم نسب بعض، فلا يعتزي إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدعوا التفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي يفضل بها الإنسان غيره، ويكتسب الشرف والكرم عند الله فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ﴾ في الحديث: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتنق الله»^(١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وروي: أنه ﷺ طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها، يا أيها الناس! إنما الناس رجلان مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله». ثم قرأ الآية^(٢). وعن يزيد بن شجرة: مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط ألا يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ. فاشتراه بعضهم، فمرض، فعاده رسول الله ﷺ، ثم توفي فحضر دفنه، فقالوا في ذلك شيئاً، فنزلت^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكرم القلوب وتقواها ﴿خَبِيرٌ﴾ بهمم النفوس في دعواها.

١٤ - ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ أي: بعض الأعراب - لأن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر - وهم أعراب بني أسد، قدموا المدينة في سنة جذبة فأظهروا الشهادة يريدون الصدقة ويمنون عليه ﴿ءَمَنَّا﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿قُلْ﴾ لهم

(١) رواه الحاكم، والبيهقي، وأبو يعلى، وإسحاق، وعبد، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية. (حاشية الكشف ٤/٣٧٥).

(٢) رواه أحمد (٣٦١/٢) وأبو داود (٥١١٦) والترمذي (٣٩٥٠).

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦٥).

لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾

يا محمد: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ لم تصدقوا بقلوبكم ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فالإيمان هو التصديق. والإسلام: الدخول في السلم، والخروج من أن يكون حرباً للمؤمنين، بإظهار الشهادتين. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فأعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب لللسان فهو إيمان. وهذا من حيث اللغة. وأما في الشرع فالإيمان والإسلام واحد لما عرف. وفي ﴿لَمَّا﴾ معنى التوقع. وهو دال على أن بعض هؤلاء قد آمنوا فيما بعد. والآية تنقض على الكرامية مذهبهم: أن الإيمان لا يكون بالقلب ولكن باللسان. فإن قلت: مقتضى نظم الكلام أن يقال: ﴿قُلْ﴾ لا تقولوا: آمنا ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾. أو: ﴿قُلْ﴾ لم تؤمنوا ﴿وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ﴾. قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً فقليل: ﴿قُلْ﴾ لم تؤمنوا ﴿مع أدب حسن فلم يقل: كذبتم - تصريحاً - ووضع ﴿لم تؤمنوا﴾ الذي هو نفي ما ادّعوا إثباته موضعه واستغنى بقوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنا؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان. ولم يقل: ولكن أسلمتم؛ ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: ﴿آمنا﴾ كذلك. ولو قيل: ولكن أسلمتم لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به. وليس قوله: ﴿ولمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ تكريراً لمعنى قوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ فإن فائدة قوله ﴿لم تؤمنوا﴾ تكذيب لدعواهم، وقوله: ﴿ولمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه. كأنه قيل لهم: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا: أَسْلَمْنَا﴾ حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قُولُوا﴾ ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في السرّ بترك النفاق ﴿لَا يَلِتْكُمْ﴾ (يألتكم) بصري ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم من ثواب حسناتكم شيئاً. ألت، يألث، وألات، يئلت، ولات، يليت: بمعنى، وهو النقص ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بستر الذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهدايتهم للتوبة عن العيوب.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
يُدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

١٥، ١٦- وصف المؤمنين المخلصين، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ارتاب: مطاوع رابه: إذا أوقعه في الشك مع التهمة. والمعنى: أنهم آمنوا، ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتهم لما صدقوه. ولما كان الإيقان وزوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيهاً على مكانه. وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غصاً جديداً ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجوز أن يكون المجاهد منوياً، وهو العدو المحارب، أو الشيطان، أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في: جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو، وأن يتناول العبادات بأجمعها؛ وبالمجاهدة بالمال نحو صنيع عثمان في جيش العسرة، وأن يتناول الزكاة وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر. وخبر المبتدأ الذي هو ﴿المؤمنون﴾: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: الذين صدقوا في قولهم: آمنا، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وحق. وقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ صفة لهم. ولما نزلت هذه الآية جاؤوا، وحلفوا: أنهم مخلصون فتزل: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ﴾ أي: أخبرونه بتصديق قلوبكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من النفاق والإخلاص وغير ذلك.

١٧- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ﴾ أي: بأن ﴿أَسْلَمُوا﴾ يعني: بإسلامهم. والمن: ذكر الأيادي تعريضاً للشكر، ونهينا عنه ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: المنة لله عليكم ﴿أَنْ هَدَاكُمْ﴾ بأن هداكم، أو: لأن. ﴿لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن صحت زعمكم، وصدقت دعواكم. إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره: ﴿إِنْ

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

كنتم صادقين ﴿ في ادعائكم الإيمان فله المنة عليكم . وقرىء : ﴿إن هداكم﴾ .
 ١٨ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وبالباء مكّي .
 وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم . يعني : أنه تعالى يعلم كل مستتر في
 العالم ، ويبصر كل عمل تعملونه في سرّكم وعلايتكم ، لا يخفى عليه منه شيء .
 فكيف يخفى عليه ما في ضمائرکم؟! .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَ زَايَعُوا وَكُنَّا نُزَابًا

١ - ٣ - الكلام في: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا﴾ كالكلام في ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ١ - ٢] سواء بسواء؛ لالتقائهما في أسلوب واحد. و﴿المجيد﴾: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علماً بمعانيه، وعمل بما فيه، مَجْدٌ عند الله وعند الناس. وقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ أي: كفار مكة ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: محمد ﷺ، إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن ينالهم مكروه. وإذا علم أن مخوفاً أظلمهم لزمه أن ينذرهم. فكيف بما هو غاية المخاوف؟ وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء، وإقرارهم بالنشأة الأولى مع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء. ثم عول على أحد الإنكارين بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿١﴾ أَوَ زَايَعُوا وَكُنَّا نُزَابًا﴾، دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار. ووضع ﴿الكافرون﴾ موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم. و﴿هذا﴾ إشارة إلى

ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ﴿٣﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِیْجٍ ﴿٤﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٥﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِیْجٍ ﴿٦﴾

الرجع. و﴿إذا﴾ منصوب بمضمَر معناه: أحين نموت ونبلى نرجع؟ ﴿متنا﴾ نافع، وحمزة، وعليّ، وحفص ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ مستبعد مستنكر؛ كقولك: هذا قولٌ بعيد؛ أي: بعيد من الوهم والعادة. ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع، وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث. والوقف على ﴿تراباً﴾ على هذا حسن. وناسب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع: ما دلّ عليه المنذر من المنذر به وهو البعث.

٤- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ردّ لاستبعادهم الرجع؛ لأنّ من لطف علمه حتّى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجوعهم أحياء كما كانوا ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغيّر. وهو اللوح المحفوظ. أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

٥- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأوّل للدلالة على أنّهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجّبهم، وهو التكذيب بالحقّ الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أوّل وهلة من غير تفكّر ولا تدبّر ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِیْجٍ﴾ مضطرب. يقال: مرج الخاتم في أصبعه؛ أي: اضطرب من سعته، فيقولون تارة: شاعر، وطوراً: ساحر، ومرة: كاهن، لا يثبتون على شيء واحد. وقيل: الحق: القرآن. وقيل: الإخبار بالبعث.

٦، ٧- ثُمَّ دَلَّهِمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ فَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم ﴿كَيْفَ بَيَّنَّاهَا﴾ رفعناها بغير عمدٍ ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالنبيرات ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ من فتوق وشقوق. أي: أنها سليمة من العيوب، لا فتق فيها، ولا صدع، ولا خلل ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ دحوناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، لولا هي لالت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِیْجٍ﴾ يبتهج به لحسنه.

تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَنَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَيْنَا

٨- ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرْنِي﴾ لنبصر به، ونذكر كلَّ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه، مفكرٍ في بديع خلقه.

٩- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي: وحَبَّ الزَّرْع الذي من شأنه أن يحصد؛ كالخنطة، والشعير، وغيرهما.

١٠- ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً في السماء ﴿لَهَا طَلْعٌ﴾ هو كلُّ ما يُطْلَع من ثمر النخيل ﴿نَضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض؛ لكثرة الطلع وتراكمه، أو: لكثرة ما فيه من الثمر.

١١- ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: أنبتناها ﴿رِزْقًا﴾؛ لأنَّ الإنبات في معنى الرزق فيكون ﴿رِزْقًا﴾ مصدراً من غير لفظه. و: هو مفعول له، أي: أنبتناها لنرزقهم ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ قد جفَّت نباتها ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ كما حييت هذه البلدة الميتة؛ كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم لأنَّ إحياء الموات كإحياء الأموات. والكاف في محلِّ الرفع على الابتداء.

١٢- ١٤- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ﴾ هو بشر لم تطو. وهم قوم باليمامة. وقيل: أصحاب الأخدود ﴿وَنَمُودُ﴾ وعَادُ وَفِرْعَوْنُ أراد بفرعون قومه كقوله: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِمْ﴾ [يونس: ٨٣] لأنَّ المعطوف عليه ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ والمعطوفات جماعة ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ ستمهم إخوانه؛ لأنَّ بينهم وبينه نسباً قريباً ﴿وَقَوْمُ تُيُوعٍ﴾ هو ملك باليمن أسلم، ودعا قومه إلى الإسلام، فكذبوه. وسمي به لكثرة تبعه ﴿كُلُّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ منهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ لأنَّ من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميعهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ فوجب وحلَّ وعيدي. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم.

١٥- ﴿أَفَعَيَيْنَا﴾ أعيا بالأمر: إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة للإنكار

بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُم مَّا تُوَسَّوْشُ بِهِ نَفْسُهُمْ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾

﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي: أنا لم نعجز عن الخلق الأول، فكيف نعجز عن الثاني؟ والاعتراف بذلك اعتراف بالإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ في خلط وشبهة وقد لبس عليهم الشيطان وحيرهم. وذلك تسويله إليهم: أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة. فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح. وهو أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بعد الموت. وإنما نكر الخلق الجديد ليدل على عظمة شأنه، وأن حق من سمع به أن يخاف، ويهتم به.

١٦- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُم مَّا تُوَسَّوْشُ بِهِ نَفْسُهُمْ﴾ الوسوسة: الصوت الخفي، ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويهيج في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قوله صوت بكذا ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ المراد قرب علمه منه ﴿مِّنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو مثل في فرط القرب. والوريد: عرق في باطن العنق. والحبل: العرق. والإضافة للبيان؛ كقولهم: بغير سانية.

١٧- ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين الحافظين ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ التلقي: التلقن بالحفظ والكتابة. والقعيد: المقاعد؛ كالجليس بمعنى المجلس. وتقديره: ﴿عن اليمين﴾ قعيد ﴿وعن الشمال قعيد﴾ من المتلقيين. فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، كقوله:

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطوي رماني

أي: رماني بأمر كنت منه بريئاً وكان والدي منه بريئاً. و﴿إِذْ﴾ منصوب بأقرب لما فيه من معنى يقرب. والمعنى: أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس، وما لا شيء أخفى منه. وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به إيداناً بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه. وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات؟ وإنما ذلك لحكمة، وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما، وعرض صحائف العمل يوم القيامة لطف له في الانتهاء عن السيئات، والرغبة في الحسنات.

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا

١٨- ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به وما يرمي به من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حافظ ﴿عَيْنٌ﴾ حاضر. ثم قيل: يكتبان كل شيء حتى أُنينه في مرضه. وقيل: لا يكتبان إلا ما فيه أجر أو وزر. وقيل: إن الملكين لا يجتنبانه إلا عند الغائط والجماع.

١٩- لما ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بقدرته وعلمه أعلمهم: أن ما أنكروه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة. ونبه على اقتراب ذلك بأن عبّر عنه بلفظ الماضي. وهو قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: شدته الذاهبة بالعقل ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة الأمر، أو بالحكمة ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ﴾ الإشارة إلى الموت. والخطاب للإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ على طريق الالتفات ﴿تَحِيدُ﴾ تنفر وتهرب.

٢٠- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني: نفخة البعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي: وقت ذلك الوعيد. على حذف المضاف. والإشارة إلى مصدر ﴿نُفِخَ﴾.

٢١- ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملكان، أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. ومحل ﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾ النصب على الحال من ﴿كُلِّ﴾ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة.

٢٢- ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ أي: يقال لها: لقد كنت ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ النازل بك اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ فأزلنا غفلتك بما تشاهده ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله، أو غشاوة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً. فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق، وَرَجَعَ بَصَرُهُ الْكَلِيلُ عن الإبصار لغفلته حديداً لتيقظه.

٢٣- ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ الجمهور على أنه الملك الكاتب الشهيد عليه ﴿هَذَا﴾ أي: ديوان عمله. مجاهد: شيطانه الذي قُبِضَ له في قوله: ﴿نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ﴾

مَا لَدَيْ عَتِيدٍ ﴿٢٦﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٥﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٤﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾

قَرِينٌ ﴿الزخرف: ٣٦﴾ ﴿هذا﴾ أي: الذي وكلتُ به ﴿مَا لَدَيْ عَتِيدٍ﴾ ﴿هذا﴾ مبتدأ و﴿ما﴾ نكرة بمعنى شيء. والظرف بعده وصف له. وكذلك ﴿عتيد﴾. و﴿ما﴾ وصفتها خبر ﴿هذا﴾. والتقدير: ﴿هذا﴾ شيء ثابت ﴿لدي عتيد﴾.

٢٤- ثم يقول الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ والخطاب للسائق والشهيد. أو: للملك. وكان الأصل: ألق، ألق. فتاب ﴿أَلْقِيَا﴾ عن: ألق، ألق. لأن الفاعل كالجاء من الفعل، فكانت تشية الفاعل نائباً عن تكرار الفعل. وقيل: أصله: أَلْقَيْنِ. والألف بدل من النون إجراء للوصل مجرى الوقف؛ دليله: قراءة الحسن (ألقين) ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بالنعيم والمنعم ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند بجانب للحق معادٍ لأهله.

٢٥- ﴿مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه. أو: متاع لجنس الخير أن يصل إلى أهله ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متخطٍ للحق ﴿مُرِيبٍ﴾ شاك في الله وفي دينه.

٢٦- ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط، خبره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. أو بدل من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ و﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكرير للتوكيد. ولا يجوز أن يكون جرأ صفة لـ ﴿كَفَّارٍ﴾ لأن النكرة لا توصف بالموصولة.

٢٧- ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: شيطانه الذي قرن به. وهو شاهد لمجاهد - رحمه الله -. وإنما أخليت هذه الجملة عن الواو دون الأولى، لأن الأولى واجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول. أعني: مجيء كل نفس مع المملكين، وقول قرينه ما قال له. وأما هذه فهي مستأنفة كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التناول؛ كما في مقابلة موسى - عليه السلام - وفرعون. وكان الكافر قال: ربِّ هو أطغاني، فقال قرينه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ما أوقعته في الطغيان، ولكنه طغى، واختار الضلالة على الهدى.

٢٨- ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا﴾ هو استئناف مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ كأن قائلًا قال: فماذا قال الله؟ فقيل: ﴿قال: لا تختصموا﴾ ﴿لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾

مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾

أي: لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب، فلا فائدة في اختصاصكم، ولا طائل تحته، وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتيبي، وعلى السنة رسلي، فما تركت لكم حجة علي. والباء في ﴿بالوعيد﴾ مزيدة؛ كما في قوله ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو مُعْدِيَّة على أَنْ: قَدَم مطاوع بمعنى: تقدم.

٢٩- ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي: لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدي بإدخال الكفار في النار ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا أعذب عبداً بغير ذنب. وقال: ﴿بظلام﴾ على لفظ المبالغة؛ لأنه من قولك: هو ظالم لعبده وظلام لعبيده.

٣٠- ﴿يَوْمَ﴾ ^(١) نصب بظلام أو بمضمر نحو: اذكر وأنذر ﴿نَقُولُ﴾: نافع وأبو بكر. أي: ﴿يقول﴾ الله ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وهو مصدر كالمجيد. أي: أنها تقول بعد امتلائها: هل من مزيد! أي: هل بقي في موضع لم يمتلئ؟! يعني: قد امتلأت. أو: أنها تستزيد. وفيها موضع للمزيد. وهذا على تحقيق القول من جهنم. وهو غير مستنكر كإنطاق الجوارح. والسؤال لتوبيخ الكفرة؛ لعلمه تعالى بأنها امتلأت أم لا.

٣١- ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ نصب على الظرف أي: مكاناً ﴿غير بعيد﴾. أو على الحال. وتذكيره؛ لأنه على زنة المصدر كالصليل. والمصادر يستوى في الوصف بها المذكر والمؤنث. أو على حذف الموصوف؛ أي: شيئاً ﴿غير بعيد﴾. ومعناه: التوكيد كما تقول: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

٣٢- ﴿هَذَا﴾ مبتدأ، وهو إشارة إلى الثواب. أو إلى مصدر ﴿أُزْلِفَتِ﴾، ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ - صفته. وبالياء مكّي، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاء إلى ذكر الله. خبره: ﴿حَفِيفٍ﴾ حافظ لحدوده. في الحديث: «من حافظ على أربع ركعات في أول النهار كان أواباً حفيظاً».

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿يقول﴾ وهي قراءة نافع، وأبي بكر، كما نص على ذلك. وما أثبتناه هي قراءة حفص.

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

٣٣- ﴿مَنْ﴾ مجرور المحل بدل من ﴿أَوَابٍ﴾. أو رفع بالابتداء، وخبره: ﴿ادخلوها﴾ على تقدير يقال لهم: ﴿ادخلوها بسلام﴾ لأن ﴿مَنْ﴾ في معنى الجمع ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ الخشية: انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة. وقرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة للثناء البليغ على الخاشي. وهو خشيته مع علمه: أنه الواسع الرحمة؛ كما أثني عليه بأنه خاش، مع أن المخشي منه غائب ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المفعول. أي: خشيه وهو غائب. أو: صفة لمصدر خشى. أي: خشيه خشيةً ملتبسة بالغيب، حيث خشى عقابه وهو غائب. الحسن: إذا أغلق الباب وأرخصى الستر ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى الله. وقيل: بسريرة مرضية، وعقيدة صحيحة.

٣٤- ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: سالمين من زوال النعم وحلول النقم ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي: يوم تقدير الخلود، كقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: مقدرين الخلود.

٣٥- ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ على ما يشتهون. والجمهور على أنه رؤية الله تعالى بلا كيف.

٣٦- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ من القرون الذين كذبوا رسلهم ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ من قومك ﴿بَطْشًا﴾ قوة وسطوة ﴿فَنَقَّبُوا﴾ فخرقوا ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ وطافوا. والتنقيب: التنقير عن الأمر والبحث والطلب. ودخلت الفاء للتسبيح عن قوله: ﴿هم أشد منهم بطشاً﴾ أي: شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه. ويجوز أن يراد: فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسايرهم في بلاد القرون. فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم؟ ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿فَنَقَّبُوا﴾ على الأمر ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب من الله، أو من الموت.

٣٧- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَذِكْرًا﴾ تذكيراً وعظة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَأَسْتَجِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ

واع؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أصغى إلى المواعظ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بفطنته؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب.

٣٨- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ إعياء. قيل: نزلت في اليهود - لُعِنَتْ - تكذيباً لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، أولها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش. وقالوا: إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود. ومنهم أخذ. وأنكر اليهود التبريع في الجلوس، وزعموا أنه جلس تلك الجلسة يوم السبت.

٣٩- ﴿فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي: على ما يقول اليهود، ويأتون به من الكفر والتشبيه. أو: على ما يقول المشركون في أمر البعث؛ فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حامداً ربك. والتسبيح محمول على ظاهره. أو على الصلاة. فالصلاة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر.

٤٠- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ العشاءان، أو: التهجد ﴿وَأَدْبَرَ السُّجُودِ﴾ التسبيح في آثار الصلوات - والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة - وقيل: النوافل بعد المكتوبات. أو: الوتر بعد العشاء. والأدبار جمع دُبر ﴿وَادْبَارُ﴾ حجازي، وحزمة، وخلف. من: أدبرت الصلاة: إذا انقضت وتمت. ومعناه: وقت انقضاء السجود؛ كقولهم: آتاك خفوق النجم.

٤١- ﴿وَأَسْتَجِبْ﴾ لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل، وتعظيم لشأن المخبر به. وقد وقف يعقوب عليه. وانتصب ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ بما دل عليه: ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي: ﴿يوم ينادي المنادي﴾ يخرجون من القبور. وقيل: تقديره: ﴿واستمع﴾ حديث ﴿يوم ينادي المنادي﴾ ﴿المنادي﴾ بالياء في

مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

الحالين مكّي وسهل ويعقوب، وفي الوصل مدني وأبو عمرو. وغيرهم بغير ياء
فيهما. والمنادي إسرافيل، ينفخ في الصور، وينادي: أيتها العظام البالية!
والأوصال المتقطعة! واللحوم المتمزقة! والشعور المتفرقة! إن الله يأمركن أن
تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادي بالحشر ﴿من مكانٍ
قريب﴾ من صخرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر
ميلاً، وهي وسط الأرض.

٤٢- ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ - بدل من ﴿يوم ينادي﴾ - ﴿الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية
﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بالصيحة. والمراد به البعث والحشر للجزاء ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾
من القبور.

٤٣، ٤٤- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ الخلق ﴿وَنُمِيتُ﴾ أي: ونميتهم في الدنيا ﴿وَإِلَيْنَا
الْمَصِيرُ﴾ أي: مصيرهم ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ﴾ خفيف كوفي وأبو عمرو. وغيرهم
بالتشديد ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي: تتصدع الأرض، فيخرج الموتى من صدوعها
﴿سِرَاعًا﴾ حال من المجرور. أي: مسرعين ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هين.
وتقديم الظرف يدل على الاختصاص، أي: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا
على القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن.

٤٥- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك وفينا. تهديد لهم، وتسليّة لرسول الله ﷺ
﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ كقوله: ﴿بِمُصِيطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]. أي: ما أنت
بمسلط عليهم. إنما أنت داع وباعث. وقيل: هو من: جبره على الأمر،
بمعنى: أجبره. أي: ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ
يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَحْشِلُهَا﴾ [النازعات: ٤٥] لأنه لا ينفع
إلا فيه.

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَأَلْهَمَلِيتُ وَفَرَا ﴿٢﴾ فَأَلْجَمَلِيتُ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْمَقَسَمِيتُ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوُفْعٌ ﴿٦﴾

١ - ٤ - ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ الرياح؛ لأنها تذرّو التراب وغيره. وبإدغام التاء في الذال حمزة، وأبو عمرو ﴿ذَرَوْا﴾ مصدر، والعامل فيه اسم الفاعل ﴿فَأَلْهَمَلِيتُ﴾ السحاب لأنها تحمل المطر ﴿وَفَرَا﴾ مفعول الحاملات ﴿فَأَلْجَمَلِيتُ﴾ الفلك ﴿يُسْرًا﴾ جرياً ذا يسر؛ أي: ذا سهولة ﴿فَأَلْمَقَسَمِيتُ أَمْرًا﴾ الملائكة؛ لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها؛ أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك، أو يتولى تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنها تنشئ السحاب. وتقله وتصرفه، وتجري في الجوّ جرياً سهلاً، وتقسم الأمطار بتصرف السحاب. ومعنى الفاء على الأول: أنه أقسم بالرياح، فبالسحاب التي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فباللائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحار ومنافعها. وعلى الثاني: أنها تبتدىء في الهبوب، فتذرّوا التراب والحصباء، فتقلّ السحاب، فتجري في الجوّ باسطة له، فتقسم المطر.

٥، ٦ - ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ﴾ جواب القسم. و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية. والمعوود البعث ﴿لَصَادِقٌ﴾ وعدٌ صادق؛ كعيشة راضية؛ أي: ذات رضا ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ الجزاء على الأعمال ﴿لَوُفْعٌ﴾ لكائن.

وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْجُبِّ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنَافِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنَافِكُ ﴿٩﴾ قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾
الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَوْكَ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾

٧- ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ هذا قسم آخر ﴿ذَاتِ الْجُبِّ﴾ الطرائق الحسنة، مثل ما يظهر على الماء من هبوب الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تشبيه وتكسره. جمع: حبيكة، كطريقة، وطرق. ويقال: إِنَّ خَلْقَ السَّمَاءِ كَذَلِكَ. وعن الحسن: حبكها: نجومها. جمع: حباك.

٨- ﴿إِنَّكَ لَنَافِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: قولهم في الرسول: ساحر، وشاعر، ومجنون، وفي القرآن: شعر وسحر، وأساطير الأولين.

٩- ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنَافِكُ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول. أي: يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم، أو: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله؛ أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي. ويجوز أن يكون الضمير لـ ﴿ما توعدون﴾ أو لـ ﴿الَّذِينَ﴾. أقسم بالذاريات على أَنَّ وقوع أمر القيامة حق، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاك، ومنهم جاحد، ثم قال: ﴿يُؤْفَكُ﴾ عن الإقرار بأمر القيامة من: هو المأفوك.

١٠- ﴿قُلِ﴾ لعن. وأصله: الدعاء بالقتل والهلاك. ثم جرى مجرى لعن ﴿الْخَرَصُونَ﴾ الكذابون المقدرون ما لا يصح. وهم أصحاب القول المختلف: واللام إشارة إليهم كأنه قيل: ﴿قتل﴾ هؤلاء ﴿الخراصون﴾.

١١-١٣- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَوْكَ﴾ في جهل يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْتَلُونَ﴾ فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: متى يوم الجزاء. وتقديره: أيان وقوع يوم الدين؛ لأنه إنما تقع الأحيان ظروفاً للحدثان. وانتصب اليوم الواحد في الجواب بفعل مضمّر دلّ عليه السؤال، أي: يقع ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ويجوز أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى غير متمكن وهو الجملة، ومحلّه نصب بالمضمّر الذي هو «يقع» أو رفع على هو ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يجرقون.

ذُوقُوا فَنَتَكِّرْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ

١٤- ﴿ذُوقُوا فَنَتَكِّرْ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار: ﴿ذوقوا﴾ عذابكم وإحراقكم بالنار ﴿هَذَا﴾: مبتدأ خبره: ﴿الَّذِي﴾: أي: ﴿هَذَا﴾ العذاب هو الذي ﴿كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا بقولكم: ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعُدُّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٠].

١٥، ١٦- ثُمَّ ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: تكون العيون، وهي الأنهار الجارية بحيث يرونها، وتقع عليها أبصارهم، لا أنهم فيها ﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابِلين لكل ما أعطاهم من الثواب، راضين به. و﴿آخِذِينَ﴾ حال من الضمير في الظرف. وهو خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ قبل دخول الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم. وتفسير إحسانهم ما بعده:

١٧، ١٨- ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ينامون. و﴿مَا﴾ مزيدة للتوكيد - و﴿يهجعون﴾ خبر كان. والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. أو مصدرية. والتقدير: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، فيرتفع هجوعهم: لكونه بدلاً من الواو في ﴿كانوا﴾، لا بقليل؛ لأنه لما صار موصوفاً بقوله: ﴿من الليل﴾ خرج من شبه الفعل، وعمله باعتبار المشابهة. أي: كان هجوعهم ﴿قليلًا من الليل﴾. ولا يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية على معنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً وَيُخَيُّونُهُ كُلَّهُ؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لا تقول: زيدا ما ضربت ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. والسر: السدس الأخير من الليل.

١٩- ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ﴾ لمن يسأل حاجته ﴿وَالْمَحْرُورِ﴾ أي: الذي يتعزز ولا يسأل حياء.

٢٠، ٢١- ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره،

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾

حيث هي مدحوة كالبساط لما فوقها، وفيها المسالك والفجاج للمتقّلين فيها، وهي مجزأة، فمن سهل، ومن جبل، ورخوة، وعدّاة، وسبّخة، وفيها عيون متفجرة، ومعادن مفتّنة، ودواب منبثة مختلفة الصور والأشكال، متباينة الهيئات والأفعال ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ للموحدّين الذين سلكوا الطريق السويّ الرهانيّ الموصّل إلى المعرفة، فهم نظّارون بعيون باصرة، وأفهام نافذة. كلّما رأوا آية عرفوا وجه تأملها فازدادوا إيقاناً على إيقانهم ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر، وبدائع الخلق، ما تتحرّر فيه الأذهان. وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة، والبيّنات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها. دع الأسماع، والأبصار، والأطراف، وسائر الجوارح، وتأتيها لما خلقت له، وما سويّ في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني؛ فإنّه إذا جسا^(١) شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذلّ ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. وما قيل: إنّ التقدير: أفلا تبصرون في أنفسكم ضعيف؛ لأنّه يفضي إلى تقديم ما في حيّز الاستفهام على حرف الاستفهام ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظر من يعتبر.

٢٢- ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ المطر؛ لأنّه سبب الأقوات. وعن الحسن - رضي الله عنه -: أنّه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنّة فهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد أنّ ما ترزقونه في الدنيا، وما توعّدونه في العقبى كلّ مقدور مكتوب في السماء.

٢٣- ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ الضمير يعود إلى الرزق، أو إلى ما توعّدون ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾^(٢) بالرفع كوفي غير حفص صفة للحق. أي:

(١) «جسا»: يَسَّ وصَلَبَ وغُلُظ.

(٢) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿مِثْلُ﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، =

هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ

حقّ مثل نطقكم. وغيرهم النصب أي: ﴿أنّه لحق﴾ حقّاً مثل نطقكم. ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن. و﴿ما﴾ مزيدة. وعن الأصمعيّ: أنّه قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابيٌّ على قعود. فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. قال: اتل عليّ. فتلوت: ﴿والذاريات﴾ فلما بلغت قوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك. فقام إلى ناقته فنحراها، ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولّى. فلما حجبت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت فإذا أنا بالأعرابيّ قد نحل واصفرّ، فسلم عليّ، واستقرأ السورة. فلما بلغت الآية صاح وقال: ﴿قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿فورب السماء والأرض إنّهُ لحق﴾ فصاح وقال: يا سبحان الله! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدّقوه بقوله حتى حلف. قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه.

٢٤- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ﴾ تفخيم للحديث، وتنبيه على أنّه ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنّما عرفه بالوحي. وانتظامها بما قبلها باعتبار أنّه قال: ﴿وفي الأرض آيات﴾ وقال في آخر هذه القصّة: ﴿وتركنا فيها آية﴾ ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الضيف: للواحد والجماعة، كالصوم، والزور؛ لأنّه في الأصل مصدر ضافه. وكانوا اثني عشر ملكاً. وقيل: تسعة عشرهم جبريل. وجعلهم ضيفاً؛ لأنّهم كانوا في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيم - عليه السلام - . أو لأنّهم كانوا في حسابانه كذلك ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله؛ لقوله: ﴿بل عباد مكرمون﴾. وقيل: لأنّه خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجّل لهم القرى.

٢٥- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم. وإلا فيلزم أن يذكر ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ مصدر ساد مسدّ الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلم عليكم سلاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: عليكم ﴿سلام﴾ فهو مرفوع على الابتداء.

قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَعَجَلَهُ بِعِجَلٍ سَيِّئٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

وخبره محذوف. والعدول إلى الرفع للدلالة على إثبات السلام؛ كأنه قصد أن يحبيهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بأدب الله. وهذا أيضاً من إكرامه لهم. حمزة وعلي ﴿سَلِّمْ﴾. والسلم: السلام ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: أنتم ﴿قوم منكرون﴾ فعرفوني من أنتم.

٢٦-٢٨- ﴿فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه. ومن أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يياده بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يكفه. وكان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر ﴿فَعَجَلَهُ بِعِجَلٍ سَيِّئٍ﴾ * ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ليأكلوا منه فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أنكر عليهم ترك الأكل، أو حثهم عليه، ﴿فَأَوْحَسَ﴾ فأضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفاً؛ لأن من لم يأكل طعامك، لم يحفظ ذمامك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله. وقيل: مسح جبريل العجل فقام ولحق بأمه ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: يبلغ ويعلم. فالمبشّر به إسحاق عند الجمهور.

٢٩- ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ﴾ في صيحة. من: صر القلم والباب. وقال الزجاج: الصرة: شدة الصياح هاهنا. وعمله النصب على الحال. أي: فجاءت صارة. وقيل: فأخذت في صياح. وصرتها: قولها: ﴿يا ويلتنا﴾ ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا ﴿عجوز﴾ فكيف ألد؟ كما قال في موضع آخر: ﴿ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

٣٠- ﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ أي: إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه شيء. وروي: أن جبريل قال لها حين استبعدت:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مشمرة.

٣١-٣٤- ولما علم أنهم ملائكة، وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلاً في بعض الأمور ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم، وما طلبتكم، وفيم أرسلتم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟ أرسلتم بالشارة خاصة، أو لأمر آخر، أو لهما؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ يريد السجيل، وهو طينٌ طبخ كما يطبخ الأجر حتى صار في صلابة الحجارة ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلّمة. من: السومة وهي: العلامة، على كل واحد منها اسم من يهلك به ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في ملكه وسلطانه ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ستمهم: مسرفين، كما ستمهم: عادين؛ لإسرافهم وعدوانهم في عملهم، حيث لم يقتنعوا بما أبيح لهم.

٣٥- ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ في القرية، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لوطاً ومن آمن به.

٣٦- ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: غير أهل بيت. وفيه دليل: على أن الإيمان والإسلام واحد؛ لأن الملائكة سمّوهم مؤمنين ومسلمين هنا.

٣٧- ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ في قراهم ﴿آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قيل: هي ماء أسود منتن.

٣٨- ﴿وَفِي مُوسَى﴾ معطوف على ﴿وفي الأرض آيات﴾. أو على قوله: ﴿وتركنا فيها آية﴾ على معنى ﴿و﴾ جعلنا ﴿في موسى﴾ آية؛ كقوله.

علفتها تبناً وماءً بارداً (١)

﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة، وهي: اليد والعصا.

(١) وتماه: حتى شئت همالة عيناها.

فَتَوَلَّىٰ رِبْكِهِ وَقَالَ سَجَرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ

٣٩، ٤٠ - ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فأعرض عن الإيمان ﴿رِبْكِهِ﴾ بما كان يتقوى به من جنوده وملكه. والركن: ما يركن إليه الإنسان من مال وجند ﴿وَقَالَ سَجَرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿آتٍ﴾ بما يلام عليه من كفره وعناده. وإنما وصف يونس عليه السلام به في قوله: ﴿فَالْنَفْسُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] لأن موجبات اللوم تختلف. وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم. فراكب الكفر ملوم على مقداره، وراكب الكبيرة والصغيرة والزلة كذلك. والجملة مع الواو حال من الضمير في ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾

٤١ - ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ هي: التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلحاق شجر. وهي ريح الهلاك. واختلف فيها. والأظهر: أنها الدبور لقوله ﷺ: «نَصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلَكْتُ عَادًا بِالدَّبُورِ»^(١).

٤٢ - ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ هو: كل ما رمى؛ أي: بلى، وتفتت من عظم، أو نبات، أو غير ذلك. والمعنى: ما ترك من شيء هبت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا أهلكته.

٤٣ - ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آية أيضاً ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾. تفسيره قوله: ﴿تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

٤٤ - ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ العذاب، وكلُّ عذاب مهلك صاعقة. ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ علي. وهي: المرة، من مصدر: صعقتهم الصاعقة ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ لأنها كانت نهاراً يعاينونها.

٤٥ - ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي: هرب. أو هو من قولهم: ما يقوم به: إذا

وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَيْنَهَا
بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُودُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا
زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

عجز عن دفعه ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ ممتنعين من العذاب. أو: لم يمكنهم مقابلتنا بالعذاب لأن معنى الانتصار المقاتلة.

٤٦- ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ أهلكنا ﴿قوم نوح﴾ لأن ما قبله يدل عليه.
أو: ﴿و﴾ اذكر ﴿قوم نوح﴾. وبالجزء أبو عمرو، وعلي، وحمة. أي ﴿و﴾ في
﴿قوم نوح﴾ آية. ويؤيده قراءة عبد الله (وفي قوم نوح) ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل
هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ كافرين.

٤٧- ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ نصب بفعل يفسره ﴿بَيْنَهَا بِأَيِّدٍ﴾ بقوة. والأيد: القوة ﴿وَإِنَّا
لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون. من الوسع، وهي: الطاقة. والموسع: القوي ع
لى الإنفاق. أو: ﴿لموسعون﴾ ما بين السماء والأرض.

٤٨- ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ بسطناها، ومهدناها. وهي منصوبة بفعل مضمر.
أي: وفرشنا الأرض، فرشناها ﴿فَنِعْمَ الْمَبْدُودُونَ﴾ نحن.

٤٩- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى. وعن
الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر،
والموت والحياة. فعدّد أشياء وقال: كلّ اثنين منها زوج. والله تعالى فرد لا مثل
له ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كلّ من بناء السماء، وفرش الأرض،
وخلق الأزواج؛ لتذكروا، فتعرفوا الخالق، وتعبدوه.

٥٠، ٥١- ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من الشرك إلى الإيمان بالله. أو من طاعة
الشیطان إلى طاعة الرحمن. أو ممّا سواه إليه ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ولا تَجْعَلُوا مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ والتكرير للتوكيد. والإطالة في الوعيد أبلغ.

٥٢- ﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر مثل ذلك. وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته
ساحراً أو مجنوناً. ثم فسّر ما أجمل بقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قومك

مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٧﴾ أَتَوَاصَوْنَ بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٨﴾ فَنُؤَلِّقُ عَنْهُمْ قُمْمًا
 أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٩﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٠﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
 لِيَعْبُدُونِ ﴿٦١﴾

﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا﴾ هو ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. رموهم بالسحر أو الجنون لجهلهم.

٥٣- ﴿أَتَوَاصَوْنَ بِهِ﴾ الضمير للقول. أي: أتواصى الأولون والآخرين بهذا القول؛ حتى قالوه جميعاً متفقين عليه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لم يتواصوا به؛ لأنهم لم يتلاقوا في زمانٍ واحدٍ، بل جمعتهم العلة الواحدة، وهي: الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

٥٤- ﴿فَنُؤَلِّقُ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كذرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا عناداً ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ فلا لوم عليك في إعراضك بعدما بلغت الرسالة، وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة.

٥٥- ﴿وَذَكَرْ﴾ وعظ بالقرآن ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن تزيد في علمهم.

٥٦- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة إن حملت على حقيقتها فلا تكون الآية عامة. بل المراد بها المؤمنون من الفريقين. دليله: السياق، أعني: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين) وهذا لأنه لا يجوز أن يخلق الذين علم منهم أنهم لا يؤمنون للعبادة؛ لأنه إذا خلقهم للعبادة وأراد منهم العبادة فلا بد أن توجد منهم، فإذا لم يؤمنوا علم أنه خلقهم لجهنم كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقيل: إلا لآمرهم بالعبادة، وهو منقول عن علي - رضي الله عنه - وقيل: إلا ليكونوا عباداً لي. والوجه: أن تحمل العبادة على التوحيد، فقد قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كل عبادة في القرآن فهي توحيد. والكل يوحدونه في الآخرة لما عرف: أن الكفار كلهم مؤمنون موحدون في الآخرة. دليله قوله: ﴿ثُمَّ لَترَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] نعم قد أشرك البعض في الدنيا لكن مدة الدنيا بالإضافة إلى الأبد أقل من يوم. ومن اشترى غلاماً وقال: ما اشتريته إلا

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾
فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

للكتابه كان صادقاً في قوله: ما اشتريته إلا للكتابة، وإن استعمله في يومٍ من عمره لعملٍ آخر.

٥٧- ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ ما خلقتهم ليرزقوا أنفسهم، أو: واحداً من عبادي ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ قال ثعلب: أن يطعموا عبادي. وهو إضافة تخصيص؛ كقوله ﷺ خبراً عن الله تعالى: «من أكرم مؤمناً فقد أكرمني، ومن أذى مؤمناً فقد آذاني»^(١).

٥٨- ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ الشديد القوة. و﴿المتين﴾ بالرفع صفة لذو. وقرأ الأعمش بالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار.

٥٩- ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ رسول الله بالتكذيب من أهل مكة ﴿ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ نصيباً من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون المهلكة. قال الزجاج: الذنوب في اللغة: النصيب ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ نزول العذاب. وهذا جواب النضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب.

٦٠- ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر ﴿ليعبدوني﴾ ﴿أن يطعموني﴾ ﴿فلا يستعجلوني﴾ بالياء في الحاليين يعقوب. وافقه سهل في الوصل، الباقون بغير ياء.

* * *

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٥٨٠٦)، وانظره في: فيض القدير (٨٥١٢) وميزان الاعتدال للذهبي (٩٦٢٨).

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ
الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾

١-٧- ﴿وَالطُّورِ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ هو القرآن. ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب. أو اللوح المحفوظ، أو التوراة ﴿فِي رَقٍّ﴾ هو الصحيفة، أو الجلد الذي يكتب فيه ﴿مَّنْشُورٍ﴾ مفتوح لاختتم عليه، أو: لائح ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ أي: الضراح. وهو بيت في السماء حيال الكعبة. وعمرانه بكثرة زواره من الملائكة. روي: أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ويخرجون ثم لا يعودون إليه. وقيل: الكعبة؛ لكونها معمورة بالحجاج والعمار ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أي: السماء، أو العرش ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ المملوء أو الموقد. والواو الأولى للقسم، والبواقي للعطف. وجواب القسم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ أي: الذي أوعد الكفار به ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لنازل. قال جبير بن مطعم - رضي الله عنه -: أتيت رسول الله ﷺ أكلمه في الأسارى، فلقيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلما بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أسلمت خوفاً من أن ينزل العذاب^(١).

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا، والذي جاء في الصحيح أن ذلك في صلاة المغرب، وأنه =

مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

٨-١٤- ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ لا يمنعه مانع، والجملة صفة ﴿لواقع﴾ أي: واقع غير مدفوع. والعامل في ﴿يوم﴾: ﴿لواقع﴾ أي: يقع في ذلك اليوم. أو: اذكر ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ تدور كالرحى مضطربة ﴿السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ في الهواء كالسحاب؛ لأنها تصير هباءً منثوراً ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب، ومنه قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاطِنِينَ﴾ [المدر: ٤٥] ويدل ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ من ﴿يوم تمور﴾. والدع: الدفع العنيف. وذلك: أن خزنة النار يُغْلَوْنَ أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعا على وجوههم، وزخا في أفقيتهم، فيقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

١٥- ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا﴾ ﴿هذا﴾ مبتدأ ﴿أسحر﴾ خبره. يعني: كنتم تقولون للوحي: هذا سحر ﴿أسحر هذا﴾؟ يريد: أهذا المصداق أيضاً سحر؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا. يعني: أم أنتم عمي عن المخبر عنه؛ كما كنتم عمياً عن الخبر؟ وهذا تقرير وتهكم.

١٦- ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ خبر ﴿سواء﴾ محذوف؛ أي: ﴿سواء عليكم﴾ الأمران: الصبر وعدمه. وقيل: على العكس. وعلل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأن الصبر إنما تكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير. وأما الصبر: على العذاب الذي هو الجزاء، ولا عاقبة له، ولا منفعة، ولا مزية له على الجزع.

= لا سمع: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾: كاد قلبي يطير. (حاشية الكشاف ٤/٤٠٩).

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَتَكْبِهِينَ يَمَاءً أَنَّهُمْ رِيُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابٍ
الْحَلِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا يَمَاءً كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكَبِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَقْصُوفَةٍ
وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا
أَلَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهْمُ وَلَحْمٍ مِمَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْشَرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا

١٧- ٢٠- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في آية جنات ﴿وَنَعِيمٍ﴾ ﴿و﴾ أي ﴿نعيم﴾

بمعنى الكمال في الصفة. أو ﴿في جنات ونعيم﴾ مخصوصة بالمتقين، خلقت لهم خاصة ﴿فَتَكْبِهِينَ﴾ حال من الضمير في الظرف. والظرف خبر. أي: متلذذين ﴿يَمَاءً أَنَّهُمْ رِيُّهُمْ﴾. وعطف قوله ﴿وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على ﴿في جنات﴾ أي: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ استقروا ﴿في جنات... ووقاهم ربهم﴾ أو على ﴿آتاهم ربهم﴾ على أن تجعل ﴿ما﴾ مصدرية. والمعنى: ﴿فاكبهين﴾ بإيتائهم ربهم ووقايتهم ﴿عَذَابَ الْحَلِيمِ﴾. أو: الواو للحال «وقد» بعدها مضمرة. يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا يَمَاءً كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أكلاً وشراباً ﴿هَنِيئًا﴾. أو طعاماً وشراباً ﴿هَنِيئًا﴾. وهو الذي لا تنغص فيه ﴿مُتَكَبِّينَ﴾ حال من الضمير في ﴿كلوا واشربوا﴾ ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مَقْصُوفَةٍ﴾ موصول بعضها ببعض ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ وقرناهم ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٍ﴾ عظام الأعين، حسانها.

٢١- ٢٣- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدأ. و﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ خبره. و﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾

﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾: أبو عمرو ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ أولادهم ﴿بِإِيمَانٍ﴾ حال من الفاعل ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: نلحق الأولاد بإيمانهم وأعمالهم درجات الآباء وإن قصرت أعمال الذرية عن أعمال الآباء. وقيل: إن الذرية وإن لم يبلغوا مبلغاً يكون منهم الإيمان استدلالاً، وإنما تلقنوا منهم تقليداً فهم يلحقون بالآباء. ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ ذرياتهم ﴿مَدَنِي﴾ ذرياتهم. ذرياتهم ﴿أبو عمرو﴾ ذرياتهم ذرياتهم ﴿شَامِي﴾ ﴿وَمَا أَلَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وما نقصناهم ﴿من﴾ ثواب ﴿عملهم من شيء﴾ ﴿أَلَنَّا﴾ مكي. أَلَت، يَأْلَت، وَأَلَت، يَأْلَت لغتان ﴿مِنْ﴾ الأولى متعلقة بـ ﴿أَلَنَّا﴾، والثانية زائدة ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرهون، نفس المؤمن مرهونة بعمله ويجازى به ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾ وزدناهم في وقت بعد وقت ﴿وَفِيكَهْمُ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وإن لم يفتحوا ﴿يَنْشَرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ خمرأ. أي:

لَا لَعَوْفِيهَا وَلَا تَأْنِيْمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾

يتعاطون، ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقبائهم، يتناول هذا الكأس من يد هذا، وهذا من يد هذا ﴿لَا لَعَوْفِيهَا﴾ في شربها ﴿وَلَا تَأْنِيْمٌ﴾ أي: لا يجري بينهم ما يُلغى. يعني: لا يجري بينهم باطل، ولا مافيه إثم لو فعله فاعل في دار التكليف من الكذب والشتم ونحوهما كشاربي خمر الدنيا؛ لأن عقولهم ثابتة فيتكلمون بالحكم والكلام الحسن. ﴿لَا لَعَوْفِيهَا وَلَا تَأْنِيْمٌ﴾ مكِّي وبصري.

٢٤- ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ﴾ مملوكون ﴿لَهُمْ﴾ مخصوصون بهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من بياضهم وصفائهم ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ في الصدف. لأنه رطباً أحسن وأزكى. أو: مخزون؛ لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. في الحديث: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ مَنْ يَنَادِي الْخَادِمَ مِنْ خِدَامِهِ فَيَجِيه أَلْفَ بَيَابِهِ: لَبِّكَ لَبِّكَ»^(١).

٢٥-٢٨- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أرقاء القلوب من خشية الله. أو: خائفين من نزاع الإيمان وفوت الأمان. أو: من رد الحسنات، والأخذ بالسيئات ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ هي: الريح الحارّة التي تدخل المسام، فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل لقاء الله والمصير إليه - يعنون: في الدنيا - ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبد ولا نعبد غيره، ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن ﴿الرَّحِيمُ﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عبد أثناب، وإذا سئل أجاب. ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح مدني وعليّ؛ أي: بأنه، أو لأنه.

٢٩- ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ برحمة ﴿رَبِّكَ﴾ وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ هَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ

زعموا. وهو في موضع الحال، والتقدير: لست كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك.

٣٠- ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هو ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر، أي: نتظر نوائب الزمان فيهلك؛ كما هلك من قبله من الشعراء: زهير، والنابعة. و﴿أَمْ﴾ في أوائل هذه الآي منقطعة بمعنى: بل، والهمزة.

٣١- ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

٣٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ﴾ عقولهم ﴿هَذَا﴾ التناقض في القول، وهو قولهم: كاهن، وشاعر، مع قولهم: مجنون. وكانت قريش يدعوون: أهل الأحلام والتهى ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم. وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز.

٣٣، ٣٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ اختلقه محمد ﷺ من تلقاء نفسه ﴿بَلْ﴾ رد عليهم. أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم بطلان قولهم، وأنه ليس بمقتول لعجز العرب عنه، وما محمد إلا واحد من العرب ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ﴾ مخلق ﴿مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في أن محمداً تقوله من تلقاء نفسه؛ لأنه بلسانهم وهم فصحاء.

٣٥، ٣٦- ﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ أم أحدثوا وقَدَرُوا التقدير الذي عليه فطرهم ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير مقدّر ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق. وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ فلا يأترون ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ فلا يعبدون خالقهما

بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَعِصُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِصُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

﴿بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ﴾ أي: لا يتدبرون في الآيات فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض.

٣٧، ٣٨- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾ من النبوة والرزق وغيرهما، فيخصّصوا من شأؤوا بما شأؤوا ﴿أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية، ويبينوا الأمور على مشيئتهم. وبالسین مكّيّ وشاميّ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب يرتقون به إلى السماء ﴿يَسْتَعِصُونَ فِيهِ﴾ كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من يتقدّم هلاكه على هلاكهم، وظفرهم في العقابة دونه كما يزعمون. قال الزجاج: ﴿يستمعون فيه﴾ أي: عليه ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعِصُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم.

٣٩-٤١- ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ ثمّ سقّه أحلامهم حيث اختاروا الله ما يكرهون وهم حكماء عند أنفسهم ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ والإنذار ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ المغرم: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه؛ أي: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم^(١)، فزهدهم ذلك في اتباعك ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتى يقولوا: لا نبعث وإن بعثنا لم نعذب.

٤٢، ٤٣- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم، في دار الندوة برسول الله وبالمؤمنين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إليهم، و أريد بهم كلّ من كفر بالله ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم، ويحيق بهم مكرهم، وذلك: أنهم قتلوا يوم بدر. أو: المغلوبون في الكيد. من: كايده، فكده ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يمنعهم من عذاب الله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(١) أي: أثقلهم وبهظهم.

وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

٤٤-٤٦- ﴿وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ﴾ الكسف: القطعة. وهو جواب قولهم: ﴿أَوْ تَسْقِطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. يريد: أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب ﴿مَّرْكُومٌ﴾ قد رُكِم، أي: جمع بعضه على بعض يطرنا، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ بضم الياء: عاصمٌ وشاميٌّ. الباقيون بفتح الياء. يقال: صعق، فصعق. وذلك عند النفخة الأولى؛ نفخة الصعق، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

٤٧- ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَإِنَّ لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ دون يوم القيامة. وهو القتل ببدر، والقحط سبع سنين، وعذاب القبر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٤٨، ٤٩- ثم أمره بالصبر إلى أن يقع بهم العذاب فقال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وبما يلحقك فيه من المشقة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحيث نراك، ونكلوك. وجمع العين لأن الضمير بلفظ الجماعة. ألا ترى إلى قوله ﴿وَلَنُصَنِّعَ عَلَى عِيقٍ﴾ [طه: ٣٩] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ للصلاة، وهو ما يقال بعد التكبير: سبحانك اللهم وبحمدك. أو من أي مكان قمت. أو من منامك ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل. ﴿وَأدبار﴾ زيد. أي: في أعقاب النجوم وأثارها إذا غربت. والمراد: الأمر بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات. وقيل: التسبيح: الصلاة إذا قام من نومه ﴿ومن الليل﴾، صلاة العشاءين، ﴿وإدبار النجوم﴾ صلاة الفجر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾

١ ، ٢- ﴿وَالنَّجْمِ﴾ أقسم بالثريا، أو بجنس النجوم ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا غرب، أو انتثر يوم القيامة. وجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ﴾ عن قصد الحق ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ أي: محمد ﷺ. والخطاب لقريش ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ في اتباع الباطل. وقيل: الضلال نقيض الهدى. والغى نقيض الرشد. أي: هو مهتد راشد. وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغى.

٣ ، ٤- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٣﴾ وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه، إنما هو وحى من عند الله يوحى إليه. ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام. ويجب: بأن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد وقرّرهم عليه كان كالوحي، لا نطقاً عن الهوى.

٥- ﴿عَلَّمَ﴾ علّم محمداً ﷺ ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ملكٌ شديد قواه. والإضافة غير حقيقية؛ لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها. وهو جبريل عليه السلام عند الجمهور. ومن قوته: أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين.

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾

٦-١٠- ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ منظر حسن - عن ابن عباس - رضي الله عنهما -
﴿فَاسْتَوَى﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقية دون الصورة التي كان يتمثل بها
كلما هبط بالوحي. وكان ينزل في صورة دحية. وذلك: أَنَّ رسول الله ﷺ
أحبَّ أن يراه في صورته التي جبل عليها ﴿فَاسْتَوَى﴾ له في الأفق الأعلى - وهو
أفق الشمس فملاً الأفق. وقيل: ما رآه أحدٌ من الأنبياء عليهم السلام في
صورته الحقيقية سوى محمد ﷺ مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء
﴿وَهُوَ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ مطلع الشمس ﴿ثُمَّ دَنَا﴾
جبريل من رسول الله ﷺ ﴿فَتَدَلَّى﴾ فزاد في القرب - والتدلي: هو النزول بقرب
الشيء - ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدار قوسين عرييين. وقد جاء التقدير بالقوس،
والرمح، والسوط، والذراع، والباع. ومنه: لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس
مقدار رحمين. وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من
الدنيا وما فيها»^(١). والقِدُّ: السوط. وتقديره: ﴿فَكَانَ﴾ مقدار مسافة قربه مثل
﴿قَاب قَوْسَيْنِ﴾ فحذفت هذه المضافات. ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ أي: على تقديرهم؛
كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفات: ١٤٧]. وهذا لأنهم خوطبوا على لغتهم
ومقدار فهمهم وهم يقولون هذا قدر رحمين أو أنقص. وقيل: بل أدنى
﴿فَأَوْحَى﴾ جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ إلى عبد الله، وإن لم يجز لاسمه ذكر
لأنه لا يلتبس. كقوله: ﴿مَا تَرَكْتُ عَلَىٰ ظَهْرِيهَا﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿مَا أَوْحَى﴾
تفخيم للوحي الذي أوحى إليه. قيل: أوحى إليه: «إِنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ
حَتَّىٰ تَدْخُلَهَا، وَعَلَى الْأُمَمِ حَتَّىٰ تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ»^(٢).

١١- ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ فؤاد محمد ﴿مَا رَأَى﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل
عليه السلام. أي: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك. ولو قال ذلك لكان كاذباً
لأنه عرفه. يعني: أنه رآه بعينه، وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق.

(١) رواه البخاري (٢٧٩٣).

(٢) ذكره الزخشي في الكشاف (٤/٤٢٠).

﴿أَفْتَمْرُوهُنَّ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ١٢ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ١٣ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ١٤ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ ١٥ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ١٦ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ١٧

وقيل: المرئي هو الله سبحانه. رآه بعين رأسه. وقيل: بقلبه.

١٢- ﴿أَفْتَمْرُوهُنَّ﴾ أفتجادلونه. من المراء وهو المجادلة. واشتقاقه من: مَرَى الناقية. كأن كل واحد من المتجادلين يَمْرِي ما عند صاحبه ﴿أَفْتَمْرُوهُنَّ﴾ حمزة، وعلي، وخلف، ويعقوب. أفتغلبونه في المراء. من: ماريته فمريته. ولما فيه من معنى الغلبة قال: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ فعذَى بعلى كما تقول: غلبته على كذا. وقيل: ﴿أفتمروهن﴾ أفتجحدونه. يقال: مريته حقّه: إذا جحدته. وتعدّيته بعلى لا تصحّ إلا على مذهب التضمين.

١٣، ١٤- ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة أخرى من النزول. نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو «مرة» لأنّ الفعل اسم للمرة من الفعل، فكانت في حكمها. أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها. وذلك ليلة المعراج ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ الجمهور على أنّها شجرة نبت في السماء السابعة عن يمين العرش. و﴿المنتهى﴾ بمعنى موضع الانتهاء. أو الانتهاء؛ كأنّها في منتهى الجنة وآخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد. وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء.

١٥- ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: الجنة التي يصير إليها المتقون. وقيل: تأوي إليها أرواح الشهداء.

١٦- ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي: رآه ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها. فقد علم بهذه العبارة أنّ ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله تعالى وجلاله أشياء لا يحيط بها الوصف. فقد قيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها. وقيل: يغشاها فراش من ذهب.

١٧- ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ بصر رسول الله ﷺ ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها، ومكن منها ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما جاوز ما أمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَى ﴿٢٠﴾
 أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ
 وَآبَاؤُكُمْ مَا

١٨- ﴿لَقَدْ رَأَى﴾ والله لقد رأى ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ الآيات التي هي كبرها وعظماها. يعني: حين رُقي به إلى السماء فأري عجائب الملكوت.

١٩، ٢٠- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ﴾ أي: أخبرونا عن هذه الأشياء التي تعبدونها من دون الله عز وجل؛ هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة؟ ﴿اللّات والعزى ومناة﴾ أصنام لهم. وهي مؤنثات. فاللات كانت لثقيف بالطائف. وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش. وهي فعلة من: لوى؛ لأنهم كانوا يلوون عليها، ويعكفون للعبادة. والعزى كانت لغطفان، وهي سمرّة، وأصلها تأنيث الأعز. وقطعها خالد بن الوليد. ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة. وقيل: لثقيف. وكانها سميت: مناة؛ لأنّ دماء النسائك كانت تمني عندها؛ أي: تراق ﴿ومناة﴾ مكّي. مفعلة من النوء. كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها ﴿الآخِرَى﴾ هي صفة ذم؛ أي: المتأخرة الوضيعة المقدار. كقوله: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُنَّ لِأُولِنَهُنَّ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: وضعائهن لرؤسائهن وأشرفهن. ويجوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم للّات والعزى.

٢١-٢٣- كانوا يقولون: إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم، ويزعمون: أنّهم شفعاؤهم عند الله مع وأدهم البنات، وكرهتهم لهنّ، ف قيل لهم: ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ أي: جعلكم الله البنات ولكم البنين ﴿قسمة ضيزى﴾ أي: جائرة، من: ضازه، يضيّزه: إذا ضامه. و﴿ضيزى﴾ فعلى؛ إذ لا فعل في النعوت. فكسرت الضاد للياء؛ كما قيل: بيض، وهو بوض، مثل: حمر وسود ﴿ضيزى﴾ بالهمز مكّي، من: ضازه، مثل ضازه ﴿إِنْ هِيَ﴾ ما الأصنام ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسميات؛ لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها، وأشدّ منافاة لها ﴿سَمِيَّتُوهَا﴾ أي: سمّيتم بها - يقال: سمّيته زيدا، وسمّيته بزید ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا

أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَرِهَ مِنْ مَلَائِكَةٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَهُمْ أَلْسِنَةً أَلْتَنَّى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا

أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٢٣﴾ حجة ﴿٢٤﴾ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴿٢٥﴾ إِنْ تَوَهَّم أَنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ ﴿٢٦﴾ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴿٢٧﴾ وما تشتهي أنفسهم ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٩﴾ الرسول والكتاب فتركوه ولم يعملوا به .

٢٤ ، ٢٥ - ﴿٢٤﴾ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٥﴾ هي أم المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها الإنكار ؛ أي : ليس ﴿٢٤﴾ للإنسان . يعني : الكافر ﴿٢٥﴾ ما تمنى ﴿٢٦﴾ من شفاعة الأصنام ، أو من قوله ﴿٢٦﴾ وَلَكِنْ رُجِعَتْ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ الْحُسْنَى ﴿٢٧﴾ [فصلت : ٥٠] وقيل : هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي ﴿٢٨﴾ فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٩﴾ أي : هو مالكهما ، وله الحكم فيهما ، يعطي النبوة ، والشفاعة من شاء وارتضى ، لا من تمنى .

٢٦ - ﴿٢٦﴾ وَكَرِهَ مِنْ مَلَائِكَةٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى ﴿٢٧﴾ يعني : أَنْ أمر الشفاعة ضيق . فَإِنَّ الملائكة مع قربتهم وكثرتهم لو شفَعوا بأجمعهم لأحدٍ لم تغن شفاعتهم شيئاً قط ولم تنفع ﴿٢٨﴾ إِلَّا ﴿٢٩﴾ إذا شفَعوا ﴿٢٦﴾ من بعد أن يأذن الله ﴿٢٧﴾ لهم في الشفاعة ﴿٢٨﴾ لمن يشاء ﴿٢٩﴾ الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له ، فكيف تشفع الأصنام إليه لعبادتهم ؟

٢٧ ، ٢٨ - ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَهُمْ أَلْسِنَةً ﴿٢٩﴾ أي : ﴿٢٨﴾ لَيَسْمُونُ ﴿٢٩﴾ كل واحدٍ منهم ﴿٢٩﴾ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٢٩﴾ لأنهم إذا قالوا للملائكة : بنات الله ؛ فقد سموا كل واحدٍ منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى ﴿٢٩﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴿٢٩﴾ أي : بما يقولون . وقرئ ﴿٢٩﴾ بها ﴿٢٩﴾ أي : بالملائكة أو التسمية ﴿٢٩﴾ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴿٢٩﴾ هو تقليد الآباء ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٩﴾ أي : إنما يعرف الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم .

٢٩ ، ٣٠ - ﴿٣٠﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ﴿٣١﴾ فأعرض عمن رأيت معرضاً عن ذكر

وَلَقَدْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣١﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يُحْتَبِئُونَ كِبِيرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّئِمَ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ

الله؛ أي: القرآن ﴿وَلَقَدْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ﴾ أي: اختيارهم الدنيا، والرضا بها ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ انتهى علمهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ أي: ﴿هو أعلم﴾ بالضال والمهتدي ومجازيما.

٣١- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ بعقاب ما ﴿عَمِلُوا﴾ من السوء. أو بسبب ما عملوا من السوء ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ بالثوبة الحسنى وهي الجنة. أو بسبب الأعمال الحسنى. والمعنى: أن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوى هذه الملكوت ليجزي المحسن من المكلفين والمسيء منهم. إذ الملك أهل لنصر الأولياء وقهر الأعداء.

٣٢- ﴿الَّذِينَ﴾ بدل. أو في موضع رفع على المدح. أي: هم الذين ﴿يُحْتَبِئُونَ كِبِيرَ الْإِنِّمِ﴾ أي: الكبائر من الإنم؛ لأن الإنم جنس يشتمل على كبائر وصغائر. والكبائر: الذنوب التي يكبر عقابها ﴿كَبِيرٌ﴾ حمزة، وعلي. أي: النوع الكبير منه ﴿وَالْفَوَاحِشِ﴾ ما فحش من الكبائر. كأنه قال: ﴿وَالْفَوَاحِشِ﴾ منها خاصة. قيل: الكبائر: ما أوعده الله عليه النار. والفواحش ما شرع فيها الحد. ﴿إِلَّا اللَّئِمَ﴾ أي: الصغائر. والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر والفواحش. وهو كالنظرة والقبلة واللمسة والغمزة ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ فيغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ﴾ أي: أباكم ﴿مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ﴾ جمع جنين ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تنسبوا إلى زكاء العمل، وزيادة الخير والطاعات، أو إلى الزكاة والطهارة من المعاصي، ولا تتنوا عليها، واهضموها. فقد علم الله الزكي منكم، والتقي أولاً وآخرأ قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أفعالاً حسنة ثم يقولون: صلاتنا، وصيامنا، وحجنا فنزلت. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز. لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٧﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٨﴾ أَعِنْدُ عِلْمِهِ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٩﴾ أَمْ لَمْ يُبْنِأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٤٠﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٤١﴾

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ فافتقروا بعلمه عن علم الناس وبجزائه عن ثناء الناس .

٣٧-٣٦ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ أعرض عن الإيمان ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ قطع عطيته وأمسك . وأصله : إكداء الحافر . وهو أن تلقاه كُدْيَةً وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر . عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : فيمن كفر بعد الإسلام . وقيل : في الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ فغيره بعض الكافرين ، وقال له : تركت دين الأشياخ وزعمت أنهم في النار . قال : إني خشيت عذاب الله ، فضمن له ، إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه ، أن يتحمل عنه عذاب الله ، ففعل وأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل به ومنعه ﴿أَعِنْدُ عِلْمِهِ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ فهو يعلم أن ما ضمنه من عذاب الله حق ؟ ﴿أَمْ لَمْ يُبْنِأْ﴾ يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ أي : التوراة ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي : وفي صحف إبراهيم ﴿الَّذِي وَفَّى﴾ أي : وفّر وأتم ؛ كقوله : ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة : ١٢٤] وإطلاقه ليتناول كلّ وفاء وتوفية . وقرئ مخففاً . والتشديد مبالغة في الوفاء . وعن الحسن - رضي الله عنه - : ما أمره الله بشيء إلا وفّى به . وعن عطاء بن السائب : عهد ألا يسأل مخلوقاً . فلما كذب في النار قال له جبريل - عليه السلام - ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا . وعن النبي ﷺ : «وفى عمله كلّ يوم بأربع ركعات في صدر النهار»^(١) . وهي صلاة الضحى . وروي : ألا أخبركم لم سمى الله خليله ﴿الذي وفّى﴾ ؟ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى : ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ إلى ﴿حين تظهرون﴾^(٢) . وقيل : وفى سهام الإسلام ، وهي ثلاثون : عشرة في التوبة ﴿التائبون...﴾ وعشرة في الأحزاب ﴿إنّ المسلمين...﴾ وعشرة في المؤمنين ﴿قد أفلح المؤمنون...﴾ .

(١) قال الحافظ : أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم . (حاشية الكشاف ٤/٢٧٤) .

(٢) رواه أحمد (٣/٤٣٩) .

أَلَا نَزَرُ وَزَرٌ ﴿٣٨﴾ وَزَرٌ أُخْرَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ ﴿٤١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّجُلَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾

٣٨-٤٢- ثم أعلم بما في صحف موسى وإبراهيم فقال: ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرٌ وَزَرٌ أُخْرَىٰ﴾. ﴿نزر﴾ من وَزَرَ يَزِرُ: إذا اكتسب وزراً، وهو الإثم. و﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة. والمعنى: أنه ﴿لا نزر﴾. والضمير ضمير الشأن. ومحل ﴿أن﴾ وما بعدها الجزر بدلاً من ﴿ما في صحف موسى﴾ أو الرفع على هو ﴿ألا نزر﴾ كأن قائلًا قال: وما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقيل: ﴿ألا نزر وازرة وزر أخرى﴾ أي: لا تحمل نفس ذنب نفس ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: إلا سعيه. وهذه أيضاً ممّا في صحف إبراهيم وموسى. وأما ما صح في الأخبار من الصدقة عن الميت والحج عنه فقد قيل، إن سَعَى غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه - وهو أن يكون مؤمناً - كان سَعَى غيره كأنه سعي نفسه؛ لكونه تابعاً له وقائماً بقيامه. ولأن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه. ولكن إذا نواه به؛ فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ﴿وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ﴾ أي: يرى هو سعيه يوم القيامة في ميزانه ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ ثم يجزي العبد سعيه - يقال: جزاه الله عمله، وجزاه على عمله - بحذف الجار وإيصال الفعل - ويجوز أن يكون الضمير للجزاء. ثم فسره بقوله: ﴿الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ﴾ أو أبدله عنه ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أي: هذا كله في الصحف الأولى. والمنتهى: مصدر بمعنى الانتهاء. أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٤٣- ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكَىٰ﴾ خلق الضحك والبكاء. وقيل: خلق الفرح والحزن. وقيل: ﴿أضحك﴾ المؤمن في العقبى بالمواهب، وأبكاه في الدنيا بالنوائب.

٤٤- ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ قيل: ﴿أمات﴾ الآباء، ﴿وأحيا﴾ الأبناء. أو ﴿أمات﴾ بالكفر ﴿وأحيا﴾ بالإيمان. أو ﴿أمات﴾ هنا ﴿وأحيا﴾ ثمة.

٤٥-٤٩- ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّجُلَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ من نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ إذا تَدَقَّقَ في الرحم.

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ
أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا مَّا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ
وَأَطْلَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُتْمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يقال: مني، وأمني ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى﴾ الإحياء بعد الموت ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَى﴾ وأعطى القنية. وهي المال الذي تأثله، وعزمت ألا تخرجه من يدك ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر. وكانت خزاعة تعبدها. فأعلم الله تعالى: أنه رب معبودهم هذا.

٥٠- ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ هم قوم هود. وعاد الأخرى إرم. (عاد الأولى) مدني وبصري غير سهل يادغام التنوين في اللام، وطرح همزة الأولى، ونقل ضممتها إلى لام التعريف.

٥١- ﴿وَتَمُودًا مَّا أَبْقَى﴾ حمزة وعاصم. الباكون ﴿وَتَمُودًا﴾. وهو معطوف على ﴿عَادًا﴾. ولا ينتصب بـ ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبله، لا تقول: زيدا فضربت. وكذا ما بعد النفي لا يعمل فيما قبله. والمعنى: وأهلك ثمود فما أبقاهم.

٥٢- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ أهلك ﴿قوم نوح﴾ ﴿مِّنْ قَبْلُ﴾ من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَى﴾ من عاد وثمود؛ لأنهم كانوا يضربونه حتى لا يكون به حراك، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه.

٥٣- ﴿وَالْمُؤَنَفَكَةَ﴾ والقرى التي ائتفتك بأهلها؛ أي: انقلبت. وهم قوم لوط. يقال: أفكه، فائتفك ﴿أَهْوَى﴾ أي: رفعها إلى السماء على جناح جبريل - عليه السلام -، ثم أهواها إلى الأرض، أي: أسقطها ﴿وَالْمُؤَنَفَكَةَ﴾ منصوب بـ ﴿أَهْوَى﴾.

٥٤- ﴿فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّى﴾ ألبسها ﴿مَا غَشَّى﴾. تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

٥٥- ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ أيها المخاطب ﴿تُتْمَارَى﴾ تشكك؟ أبما أولاك من النعم؟ أو بما كفاك من النقم؟ أو: بأي نعم ربك الدالة على وحدانيته وربوبيته تشكك؟

هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفِئْنَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاتَّبِعُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

٥٦- ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ أي: محمد منذر ﴿مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾ من المنذرين الأولين. وقال: ﴿الأولى﴾ على تأويل الجماعة. أو: ﴿هذا﴾ القرآن ﴿نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾ أي: إنذار من جنس الإنذارات ﴿الأولى﴾ التي أنذر بها من قبلكم. ٥٧- ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ قربت الموصوفة بالقرب في قوله: ﴿أَفَرَّيْتِ السَّاعَةَ﴾ [القمر: ١].

٥٨- ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ﴿ليس لها﴾ نفس كاشفة، أي: مبينة متى تقوم. كقوله: ﴿لَا يَجْلِبِيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أو: ﴿ليس لها﴾ نفس كاشفة؛ أي: قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله تعالى، غير أنه لا يكشفها.

٥٩-٦٢- ﴿أَفِئْنَ هَذَا الْحَدِيثَ﴾ أي: القرآن ﴿تَعَجُّبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خشوعاً ﴿وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ﴾ غافلون، أو لاهون لاهون. وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه ﴿فَاتَّبِعُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي: ﴿فاسجدوا لله﴾ واعبدوه، ولا تعبدوا الآلهة.

سُورَةُ الْقَمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِمَّرٌ ﴿٢﴾
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾

١- ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قربت القيامة ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ نصفين. وقرىء (وقد انشق). أي: ﴿أقربت الساعة﴾ وقد حصل من آيات اقترابها: أن القمر قد انشق؛ كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه. قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: رأيت حراء بين فلقتي القمر. وقيل: معناه: ينشق يوم القيامة. والجمهور على الأول، وهو المروي في الصحيحين. ولا يقال: لو انشق لما خفي على أهل الأقطار، ولو ظهر عندهم لنقلوه متواتراً؛ لأن الطباع جبلت على نشر العجائب؛ لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم.

٢- ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ يعني: أهل مكة ﴿آيَةً﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن الإيمان به ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِمَّرٌ﴾ محكم قوي؛ من المرة: القوة. أو: دائم مطرد. أو: ما زل يذهب، يزول، ولا يبقى.

٣- ﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبي ﷺ ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ وعدمه الله ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ كائن في وقته. وقيل: ﴿كل﴾ ما قُدِّرَ واقع. وقيل: ﴿كل أمر﴾ من أمرهم واقع ﴿مستقر﴾

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿١﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ
النُّذُرُ ﴿٢﴾ فَبَقِيَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ ﴿٣﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ

أي: سيثبت، ويستقر عند ظهور العقاب والثواب.

٤- ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أهل مكة ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ من القرآن المودع أنباء القرون
الخالية، أو: أنباء الآخرة، وما وُصِفَ من عذاب الكفار ﴿مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾
ازدجار عن الكفر. تقول: زجرته، وازدجرته، أي: منعت. والأصل: ازتجر،
ولكن التاء إذا وقعت بعد زاي ساكنة أبدلت دالاً؛ لأن التاء حرف مهموس،
والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء حرف مجهور وهو الدال ليتناسباً. وهذا في
آخر كتاب سيبويه.

٥- ﴿حِكْمَةٌ﴾ بدل من ﴿مَا﴾ أو على: هو ﴿حِكْمَةٌ﴾ ﴿بَلِغَةٌ﴾ نهاية
الصواب أو: ﴿بالغة﴾ من الله إليهم ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ ﴿مَا﴾ نفى. والنذر:
مصدر بمعنى الإنذار.

٦- ﴿فَبَقِيَ عَنْهُمْ﴾ لعل مك أن الإنذار لا يغني فيهم. نُصِبَ ﴿يَوْمَ يَدْعُ
الدَّاعِ﴾ بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾؛ أو بإضمار اذكر. ﴿الدَّاعِ﴾ ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ سهل،
ويعقوب، ومكي فيهما. ووافق مدني، وأبو عمرو في البوصل. ومن أسقط
الياء اكتفى بالكسرة عنها. وحذف الواو من: ﴿يَدْعُ﴾ في الكتابة لمتابعة اللفظ.
و﴿الدَّاعِ﴾: إسماعيل عليه السلام ﴿إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾ منكر فظيع، تنكره
النفوس؛ لأنها لم تعهد بمثله. وهو هول يوم القيامة. ﴿نَكَرٍ﴾ بالتخفيف مكي.

٧- ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾^(١) عراقي غير عاصم. وهو حال من الخارجين. وهو
فعل للأبصار. وذكر كما تقول: يخشع أبصارهم. غيرهم ﴿خُشْعًا﴾ على يخشعن
أبصارهم. وهي لغة من يقول: أكلوني البراغيث. ويجوز أن يكون في
﴿خُشْعًا﴾ ضميرهم وتقع أبصارهم بدلاً عنه. وخشوع الأبصار كناية عن
الذلة؛ لأن ذلة الدليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿خاشعاً﴾. وهي قراءة: عراقي غير
عاصم كما نص على ذلك.

كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾

القبور ﴿٧﴾ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ في كثرتهم، وتفرقهم في كل جهة. والجراد مثل في الكثرة والتموج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاؤوا كالجراد.

٨- ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين مادي أعناقهم إليه ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب شديد.

٩- ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً - عليه السلام - ومعنى تكرار التكذيب: أنهم كذبوه تكديماً على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو: كذبت ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ الرسل ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل ﴿وَقَالُوا: مَجْنُونٌ﴾ هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ وازدجر عن أداء الرسالة بالشتم وهدد بالقتل. أو: هو من جملة قيلهم. أي: ﴿قَالُوا﴾: هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ وقد ازدجرته الجن، وتخبطته، وذهبت بلبته.

١٠- ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ أي: بأنني ﴿مَغْلُوبٌ﴾ غلبني قومي فلم يسمعوا مني، واستحكم اليأس من إجابتهم لي ﴿فَأَنْتَصِرْ﴾ فانتقم لي منهم بعذاب تبعته عليهم.

١١- ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ ﴿فَفَتَحْنَا﴾ شامي، ويزيد، وسهل، ويعقوب ﴿بِمَاءٍ مُثَمَرٍ﴾ منصب في كثرة وتتابع، لم ينقطع أربعين يوماً.

١٢- ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تنفجر. وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: مياه السماء والأرض. وقرئ: (الماءان) أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ على حال قدرها الله كيف شاء. أو: ﴿على أمر قد قدر﴾ في اللوح المحفوظ: أنه يكون. وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفْرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ

١٣- ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات، فتتوب منهاها، وتؤدي مؤداها، بحيث لا يفصل بينها وبينها. ونحوه:

... .. ولـ كُنَّ قميصي مسرودة من حديد^(١)

أراد: ولكنَّ قميصي درع. ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة لم يصح. وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والدرس: جمع دسار، وهو المسمار. فعال. من: دسره: إذا دفعه؛ لأنه يدرس به منفذه.

١٤- ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا، أو بحفظنا. و: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ حال من الضمير في ﴿تَجْرِي﴾ أي: محفوظة بنا ﴿جَزَاءَ﴾ مفعول له لما قَدَمَ من فتح أبواب السماء وما بعده. أي: فعلنا ذلك جزاء ﴿لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾ وهو نوح عليه السلام. وجعله مكفورا؛ لأن النبي نعمة من الله ورحمة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان نوح نعمة مكفورة.

١٥- ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ أي: السفينة أو الفعلة. أي: جعلناها ﴿آيَةً﴾ يُعْتَبَرُ بها. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة. وقيل: على الجودي دهرًا طويلاً حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ متعظ، يتعظ، ويعتبر. وأصله: مذتكر - بالذال والتاء - ولكن التاء أبدلت منها الدال، والدال والذال من موضع، فأدغمت الذال في الدال.

١٦- ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ جمع نذير وهو الإنذار ﴿ونذري﴾ يعقوب فيهما. وافقه سهل في الوصل. غيرهما بغير ياء. وعلى هذا الاختلاف ما بعده إلى آخر السورة.

١٧- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ سهّلناه للذكّار والاعتاظ؛ بأن شحّناه

(١) عجز بيت للمتنبي وصدرة: مفرشي صهوة الحصان ولـ.

فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِ وَنُذِرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا
فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِ
وَنُذِرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا
مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾

بالمواعظ الشافية، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ متعظ يتعظ؟
وقيل: ولقد سهلناه للحفظ، وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه
ليعان عليه؟ ويروى: أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها
أهلها إلا نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن.

١٨- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِ وَنُذِرٍ﴾ أي: وإنذاراتي لهم بالعذاب قبل
نزوله. أو: إنذاراتي في تعذيبهم لمن بعدهم.

١٩- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة، أو شديدة الصوت ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾
شؤم ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ دائم الشر. فقد استمر عليهم حتى أهلكهم. وكان في أربعاء في
آخر الشهر.

٢٠-٢٢- ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ تقلعهم عن أماكنهم، وكانوا يصطفون آخذاً بعضهم
بأيدي بعض، ويتداخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر، فيندسون فيها،
فتزعمهم، وتكبيهم، وتدق رقابهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ أصول نخل
منقلع عن مغارسه، وشبهوا بأعجاز النخل؛ لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم،
فتبقى أجساداً بلا رؤوس، فيتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال.
وذكر صفة ﴿نخل﴾ على اللفظ، ولو حملها على المعنى لأنث؛ كما قال:
﴿أعجاز نخل خاوية﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِ وَنُذِرٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ
مُدْكِرٍ﴾.

٢٣، ٢٦- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَاحِدًا﴾ انتصب ﴿بشراً﴾ بفعل
يفسره ﴿نَتَّبِعُهُ﴾ تقديره: أتبع بشراً واحداً ﴿إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ كان
يقول: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق ﴿وسعراً﴾ ونيران؛ جمع سعير،
فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول. وقيل: الضلال: الخطأ،
والبعد عن الصواب، والسعر: الجنون. وقولهم: ﴿أبشراً﴾ إنكار لأن يتبعوا

أَمْلَقِ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنِ الْكَذَّابُ
 الْأَشِرُّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنْتَ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ
 كُلُّ شَرِبٍ مُحَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّأَوْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا
 أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُخْتَطِرِ ﴿٣١﴾

مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من الملائكة وقالوا: ﴿مَنَا﴾ لأنه إذا كان
 منهم كانت المماثلة أقوى. وقالوا ﴿واحدًا﴾ إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً
 واحداً. أو أردوا ﴿واحدًا﴾ من أفئدتهم ليس بأشرفهم وأفضلهم. ويدل عليه
 قوله: ﴿أَمْلَقِ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أنزل عليه الوحي من بيننا وبيننا من هو
 أحق منه بالاختيار للنبوّة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ بطر، متكبر، حمله بطره وطلبه
 التعظم علينا على ادعاء ذلك ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ﴾ عند نزول العذاب بهم، أو يوم
 القيامة ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ﴾ أصالح أم من كذبه؟ ﴿ستعلمون﴾ شامي وحمزة
 على حكاية ما قال لهم صالح مجيباً لهم. أو هو كلام الله على سبيل الالتفات.

٢٧- ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ﴿فَنَنْتَ
 لَهُمْ﴾ امتحاناً لهم وابتلاء. وهو مفعول له، أو حال ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فانظرهم
 وتبصر ما هم صانعون ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري.

٢٨- ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم بينهم، لها شرب يوم، ولهم شرب
 يوم. وقال: ﴿بينهم﴾ تغليبا للعقلاء ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُحَضَّرٌ﴾ محصور، يحضر القوم
 الشرب يوماً، وتحضر الناقة يوماً.

٢٩- ﴿فَادَّأَوْ صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَى﴾ فاجترأ على
 تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له ﴿فَمَقَرَ﴾ الناقة. أو: فتعاطى الناقة فعقرها.
 أو: فتعاطى السيف. وإنما قال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧] في آية
 أخرى لرضاهم به؛ أو لأنه عقر بمعونتهم.

٣٠، ٣١- ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴿في اليوم الرابع من عقرها
 صَيِّحَةً وَجِدَّةً﴾ صاح بهم جبريل عليه السلام ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُخْتَطِرِ﴾.
 والهشيم: الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمخاطر: الذي يعمل الخطيرة.
 وما يحتظر به يبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم، فيتحطم ويتهشم. وقرأ

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾

الحسن بفتح الظاء، وهو موضع الاحتظار؛ أي: الخطيرة.

٣٢، ٣٤ - ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴿٣٤﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة، أي: ترميهم ﴿٣٤﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴿٣٥﴾ ابنتيه ومن آمن معه ﴿٣٥﴾ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٦﴾ من الأسحار. ولذا صرفه. ويقال: لقيته بسحر: إذا لقيته في سحر يومه. وقيل: هما سحران. فالسحر الأعلى: قبل انصداع الفجر، والآخر: عند انصداعه.

٣٥ - ﴿نِعْمَةٌ﴾ مفعول له؛ أي: إنعاماً ﴿٣٥﴾ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ نعمة الله بإيمانه، وطاعته.

٣٦ - ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط - عليه السلام - ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالَّذِي﴾ فكذبوا بالنذر متشاكين.

٣٧، ٣٨ - ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ طلبوا الفاحشة من أضيافه ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أعميناهم. وقيل: مسحناها، وجعلناها كسائر الوجه، لا يرى لها شق. روي: أنهم لما عاجلوا باب لوط - عليه السلام - ليدخلوا قالت الملائكة: خلّهم يدخلوا. ﴿إِنَّا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فصفقهم جبريل - عليه السلام - بجناحه صفقة، فتركهم يترددون، لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ﴿فَذُوقُوا﴾ فقلت لهم ﴿ذُوقُوا﴾ على السنة الملائكة ﴿عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً ﴿أَوَّلَ النَّهَارِ﴾ عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿ثَابِتٌ﴾ قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم عذاب الآخرة.

٣٩، ٤٠ - وفائدة تكرير ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين أذكاراً واتعاضاً، وأن يستأنفوا

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْنَدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى

نتيهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه. وهذا حكم التكرير في قوله: ﴿فَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] عند كل نعمة عدها، وقوله: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] عند كل آية أوردتها. وكذلك تكرير الأنبياء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان.

٤١- ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ موسى، وهارون، وغيرهما من الأنبياء. أو: هو جمع نذير، وهو الإنذار.

٤٢- ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿مُقْنَدِرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

٤٣- ﴿أَكْفَارَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ﴾ الكفار المعدودين: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وآل فرعون؛ أي: أهم خير قوة، وآلة ومكانة في الدنيا؟ أو أقل كفراً وعناداً؟ يعني: أن كفاركم مثل أولئك، بل شرّ منهم أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ؟ أم أنزلت عليكم يا أهل مكة براءة في الكتب المتقدمة: أن من كفر منكم وكذب الرسل كان آمناً من عذاب الله، وأمنتكم بتلك البراءة؟

٤٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ - جماعة أمرنا مجتمع - ﴿مُنْتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ولا نضام.

٤٥- ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ﴾ جمع أهل مكة ﴿وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار، كما قال: كلوا في بغضٍ بطنكم تَعَفُّوا^(١)

أي: ينصرفون منهزمين. يعني: يوم بدر. وهذه من علامات النبوة.

٤٦- ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعد عذابهم بعد بدر ﴿وَالسَّاعَةُ أَدهَى مِنْ

(١) صدر بيت، وعجزه: فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيسٌ.

وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾

موقف بدر. والداهية: الأمر المنكر الذي لا يُهْتَدَى لدوائه ﴿وَأَمْرٌ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا أو: أشد. من: المِرَّة.

٤٧، ٤٨ - ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران في الآخرة. أو في هلاك ونيران ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ﴾ يجزّون فيها ﴿وَجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ كقولك: وجد من الحصى، وذاق طعم الضرب؛ لأنّ النار إذا أصابتهم بحرّها فكأنّها تمسّهم مسّاً بذلك. و﴿سَقَرَ﴾ غير منصرف للتأنيث والتعريف لأنّها علم لجهنّم، من سقرته النار: إذا لوحته.

٤٩ - ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿كُلٌّ﴾: منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر. وقرئ بالرفع شاذّاً. والنصب أولى لأنّه لو رفع لأمكن أن يكون ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ في موضع الجزّ وصفاً لشيء، ويكون الخبر ﴿بِقَدَرٍ﴾ وتقديره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ مخلوق لنا كائن ﴿بِقَدَرٍ﴾. ويحتمل أن يكون ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ هو الخبر، وتقديره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ مخلوق لنا ﴿بِقَدَرٍ﴾. فلما تردّد الأمر في الرفع عدل إلى النصب. وتقديره: إِنّا خلقنا كلّ شيء بقدر. فيكون الخلق عامّاً لكلّ شيء. وهو المراد بالآية. ولا يجوز في النصب أن يكون ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ صفة لشيء؛ لأنّه تفسير الناصب، والصفة لا تعمل في الموصوف. والقدر والقدر: التقدير. أي: بتقدير سابق. أو خلقنا كلّ شيء مقدّراً، محكماً، مرتّباً على حسب ما اقتضته الحكمة. أو: مقدّراً، مكتوباً في اللوح، معلوماً قبل كونه، قد علمناه حاله وزمانه. قال أبو هريرة: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمون في القدر. فنزلت الآية^(١). وكان عمر يحلف أنّها نزلت في القدرية.

٥٠ - ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ إلّا كلمة واحدة. أي: ﴿وَمَا أَمْرُنَا﴾ لشيء نريد تكوينه إلّا أن نقول له: كن؛ فيكون ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ على قدر ما يلح أحدهم ببصره. وقيل: المراد بأمرنا: القيامة كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ
مَلِكٍ مُقْنَدٍ ﴿٥٥﴾

٥١- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم ﴿فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ﴾ متعظ.

٥٢، ٥٣- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: أولئك الكفار. أي: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ مفعول لهم ثابت ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ في دواوين الحفظة: فـ ﴿فَعَلُوهُ﴾: في موضع جر نعت لشيء. و﴿فِي الزُّبُرِ﴾ خبر لكل ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ مسطور في اللوح.

٥٤- ﴿إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ وأنهار. اكتفى بـ«الجنس». وقيل: هو السعة، والضياء. ومنه: النهار.

٥٥- ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي ﴿عِنْدَ مَلِكٍ﴾ عندية منزلة وكرامة، لا مسافة ومماسة، ﴿مُقْنَدٍ﴾ قادر. وفائدة التنكير فيهما: أن يُعْلَمَ: أن لا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته.

* * *

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾

١ - ٤ - ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾﴾ أي: الجنس أو آدم أو محمداً عليهما الصلاة والسلام ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ عَدَدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ آلاَهُ. فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قدماً من ضروب آلائه وصنوف نعمائه وهي نعمة الدين. وقدم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها، وأقصى مراقبها، وهو إنعامه بالقرآن، وتنزيله، وتعليمه، لأنه أعظم وحي الله رتبةً، وأعلاه منزلةً، وأحسنه في أبواب الدين أثراً. وهو سنام الكتب السماوية ومصدقها، والعيار عليها. وآخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره. ثم أتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين، وليحيط علماً بوحيه وكتبه. وقدم ما خلق الإنسان من أجله عليه. ثم ذكر ما تميّز به من سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير. و﴿الرحمن﴾ مبتدأ. وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة، وإخلاؤها من العاطف؛ لمجيئها على نمط التعديد. كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد. فما تنكر من إحسانه؟

٥، ٦ - ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ بحسابٍ معلوم، وتقديرٍ سويٍّ مجريان في

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾

بروجهما ومنازلهما، وفي ذلك منافع للناس، منها علم السنين والحساب ﴿وَالنَّجْمُ﴾ النبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له؛ كالبقول ﴿وَالشَّجَرُ﴾ الذي له ساق - وقيل: النجم: نجوم السماء - ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان لله تعالى فيما خلقا له تشبيهاً بالساجد من المكلفين في انقياده. واتصلت هاتان الجملتان بالرحمن بالوصل المعنوي لما علم: أنَّ الحسبان حسبانه، والسجود له لا لغيره، كأنه قيل: ﴿الشمس والقمر﴾ بحسبانه، ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ له. ولم يذكر العاطف في الجمل الأول ثم جيء به بعد، لأنَّ الأول وردت على سبيل التعديد تبكيتاً لمن أنكر آلاءه؛ كما يبيكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال المذكور. ثم ردَّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف. وبيان التناسب: أنَّ الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيتان. فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل، وأنَّ السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين. وأنَّ جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله. فهو مناسب لسجود النجم والشجر.

٧ - ٩ - ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعةً، مسموكةً حيث جعلها منشأ أحكامه، ومصدر قضاياه، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. ونبه بذلك على كبرياء شأنه، وملكه، وسلطانه ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان، وقرسطون، ومكيال، ومقياس. أي: خلقه موضوعاً على الأرض؛ حيث علّق به أحكام عبادته من التسوية، والتعديل في أخذهم وإعطائهم ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ لـ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾. أو هي ﴿أن﴾ المفسرة ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ وقوموا وزنكم بالعدل ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه. أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان. وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه.

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١١﴾ فِيهَا فَكِكْهُمُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١٢﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٣﴾ فَيَأْتِي أَوَّلَهُ رِيحُكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿١٤﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٥﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٦﴾

١٠-١٣- ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوة على الماء ﴿لِلْأَنَامِ﴾ للخلق، وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة. وعن الحسن - رحمه الله -: الإنس والجن. فهي كالمهاد لهم، يتصرفون فوقها ﴿فِيهَا فَكِكْهُمُ﴾ ضروب مما يتفكه به ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ هي أوعية الثمر. الواحد: كم بكسر الكاف. أو كل ما يكم. أي: يغطي من ليفه، وسعفه، وكفراه. وكله منتفع به كما ينتفع بالكموم من ثمره، وجماره، وجذوعه ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ هو ورق الزرع أو التبن ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ الرزق وهو اللب. أراد ﴿فيها﴾ ما يتلذذ به من الفواكه، والجامع بين التلذذ والتغذي، وهو ثمر النخل، وما يتغذى به وهو الحب ﴿والريحان﴾ بالجر حمزة وعلي. أي: ﴿والحب ذو العصف﴾ الذي هو علف الأنعام، ﴿والريحان﴾ الذي هو مطعم الأنعام. والرفع على ﴿و﴾ ذو ﴿الريحان﴾ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: معناه: ﴿و﴾ فيها ﴿الريحان﴾ الذي يشم ﴿والحب ذا العصف والريحان﴾ شامي، أي: وخلق الحب والريحان. أو: وأخص الحب والريحان ﴿فَيَأْتِي أَوَّلَهُ﴾ أي: النعم مما عدد من أول السورة. جمع: ألى، وإلى ﴿رِيحُكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ الخطاب للثقلين، بدلالة الأنام عليهما.

١٤-١٦- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ﴾ طين يابس له صلصلة ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ أي: الطين المطبوخ بالنار، وهو الخزف. ولا اختلاف في هذا وفي قوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] لاتفاقها معنى؛ لأنه يفيد: أنه خلقه من تراب جعله طيناً، ثم حملاً مسنوناً، ثم صلصالاً ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أبا الجن. قيل: هو إبليس ﴿مِنْ مَّارِجٍ﴾. هو اللهب الصافي الذي لا دخان فيه. وقيل: المختلط بسواد النار. من: مرج الشيء: إذا اضطرب، واختلط ﴿مِنْ نَّارٍ﴾ هو بيان لمارج؛ كأنه قيل: من صاف ﴿من نار﴾ أو مختلط ﴿من نار﴾ أو أراد: ﴿من نار﴾ مخصوصة

فَيَأْتِي ۞ الْآءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الشَّرِيقَيْنِ وَرَبُّ الْغَرْبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِي ۞ الْآءَ رَيْكَمَا
 تُكْذِبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَنْتَهِمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي ۞ الْآءَ رَيْكَمَا
 تُكْذِبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِي ۞ الْآءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ
 الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِي ۞ الْآءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى
 وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

كقوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤] ﴿فَيَأْتِي ۞ الْآءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾.

١٧، ١٨ - ﴿رَبُّ الشَّرِيقَيْنِ وَرَبُّ الْغَرْبَيْنِ﴾ أراد شرقي الصيف والشتاء ومغربيهما
 ﴿فَيَأْتِي ۞ الْآءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾.

١٩، ٢٣ - ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: أرسل البحر الملح والبحر العذب
 متجاورين متلاقين، لا فصل بين المائتين في مرأى العين ﴿يَنْتَهِمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من
 قدرة الله تعالى ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوزان حديهما، ولا يبغى أحدهما على الآخر
 بالممازجة ﴿فَيَأْتِي ۞ الْآءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾ يخرج منهما ﴿يَخْرُجُ﴾ مدني وبصري ﴿اللُّؤْلُؤُ﴾
 وبلا همز، أبو بكر ويزيد. وهو كبار الدرر ﴿وَالْمَرْجَاتُ﴾ صفاره. وإنما قال:
 منهما، وهما يخرجان من الملح؛ لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن
 يقال: يخرجان منهما، كما يقال: يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع
 البحر، ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد، وإنما خرجت من محلة
 من محاله. وقيل: لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب ﴿فَيَأْتِي ۞ الْآءَ رَيْكَمَا
 تُكْذِبَانِ﴾.

٢٤، ٢٥ - ﴿وَلَهُ﴾ والله ﴿الْجَوَارِ﴾ السفن. جميع جارية. قال الزجاج: الوقف
 عليها بالياء. والاختيار وصلها، وإن وقف عليها واقف بغير ياء فذا جائز على
 بعد. ولكن يروم الكسر في الراء؛ ليدل على حذف الياء ﴿الْمُنشَآتُ﴾ المرفوعات
 الشُّرْع. ﴿المنشآت﴾ بكسر الشين، حمزة ويحى، الرافعات الشُّرْع. أو اللاتي
 ينشئن الأمواج بجريهن ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ جمع علم. وهو الجبل الطويل ﴿فَيَأْتِي
 ۞ الْآءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾.

٢٦ - ٢٨ - ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ على الأرض ﴿فَانٍ وَبَقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ ذاته ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾

وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّيَ آءِآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْتَأْذِنُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾

ذو العظمة والسلطان - وهو صفة الوجه - ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ بالتجاوز والإحسان. وهذه الصفة من عظيم صفات الله. وفي الحديث: «الْظُّوَا بِيَاذَا الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ»^(١) وروي: أَنَّهُ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ وَهُوَ يَصَلِّي، وَيَقُولُ: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ. فقال: «قد استجيب لك»^(٢) ﴿فَإِنِّيَ آءِآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والنعمة في الفناء باعتبار أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ يَصْلُونَ إِلَى النِّعَمِ السَّامِدِ. وقال يحيى بن معاذ: حبذا الموت فهو الذي يَقْرُبُ الْحَبِيبَ إِلَى الْحَبِيبِ.

٢٩، ٣٠ - ﴿يَسْتَأْذِنُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقف عليها نافع. كُلُّ مَنْ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، فَيَسْأَلُهُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ مَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِهِمْ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ مَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ. وَيَنْصَبُ ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظَرْفًا لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أَي: كُلَّ وَقْتٍ وَحِينَ يَحْدُثُ أُمُورًا وَيَجْدُدُ أَحْوَالًا. كَمَا رَوَى: أَنَّهُ ﷺ تَلَاهَا، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا ذَلِكَ الشَّأْنُ؟ فَقَالَ: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ»^(٣). وَعَنْ ابْنِ عَيْنَةَ: الدَّهْرُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَانِ: أَحَدُهُمَا الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ مَدَّةُ الدُّنْيَا، فَشَأْنُهُ فِيهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ، وَالْإِعْطَاءُ وَالْمَنْعُ. وَالْآخَرُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. فَشَأْنُهُ فِيهِ الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي يَوْمَ السَّبْتِ شَأْنًا. وَسَأَلَ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَزِيرَهُ عَنِ الْآيَةِ فَاسْتَمَهَلَهُ إِلَى الْغَدِ، وَذَهَبَ كَثِيرًا يَفْكَرُ فِيهَا، فَقَالَ غُلَامٌ لَهُ أَسْوَدٌ: يَا مُوَلَايَ! أَخْبِرْنِي مَا أَصَابَكَ لَعَلَّ اللَّهَ يَسْهَلُ لَكَ عَلَى يَدَيَّ. فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ: أَنَا أَفْسَرُهَا لِلْمَلِكِ. فَأَعْلَمَهُ. فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! شَأْنُ اللَّهِ: أَنَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ. وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَيُشْفِي سَقِيمًا، وَيَسْقِمُ سَلِيمًا، وَيَبْتَلِي مُعَافًى، وَيُعَافِي مُبْتَلًى، وَيُعَزِّزُ ذَلِيلًا، وَيَذِلُّ عَزِيزًا، وَيُفْقِرُ غَنِيًّا، وَيَغْنِي فَقِيرًا. فَقَالَ الْأَمِيرُ: أَحْسَنْتَ.

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٥).

(٢) رواه أحمد (٢٣٦/٥) والترمذي (٣٥٢٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٢) وابن حبان في صحيحه (٦٨٩).

فَإِيَّاءِ الْآءِ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَإِيَّاءِ الْآءِ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾
يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا
تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾

وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة. فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله. وقيل: سوق المقادير إلى المواقيت. وقيل: إن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي، قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وقد صحّ: أن الندم توبة، وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وقد صحّ: أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة ويكون توبة في هذه الأمة. وقيل: إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله. وكذا قيل: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ مخصوص بقوم إبراهيم وموسى - عليهما السلام - وأما قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فإنها شؤون يديها، لا شؤون يتيديها، فقام عبد الله، وقبّل رأسه، وسوّغ خراجه ﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣١، ٣٢ - ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدّد: سأفرغ لك، يريد: سأتجرّد للإيقاع بك من كلّ ما يشغلني عنه. والمراد: التوفّر على النكاية فيه، والانتقام منه. ويجوز أن يراد: ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها، وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أَرادها بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل. ﴿سيفرغ﴾ حمزة وعليّ. أي: الله تعالى ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ الإنس والجنّ؛ سميّا بذلك؛ لأنهما ثقلاً الأرض ﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٣، ٣٦ - ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ﴾ هو كالترجمة لقوله ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هرباً من قضائي فاخرجوا. ثم قال: ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ بقوة وقهر وغلبة. وأتى لكم ذلك؟ وقيل: دلّهم على العجز عن قوتهم للحساب غداً بالعجز عن نفوذ الأقطار اليوم.

فَيَأْتِي ۚ الْآلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٦﴾ فَيَأْتِي ۚ الْآلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَأْتِي ۚ الْآلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٩﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٤٠﴾ فَيَأْتِي ۚ الْآلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤١﴾ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤٢﴾ فَيَأْتِي

وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة حين تحرق بهم الملائكة. فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به ﴿فَيَأْتِي ۚ الْآلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وبكسر الشين مكّي، وكلاهما اللهب الخالص ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان ﴿ونحاس﴾ مكّي وأبو عمرو. فالرفع عطف على ﴿شواظ﴾. والجر على ﴿نار﴾. والمعنى: إذا خرجتم من قبوركم يرسل عليكم لهب خالص من النار، ودخان لتسوقكم إلى المحشر ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ فلا تمنعان منهما ﴿فَيَأْتِي ۚ الْآلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٧، ٤٥ - ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ انفك بعضها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر. وقيل: أصل لون السماء الحمرة، ولكن من بعدها ترى زرقاء ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كدهن الزيت. كما قال: ﴿كالمهل﴾ وهو دردي الزيت. وهو جمع دهن. وقيل: ﴿الدهان﴾ الأديم الأحمر ﴿فَيَأْتِي ۚ الْآلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * فَيَوْمَئِذٍ أي: فيوم تنشق السماء ﴿لَا يُشْعَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: ولا جن. فوضع الجان الذي هو أبو الجن موضع الجن؛ كما يقال: هاشم ويراد ولده. والتقدير: لا يسأل إنس ولا جان عن ذنبه. والتوفيق بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلَكَ أَجْمِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وقوله: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] أن ذلك يوم طويل وفيه مواطن، فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر. وقال قتادة - رحمه الله -: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. وقيل: ﴿لا يسأل عن ذنبه﴾ ليعلم من جهته، ولكن يسأل للتوبيخ ﴿فَيَأْتِي ۚ الْآلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: يؤخذ تارة بالنواصي، وتارة بالأقدام ﴿فَيَأْتِي

ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكْذِبُ بِهَا الْجَرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
 حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَيْكَمَا
 تُكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَاءَ
 رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكَبِّرِينَ
 عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَاءَ

ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكْذِبُ بِهَا الْجَرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ ماء
 حَارٌّ قد انتهى حره. أي: يعاقب عليهم بين التصلية بالنار، وبين شرب الحميم
 ﴿فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾ والنعمة في هذا: نجاة الناجي منه بفضلته ورحمته، وما في
 الإنذار به من التنبيه.

٤٦ - ٦١ - ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم
 القيامة، فيترك المعاصي، أو: فأدَّى الفرائض. وقيل: هو مقحم كقوله: ونفيت
 عنه مقام الذنب، أي: ونفيت عنه الذنب ﴿جَنَّاتٍ﴾ جنة الإنس وجنة الجن؛
 لأن الخطاب للثقلين، وكأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان، جنة للخائف
 الإنسي، وجنة للخائف الجنّي ﴿فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿أغصان. جمع
 فنن، وخص الأفنان؛ لأنها هي التي تورق وتثمر، فمنها تمتد الظلال، ومنها
 تجتنى الثمار. أو: ألوان. جمع فن. أي: له فيها ما تشتهي الأنفس وتلذذ
 الأعين. قال:

ومن كل أفنان اللذاذة والصبا لهوثة به والعيش أخضر ناضر

﴿فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا﴾ في الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاؤوا في
 الأعالي والأسافل. وعن الحسن - رضي الله عنه -: تَجْرِيَانِ بالماء الزلال
 إحداهما: التسليم والأخرى: السلسيل ﴿فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ
 فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان، صنف معروف وصنف غريب ﴿فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ﴾
 ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ نصب على المدح للخائفين، أو: حال منهم؛ لأن ﴿مَنْ خَافَ﴾ في
 معنى الجمع ﴿عَلَى فُرُشٍ﴾ جمع فراش ﴿بَطَاطِنُهَا﴾ جمع: بطانة ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ ديباج
 نخين، وهو معرّب. قيل: ظواهرها من سندس. وقيل: لا يعلمها إلا الله
 ﴿وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ﴾ وثمرها قريب يناله القائم، والقاعد، والمتكىء ﴿فَيَأْتِي ءَالَاءَ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَتٌ ۖ الظَّرْفُ لَمْ يَطْمِئِنَّ ۖ إِنْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٦﴾ فَيَايَ
 ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾
 هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا
 جَنَّاتٌ ﴿٦٢﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ مُضَاهَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ
 وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ فِيهِنَّ ﴿٦٢﴾ في الجنة، لاشتمالها على أماكن وقصور ومجالس. أو: في
 هذه الآلاء المعدودة من الجنة، والعينين، والفاكهة، والفرش، والجنني ﴿قَصِيرَتٌ
 الظَّرْفُ﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ﴾
 [بكسر الميم: الدوري] ^(١) وعلي: بضم الميم. والطمت: الجماع بالتدمية، ﴿إِنْ
 قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾. وهذا دليل: على أَنَّ الجنَّ يطمثون كما يطمث الإنسان ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ ﴿٥٨﴾ صَفَاءُ ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ بياضاً، فهو أبيض من اللؤلؤ
 ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ ﴿٦٠﴾ في العمل ﴿إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ في الثواب.
 وقيل: ما جزاء من قال: لا إله إلا الله إلا الجنة. وعن إبراهيم الخواص فيه: هل
 جزاء الإسلام؛ إلا دار السلام ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٦٢، ٧٧ - ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ ومن دون تبتك الجنة الموعودتين للمقربين،
 ﴿جَنَّاتٍ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾
 سوداوان من شدة الخضرة. قال الخليل: الدهمة: السواد ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ مُضَاهَتَانِ﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ﴾ ألوان الفواكه ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾. والرمان والتمر ليسا من
 الفواكه عند أبي حنيفة - رحمه الله - للعطف؛ ولأن التمر فاكهة وطعام، والرمان
 فاكهة ودواء. فلم يخلصا للتفكه. وهما قالا: إنما عطفنا على الفاكهة لفضلهما؛
 كأنهما جنسان آخران لما لهما من المزية، كقوله: ﴿وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾
 [البقرة: ٩٨] ﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ﴾ أي: خيرات.
 فحفظت. وقرئ ﴿خَيْرَاتٍ﴾ على الأصل. والمعنى: فاضلات الأخلاق، حسان

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، واستلرك من المطبوع.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ حَسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكُ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

الخلق ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ أي: مخدرات. يقال: امرأة قصيرة، ومقصورة، أي: مخدرة. وقيل: الخيام من الدَّر المجوف ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قَبْلِهِمْ﴾ قبل أصحاب الجنتين. ودلّ عليهم ذكر الجنتين ﴿وَلَا جَانٌّ﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ ﴿٧٥﴾ نصب على الاختصاص ﴿عَلَى رَفْرَفٍ﴾ هو كل ثوب عريض. وقيل: الوسائد ﴿خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ﴾ ديباج، أو: طنافس ﴿حَسَانٍ﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين، حتى قيل: ﴿ومن دونهما﴾، لأن ﴿مدهامتان﴾ دون ﴿ذواتا أفنان﴾، و﴿نضاختان﴾ دون ﴿نجران﴾، و﴿فاكهة﴾ دون ﴿كل فاكهة﴾، وكذلك صفة الحور والمتكأ.

٧٨ - ﴿نَبْرَكُ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ﴾ ذي العظمة ﴿ذو الجلال﴾ شامي صفة للاسم

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ لأوليائه بالإنعام.

روى جابر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قرأ سورة الرحمن فقال: «مالي أراكم سكوتاً؟! الجن كانوا أحسن منكم رداً، ما أتيت على قول الله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلّا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد، ولك الشكر»^(١).

وكررت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة: ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم؛ ثم: سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار، وشدائدها على عدد أبواب جهنم؛ وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما. فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنة، وغلقت عنه أبواب جهنم.

* * *

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٧٣) وصححه، ووافقه الذهبي.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾

١ - ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قامت القيامة. وقيل: وصفت بالوقوع؛ لأنها تقع لا محالة. فكأنه قيل: إذا وقعت لا بد من وقوعها. ووقوع الأمر: نزوله. يقال: وقع ما كنت أتوقعه. أي: نزل ما كنت أترقب نزوله. وانتصاب ﴿إِذَا﴾ بإضمار اذكر.

٢ - ﴿لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ﴾ نفس ﴿كاذبة﴾. أي: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله، وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات. واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿يَلَيْسَتِي فَدَمَّتْ لِجَانِي﴾ [الفجر: ٢٤].

٣ - ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي: هي ﴿خافضة رافعة﴾ ترفع أقواماً وتضع آخرين.

٤ - ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ حركت تحريكاً شديداً حتى يتهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء. وهو بدل من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾. ويجوز أن ينتصب بـ ﴿خافضة رافعة﴾. أي: تخفض وترفع وقت رج الأرض، وبس الجبال.

وَسُتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ
الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَّةِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَّةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ
السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ
الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾

٥- ﴿وَسُتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ وفشت حتى تعود كالسويق. أو: سقت. من:
بَسَّ الغنم: إذا ساقها كقوله: ﴿وَسُتِ الْجِبَالُ﴾ [النبا: ٢٠].

٦- ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً﴾ غباراً ﴿مُنْبَثًا﴾ متفرقاً.

٧- ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً. يقال للأصناف التي بعضها من بعض أو يذكر
بعضها مع بعض: أزواج ﴿ثَلَاثَةً﴾ صنفان في الجنة، وصنف في النار. ثم فسر
الأزواج فقال:

٨- ﴿فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ مبتدأ. وهم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ﴿مَا
أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ مبتدأ وخبر. وهما خبر المبتدأ الأول. وهو تعجيب من حالهم
في السعادة، وتعظيم لشأنهم. كأنه قال: ما هم؟ وأي شيء هم؟

٩- ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَّةِ﴾ أي: الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم. أو: أصحاب
المنزلة السنية، وأصحاب المنزلة الدنية الخسيسة. من قولك: فلان منى باليمين،
وفلان منى بالشمال: إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعفة. وذلك ليمينهم
باليامن وتشاؤمهم بالشمائل. وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين، وبأهل
النار ذات الشمال ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَّةِ﴾ أي: أي شيء هم؟ وهو تعجيب من
حالهم في الشقاء.

١٠، ١١- ﴿وَالسَّيِّئُونَ﴾ مبتدأ ﴿السَّيِّئُونَ﴾ خبره. تقديره: ﴿السابقون﴾ إلى
الخيرات ﴿السابقون﴾ إلى الجنات. وقيل: الثاني تأكيد للأول. والخبر ﴿أُولَئِكَ
الْمُقَرَّبُونَ﴾ والأول أوجه.

١٢- ﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ أي: هم ﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾.

١٣، ١٤- ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: هم ﴿ثَلَاثَةٌ﴾. والثلاثة:
الأمّة من الناس الكثيرة. والمعنى: أن السابقين كثير ﴿من الأولين﴾ وهم الأمم

عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَنِّيلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ ﴿١٧﴾
يَا كُؤَابَ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ ﴿١٩﴾

من لدن آدم إلى نبينا محمد عليهما السلام ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهم أمة محمد ﷺ. وقيل: ﴿من الأولين﴾ من متقدمي هذه الأمة، و﴿من الآخرين﴾ من متأخريها. وعن النبي ﷺ: «الثلاثان جميعاً من أمتي»^(١).

١٥- ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ جمع سرير؛ ككثيب، وكثب ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ مرمولة، منسوجة بالذهب، مشبكة بالدّر والياقوت.

١٦- ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿على﴾ وهو العامل فيها. أي: استقروا عليها ﴿متكئين﴾ ﴿عَلَيْهَا مُتَقَنِّيلِينَ﴾ ينظر بعضهم في وجوه بعض، ولا ينظر بعضهم في أفقاء بعض. وصفوا بحسن العشرة، وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودة. و﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حال أيضاً.

١٧- ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يخدمهم ﴿وِلْدَانٌ﴾ غلمان. جمع: وليد ﴿مُخْلَدُونَ﴾ مُبَقَّوْنَ أبداً على شكل الولدان، لا يتحولون عنه. وقيل: مقرطون. والخُلْدَةُ: القرط. قيل: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها. وفي الحديث: «أولاد الكفار خدام أهل الجنة»^(٢).

١٨- ﴿يَا كُؤَابَ﴾ جمع كوب. وهي: أنية لا عروة لها، ولا خرطوم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق. وهو: ماله خرطوم، وعروة ﴿وَكَأْسٍ﴾ وقدح فيه شراب، وإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من خير تجري من العيون.

١٩- ﴿لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها. وحقيقته: لا يصدر صداعهم عنها. أو: لا يفرقون عنها ﴿وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ ولا يسكرون. نُزِفَ الرجل: ذهب عقله بالسكر ﴿وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ بكسر الزاي: كوفي. أي: لا ينفد شرابهم. يقال: أنزف القوم: إذا فني شرابهم.

(١) رواه الطبري وابن عدي. (حاشية الكشف ٤/٤٥٨).

(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٧٢) وانظر مجمع الزوائد (٧/٢١٩).

وَفَكَهَمَ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحِمَ ظَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ
الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا
سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾
وَوُظِّلٍ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾

٢٠- ﴿وَفَكَهَمَ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يأخذون خيره وأفضله.

٢١- ﴿وَلَحِمَ ظَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يتمنون.

٢٢، ٢٣ - ﴿وَحُورٌ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء. أي: ﴿و﴾ فيها
﴿حور عين﴾ أو ﴿و﴾ لهم ﴿حور عين﴾. ويجوز أن يكون عطفًا على
﴿ولدان﴾. و﴿حور﴾ يزيد، وحزة، وعليّ عطفًا على ﴿جَنَاتِ النِّعِيمِ﴾ كأنه
قال: هم في جنات وفاكهة ولحم وحور ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ﴾ في الصفاء، والنقاء
﴿الْمَكْنُونِ﴾ المصون. وقال الزجاج: كأمثال الدرّ حين يخرج من صدفه، لم يغيّره
الزمان واختلاف أحوال الاستعمال.

٢٤- ﴿جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَزَاءً﴾: مفعول له. أي: يفعل بهم ذلك كله
لجزاء أعمالهم. أو: مصدر. أي: يجزون ﴿جَزَاءً﴾.

٢٥، ٢٦- ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ هذيانا ﴿إِلَّا
قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ إِلَّا قولاً ذا سلامة. والاستثناء منقطع. و﴿سلاماً﴾ بدل من
﴿قِيلًا﴾ أو مفعول به لـ ﴿قِيلًا﴾. أي: ﴿لا يسمعون فيها﴾ إِلَّا أن يقولوا
﴿سلاماً سلاماً﴾. والمعنى: أنهم يفشون السلام بينهم، فيسلمون سلاماً بعد
سلام.

٢٧، ٢٨- ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿السدر: شجر
النبق. والمخضود: الذي لا شوك له؛ كأنما خضد شوكه.

٢٩- ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ الطلح: شجر الموز. والمنضود: الذي نضد بالحمل من
أسفله إلى أعلاه، فليست له ساق بارزة.

٣٠- ﴿وَوُظِّلٍ مَّمْدُودٍ﴾ ممتد منبسط كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُشٍّ مَّرْقُوعَةٍ ﴿٣٤﴾
 إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً ﴿٣٥﴾ جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْيًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾

٣١- ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ جارٍ بلا حدٍّ ولا خدٍّ. أي: يجري على الأرض في غير
 أ حدود.

٣٢، ٣٣- ﴿وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: كثيرة الأجناس ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطع
 في بعض الأوقات كفواكه الدنيا، بل هي دائمة ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تمنع عن
 تناولها بوجه. وقيل: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ بالأزمان، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ بالأثمان.

٣٤، ٣٨- ﴿وَفُشٍّ مَّرْقُوعَةٍ﴾ رقيقة القدر. أو: نضدت حتى ارتفعت. أو:
 ﴿مرفوعة﴾ على الأسرة. وقيل: هي النساء؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش.
 ﴿مرفوعة﴾ على الأرائك. قال الله تعالى: ﴿هُنَّ وَأَزْوَاجُهُنَّ فِي ظِلِّكَ عَلَى الْأَرَائِكِ
 مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦] ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً﴾ ابتدأنا خلقهن ابتداء
 من غير ولادة. فإما أن يراد: اللاتي ابتدئ إنشاءهن، أو: اللاتي أعيد
 إنشاءهن. وعلى غير هذا التأويل أضمر لهن؛ لأن ذكر الفرش - وهي
 المضاجع - دلّ عليهن ﴿جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ عذارى، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن
 أبكاراً ﴿عُرْيًا﴾ حمرة، وخلف، ويحى، وحامد. جمع: عروب، وهي: المتحبة
 إلى زوجها، الحسنة التبعل ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن، بنات ثلاث وثلاثين،
 وأزواجهن كذلك. واللام في: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ من صلة ﴿أَنشَأْنَا﴾

٣٩، ٤٠- ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: أصحاب اليمين ثلثة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ
 الْآخِرِينَ﴾. فإن قلت: كيف قال قبل هذا: ﴿وقيل من الآخرين﴾ ثم قال هنا:
 ﴿وثلثة من الآخرين﴾؟ قلت: ذاك في السابقين، وهذا في أصحاب اليمين،
 وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعاً. وعن الحسن: سابقو الأمم أكثر
 من سابقي أمتنا، وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمة.

٤١- ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ الشمال والمشأمة واحدة.

فِي سَمُومٍ وَجَحِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

٤٢- ﴿فِي سَمُومٍ﴾ في حرّ نار تنفذ في المسام ﴿وَجَحِيمٍ﴾ وماء حارّ متناهي الحرارة.

٤٣- ﴿وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ﴾ من دخان أسود.

٤٤- ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نفى لصفتي الظلّ عنه؛ يريد أنّه ظلّ، ولكن لا كسائر الظلال. سمّاه ظلّاً، ثمّ نفى عنه برد الظلّ وروحه ونفعه من يأوي إليه من أذى الحرّ - وذلك كرمه - ليمحق ما في مدلول الظلّ من الاسترواح إليه. والمعنى: أنّه ظلّ حارّ ضارّ.

٤٥، ٤٦- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ منعمين. فمنعهم ذلك عن الانزجار، وشغلهم عن الاعتبار ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ يداومون ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ أي: على الذنب العظيم. أو: على الشرك؛ لأنّه نقض عهد الميثاق. والحنث: نقض العهد المؤكّد باليمين. أو: الكفر بالبعث. بدليل قوله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

٤٧- ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَلَمَبْعُوثُونَ﴾ تقديره: ﴿أ﴾ نبعث ﴿إذا متنا﴾. وهو العامل في الظرف. وجاز حذفه؛ إذ ﴿مبعوثون﴾ يدلّ عليه. ولا يعمل فيه ﴿مبعوثون﴾؛ لأنّ ﴿إِنْ﴾ والاستفهام يمنعان أن يعمل ما بعدهما فيما قبلهما.

٤٨- ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف. وحسن العطف على المضمر في: ﴿لمبعوثون﴾ من غير تأكيد بنحن، للفاصل الذي هو الهمزة، كما حسن في قوله: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا أَبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ لفصل لا المؤكدة للنفي ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ مدنيّ، وشاميّ.

٤٩، ٥٠- ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿إِلَىٰ مَا وُفِّتَ

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَأَلْثُونَ مِنهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزِّلَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾

به الدنيا من يوم معلوم. والإضافة بمعنى: من؛ كخاتم فضة. والميقات: ما وقت به الشيء. أي: حد. ومنه: مواقيت الإحرام. وهي: الحدود التي لا يجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً.

٥١-٥٥- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الضَّالُّونَ﴾ عن الهدى ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث، وهم أهل مكة ومن في مثل حالهم ﴿لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ﴾، ﴿من﴾: لابتداء الغاية ﴿مِّنْ زُقُومٍ﴾، ﴿من﴾: لبيان الشجر ﴿فَأَلْثُونَ مِنهَا الْبُطُونَ﴾ ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ - أنت ضمير الشجر على المعنى، وذكره على اللفظ في ﴿منها﴾ و﴿عليه﴾ ﴿فَشَرِبُوا شَرْبَ﴾ بضم الشين مدني، وعاصم، وحمزة، وسهل. وبفتح الشين غيرهم. وهما مصدران ﴿الْهَيْمِ﴾ هي إبل عطاش لا تروى. جمع: أهيم وهيماء. والمعنى: أنه يسלט عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل. فإذا ملؤوا منه البطون؛ سلت عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم. وإنما صح عطف الشارين على الشارين - وهما لذوات متفقة وصفتين مختلفتين؛ لأن كونهم شارين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً. فكانتا صفتين مختلفتين.

٥٦- ﴿هَذَا نُزِّلَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ هو الرزق الذي يعد للنازل تكراً له ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم

الجزاء.

٥٧- ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا﴾ فهلاً ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ تحضيض على التصديق إما بالخلق؛ لأنهم وإن كانوا مصدقين به إلا أنه لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم يكذبون به؛ وإما بالبعث؛ لأن من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً.

٥٨- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ما تمنونه؛ أي: تقذفونه في الأرحام من النطف.

﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ٥٩ ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾ ٦٠ ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٦١ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٦٢ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ٦٣ ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ٦٤

٥٩ - ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ تقدرونه، وتصورونه، وتجعلونه بشراً سوياً ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

٦٠ - ٦٢ - ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ تقديرأ، وقسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلافٍ وتفاوتٍ؛ كما تقتضيه مشيئتنا. فاختلفت أعماركم من قصير، وطويل، ومتوسط. ﴿قَدَرْنَا﴾ بالتخفيف مكِّي. سبقته بالشيء: إذا أعجزته عنه، وغلبته عليه، فمعنى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾ * ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ أنا قادرون على ذلك لا تغلبوني عليه. و﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ جمع: مثل؛ أي: ﴿على أن نبدل﴾ منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ - ﴿و﴾ على أن ﴿ننشئكم في﴾ خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها. يعني: أنا نقدر على الأمرين جميعاً على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم. فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ جمع مثل؛ أي: ﴿على أن نبدل﴾ ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ ﴿النشأة﴾ مكِّي، وأبو عمرو ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ من قدر على شيء مرة لم يمتنع عليه ثانياً. وفيه دليل صحة القياس؛ حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

٦٣ - ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ما تحرثونه من الطعام؛ أي: تثيرون أرضه، وتلقون فيها البذر.

٦٤ - ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ تنبتونه وتردونه نباتاً ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ المنبتون. وفي الحديث: «لا يقولن أحدكم: زرعت، وليقل: حرثت»^(١).

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٧٢٣) والبخاري (١٢٨٩) والبيهقي (١٣٨/٦) وأبو نعيم في الحلية (٢٦٧/٨).

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
 أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ
 جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

٦٥- ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ هشيماً متكسراً قبل إدراكه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تَعَجَّبُونَ، أو تندمون على تعبكُم فيه وإنفاقكم عليه، أو على ما اقترفتُم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها.

٦٦، ٦٧- ﴿إِنَّا﴾ أي: تقولون: ﴿إِنَّا﴾ - ﴿أَنْتُمْ﴾ أبو بكر - ﴿لَمُعْرِمُونَ﴾ للزمون غرامة ما أنفقنا. أو مهلكون لهلاك رزقنا. من: الغرام، وهو: الهلاك، ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قومٌ ﴿مَحْرُومُونَ﴾ محارفون، محدودون، لا مجدودون، لا حظ لنا، ولا بخت لنا. ولو كنّا مجدودين لما جرى علينا هذا.

٦٨، ٦٩- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي: الماء العذب الصالح للشرب ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ السحاب الأبيض، وهو أعذب ماء ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ بقدرتنا؟

٧٠- ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ ملحاً، أو: مرّاً لا يُقدَّر على شربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلاً ﴿تشكرون﴾. ودخلت اللام على جواب ﴿لو﴾ في قوله: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ ونزعت منه هنا؛ لأنَّ ﴿لو﴾ لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتها بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ولم تكن مُخْلِصَةً للشرط كإن، ولا عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقاً من حيث إفادتها في مضموني جملتيها: أنَّ الثاني امتنع لامتناع الأول، افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على هذا التعلق فزيدت هذه اللام لتكون علماً على ذلك، ولما شهر موقعه لم يبال بإسقاطه عن اللفظ لعلم كلِّ أحد به، وتساوي حالي حذفه وإثباته، على أنَّ تقدّم ذكرها والمسافة قصيرةٌ مغن عن ذكرها ثانية، ولأنَّ هذه اللام تفيد معنى التأكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب؛ للدلالة على أنَّ أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب، وأنَّ الوعيد بفقده أشدَّ وأصعب من قبَل: أنَّ المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب.

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ
 جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَا أَقْسَمُ
 بِمَوْقِعِ الشُّجُورِ ﴿٧٥﴾

٧١ - ٧٣ - ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ تقدحونها، وتستخرجونها من الزناد
 - والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر، ويسمّون الأعلى: الزند،
 والأسفل: الزنده، شبهوهما بالفعل والطروقة - ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ التي منها
 الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ الخالقون لها ابتداء ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ أي: النار
 ﴿تَذْكِرَةً﴾ تذكيراً لنار جهنم، حيث علّقنا بها أسباب المعاش، وعمّمنا بالحاجة
 إليها البلوى؛ لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها، ويذكرون ما أوعدوا به
 ﴿وَمَتَاعًا﴾ ومنفعة ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ للمسافرين النازلين في القواء، وهي: القفر. أو:
 للذين خلت بطونهم، أو مزادهم من الطعام. من قولهم: أقوت الدار إذا خلت
 من ساكنيها. بدأ بذكر خلق الإنسان فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ﴾ لأنّ النعمة فيه
 سابقة على جميع النعم. ثمّ بما به قوامه، وهو: الحبّ، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ
 مَا تَحْرِثُونَ﴾ ثمّ بما يعجن به ويشرب عليه، وهو: الماء، ثمّ بما يخبز به، وهو:
 النار. فحصول الطعام بجموع الثلاثة، ولا يستغني عنه الجسد مادام حيّاً.

٧٤ - ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فنزه ربك عما لا يليق به أيها المستمع
 المستدلّ. أو أراد بالاسم: الذكر. أي: ﴿فَسَبِّحْ﴾ بذكر ﴿رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ صفة
 للمضاف، أو للمضاف إليه. وقيل: قل: سبحان ربّي العظيم. وجاء مرفوعاً:
 أنّه لما نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم»^(١).

٧٥ - ٧٧ - ﴿فَلَا أَقْسَمُ﴾ أي: فأقسم و﴿لَا﴾ مزيدة مؤكّدة، مثلاً في
 قوله: ﴿لَيْسَ يَظُنُّ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] وقرئ (فلا قسم) ومعناه:
 فلأنا أقسم. اللام لام الابتداء أدخلت على جملة من مبتدأ وخبر، وهي: أنا
 أقسم ثمّ حذف المبتدأ. ولا يصحّ أن تكون اللام لام القسم؛ لأنّ حقها أن
 تقرن بها النون المؤكّدة ﴿بِمَوْقِعِ الشُّجُورِ﴾ بمساقطها ومغاربها ﴿بِمَوْقِعِ﴾ حمزة،

(١) رواه أحمد (١٥٥/٤) وأبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (٢٩٩/١).

وَأَن تَقْسَمُ لَو تَعْلَمُونَ عَظِيمًا ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

وعليّ. ولعلّ الله تعالى في آخر الليل إذا انحطّت النجوم إلى المغرب أفعالا مخصوصة عظيمة، أو: للملائكة عبادات موصوفة، أو: لأنه وقت قيام المهتجدين، ونزول الرحمة والرضوان عليهم، فلذلك أقسم بمواقعها، واستعظم ذلك بقوله: ﴿وَأَن تَقْسَمُ لَو تَعْلَمُونَ عَظِيمًا﴾ وهو اعتراض في اعتراض؛ لأنه اعتراض به بين القسم والمقسم عليه. وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مرضي، أو نفاع جمّ المنافع. أو ﴿كريم﴾ على الله، واعتراض بـ ﴿لو تعلمون﴾ بين الموصوف وصفته.

٧٨- ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿مَّكْنُونٍ﴾ مصون عن أن يأتيه الباطل. أو من غير المقرّين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم.

٧٩- ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من جميع الأدناس؛ أدناس الذنوب وغيرها إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون، وهو اللوح. وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس، والمراد: من المكتوب منه.

٨٠- ﴿تَنْزِيلٌ﴾ صفة رابعة للقرآن. أي: مُنَزَّلٌ ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. أو: وصف بالمصدر؛ لأنه نزل نجوماً من بين سائر كتب الله، فكأنه في نفسه تنزيل. ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه. فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل. أو: هو ﴿تنزيل﴾ على حذف المبتدأ.

٨١- ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ متهاونون به؛ كمن يدهن في بعض الأمر، أي: يلين جانبه، ولا يتصلّب فيه تهاوناً به.

٨٢- ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون شكر رزقكم التكذيب، أي: وضعتكم التكذيب موضع الشكر. وفي قراءة عليّ - رضي الله عنه - وهي ^(١)

(١) في الكشاف: وقيل: هي. الكشاف (٥٩/٤).

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٧﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُشِيرُونَ ﴿٨٩﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٩٠﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩١﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٩٢﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٤﴾ فَسَاءَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٥﴾

قراءة رسول الله ﷺ - (وتجعلون شكركم أنكم تكذبون) أي: (تجعلون شكركم) لنعمة القرآن ﴿أنكم تكذبون﴾ به. وقيل: نزلت في الأنواء، ونسبتهم السقيا إليها. والرزق: المطر. أي: ﴿وتجعلون﴾ شكر ما يرزقكم الله من الغيث ﴿أنكم تكذبون﴾ بكونه من الله حيث تنسبونه إلى النجوم.

٨٣ - ٨٧ - ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ، أي: الروح عند الموت ﴿الْحُلُقُومَ﴾ عَمَزَ الطعام والشراب ﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ﴾ الخطاب لمن حضر الميت تلك الساعة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضر ﴿مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُشِيرُونَ﴾ لا تعقلون ولا تعلمون ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مربوبين. من: دان السلطان الرعية: إذا ساسهم ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ تردون النفس، وهي الروح إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم غير مربوبين مقهورين. ﴿فَلَوْلَا﴾ في الآيتين للتحييض يستدعي فعلاً، وذا قوله: ﴿ترجعونها﴾ واكتفى بذكره مرة. وترتيب الآية ﴿فَلَوْلَا﴾ ترجعونها ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. و﴿فَلَوْلَا﴾ الثانية مكررة للتأكيد. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا، أو بملائكة الموت. والمعنى: أنكم في جحودكم آيات الله في كل شيء: إِنْ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابًا مُعْجِزًا قُلْتُمْ: سِحْرٌ وَافْتِرَاءٌ، وَإِنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا صَادِقًا قُلْتُمْ: سَاحِرٌ كَذَّابٌ، وَإِنْ رَزَقْنَاكُمْ مَطَرًا يُحْيِيكُمْ بِهِ قُلْتُمْ: صَدَقَ نَوَاءُ كَذَا؛ عَلَى مَذْهَبٍ يُؤْتِي إِلَى الْإِهْمَالِ وَالتَّعْطِيلِ. فَمَا لَكُمْ لَا تَرْجِعُونَ الرُّوحَ إِلَى الْبَدَنِ بَعْدَ بُلُوغِهِ الْحُلُقُومَ إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَقَّةً قَابِضٌ، وَكُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي تَعْطِيلِكُمْ، وَكُفْرِكُمْ بِالْحَيِّ، الْمَيِّتِ، الْمُبْدِئِ، الْعِيدِ؟!

٨٨، ٨٩ - ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة ﴿فَرَوْحٌ﴾ فله استراحة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ وورق ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

٩٠، ٩١ - ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَاءَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي:

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَتَرُكُ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿فسلامٌ لك﴾ يا صاحب اليمين ﴿من﴾ إخوانك ﴿أصحاب اليمين﴾ أي: يسلمون عليك؛ كقوله: ﴿إِلَّا قِيلَ اسْكُنْ﴾ [الواقعة: ٢٦].

٩٢ - ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، وهم الذين قيل لهم في هذه السورة: ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون﴾.

٩٣، ٩٤ - ﴿فَتَرُكُ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: إدخال فيها. وفي هذه الآيات إشارة إلى أن الكفر كله ملّة واحدة، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين؛ لأنهم غير مكذّبين.

٩٥، ٩٦ - ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي أنزل في هذه السورة ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الحقّ الثابت من اليقين، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

وروي: أن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - دخل على ابن مسعود - رضي الله عنه - في مرض موته فقال له: ما تشتهي؟ فقال: ذنوبي. فقال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي. قال: أفلا ندعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. فقال: ألا نأمر بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: ندفعه إلى بناتك. قال: لا حاجة لهنّ فيه. قد أمرتهنّ أن يقرأن سورة الواقعة. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً»^(١). وليس في هذه السور الثلاث ذكر الله (اقتربت، الرحمن، الواقعة)^(٢).

* * *

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن رقم (٢٢٦) والحارث بن أبي أسامة كما في المطالب العالية (٣/٣٨٣).

(٢) أي: لفظ الجلالة (الله) لم يرد في هذه السور الثلاث المذكورة.

سُورَةُ الْحَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ

١- ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ جاء في بعض الفواتح ﴿سَبَّحَ﴾ بلفظ الماضي، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بني إسرائيل بلفظ المصدر، وفي الأعلى بلفظ الأمر، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها. وهي أربع: المصدر، والماضي، والمضارع، والأمر. وهذا الفعل قد عدني باللام تارة، وبنفسه أخرى في قوله: ﴿وَتَسَبَّحُوهُ﴾. وأصله: التعدي بنفسه؛ لأنَّ معنى سبحته: بَعْدَتْهُ عَنِ السَّوَاءِ، منقول من سَبَّحَ: إذا ذهب وبعد. فاللام إما أن تكون مثل اللام في: نصحته، ونصحت له، وإما أن يراد بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ اكتسب التسييح لأجل الله ولوجهه خالصاً ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما يتأتى منه التسييح ويصح ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من مكلف لم يسبِّح له عناداً، ﴿لِلْحَكِيمِ﴾ في مجازاة من سبَّح له انقياداً.

٢- ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا لغيره. وموضع ﴿يُحْيِي﴾ رفع. أي: هو ﴿يُحْيِي﴾ الموتى ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء. أو: نصب؛ أي: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ محياً، ومميتاً ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣- ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ هو القديم الذي كان قبل كل شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي يبقى

وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِيجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ لَمْ يَلِكْ لَكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ

بعد هلاك كل شيء ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بالدالة الدالة عليه ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ لكونه غير مدرك بالحواس وإن كان مرتباً. والواو الأولى معناها: الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولى والآخرة، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الآخرين. فهو المستمرُّ الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية. وهو في جميعها ظاهر وباطن. وقيل: ﴿الظاهر﴾: العالي على كل شيء، الغالب له، من: ظهر عليه: إذا علاه وغلبه ﴿والباطن﴾: الذي بطن كل شيء؛ أي: علم باطنه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٤- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عن الحسن: «من أيام

الدنيا». ولو أراد أن يجعلها في طريقة عين لفعل، ولكن جعل الستة أصلاً؛ ليكون عليها المدار ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ استوى ﴿عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيجُ فِي الْأَرْضِ﴾ ما يدخل في الأرض من البذر، والقطر، والكنوز، والموتى ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وغيره ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأمطار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأعمال والدعوات ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ بالعلم والقدرة عموماً، وبالفضل والرحمة خصوصاً ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم.

٥، ٦- ﴿لَمْ يَلِكْ لَكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ * ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يدخل الليل في النهار، بأن ينقص من الليل، ويزيد في النهار ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

٧- ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا﴾ يحتمل الزكاة، والإنفاق في سبيل الله ﴿وَمَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ يعني: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ
لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ
يَسْتَشِيعُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا
تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

بخلقه وإنشائه لها. وإنما مولكم إياها للاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في
التصرف فيها. فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة
الوكلاء والنواب، فأنفقوا منها في حقوق الله، وليهئ عليكم الإنفاق منها، كما
يهيئ على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه. أو: ﴿جعلكم
مستخلفين﴾ ممن كان قبلكم بتوريثه إياكم، وسينتقل منكم إلى من بعدكم،
فاعتبروا بحالهم ولا تبخلوا به ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ
كَبِيرٌ﴾.

٨ - ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ هو حال من معنى الفعل في ﴿مالكم﴾ كما
تقول: مالك قائماً؟ بمعنى: ما تصنع قائماً؟ أي: ﴿ومالكم﴾ كافرين بالله.
والواو في ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ واو الحال. فهما حالان متداخلتان. والمعنى: وأي
عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ ﴿و﴾
قبل ذلك ﴿قد أخذ﴾ الله ﴿ميثاقكم﴾ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:
١٧٢]. أو بما ركب فيكم من العقول، ومكنكم من النظر في الأدلة. فإذا لم
تبق لكم علة بعد أدلة العقول، وتنبيه الرسول، فمالكم لا تؤمنون ﴿إِن كُنتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما؟ فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. ﴿أَخِذْ مِيثَاقَكُمْ﴾
أبو عمرو.

٩ - ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَاتٍ يَسْتَشِيعُ﴾ يعني: القرآن
﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ الله تعالى أو: محمد بدعوته ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات
الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ بالمد والهمزة، حجازي، وشامي،
وحفص ﴿رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: أشد الرحمة.

١٠ - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ في ألا تنفقوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
يرث كل شيء فيهما، لا يبقى منه باقٍ لأحدٍ من مالٍ وغيره. يعني: وأي

لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ

غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله، والجهاد مع رسوله، والله مهلككم، فوارث أموالكم. وهو من أبلغ البعث في الإنفاق في سبيل الله. ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ أي: فتح مكة قبل عز الإسلام وقوة أهله، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ومن أنفق من بعد الفتح. فحذف، لأن قوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ﴾ يدل عليه ﴿أُولِيَّكَ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح - ﴿و﴾ هم ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(١) ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا﴾ أي: كل واحد من الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة مع تفاوت الدرجات. فـ: ﴿كَلَّا﴾ مفعول أول لوعده. و﴿الحسنَى﴾ مفعول ثان. ﴿وكل﴾ شامي. أي: ﴿وكل﴾ وعده ﴿الله الحسنَى﴾: قيل: نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه - لأنه أول من أسلم، وأول من أنفق في سبيل الله. وفيه دليل على فضله وتقدمه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم على قدر أعمالكم.

١١- ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيب نفسه. والمراد: الإنفاق في سبيله. واستعير لفظ القرض ليدل على التزام الجزاء ﴿فَيُضْعِفُهُ لَمْ﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً مضاعفاً من فضله ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف ﴿كريم﴾ في نفسه ﴿فَيُضْعَفُهُ﴾ مكّي ﴿فَيُضْعَفُهُ﴾ شامي ﴿فَيُضَاعَفُهُ﴾ عاصم، وسهل ﴿فَيُضَاعَفُهُ﴾ غيرهم. فالنصب على جواب الاستفهام، والرفع على: فهو يضاعفه، أو عطف على ﴿يقترض﴾.

١٢- ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرف لقوله: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أو: منصوب بإضمار «اذكر» تعظيماً لذلك اليوم ﴿يَسْعَى﴾ يمضي ﴿نُورُهُمْ﴾ نور

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِشْرَتِكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْبَ بَاطِنُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٨﴾ ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ

التوحيد والطاعات. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين؛ كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم، فيجعل النور في الجهتين شعاراً لهم، وآية؛ لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا، وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومزوا على الصراط يسعون، سعى بسعيهم ذلك النور، وتقول لهم الملائكة: ﴿بُشِّرْتُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ﴾ أي: دخول جنات؛ لأن البشارة تقع بالأحداث دون الجثث ﴿تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣ - ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ هو بدل من ﴿يوم ترى﴾ ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ انتظرونا؛ لأنه يُسْرَعُ بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة ﴿انظُرُونَا﴾ حزة، من: النَّظَرَةُ، وهي الإمهال، جُعِلَتْ اتئادهم في المضى إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم ﴿نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ نُصِبَ منه، وذلك أن يلحقوا بهم فيستنبهوا به ﴿قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ طرد لهم وتهكم بهم. أي: تقول لهم الملائكة، أو: المؤمنون ﴿ارجعوا﴾ إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور، فالتمسوا هنالك، فمن ثم يقتبس. أو: ﴿ارجعوا﴾ إلى الدنيا ﴿فالتمسوا نوراً﴾ بتحصيل سببه، وهو الإيمان ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار - قيل: هو الأعراف - ﴿لَمْ﴾ لذلك السور ﴿بَابٌ﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿بَاطِنُهُ﴾ باطن السور، أو الباب، وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: النور، أو الجنة ﴿وَبَاطِنُهُ﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿مِنْ قِبَلِهِ﴾ من عنده، ومن جهته ﴿الْعَذَابُ﴾ أي: الظلمة، أو: النار.

١٤ - ﴿يَنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يريدون مرافقتهم في الظاهر ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون ﴿بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ محتتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتهم في

وَعَزَّزْتُكُمُ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّزَكُمُ بِاللَّهِ الْفَرُّورُ ﴿١٤﴾ فَأَلَيْسَ لَا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ
وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَشَّ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلُ

التوحيد ﴿وَعَزَّزْتُكُمُ الْأَمَانِي﴾ طول الآمال، والطمع في امتداد الأعمار ﴿حَتَّى جَاءَ
أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَعَزَّزَكُمُ بِاللَّهِ الْفَرُّورُ﴾ وعزكم الشيطان بأن الله عفو كريم،
لا يعذبكم، أو: بأنه: لا بعث ولا حساب.

١٥ - ﴿فَأَلَيْسَ لَا يُوْخَذُ﴾ وبالتاء شاميٌّ. ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾
ما يفندى به ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ﴾ مرجعكم ﴿النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ﴾ هي أولى
بكم، وحقيقة ﴿مولاكم﴾ مخراكم؛ أي: مكانكم الذي يقال فيه: هو أولى
بكم؛ كما يقال: هو مثنة للكرم؛ أي: مكان؛ لقول القائل: إنه لكريم ﴿وَيَشَّ
الْمَصِيرُ﴾ النار.

١٦ - ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ من: أنى الأمر، يأتي: إذا جاء إناءه. أي: وقته. قيل:
كانوا مجدين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة، ففوتوا عما كانوا
عليه. فنزلت. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: ما كان بين إسلامنا وبين أن
عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين. وعن أبي بكر - رضي الله عنه -: إن هذه الآية
قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة، فبكوا بكاءً شديداً. فنظر إليهم
فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ
مِنَ الْحَقِّ﴾ بالتخفيف: نافع، وحفص. الباقر ﴿نزل﴾. و﴿ما﴾ بمعنى الذي.
والمراد بالذكر ﴿وما نزل من الحق﴾: القرآن؛ لأنه جامع للأمرين للذكر
والموعظة، وأنه حق نازل من السماء ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾^(١)
القراءة بالياء عطف على ﴿تخشع﴾. وبالتاء: رويس على الالتفات. ويجوز أن
يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا. وذلك:
أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: (ولا تكونوا) بالتاء، وهي قراءة: رويس وغيره.

فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْحَى الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ
وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ

والإنجيل خشعوا لله ورقّت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء
والقسوة، واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾
الأجل أو الزمان ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ باتباع الشهوات ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾
خارجون عن دينهم، رافضون لما في الكتابين. أي: وقليل منهم مؤمنون.

١٧ - ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْحَى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قيل:
هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب، وأنه يحییها كما يحيي الغيث الأرض.

١٨ - ﴿إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ ^(١) بتشديد الدال وحده، مكّي،
وأبو عمرو. وهو اسم فاعل من: صدّق، وهم الذين صدّقوا الله ورسوله..
يعني: المؤمنين. الباقون: بتشديد الدال والصاد وهو اسم فاعل من: تصدّق،
فأدغمت التاء في الصاد، وقرئ على الأصل ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هو
عطف على معنى الفعل في ﴿الْمُصَدِّقِينَ﴾ لأن اللام بمعنى الذين، واسم الفاعل
بمعنى الفعل، وهو: اصدّقوا. كأنه قيل: ﴿إِنَّ﴾ الذين اصدّقوا ﴿وَأَقْرَضُوا﴾.
والقرض الحسن: أن يتصدّق من الطيب عن طيبة النفس، وصحة النية على
المستحق للصدقة ﴿يُّضَاعَفْ لَهُمْ﴾ ﴿يُّضَعَّفْ﴾ مكّي، وشامي ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ
كَرِيمٌ﴾ أي: الجنة.

١٩ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يريد: أن
المؤمنين بالله ورسله عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى
التصديق واستشهدوا في سبيل الله. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: مثل أجر
الصديقين والشهداء، ومثل نورهم. ويجوز أن يكون ﴿والشهداء﴾ مبتدأ و﴿لهم﴾

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿الْمُصَدِّقِينَ﴾. وهي قراءة: من ذكر وغيرهم.
معجم القراءات القرآنية (٨٦/٧ - ٨٧).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

أجرهم ﴿٢٠﴾: خبره ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

٢٠ - ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان، ﴿وَلَهُمْ﴾ كلهم الفتيان، ﴿وَزِينَةٌ﴾ كزينة النسون، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ كتفاخر الأقران، ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ كتكاثر الدهقان ﴿فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: مباهاة بهما - والتكاثر: ادعاء الاستكثار - ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ متفتتاً. شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبت الغيث، فاستوى، وقوي، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات. فبعث عليه العاهة، فهاج، واصفر، وصار حطاماً، عقوبة لهم على جحودهم، كما فعل بأصحاب الجنة. وقيل: الكفار: الزراع ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفار ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ للمؤمنين. يعني: أن الدنيا ليست إلا من محقرات الأمور. وهي: اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر. وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام. وهي: العذاب الشديد، والمغفرة والرضوان من الله الحميد. والكاف في ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ في محل رفع على أنه خبر بعد خبر. أي: الحياة الدنيا مثل غيث ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْغُرُورِ﴾ لمن ركن إليها، واعتمد عليها. قال ذو النون: يا معشر المريدين لا تطلبوا الدنيا، وإن طلبتموها فلا تحبوها؛ فإن الزاد منها، والمقيل في غيرها.

٢١ - ولما حقر الدنيا وصغر أمرها، وعظم أمر الآخرة، بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك، وهي: المغفرة المنجية من العذاب الشديد، والفوز بدخول الجنة، بقوله: ﴿سَابِقُوا﴾ أي: بالأعمال الصالحة ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وقيل: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال السدي: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين.

أَعِدَّتْ لِلذَّيْبِ ءَامَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ
 قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لَّكِنَّا تَأْسَوْنَ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
 تَفْرَحُونَ بِمَا ءَاتَكُم

وذكر العرض دون الطول؛ لأن كل ما له عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله. فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أن طوله أبسط. أو أريد بالعرض البسطة. وهذا ينفي قول من يقول: إن الجنة في السماء الرابعة لأن التي في إحدى السموات لا تكون في عرض السموات والأرض ﴿أَعِدَّتْ لِلذَّيْبِ ءَامَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وهذا دليل على أنها مخلوقة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموعود من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون. وفيه دليل: على أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٢٢ - ثم بين: أن كل كائن بقضاء الله وقدره بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ من الجذب، وأفات الزروع والثمار. وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في موضع الجز، أي: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ﴾ ثابتة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ - ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ في اللوح - وهو في موضع الحال - أي: إلاً مكتوباً ﴿مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا﴾ من قبل أن نخلق الأنفس ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إن تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان عسيراً على العباد.

٢٣ - ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه بقوله: ﴿لَّكِنَّا تَأْسَوْنَ﴾ تحزنوا حزناً يطغيكم ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا وسعتها، أو من العافية وصحتها ﴿وَلَا تَفْرَحُونَ﴾ فرح المختال الفخور ﴿بِمَا ءَاتَكُم﴾ أعطاكم. من: الإيتاء. أبو عمرو: ﴿أناكم﴾ أي: جاءكم. من: الإتيان. يعني: أنكم إذا علمتم: أن كل شيء مقدّر مكتوب عند الله قل أساكم على الفائت، وفرحكم على الآتي؛ لأن من علم: أن ما عنده مفقود لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده؛ لأنه وطن نفسه على ذلك. وكذلك من علم: أن بعض الخير واصل إليه، وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نياله. وليس أحد إلا وهو يفرح عند منفعة

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ

تصبيه، ويجزن عند مضرة تنزل به، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً، والحزن صبراً. وإنما يذم من الحزن الجزع المنافي للصبر، ومن الفرح الأشر المطغي الملهي عن الشكر ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لأن من فرح بحظ من الدنيا، وعظم في نفسه؛ اختال، وافتخر به، وتكبر على الناس.

٢٤- ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿كُلِّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. كأنه قال: ﴿لا يحب﴾ الذين يبخلون. يريد: الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالاً وحظاً من الدنيا، فَلَحَبُّهُمْ لَهُ، وعزته عندهم يزوونه عن حقوق الله، ويبخلون به ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ويحضون غيرهم على البخل، ويرغبونهم في الإمساك ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الإنفاق. وعن أوامر الله ونواهيه ولم يتنه عما نهي عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن جميع المخلوقات، فكيف عنه؟ ﴿الْحَمِيدُ﴾ في أفعاله. (فإن الله الغني) بترك ﴿هو﴾ مدني وشامي.

٢٥- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ يعني: أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج المعجزات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الوحي. وقيل: الرسل الأنبياء، والأول أولى، لقوله: ﴿مَعَهُمْ﴾؛ لأن الأنبياء ينزل عليهم الكتاب ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ روي: أن جبريل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مَرُّ قَوْمِكَ يَزِنُوا بِهِ ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ ليتعاملوا بينهم إيفاء واستيفاء ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، ولا يظلم أحد أحداً ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان، والكلبتان، والميعة، والمطرقة، والإبرة، وروي: ومعه المَرَّ والمسحاة. وعن الحسن ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ خلقناه ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو القتال به ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ في مصالحهم، ومعايشهم، وصنائعهم؛ فما من صناعة إلا ﴿و﴾ الحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِلِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا

باستعمال السيوف، والرماح، وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين. وقال الزجاج: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ من يقاتل مع رسوله في سبيله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غائباً عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ يدفع بقوته، بأس من يعرض عن ملته ﴿عَزِيزٌ﴾ يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته.

والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة: أنَّ الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام والحدود الدينية، يبين سبل المرشد والعهود، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن البغي والطغيان، واستعمال العدل والاجتناب عن الظلم إنما يقع بآلة يقع بها التعامل، ويحصل بها التساوي والتعادل. وهي الميزان. ومن المعلوم: أنَّ الكتاب الجامع للأوامر الإلهية، والآلة الموضوعية للتعامل بالسوية، إنما تحفظ العام على أتباعها بالسيف، الذي هو حجة الله على من جحد وعند، ونزع عن صفقة الجماعة اليد، وهو الحديد، الذي وصف بالبأس الشديد.

٢٦- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ وخصا بالذكر لأنهما أبوان للأنبياء - عليهم السلام - ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أولادهما ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الوحي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الخط بالقلم. يقال: كتب كتاباً وكتابة ﴿فَمِنْهُمْ﴾ فمن الذرية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين ﴿مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هذا تفصيل لحالهم. أي: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من اهتدى باتباع الرسل و﴿مِنْهُمْ﴾ من فسق؛ أي: خرج عن الطاعة. والغلبة للفساق.

٢٧- ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِلِهِم﴾ أي: نوح، وإبراهيم، ومن مضى من الأنبياء ﴿بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ مودةً وليناً ﴿وَرَحْمَةً﴾ تعظفاً على إخوانهم، كما قال في صفة أصحاب النبي ﷺ: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ هي ترهبهم في

مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ يُؤْزِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

الجالال فارين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة. وهي الفعلة المنسوبة إلى الرهبان. وهو الخائف. فعلان من: رهب، كخشيان من: خشي. وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره: ﴿و﴾ ابتدعوا رهبانية ﴿ابتدعوها﴾ أي: خرّجوها من عند أنفسهم ونذروها ﴿مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ لم نفرضها نحن عليهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع. أي: ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان ﴿اللَّهُ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره؛ لأنه عهد مع الله لا يحل نكته ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى - عليه السلام - والذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ كافرون.

٢٨- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الخطاب لأهل الكتاب ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ﴾ بمحمد ﷺ ﴿يُؤْزِكُمْ﴾ الله ﴿كِفْلَيْنِ﴾ نصيين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لإيمانكم بمحمد ﷺ وإيمانكم بمن قبله ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ وهو النور المذكور في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٢] الآية ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٢٩- ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ﴾ ليعلم ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الذين لم يسلموا، و﴿لَا﴾ مزيدة ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ﴾ ﴿أَنَّ﴾ مخففة من الثقيلة أصله: أنه ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾. يعني: أَنَّ الشَّانَ لَا يَقْدِرُونَ ﴿عَلَى شَيْءٍ مِنَ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضل الله من الكفلين، والنور، والمغفرة؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ، فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله، ولم يكسبهم فضلاً قط ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ﴾ عطف على ﴿أَنَّ لَا يَقْدِرُونَ﴾ - ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي: في ملكه وتصرفه ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا

١ - ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ تحاورك. وقرء بها. وهي: خولة بنت ثعلبة، امرأة أوس بن الصامت، أخي عبادة. رآها وهي تصلي، وكانت حسنة الجسم، فلما سلمت راودها، فأبت فغضب، فظاهر منها. فأنت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في. فلما خلا سني، ونثرت بطني - أي: كثر ولدي - جعلني عليه كأمه. وروي: أنها قالت: إن لي صبيانا صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا. فقال ﷺ: «ما عندي من أمرك شيء». وروي: أنه قال لها: «حرمت عليه». فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ. فقال: «حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدني، كلما قال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه»، هتفت، وشكت إلى الله فنزلت^(١) ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ في شأنه ومعناه ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ تظهر ما بها من المكروه ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤ / ١ - ٢).

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا

مراجعتكما الكلام. من: حار: إذا رجع ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع شكوى المضطر ﴿بَصِيرٌ﴾ بحاله.

٢- ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ﴾ عاصم ﴿يُظَاهِرُونَ﴾ حجازي وبصري. غيرهم: ﴿يُظَاهِرُونَ﴾. وفي ﴿مِنْكُمْ﴾ توبيخ للعرب؛ لأنه كان من أيمن أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ زوجاتهم ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أمهاتهم المفضل؛ فالأول حجازي، والثاني تميمي ﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ يريد: أن الأمهات على الحقيقة الوالدات، والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع. وكذا أزواج رسول الله ﷺ لزيادة حرمتهم. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة، فلذا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: تنكره الحقيقة والأحكام الشرعية ﴿وَزُورًا﴾ وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحق ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ﴾ لما سلف منهم.

٣- ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ بين في الآية الأولى: أن ذلك من قائله منكرٌ وزورٌ. وبين في الثانية حكم الظهار ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ العود الصيرورة ابتداءً أو بناءً. فمن الأول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] ومن الثاني: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] ويعدى بنفسه كقولك: عدته: إذا أتته وصرت إليه، وبحرف الجر ب: إلى، وعلى، وفي، واللام، كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَانُوعَتِهِ﴾ [الأنعام: ٢٨] ومنه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي: ﴿يعودون﴾ نقض ﴿مَا قَالُوا﴾ أو لتداركه على حذف المضاف. وعن ثعلب: ﴿يعودون﴾ لتحليل ما حرّموا، على حذف المضاف أيضاً. غير أنه أراد بما قالوا: ما حرّموه على أنفسهم بلفظ الظهار، تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه، كقوله: ﴿وَرَبُّهُمْ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أراد المقول فيه، وهو المال والولد. ثم اختلفوا: أن النقض بماذا يحصل؟ فعندنا: بالعزم على الوطء، وهو قول ابن عباس، والحسن، وقتادة. وعند الشافعي - رحمه الله -: بمجرد الإمساك؛ وهو ألا يطلقها عقيب

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فِطْطَاعًا سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَٰلِكَ لِنُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتِلْكَ

الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فعلية إعتاق رقبة مؤمنة أو كافرة. ولم يحز المدبر، وأم الولد، والمكاتب الذي أدى شيئاً ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ الضمير يرجع إلى ما دل عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها. والمماس: الاستمتاع بها من جماع، أو لمس بشهوة، أو نظراً إلى فرجها بشهوة ﴿ذَلِكُمْ﴾ الحكم ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾؛ لأنَّ الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم، حتى لا تعودوا إلى الظهار، وتحافوا عقاب الله عليه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. وإذا وضع موضع أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة، أو مكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كال البطن والفخذ، أو مكان الأم ذات رحم محرم منه بنسب، أو رضاع، أو صهر، أو جماع، نحو أن يقول: أنت علي كظهر أختي من الرضاع، أو عمتي من النسب، أو امرأة ابني، أو أبي، أو أم امرأتي، أو ابنتها، فهو مظاهر. وإذا امتنع المظاهر من الكفارة، للمرأة أن ترافعه، وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر، وأن يجسه. ولا شيء من الكفارات يجبر عليه، ويجس إلا كفارة الظهار. لأنه يضر بها في ترك التكفير، والامتناع من الاستمتاع. فإن مس قبل أن يكفر استغفر الله ولا يعود حتى يكفر. وإن أعتق بعض الرقبة ثم مس، عليه أن يستأنف عند أبي حنيفة - رحمه الله -.

٤ - ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعلية صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فِطْطَاعًا﴾ فعلية إطعام ﴿سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾ لكل مسكين نصف صاع من برّ، أو صاع من غيره. ويجب أن يقدمه على المسيس، ولكن لا يستأنف إن جامع في خلال الإطعام ﴿ذَٰلِكَ﴾ البيان والتعليم للأحكام ﴿لِنُؤْمِنُوا﴾ لتصدقوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: الأحكام التي

حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتُوتًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ مُهِينٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ

وصفنا في الظهار، والكفارة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي لا يجوز تعديها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يتبعونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعادون ويشاقون ﴿كِتُوتًا﴾ أخزوا، وأهلكوا ﴿كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من أعداء الرسل ﴿وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ﴾ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بهذه الآيات ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم.

٦ - ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوب بـ ﴿مُهِينٍ﴾، أو بإضمار اذكر، تعظيماً لليوم ﴿اللَّهُ جَمِيعًا﴾ كلهم لا يترك منهم أحداً غير مبعوث، أو مجتمعين في حال واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ تخجيلاً لهم، وتوبيخاً، وتشهيراً بحالهم، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أحاط به عدداً، لم يفته منه شيء ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه، وإنما تحفظ معظمات الأمور ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء.

٧ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ﴾ من: كان التامة؛ أي: ما يقع ﴿مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ النجوى: التناجي. وقد أضيفت إلى ثلاثة، أي: ﴿مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ نفر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله ﴿رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى﴾ ولا أقل ﴿مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه. وقد تعالى عن المكان علواً كبيراً.

وتخصيص الثلاثة والخمسة: لأنها نزلت في المنافقين. وكانوا يتحلقون للتناجي مغايطةً للمؤمنين على هذين العددين. ف قيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ﴿وَلَا آدْنَى مِنْ﴾ عددٍ منهم ﴿وَلَا أَكْثَرُ﴾ إلا والله معهم يسمع

أَيُّ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا
عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَبَّجُونَ بِالْآثِمِ وَالْعَدُوِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا
جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَقْسُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا تَنْتَجِمُ فَلَا تَنْتَجُوا بِالْآثِمِ
وَالْعَدُوِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجُوا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

ما يقولون. ولأن أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب. وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة، إلى ستة، إلى ما اقتضته الحال. فذكر عزوعلا الثلاثة، والخمسة، وقال: ﴿ولا أدنى من ذلك﴾ فدل على الاثنين والأربعة. وقال: ﴿ولا أكثر﴾ فدل على ما يقارب هذا العدد ﴿أَيُّ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيجازيهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٨ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَبَّجُونَ بِالْآثِمِ وَالْعَدُوِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، ويريدون أن يغيظوهم، ويوهموهم في نجواهم وتغامزهم: أن غزاتهم غلبوا، وأن أقاربهم قتلوا. فنهاهم رسول الله ﷺ، فعادوا لمثل فعلهم. وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواصي بمعصية الرسول ومخالفته. ﴿وَيَتَنَبَّجُونَ﴾ حمزة، وهو بمعنى الأول ﴿وَلِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾ يعني: أنهم يقولون في تحيتك: السام عليك يا محمد. والسام: الموت. والله تعالى يقول: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩] و﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، و﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يقولون فيما بينهم: لو كان نبياً لعاقبنا الله بما نقوله، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصَلَوْنَهَا﴾ حال؛ أي: يدخلونها ﴿فَيَقْسُ الْمَصِيرُ﴾ المرجع؛ جهنم.

٩ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالسستم، وهو خطاب للمنافقين. والظاهر: أنه خطاب للمؤمنين ﴿إِنَّا تَنْتَجِمُ فَلَا تَنْتَجُوا بِالْآثِمِ وَالْعَدُوِّ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: إذا تناجيتم فلا تشبهوا باليهود والمنافقين في تناجيهم بالشر ﴿وَتَنْجُوا بِالْبِرِّ﴾ بأداء الفرائض، والطاعات ﴿وَالْتَّقْوَى﴾ وترك المعاصي ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

للحساب، فيجازيكم بما تتناجون به من خير أو شر.

١٠- ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ بالإثم والعدوان ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ من تزيينه ﴿لِيَحْزُنَ﴾ أي: الشيطان. وبضم الياء نافع ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ﴾ الشيطان، أو الحزن ﴿بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه وقضائه وقدره ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يكلون أمرهم إلى الله، ويستعيذون به من الشيطان.

١١- ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ توسعوا فيه ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ عاصم. والمراد: مجلس رسول الله ﷺ. وكانوا يتضامون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال، وهي مراكز الغزاة. كقوله: ﴿مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]. مُقَاتِل: في صلاة الجمعة ﴿فَافْسَحُوا﴾ فوسعوا ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان، والرزق، والصدر، والقبر، وغير ذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين، أو انهضوا عن مجلس رسول الله ﷺ إذا أمرتم بالنهوض عنه، أو انهضوا إلى الصلاة، والجهاد، وأعمال الخير ﴿فَانْشُرُوا﴾ بالضمّ فيهما: مدني، وشامي، وعاصم غير حماد ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ بامثال أوامره، وأوامر رسوله ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ والعالمين منهم خاصة ﴿دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. وفي الدرجات قولان: أحدهما: في الدنيا في المرتبة، والشرف، والآخر: في الآخرة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: يأيتها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبي ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(١). وعنه ﷺ: «عبادة العالم يوماً واحداً تعدل عبادة العابد أربعين

(١) رواه أحمد (١٩٦/٥) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٣) وابن ماجه (٢٢٣).

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

سنة». وعنه عليه السلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»^(١). فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله عليه السلام. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خير سليمان - عليه السلام - بين العلم والمال والملك، فاختار العلم. فأعطى المال والملك معه. وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى إبراهيم - عليه السلام - يا إبراهيم! إنني عليم أحب كل عليم»^(٢). وعن بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم؟ وأي شيء فات من أدرك العلم؟. وعن الزبير بن العوام: العلم ذكر، فلا يحبه إلا ذكورة الرجال. والعلوم أنواع، فأشرفها أشرفها معلوماً.

١٢ - ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ﴾ إذا أردتم مناجاته ﴿فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ أي: قبل نجواكم. وهي استعارة ممن له يدان. كقول عمر رضي الله عنه: من أفضل ما أوتيت العرب الشعر، يقدمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم، ويستنزل به اللثيم. يريد: قبل حاجته ﴿ذَلِكَ﴾ التقديم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في دينكم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأن الصدقة طهرة ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في ترخيص المناجاة من غير صدقة. قيل: كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقيل: ما كان إلا ساعة من نهار ثم نسخ. وقال علي - رضي الله عنه -: هذه آية من كتاب الله ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان لي دينار فصرفته، فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم، وسألت رسول الله عليه السلام عشر مسائل فأجابني عنها: قلت: يا رسول الله! ما الوفاء؟ قال: «التوحيد، وشهادة لا إله إلا الله». قلت: وما الفساد؟ قال: «الكفر، والشرك بالله». قلت: وما الحق؟ قال: «الإسلام، والقرآن، والولاية إذا انتهت إليك». قلت: وما الحيلة؟ قال: «ترك الحيلة». قلت: وما علي؟ قال: «طاعة الله، وطاعة رسوله». قلت: وكيف أدعو الله تعالى؟ قال: «بالصدق واليقين». قلت: وماذا

(١) رواه ابن ماجه (٤٣١٣).

(٢) رواه ابن عبد البر في العلم. (حاشية الكشف ٤/٤٩٣).

ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ جُحُودِكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَوْلُوا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ
لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً

أَسْأَلُ اللَّهَ؟ قَالَ: «العافية» قلت: وما أصنع لنجاة نفسي؟ قال: «كل حلالاً،
وقل صدقاً» قلت: وما السرور؟ قال: «الجنة». قلت: وما الراحة؟ قال: «لقاء
الله». فلما فرغت منها نزل نسخها^(١).

١٣ - ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ جُحُودِكُمْ صَدَقْتُمْ﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه
من الإنفاق الذي تكرهونه؟ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به، وشق عليكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفف عنكم، وأزال عنكم المؤاخذه بترك تقديم الصدقة على
المناجاة؛ كما أزال المؤاخذه بالذنب عن التائب عنه ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فلا تفرطوا في الصلاة، والزكاة، وسائر الطاعات
﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا وعدٌ ووعدٌ.

١٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَوْلُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ كان المنافقون يتولون اليهود،
وهم الذين غضب الله عليهم في قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]
وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ يا مسلمون! ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ ولا من
اليهود. كقوله ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]
﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أي: يقولون: والله إنا لمسلمون لا منافقون! ﴿وَهُمْ
يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون منافقون.

١٥ - ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ كانوا في الزمان الماضي مصرين على سوء العمل. وهي حكاية ما يقال
لهم في الآخرة.

١٦ - ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً دون دمانهم وأموالهم

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشف ٤/٤٩٤).

فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَى أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

﴿فَصَدُّوا﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن طاعته والإيمان به ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وعدهم العذاب المخزي لكفرهم وصدّهم، كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨].

١٧ - ﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ عذاب الله ﴿شَيْئًا﴾ قليلاً من الإغناء، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١٨ - ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ﴾ أي: الله في الآخرة: أنهم كانوا مخلصين في الدنيا غير منافقين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا على ذلك ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ في الدنيا ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ من النفع، أو: يحسبون أنهم على شيء من النفع ثم بأيامهم الكاذبة كما انتفعوا ها هنا ﴿أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ حيث استوت حالهم فيه الدنيا والآخرة.

١٩ - ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ استولى عليهم ﴿فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾. قال شاه الكرمانى: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكير في آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكير والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ جنده ﴿أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٢٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ في جملة من هو أذل خلق الله، لا ترى أحداً أذل منهم.

٢١ - ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ في اللوح ﴿لَأَعْلَى أَنَا وَرُسُلِي﴾ بالحجة والسيف أو بأحدهما ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب غير مغلوب.

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

٢٢ - ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ﴾ هو مفعول ثانٍ لـ: ﴿تجد﴾، أو حال، أو صفة لـ: ﴿قوماً﴾. و﴿تجد﴾ بمعنى تصادف على هذا ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ خالفه وعاداه ﴿وَرَسُولَهُ﴾. أي: من الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين. والمراد: أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في الزجر عن ملاسته، والتوصية بالتصلب في مجانبه أعداء الله ومباعدتهم، والاحتراس عن مخالطتهم ومعاشرتهم. وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، وبقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: اثبت فيها، وبمقابلة قوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ بقوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: بكتاب أنزله، فيه حياة لهم. ويجوز أن يكون الضمير للإيمان؛ أي: ﴿بروح﴾ من الإيمان، على أنه في نفسه روح حياة القلوب به. وعن الثوري: أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي رواد: أنه لقيه المنصور فلما عرفه هرب منه، وتلاها. وقال سهل: من صتح إيمانه، وأخلص توحيده فإنه لا يأنس بمتدع، ولا يجالس، ويظهر له من نفسه العداوة. ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن، ومن أجاب مبتدعاً لطلب عز الدنيا، أو عريضها أذلّه الله بذلك العز، وأفقره بذلك الغنى، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه، ومن لم يصدق فليجرب ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بتوحيدهم الخالص، وطاعتهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابه الجسيم في الآخرة، أو بما قضى عليهم في الدنيا ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أنصار حقه، ورعاة خلقه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الباقون في النعيم المقيم، الفائزون بكل محبوب، الآمنون من كل مرهوب.

سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ

١ - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي: أن هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير. وذلك: أن النبي ﷺ حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على ألا يكونوا عليه ولا له. فلما ظهر يوم بدر، قالوا: هو النبي الذي نعته في التوراة. فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة، وحالف أبا سفيان عند الكعبة، فأمر ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلةً. ثم خرج ﷺ مع الجيش إليهم فحاصروهم إحدى وعشرين ليلة، وأمر بقطع نخيلهم. فلما قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء، وأذرعاء.

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ بالمدينة. واللام في ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ تتعلق بـ ﴿أَخْرَجَ﴾. وهي اللام في

مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُوا أَنََّّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ
يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ

قوله تعالى: ﴿يَلَيْتَنِی قَدَمْتُ لِیَاقِی﴾ [الفجر: ٢٤] وقوله: جئته لوقت كذا. أي:
أخرج الذين كفروا عند أول الحشر. ومعنى أول الحشر: أن هذا أول حشرهم
إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصيبهم جلاء قط. وهم أول من أخرج من أهل
الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام. أو: هذا أول حشرهم، وآخر حشرهم:
إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام. أو: آخر حشرهم حشر يوم القيامة. قال
ابن عباس - رضي الله عنهما -: من شك: أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية،
فهم الحشر الأول، وسائر الناس الحشر الثاني. وقال لهم رسول الله ﷺ لما
خرجوا: «امضوا فإنكم أول الحشر، ونحن على الأثر»^(١). فتادة: إذا كان آخر
الزمان جاءت نار من قبل المشرق فحشرت الناس إلى أرض الشام وبها تقوم
عليهم القيامة. وقيل: معناه: أخرجهم من ديارهم لأول ما حُسر لقتالهم؛ لأنه
أول قتال قاتلهم رسول الله ﷺ ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا﴾ لشدة بأسهم، ومنعتهم،
ووثاقة حصونهم، وكثرة عددهم وعُدَّتْهم ﴿وَضَنُوا أَنََّّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾
أي: ﴿ظَنُوا﴾: أن حصونهم تمنعهم من بأس الله. والفرق بين هذا التركيب
وبين النظم الذي جاء عليه: أن في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط
وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصوير ضميرهم اسماً لأن في إسناد
الجملة إليه: دليلاً على اعتقادهم في أنفسهم: أنهم في عزة ومنعة لا يُبالى معها
بأحدٍ يتعرض لهم، أو يطمع في مُعَارَظَتِهِمْ^(٢). وليس ذلك في قولك: وظنوا أن
حصونهم تمنعهم ﴿فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ أي: أمر الله وعقابه. وفي الشواذ ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ﴾
أي: فاتاهم الهلاك ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم،
وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرة على يد أخيه رضاعاً ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ﴾ الخوف. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يُخْرِبُونَ أبو عمرو.
والتخريب والإخراب: الإفساد بالنقض والهدم. والخربة: الفساد. كانوا

(١) رواه البزار والبيهقي كما في الدر المنثور (٨/٨٩).

(٢) أي: مغالبتهم.

فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤُلِيَ الْأَبْصَرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَسِيقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ

يخربون بواطنها، والمسلمون ظواهرها لما أراد الله من استئصال شأفتهم، وألا تبقى لهم بالمدينة دار، ولا منهم ديار. والذي دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأزقة، وألا يتحسروا بعد جلائهم على بقائهم مساكن للمسلمين، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيد الخشب والساج. وأما المؤمنون فذاعيتهم إلى التخريب إزالة متحصنهم، وأن يتسع لهم مجال الحرب. ومعنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين: أنهم لما عرضوهم بنكت العهد لذلك، وكانوا السبب فيه؛ فكأنهم أمروهم به، وكلّفوهم إياه ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤُلِيَ الْأَبْصَرِ﴾ أي: تأملوا فيما نزل بهؤلاء، والسبب الذي استحقوا به ذلك، فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم، فتعاقبوا بمثل عقوبتهم. وهو دليل على جواز القياس.

٣ - ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل، والسبي؛ كما فعل ببني قريظة ﴿وَهُمْ﴾ سواء أوجلّوا أو قتلوا ﴿فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ الذي لا أشد منه.

٤ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: إنما أصابهم ذلك بسبب أنهم: ﴿شَاقُوا اللَّهَ﴾ خالفوه ﴿وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٥ - ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ هو بيان لـ: ﴿ما قطعتم﴾. وعمل ﴿ما﴾ نصب بقطعتم، كأنه قيل: أي شيء قطعتم. وأنث الضمير الراجع إلى ﴿ما﴾ في قوله ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ لأنه في معنى اللينة. واللينة: النخلة، من: الألوان. وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها. وقيل: اللينة: النخلة الكريمة؛ كأنهم اشتقوها من اللين ﴿قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فقطعها، وتركها بإذن الله ﴿وَلِيُخْرِىَ الْفَسِيقِينَ﴾ وليذل اليهود ويغيظهم أذن في قطعها.

٦ - ﴿وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ﴾ جعله فينا له خاصة ﴿مِنْهُمْ﴾ من بني النضير

فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَهُكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فلم يكن ذلك بإيجاف خيلٍ أو ركابٍ منكم على ذلك. والركاب: الإبل. والمعنى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ﴾ على تحصيله، وتغنيمه خيلاً، ولا ركاباً، ولا تعبتُم في القتال عليه، وإنما مشيتُم إليه على أرجلكم لأنَّه على ميلين من المدينة، وكان ﷺ على حمارٍ فحسب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: أنَّ ما خولَّ الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة، ولكن سلَّطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يسلَّط رسله على أعدائهم، فالأمر فيه مفوض إليه، يضعه حيث يشاء، ولا يقسمه قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوةً وقهراً، فقسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة منهم لفقرهم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٧ - ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وإنما لم يدخل العاطف على هذه الجملة؛ لأنها بيان للأولى. فهي منها غير أجنبية عنها. بيَّن لرسول الله ﷺ ما يصنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة. وزيف هذا القول بعض المفسرين وقال: الآية الأولى نزلت في أموال بني النضير وقد جعلها الله لرسوله خاصّة؛ وهذه الآية في غنائم كلِّ قرية تؤخذ بقوة الغزاة. وفي الآية بيان مصرف خمسها فهي مبتدأ ﴿كُنْ لَا يَكُونُ دُولَةً﴾ - ﴿تَكُونُ دُولَةً﴾ يزيد، على كان التامة. والدولة والدولة ما يدول للإنسان؛ أي: يدور من الجد. ومعنى قوله: كي لا يكون دولة ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ كي لا يكون الفيء؛ الذي حقّه أن يُعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها، جدّاً بين الأغنياء يتكاثرون به ﴿وَمَا إِلَهُكُمُ الرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكم من قسمة غنيمةٍ أو فيءٍ ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذه منها ﴿فَانْتَهُوا﴾ عنه، ولا تطلبوه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تخالفوه، وتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف رسول الله

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

ﷺ. والأجود أن يكون عامًّا في كلِّ ما أتى رسول الله ﷺ ونهى عنه. وأمر
الفيء داخل في عمومه.

٨ - ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ - بدل من قوله: ﴿ولذي القربى﴾ والمعطوف عليه. والذي
منع الإبدال من: ﴿الله وللرسول﴾ وإن كان المعنى لرسول الله: أن الله عز وجل
أخرج رسوله من الفقراء في قوله: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ وأنه يترفع برسول
الله عن التسمية بالفقير، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في
تعظيم الله عز وعلا ﴿الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ بمكة. وفيه
دليل: على أن الكفار يملكون بالاستيلاء أموال المسلمين؛ لأن الله تعالى سَمَّى
المهاجرين فقراء مع أنه كانت لهم ديار وأموال ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانًا﴾ أي: يطلبون الجنة ورضا الله ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ﴿ينصرون﴾
دين الله ﴿و﴾ يعينون ﴿رسوله﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم وجهادهم.

٩ - ﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوف على المهاجرين. وهم الأنصار ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ توطنوا
المدينة ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ وأخلصوا الإيمان كقوله:

علفتها تبنأ وماء بارداً

أو: وجعلوا الإيمان مستقرًّا ومتوطنًا لهم لتمكّنهم واستقامتهم عليه؛ كما
جعلوا المدينة كذلك. أو: أراد دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في
الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه
مقامه ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين؛ لأنهم سبقوهم في تبوء دار الهجرة
والإيمان. وقيل: من قبل هجرتهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتى شاطروهم
أموالهم، وأنزلوهم منازلهم، ونزل من كانت له امرأتان عن إحداهما، حتى
تزوج بها رجل من المهاجرين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾
ولا يعلمون في أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره.

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ

والمحتاج إليه يسمّى: حاجة. يعني: أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا، ولم تطمح إلى شيء منه تحتاج إليه. وقيل: ﴿حاجة﴾ حسداً ممّا أعطي المهاجرون من الفداء، حيث خصهم النبي ﷺ به. وقيل: ﴿لا يجدون في صدورهم﴾ مس ﴿حاجة من﴾ فقد ﴿ما أوتوا﴾ فحذف المضافان ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فقر. وأصلها: خصاص البيت، وهي: فروجه. والجملة في موضع الحال. أي: مفروضة خصاصتهم.

روي: أنّه نزل برجل منهم ضيف، فنوم الصبية، وقرب الطعام، وأطفا السراج ليشبع ضيفه، ولا يأكل هو.

وعن أنس - رضي الله عنه -: أهدي لبعضهم رأس مشوي، وهو مجهود، فوجهه إلى جاره، فتداولته تسعة أنفس حتى عاد إلى الأول.

أبو زيد: قال لي شاب من أهل بلخ: ما الزهد عندكم؟ قلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا. فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ. بل: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا آثرنا.

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بما أرادوا. والشحّ: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزّة حريصة على المنع. وأما البخل: فهو المنع نفسه. وقيل: الشحّ: أكل مال أخيك ظلماً. والبخل: منع مالك. وعن كسرى: الشحّ أضّر من الفقر؛ لأنّ الفقير يتسع إذا وجد بخلاف الشحيح.

١٠ - ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ عطف أيضاً على ﴿المهاجرين﴾ وهم الذين هاجروا من بعد. وقيل: التابعون بإحسان. وقيل: من بعدهم إلى يوم القيامة. قال عمر - رضي الله عنه -: دخل في هذا الفياء كل من هو مولود إلى يوم القيامة في الإسلام. فجعل الواو للعطف فيهما. وقرئ ﴿للذين﴾ فيهما ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ قيل: هم المهاجرون

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٦﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ ﴿١٧﴾

والأنصار. عائشة رضي الله عنها: أمروا بأن يستغفروا لهم فسيبهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ حقدًا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني: الصحابة ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وقيل لسعيد بن المسيب: ما تقول في عثمان، وطلحة، والزبير؟ قال: أقول ما قولني الله. وتلا هذه الآية.

١١ - ثم عَجَبَ نَبِيُّهُ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا؟﴾. أي: ﴿ألم تر﴾ يا محمد ﴿إلى﴾ عبد الله بن أبيّ وأشياعه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني النضير. والمراد: أخوة الكفر ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. روي: أن ابن أبيّ وأصحابه دسّوا إلى بني النضير حين حاصرهم النبي ﷺ: لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لانخذلكم. ولئن أخرجتم لنخرجن معكم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قتالكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه. أو: في خذلانكم، وإخلاف ما وعدناكم من النصر ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مواعيدهم لليهود. وفيه دليل: على صحة النبوة؛ لأنه إخبار بالغيب.

١٢ - ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ﴾ وإنما قال: ﴿ولئن نصروهم﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم، على الفرض والتقدير. كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِحَبْطٍ عَمَّاكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزم المنافقون ﴿ثم لا ينصرون﴾ بعد ذلك؛ أي: يهلكهم الله، ولا ينفعهم نفاقهم؛ لظهور كفرهم. أو: لينهزم اليهود، ثم لا ينفعهم نصره المنافقين.

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي

١٣ - ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً﴾ أي: أشد مرهوبة. مصدر رهب المني للمفعول. وقوله: ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ دلالة على نفاقهم. يعني: أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله، وأنتم أهيب في صدورهم ﴿مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته.

١٤ - ﴿لَا يَقْنَلُونَكُمْ﴾ لا يقدرّون على مقاتلتكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين: يعني: اليهود والمنافقين ﴿إِلَّا﴾ كائنين ﴿فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدروب ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾. ﴿جدار﴾ مكّي، وأبو عمرو ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني: أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنّما هو بينهم إذا اقتتلوا. ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة؛ لأنّ الشجاع يحين عند محاربة الله ورسوله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: اليهود والمنافقين ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة، لا ألفة بينها. يعني: أنّ بينهم إحنًا وعداوات فلا يتعاضدون حقّ التعاضد. وهذا تجسير للمؤمنين، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿ذَلِكَ﴾ التفرّق ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنّ تشّتت القلوب ممّا يوهن قواهم، ويعين على أرواحهم.

١٥ - ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثلهم كمثل أهل بدر. فحذف المبتدأ ﴿قَرِيبًا﴾ أي: استقرّوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ زمنًا ﴿قَرِيبًا﴾ ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ. من قولهم: كلاًّ وبيل: وخيم سيّء العاقبة. يعني: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب النار.

١٦ - ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أي: مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال،
ووعدهم إياهم النصر، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم، كمثل الشيطان؛ إذا
استغوى الإنسان بكيده، ثم تبرأ منه في العاقبة. وقيل: المراد استغواؤه قريشاً
يوم بدر. وقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ جَارَ لَكُمْ﴾ إلى قوله:
﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

١٧ - ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ
فِيهَا﴾ ﴿عَاقِبَتُهُمَا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم. وأن مع اسمها وخبرها، أي: ﴿فِي
النَّارِ﴾. في موضع الرفع على الاسم و﴿خَالِدَيْنِ﴾ حال ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ﴾.

١٨ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أوامره فلا تخالفوها ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ﴾
نكر النفس تقليلاً للأنفاس النواظر فيما قدمن للآخرة ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني:
يوم القيامة. سمّاه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له. أو: عبّر عن الآخرة بالغد
كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد. وتنكيره لتعظيم أمره. أي: ﴿لِغَدٍ﴾
لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار - رحمه الله -: مكتوب على باب
الجنة: وجدنا ما عملنا، ربحتنا ما قدّمنا، خسرتنا ما خلفنا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كرّر
الأمر بالتقوى تأكيداً. أو: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أداء الواجبات؛ لأنه قرن بما هو
عمل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ترك المعاصي؛ لأنه قرن بما يجري مجرى الوعيد وهو:
﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وفيه: تحريض على المراقبة؛ لأن من علم: أن الله
مطلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه.

١٩ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ تركوا ذكر الله عز وجل وما أمرهم به

فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ
الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ
خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

﴿فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فتركهم من ذكره بالرحمة والتوفيق ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾
الخارجون عن طاعة الله.

٢٠ - ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ هذا
تنبيه للناس، وإيدان بأنهم، لفرط غفلتهم، وقلة فكرهم في العاقبة، وتهالكهم
على إثارة العاجلة، واتباع الشهوات، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار،
والبون العظيم بين أصحابهما، وأن الفوز العظيم مع أصحاب الجنة والعذاب
الآليم مع أصحاب النار، فمن حقهم أن يعلموا ذلك، وينبهوا عليه، كما تقول
لمن يعق أباه: هو أبوك. تجعله بمنزلة من لا يعرفه، فتنبه بذلك على حق الأبوة
الذي يقتضي البر والتعطف. وقد استدلت الشافعية بهذه الآية: على أن المسلم
لا يقتل بالكافر، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء. وقد أجبنا عن
مثل هذا في أصول الفقه، والكافي.

٢١ - ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي:
من شأن القرآن وعظمته: أنه لو جعل في الجبل تمييز، وأنزل عليه القرآن؛
لخضع، أي: لخصع، وتطأطأ، وتصدع. أي: تشقق ﴿من خشية الله﴾. وجائز
أن يكون هذا تمثيلاً؛ كما في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ويدل
عليه قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهي إشارة إلى هذا
المثل، وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل. والمراد: توبيخ الإنسان على قسوة
قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن، وتدبر قوارعه وزواجه.

٢٢ - ثُمَّ رَدَّ عَلَىٰ مَنْ أَشْرَكَ وَشَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ فَقَالَ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: السر والعلانية. أو: الدنيا والآخرة. أو: المعلوم
والموجود ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ
الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

٢٣ - ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ الذي لا يزول ملكه ﴿الْقُدُّوسُ﴾ المنزه من القبائح. وفي تسبيح الملائكة: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رب الملائكة والروح ﴿السَّلَامُ﴾ الذي سلم الخلق من ظلمه. عن الزجاج ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن. وعن الزجاج: الذي آمِنَ الخلق من ظلمه. أو: المؤمن من عذابه من أطاعه ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب على كل شيء، الحافظ له. مُفْعِلٌ، من: الأمن، إلا أن همزته قلبت هاء ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿الْجَبَّارُ﴾ العالي العظيم الذي يذل له من دونه. أو: العظيم الشأن في القدرة والسلطان. أو: القهار ذو الجبروت ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه ذاته عما يصفه به المشركون.

٢٤ - ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ المقدر لما يوجده ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجد ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ في الأرحام ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الدالة على الصفات العلاء ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ختم السورة بما بدأ به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سألت حبيبي رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال: «عليك بأخر الحشر فأكثر قراءته». فأعدت عليه فأعاد عليّ، فأعدت عليه فأعاد عليّ^(١).

* * *

سُورَةُ الْمُتَحَنِّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - روي: أَنَّ مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم - يقال لها: سارة - أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا. قال: «أفمهاجرة جئت؟» قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟» قال: احتجت حاجة شديدة. فحث عليها بني عبد المطلب فكسوها، وحملوها، وزودوها. فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، وأعطاهَا عشرة دنانير، وكساها برداً، واستحملها كتاباً إلى أهل مكة. نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، اعلَمُوا: أَنَّ رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذرکم. فخرجت سارة، ونزل جبريل - عليه السلام - بالخبر. فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، وعمر، وطلحة، والزبير، والمقداد، وأبا مرثد - وكانوا فرساناً - وقال: «انطلقوا حتَّى تأتوا روضة خاخ فإنَّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها، وخلوها، فإن أبت فاضربوا عنقها». فأدركوها، فحجّدت، وحلفت. فَهَمُّوا بالرجوع. فقال عليّ - رضي الله عنه -: والله ما كُذِّبنا، ولا كُذِّبَ رسول الله ﷺ، وسلّ سيفه. وقال: أخرجني الكتاب، أو تضعي رأسك. فأخرجته من عِقاص شعرها - وروي: أَنَّ رسول الله ﷺ أَمَنَ جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة؛ هي أحدهم - فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال: «ما حملك

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ

عليه؟» فقال: يا رسول الله! ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم. ولكني كنت امرأاً مُلصَقاً في قريش، ولم أكن من أَنفُسِهَا، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم وأموالهم غيري، فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت: أن الله ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدقه، وقبل عذره. فقال: عمر - رضي الله عنه -: دعني يا رسول الله! أضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ففاضت عينا عمر - رضي الله عنه - فترل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(١). عُدِّي اتخذ إلى مفعوليه، وهما: ﴿عَدُوِّي﴾ و﴿أَوْلِيَاءَ﴾. والعدو: فعول من: عدا؛ كعفو، من: عفا. ولكنه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. وفيه دليل: على أن الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان ﴿تُلْقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾. والتقدير: لا تتخذوهم أولياء ملقين ﴿إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾. أو مستأنف بعد وقف، على التوبيخ. والإلقاء: عبارة عن إيصال المودة، والإفضاء بها إليهم. والباء في ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ زائدة، مؤكدة للتعدي؛ كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو ثابتة على أن مفعول ﴿تلقون﴾ محذوف. معناه: ﴿تلقون إليهم﴾ أخبار رسول الله ﷺ ﴿بِ﴾ سبب ﴿المودة﴾ التي بينكم، وبينهم ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ حال من ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أو من ﴿تلقون﴾. أي: لا تتولوهم أو توادونهم؟ وهذه حالهم ﴿بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ دين الإسلام، والقرآن ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ استئناف كالنفسير لكفرهم وعتوهم، أو حال من الذين ﴿كفروا﴾ ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾ تعليل لـ ﴿يُخْرِجُونَ﴾ أي: يخرجونكم من مكة لإيمانكم ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ﴾ متعلق بـ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾. أي: لا تتولوا أعدائي ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٨١ - ٢٨٣). قال الحافظ: وفيه مخالفة شديدة لما في الصحيحين. (حاشية الكشف ٥/١١).

جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتَغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ
وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا
إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ

أوليائي. وقول (١) النحويين في مثله: هو شرط، جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿جِهَدًا فِي سَبِيلِي﴾ مصدر في موضع الحال؛ أي: ﴿إِنْ كُتِمَ خَرَجْتُمْ﴾ مجاهدين في سبيلي ﴿وَابْتَغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ ومبتغين مرضاتي ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ أي: تفضون إليهم بمودتكم سرًا. أو: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ﴾ أسرار رسول الله ﷺ ﴿ب﴾ سبب ﴿المودة﴾ وهو استئناس ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾. والمعنى: أي طائل لكم في إسراركم وقد علمتم: أَنَّ الإخفاء، والإعلان سيان في علمي، وأنا مطلع رسولي علي ما تسرون؟ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ﴾ أي: هذا الإسرار ﴿وَمِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

٢ - ﴿إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ﴾ إِنْ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ﴾ خالصي العداوة، ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ بالقتل والشتم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنوا لو ترتدون عن دينكم. فإذا موادة أمثالهم خطأ عظيم منكم. والماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع ففيه نكتة. كأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم. يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين، من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض. وردكم كفاراً، أو: ردكم كفاراً أسبق المضار عندهم، وأولها؛ لعلمهم: أَنَّ الدِّينَ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ؛ لأنكم بذالون لها دونه. والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أهم شيء عند صاحبه.

٣ - ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين توالون الكفار من أجليهم، وتتقربون إليهم محاماة عليهم. ثم قال: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ النَّارُ مِنْ آخِئِهِ...﴾ الآية [عبس: ٣٤]. فما لكم

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْغَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْزِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

ترفضون حق الله مراعاةً لحق من يفر منكم غداً؟ ﴿يُفْصِّلُ﴾ عاصم ﴿يُفْصِّلُ﴾ حمزة، وعلي. والفاعل هو الله عز وجل ﴿يُفْصِّلُ﴾ ابن ذكوان. غيرهم: ﴿يُفْصِّلُ﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿فيجازيكم على أعمالكم﴾.

٤- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ قدوة في التبري من الأهل ﴿حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: في أقواله. ولهذا استثنى منه ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين. وقيل: كانوا أنبياء ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ﴾ جمع: برىء، كظريف، وظرفاء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْغَدَاوَةُ﴾ بالأفعال، ﴿وَالْبَغْضَاءُ﴾ بالقلوب ﴿أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ فيحتمل نترك عداوتكم ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾. وذلك لـ ﴿مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] أي: اقتدوا به في أقواله، ولا تأتسوا به في الاستغفار لأبيه الكافر ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: من هداية، ومغفرة، وتوفيق. وهذه الجملة لا تليق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الفتح: ١١] ولكن المراد: استثناء جملة قوله لأبيه. والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده تابع له. كأنه قال: استغفر لك، ومافي طاقتي إلا الاستغفار ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ متصل بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة. وقيل: معناه: قولوا ﴿رَبَّنَا﴾ فهو ابتداء أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه ﴿وَالَيْكَ أَنْتَبْنَا﴾ أقبلنا ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع.

٥- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تسلطهم علينا، فيفتنوننا بعذاب ﴿وَاعْزِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب الحاكم.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْغَفِيُّ الْخَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن
 تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي
 الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ

٦ - ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ثُمَّ كَرَّرَ الْحَثَّ عَلَى
 الْإِتْسَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَوْمِهِ تَقْرِيراً وَتَأْكِيداً عَلَيْهِمْ. وَلِذَا جَاءَ بِهِ
 مُصَدِّراً بِالْقِسْمِ؛ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ فِي التَّأْكِيدِ، وَأَبْدَلَ عَنْ قَوْلِهِ ﴿لَكُمْ﴾ قَوْلَهُ ﴿لِمَن كَانَ
 يَرْجُو اللَّهَ﴾ أَي: ثَوَابُهُ أَوْ: يَخْشَى اللَّهَ، وَعَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يَعْرِضُ عَنْ
 أَمْرِنَا، وَوَالِي الْكُفَّارِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفِيُّ﴾ عَنِ الْخَلْقِ ﴿الْخَمِيدُ﴾ الْمُسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ.
 فَلَمْ يَتْرِكْ نَوْعاً مِنَ التَّأْكِيدِ إِلَّا جَاءَ بِهِ.

٧ - وَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ، وَتَشَدَّدَ الْمُؤْمِنُونَ فِي عِدَاوَةِ آبَائِهِمْ، وَأَبْنَائِهِمْ،
 وَجَمِيعِ أَقْرَبَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، أَطْمَعَهُمْ فِي تَحَوُّلِ الْحَالِ إِلَى خِلَافِهِ فَقَالَ:
 ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أَي: مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ أَقْرَبَائِكُمْ
 ﴿مَّوَدَّةً﴾ بِأَن يَوْفَقَهُمْ لِلْإِيمَانِ. فَلَمَّا يَسَّرَ فَتْحَ مَكَّةَ أَظْفَرَ اللَّهُ بِأَمْنِيَّتِهِمْ، فَأَسْلَمَ
 قَوْمُهُمْ، وَتَمَّ بَيْنَهُمُ التَّحَابُ. وَ﴿عَسَى﴾ وَعَدَ مِنَ اللَّهِ عَلَى عَادَاتِ الْمُلُوكِ، حَيْثُ
 يَقُولُونَ فِي بَعْضِ الْحَوَائِجِ: عَسَى، أَوْ: لَعَلَّ، فَلَا تَبْقَى شَبَهَةٌ لِلْمَحْتَاجِ فِي تَمَامِ
 ذَلِكَ، أَوْ: أُرِيدُ بِهِ إِطْمَاعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ عَلَى تَقْلِيلِ الْقُلُوبِ، وَتَحْوِيلِ
 الْأَحْوَالِ، وَتَسْهِيلِ أَسْبَابِ الْمَوَدَّةِ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَن أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

٨ - ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾
 تَكْرِمُوهُمْ، وَتَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَفِعْلًا. وَحَلَّ ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ جَزَّ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ
 ﴿الَّذِينَ لَمْ يَقَاتِلُوكُمْ﴾. وَهُوَ بَدَلُ اشْتِمَالٍ. وَالتَّقْدِيرُ: ﴿عَنِ﴾ بَرَّ ﴿الَّذِينَ﴾
 ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ وَتَقْضُوا إِلَيْهِمْ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَظْلَمُوهُمْ. وَإِذَا نَهَى عَنِ الظُّلْمِ فِي
 حَقِّ الْمُشْرِكِ فَكَيْفَ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِ؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

٩ - ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ

أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايَتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ

أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴿٩﴾ هو بدل من ﴿الذين قاتلوكم﴾. والمعنى: لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء. وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث وضعوا التولي غير موضعه.

١٠ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ سمأهن مؤمنات لنطقهن بكلمة الشهادة، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ نصب على الحال ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فابتلوهن بالنظر في الأمارت، ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن. وعن ابن عباس: امتحانها: أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ منكم، فإنكم وإن رزتم أحوالهن لا تعلمون ذلك حقيقة، وعند الله حقيقة العلم به ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ العلم الذي تبلغه طاقتكم، وهو الظنّ الغالب بظهور الأمارات، وتسمية الظنّ علماً يؤذن بأن الظنّ الغالب، وما يقضي إليه القياس جار مجرى العلم، وصاحبه غير داخل في قوله: ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فلا تردوهن إلى أزواجهنّ المشركين ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: لا حلّ بين المؤمنة والمشرک لوقوع الفرة بينهما بخروجها مسلمة ﴿وَأَثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ وأعطوا أزواجهنّ مثل ما دفعوا إليهنّ من المهور. ونزلت الآية بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يرّد على أهل مكة من جاء مؤمناً منهم. فأنزل الله هذه الآية بياناً؛ إنّ ذلك في الرجال، لا في النساء؛ لأنّ المسلمة لا تحلّ للكافر. وقيل: نسخت هذه الآية الحكم الأوّل ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ ثمّ نفى عنهم الجناح في تزوّج هؤلاء المهاجرات ﴿إِذَا ءَايَتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ؛ لأنّ المهر أجر البضع. وبه احتجّ أبو حنيفة - رحمه الله - على أن لا عدة على المهاجرة ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ بصريّ ﴿بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾. العصمة: ما يعتصم به من عقدٍ وسبب. والكوافر: جمع كافرة. وهي التي بقيت

وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ بِهِ مَغْنَمٌ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْفِقْنَ وَلَا يَرْزِقْنَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ

في دار الحرب، أو لحقت بدار الحرب مرتدة. أي: لا يكن بينكم وبينهن عصمة، ولا علاقة زوجية. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا تعتدَّ بها من نسائه؛ لأنَّ اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ﴿وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ من مهر أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها ﴿وَلَيْسَ لَكُمْ بِهِ مَغْنَمٌ﴾ من مهر نساءهم المهاجرات ممن تزوجها منا ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ﴾ أي: جميع ما ذكر في هذه الآية ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنف، أو: حال من حكم الله على حذف الضمير. أي: يحكمه الله. أو: جعل الحكم حاكماً على المبالغة. وهو منسوخ، فلم يبق سؤال المهر؛ لا متاً ولا منهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

١١ - ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ وإن انفلت أحدٌ منهن إلى الكفار - وهو في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (أحد) - ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم - عن الزجاج - ﴿فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم، ولحقن بدار الحرب مهر أزواجهم من هذه الغنيمة ﴿وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وقيل: هذا الحكم منسوخ أيضاً.

١٢ - ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ هو حال ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْفِقْنَ وَلَا يَرْزِقْنَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يريد: وأد البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك. كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجه كذباً؛ لأنَّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين

وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَكْسِبُوا مِنَ الْآخِرَةِ

﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ طاعة الله ورسوله ﴿فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ عمّا مضى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بتمحيق ما سلف، ﴿رَحِيمٌ﴾ بتوفيق ما اتتف. وروي: أنّ رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه يبایعهنّ عنه بأمره، ويبلغهنّ عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متنكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة. فقال ﷺ: «أبايعكنّ على ألا تشركن بالله شيئاً» فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئاً. فقال ﷺ: «ولا يسرقن» فقالت هند: إن أباسفيان رجل شحيح، وإنّي أصبت من ماله هناتٍ. فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ، وعرفها فقال لها: «إنك لهند» قالت: نعم، فاعف عمّا سلف يا نبيّ الله عفا الله عنك! فقال: «ولا يزينين» فقالت: أو تزني الحرّة؟ فقال: «ولا يقتلن أولادهن» فقالت: ريبناهم صغاراً وقتلتهم كباراً. فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة قد قتل يوم بدر - فضحك عمر - رضي الله عنه - حتّى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فقال: «ولا يأتين بيهتان» فقالت: والله إنّ البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق! فقال: «ولا يعصينك في معروف» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء - وهو يشير: إلى أنّ طاعة الولاية لا تجب في المنكر^(١) -.

١٣ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ختم السورة بما بدأ به. قيل: هم المشركون ﴿قَدْ يَكْسِبُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ من ثوابها؛ لأنهم ينكرون البعث

(١) رواه أحمد (٣٩/٦ و ٥٠ و ٢٠٦) وأبو داود (٣٥٣٢) والنسائي (٢٤٦/٨).

وانظر القصة في أسد الغابة (٥٦٢/٥) والإصابة (٤٠٩/٤) والطبقات (٢٣٦/٨).

كَمَا يَيْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

﴿ كَمَا يَيْسُ الْكُفَّارُ ﴾ أي: كما يسو، إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير ﴿ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ أن يرجعوا إليهم. أو كما يئس أسلافهم الذين هم في القبور من الآخرة. أي: هؤلاء كسلفهم. وقيل: هم اليهود. أي: ﴿ لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا ﴾ مغضوباً عليهم ﴿ قَدْ يئسوا ﴾ أن يكون لهم حظ في ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ لعنادهم رسول الله ﷺ، وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة ﴿ كَمَا يئس الكفار من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء. وقيل: ﴿ من أصحاب القبور ﴾ بيان للكفار؛ أي: ﴿ كَمَا يئس الكفار ﴾ الذين قُبِرُوا من خير الآخرة؛ لأنهم تبتوا قبح حالهم وسوء منقلبهم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

١ ، ٢ - ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي: أنهم قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه. فنزلت آية الجهاد، فتباطأ بعضهم، فنزلت: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. ﴿لم﴾ هي: لام الإضافة داخلية على ما الاستفهامية، كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم، وفيم، ومم، وعم، وإلام، وعلام. وإنما حذفت الألف؛ لأنَّ ما، واللام، أو غيرها كشيء واحد.. وكثُر الاستعمال في كلام المستفهم. وقد جاء استعمال الأصل قليلاً قال:

علام قام يشتمني جرير؟ *

والوقف على زيادة هاء السكت، أو الإسكان. ومن أسكن في الوصل فلاجرائه مجرى الوقف.

٣ - ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قصد في ﴿كبر﴾ التعجب من غير لفظه كقوله:

غَلَّتْ نَابٌ كُلِّبٌ بَوَاؤُهَا

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا أَمْرِي وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ

ومعنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره. وأسند إلى ﴿أن تقولوا﴾ ونصب ﴿مقتاً﴾ على التمييز. وفيه دلالة: على أن قولهم مالا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه. والمعنى: ﴿كبر﴾ قولكم مالا تفعلون مقتاً عند الله. واختير لفظ المقت؛ لأنه أشد البغض. وعن بعض السلف: أنه قيل له: حدثنا. فقال: أتأمروني أن أقول مالا أفعل، فأستعجل مقت الله؟!

٤ - ثُمَّ أَعْلَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَجِبُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي: صاقين أنفسهم، مصدر وقع موقع الحال ﴿كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ﴾ لاصق بعضه ببعض. وقيل: أريد به: استواء نياتهم في حرب عدوهم، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رص بعضه إلى بعض. وهو حال أيضاً.

٥ - ﴿وَإِذْ﴾ منصوب باذكر ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بجحود الآيات، والقذف بما ليس في ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾ في موضع الحال؛ أي: ﴿لم تؤذونني﴾ عالين علماً يقيناً ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وقضية علمكم بذلك توقيري، وتعظيمي، لا أن تؤذوني ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ مالوا عن الحق ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ من الهداية. أو: لما تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم. أو: فلما اختاروا الزيف ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: خذلهم وحرهم توفيق اتباع الحق ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يهدي من سبق في علمه: أنه فاسق.

٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا أَمْرِي﴾ ولم يقل: يا قوم كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ

يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَهْمُهُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى يَحْزَرُونَ نَجِيحَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾

يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَهْمُهُ ﴿٦﴾ أي: أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني من التوراة، وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي. يعني: أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر. ﴿بَعْدِي﴾ حجازي، وأبو عمرو، وأبو بكر، وهو اختيار الخليل وسيبويه. وانتصب ﴿مُصَدِّقاً﴾ ومبشراً بما في الرسول من معنى الإرسال ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ عيسى، أو محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. (ساحر) حمزة، وعلي.

٧ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وأي الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾، والسحر: كذب، وتمويه.

٨ - ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ هذا تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾. مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس فيه ليطفئه. والمفعول محذوف، واللام للتعليل. والتقدير: ﴿يُرِيدُونَ﴾ الكذب ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بكلامهم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ مكّي، وحمزة، وعلي، وحفص. ﴿مُتَمُّ نُورِهِ﴾ غيرهم. أي: متم الحق، ومُتَبَلِّغُهُ غايته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

٩ - ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الملة الحنيفية ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جميع الأديان المخالفة له. ولعمري لقد فعل! فما بقى دين من الأديان إلا وهو مغلوبٌ مقهورٌ بدين الإسلام. وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

١٠ - ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى يَحْزَرُونَ نَجِيحَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ تنجيكم: شامي.

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ

١١- ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: ﴿تؤمنون﴾ وهو بمعنى: آمنوا عند سيوييه. ولهذا أجيب بقوله: ﴿يعفّر لكم﴾. ويدلّ عليه قراءة ابن مسعود: (آمنوا بالله ورسوله واجاهدوا). وإنما جيء به على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنه امتثل، فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم كان خيراً لكم حيثئذ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك، واعتقدتموه أحببتم الإيمان، والجهاد فوق ما تحبون أموالكم وأنفسكم، فتخلصون وتفلحون.

١٢- ﴿يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة وخلود. يقال: عدن بالمكان إذ أقام به. كذا قيل ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣- ﴿وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم. ثم فسرها بقوله: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل. وهو فتح مكة، والنصر على قریش. أو: فتح فارس، والروم. وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ شيء من التوبيخ على محبة العاجل. وقال صاحب الكشف: «معناه: هل أدلكم على تجارة تنجيكم» ﴿و﴾ على تجارة «أخرى تحبونها». ثم قال: ﴿نَصْرٌ﴾ أي: هي «نصر» ﴿وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ﴿تؤمنون﴾ لأنه في معنى الأمر. كأنه قيل: آمنوا، واجاهدوا يشبكم الله، وينصركم، «وبشّر» يا رسول الله «المؤمنين» بذلك. وقيل: هو عطف على «قل» مراداً قيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هل أدلكم﴾.

١٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ أي: ﴿أنصار﴾ دينه ﴿أنصاراً لله﴾ حجازي، وأبو عمرو ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ظاهره تشبيه

قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأْمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

كونهم أنصاراً بقول عيسى: ﴿من أنصاري إلى الله﴾. ولكنه محمول على المعنى: أي: ﴿كونوا أنصار الله كما﴾ كان الخواريون أنصار عيسى حين قال لهم: ﴿من أنصاري إلى الله﴾. ومعناه: ﴿من﴾ من جندي متوجّهاً ﴿إلى﴾ نصره ﴿الله﴾ ليطابق جواب الخواريين، وهو قوله: ﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي: نحن الذين ينصرون الله. ومعنى: ﴿من أنصاري﴾ من الأنصار الذين يختصون بي، ويكونون معي في نصره الله. و﴿الخواريون﴾: أصفاؤه. وهم أول من آمن به. وكانوا اثني عشر رجلاً. وحواري الرجل: صفيّه، وخالسته. من: الحور، وهو البياض الخالص. وقيل: كانوا قصّارين يحوّرون الثياب. أي: يبيّضونها ﴿فَتَأْمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بعيسى ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ به ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ ففوّينا مؤمنهم على كفّارهم ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ فغلبوا عليهم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

١ - ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ التَّسْبِيحُ إمَّا أَنْ يَكُونَ تَسْبِيحَ خَلْقَةٍ. يَعْنِي: إِذَا نَظَرْتَ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ دَلَّتْ خَلْقَتُهُ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الْأَشْبَاهِ. أَوْ تَسْبِيحَ مَعْرِفَةٍ: بِأَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بِلُطْفِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَا يَعْرِفُ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَيَنْزِهُهُ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أَوْ تَسْبِيحَ ضَرُورَةٍ: بِأَنْ يَجْرِيَ اللَّهُ التَّسْبِيحَ عَلَى كُلِّ جَوْهَرٍ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ لَهُ بِذَلِكَ.

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾ أَرْسَلَ ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أَي: بَعَثَ رَجُلًا أُمِّيًّا فِي قَوْمٍ أُمِّيِّينَ. وَقِيلَ: ﴿مِنْهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] يَعْلَمُونَ نَسَبَهُ وَأَحْوَالَهُ. وَالْأُمِّيُّ: مَنْسُوبٌ إِلَى أُمَّةِ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَأُونَ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ. وَقِيلَ: بَدَأَتْ الْكِتَابَةَ بِالطَّائِفِ، وَهُمْ أَخَذُوهَا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرَةِ، وَأَهْلِ الْخَيْرَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْبَارِ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ وَيُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشَّرِكِ وَخَبَائِثِ الْجَاهِلِيَّةِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ

وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السَّنة، أو الفقه في الدين ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل محمد ﷺ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ كفر وجهالة ﴿وَإِنْ﴾ خففة من الثقلة، واللام دليل عليها. أي: كانوا في ضلال، لا ترى ضلالاً أعظم منه.

٣ - ﴿وَآخِرِينَ مِنْهُمْ﴾ مجرور معطوف على ﴿الْأَمِّيِّينَ﴾ يعني: أنه بعثه ﴿فِي الْأَمِّيِّينَ﴾ الذين على عهده ﴿و﴾ في ﴿آخِرِينَ﴾ من الأميين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: لم يلحقوا بهم بعد، وسيلحقون بهم. وهم الذين بعد الصحابة - رضي الله عنهم - أو: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين. وقيل: هم العجم. أو منصوب معطوف على المنصوب في ﴿وَيَعْلَمُهُمْ﴾ أي: يعلمهم ﴿و﴾ يعلم ﴿آخِرِينَ﴾؛ لأنَّ التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوله، فكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في تكمينه رجلاً أميناً من ذلك الأمر العظيم، وتأيدته عليه، واختياره إياه من بين كافة البشر.

٤ - ﴿ذَلِكَ﴾ الفضل الذي أعطاه محمداً، وهو: أن يكون نبيَّ أبناء عصره، ونبيَّ أبناء العصور الغواير، هو ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ إعطاءه، وتفضيه حكمته ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٥ - ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾ كلفوا علمها، والعمل بما فيها، ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ثم لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ جمع: سفر، وهو: الكتاب الكبير. و﴿يَحْمِلُ﴾ في محلِّ النصب على الحال، أو الجزر على الوصف؛ لأنَّ الحمار كاللثيم في قوله:

ولقد أمرَ على اللثيم يسبني^(١)

شبه اليهود في أنهم حمله التوراة وقراؤها، وحفاظ ما فيها، ثم لم يعملوا

(١) صدر بيت، وعجزه: فأعِفْ ثم أقول لا يعنيني.

يَبْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦﴾ قُلْ يَأَيُّهَا
الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِن
الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ
فِيئْتِيكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

بها، ولم ينتفعوا بآياتها - وذلك: أن فيها نعت رسول الله ﷺ، والبشارة به، ولم
يؤمنوا به - بالحمارة حُمْلَ كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها، ولا يدري
منها إلا ما يمرّ بجنبه وظهره من الكد والتعب. وكلّ من علم ولم يعمل بعلمه
فهذا مثله ﴿يَبْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ﴿ببس﴾ مثلاً ﴿مثل القوم
الذين كذبوا بآيات الله﴾. أو: ﴿بس مثل القوم﴾ المكذبين مثلهم. وهم
اليهود؛ الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحّة نبوة محمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: وقت اختيارهم الظلم. أو: ﴿لا يهدي﴾ من سبق في
علمه: أنه يكون ظالماً.

٦، ٧ - ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ هاد، يهود: إذا تهود ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ
أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ
وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨] أي: إن كان قولكم حقاً، وكنتم على ثقة فتمنوا على
الله أن يمتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه. ثم قال:
﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بسبب ما قدموا من الكفر. ولا فرق بين
«لا» و«لن» في أن كلّ واحدةٍ منهما نفى للمستقبل، إلا أن في «لن» تأكيداً
وتشديداً ليس في «لا» فأتى مرّة بلفظ التأكيد ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥] ومرّة
بغير لفظه ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم.

٨ - ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون أن تمنوه خيفة أن
تؤخذوا بوبال كفركم ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ لا محالة. والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾ ودخلت
الفاء لتضمن ﴿الذي﴾ معنى الشرط ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيُئْتِيكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا
الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي
الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا
تُجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا

٩ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ النداء: الأذان.
﴿من﴾ بيان لإذا، وتفسير له، ويوم الجمعة: سيد الأيام. وفي الحديث: «من
مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووقي فتنة القبر»^(١) ﴿فَاسْعَوْا﴾
فامضوا. وقرئ بها. وقال الفراء: السعي، والمضي، والذهاب، واحد.
وليس المراد به: السرعة في المشي ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: إلى الخطبة عند الجمهور.
وبه استدلل أبو حنيفة - رحمه الله - على أن الخطيب إذا اقتصر على «الحمد لله»
جاز ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا،
وإنما خص البيع من بينها؛ لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند
الزوال. ف قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر
الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح ﴿وذروا البيع﴾ الذي نفعه يسير ﴿ذَلِكُمْ﴾
أي: السعي إلى ذكر الله ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من البيع والشراء ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٠ - ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: أدت ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ - أمر بإباحة -
﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الرزق، أو: طلب العلم، أو: عيادة المريض، أو: زيارة
أخ في الله ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا﴾ واشكروه على ما وفقكم لأداء فرضه ﴿لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ﴾.

١١ - ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ تفرقوا عنك إليها. وتقديره:
﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ انفضوا إليها ﴿أو لهوًا﴾ انفضوا إليه، فحذف أحدهما للدلالة
المذكور عليه، وإنما خص التجارة؛ لأنها كانت أهم عندهم.

روي: أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء، فقدم دحية بن خليفة بتجارة^١

وَتَرْكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ الْجَنَّةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ ﴿١١﴾

من زيت الشام، والنبِيُّ ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقاموا إليه، فما بقي معه إلا ثمانية، أو اثنا عشر. فقال ﷺ: «والذي نفس محمد! بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»^(١). وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق، فهو المراد باللّهُو ﴿وَتَرْكُوكَ﴾ على المنبر ﴿قَائِمًا﴾ تخطب. وفيه دليل: على أنّ الخطيب ينبغي أن يخطب قائماً ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ الْجَنَّةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ أي: لا يفوتهم رزق الله بترك البيع، فهو خير الرازقين.

* * *

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٨٦).

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
كَافَرُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا

١ - ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أرادوا شهادة واطأت
قلوبهم فيها ألسنتهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أي: ﴿والله يعلم﴾ إن الأمر كما
يدل عليه قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في
ادعاء المواطأة. أو: إنهم ﴿لكاذبون﴾ فيه؛ لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن
شهادة في الحقيقة، فهم كاذبون في تسميته شهادة. أو: إنهم ﴿لكاذبون﴾ عند
أنفسهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون: أن قولهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ كذب، وخبر
على خلاف ما عليه حال المخبر عنه.

٢ - ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ وقاية من السبي والقتل. وفيه دليل: على أن:
«أشهد» يمين ﴿فَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الإسلام بالتفجير، وإلقاء
الشبه ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقهم، وصدّهم الناس عن سبيل الله. وفي
﴿سَاءَ﴾ معنى التعجب؛ الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

٣ - ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أي: ﴿ذلك﴾
القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا﴾. أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالآيمان.

فَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ

أي: ذلك كله ﴿٣﴾ سبب ﴿بأنهم آمنوا﴾ أي: نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ﴿ثم كفروا﴾ ثم ظهر كفرهم بعد ذلك بقولهم: إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن حير، ونحو ذلك. أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام. كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا...﴾ الآية [البقرة: ١٤] ﴿فَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان جزاءً على نفاقهم ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يتدبرون، أو لا يعرفون صحة الإيمان.

٤ - والخطاب في ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لرسول الله، أو: لكل من يخاطب ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ كان ابن أبي رجلاً جسيماً، صيحاً، فصيحاً، وقوم من المنافقين في مثل صفته. فكانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ، فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر، وفصاحة الألسن. فكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم، ويسمعون إلى كلامهم. وموضع ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ﴾ رفع على هم ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ﴾ أو هو كلام مستأنف لا محل له ﴿مُسْنَدٌ﴾ إلى الحائط. شبّهوا في استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بالخشب المسند إلى الحائط؛ لأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف، أو جدار، أو غيرهما من مظانّ الانتفاع، وما دام متروكاً غير منتفع به أسند إلى الحائط. فشبّهوا به في عدم الانتفاع. أو: لأنّهم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام ﴿خُشْبٌ﴾ أبو عمرو، غير عباس وعليّ، جمع: خشبة؛ كبذنة، وبدن. و﴿خُشْبٌ﴾ كثمرة، وثمر ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿كلّ صيحة﴾ مفعول أول. والمفعول الثاني: ﴿عليهم﴾. وتمّ الكلام. أي: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ﴾ واقعة ﴿عليهم﴾ وضارة لهم لجنهم ورعبهم. يعني: إذا نادى مناد في العسكر، أو انفلتت دابة، أو أنشدت ضالة؛ ظنوه إيقاعاً بهم. ثم قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: هم الكاملون في العداوة؛ لأنّ أعدى الأعداء العدو المداحي؛ الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء

فَاحْذَرُهُمْ فَتَلَّهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤَفَّكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾

الدويي ﴿فَاحْذَرُهُمْ﴾ ولا تغتر بظواهرهم ﴿فَتَلَّهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم. أو: تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿أَنَّى يُؤَفَّكُونَ﴾ كيف يعدلون عن الحق، تعجباً من جهلهم، وضلالهم.

٥ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ﴾ عطفوها، وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً ﴿لَوَّاْ﴾ بالتخفيف نافع ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار والاستغفار.

روي: أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع - وهو ماء لهم - وهزمهم، وقتلهم، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر، وسانان الجهني حليف لابن أبي، واقتتلا. فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين! وسانان: يا لأنصار! فأعان جهجاهاً جعاً من فقراء المهاجرين، ولطم سناناً. فقال عبد الله لجعاً: وأنت هناك! وقال: ما صاحبنا محمداً إلا لئلطم! والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال: سمن كلبك يأكلك! أما والله! ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ عني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ. ثم قال لقومه: والله لو أمسكتهم عن جعاً وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد بن أرقم - وهو حدث - فقال: أنت والله الذليل، القليل، المُبَغَّضُ في قومك، ومحمد في عز من الرحمن، وقوة من المسلمين. فقال عبد الله: اسكت! فإنما كنت ألعب. فأخبر زيد رسول الله ﷺ. فقال عمر - رضي الله عنه -: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله! فقال: «إذن تُرْعِدُ أَنْفُ كَثِيرَةٍ يَبْثِرُ» قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجري، فأمر به أنصارياً. قال: «فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟» وقال ﷺ لعبد الله: «أنت صاحب الكلام الذي بلغني». قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيدا لكاذب. فهو قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ فقال الحاضرون: «يا رسول الله! شيخنا وكبيرنا، لا تصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم. فلما نزلت قال

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

رسول الله ﷺ لزيد: «يا غلام إن الله قد صدقك وكذب المنافقين» فلما بان كذب عبد الله؛ قيل له: قد نزلت فيك آي شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلولى رأسه فنزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ولم يلبث إلا أياماً حتى اشتكى ومات^(١).

٦ - ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: ما داموا على النفاق. والمعنى: سواء عليهم الاستغفار وعدمه؛ لأنهم لا يلتفتون إليه، ولا يعتدون به؛ لكفرهم. أو: لأن الله لا يغفر لهم. وقرئ ﴿استغفرت﴾ على حذف حرف الاستفهام؛ لأن ﴿أم﴾ المعادلة تدل عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

٧ - ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ ينفقوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وله الأرزاق والقسم، فهو رازقهم منها؛ وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولكن عبد الله وأضرابه جاهلون لا يفقهون ذلك، فيهدون بما يزيّن لهم الشيطان.

٨ - ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضَ مِنَ الْأَذَلِّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ الغلبة والقوة ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولمن أعزّه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين. وهم الأخصاء بذلك، كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين. وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة: ألسنت على الإسلام وهو العز الذي لا ذلّ معه والغنى الذي لا فقر معه؟ وعن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - أن رجلاً قال له: إن الناس يزعمون

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٨٧) وأصل القصة في الصحيحين.

وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا
 أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفَقُوا
 مِنْ مَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ
 فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ
 بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

أَنْ فِيكَ تِبْهًا. قال: ليس بتيه، ولكنه عزة. وتلا هذه الآية ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ﴾ لا تشغلکم ﴿ءَمْوَالُكُمْ﴾ والتصرف فيها،
 والسعي في تدبير أمرها بالنماء وطلب التناج ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ وسروركم بهم
 وشغفتكم عليهم والقيام بمؤنهم ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عن الصلوات الخمس،
 أو: عن القرآن ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين. وقيل: من
 يشتغل بتثمين أمواله عن تدبير أحواله، وبمرضاة أولاده عن إصلاح معاده،
 ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في تجارتهم؛ حيث باعو الباقي بالفاقي.

١٠ - ﴿وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَكُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ للتبعض. والمراد بالإنفاق: الواجب
 ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ﴾ يرى دلائل الموت، ويعاين
 ما يبأس معه من الإمهال، ويتعذر عليه الإنفاق ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ هلا
 أخرت موتي ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى زمان قليل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدق - وهو
 جواب ﴿لَوْلَا﴾ - ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ المؤمنين. والآية في المؤمنين. وقيل: في
 المنافقين. (وأكون) أبو عمرو بالنصب عطفًا على اللفظ. والجزم على موضع
 ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ كأنه قيل: إن أخرتني أصدق وأكن.

١١ - ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ عن الموت ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ المكتوب في اللوح
 المحفوظ ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ^(١) حماد، ويحيى - والمعنى: أنكم إذا علمتم:
 أن تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه، وأنه هاجم لا محالة، وأن الله عليم

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - قراءة: ﴿يعلمون﴾. وهي قراءة من ذكرهم.

.....

بأعمالكم فمجازٍ عليها من منع واجب وغيره، لم يبق إلا المسارعة إلى الخروج
عن عهدة الواجبات، والاستعداد للقاء الله.

* * *

سُورَةُ النَّجْمَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾

١ - ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
 قدّم الطرفان ليدلّ بتقديمها على اختصاص الملك والحمد بالله عزّ وجلّ، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له؛ لأنّه مبدىء كلّ شيء، والقائم به. وكذا الحمد؛ لأنّ أصول النعم وفروعها منه. وأمّا ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمد غيره اعتداد بأنّ نعمة الله جرت على يده.

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي: فمنكم آتٍ بالكفر، وفاعل له، ومنكم آتٍ بالإيمان، وفاعل له. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: ﴿هو الذي﴾ تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد من العدم. وكان يجب أن تكونوا بأجمعكم شاكرين. فما بالكم تفرقتم أمّا ﴿فمنكم الكافر ومنكم مؤمن﴾؟ وقدّم الكفر لأنّه الأغلب عليهم والأكثر فيهم. وهو ردّ لقول من يقول بالمتزلة بين المنزلتين. وقيل: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر﴾ بالخلق وهم الدهرية ﴿ومنكم مؤمن﴾ به.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْلِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

٣ - ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة. وهو أن جعلها مقامًا للمكلفين، ليعملوا فيجازيهم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي: جعلكم أحسن الحيوان كله، وأباهاء بدليل: أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور. ومن حسن صورته: أنه خلق منتصباً غير منكبٍ. ومن كان دميماً، مشوه الصورة، سمج الخلقة، فلا سماجة ثم، ولكن الحسن على طبقات. فلانحطاطها عما فوقها لا تستملح، ولكنها غير خارجة عن حد الحسن. وقالت الحكماء: شيان لا غاية لهما: الجمال، والبيان ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فأحسنوا سرائركم، كما أحسن صوركم.

٤ - ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ نبه بعلمه ما في السموات والأرض، ثم بعلمه بما يسرّه العباد ويعلنونه، ثم بعلمه بذات الصدور؛ أن شيئاً من الكليات، والجزئيات غير خافٍ عليه. فحقه أن يُتَّقَى ويحذر، ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه. وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد. وكل ما ذكره بعد قوله: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصى الخالق، ولا تشكر نعمته.

٥ - ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الخطاب لكفار مكة ﴿نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ أي: ذاقوا وبال كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في العقبى.

٦ - ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعد لهم من العذاب في الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بأن الشأن والحديث ﴿كَانَتْ تَأْلِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكروا الرسالة للبشر، ولم ينكروا العبادة للحجر ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرسول ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أطلق ليتناول كل شيء، ومن جملة إيمانهم وطاعتهم ﴿وَاللَّهُ غَفِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ على صنعه.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾
 فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ
 الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ
 الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ

٧، ٨ - ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهل مكة، والزعم: ادعاء العلم. ويتعدى
 تعدى العلم ﴿أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾: ﴿أَنْ﴾ مع ما في حيزه قائم مقام المفعولين.
 وتقديره: أنهم ﴿لَنْ يُبْعَثُوا﴾ ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ هو إثبات لما بعد ﴿لَنْ﴾ وهو البعث
 ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أكد الإخبار باليمين. فإن قلت: ما معنى اليمين على شيء أنكره؟
 قلت: هو جائز؛ لأن التهديد به أعظم موقعاً في القلب، فكأنه قيل لهم: ما تنكرونه
 كائنٌ لا محالة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ﴾ أي: البعث ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هتِنٌ ﴿فَآمَنُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يعني: القرآن؛ لأنه يبين حقيقة كل
 شيء، فيهتدي به؛ كما بالنور ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فراقبوا أموركم.

٩ - ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ انتصب الظرف بقوله: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أو بإضمار اذكر ﴿لِيَوْمِ
 الْجَمْعِ﴾ يجمع فيه الأولون، والآخرين ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ هو مستعار من: تغابن
 القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً؛ لنزول السعداء منازل الأشقياء
 التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا
 ينزلونها لو كانوا أشقياء. كما ورد في الحديث. ومعنى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾
 - وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم -: استعظام له، وأن تغابنه هو التغابن في
 الحقيقة، لا التغابن في أمور الدنيا ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا﴾ صفة للمصدر؛
 أي: عملاً ﴿صَالِحًا﴾ ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ﴾ وبالنون فيهما: مدني، وشامي
 ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٠، ١١ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ
 فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ شدة، ومرض، وموت أهل، أو إلّا

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

شيء يقتضي هما ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه، وتقديره، ومشيته. كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ للاسترجاع عند المصيبة حتى يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] أو بشرحه للازدياد من الطاعة والخير. أو: ﴿يهدي قلبه﴾ حتى يعلم: أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن مجاهد: إن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، وإن ظلم غفر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٢- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله، وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: فعلية التبليغ. وقد فعل.

١٣- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بَعَثَ^(١) لرسول الله ﷺ على التوكل عليه حتى ينصره على من كذبه، وتولى عنه.

١٤- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أي: إن من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ الضمير للعدو، أو للأزواج والأولاد جميعاً. أي: لما علمتم أنَّ هؤلاء لا يخلون من عدو، فكونوا منهم على حذر، ولا تأمنوا غوائلهم، وشرهم ﴿وَإِن تَعَفَّوْا﴾ عنهم إذا اطلعتهم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ﴿وَتَصَفَّحُوا﴾ تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ بستر ذنوبهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لكم ذنوبكم، ويكفر عنكم. قيل: إنَّ ناساً أرادوا الهجرة عن مكة فبَطَّطهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا. فرقوا لهم ووقفوا. فلما هاجروا بعد ذلك، ورأوا الذين سبقوهم قد فقها في الدين،

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا أَسْطَقْتُمْ
وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم، فزَيْن لهم العفو.

١٥ - ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ بلاءٌ، ومحنةٌ؛ لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة، ولا بلاء أعظم منهما ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. وذلك أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم. ولم يدخل فيه ﴿مِنْ﴾ كما في العداوة؛ لأن الكل لا يخلو عن الفتنة وشغل القلب، وقد يخلو بعضهم عن العداوة.

١٦ - ﴿فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا أَسْطَقْتُمْ﴾ جهدكم ووسعكم. قيل: هو تفسير لقوله: ﴿حَقِّ تَقَاتِهِ﴾ ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ ما توعظون به ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما تؤمرون به، وتنهون عنه ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: إنفاقاً خيراً لأنفسكم. وقال الكسائي: يكن الإنفاق ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾. والأصح: أن تقديره اتوا ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ وافعلوا ما هو خير لها. وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، وبيان؛ لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد، وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات، وزخارف الدنيا ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ﴾ أي: البخل بالزكاة والصدقة الواجبة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُقْلِحُونَ﴾.

١٧ - ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بنية وإخلاص. وذكر القرض تلطّف في الاستدعاء ﴿يُضْعِفْهُ لَكُمْ﴾ يكتب لكم بالواحدة عشراً، أو سبعة إلى ما شاء من الزيادة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبل القليل، ويعطي الجزيل ﴿حَلِيمٌ﴾ يقبل الجليل من ذنب البخيل. أو يُضْعَفُ الصدقة لدافعها، ولا يعجل العقوبة لمانعها.

١٨ - ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ أي: يعلم ما استتر من سرائر القلوب ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾

 الْقَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

أي: ما انتشر من ظواهر الخطوب ﴿الْقَزِيزُ﴾ المعز بإظهار السُّيُوب^(١) ﴿الْحَكِيمُ﴾ في الإخبار عن الغيوب.

* * *

(١) «السيوب»: جمع السَّيْب، وهو العطاء والمال والمعروف.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

١ - ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ خُصَّ النَّبِيُّ ﷺ بالنداء، وعُمِّمَ بالخطاب؛ لأنَّ النَّبِيَّ إِمَامَ أُمَّتِهِ وَقُدُوتِهِمْ. كما يقال لرئيس القوم: يَا فُلَانُ افْعَلُوا كَذَا؛ إِظْهَاراً لِتَقَدُّمِهِ، وَاعْتِبَاراً لِتَرْوُسِهِ، وَأَنَّهُ قُدُوةٌ قَوْمِهِ. فَكَانَ هُوَ وَحْدَهُ فِي حُكْمِ كُلِّهِمْ، وَسَادّاً مَسدّاً جَمِيعِهِمْ. وَقِيلَ: التَّقْدِيرُ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ. وَمَعْنَى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ إِذَا أَرَدْتُمْ تَطْلِيقَهُنَّ. عَلَى تَنْزِيلِ الْمَقْبَلِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَشَارِفِ لَهُ مَنْزِلَةُ الشَّارِعِ فِيهِ. كَقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»^(١). وَمِنْهُ: كَانَ الْمَاشِي إِلَى الصَّلَاةِ، وَالْمُنْتَظَرُ لَهَا فِي حُكْمِ الْمُصَلِّي ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ فَطَلِّقُوهُنَّ مُسْتَقْبَلَاتٍ ﴿لِعَدَّتِهِنَّ﴾. وَفِي قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (فِي قَبْلِ عَدَّتِهِنَّ). وَإِذَا طَلَّقَتِ الْمَرْأَةُ فِي الطَّهْرِ الْمُتَقَدِّمَ لِلْقِرَاءَةِ الْأَوَّلِ مِنْ أَقْرَائِهَا فَقَدْ طَلَّقَتْ مُسْتَقْبَلَةً لِعَدَّتِهَا. وَالْمُرَادُ: أَنْ تَطْلُقَ الْمُدْخُولَ بِهِنَّ مِنَ الْمُعْتَدَاتِ بِالْحَيْضِ فِي طَهْرٍ لَمْ يَجَامِعْنَ فِيهِ، ثُمَّ يُخْلَيْنَ حَتَّى تَنْقُضِيَ عَدَّتَهُنَّ. وَهَذَا أَحْسَنُ الطَّلَاقِ ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ وَاضْبَطُوهَا بِالْحِفْظِ، وَأَكْمَلُوهَا ثَلَاثَةَ أَقْرَاءَ مُسْتَقْبَلَاتٍ كَوَامِلٍ، لَا نَقْصَانَ فِيهِنَّ. وَخَوِطِبَ

(١) رواه أحمد (٣/ ١١٤ و ١٩٠ و ٢٧٩) والبخاري (٣٠٥١) ومسلم (١٨٠٩).

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ
بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ
اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَاُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ

الأزواج لغفلة النساء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ حتى تنقضي عدتهن
﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة، وهي بيوت الأزواج.
وأضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى. وفيه دليل على أن السكنى
واجب، وأن الحث بدخول دار يسكنها فلان بغير ملك ثابت فيما إذا حلف:
لا يدخل داره. ومعنى الإخراج: ألا يخرجهن البعولة غضباً عليهن، وكراهة
لمساكنتهن، أو لحاجة لهم إلى المساكن، وألاً يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن
ذلك، إيذاناً بأن إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ بأنفسهن إن
أردن ذلك ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قيل: هي الزنى. أي: إلا أن يزنين،
فيخرجن لإقامة الحد عليهن. وقيل: خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه
﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا
تَدْرِي﴾ أيها المخاطب ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ بأن يقلب قلبه من بغضها
إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم
عليه، فيراجعها. والمعنى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ و
﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ لعلكم تندمون فترجعون.

٢، ٣ - ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ﴾ قاربن آخر العدة ﴿فَاُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فأنتم بالخيار: إن شئتم فالرجعة، والإمسك بالمعروف،
والإحسان. وإن شئتم فترك الرجعة، والمفارقة، واتقاء الضرر، وهو: أن
يراجعها في آخر عدتها، ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها، وتعذيباً لها
﴿وَأَشْهِدُوا﴾ يعني: عند الرجعة والفرقة جميعاً، وهذا الإشهاد مندوب إليه؛ لثلا
يقع بينهما التجاحد ﴿ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من المسلمين ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ لوجهه
خالصاً. وذلك: أن يقيموها لا للمشهود له، ولا للمشهود عليه، ولا لغرض
من الأغراض سوى إقامة الحق، ودفع الظلم ﴿ذَلِكَ﴾ الحث على إقامة

يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ

الشهادة لوجه الله، ولأجل القيام بالقسط ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إنما ينتفع به هؤلاء ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ هذه جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة. والمعنى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فطلق للسنة، ولم يضار المعتدة، ولم يخرجها من مسكنها، واحتاط، فأشهد ﴿يَجْعَلُ﴾ الله ﴿لَهُ مَخْرَجًا﴾ مما في شأن الأزواج من الغموم، والوقوع في المضايق، ويفرج عنه، ويعطه الخلاص ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه. ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله: ﴿ذَلِكَ يُوَعِظُ بِهِ﴾. أي: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة. وعن النبي ﷺ: أنه قرأها، فقال: «مخرجاً من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة»^(١) وقال ﷺ: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ...﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها»^(٢).

وروي: أن عوف بن مالك أسر المشركون ابناً له فأتى رسول الله ﷺ فقال: أَسِرَّ ابني، وشكا إليه الفاقة. فقال: «ما أمسى عند آل محمد إلا مدّ. فاتق الله، واصبر، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». فعاد إلى بيته، وقال لامرأته: إن رسول الله أمرني وإياك أن نستكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقالت: نعم ما أمرنا به، فجعلنا يقولان ذلك، فبينما هو في بيته؛ إذ قرع ابنه الباب ومعه مئة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها. فنزلت هذه الآية^(٣) ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ يكل أمره إليه عن طمع غيره وتدبير نفسه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ كافيه في الدارين ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ حفص. أي: منفذ أمره. غيره: ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾. أي: يبلغ ما يريد، ولا يفوته مراد،

(١) رواه الثعلبي والواحدي. (حاشية الكشف ٥٥٦/٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٠).

(٣) رواه الثعلبي، والبيهقي نحوه. (حاشية الكشف ٥٥٦/٤).

قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾ وَالَّتِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٤﴾ أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ

ولا يعجزه مطلوب ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تقديرًا وتوقيتًا. وهذا بيان لوجوب التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه؛ لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره، وتوقيته؛ لم يبق إلا التسليم للقدر، والتوكل.

٤ - ﴿وَالَّتِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ روي: أن ناساً قالوا: قد عرفنا عدة ذوات الأقرء؛ فما عدة اللائي لم يحضن؟ فنزلت ﴿إِنْ أَرْبَبْتُمْ﴾ ﴿إِنْ﴾ أشكل عليكم حكمهن، وجهلتم كيف يعتدّن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي: فهذا حكمهن. وقيل: ﴿إِنْ أَرْبَبْتُمْ﴾ في دم البالغات مبلغ اليأس - وقد قدروه بستان سنة، وبخمس وخمسين - أهو دم حيض أو استحاضة؟ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾. وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ هنّ الصغائر. وتقديره: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ فعدتهن ثلاثة أشهر. فحذفت الجملة لدلالة المذكور عليها ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ عدتهن ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. والنص يتناول المطلقات، والمتوفى عنهن أزواجهن. وعن علي، وابن عباس - رضي الله عنهم -: عدة الحامل المتوفى عنها [زوجها] ^(١) أبعد الأجلين ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يسر له من أمره، ويحلل من عقده بسبب التقوى.

٥ - ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ما علم من حكم هؤلاء المعتدات ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾.

٦ - ثم بين التقوى في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾؛ كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات؟ ف قيل: ﴿أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾. وكذا وكذا ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾.

(١) ليست في الأصل المخطوط.

مِنْ وَجَدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ

هي ﴿من﴾ التبعية، مبعضا محذوف. أي: ﴿أسكنوهن﴾ مكاناً ﴿من حيث سكنتم﴾ أي: بعض مكان سكناكم ﴿مِنْ وَجَدِكُمْ﴾ هو عطف بيان لقوله: ﴿من حيث سكنتم﴾ وتفسير له. كأنه قيل: ﴿أسكنوهن﴾ مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه. والوجد: الوسع والطاقة. وقرئ بالحركات الثلاث. والمشهور الضم.

والنفقة والسكنى واجبتان لكل مطلقة. وعند مالك، والشافعي - رحمهما الله -: لا نفقة للمبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس: أن زوجها أبت طلاقها. فقال رسول الله ﷺ: «لا سكنى لك ولا نفقة»^(١). وعن عمر رضي الله عنه: لا ندع كتاب ربنا وستة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها. سمعت النبي ﷺ يقول: «لها السكنى والنفقة»^(٢) ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ ولا تستعملوا معهن الضرر ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهن، أو يشغل مكانهن، أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج ﴿وَإِنْ كُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿أُولَئِكَ حَمَلَ﴾ ذوات أحمال ﴿فَاَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وفائدة اشتراط الحمل: أن مدة الحمل ربما تطول، فيظن ظان أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحائل. فنفي ذلك الوهم ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني: هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهن، أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ فحكمهن في ذلك حكم الأظار. ولا يجوز الاستئجار إذا كان الولد منهن مالم يبين، خلافاً للشافعي - رحمه الله - ﴿وَأَنْتُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: تشاوروا على التراضي في الأجرة. أو ليأمر بعضكم بعضاً. والخطاب للآباء والأمهات ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بما يليق بالستة، ويحسن في المروءة. فلا يماكس الأب، ولا تعاسر الأم؛ لأنه ولدهما، وهما شريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ﴾ تضايقتن فلم ترض الأم بما ترضع به الأجنبية، ولم يزد الأب على ذلك

(١) رواه الترمذي (١١٨٠) وابن ماجه (٢٠٣٦).

(٢) رواه أحمد (٤١٢/٦) ومسلم (٤٤٨٠) وأبو داود (٢٢٨٨).

فَسَرَّضْ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تَكَرَّرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْآلِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ

﴿فَسَرَّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ فستوجد ولا تُعوز مرضعة غير الأم ترضعه. وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاصرة. وقوله: ﴿له﴾ أي: للأب. أي: سيجد الأب غير معاصرة ترضع له ولده إن عاصره أمه.

٧ - ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾ أي: لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه. يريد: ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات. ومعنى: ﴿قدر عليه رزقه﴾ ضيق. أي: رزقه الله على قدر قوته ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَاهَا﴾ أعطاه من الرزق ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ بعد ضيق في المعيشة سعة. وهذا وعد لذي العسر باليسر.

٨، ٩ - ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أهل قرية ﴿عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أعرضت عنه على وجه العتو والعناد ﴿فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تَكَرَّرًا﴾ ﴿تَكَرَّرًا﴾ مدني وأبو بكر: منكرًا عظيمًا ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا﴾ أي: خساراً وهلاكاً. والمراد: حساب الآخرة، وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. وجيء به على لفظ الماضي لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقي في الحقيقة. وما هو كائن فكان قد كان.

١٠، ١١ - ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرير للوعيد، وبيان لكونه مترقباً. كأنه قال: ﴿أعد الله لهم﴾ هذا العذاب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْآلِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فليكن لكم ذلك ﴿يا أولي الأبواب﴾ من المؤمنين لطفاً في تقوى الله وحذر عقابه. ويجوز أن يراد: إحصاء السيئات، واستقصاؤها عليهم في الدنيا، وإثباتها في صحائف الحفظ، وما أصيبوا به من العذاب في العاجل، وأن يكون ﴿عتت﴾ وما عطف عليه صفة للقرية، و﴿أعد الله لهم﴾ جواباً لـ ﴿كأين﴾ ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ

إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِمَنْ رَزَقَا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ أي: القرآن. وانتصب ﴿رَسُولًا﴾ بفعل مضمر، تقديره: أرسل رسولاً. أو: هو بدل من ﴿ذِكْرًا﴾ كأنه في نفسه ذكر. أو على تقدير حذف المضاف أي: ﴿قد أنزل الله إليكم﴾ ذا ذكر ﴿رسولاً﴾، وأريد بالذكر: الشرف. لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: ذا شرف ومجد عند الله؛ وبالرسول: جبريل، أو: محمد - عليهما السلام - ﴿يَتْلُوا﴾ أي: الرسول، أو: الله عز وجل ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ﴾ الله ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح. أو: ليخرج الذين علم أنهم يؤمنون ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر، أو الجهل إلى نور الإيمان، أو العلم ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ﴾ وبالنون مدني وشامي ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. وحّد، وجمع، حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِمَنْ رَزَقَا﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق المؤمنين من الثواب.

١٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أجمع المفسرون على أن السموات سبع ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿سبع سموات﴾ قيل: ما في القرآن آية تدلّ على أن الأرضين سبع إلا هذه الآية. وبين كلّ سماءين مسيرة خمسمئة عام. وغلظ كلّ سماء كذلك. والأرضون مثل السموات. وقيل: الأرض واحدة. إلا أن الأقاليم سبعة ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمر الله وحكمه بينهن، وملكه ينفذ فيهن ﴿لِنَعْلَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اللام يتعلّق بـ ﴿خلق﴾ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ هو تمييز. أو: مصدر من غير لفظ الأول. أي: قد علم كلّ شيء علماً.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ روي: أن رسول الله ﷺ خلا بمارية في يوم عائشة - رضي الله عنها - وعلمت بذلك حفصة. فقال لها: «اكتمي عليّ»، وقد حرّمت مارية على نفسي، وأبشرك: أنّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمّتي». فأخبرت به عائشة. وكانتا متصادقتين. وقيل: خلا بها في يوم حفصة، فأرضاهما بذلك، واستكتمها فلم تكتم، فطلقها. واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية. فنزل جبريل عليه السلام، وقال: راجعها فإنّها صوّامة قوامة، وإنّها لمن نساك في الجنة^(١).

وروي: أنّه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة، فقالتا له: إنّنا نشمّ منك ريح المغاير. وكان يكره رسول الله ﷺ الثقل، فحرّم العسل^(٢). فمعناه: ﴿لم تحرم ما أحلّ الله لك﴾ من ملك اليمين،

(١) قال الحافظ: لم أراه هكذا، وهو عند الحاكم وغيره بغير ذكر سببه. (حاشية الكشف ٥٦٣/٤).

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٧) ومسلم (١٤٧٤).

تَبَنَّى مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسَرَ الْتَبَى إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ

أو: من العسل ﴿تَبَنَّى مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير ل: ﴿تَحَرَّمَ﴾، أو: حال، أو: استئناف. وكان هذا زلة منه؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ قد غفر لك ما زللت فيه ﴿رَحِيمٌ﴾ قد رحمك، فلم يؤاخذك به.

٢ - ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد قدر الله لكم ما تحللون به أيما نكم. وهي: الكفارة. أو: قد شرع لكم تحليلها بالكفارة. أو: شرع الله لكم الاستثناء في أيما نكم. من قولك: حلل فلان في يمينه: إذا استثنى فيها، وذلك أن يقول: إن شاء الله عقيبها، حتى لا يحنث. وتحريم الحلال يمين عندنا. وعن مقاتل: أن رسول الله ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية. وعن الحسن: أنه لم يكفر؛ لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وإنما هو تعليم للمؤمنين ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ سيديكم، ومتولي أموركم. وقيل: ﴿مولاكم﴾ أولى بكم من أنفسكم، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم، فيشرعه لكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أحل وحرم.

٣ - ﴿وَإِذَا أَسَرَ الْتَبَى إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ حديث مارية وإمامة الشيخين ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾ أفشته إلى عائشة - رضي الله عنها - ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وأطلع النبي ﷺ على إفشائها الحديث على لسان جبريل - عليه السلام - ﴿عَرَفَ بَعْضُهُم﴾ أعلم ببعض الحديث ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ فلم يخبر به تكرماً. قال سفيان - رحمه الله -: ما زال التغافل من فعل الكرام. ﴿عَرَفَ﴾ بالتخفيف، علي؛ أي: جازى عليه. من قولك للمسيء: لأعرفنَّ لك ذلك. وقيل: المعرف: حديث الإمامة، والمعرض عنه: حديث مارية. وروى أنه قال لها: «ألم أقل لك: اكنمي علي؟» قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي - فرحاً بالكرامة التي خص الله بها أباه (١) - ﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ﴾ نبأ النبي حفصة بما أفشيت من السر إلى عائشة - رضي

قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ ﴿٣﴾ إِنَّ نُوبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ

الله عنهما - ﴿قَالَتْ﴾ حفصة للنبي ﷺ: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ﴾ بالسرائر ﴿الْخَيْرُ﴾ بالضمائر.

٤ - ﴿إِنْ نُوبًا إِلَى اللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات، ليكون أبلغ في معاتبتهما. وجواب الشرط محذوف. والتقدير: ﴿إِنْ تَتَوْبَا إِلَى اللَّهِ﴾ فهو الواجب. ودلّ على المحذوف: ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ مالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ من حبّ ما يحبّه، وكراهة ما يكرهه ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ بالتخفيف كوفيّ. وإن تعاونوا عليه بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة، وإفشاء سرّه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ وليّه وناصره. وزيادة ﴿هُوَ﴾ إيذان بأنّه يتولّى ذلك بذاته ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ أيضاً وليّه ﴿وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن صلح من المؤمنين. أي: كلّ من آمن وعمل صالحاً. وقيل: من برىء من النفاق. وقيل: الصحابة. وهو واحد أريد به الجمع. كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس. تريد الجنس. وقيل: أصله: صالحو المؤمنين، فحذفت الواو عن الخط موافقة للفظ ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ على تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد نصره الله، وجبريل، وصالحى المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ فوج مظاهر له. فما يبلغ تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه؟ ولما كانت مظاهره الملائكة من جملة نصره الله قال: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ تعظيماً لنصرتهم ومظاهرتهم.

٥ - ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ ﴿يُبَدِّلُهُ﴾ مدنيّ وأبو عمرو. فالتشديد للكثرة ﴿أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾. فإن قلت: كيف تكون المبدلات خيراً منهنّ، ولم يكن على وجه الأرض نساء خيراً من أمّهات المؤمنين؟ قلت: إذا طلقهنّ رسول الله ﷺ لا يذائهنّ إياه لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهنّ من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهنّ ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ﴾ مقرّات مخلصات.

فَنَنْتَبِهَنَّ عَيْدَاتٍ سَخِرَتْ نَتَبَّتٍ وَأَنْكَارًا ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا

﴿فَنَنْتَبِهَنَّ﴾ مطيعات، فالقنوت: هو القيام بطاعة الله. وطاعة الله في طاعة رسوله ﴿نَتَبَّتٍ﴾ من الذنوب، أو راجعات إلى الله، وإلى أمر رسوله ﴿عَيْدَاتٍ﴾ لله ﴿سَخِرَتْ﴾ مهاجرات، أو صائمات. وقيل للصائم: سائح؛ لأن السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه. فشبّه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره ﴿نَتَبَّتٍ وَأَنْكَارًا﴾ إنما وسط العاطف بين الشيات والأبكار دون سائر الصفات لأنهما صفتان متنافيتان بخلاف سائر الصفات.

٦- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ نوعاً من النار لا تتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب ﴿عَلَيْهَا﴾ يلي أمرها، وتعذيب أهلها ﴿مَلَائِكَةٌ﴾ يعني: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ في أجرامهم غلظة وشدة، أو غلاظ الأقوال، شداد الأفعال ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ في موضع الرفع على النعت ﴿مَا أَمَرَهُمْ﴾ في محلّ النصب على البدل. أي: ﴿لا يعصون﴾ ما أمر الله. أي: أمره. كقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٣]. أو: لا يعصونه فيما أمرهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وليست الجملةتان في معنى واحد. إذ معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدّون ما يؤمرون به، ولا يتناقضون عنه، ولا يتوانون فيه.

٧- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار: ﴿لا تعذروا﴾ لأنه لا عذر لكم، أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.

٨- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ صادقة، عن الأخفش - رحمه الله - وقيل: خالصة. يقال: غسل ناصح: إذا خلس من الشمع. وقيل: ﴿نصوحاً﴾ من نصيحة الثوب. أي: توبة ترفو خروك في دينك، وترم

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا
تَحْتَ عَبْدَيْنِ

خللك. ويجوز أن يراد: توبة تنصح الناس؛ أي: تدعوهم إلى مثلها؛ لظهور
أثرها في صاحبها، واستعماله الجِد والعزيمة في العمل على مقتضياتها. وبضم
النون حماد ويحيى. وهو مصدر، أي: ذات نصوح أو تنصح نصوحاً. وجاء
مرفوعاً: «أَنَّ التوبة النصوح: أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب إلى أن يعود اللب
في الضرع»^(١). وعن حذيفة: بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم
يعود فيه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي الاستغفار باللسان، والندم
بالجنان، والإقلاع بالأركان ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ هذا على
ما جرت به عادة الملوك من الإجابة بعسى؛ ولعل، ووقوع ذلك منهم موقع
القطع والبت ﴿وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ونصب ﴿يَوْمَ﴾
بـ ﴿يُدْخِلَكُم﴾ ﴿لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ فيه تعريض بمن أخزاهم الله
من أهل الكفر ﴿نُورُهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ في موضع الخبر
﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا﴾ يقولون ذلك إذا انطفأ نور المنافقين ﴿وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩ - ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالقول الغليظ،
والوعظ البليغ. وقيل: بإقامة الحدود عليهم ﴿وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ﴾ على الفريقين فيما
تجاهدهما به من القتال والمحاجة باللسان ﴿وَمَا وَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

١٠ - ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ

(١) انظره بنحوه في الدر المنثور (٢٢٧/٨).

مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتْهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ

مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتْهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١١﴾ مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محابة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من النسب والمصاهرة، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً، بحال امرأة نوح، وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين بإفشاء أسرارهما، فلم يغن الرسولان ﴿عنهما﴾ أي: عن المرأتين بحق ما بينهما وبينهما من [الزواج] ^(١) إغناء ما من عذاب الله، ﴿وقيل﴾ لهما عند موتهما، أو يوم القيامة: ﴿ادخلا النار مع﴾ سائر ﴿الداخلين﴾ الذين لا وُصلة بينهم وبين الأنبياء، أو مع داخلها من إخوانكما من قوم نوح، وقوم لوط.

١١- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ هي: آسية بنت مزاحم. آمنت بموسى فعذبها فرعون بالأوتاد الأربعة ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وهي تعذب: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ - فكأنها أرادت الدرجة العالية، لأنه تعالى منزّه عن المكان، فعبرت عنها بقولها: ﴿عِنْدَكَ﴾ - ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي: من عمل فرعون، أو: من نفس فرعون الخبيثة، وخصوصاً من عمله، وهو الكفر، والظلم، والتعذيب بغير جرم ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من القبط كلهم. وفيه دليل على أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل، من سير الصالحين.

١٢- ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا﴾ فنفخ جبريل بأمرنا ﴿فِيهِ﴾ في الفرج ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ المخلوقة لنا ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ

(١) في الأصل المخطوط: أزواج.

رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ﴿١٢﴾

رَبِّهَا ﴿١٢﴾ أي: بصحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ بصري، وحفص. يعني: الكتب الأربعة ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾. لما كان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، غلب ذكوره على إناثه، و﴿من﴾ للتبعيض، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت ﴿من القانتين﴾ لأنها من أعقاب هارون أخي موسى - عليهما السلام -.

ومثل حال المؤمنين في أن وُصلة الكافرين لا تضرهم، ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله، بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله مع كونها زوجة أعدى أعداء الله، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين، مع أن قومها كانوا كفاراً.

وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجه، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين، وألا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

وَتُسَمَّى الواقعة والمنجية؛ لأنها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر. وجاء مرفوعاً: «من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب»^(١).

١ - ﴿تَبَرَّكَ﴾ تعالى وتعظيم عن صفات المخلوقين ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: في تصرفه الملك، والاستيلاء على كل موجود، وهو مالك الملك، يؤتبه من يشاء، وينزعه ممن يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المقدورات، أو: من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على الكمال.

٢ - ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿الذي﴾ قبله ﴿وَالْحَيَوَةَ﴾ أي: ما يصح بوجوده الإحساس، والموت: ضده. ومعنى خلق الموت والحياة: إيجاد ذلك المصحح وإعدامه. والمعنى: ﴿خلق﴾ موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليمتحنكم بأمره ونهيه فيما بين الموت الذي يعم الأمير والأسير، والحياة التي لا تفني بعليل ولا طبيب، فيظهر منكم ما علم أنه يكون منكم، فيجازيكم على عملكم، لا على علمه بكم ﴿أَيُّكُمْ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فالخالص: أن يكون لوجه الله.

(١) رواه الطبري وابن مردويه موقوفاً من حديث ابن مسعود. (الدر المنثور ٨/٢٣٢).

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ

والصواب: أن يكون على السّنة. والمراد: أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل، وسلّط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح. فما وراءه إلّا البعث والجزاء الذي لا بدّ منه. وقُدّم الموت على الحياة؛ لأنّ أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه، فُقُدّمَ لأنّه فيما يرجع إلى المسوق له الآيّة أهمُّ. ولَمَّا قُدّمَ الموتُ الذي هو أثر صفة القهر، على الحياة التي هي أثر اللطف، قُدّمَ صفة القهر على صفة اللطف بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل، ﴿الْغَفُورُ﴾ الستور الذي لا ييأس منه أهل الإساءة والزلل.

٣ - ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض. من: طابق التعلل: إذا خصفها طبقاً على طبق. وهذا وصف بالمصدر. أو: على ذات طبق. أو: على طوبقت ﴿طَبَاقًا﴾. وقيل: جمع: طبق، كجمل وجمال. والخطاب في: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ للرسول، أو: لكل مخاطب ﴿مِن تَفَوتٍ﴾ من تفوت حمزة، وعلي. ومعنى البنائين واحد، كالتعاهد والتعهد. أي: من اختلاف واضطراب. وعن السّدي: من عيب. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأنّ بعض الشيء يفوت بعضاً، ولا يلائمه. وهذه الجملة صفة لـ «طباقة». وأصلها ﴿ما ترى﴾ فيهنّ ﴿من تفاوت﴾. فوضع ﴿خلق الرحمن﴾ موضع الضمير، تعظيماً لخلقهنّ، وتنبيهاً على سبب سلامتهنّ من التفاوت، وهو: أنه خلق الرحمن، وأنه بياهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ﴾ رَدّه إلى السماء، حتّى يصحّ عندك ما أُخْبِرَ به بالمعينة، ولا تبقى معك شبهة فيه ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ صدوع وشقوق. جمع: فطر، وهو: الشقّ.

٤ - ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كرّر النظر مرّتين أي: ﴿كرتين﴾ مع الأولى. وقيل: سوى الأولى. فتكون ثلاث مرات. وقيل: لم يرد به الاقتصار على مرّتين، بل أراد به التكرير بكثرة. أي: كرّر نظرك، ودقّقه؛ هل ترى خللاً أو

يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿١﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٢﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسْأَلُونَ فِيهَا الْقَوْلَ ﴿٣﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٤﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ

عبياً. وجواب الأمر ﴿يَنْقَلِبُ﴾ يرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلاً، أو بعيداً مما تريد. وهو حال من البصر ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل مُعْيٍ، ولم تر فيها خلاً.

٥- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القريبى. أي: ﴿السماء الدنيا﴾ منكم ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ بكواكب مضيئة كإضاءة الصباح. والمصابيح: السرج. فسميت بها الكواكب. والناس يزيّنون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح. فقيل: ﴿ولقد زينا﴾ سقف الدار التي اجتمعتم فيها ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ أي: بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: لأعدائكم الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به. والرجوم: جمع رجم. وهو مصدر سمي به ما يرجم به. ومعنى كونها: ﴿رجوماً للشياطين﴾ أن ينفصل عنها شهاب كقبس يؤخذ من نار، فيقتل الجنّي، أو يخبله؛ لا إن الكواكب تزول عن أماكنها؛ لأنها قارّة في الفلك على حالها ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ للشياطين ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا.

٦- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك ﴿وَيُسْأَلُونَ فِيهَا الْقَوْلَ﴾ المرجع، جهنم.

٧- ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ طرحوا في جهنم، كما يطرح الخطب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ لجهنم ﴿شَهيقًا﴾ صوتاً منكراً، كصوت الحمير. شبه حسيستها المنكر الفظيع بالشهيق ﴿وَهِيَ تَفُورٌ﴾ تغلي بهم غليان الرجل بما فيه.

٨- ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ﴾ أي: تتميز، يعني: تتقطع، وتتفرق ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ على الكفار. فجعلت كالمغتظة عليهم استعارة لشدة غليانها بهم ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾

سَالَّمْ خَزَنَتَهَا ٱلَّذِي ٱتَّكَوْا نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ

جماعة من الكفار ﴿سَالَّمْ خَزَنَتَهَا﴾ مالك، وأعوانه من الزبانية، توبيخاً لهم: ﴿ٱلَّذِي ٱتَّكَوْا نَذِيرٌ﴾ رسولٌ يخوفكم من هذا العذاب.

٩ - ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأنه تعالى أزاح عنهم بيعة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ أي: فكذبناهم ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ مما يقولون من وعد، ووعد، وغير ذلك، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي: قال الكفار للمنذرين: ما أنتم إلا في خطأ عظيم. فالنذير بمعنى الإنذار. ثم وصف به منذروهم لغلوهم في الإنذار كأنهم ليسوا إلا إنذاراً. وجاز أن يكون هذا كلام الخزنة للكفار على إرادة القول. ومرادهم بالضلال: الهلاك. أو: سموا جزاء الضلال باسمه؛ كما سُمِّيَ جزاء السيئة والاعتداء سيئة واعتداء. ويسمى المشاكلة في علم البيان. أو: كلام الرسل لهم حكوه للخزنة؛ أي: قالوا لنا هذا فلم نقبله.

١٠ - ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ الإنذار سماع طالب الحق ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي: نعقله عقل متأمل ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في جملة أهل النار. وفيه دليل: على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان.

١١ - ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وبضيم الحاء يزيد، وعلي. فبعداً لهم عن رحمة الله وكرامته. اعترفوا أو جحدوا؛ فإن ذلك لا ينفعهم. وانتصابه على أنه مصدر وقع موقع الدعاء.

١٢ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ قبل معاينة العذاب ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: الجنة.

١٣ - ﴿وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ﴾ ظاهره الأمر بأحد الأمرين: الإسرار، والإجهار. ومعناه: ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما. روي:

إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾

أَنَّ مشركي مكة كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل بما قالوا فيه، ونالوا منه. فقالوا فيما بينهم: أسروا قولكم لثلاث يسمع إله محمد، فنزلت. ثم علّله بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بضمايرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلم به؟

١٤- ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ﴿مَنْ﴾: في موضع رفع بأنه فاعل يعلم ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أنكر ألا يحيط علماً بالمضمر، والمسر، والمجهر مَنْ خلقها، وصفته أنه: ﴿اللطيف﴾ أي: العالم بدقائق الأشياء ﴿الخبير﴾ العالم بحقائق الأشياء. وفيه إثبات خلق الأقوال، فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد. وقال أبو بكر بن الأصم، وجعفر بن حرب: ﴿مَنْ﴾ مفعول، والفاعل مضمر، وهو الله تعالى. فاحتالاً بهذا لنفي خلق الأفعال.

١٥- ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ لينة، سهلة، مذللة لا تمنع المشي فيها ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ جوانبها استدلالاً، واسترزاقاً، أو: جبالها، أو طرقها ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ أي: من رزق الله فيها ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: وإليه نشوركم فهو سائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

١٦- ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: مَنْ ملكوته ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ لأنها مسكن ملائكته، ومنها تنزل قضاياه، وكتبه، وأوامره، ونواهيها، فكأنه قال: ﴿أأمنتم﴾ خالق السماء وملكه. ولأنهم كانوا يعتقدون النسبة، وأنه في السماء، وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه. فقليل لهم على حسب اعتقادهم: ﴿أأمنتم من﴾ تزعمون أنه ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وهو متعال عن المكان ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب وتتحرك.

١٧- ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ حجارة ﴿أَنْ يُرْسِلَ﴾ بدل من اشتمال. وكذا ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ ﴿فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إذا رأيتم

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾
 وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾
 يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾
 آمَنَ هَذَا الَّذِي بَرَزْتُمْ إِنْ أَمْسَكَ
 رَزَقُهُ

المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم.

١٨- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قومك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي:

إنكاري عليهم؛ إذ أهلكتهم.

١٩- ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْخَسْفِ وَإِرْسَالِ الْخَاصِبِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَفَّتْ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممن إذا ضربن بها جنوبهن. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: معطوف على اسم الفاعل حملاً على المعنى. أي: يصففن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، أو: ﴿صَافَاتٍ﴾ وقابضات. واختيار هذا التركيب باعتبار: أَنَّ أَصْلَ الطَّيْرِ هُوَ صَفُّ الْأَجْنَحَةِ؛ لِأَنَّ الطَّيْرَانَ فِي الْهَوَاءِ كَالسَّابِحَةِ فِي الْمَاءِ، وَالْهَوَاءُ لِلطَّائِرِ كَالْمَاءِ لِلْسَّابِحِ. وَالْأَصْلُ فِي السَّابِحَةِ: مَدُّ الْأَطْرَافِ وَبَسْطُهَا. وَأَمَّا الْقَبْضُ فَطَارِيءٌ عَلَى الْبَسْطِ لِلإِسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى التَّحَرُّكِ. فَجِيءَ بِمَا هُوَ طَارِيءٌ بِلَفْظِ الْفِعْلِ، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُنَّ صَافَاتٍ، وَيَكُونُ مِنْهُنَّ الْقَبْضُ تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ؛ كَمَا يَكُونُ مِنَ السَّابِحِ ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ عَنِ الْوُقُوعِ عِنْدَ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ بِقُدْرَتِهِ. وَإِلَّا فَالْثَقِيلُ يَتَسَفَّلُ طَبْعاً وَلَا يَعْلُو. وَكَذَا لَوْ أَمْسَكَ حَفْظُهُ وَتَدْبِيرُهُ عَنِ الْعَالَمِ لَتَهَافَتَتِ الْأَفْلَاكُ. وَ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ مستأنف، وَإِنْ جَعَلَ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿يَقْبِضْنَ﴾ يَجُوزُ ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يَعْلَمُ كَيْفَ يَخْلُقُ، وَكَيْفَ يَدَبِّرُ الْعَجَائِبَ.

٢٠- ﴿آمَنَ﴾ مبتدأ خبره: ﴿هَذَا﴾. ويبدل من ﴿هَذَا﴾ ﴿الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾.

وَعَلَّ ﴿يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ رفع نعت لـ: ﴿جُنْدٌ﴾ محمول على اللفظ. والمعنى: من المشار إليه بالنصر غير الله تعالى؟ ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: ما هم ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾.

٢١- ﴿آمَنَ هَذَا الَّذِي بَرَزْتُمْ إِنْ أَمْسَكَ رَزَقُهُ﴾ ﴿أَمْ مِنْ﴾ يشار إليه، ويقال:

﴿هَذَا الَّذِي يَزُرُّكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ الله ﴿رَزَقُهُ﴾؟ وهذا على التقدير. ويجوز أن

بَلْ لَّجُؤًا فِي عُنُوتٍ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْغَلْطُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً

يكون إشارة إلى جميع الأوثان؛ لاعتقادهم: أنهم يحفظون من النوائب، ويُرزقون ببركة آلهتهم، فكأنهم الجند الناصر والرازق. فلما لم يتعظوا أضرب عنهم فقال: ﴿بَلْ لَّجُؤًا﴾ تمادوا ﴿فِي عُنُوتٍ﴾ استكبار عن الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ وشراد عنه لثقله عليهم فلم يتبعوه.

٢٢- ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: ساقطاً على وجهه يعثر كل ساعة ويمشي مُعْتَسِفاً وخبر ﴿مَنْ﴾: ﴿أَهْدَىٰ﴾ أرشد - فأَكَبَ مطاوع كَبَه، يقال: كَبَيْتُهُ فَأَكَبْتُ، مطاوع كَبَه - ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ مستوياً منتصباً، سالماً من العثور، والخرور ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على طريق مستو. وخبر ﴿مَنْ﴾ محذوف للدلالة ﴿أَهْدَىٰ﴾ عليه. وعن الكلبي: عُني بالملك: أبو جهل، وبالسوي: النبي ﷺ.

٢٣- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ خلقكم ابتداءً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خصّها؛ لأنها آلات العلم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم؛ لأنكم تشكرون بالله، ولا تخلصون له العبادة، والمعنى: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ شكراً قليلاً. و﴿مَا﴾ زائدة. وقيل: القلة عبارة عن العدم.

٢٤- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للحساب والجزاء.

٢٥- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكافرون للمؤمنين استهزاء: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدوننا به؟ يعني: العذاب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في كونه، فأعلمونا زمانه.

٢٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا الْغَلْطُ﴾ أي: علم وقت العذاب ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ خَوْفٌ ﴿مُّبِينٌ﴾ أبين لكم الشرائع.

٢٧- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: الوعد. يعني: العذاب الموعود ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً منهم.

سَيِّئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

وانتصابها على الحال ﴿سَيِّئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ساءت رؤية الوعد وجوههم، بأن علقتها الكآبة والمساءة، وغشيتها القترة والسواد ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي﴾ القائلون الزبانية ﴿كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء. أي: تسألون تعجيله، وتقولون: ائتنا بما تعدنا. أو: هو من الدعوى، أي: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون. وقرأ يعقوب ﴿تَدْعُونَ﴾.

٢٨ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ أي: أمانتي؛ كقوله: ﴿إِنْ أَمَرْتُ أَهْلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ من الأصحاب ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأخّر في آجالنا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ﴾ ينجي ﴿الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ مؤلم؟ كان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسينين: إما أن نهلك؛ كما تتمنون، فننقلب إلى الجنة، أو نرحم بالنصرة عليكم؛ كما نرجو، فأنتم ما تصنعون؟ من يجيركم وأنتم كافرون من عذاب النار؟ لا بد لكم منه.

٢٩ - ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ أي: الذي أدعوكم إليه الرحمن ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ صدقناه، ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فوضنا إليه أمورنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب - وبالياء: علي - ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ نحن أم أنتم.

٣٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً ذاهباً في الأرض، لا تناله الدلاء. وهو وصف بالمصدر، كعدل بمعنى: عادل ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ جارٍ يصل إليه من أراحه. وتليت عند ملحد فقال: يأتي بالمعول والمعين، فذهب ماء عينيه في تلك الليلة وعمي. وقيل: إنه محمد بن زكريا المتطبّب. زادنا الله بصيرة.

سُورَةُ الْقَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾

١ - ﴿ت﴾ الظاهر: أَنَّ المراد به هذا الحرف من حروف المعجم. وأما قول الحسن: إنه الدواة، وقول ابن عباس: إنه الحوت الذي عليه الأرض، واسمه يهموت، فمشكل؛ لأنه لا بد له من الإعراب سواء كان اسم جنس، أو اسم علم. فالسكون دليل على أنه من حروف التَّهْجِي ﴿وَالْقَلَمِ﴾ أي: ما كتب به اللوح، أو: قلم الملائكة، أو: الذي يكتب به الناس. أقسم به لما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما يسطره الحفظة، أو: ما يكتب من الخير من كتب. و﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية. وجواب القسم:

٢ - ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامه عليك بالنبوة وغيرها ف﴿أنت﴾ اسم ﴿ما﴾. وخبرها ﴿بِمَجْنُونٍ﴾. و﴿بنعمة ربك﴾: اعتراض بين الاسم والخبر. والباء في ﴿بنعمة﴾ يتعلّق بمحذوف. ومحلّه: النصب على الحال، والعامل فيها ﴿بمجنون﴾. وتقديره: ﴿ما أنت﴾ بمجنون منعماً عليك بذلك. ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي. وهو جواب قولهم:

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٣﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٤﴾ بِآيَاتِكُمُ الْفُتُونِ ﴿٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٦﴾ فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٧﴾ وَذُوا لُونْدَهْنُ فَيَذْهَبُونَ ﴿٨﴾

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

٣ - ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على احتمال ذلك والصبر عليه ﴿لَأَجْرًا﴾ لثواباً ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، أو: ﴿غير ممنون﴾ عليك.

٤ - ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل: هو ما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿خُذِ الْعَقْلَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن^(١). أي: ما فيه من مكارم الأخلاق. وإنما استعظم خلقه لأنه جاد بالكونين، وتوكل على خالقهما.

٥، ٦ - ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي: عن قريب ترى ويرون - وهذا وعد له ووعد لهم - ﴿بِآيَاتِكُمُ الْفُتُونِ﴾ المجنون لأنه فتن؛ أي: محن بالجنون. والباء مزيدة. أو: المفتون مصدر كالمعقول؛ أي: ﴿بِأَيْكُم﴾ الجنون. وقال الزجاج: الباء بمعنى: في. تقول: كنت ببلد كذا، أي: في بلد كذا. وتقديره: في ﴿أَيْكُم﴾ المفتون؛ أي: في أي الفريقين منكم المجنون، فريق الإسلام، أو فريق الكفر.

٧ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: هو أعلم بالمجانين على الحقيقة، وهم الذين ضلوا عن سبيله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بالعقلاء، وهم المهتدون.

٨ - ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ تهيج للتصميم على معاصاتهم. وقد أرادوا على أن يعبد الله مدةً والتهتهم مدةً، ويكفوا عنه غوائلهم.

٩ - ﴿وَذُوا لُونْدَهْنُ﴾ لو تلين لهم ﴿فَيَذْهَبُونَ﴾ فيلبنون لك. ولم ينصب بإضمار أن، وهو جواب التمني؛ لأنه عدل به إلى طريق آخر، وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف، أي: ﴿ف﴾ هم ﴿يذهنون﴾ يعني: فهم الآن يذهنون لطمعهم في إدهانك.

وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلْفٍ مِّمَّهِينَ ﴿١٠﴾ هَمَّازٌ مَّشَامٌ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ ﴿١٢﴾ عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

١٠ - ١٦ - ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلْفٍ﴾ كثير الحلف في الحقّ والباطل - وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف - ﴿مِّمَّهِينَ﴾ حقير في الرأي والتمييز، من المهانة، وهي: القلة، والحقارة. أو: كذاب؛ لأنه حقير عند الناس ﴿هَمَّازٌ﴾ عيَاب، طعان، مغتاب ﴿مَّشَامٌ بِنَمِيمٍ﴾ نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم. والنميم والنميمة: السعاية ﴿مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ بخيل. والخير: المال. أو: مناع أهل من الخير. وهو الإسلام. والمراد: الوليد بن المغيرة عند الجمهور. وكان يقول لبنيه العشرة: من أسلم منكم منعتهم رفدي ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز في الظلم حده ﴿أَثِيمٌ﴾ كثير الآثام ﴿عُتْلٌ﴾ غليظ جاف ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ما عدّ له من المثالب ﴿زَنِيمٌ﴾ دعي. وكان الوليد دعياً في قريش ليس من سنخهم^(١)، ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده. وقيل: بغت أمه ولم يعرف حتّى نزلت هذه الآية. والنطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها.

روي: أنه دخل على أمه وقال: إن محمداً وصفني بعشر صفات وجدت تسعاً في، فأما الزنيم فلا علم لي به. فإن أخبرتني بحقيقته، وإلا ضربت عنقك، فقالت: إن أباك عتّين، وخفت أن يموت فيصل ماله إلى غير ولده، فدعوت راعياً إلى نفسي فأنت من ذلك الراعي ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَا تَطْعُ﴾. أي: ولا تطعه مع هذه المثالب لـ ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ﴾ أي: ليساره وحظه من الدنيا. ويجوز أن يتعلق بما بعده. أي: لـ ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ كذب بآياتنا. يدلّ عليه ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالَ﴾ أساطيرُ الأولين. ولا يعمل فيه ﴿قَالَ﴾ لأنّ ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله. ﴿أَنْ﴾ حمزة، وأبو بكر. أي: الآن كان ذا مالٍ كذب؟ ﴿أَنْ﴾ شامي، ويزيد، ويعقوب، وسهل.

قالوا: لما عاب الوليد النبي ﷺ - كاذباً - باسم واحد، وهو: المجنون،

سَنَسِيئُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

سمّاه الله تعالى بعشرة أسماء صادقاً. فإن كان من عدله أن يجزي المسيء إلى رسول الله ﷺ بعشر، كان من فضله: أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه عشراً ﴿سَنَسِيئُهُ﴾ سنكويه ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ على أنفه مهانة له، وعلماً يعرف به. وتخصيص الأنف بالذكر؛ لأنّ الوسم عليه أبشع. وقيل: خطم بالسيف يوم بدر، فبقيت سمة على خرطوميه.

١٧، ١٨ - ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ امتحنا أهل مكة بالقحط والجوع حتى أكلوا الجيف والرّمم بدعاء النبي ﷺ حيث قال: «اللهم اشدّد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسني يوسف»^(١) ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ هم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة بقرية يقال لها: دزوان، وكانت على فرسخين من صنعاء، فكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقي على الفقراء. فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر، ونحن أولو عيال. فحلفوا: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ في السدف^(٢)، خفية عن المساكين. ولم يستثنوا في يمينهم. فأحرق الله جنتهم. وقال الحسن: كانوا كفاراً. والجمهور على الأول ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن ثمرها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصبح قبل انتشار الفقراء - حال من فاعل «يَصْرِمُنَّهَا» - ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ ولا يقولون: إن شاء الله. وسمي استثناء وإن كان شرطاً صورة؛ لأنّه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث: أنّ معنى قولك: لأخرجن إن شاء الله، و: لا أخرج إلا أن يشاء الله، واحد.

١٩، ٢٠ - ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ نزل عليها بلاء، قيل: أنزل الله تعالى عليها ناراً فأحرقتها ﴿وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ أي: في حال نومهم ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ فصارت الجنة ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ كالليل المظلم. أي: احترقت فاسودت. أو: كالصبح. أي:

(١) رواه البخاري (٨٠٤) ومسلم (٦٧٥ / ٢٩٤).

(٢) «السدف»: الظلمة.

فَنَادَا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرِّ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾

صارت أرضاً بيضاء بلا شجر. وقيل: كالمصرومة، أي: كأنها صرمت لهلاك ثمرها.

٢١، ٢٢ - ﴿فَنَادَا مُصْبِحِينَ﴾ نادى بعضهم بعضاً عند الصباح ﴿أَنْ أَغْدُوا﴾ باكروا ﴿عَلَى حَرِّكُمْ﴾ ولم يقل إلى حرثكم؛ لأن الغدو إليه ليصرموه كان غدواً عليه. أو: ضَمَّنَ الغدو معنى الإقبال. أي: فأقبلوا على حرثكم باكرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ مريدين صرامه.

٢٣، ٢٤ - ﴿فَأَنْطَلَقُوا﴾ ذهبوا ﴿وَهُمْ يَخْفَتُونَ﴾ يتسازون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا﴾ أي: الجنة. و﴿أَنْ﴾ مفسرة. وقرئ بطرحها بإضمار القول. أي: ﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ يقولون: ﴿لَا يَدْخُلْنَهَا﴾ ﴿الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾. والنهي عن دخول المسكين نهى عن التمكين. أي: لا تمكّنه من الدخول.

٢٥ - ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ﴾ على جد في المنع ﴿قَادِرِينَ﴾ عند أنفسهم على المنع. كذا عن نفطويه. أو الحرد: القصد والسرعة. أي: ﴿وَعَدُوا﴾ قاصدين إلى جنتهم بسرعتهم ﴿قَادِرِينَ﴾ عند أنفسهم على صرامها وزبي منفعتها عن المساكين. أو: هو علم للجنة، أي ﴿غَدُوا عَلَى﴾ تلك الجنة ﴿قَادِرِينَ﴾ على صرامها عند أنفسهم.

٢٦، ٢٧ - ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: جنتهم محترقة ﴿قَالُوا﴾ في بديهة وصولهم: ﴿إِنَّا لَضَالُونَ﴾ أي: ضللنا جنتنا، وما هي بها؛ لما رأوا من هلاكها. فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حرمانا خيرها؛ لجنائتنا على أنفسنا.

٢٨، ٢٩ - ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم وخيرهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ﴾ هلا تستثنون؛ إذ الاستثناء: تسبيح؛ لالتقائهما في معنى التعظيم لله؛ لأن الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له. وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم. أو: ﴿لَوْلَا﴾ تذكرون الله وتوبون إليه من خبث نيتكم. كأن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين، فتوبوا عن هذه العزيمة

قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا يُرِيدُنَا إِنَّا كُنَّا
طَائِفِينَ ﴿٣٣﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٤﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ
أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٦﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ
كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٨﴾

الخبثية، فعصوه، فعيّرهم. ولهذا ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فتكلموا بعد خراب البصرة بما كان يدعوهم إلى التكلم به أولاً، وأقروا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف، وترك الاستثناء، ونزّهوه عن أن يكون ظالماً.

٣٠، ٣١ - ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً بما فعلوا من الهرب من المساكين، ويحيل كل واحد منهم اللائمة على آخر. ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحد بقوله: ﴿قَالُوا يُرِيدُنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ﴾ بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء.

٣٢ - ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا﴾ وبالتشديد: مدني وأبو عمرو ﴿خَيْرًا مِنْهَا﴾ من هذه الجنة. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ طالبون منه الخير، راجون لعفوه. عن مجاهد: تابوا، فأبدلوا خيراً منها. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغني أنهم أخلصوا فأبدلهم بها جنة تسمى الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً.

٣٣ - ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: مثل ذلك العذاب الذي ذكرنا، عذاب الدنيا لمن سلك سبيلهم ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ﴾ أعظم منه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما فعلوا ما يفيضي إلى هذا العذاب.

٣٤ - ثم ذكر ما عنده للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلا التمتع الخالص بخلاف جنات الدنيا.

٣٥، ٣٦ - ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ استفهام إنكار على قولهم: لو كان ما يقول محمد حقاً فنحن نعطي في الآخرة خيراً مما يعطى هو ومن معه، كما في الدنيا. فقليل لهم ﴿أ﴾ نحيف في الحكم ﴿فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ كالكافرين؟ ثم قيل لهم على طريقة الالتفات: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج - وهو:

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا بِلَاغَةٍ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَأَلْتُمُوهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ

التسوية بين المطيع والعاصي - كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم.

٣٧، ٣٨ - ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ من السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ تقرأون في ذلك الكتاب ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: أن ما تختارونه وتشتهونه لكم. والأصل: تدرسون أن لكم ما تختارون - بفتح أن - لأنه مدروس لوقوع الدرس عليه، وإنما كسرت لمجيء اللام. ويجوز أن يكون حكاية للمدروس، كما هو كقوله: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ * سَأَلْتُ عَلَى نُوحٍ ﴿[الصفات: ٧٨-٧٩] وتخير الشيء واختاره: أخذ خيره.

٣٩، ٤٠ - ﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا﴾ عهود مؤكدة بالإيمان ﴿بِلَاغَةٍ﴾ نعت ﴿إيمان﴾. ويتعلق ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ﴾ ببلاغة. أي: أنها تبلغ ذلك اليوم، وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم. أو بالمقدر في الظرف. أي: هي ثابتة لكم علينا ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لا نخرج عن عهدها إلا يومئذ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون - ﴿إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ﴾ به لأنفسكم. وهو جواب القسم؛ لأن معنى: ﴿أَمْ لَكُمْ إيمان علينا﴾ أم أقسمنا لكم بإيمان مغلفة متناهية في التوكيد ﴿سَأَلْتُمُوهُم﴾ أي: المشركين ﴿أَيُّهُمْ بِذَلِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل بأنه يكون ذلك.

٤١ - ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: ناس يشاركونهم في هذا القول، ويذهبون مذهبهم فيه؟ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم؛ يعني: أن أحداً لا يسلم لهم هذا، ولا يساعدهم عليه، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد لهم به عند الله، ولا زعيم لهم يضمن لهم من الله بهذا.

٤٢ - ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ ناصب الظرف ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ أو: اذكر مضمراً، والجمهور على أن الكشف عن الساق عبارة عن شدة الأمر وصعوبة الخطب. فمعنى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يوم يشتد الأمر، ويصعب، ولا كشف ثمة

وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾

ولا ساق، ولكن كنى به عن الشدة لأنهم إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق. وهذا كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلوله؛ ولا يد ثمة ولا غل، وإنما هو كناية عن البخل. وأما من شبهه فلضيق عطنه، وقلة نظره في علم البيان. ولو كان الأمر كما زعم المشبه لكان من حق الساق أن يعرف؛ لأنها ساق معهودة عنده ﴿وَيَدْعُونَ﴾ أي: الكفار ثمة ﴿إِلَى الشُّجُودِ﴾ لا تكليفاً، ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك؛ لأن ظهورهم تصوير كصياصي^(١) البقر لا تنشي عند الخفض والرفع.

٤٣ - ﴿خَشِيعَةً﴾ ذليلة - حال من الضمير في ﴿يُدْعَوْنَ﴾ - ﴿أَبْصَرُهُمْ﴾. أي: ﴿يُدْعَوْنَ﴾ في حال خشوع أبصارهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم صغار ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ﴾ على ألسن الرسل ﴿إِلَى الشُّجُودِ﴾ في الدنيا ﴿وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ أي: وهم أصحاء، فلا يسجدون. فكذاك منعوا عن السجود ثمة.

٤٤ - ﴿فَذَرْنِي﴾ يقال: ذرني وإياه أي: كله إليّ فإنني أكفيكه ﴿وَمَنْ يُكَذِّبُ﴾ - معطوف على المفعول، أو مفعول معه - ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ بالقرآن. والمراد: كل أمره إليّ، وخلّ بيني وبينه، فإنني عالم بما ينبغي أن يفعل به، مطبق له. ولا تشغل قلبك بشأنه، وتوكل عليّ في الانتقام منه. تسلياً لرسول الله ﷺ، وتهديداً للمكذّبين ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سندنيهم من العذاب درجة درجة. يقال: استدرجه إلى كذا؛ أي: استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه. واستدراج الله تعالى العصاة: أن يرزقهم الصحة والنعمة، فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج. قيل: كلما جدّدوا معصية جدّدنا لهم نعمة، وأنسيناهم شكرها. قال ﷺ: «إذا رأيت الله تعالى ينعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج»^(٢) وتلا الآية.

(١) «الصياصي»: جمع الصيّصة؛ وهي قَرْن البقر.

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (١٠٧٣).

وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ سَأَلْتَهُمُ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عَنْدهُمْ أَلْفَيْبٌ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَصْبَحَ لِلْمُكْرِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْحَوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْطُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَذَرِكُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَنِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾

٤٥ - ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ وأمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قوي شديد. فسمى إحسانه، وتمكينه كيداً، كما سماه استدراجاً، لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك. والأصل: أن معنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذ من جهة الأمن. ولا يجوز أن يسمى الله كائداً وماكراً ومُستدراجاً.

٤٦ - ﴿أَمْ سَأَلْتَهُمُ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ﴾ غرامة ﴿مُثْقَلُونَ﴾ فلا يؤمنون؟ استفهام بمعنى النفي. أي لست تطمع أجراً على تبليغ الوحي فيثقل عليهم ذلك، فيمتنعوا لذلك.

٤٧ - ﴿أَمْ عَنْدهُمْ أَلْفَيْبٌ﴾ اللوح المحفوظ - عند الجمهور - ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون به.

٤٨ - ﴿فَأَصْبَحَ لِلْمُكْرِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم، وتأخير نصرتك عليهم؛ لأنهم وإن أمهلوا لم يمهلوا ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْحَوْتِ﴾ كيونس - عليه السلام - في العجلة والغضب على القوم حتى لا تبطل ببلائه. والوقف على الحوت؛ لأن ﴿إِذْ﴾ ليس بظرف؛ لما تقدمه؛ إذ النداء طاعة، فلا ينهي عنه. بل مفعول محذوف. أي: اذكر ﴿إِذْ نَادَى﴾ دعا ربه في بطن الحوت بـ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ﴿وَهُوَ مَكْطُومٌ﴾ مملوء غيظاً. من: كظم السقاء؛ إذا ملاه.

٤٩ - ﴿لَوْلَا أَنْ تَذَرِكُمْ نِعْمَةً﴾ رحمة ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه، وقبول عذره ﴿لَنِذَ﴾ من بطن الحوت ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بالفضاء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ معاتب بزلته. لكنه رحم، فنبذ غير مذموم.

٥٠ - ﴿فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ﴾ اصطفاه لدعائه وعذره ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المستكملين لصفات الصلاح، ولم تبق له زلة. وقيل: من الأنبياء. وقيل: من الأنبياء، وقيل: من المرسلين. والوجه هو الأول؛ لأنه كان مرسلًا ونبياً قبله

وَأَن يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ لَزِقُنَاكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَنَسْمَعَهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

لقوله تعالى: ﴿وَأَن يُوْثِقَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ الآية [الصفات: ١٣٩ - ١٤٠].

٥١، ٥٢ - ﴿وَأَن يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ لَزِقُنَاكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ ويفتح الياء، مدني. ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقلة واللام علمها. زلقه، وأزلقه: أزاله عن مكانه. أي: قارب الكفار من شدة نظرهم إليك شزراً بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك، أو يهلكوك لشدة حقهم عليك. وكانت العين في بني أسد. فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه: لم أر كالיום مثله؛ إلا هلك. فأريد بعض العيانيين على أن يقول في رسول الله مثل ذلك، فقال: لم أر كالיום مثله رجلاً، فعصمه الله عن ذلك. وفي الحديث: «العين حق، وإن العين لتدخل الجمل القدر، والرجل القبر»^(١). وعن الحسن - رضي الله عنه -: رقية العين هذه الآية ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حسداً على ما أوتيت من النبوة: ﴿إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ إن محمداً ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ حيرة في أمره، وتنفيراً عنه، ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس. يعني: أنهم جنتوه لأجل القرآن. وما القرآن إلا موعظة للعالمين. فكيف يجنن من جاء بمثله؟ وقيل: ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: ذكره ﷺ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ شرف ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ فكيف ينسب إليه الجنون؟!

* * *

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٤٢١٤) وانظره في فيض القدير (٥٧٤٨) وتذكرة الموضوعات (ص ٢٠٧).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انْقَرَعَتْ قَارِعَةُ ﴿٤﴾ فَأَمَّا

١ - ﴿الْحَاقَّةُ﴾ الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء؛ التي هي آتية لا ريب فيها. من: حق، يحق - بالكسر - أي: وجب.

٢ - ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ مبتدأ وخبر. وهما خبر الحاقة. والأصل: ﴿الحاقة﴾ ما هي؟ أي: أي شيء هي؟ تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها. أي: حقها أن يستفهم عنها لعظمتها. فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل.

٣ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأي شيء أعلمك ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ يعني: أنك لا علم لك بكنهها، ومدى عظمتها؛ لأنه من العظم والشدة بحيث لا تبلغه دراية المخلوقين. ﴿وما﴾ رفع بالابتداء. و﴿أدراك﴾ الخبر. والجملة بعده في موضع نصب لأنها مفعول ثانٍ لـ: «أدري».

٤ - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انْقَرَعَتْ قَارِعَةُ﴾ فوضعت القارعة موضعها لأنهما من أسماء القيامة. وسميت بها؛ لأنها تقرر الناس بالأفزع، والأهوال.

٥، ٦ - ولما ذكرها، وفخمها؛ أتبع ذكر ذلك من كذب بها، وما حل بهم بسبب التكذيب، تذكيراً لأهل مكة، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم: ﴿فَأَمَّا

نُمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيْنَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْغَاطِقَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَا رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾

نُمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة. واختلف فيها. فقيل: الرجة. وقيل: الصيحة. وقيل: الطاغية - مصدر كالعافية - أي: بطغيانهم. ولكن هذا لا يطابق قوله: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ أي: بالدبور؛ لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصبا وأهلك عَاد بالدبور»^(١) ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت. من: الصَّرة: الصيحة. أو: باردة، من: الصَّر؛ كأنها التي كَرَّر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديد العصف. أو: عتت على خزانها فلم يضبطوها بإذن الله، غضباً على أعداء الله.

٧ - ﴿سَخَرَهَا﴾ سلطها ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيْنَةً أَيَّامٍ﴾. وكان ابتداء العذاب يوم الأربعاء آخر الشهر إلى الأربعاء الأخرى ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة لا تنقطع. جمع: حاسم؛ كشهود. تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كَرَّة بعد أخرى حتى ينحسم. وجاز أن يكون مصدرأ. أي: تحسم حُسُومًا؛ بمعنى: تستأصل استئصالاً ﴿فَتَرَى﴾ أيها المخاطب ﴿الْقَوْمَ فِيهَا﴾ في مهابها، أو: في الليالي والأيام ﴿صَرْعَى﴾ حال، جمع صريع ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال أخرى ﴿أُعِجَازُ﴾ أصول ﴿نَخْلٍ﴾ جمع: نخلة ﴿خَاوِيَةٍ﴾ ساقطة أو بالية.

٨ - ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ نفس ﴿بَاقِيَةٍ﴾. أو: ﴿مِنْ﴾ بقاء؛ كالطاغية بمعنى: الطغيان.

٩ - ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ تقدّمه من الأمم. ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ بصريّ، وعليّ. أي: ومن عنده من تَبَّاعه ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ قرى قوم لوط، فهي اتفتكت. أي: انقلبت بهم ﴿بِالْغَاطِقَةِ﴾ بالخطأ، أو بالفعللة. أو: بالأفعال ذات الخطأ العظيم.

١٠ - ﴿فَعَصَا﴾ أي: قوم لوط ﴿رَسُولُ رَبِّهِمْ﴾ لوطاً ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أَذْنٌ وَرَعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

شديدة زائدة في الشدة؛ كما زادت قبائحهم في القبح.

١١، ١٢ - ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ ارتفع وقت الطوفان على أعلى جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً ﴿حَمَلْنَاكِ﴾ أي: آباءكم ﴿فِي الْبَارِيَةِ﴾ في سفينة نوع عليه السلام ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الفعلة. وهي: إنجاء المؤمنين، وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عظة وعبرة ﴿وَتَعِيَهَا﴾ وتحفظها ﴿أَذْنٌ﴾ بضم الذال، غير نافع ﴿وَرَعِيَةٌ﴾ حافظة لما تسمع. قال قتادة: وهي: أذن عقلت عن الله، وانتفعت بما سمعت.

١٣ - ١٥ - ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى. ويموت عندها الناس. والثانية يبعثون عندها ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رفعتا عن موضعهما ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ دقتا وكسرتا، أي: ضرب بعضها ببعض حتى تندق، وترجع كثيراً مهيلاً، هباءً منبثاً، ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذ ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ نزلت النازلة، وهي: القيامة. وجواب ﴿إِذَا﴾: ﴿وَقَعَتِ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا﴾.

١٦، ١٧ - ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ فتحت أبواباً ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ مسترخية، ساقطة القوة، بعد ما كانت محكمة ﴿وَالْمَلَكُ﴾ للجنس بمعنى الجمع. وهو أعم من الملائكة ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ جوانبها. واحداً: رجاً، مقصور؛ لأنها إذا انشقت وهي مسكن الملائكة فيلجؤون إلى أطرافها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملك الذين على أرجائها ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ﴾ منهم. واليوم تحمله أربعة. وزيدت أربعة أخرى يوم القيامة. وعن الضحاك: ثمانية صفوف. وقيل: ثمانية أصناف.

١٨ - ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال. شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله. ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرة، وحال كانت تخفى في الدنيا. وبالباء: كوفي غير عاصم. وفي الحديث: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات. فأما عرضتان: فجداً ومعاذير. وأما الثالثة: فعندها تطير

فَأَمَّا مَنْ أَوْفَكَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَةَ ﴿٢٠﴾
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

الصحف، فيأخذ الفائز كتابه يمينه، والهالك كتابه بشماله»^(١).

١٩ - ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل للعرض. ﴿مَنْ أَوْفَكَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ، فَيَقُولُ﴾ سروراً به لما يرى فيه من الخيرات، خطاباً لجماعته^(٢): ﴿هَؤُلَاءِ﴾ اسم للفعل. أي: خذوا ﴿أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ﴾ تقديره: ﴿هاؤم﴾ كتابي ﴿أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. والعامل في: ﴿كتابيه﴾ اقرؤوا عند البصريين؛ لأنهم يعملون الأقرب. والهاء في ﴿كتابيه﴾ و﴿حسابيه﴾ و﴿ماليه﴾ و﴿سلطانيه﴾ للسكت. وحقها أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل. وقد استحب إثارة الوقف إثارةً لشباتها؛ لثبوتها في المصحف.

٢٠ - ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ علمت. وإنما أُجْرِيَ الظن مجرى العلم؛ لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام، ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلماً يخلو عن الوسوس والخواطر، وهي تفضي إلى الظنون، فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلو عنه ﴿أَفْ مُلْكِي حِسَابِيَةَ﴾ معاين حسابي.

٢١ - ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ذات رضا يرضى بها صاحبها، ك: لابن.

٢٢ - ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ رفيعة المكان. أو رفيعة الدرجات. أو رفيعة المباني والقصور. وهو خبر بعد خبر.

٢٣ - ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ثمارها قريبة من يُريدها ينالها، القاعد كالقائم.

٢٤ - يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أكلاً وشراباً هنيئاً، لا مكروه فيهما، ولا أذى. أو: هنتم هنيئاً - على المصدر - ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ فما قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْفَالِيَةِ﴾ الماضية من أيام الدنيا. وعن ابن عباس: هي في الصائمين. أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتكم عن الأكل والشرب لوجه الله.

(١) رواه أحمد (٤/٤١٤) والترمذي (٢٤٢٥) وابن ماجه (٤٢٧٧).

(٢) في الأصل المخطوط: لجماعة.

وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَأَرْثُ كِتَابِيَّةً ﴿٢٥﴾ وَلَرَأَىٰ مَا حِسَابِيَّةً ﴿٢٦﴾ يَلَيِّنَهَا
كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهٖ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ خُدُوهُ فَتُلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ لَجَّجِمِ
صَلْوَهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾
وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾

٢٥ - ٢٩ - ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَأَرْثُ كِتَابِيَّةً﴾ لما يرى فيه من
الفضائح ﴿وَلَرَأَىٰ مَا حِسَابِيَّةً﴾ أي: ياليتني لم أعلم ما حسابي ﴿يَلَيِّنَهَا﴾ ياليت
الموتة التي متها ﴿كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ﴾ أي: القاطعة لأمري. فلم أبعث بعدها، ولم
ألق ما ألقى ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهٖ﴾ أي: لم ينفعني ما جمعته في الدنيا. فـ ﴿مَا﴾
نفي، والمفعول محذوف. أي: شيئاً ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ ملكي، وتسلطي على
الناس، وبقيت فقيراً ذليلاً. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : ضلّت عني
حجتي؛ أي: بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا.

٣٠ - ٣٢ - فيقول الله تعالى لخزنة جهنم: ﴿خُدُوهُ فَتُلُوهُ﴾ أي: اجمعوا يديه إلى
عنقه ﴿ثُمَّ لَجَّجِمِ صَلْوَهُ﴾ أدخلوه - يعني: ثم لا تصلوه إلا الجحيم، وهي: النار
العظمى. أو نصب الجحيم بفعل يفسره ﴿صَلْوَهُ﴾ - ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ طولها
﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ - بذراع الملك، عن ابن جريج. وقيل: لا يعرف قدرها إلا الله -
﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ فأدخلوه. والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم
الجحيم على التصلية.

٣٣، ٣٤ - ﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليل. كأنه قيل: ماله يعذب هذا العذاب الشديد؟
فأجيب بأنه ﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ولا يحضّر على طعام المسكين ﴿على بذل طعام
المسكين. وفيه إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث، لأنّ الناس لا يطلبون من
المساكين الجزاء فيما يطعمونهم، وإنما يطعمونهم لوجه الله، ورجاء الثواب في
الآخرة، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم. أي: أنه مع
كفره لا يحرّض غيره على إطعام المحتاجين. وفيه دليل قويّ على عظم جرم
حرمان المسكين؛ لأنه عطفه على الكفر، وجعله دليلاً عليه، وقرينةً له، ولأنّه
ذكر الحضّر دون الفعل ليعلم: أنّ تارك الحضّر إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل
أحقّ. وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه -: أنّه كان يحضّر امرأته على تكثير المرق

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾

لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلنخلع نصفها بهذا. وهذه الآيات ناطقة على أن المؤمنين يرحمون جميعاً، والكافرون لا يرحمون؛ لأنه قسم الخلق صنفين، فجعل صنفاً منهم أهل اليمين، ووصفهم بالإيمان فحسب بقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حَسَابِيهِ﴾، وصنفاً منهم أهل الشمال، ووصفهم بالكفر بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾. وجاز أن الذي يعاقب من المؤمنين إنما يعاقب قبل أن يؤتى كتابه بيمينه.

٣٥- ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ قريب يدفع عنه، ويحترق له قلبه.

٣٦- ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ﴾ غسالة أهل النار. فغسلين من: الغسل. والنون زائدة. وأريد هنا: ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم.

٣٧- ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ الكافرون أصحاب الخطايا. وخطيء الرجل: إذا تعمّد الذنب.

٣٨، ٣٩- ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ من الأجسام والأرض والسماء ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ من الملائكة والأرواح. فالحاصل: أنه أقسم بجميع الأشياء.

٤٠-٤٢- ﴿إِنَّهُ﴾ أي: إن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: محمد ﷺ، أو: جبريل عليه السلام. أي: يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تدعون ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ كما تقولون ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾. وبالبايع فيهما: مكّي، وشامي، ويعقوب، وسهل. ويتخفيف الذال: كوفي غير أبي بكر. والقلة في معنى العدم. يقال: هذه أرض قلما تنبت؛ أي: لا تنبت أصلاً. والمعنى: لا تؤمنون، ولا تذكرون البتة.

٤٣- ﴿نَزِيلٌ﴾ هو ﴿تنزيل﴾. بياناً؛ لأنه قول رسول نزل عليه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَذَكَّرُ * لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّكُمْ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّكُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

٤٤ - ٤٦ - ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ولو ادّعى علينا شيئاً لم نقله ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام. فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول. وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته. وخصّ اليمين لأنّ القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره. وإذا أراد أن يوقعه في جيده، وأن يكفحه بالسيف - وهو أشدّ على المصبور لنظره إلى السيف - أخذ بيمينه. ومعنى ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ لأخذنا بيمينه. وكذا ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ لقطعنا وتينه، وهو نياط القلب إذا قطع مات صاحبه.

٤٧ - ﴿فَمَا مِنْكُمْ﴾ الخطاب للناس، أو: للمسلمين ﴿مِّنْ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿عَنْهُ﴾ عن قتل محمد ﷺ. وجمع ﴿حَاجِزِينَ﴾ وإن كان وصف ﴿أَحَدٍ﴾؛ لأنّه في معنى الجماعة. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٤٨ - ٥١ - ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَتَذَكَّرُ﴾ لعظة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ * وإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّكُمْ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ به، المكذّبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ لعين اليقين، ومحض اليقين.

٥٢ - ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبح الله بذكر اسمه العظيم وهو قوله: سبحان الله.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾

١ - ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ هو النضر بن الحارث. قال: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] أو: هو النبي ﷺ، دعا بنزول العذاب. ولَمَّا ضُمِّنَ سَأَلَ معنى دعا عُدِّي تعديته كأنه قيل: دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ من قولك: دعا بكذا: إذا استدعاه، وطلبه. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِتْكَهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥]. و﴿سَأَلَ﴾ بغير همز، مدنيّ وشاميّ. وهو من السؤال أيضاً إلا أنه خَفَّفَ بالتلين. و﴿سَائِلٌ﴾ مهموز إجماعاً.

٢، ٣ - ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صفة لعذاب. أي ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ كائن ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ لذلك العذاب ﴿دَافِعٌ﴾ رادّ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ متّصل بواقع. أي: واقع من عنده. أو: بدافع. أي: ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي: مصاعد السماء للملائكة. جمع: مَعْرَج، وهو: موضع العروج.

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿١﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٢﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٣﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٤﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِيلِ ﴿٥﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٦﴾

٤ - ثم وصف المصاعد، وبعد مداها في العلو والارتفاع، فقال: ﴿تَعْرُجُ﴾ تصعد، وبالباء علي ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ أي: جبريل عليه السلام. خصه بالذكر بعد العموم لفضله وشرفه. أو: خلق هم حفظة على الملائكة، كما أن الملائكة حفظة علينا. أو: أرواح المؤمنين عند الموت ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه ومهبط أمره ﴿فِي يَوْمٍ﴾ من: صلة ﴿تَعْرُجُ﴾ ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سني الدنيا لو صعد فيه غير الملك. أو: من: صلة ﴿واقِعَ﴾. أي: يقع ﴿فِي يَوْمٍ﴾ طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم. وهو يوم القيامة. فإما أن يكون استطالة له لشدة على الكفار، أو لأنه على الحقيقة كذلك. فقد قيل: فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة. وما قدر ذلك على المؤمنين إلا كما بين الظهر والعصر.

٥ - ﴿فَاصْبِرْ﴾ متعلق بـ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ لأن استعجال النضر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ والتكذيب بالوحي. وكان ذلك مما يضجر رسول الله ﷺ فأمر بالصبر عليه ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ بلا جزع، ولا شكوى.

٦، ٧ - ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿يَرَوْنَهُ﴾ أي: العذاب، أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ مستحيلًا ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ كائناً لا محالة. فالمراد بالبعيد: البعيد من الإمكان، وبالقريب: القريب منه.

٨ - نُصِبَ ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ بـ ﴿قَرِيبًا﴾. أي: يمكن في ذلك اليوم. أو: هو بدل عن ﴿فِي يَوْمٍ﴾ فيمن علقه بـ ﴿واقِعَ﴾ ﴿كَالْهَلِيلِ﴾ كدردي الزيت، أو: كالفضة المذابة في تلونها.

٩ - ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً، لأن الجبال ﴿جُدُدٌ بَيْضٌ، وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا، وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] فإذا بست وطيرت في الجوّ أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ يَنْبِيءُ ﴿١١﴾
وَصَنْجَبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّونَهَا ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا
لَأُظْلَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوْىِ ۚ تَدْعُوا ﴿١٦﴾

١٠ - ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ قريب عن قريب لاشتغاله بنفسه. وعن البرقي، والبرجمي: بضم الياء. أي: ﴿لَا يُسَال﴾ قريب عن قريب. أي: لا يطالب به، ولا يؤخذ بذنبه.

١١ - ١٤ - ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ صفة. أي: ﴿حِيمًا﴾ مبصرين معرفين إياهم. أو: مستأنف. كأنه لما قال: ﴿وَلَا يُسَال حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ قيل: لعله لا يبصره. فقيل: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا [من تساؤلهم] ^(١). والواو ضمير الحميم الأول. و﴿هُمْ﴾ ضمير الحميم الثاني. أي: يبصر الأحماء الأحماء، فلا يخفون عليهم. وإنما جمع الضميران، وهما للحميمين؛ لأن فصيلًا يقع موقع الجمع ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ﴾ يتمنى المشرك. وهو مستأنف. أو: حال من الضمير المرفوع، أو المنصوب من: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ﴾ وبالفتح مدني، وعليّ على البناء، للإضافة إلى غير متمكن ﴿يَنْبِيءُ وَصَنْجَبَتِهِ﴾ وزوجته ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرته الأدين ﴿الَّتِي تُتَوَبُّونَهَا﴾ تضمه انتهاء إليها. وبغير همز يزيد ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الناس ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ الافتداء. عطف على ﴿يَفْتَدِي﴾.

١٥ - ﴿كَلَّا﴾ ردع للمجرم عن الودادة، وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء، ولا ينجيه من العذاب ﴿إِنَّهَا﴾ إن النار. ودلّ ذكر العذاب عليها. أو: هو ضمير مبهم ترجم عنه الخبر. أو: ضمير القصة ﴿لَأُظْلَىٰ﴾ علم للنار.

١٦ - ﴿نَزَّاعَةً﴾ حفص، والمفضل، على الحال المؤكدة. أو: على الاختصاص، للتهويل. وغيرهما بالرفع؛ خبر بعد خبر لـ: ﴿إِنَّ﴾. أو على: هي نزاعة ﴿لِّلشَّوْىِ ۚ﴾ لأطراف الإنسان كاليدن والرجلين. أو: جمع: شواة. وهي: جلدة الرأس، تنزعها نزعاً فتفرقها، ثم تعود إلى ما كانت.

١٧، ١٨ - ﴿تَدْعُوا﴾ بأسمائهم يا كافر! يا منافق! إليّ إليّ، أو: تهلك. من

(١) في الأصل المخطوط: لتساؤلهم.

مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾
وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ
فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَرْغُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ
عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾

قولهم: دعاك الله؛ أي: أهلكك. أو: لما كان مصيره إليها جعلت كأنها دعته ﴿مَنْ أَذْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة ﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَى﴾ فجعله في وعاء ولم يؤدِّ حق الله منه.

١٩ - ٢١ - ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أريد به الجنس، ليصح استثناء المصلين منه. ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾. عن ابن عباس رضي الله عنهما: تفسيره ما بعده: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. والهلوع: سرعة الجزع عند مس المكره، وسرعة المنع عند مس الخير. وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلباً عن الهلع، فقال: قد فسرته الله تعالى. ولا يكون تفسير أبيين من تفسيره. وهو الذي إذا ناله شرٌّ أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خيرٌ بخل به ومنعه الناس. وهذا طبعه. وهو مأمور بمخالفة طبعه، وموافقة شرعه. والشرُّ: الضرُّ، والفقر، والخير: السعة، والغنى، أو: المرض، والصحة.

٢٢، ٢٣ - ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ ﴿أي: صلواتهم الخمس دَائِمُونَ﴾ أي: يحافظون عليها في مواقيتها. عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٢٤، ٢٥ - ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يعني: الزكاة؛ لأنها مقدرة معلومة. أو: صدقة يوظفها الرجل على نفسه، يؤدِّيها في أوقات معلومة ﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمَرْغُومِ﴾ الذي يتعفف عن السؤال، فيحسب غنياً، فيحرم.

٢٦ - ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، وهو يوم القيامة.

٢٧، ٢٨ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون. واعترض بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ بالهمز سوى أبي عمرو. أي: لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه، وينبغي أن يكون مترجماً بين الخوف والرجاء.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْؤُسِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾
فَمَنْ أَبْغَىٰ وِرْلَهُ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا قُلْكُم مَّهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾

٢٩ ، ٣٠ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْؤُسِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ نسايتهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: إمامتهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على ترك الحفظ.

٣١ - ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وِرْلَهُ﴾ طلب منكها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الزوجات، والمملوكات ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام. وهذه الآية تدل على حرمة المتعة، ووطء الذكر، والبهائم، والاستمناء بالكف.

٣٢ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ﴾ لأمانتهم: مكّي. وهي تناول أمانات الشرع، وأمانات العباد - ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أي: عهودهم. ويدخل فيها: عهود الخلق، والنذور، والأيمان ﴿رِعُونَ﴾ حافظون، غير خائنين، ولا ناقضين. وقيل: الأمانات ما تدل عليه العقول، والعهد: ما أتى به الرسول.

٣٣ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ﴾: حفص وسهل ويعقوب ﴿قَائِمُونَ﴾ يقيمونها عند الحكام بلا ميل إلى قريب وشريف، وترجيح للقوي على الضعيف، إظهاراً للصلاة في الدين، ورغبة في إحياء حقوق المسلمين.

٣٤ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ كثر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم. أو: لأن إحداهما للفرائض، والأخرى للنوافل. وقيل: الدوام عليها: الاستكثار منها. والمحافظة عليها: ألا تضيع عن مواقيتها. أو: الدوام عليها: أداؤها في أوقاتها. والمحافظة عليها: حفظ أركانها، وواجباتها، وسنتها، وآدابها.

٣٥ - ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أصحاب هذه الصفات ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾. هما خبران.

٣٦ ، ٣٧ - ﴿قَالَ﴾ كتب مفصلاً أتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا قُلْكُم مَّهْطِعِينَ﴾ نحوك. معمول ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين. حال من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ عن يمين النبي ﷺ، وعن شماله ﴿عِزِينَ﴾ حال. أي: فرقا شتى. جمع: عزة. وأصلها: عزوة، كأن كل فرقة تعتري إلى غير من تعتري إليه الأخرى، فهم مفترقون.

أَيُّطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُنْقِصُ مِنْهُ الْمُسْقِيَّ وَالْمُغْرِبَ ۖ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ۖ كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَسُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

٣٨ - كان المشركون يحتفون حول النبي ﷺ حلقاً حلقاً، ورفقاً رفقاً، يستمعون ويستهنئون بكلامه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم. فنزلت: ﴿أَيُّطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء سوى المفضل ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كالْمُؤْمِنِينَ.

٣٩ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من النطفة المذرة، ولذلك أبهم إشعاراً بأنه منصب يستحيا من ذكره. فمن أين يتشرفون، ويدعون التقدم، ويقولون: لندخل الجنة قبلهم؟ أو معناه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ من نطفة، كما خلقنا بني آدم كلهم: وَمِنْ حُكْمِنَا: ألا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان. فَلِمَ يطمع أن يدخلها من لا إيمان له؟

٤٠، ٤١ - ﴿وَلَا أُنْقِصُ مِنْهُ الْمُسْقِيَّ وَالْمُغْرِبَ﴾ مطالع الشمس ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ على أن نهلكهم ونأتي بخلقٍ أمثل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بعاجزين.

٤٢، ٤٣ - ﴿فَذَرَهُمْ﴾ فدع المكذبين ﴿يَحْضُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ فيه العذاب ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَهُمْ﴾ ﴿يُخْرِجُونَ﴾ بفتح الياء، وضم الراء سوى الأعشى ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿سِرَاعًا﴾ جمع: سريع. حال. أي: إلى الداعي ﴿كَانَتْهُمْ﴾ حال ﴿إِلَى نُصْبٍ﴾ شامي، وحفص، وسهل. ﴿نُصْبٍ﴾ المفضل. ﴿نُصْبٍ﴾ غيرهم. وهو: كل ما نصب وعبد من دون الله ﴿يُؤْفَسُونَ﴾ يسرعون.

٤٤ - ﴿خَشِيعَةً﴾ حال من ضمير ﴿يُخْرِجُونَ﴾. أي: ذليلة ﴿أَبْصَرُهُمْ﴾ يعني: لا يرفعونها لذلتهم ﴿تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ﴾ يغشاهم هوان ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وهم يكذبون به.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُخَوِّضَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ

١- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ قيل: معناه بالسريانية: الساكن ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ﴾ خوف. أصله: بأن أنذر. فحذف الجار وأوصل الفعل. ومحلّه عند الخليل جرّ، وعند غيره نصب. أو ﴿أَنْ﴾ مفسّرة بمعنى: أي؛ لأنّ في الإرسال معنى القول ﴿قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب الآخرة، أو: الطوفان.

٢- ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ خوف ﴿مُبِينٌ﴾ أبين لكم رسالة الله بلغة تعرفونها.

٣- ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه. و﴿أَنْ﴾ هذه نحو ﴿أَنْ أَنْذِرْ﴾ في الوجهين ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ واحذروا عصيانه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، وأنهاكم عنه. وإنما أضافه إلى نفسه؛ لأنّ الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة.

٤- ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ﴾ جواب الأمر. ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ للبيان كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ أو: للتبعض؛ لأنّ ما يكون بينه وبين الخلق يواخذ به بعد الإسلام؛ كالقصاص وغيره. كذا في شرح التأويلات ﴿وَيُخَوِّضَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾

مُسَمًّى ﴿ وهو وقت موتكم ﴾ ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ الموت ﴿ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . أي : ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ ما يحلّ بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم ، لا منتم . قيل : إِنَّ الله تعالى قضى مثلاً : أَنَّ قوم نوح إن آمنوا عَمَرَهُمْ أَلْف سنة ، وإن لم يؤمنوا أَهْلَكَهُمْ على رأس تسعمائة . فقيل لهم : آمنوا يُؤَخَّرْكُمْ ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ . أي : تبلغوا أَلْف سنة . ثم أخبر : أَنَّ الألف إذا جاء لا يُؤَخَّرْ كما يُؤَخَّرْ هذا الوقت . وقيل : إنهم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح عليه السلام . فكأنه عليه السلام آمنهم عن ذلك ، ووعدهم : أنهم بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذي ضرب لهم لو لم يؤمنوا . أي : أنكم إن أسلمتم بقيتم إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى آمنين من عدوكم .

٥ ، ٦ - ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ دائباً بلا فتور ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ عن طاعتك . ونسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده ، وإن لم يكن الدعاء سبباً للفرار في الحقيقة . وهو كقوله : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ﴾ [التوبة : ١٢٥] والقرآن لا يكون سبباً لزيادة الرجز . وكان الرجل يذهب بآبائه إلى نوح عليه السلام فيقول : احذر هذا ، فلا يغرنك ، فإنَّ أبي قد أوصاني به .

٧ - ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى الإيمان بك ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي : ليؤمنوا فتغفر لهم ، فاكتمى بذكر السبب ﴿ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ سدوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامي ﴿ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ وتغطوا بثيابهم لئلا يبصروني كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ وأقاموا على كفرهم ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ وتعظّموا عن إجابتي . وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم

٨ - ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ مصدر في موضع الحال . أي : مجاهراً . أو : مصدر ﴿ دعوتهم ﴾ كقعد القرفصاء ؛ لأنَّ الجهار أحد نوعي الدعاء . يعني : أظهرت لهم الدعوة في المحافل .

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَفَاةً ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾

٩ - ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر. فالحاصل: أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر، ثم دعاهم جهاراً، ثم دعاهم في السر والعلن، وهكذا يفعل الأمر بالمعروف: يتدعى بالأهون، ثم بالأشد فالأشد. فافتتح بالمناصحة في السر. فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة. فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان. و﴿ثُمَّ﴾ تدل على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار. والجمع بين الأمرين أغلظ من أفراد أحدهما.

١٠ - ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك؛ لأن الاستغفار طلب المغفرة. فإن كان المستغفر كافراً فهو من الكفر، وإن كان عاصياً مؤمناً فهو من الذنوب ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ عَفَاةً﴾ لم يزل غفاراً للذنوب من ينيب إليه.

١١، ١٢ - ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كثيرة الدور - ومفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث - ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم، وكانوا يحبون الأموال والأولاد، فحزركوا بهذا على الإيمان. وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة أو سبعين. فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله الخصب، ورفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي الله عنه: أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار. فقيل له: ما رأيك استسقيت! فقال لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر - شبه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطيء - وقرأ الآيات. وعن الحسن: أن رجلاً شكاً إليه الجدب، فقال: استغفر الله. وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار. فقال له الربيع^(١):

(١) هو الربيع بن صبيح، أبو بكر: أول من صنف بالبصرة. كان عابداً ورعاً. خرج غازياً إلى السند فمات في البحر، ودفن في إحدى الجزر سنة (١٦٠ هـ).

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّى خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾

أتاك رجال يشكون أبواباً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار. فتلا الآيات.

١٣، ١٤ - ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تخافون الله عظمة، عن الأخفش. قال: والرجاء هنا: الخوف؛ لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف ومن اليأس. والوقار: العظمة. أو: لا تأملون له توقيراً. أي: تعظيماً. والمعنى: مالكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إيتاكم في دار الثواب ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال. أي: مالكم لا تؤمنون بالله والحال هذه، وهي حال موجبة للإيمان به؛ لأنه ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: تارات، وكرات: خلقكم أولاً: نطفاً، ثم: خلقكم علقاً، ثم: خلقكم مضغاً، ثم: خلقكم عظاماً ولحمًا.

١٥ - نَبِّهَهُمْ أولاً على النظر في أنفسهم لأنها أقرب، ثم على النظر في العالم وما سوى فيه من العجائب الدالة على الصانع بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّى خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضاً على بعض.

١٦ - ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في السموات. وهو في السماء الدنيا؛ لأن بين السموات ملابس من حيث إنها طباق. وجاز أن يقال: فيهنّ كذا، وإن لم يكن في جميعهنّ، كما يقال: في المدينة كذا، وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر - رضي الله عنهم -: إنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السموات، وظهورهما مما يلي الأرض. فيكون نور القمر محيطاً بجميع السموات لأنها لطيفة لا تحجب نوره ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ مصباحاً يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره. وضوء الشمس أقوى من نور القمر. وأجمعوا: على أنّ الشمس في السماء الرابعة.

١٧، ١٨ - ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أنشأكم. استعير الإنبات للإنشاء ﴿نَبَاتًا﴾ فنبتهم نباتاً ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِخْرَاجًا﴾ أكده بالمصدر. أي: أيّ إخراج.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي أَعِصُوكَ وَأَتَّبِعُكَ مَنْ لَزِيذَةُ مَالِهِ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا

١٩ ، ٢٠ - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مبسوطة ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا﴾ لتنقلبوا عليها، كما ينقلب الرجل على بساطه ﴿سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة أو مختلفة.

٢١ - ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي أَعِصُوكَ﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار ﴿وَأَتَّبِعُكَ﴾ أي: السفلة والفقراء ﴿مَنْ لَزِيذَةُ مَالِهِ وَوَلَدُهُ﴾ أي: الرؤساء أصحاب الأموال، والأولاد. ﴿وَوَلَدُهُ﴾ مكِّي، وعراقي، غير عاصم. وهو جمع ولد، كأسد وأسد ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ في الآخرة.

٢٢ - ﴿وَمَكَرُوا﴾ معطوف على ﴿لم يزدته﴾. وجمع الضمير وهو راجع إلى ﴿مَنْ﴾ لأنه في معنى الجمع. والماكرون: هم الرؤساء. ومكرهم: احتيالهم في الدين، وكيدهم لنوح، وتخريش الناس على أذاه، وصدّهم عن الميل إليه ﴿مَكْرًا كَبِيرًا﴾ عظيماً. وهو أكبر من الكِبَار. وقرىء به. وهو أكبر من الكبير.

٢٣ - ﴿وَقَالُوا﴾ أي: الرؤساء لسفلتهم ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ على العموم أي: عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ بفتح الواو وضمها. وهو قراءة نافع. لغتان. صنم على صورة رجل ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ هو على صورة امرأة ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ هو على صورة أسد ﴿وَيَعُوقَ﴾ هو على صورة فرس. وهما لا ينصرفان للتعرف ووزن الفعل إن كانا عربيّين، وللتعريف والعجمة إن كانا أعجميّين ﴿وَنَسْرًا﴾ هو على صورة نسر. أي: هذه الأصنام الخمسة على الخصوص. وكأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم. فخصّوها بعد العموم. وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب. فكان ودّ لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمُراد، ونسر لحمير. وقيل: هي أسماء رجال صالحين كان الناس يقتدون بهم بين آدم ونوح، فلما ماتوا صورّوهم ليكون ذلك أدعى لهم إلى العبادة. فلما طال الزمان قال لهم إبليس: إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم.

٢٤ - ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي: الأصنام، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾

كَبِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَكًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

[إبراهيم: ٣٦]. أو: الرؤساء ﴿كَبِيرًا﴾ من الناس ﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ﴾ عطف على ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد ﴿قَالَ﴾ وبعد الواو النائية عنه. ومعناه: ﴿قَالَ نوح ربِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ ﴿و﴾ قال ﴿لَا تَزِدُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قال هذين القولين. وهما في محل النصب لأنهما مفعولا ﴿قَالَ﴾ ﴿إِلَّا ضَلَكًا﴾ هلاكًا. كقوله: ﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

٢٥- ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾ ﴿خَطَايَاهُمْ﴾ - أبو عمرو. أي: ذنوبهم - ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان ﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ عظيمة. وتقديم ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾ لبيان: أن لم يكن إغراقهم بالطوفان، وإدخالهم في النيران، إلّا من أجل خطيئاتهم. وأكد هذا المعنى بزيادة ﴿مَا﴾. وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا. فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئتهم وإن كانت كبراهن. والفاء في ﴿فَأَدْخَلُوا﴾ للإيدان بأنهم عذبوا بالإحراق عقوب الإغراق، فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ينصرونهم، ويمنعونهم من عذاب الله.

٢٦- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: أحداً يدور في الأرض. وهو: فَيَعَالٌ، من: الدَّوْر. وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام.

٢٧- ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ﴾ ولا تهلكهم ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ يدعوهم إلى الضلال ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إلّا من إذا بلغ فجر وكفر. وإنما قال ذلك؛ لأن الله تعالى أخبره بقوله: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

٢٨- ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ وكانا مسلمين، واسم أبيه: لك. واسم أمه: شمعاء. وقيل: هما آدم وحواء. وقرئ: ﴿لِوَلَدَيَّ﴾ يريد: ساماً وحمماً ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ منزلي أو مسجدي أو سفيتي ﴿مُؤْمِنًا﴾ لأنه علم: أن من دخل بيته مؤمناً لا يعود إلى الكفر ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى يوم القيامة. خصّ

وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

أَوَّلًا مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ أُولَى، وَأَحَقُّ بِدَعَائِهِ، ثُمَّ عَمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿٢٨﴾ وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ هَلَاكًا، فَأَهْلَكُوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: دَعَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَعْوَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمَغْفِرَةِ، وَأُخْرَى عَلَى الْكَافِرِينَ بِالتَّبَارِ. وَقَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ فِي حَقِّ الْكَفَّارِ بِالتَّبَارِ. فَاسْتَحَالَ أَلَّا تَسْتَجَابَ دَعْوَتُهُ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ.

وَاخْتَلَفَ فِي صِبْيَانِهِمْ حِينَ أَغْرَقُوا. فَقِيلَ: أَعْقَمَ اللَّهُ أَرْحَامَ نَسَائِهِمْ قَبْلَ الطُّوفَانِ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ صَبِيٌّ حِينَ أَغْرَقُوا. وَقِيلَ: عَلَّمَ اللَّهُ بَرَاءَتَهُمْ فَأَهْلَكُوا بِغَيْرِ عَذَابٍ.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾

١ - ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأمتك ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ أَنَّ الأمر والشأن. أجمعوا على فتح ﴿أنه﴾ لأنه فاعل ﴿أوحى﴾، و﴿أَلَوْ اسْتَقْنُمُوا﴾ [الجن: ١٦] و﴿أَنَّ الْمَسْجِدَ﴾ [الجن: ١٨] للعطف على ﴿أنه استمع﴾ فأن مخففة من الثقيلة. و﴿أَن قَدْ أَتَلَفُوا﴾ [الجن: ٢٨] لتعدي يعلم إليها، وعلى كسر ما بعد فاء الجزاء وبعد القول نحو ﴿فَإِنَّ لَكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣] و﴿قالوا إِنَّا سمعنا﴾ لأنه مبتدأ حكى بعد القول. واختلفوا في فتح الهمزة وكسرها من ﴿أَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّرِنَا﴾ إلى ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ [الجن: ٣ - ١٤] ففتحها شامي، وكوفي غير أبي بكر، عطفاً على ﴿أنه استمع﴾ أو على محل الجار والمجرور في ﴿فَأَمَّا رَبُّهُ﴾ [الجن: ٢] تقديره: صدقناه، وصدقنا: أنه تعالى جد ربنا ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ [الجن: ٤] إلى آخرها. وكسرها غيرهم عطفاً على ﴿إِنَّا سمعنا﴾ وهم يقفون على أواخر الآيات ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ جماعة من الثلاثة إلى العشرة ﴿يَنَ الْجِنِّ﴾ جن نصيين ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم حين رجعوا إليهم من استماع قراءة النبي ﷺ في صلاة الفجر: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ عجباً بديعاً مبيناً لسائر الكتب في حسن نظمته،

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنْتُمْ تَعْلَوْنَ جَدْرَيْنَا مَا أَخَذَ صَاحِبُهُ
وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ﴿٦﴾

وصحة معانيه. والعجب ما يكون خارجاً عن العادة. وهو مصدر وضع موضع العجيب.

٢ - ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ يدعو إلى الصواب، أو إلى التوحيد والإيمان ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن. ولما كان الإيمان به إيماناً بالله، وبوحدانيته، وبراءة من الشرك، قالوا: ﴿لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ من خلقه. وجاز أن يكون الضمير في ﴿به﴾ لله تعالى؛ لأن قوله: ﴿بِرَبِّنَا﴾ يفسره.

٣ - ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَوْنَ جَدْرَيْنَا﴾ عظمته. يقال: جد فلان في عيني، أي: عظم. ومنه قول عمر، أو أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا، أي: عظم في عيوننا ﴿مَا أَخَذَ صَاحِبُهُ﴾ زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول كفار الجن والإنس.

٤ - ﴿وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا، أو إبليس - إذ ليس فوقه سفيه - ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ كفراً لبعده عن الصواب. من: شطت الدار، أي: بعدت. أو: قولاً يجوز فيه عن الحق. وهو نسبة الصاحبة والولد إليه. والشطط: مجاوزة الحد في الظلم وغيره.

٥ - ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قولاً ﴿كَذِبًا﴾ أو مكذوباً فيه. أو: نصب على المصدر؛ إذ الكذب نوع من القول. أي: كان في ظننا: أنَّ أحدًا لن يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه. وكنا نصدقهم فيما أضافوا إليه حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم.

٦ - كان الرجل من العرب إذا نزل بمخوف من الأرض قال: أعوذ بسيّد هذا الوادي من سفهاء قومه - يريد: كبير الجن - فقال: ﴿وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أي: زاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم ﴿رَهَقًا﴾ طغياناً، وسفهاً، وكبراً بأن قالوا: سدنا الجن والإنس. أو: فزاد الجن الإنسان

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثًا
حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَان يَحْد لَمْ
شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ وَمِنَّا دُونُ ذَلِكَ

﴿رهقاً﴾: إنمأ لاستعاذتهم بهم. وأصل الرهق: غشيان المحذور.

٧ - ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأن الجن ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾
بعد الموت. أي: أن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم، ثم بسماع القرآن
اهتدوا، وأقروا بالبعث. فهلاً أقررتم كما أقروا!

٨ - ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها. واللمس:
المس. فاستعير للطلب؛ لأن الماسّ طالب متعرّف ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثًا حَرَسًا
شَدِيدًا﴾ جمعاً أقوياء من الملائكة يحرسون. جمع: حارس. ونُصِبَ على التمييز.
وقيل: الحرس اسم مفرد في معنى الحراس، كالخدم في معنى الخدام، ولذا
وصف بشديد. ولو نظر إلى معناه ل قيل: شداداً ﴿وَشُهْبًا﴾ جمع: شهاب. أي:
كواكب مضيئة.

٩ - ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا﴾ من السماء قبل هذا ﴿مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لاستماع
أخبار السماء. يعني: كنّا نجد بعض السماء خالية من الحرس والشهب قبل
المبعث ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ﴾ يريد الاستماع ﴿آلَان﴾ بعد المبعث ﴿يَحْد لَمْ﴾ لنفسه
﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ صفة لشهاباً، بمعنى: الراصد. أي: يجد شهاباً راصداً له
ولأجله. أو: هو اسم جمع للراصد على معنى: ذوي شهابٍ راصدين بالرجم،
وهم الملائكة الذين يرمونهم بالشهب، ويمنعونهم من الاستماع. والجمهور على
أن ذلك لم يكن قبل مبعث محمد ﷺ. وقيل: كان الرجم في الجاهلية. ولكن
الشياطين كانت تسرق في بعض الأوقات فمنعوا من الاستراق أصلاً بعد مبعث
النبي ﷺ.

١٠ - ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بعدم استراق السمع
﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيراً ورحمة.

١١ - ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الأبرار المتقون ﴿وَمِنَّا﴾ قوم ﴿دُونُ ذَلِكَ﴾ فحذف

كُنَّا طَرِيقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَأُنَّا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

الموصوف. وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه. أو أرادوا غير الصالحين ﴿كُنَّا طَرِيقَ قَدَدًا﴾ بيان للقسمة المذكورة. أي: كنا ذوي مذاهب متفرقة أو أديان مختلفة. والقدد جمع: قدة، وهي القطعة. من: قددت السير؛ أي: قطعته.

١٢ - ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾ أيقنا ﴿أَنْ لَنْ نَعْجِزَ اللَّهَ﴾ لن نفوته ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال. أي: لن نعجزه كائنين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أينما كنا فيها ﴿وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ مصدر في موضع الحال. أي: ﴿ولن نعجزه﴾ هارين منها إلى السماء. وهذه صفة الجن وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم.

١٣ - ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن أو بالله ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ﴾ ﴿فَ﴾ هو ﴿لَا يَخَافُ﴾ - مبتدأ وخبر - ﴿بَخْسًا﴾ نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي: ولا ترهقه ذلة. من قوله: ﴿وَتَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَزْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وفيه دليل: على أن العمل ليس من الإيمان.

١٤ - ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المؤمنون ﴿وَمِنَ الْقَاسِطِينَ﴾ الكافرون الجاثرون عن طريق الحق قسط: جار. وأقسط: عدل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ طلبوا هدى. والتحزري: طلب الأخرى. أي: الأولى.

١٥ - ﴿وَأَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَأُنَّا﴾ في علم الله ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وقوداً. وفيه دليل: على أن الجني الكافر يعذب في النار. ويتوقف في كيفية ثوابهم.

١٦ - ﴿وَالْوِ﴾ ﴿وَأَنْ﴾ مخففة من الثقيلة. يعني: وأنه. وهو من جملة الموحى. أي: أوحى إلي أن الشأن لو ﴿أَسْتَقَمُوا﴾ أي: القاسطون ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ كثيراً. والمعنى: لو سعنا عليهم الرزق. وذكر الماء الغدق؛ لأنه سبب سعة الرزق.

لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾

١٧ - ﴿لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ القرآن، أو: التوحيد، أو: العبادة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياء: عراقي غير أبي عمرو: يدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً. مصدر صعد. يقال: صعد، صعداً، وصعوداً. فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعبذب أي: يعلوه، ويغلبه، فلا يطيقه. ومنه قول عمر - رضي الله عنه -: ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح. أي: ما شق عليّ.

١٨ - ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ من جملة الموحى. أي: أوحى إليّ: ﴿أَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ أي: البيوت المبنية للصلاة فيها ﴿لِلَّهِ﴾. وقيل: معناه: ﴿وَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ في المساجد؛ لأنها خالصة لله ولعبادته. وقيل: المساجد أعضاء السجود وهي: الجبهة، واليدان، والركبتان، والقدمان.

١٩ - ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ محمد ﷺ إلى الصلاة. وتقديره: فأوحى إليّ أنه لما قام عبد الله ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبد، ويقرأ القرآن. ولم يقل نبي الله، أو رسول الله؛ لأنه من أحب الأسماء إلى النبي ﷺ، ولأنه لما كان واقعاً في كلامه ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع، أو: لأن عبادة عبد الله ليست بمستبعد حتى يكونوا عليه لبدأ ﴿كَادُوا﴾ كاد الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ جماعات. جمع: لبدء. تعجباً مما رأوا من عبادته، واقتداء أصحابه به، وإعجاباً بما تلاه من القرآن؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله.

٢٠ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ وحده - (قال) غير عاصم وحمة - ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ في العبادة. فلم تتعجبون وتزدهمون عليّ؟

٢١ - ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ مضرة ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ نفعاً. أو: أراد بالضرر الغي، بدليل قراءة أبي (غياً ولا رشداً) يعني: لا أستطيع أن أضركم، وأن أنفعكم. لأن الضار والنافع هو الله.

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبَداً ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

٢٢ - ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ لن يدفع عني عذابه أحدٌ إن عصيته؛ كقول صالح عليه السلام: ﴿فَمَنْ يَصُرْنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣] ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾ ملتجأ.

٢٣ - ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ﴾ استثناء من: ﴿لَا أَمْلِكُ﴾. أي: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ﴾. و﴿قُلْ: إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي﴾ اعتراض لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه. وقيل: ﴿بَلَاغًا﴾ بدل من: ﴿ملتحدًا﴾. أي: ﴿لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ﴾ منجى ﴿إِلَّا﴾ أن أبلغ عنه ما أرسلني به. يعني: لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به، فإن ذلك ينجيني. وقال الفراء: هذا شرط وجزاء وليس باستثناء. وإن منفصلة من لا، وتقديره: إن لا أبلغ بلاغاً. أي: إن لم أبلغ لم أجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً ولا مجيراً لي، كقولك: إن لا قياماً ففعوداً. والبلاغ في هذه الوجوه بمعنى التبليغ ﴿وَرِسَالَاتِهِ﴾ عطف على ﴿بَلَاغًا﴾ كأنه قيل: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ﴾ إلا التبليغ والرسالات. أي: إلا أن أبلغ عن الله، فأقول: قال الله. ناسباً لقوله إليه، وأن أبلغ رسالته التي أرسلني بها بلا زيادة ونقصان. و﴿مَنْ﴾ ليست بصلة للتبليغ؛ لأنه يقال: بلغ عنه. إنما هي بمنزلة ﴿مَنْ﴾ في ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١] أي: ﴿بَلَاغًا﴾ كائناً ﴿مَنْ﴾ الله ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في ترك القبول بما أنزل على الرسول، لأنه ذكر على أثر تبليغ الرسالة ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبَداً﴾ وحّد في ﴿لَهُ﴾ وجمع في ﴿خَالِدِينَ﴾ للفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

٢٤ - ﴿حَتَّىٰ﴾ يتعلّق بمحذوف دلّت عليه الحال. كأنه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتى ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم المؤمنون. أي: الكافر لا ناصر له يؤمّد، والمؤمن ينصره الله وملائكته وأنبيأؤه عليهم السلام.

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِي رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

٢٥ - ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي﴾ ما أدري ﴿أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لِي رَبِّي﴾ وبفتح الياء حجازي وأبو عمرو ﴿أَمَدًا﴾ غاية بعيدة. يعني: أنكم تعذبون قطعاً، ولكن لا أدري أهو حال، أم مؤجل.

٢٦، ٢٧ - ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ خبر مبتدأ. أي: هو عالم الغيب ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ فلا يطلع ﴿عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من خلقه ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ليكون إخباره عن الغيب معجزة له. فإنه يطلعه على غيبه ما شاء. و﴿من رسول﴾ بيان لمن ارتضى. والولي إذا أخبر بشيء فظهر فهو غير جازم عليه. ولكنه أخبره بناءً على رؤياه أو بالفراسة. على أن كل كرامة للولي فهي معجزة للرسول. وذكر في التأويلات: قال بعضهم: في هذه الآية دلالة تكذيب المنجمة، وليس كذلك فإن فيهم من يصدق خبره. وكذلك المتطببة يعرفون طبائع النبات، وإذا لا يعرف بالتأمل، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسول انقطع أثره، وبقي علمه في الخلق ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾ يدخل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يدي الرسول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلغ الوحي.

٢٨ - ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الله ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أي: الرسل ﴿رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كاملة، بلا زيادة ولا نقصان إلى المرسل إليهم. أي: ليعلم الله ذلك موجوداً حال وجوده، كما كان يعلم ذلك قبل وجوده أنه يوجد. وحد الضمير في ﴿من بين يديه﴾ للفظ ﴿مَنْ﴾، وجمع في ﴿أَبْلَغُوا﴾ لمعناه ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عند الرسل من العلم ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ من القطر، والرمل، وورق الأشجار، وزبد البحار. فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه؟ و﴿عددًا﴾ حال. أي: وعلم كل شيء معدوداً محصوراً. أو مصدر في معنى: إحصاء.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ

١ - ٤ - ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾ أي: المترمل. وهو الذي ترمّل في ثيابه، أي: تلفّف بها. بإدغام التاء في الزاي. وكان النبي ﷺ نائماً بالليل مترملاً في ثيابه، فأمر بالقيام للصلاة بقوله: ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ * نِصْفَهُ * بدل من ﴿الليل﴾. و﴿إلا قليلاً﴾ استثناء من: ﴿نِصْفَهُ﴾ تقديره: ﴿قم﴾ نصف الليل ﴿إلا قليلاً﴾ من نصف الليل ﴿أَوْ انْقُصْ مِنْهُ﴾ من النصف - بضم الواو، غير عاصم وحمزة ﴿قَلِيلًا﴾ إلى الثلث ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ على النصف إلى الثلثين. والمراد: التخيير بين أمرين: بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت، وبين أن يختار أحد الأمرين. وهما: النقصان من النصف والزيادة عليه. وإن جَعَلْتَ ﴿نِصْفَهُ﴾ بدلاً من ﴿قَلِيلًا﴾ كان تخييراً بين ثلاثة أشياء: بين قيام نصف الليل تاماً، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه. وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل. وإلا فإطلاق لفظ القليل ينطلق على ما دون النصف. ولهذا قلنا: إذا أقر: أن لفلان عليه ألف درهم إلا قليلاً: أنه يلزمه أكثر من نصف الألف ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ﴾ بين

تَرْتِيلاً ﴿١﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٢﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٣﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٤﴾ وَادْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ

وفصل. من: الشجر المرتل، أي: المفلج. أو: اقرأ على تودة بتبيين الحروف، وحفظ الوقوف، وإشباع الحركات ﴿تَرْتِيلاً﴾ هو تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنه لا بد منه للقارئ.

٥ - ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾ سننزل عليك ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: القرآن؛ لما فيه من الأوامر، والنواهي؛ التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين. أو: ﴿ثَقِيلًا﴾ على المنافقين. أو: كلاماً له وزن، ورجحان، ليس بالسفساف الخفيف.

٦ - ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ بالهمز سوى ورش: قيام الليل، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - فهي مصدر من: نشأ: إذا قام، ونهض، على «فاعلة» كالعافية. أو: العبادة التي تنشأ بالليل؛ أي: تحدث. أو: ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة فساعة. وكان زين العابدين يصلي بين العشاءين ويقول: هذه ناشئة الليل ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾^(١) وفاقاً، شامي، وأبو عمرو. أي: يواطىء فيها قلب القائم لسانه. وعن الحسن: أشد موافقة بين السر والعلانية، لانقطاع رؤية الخلائق. غيرهما ﴿وطئاً﴾ أي: أثقل على المصلي من صلاة النهار؛ لطرد النوم في وقته، من قوله ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مضر»^(٢) ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وأسد مقالاً، وأثبت قراءة؛ لهدو الأصوات، وانقطاع الحركات.

٧ - ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تصرفاً، وتقلباً في مهماتك، وشواغلك، ففرغ نفسك بالليل لعبادة ربك. أو: فراغاً طويلاً لنومك وراحتك.

٨ - ﴿وَادْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره في الليل والنهار. وذكر الله يتناول: التسبيح، والتهليل، والتكبير، والصلاة، وتلاوة القرآن، ودراسة العلم ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ انقطع إلى عبادته عن كل شيء، والتبتل: الانقطاع إلى الله تعالى بتأميل الخير منه دون غيره. وقيل: رفض الدنيا وما فيها، والتماس ما عند الله

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: (وطأء) وهي قراءة: شامي وأبي عمر؛ كما بين.

(٢) رواه البخاري (٦٣٩٣) ومسلم (٦٧٥).

تَبَيَّنَا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ
وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا
أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾

﴿تَبَيَّنَا﴾ في اختلاف المصدر زيادة تأكيد. أي: بتلك الله، فتبتل. أو جيء به مراعاة لحق الفواصل.

٩ - ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ بالرفع، أي: هو ﴿رَبُّ﴾. أو: مبتدأ، خبره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. وبالجذر شامئ، وكوفي غير حفص، بدل من ﴿رَبِّكَ﴾. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: على القسم بإضمار حرف القسم، نحو: الله لأفعلن. وجوابه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كقولك: والله لا أحد في الدار إلا زيد. ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ولياً، أو كفيلاً بما وعدك من النصر. أو: إذا علمت أنه ملك المشرق والمغرب، وأن لا إله إلا هو ﴿فاتَّخِذْهُ﴾ كافياً لأمورك. وفائدة الفاء: ألا تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور إلى الواحد القهار؛ إذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار.

١٠ - ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ في من صاحبة والولد، أو فيك من الساحر والشاعر ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ جانبهم بقلبك، وخالفهم مع حسن المخالفة، وترك المكافأة. وقيل: هو منسوخ بآية القتال.

١١ - ﴿وَذَرْنِي﴾ أي: كلهم إليّ فأنأ كافيهم ﴿وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ رؤساء قريش. مفعول معه. أو: عطف على ﴿ذَرْنِي﴾ أي: دعني وإياهم ﴿أُولَى النَّعْمَةِ﴾ التنعم. وبالكسر: الإنعام. وبالضم: المسرة ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾ إمهالاً ﴿قَلِيلًا﴾ إلى يوم بدر، أو: إلى يوم القيامة.

١٢، ١٣ - ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ للكافرين في الآخرة ﴿أَنْكَالًا﴾ قيوداً ثقالاً. جمع: نِكل ﴿وَجَحِيمًا﴾ ناراً محرقة ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: الذي يتشبث في الحلقوم، فلا يُسَاغ. يعني: الضريع، والزقوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ يخلص وجعه إلى القلب. وروي: أنه ﷺ قرأ هذه الآية فصعق^(١). وعن الحسن: أنه أمسى صائماً فأتى

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٣٥/١٤).

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ ۖ

بطعام فعرضت له هذه الآية: فقال: ارفعه. ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له، فقال: ارفعه. وكذا الليلة الثالثة. فأخبر ثابت البناني وغيره فجاءوا، فلم يزالوا، حتى شرب شربة من سويق.

١٤ - ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بما في ﴿لدينا﴾ من معنى الفعل. أي: استقر للكفار ﴿لدينا﴾ كذا وكذا يوم ﴿تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: تتحرك حركة شديدة ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا﴾ رملاً مجتمعاً. من: كسب الشيء إذا جمعه. كأنه فعيل بمعنى: مفعول ﴿مَهِيلًا﴾ سائلاً بعد اجتماعه.

١٥، ١٦ - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿رَسُولًا﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني: موسى - عليه السلام - ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أي: ذلك الرسول، إذ النكرة إذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأول ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ شديداً غليظاً. وإنما خص موسى - عليه السلام - وفرعون - عليه اللعنة - لأن خبرهما كان منتشرأ بين أهل مكة لأنهم كانوا جيران اليهود.

١٧ - ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾. أي: ﴿فكيف تتقون﴾. عذاب يوم كذا ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ هنا؟ أو: ظرف. أي: ﴿فكيف﴾ لكم التقوى في يوم القيامة ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ في الدنيا؟ أو: منصوب بـ ﴿كفرتُمْ﴾ على تأويل جحدتم. أي: ﴿فكيف﴾ لكم ﴿تَتَّقُونَ﴾ الله وتحشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء؟ لأن تقوى الله: خوف عقابه ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ﴾ - صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾. والعائد محذوف. أي: فيه - ﴿شِيبًا﴾ من هوله وشدته. وذلك حين يقال لآدم - عليه السلام -: قم فابعث بعث النار من ذريتك. هو جمع: أشيب. وقيل: هو على التمثيل للتهويل. يقال: في الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال.

١٨ - ﴿السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ ۖ﴾ وصف لليوم بالشدة أيضاً. أي: ﴿السَّمَاءُ﴾ على

كَانَ وَعَدُّهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن مَّخْصُوهً فَنَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ وَأَمَّا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ

عظمها وإحكامها تنفطر فيه، أي: تنشق، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟ والتذكير على تأويل السماء بالسقف. أو: ﴿السماء﴾ شيء ﴿منفطر﴾ وقوله: ﴿به﴾ أي: بيوم القيامة. يعني: أنها تنفطر لشدة ذلك اليوم، وهوله؛ كما ينفطر الشيء بما يفطر به ﴿كَانَ وَعَدُّهُ﴾ المصدر مضاف إلى المفعول، وهو: اليوم؛ أو: إلى الفاعل، وهو: الله عز وجل ﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً.

١٩ - ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الآيات الناطقة بالوعيد ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء اتعظ بها، واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية.

٢٠ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أقل. فاستعير الأدنى - وهو الأقرب - للأقل؛ لأن المسافة بين الشيتين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياء وإذا بعدت كثر ذلك ﴿مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ﴾ بضم اللام سوى هشام ﴿وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ منصوبان. عطف على ﴿أدنى﴾ مكّي وكوفي. ومن جرهما عطف على ﴿ثُلثي﴾ ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ عطف على الضمير في ﴿تقوم﴾ وجاز بلا توكيد؛ لوجود الفاصل ﴿مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾. أي: ويقوم ذلك المقدار جماعة من أصحابك ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ولا يقدر على تقدير الليل والنهار، ولا يعلم مقادير ساعاتهما إلا الله وحده. وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه لـ ﴿يُقَدِّرُ﴾ هو الدال على أنه مختص بالتقدير. ثم إنهم قاموا حتى انتفخت أقدامهم. فنزل: ﴿عَلِمَ أَن مَّخْصُوهً﴾ لن تطبيقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدة ومشقة، وفي ذلك حرج ﴿فَنَابَ عَلَيْكَ﴾ فخفف عليكم، وأسقط عنكم فرض قيام الليل ﴿فَاقْرَأْ﴾ - في الصلاة، والأمر للوجوب - أو في غيرها، والأمر للندب ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ عليكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾. روى أبو حنيفة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: من قرأ مئة آية في ليلة لم يكتب من الغافلين. ومن قرأ مئتي آية كتب من القانتين. وقيل: أراد بالقرآن الصلاة لأنها بعض أركانها. أي: فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل. وهذا ناسخ للأول. ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس. ثم بين الحكمة في

عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضٌ وَعَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخَرُونَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا يَنْسَرُ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

النسخ، وهي تعذر القيام على المرضى والمسافرين والمجاهدين فقال: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضٌ﴾ أي: أنه. مخففة من الثقيلة. والسين بدل من تخفيفها وحذف اسمها. ﴿مَرَضٌ﴾ فيشق عليهم قيام الليل ﴿وَعَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يسافرون ﴿يَلْتَمِعُونَ﴾ حال من ضمير ﴿يضربون﴾ ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ رزقه بالتجارة أو طلب العلم ﴿وَعَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. سوى بين المجاهد والمكتسب؛ لأن كسب الحلال جهاد قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء. وقال ابن عمر - رضي الله عنهما -: ما خلق الله مائة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبي رجل أضرب في الأرض، أبتغي من فضل الله ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْسَرُ مِنْهُ﴾ كثر الأمر بالتيسير لشدة احتياطهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَآتُوا﴾ الواجبة ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ - بالنوافل - والقرض لغة: القطع، فالمقرض يقطع ذلك القدر من ماله فيدفعه إلى غيره، وكذا المتصدق يقطع ذلك القدر من ماله فيجعله لله تعالى. وإنما أضافه إلى نفسه لئلا يمين على الفقير فيما يتصدق عليه. وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القربة، فلا يكون له عليه مئة، بل المنة للفقير عليه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الحلال بالإخلاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ﴾ أي: ثوابه. وهو جزاء الشرط ﴿عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ مما خلقتكم وتركتكم. فالمفعول الثاني لتجدوه ﴿خَيْرًا﴾ و﴿هو﴾ فصل. وجاز وإن لم يقع بين معرفتين؛ لأن «أفعل من» أشبه المعرفة لامتناعه من حرف التعريف ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وأجزل ثواباً ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من السيئات، والتقصير في الحسنات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ يستر على أهل الذنب والتقصير ﴿رَحِيمٌ﴾ يخفف عن أهل الجهد والتوفيق.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾

١ ، ٢ - روى جابر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمد! إنك رسول الله. فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً. فنظرت فوقي، فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض» - يعني: الملك الذي ناداه - «فرعبت ورجعت إلى خديجة - رضي الله عنها - فقلت: دثريني، دثريني». فدثرته خديجة. فجاء جبريل وقرأ: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُدَّثِرُ﴾^(١) أي: المتلفف بشيابه، من: الدثار. وهو: كلُّ ما كان من الثياب فوق الشعار. والشعار: الثوب الذي يلي الجسد. وأصله: المتدثر. فأدغم ﴿قُرْ﴾ من مضجعك. أو: ﴿قم﴾ قيام عزم وتصميم ﴿فَأَنْذِرْ﴾ فحذّر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا. أو: فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد. وقيل: سمع من قريش ما كرهه، فاغتم فتغطى بثوبه مفكراً؛ كما يفعل المغموم. فقل له: يأيُّها الصارف أذى الكفار عن نفسك بالدثار؛ قم فاشتغل بالإنذار؛ وإن آذاك الفجّار.

(١) رواه البخاري (٤٩٢٣، ٤٩٢٤) ومسلم (١٦١) (٢٥٧، ٢٥٨).

وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٢﴾ وَيَايَاكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾

٣- ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ واختصَّ ربك بالتكبير. وهو: التعظيم. أي: لا تكبر في عينك غيره، وقل: عند ما يعرفونك من غير الله: الله أكبر. وروي: أنه لما نزل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر» فكبرت خديجة، وفرحت، وأيقنت أنه الوحي^(١). وقد يحمل على تكبير الصلاة. ودخلت الفاء لمعنى الشرط؛ كأنه قيل: وما كان فلا تدع تكبيره.

٤- ﴿وَيَايَاكَ فَطَهِّرْ﴾ بالماء عن النجاسة؛ لأن الصلاة لا تصح إلا بها. وهي الأولى في غير الصلاة. أو: فقصر مخالفة للعرب في تطويلهم الثياب، وجرحهم الذبول؛ إذ لا يؤمن معه إصابة النجاسة. أو: طهر نفسك مما يستقذر من الأفعال. يقال: فلان طاهر الثياب: إذا وصفوه بالنقاء من المعاييب، وفلان دنس الثياب للغادر؛ ولأن من طهر باطنه يطهر ظاهره ظاهراً.

٥- ﴿وَالرُّجْزَ﴾ بضم الراء يعقوب، وسهل، وحفص. وغيرهم بالكسر: العذاب. والمراد: ما يؤدى إليه ﴿فَاهْجُرْ﴾ أي: اثبت على هجره؛ لأنه كان بريئاً منه.

٦- ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ﴾ بالرفع. وهو منصوب المحل على الحال. أي: لا تعط مستكثراً رانياً لما تعطيه كثيراً. أو: طالباً أكثر مما أعطيت؛ فإنك مأمور بأجل الأخلاق، وأشرف الآداب. وهو من: من عليه: إذا أنعم عليه. وقرأ الحسن ﴿تستكثرن﴾ بالسكون جواباً للنهي.

٧- ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ولوجه الله فاستعمل الصبر على أوامره ونواهيه، وكل مصبور عليه، ومصبور عنه.

٨- ١٠- ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ نفخ في الصور. وهي: النفخة الأولى. وقيل: الثانية ﴿فَذَلِكَ﴾ إشارة إلى وقت النقر. وهو مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مرفوع المحل، بدل من «ذلك» ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خبر. كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير. والفاء في على

عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِيسِيرٍ ﴿١٥﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٢﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾

﴿فإذا﴾ للتسيب، وفي ﴿فذلك﴾ للجزاء؛ كأنه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم عسير، يلقون في عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك عليه. والعامل في ﴿فإذا﴾ ما دلّ عليه الجزاء. أي: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ عسر الأمر ﴿على﴾ الْكَافِرِينَ. وأكد بقوله ﴿غَيْرِيسِيرٍ﴾ ليؤذن بأنه يسير على المؤمنين. أو: ﴿عسير﴾ لا يرجى أن يرجع يسيراً، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا.

١١-١٤- ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي: كله إليّ. يعني: الوليد بن المغيرة. وكان يلقب في قومه بالوحيد. ﴿ومن خلقت﴾ معطوف، أو مفعول معه ﴿وَحِيدًا﴾ حال من الباء في ﴿ذرنى﴾. أي: ذرنى وحدي معه، فإنّي أكفيك أمره. أو: من التاء في ﴿خلقت﴾ أي: خلقتة وحدي، لم يشركني في خلقه أحد. أو: من الهاء المحذوفة، أو: من ﴿مَنْ﴾ أي: خلقتة منفرداً بلا أهل، ولا مال، ثم أنعمت عليه ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً. أو: مُمَدَّاً بالنماء. وكان له الزرع، والضرع، والتجارة. وعن مجاهد: كان له مئة ألف دينار. وعنه: أنّ له أرضاً بالطائف لا ينقطع ثمرها ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكة لغناهم عن السفر. وكانوا عشرة أسلم منهم خالد، وهشام، وعمارة ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ وبسطت له الجاه والرياسة، فأتممت عليه نعمتي الجاه المال، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا.

١٥-١٦- ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ استبعاداً أو استنكاراً لطمعه وحرصه، أي: يرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر. وقال الحسن: ﴿أن أزيد﴾ أي: أن أدخله الجنة، فأعطيه مالا وولداً، كما قال: ﴿لَأُؤْتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] ﴿كَلَّا﴾ ردع له، وقطع لرجائه. أي: لا يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم. فلم يزل بعد نزول الآية في نقصان من المال والجاه حتّى هلك ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا﴾ للقرآن ﴿عَنِيدًا﴾ معانداً جاحداً. وهو تعليل للردع على وجه الاستئناف كأنّ قائله قال: لم لا يزداد؟ فقيل: إنه جحد آيات النعم، وكفر بذلك نعمته. والكافر لا يستحقّ المزيد.

سَأَرْهُقُهُمْ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا

١٧ - ﴿سَأَرْهُقُهُمْ﴾ سأغشيه ﴿صَعُودًا﴾ عقبة شاقّة المصعد، وفي الحديث: «الصعود: جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً»^(١).

١٨ - ٢٠ - ﴿إِنَّهُمْ فَكَّرُوا﴾ تعليل للوعيد، كأنه تعالى عاجله بالفقر والذل، بعد الغنى والعز، لعناده؛ ويعاقبه في الآخرة بأشد العذاب؛ لبلوغه بالعناد غايته، وتسميته القرآن سحراً. يعني: ﴿إِنَّهُمْ فَكَّرُوا﴾ ماذا يقول في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ما يقوله، وهياًه ﴿فَقِيلَ﴾ لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تقديره ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كزّر للتأكيد. و﴿ثُمَّ﴾ يشعر بأنّ الدعاء الثاني أبلغ من الأوّل.

٢١ - ٢٣ - ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في وجوه الناس، أو فيما قدّر ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطّب وجهه ﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في التقبّض، والكلوح ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عنه أو عن مقامه وفي مقاله. و﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ عطف على ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ والدعاء اعتراض بينهما. وإيراد ﴿ثُمَّ﴾ في المعطوفات لبيان: أنّ بين الأفعال المعطوفة تراخياً.

٢٤ - ٢٥ - ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا﴾ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ يروى عن السحرة. روي: أنّ الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو وما يعلو. فقالت قريش: صباً والله الوليد. فقال أبو جهل - وهو ابن أخيه -: أنا أكفيكموه. فقعد إليه حزينا، وكلّمه بما أحماه. فأتاهم، فقال: يزعمون: أنّ محمداً مجنون، فهل رأيتموه يُخَنِّقُ؟ ويقولون: إنّّه كاهن، فهل رأيتموه قطّ يتكهّن؟ يزعمون: أنّه شاعر. فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قطّ؟ يزعمون: أنّه كذاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كلّ ذلك: اللهم لا. ثم قالوا: فما هو؟ ففكّر، فقال: ما هو إلاّ ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ وما الذي يقوله إلاّ سحر يؤثر عن مسيلمة، وأهل بابل. فارتجّ النادي فرحاً، وتفرّقوا متعجّبين منه. وذكر الفاء دليل على أنّ هذه الكلمة لما خطرت بباله نطق بها من غير تلبّث ﴿إِنَّ هَذَا

إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا

إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ولم يذكر العاطف بين هاتين الجملتين؛ لأن الثانية جرت مجرى التوكيد للأولى.

٢٦ - ٢٨ - ﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ﴾ سادخله. بدل من ﴿سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا﴾ ﴿سَقَرٌ﴾ علم لجهنم، ولم ينصرف للتعريف والتأنيث ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ تهويل لشأنها ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: هي ﴿لَا تَبْقِي﴾ لحماً ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ عظماً. أو: ﴿لَا تَبْقِي﴾ شيئاً يُلْقَى فيها إلا أهلكته ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ ه هالكا، بل يعود كما كان.

٢٩ - ﴿لَوْحَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: هي لوحَةٌ ﴿لِلْبَشَرِ﴾ جمع: بشرة، وهي: ظاهر الجلد. أي: مسوَّدة للجلود أو محرقة لها.

٣٠ - ﴿عَلَيْهَا﴾ على سقر ﴿تِسْعَةَ عَشْرَ﴾ أي: يلي أمرها ﴿تِسْعَةَ عَشْرَ﴾ ملكاً عند الجمهور. وقيل: صنفاً من الملائكة. وقيل: صفاء. وقيل: نقياً.

٣١ - ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي: خزنتها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ لأنهم خلاف جنس المعذبين، فلا تأخذهم الرأفة والرقّة؛ لأنهم أشدّ الخلق بأساً. فللواحد منهم قوة الثقلين ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تسعة عشر ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاء واختباراً ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، حتّى قال أبو جهل لما نزلت ﴿عليها تسعة عشر﴾: ما يستطيع كلّ عشرة منكم أن يأخذوا واحداً منهم وأنتم الدهم؟! فقال أبو الأشدّ - وكان شديد البطش - : «أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين». فنزلت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون.

وقالوا في تخصيص الخزنة بهذا العدد، مع أنّه لا يطلب في الأعداد العلل: إن ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار، وستة يسوقونهم، وستة يضربونهم بمقامع الحديد، والآخر خازن جهنم. وهو مالك، وهو الأكبر. وقيل: في سقر تسعة عشر دركاً، وقد سلط على كلّ درك ملك. وقيل: يعذب فيها بتسعة عشر لونا من العذاب، [وعلى] ^(١) كلّ لون ملك موكل. وقيل: إنّ جهنم تحفظ بما تحفظ

لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي
مَن يَشَاءُ

به الأرض من الجبال. وهي تسعة عشر. وإن كان أصلها مئة وتسعين إلا أن غيرها ينشعب عنها ﴿لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين. فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا: أنه منزل من الله ﴿وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمحمد - وهو عطف على ﴿لَيْسَتَيْنِ﴾ - ﴿إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بذلك، كما صدّقوا سائر ما أنزل. أو: يزدادون يقيناً لموافقة كتابهم كتاب أولئك ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا عطف أيضاً. وفيه توكيد للاستيقان وزيادة الإيمان؛ إذ الاستيقان وازدياد الإيمان دلاً على انتفاء الارتياب، ثم عطف على ﴿لَيْسَتَيْنِ﴾ أيضاً ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ نفاق ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ المشركون. فإن قلت: النفاق ظهر في المدينة والسورة مكية. قلت: معناه: وليقول ﴿المنافقون﴾ الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بمكة: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؟ وهذا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب. وذا لا يخالف كون السورة مكية. وقيل: المراد بالمرض: الشك، والارتياب؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين. و﴿مَثَلًا﴾ تمييز لهذا، أو: حال منه، كقوله: ﴿هَذِهِ نَافَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] ولما كان ذكر العدد في غاية الغرابة، وأن مثله حقيق بأن تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمي مثلاً. والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب؟ وأتي معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر، لا عشرين؟ وغرضهم إنكاره أصلاً، وأنه ليس من عند الله، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ الكاف نصب. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى. أي: مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى - يعني: إضلال المنافقين والمشركين حتى قالوا ما قالوا، وهدى المؤمنين بتصديقه ورؤية الحكمة في ذلك - ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، وهو الذي علم منه اختيار الضلال ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وهو الذي علم منه اختيار الهداء. وفيه دليل خلق الأفعال، ووصف الله بالهداية

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾
وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْطَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشْرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ
يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾

والإضلال. ولما قال أبو جهل: أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر؟! نزل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ لفطر كثرتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا يعزُّ عليه تميم الخزنة عشرين. ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها ﴿وَمَا هِيَ﴾ متصل بوصف سقر. و﴿هي﴾ ضميرها أي: ﴿وما﴾ سقر وصفتها ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ﴾ أي: تذكرة للبشر. أو: ضمير الآيات التي ذكرت فيها.

٣٢ - ٣٧ - ﴿كَلَّا﴾ إنكار - بعد أن جعلها ذكراً - أن تكون لهم ذكراً لأنهم لا يتذكرون ﴿وَالْقَمَرِ﴾ أقسم به لعظم منافعه ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ نافع، وحفص، وحمة، ويعقوب، وخلف. وغيرهم: ﴿إِذَا دَبَّرَ﴾ ودبر بمعنى: أدبر. ومعناها: ولَّى وذهب. وقيل: ﴿أدبر﴾ ولَّى ومضى. و﴿دَبَّرَ﴾ جاء بعد النهار ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْطَرَ﴾ أضاء. وجواب القسم ﴿إِنَّهَا﴾ إن سقر ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ هي جمع: الكبرى. أي: ﴿لإحدى﴾ البلايا، أو الدواهي ﴿الكبرى﴾. ومعنى كونها إحداهن: أنها من بينهن واحدة في العظم، لا نظيرة لها؛ كما تقول: هو أحد الرجال، وهي إحدى النساء ﴿نَذِيرًا﴾ تمييز من ﴿إحدى﴾. أي: ﴿إنها لإحدى﴾ الدواهي إنذاراً؛ كقولك: هي إحدى النساء عفاً. وتُبدل من ﴿لِلْبَشْرِ﴾ بِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ بإعادة الجار ﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الخير ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنه. وعن الزجاج: إلى ما أمر أو عَمَّا نهى.

٣٨ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ هي ليست بتأنيث رهين في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفة لقل: رهين. لأن فعلاً بمعنى مفعول، يستوى فيه المذكر والمؤنث. وإنما هي: اسم بمعنى: الرهن؛ كالشئمة بمعنى: الشتم؛ كأنه قيل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ رَهْنٌ. والمعنى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ رَهْنٌ بكسبها عند الله غير مفكوك.

٣٩ - ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي: أطفال المسلمين؛ لأنهم لا أعمال لهم يرتنون بها. أو: إلا المسلمين؛ فإنهم فكوا رقابهم بالطاعة؛ كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق.

فِي جَنَّتٍ يَسْأَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصْلِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نَظْمًا يَلْمُوكَ الْمُسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَاطِئِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾

٤٠ - ٤٢ - ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ أي: هم ﴿فِي جَنَاتٍ﴾ لا يكتنه وصفها ﴿يَسْأَلُونَ﴾ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْهُمْ. أَوْ: يَتَسَاءَلُونَ غَيْرَهُمْ عَنْهُمْ﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿أَدْخَلَكُمْ فِيهَا. وَلَا يُقَالُ: لَا يَطَابِقُ قَوْلُهُ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ - وَهُوَ سُؤَالٌ لِلْمُجْرِمِينَ - قَوْلُهُ: ﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ وَهُوَ سُؤَالٌ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا يَطَابِقُ ذَلِكَ لَوْ قِيلَ: يَتَسَاءَلُونَ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ؟ لَأَنَّ ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ لَيْسَ بَيَانٌ لِلتَّسَاوُلِ عَنْهُمْ. وَإِنَّمَا هُوَ حِكَايَةُ قَوْلِ الْمُسْأَلِينَ عَنْهُمْ؛ لَأَنَّ الْمُسْأَلِينَ يَلْقَوْنَ إِلَى السَّائِلِينَ مَا جَرَى بَيْنَهُمْ وَيُبَيِّنُ الْمُجْرِمِينَ فَيَقُولُونَ: قُلْنَا لَهُمْ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُنْ مِنَ الْمُصْلِينَ﴾. إِلَّا أَنَّهُ اخْتَصَرَ كَمَا هُوَ نَهْجُ الْقُرْآنِ. وَقِيلَ: ﴿عَنِ﴾ زِيَادَةً.

٤٣ - ٤٨ - ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصْلِينَ﴾ أي: لَمْ نَعْتَقِدْ فِرَاضِيَّتَهَا ﴿وَلَوْ نَكُنَّ نَظْمًا يَلْمُوكَ الْمُسْكِينَ﴾ كَمَا يَطْعَمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾ الْخَوْضُ: الشَّرْعُ فِي الْبَاطِلِ، أَيْ: نَقُولُ الْبَاطِلَ وَالزُّورَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ ﴿حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾ الْمَوْتُ ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالنَّبِيِّينَ، وَالصَّالِحِينَ؛ لِأَنَّهُا لِلْمُؤْمِنِينَ دُونَ الْكَافِرِينَ. وَفِيهِ دَلِيلٌ ثَبُوتِ الشَّفَاعَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ. فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ رُبْعَةِ وَمُضَرٍّ»^(١).

٤٩ - ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ﴾ التَّذْكِيرُ، وَهُوَ: الْعِظَةُ؛ أَيْ: الْقُرْآنُ ﴿مُعْرِضِينَ﴾ مُؤَلِّينَ. حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ. نَحْوُ: مَالِكٌ قَائِمًا؟

٥٠، ٥١ - ﴿كَانَتْهُمْ حُمْرٌ﴾ أَيْ: حُمُرُ الْوَحْشِ. حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿مُعْرِضِينَ﴾ شَدِيدَةُ الْنفَارِ، كَأَنَّهُمَا تَطْلُبُ الْنفَارَ مِنْ نَفُوسِهَا. وَبِفَتْحِ

فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفِرَةِ ﴿٥٦﴾

الفاء مدنيّ، وشاميّ؛ أي: استنفرها غيرها ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ حال. و«قد» معها مقدّرة. والقسورة: الرماة، أو: الأسد. فعولة من القسر. وهو: القهر والغلبة. شبّوها في إعراضهم عن القرآن، واستماع الذكر بحمر جدّت في نفارها.

٥٢ - ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ قراطيس تنشر وتقرأ. وذلك: أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتب من السماء، عنوانها: من رب العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتّباعك ونحوه قوله: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُ﴾ [الإسراء: ٩٣] وقيل: قالوا: إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار.

٥٣ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة وزجر عن اقتراح الآيات. ثم قال: ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة، لا لامتناع إيتاء الصحف. ٥٤ - ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ﴾ رَدَعَهُمْ عن إعراضهم عن التذكرة. وقال: إِنَّ الْقُرْآنَ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ بليغة كافية.

٥٥ - ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوهُ﴾ أي: ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أن يذكره ولا ينساه فعل، فإنَّ نفع ذلك عائد إليه.

٥٦ - ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ وبالناء: نافع ويعقوب ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا وقت مشيئة الله، أو: إلا بمشيئة الله ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفِرَةِ﴾ في الحديث: «هو أهل أن يتقى، وأهل أن يغفر لمن اتّقه»^(١).

* * *

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾

١ - ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أقسم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - .
 و﴿لَا﴾ صلة؛ كقوله: ﴿لَيْتَ لَا يَعْلَمُ﴾ [الحديد: ٢٩] وقوله:
 في بئر لا حورٍ سرى وما شعر
 وقوله:

تذكّرت ليل فاعترتني صباةٌ وكاد ضميرُ القلب لا يتقطّعُ
 وعليه الجمهور. وعن الفراء ﴿لَا﴾ ردّ لإنكار المشركين البعث، كأنه قيل:
 ليس المراد كما تزعمون، ثم قيل: أقسم بيوم القيامة. وقيل: أصله: ﴿لأقسم﴾
 كقراءة ابن كثير، على أنّ اللام للابتداء، و: ﴿أقسم﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي:
 لأنا أقسم. ويقويه: أنّه في الإمام بغير ألف، ثم أشبع فظهر من الإشباع ألف.
 وهذا اللام يصحبه نون التأكيد في الأغلب، وقد يفارقه.

٢ - ٣ - ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ الجمهور على أنّه قسم آخر. وعن الحسن:
 أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة، فهي صفة ذمّ، وعلى القسم صفة

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَّخَذَ عِظَامُهُ ﴿٢﴾ بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ﴿٤﴾ بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا رَآهُ يَتَّبِعُهُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِنَّ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَفَرُّ ﴿١٢﴾ يُبْنَوُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

مدح، أي: النفس المتقية التي تلوم على التقصير في التقوى. وقيل: هي نفس آدم لم تنزل تلوم على فعلها التي خرجت به من الجنة. وجواب القسم محذوف. أي: لتبعثن. دليله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ أي: الكافر المنكر للبعث ﴿أَلَنْ يُتَّخَذَ عِظَامُهُ﴾ بعد تفرقها ورجوعها رفاتاً مختلطاً بالتراب.

٤- ﴿بَلَىٰ﴾ أوجبت ما بعد النفي. أي: ﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها ﴿قَدَرِينَ﴾ حال من الضمير في نجمع. أي: نجمعها ﴿قَادِرِينَ﴾ على جمعها وإعادتها كما كانت. أو: قادرين ﴿عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ أصابعه كما كانت في الدنيا بلا نقصان وتفاوت مع صغرهما، فكيف بكبار العظام؟

٥- ﴿بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ﴾ عطف على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ فيجوز أن يكون مثله استفهاماً ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

٦- ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة.
٧- ١٠- ﴿إِذَا رَآهُ يَتَّبِعُهُ﴾ تحير فرعاً. وفتح الراء مدني: شَخَصَ ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوؤه، أو: غاب. من قوله: ﴿لَتَسْفُتَنَّهُ﴾ [القصص: ٨١] وقرأ أبو حيوه بضمة الخاء ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: جمع بينهما في الطلوع من المغرب. أو: جمعا في ذهاب الضوء. أو: يجمعان فيقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ هو مصدر. أي: الفرار من النار. أو: المؤمن أيضاً من الهول. وقرأ الحسن بكسر الفاء. وهو يحتمل المكان والمصدر.

١١، ١٢- ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفرّ ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ ﴿إِنَّ رَيْكَ﴾ خاصة ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَفَرُّ﴾ مستقر العباد. أو: موضع قرارهم من جنة أو نار، مفوض ذلك إلى مشيئته، من شاء أدخله الجنة، ومن شاء أدخله النار.

١٣- ﴿يُبْنَوُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ﴾ يخبر ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من عملٍ عمله ﴿وَأَخَّرَ﴾ ما لم يعمل.

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ لَا تَحْزَنَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلُ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَمِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾

١٤ - ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ شاهدٌ. والهاء للمبالغة، كعلامة. أو: أنه لأنه أراد به جوارحه؛ إذ جوارحه تشهد عليه. أو: هو حجة على نفسه. والبصيرة: الحجة. قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وتقول لغريك: أنت حجة على نفسك، وبصيرة. رفع بالابتداء، وخبره ﴿على نفسه﴾ تقدم عليه. والجملة خبر ﴿الإنسان﴾ كقولك: زيد على رأسه عمامة. والبصيرة على هذا يجوز أن يكون الملك المؤكل عليه.

١٥ - ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ ولو أرخى ستوره. والمِغْذَار: الستر. وقيل: ولو جاء بكل معذرة ما قبلت منه، فعليه من يكذب عذره. والمعاذير ليس بجمع معذرة؛ لأن جمعها معاذر. بل هي: اسم جمع لها. ونحوه: المناكير في المنكر.

١٦، ١٧ - ﴿لَا تَحْزَنَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿لِسَانُكَ لِتَعْجَلُ بِهِ﴾ بالقرآن. وكان ﷺ يأخذ في القراءة قبل فراغ جبريل كراهة أن يتفلس منه. فقيل له: ﴿لَا تَحْزَنَ﴾ لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل يقرأ ﴿لتعجل به﴾ لتأخذه على عجلة؛ ولئلا يتفلس منك. ثم علل النهي عن العجلة بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ﴾ في صدرك ﴿وقرآنهم﴾ وإثبات قراءته في لسانك. والقرآن: القراءة. ونحوه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

١٨، ١٩ - ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ أي: قرأه عليك جبريل - فجعل قراءة جبريل قراءته - ﴿فَالْتَمِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: قراءته عليك ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ إذا أشكل عليك شيء من معانيه.

٢٠، ٢١ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إنكار البعث. أو: ردع لرسول الله ﷺ عن العجلة وإنكار لها عليه. وأكده بقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قيل: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتهم من عجل، وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة الدنيا وشهواتها ﴿وتذرون الآخرة﴾ الدار الآخرة ونعيمها فلا

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرٍ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْتَرَاقِ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَاللَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾

تعملون لها . والقراءة بالناء فيهما مدني وكوفي .

٢٢ ، ٢٣ - ﴿وَجُوهٌ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ حسنة ناعمة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بلا كيفية ، ولا جهة ، ولا ثبوت مسافة ، وحمل النظر على الانتظار لأمر ربها ، أو لثوابه ، لا يصح ؛ لأنه يقال : نظرت فيه : أي : تفكرت . ونظرته : انتظرته . ولا يعدى بإلى إلا بمعنى الرؤية . مع أنه لا يليق الانتظار في دار القرار .

٢٤ ، ٢٥ - ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرٍ﴾ كالحة شديدة العبوس ، وهي : وجوه الكفار ﴿تَنْظُرُ﴾ تتوقع ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا﴾ فعلٌ هو في شدته ﴿فَاقِرَةٌ﴾ داهية تقصم فقار الظهر .

٢٦ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة ، كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك ، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت ؛ الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم ، وتنتقلون إلى الآجلة ؛ التي تبقون فيها مخلدين ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي : الروح . وجاز وإن لم يجزلها ذكر ؛ لأن الآية تدل عليها ﴿الَّتَرَاقِ﴾ العظام المكتنفة لشجرة النحر عن يمين وشمال . جمع : ترقوة .

٢٧ - ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ يقف حفص على ﴿مَنْ﴾ وقيفة . أي : قال حاضرو المحتضر بعضهم لبعض : أيكم يرقيه مما به ؟ من : الرقية ، مِنْ حَدٍّ : «ضَرَبَ» أو : هو من كلام الملائكة : أيكم يرقى بروحه : أملائكة الرحمة ، أم ملائكة العذاب ؟ من الرقي ، من حَدٍّ «علم» .

٢٨ - ﴿وَلَظَنَّ﴾ أيقن المحتضر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أن هذا الذي نزل به هو : فراق الدنيا المحبوبة .

٢٩ - ﴿وَاللَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ التوت ساقاه عند موته . وعن سعيد بن المسيب : هما ساقاه حين تُلْفَانِ في أكفانه . وقيل : شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة ، على أن الساق مثلٌ في الشدة . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : هما هُمان : هم الأهل والولد ، وهم القدوم على الواحد الصمد .

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَافُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتْلَىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ
يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ
نُفْثَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْثَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ لَجَعَلَهُ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣٩﴾

٣٠- ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَافُ﴾ هو مصدر: ساقه. أي: مساق العباد إلى حيث أمر الله، إما إلى الجنة، أو إلى النار.

٣١، ٣٢- ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ بالرسول والقرآن ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ الإنسان - في قوله: ﴿أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ - ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ بالقرآن ﴿وَقَتْلَىٰ﴾ عن الإيمان. أو: ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ ماله. يعني: فلا زكاه.

٣٣- ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ يتبختر. أصله: يتمطط. أي: يتمدد؛ لأن المتبختر يمد خطاه، فأبدلت الطاء ياء لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة.

٣٤، ٣٥- ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى: ويل لك، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره ﴿فَأَوَّلَىٰ﴾ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ كَرَّرَ للتأكيد. كأنه قال: ويل لك، فويل، ثم ويل لك، فويل. وقيل: ويل لك يوم الموت، وويل لك في القبر، وويل لك حين البعث، وويل لك في النار.

٣٦- ﴿أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أَيْحَسِبَ الكافر أن يترك مهملاً لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يبعث، ولا يجازى؟

٣٧- ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُفْثَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْثَىٰ﴾ بالبلاء: ابن عامر، وحفص. أي: يراق المني في الرحم. وبالباء: يعود إلى النطفة.

٣٨- ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: صار المني قطعة دم جامد بعد أربعين يوماً ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فخلق الله منه بشراً سوياً.

٣٩- ﴿لَجَعَلَهُ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ أي: من المني الصنفين.

أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿١٠﴾

٤٠ - ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أليس الفعل لهذه الأشياء بقادر على الإعادة؟ وكان ﷺ إذا قرأها يقول: «سبحانك، بلى»^(١).

* * *

(١) رواه أبو داود (٨٨٧).

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ
أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا

- ١- ﴿هَلْ أَتَى﴾ قد مضى ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ آدم - عليه السلام - ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أربعون سنة مصوراً قبل نفخ الروح فيه ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ لم يذكر اسمه، ولم يدر ما يراد به؛ لأنه كان طيناً يمرّ به الزمان. ولو كان غير موجود لم يوصف بأنه قد أتى عليه حين من الدهر. ومحلّ ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ النصب على الحال من ﴿الإنسان﴾. أي: أتى عليه ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ غير المذكور.
- ٢- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: ولد آدم - وقيل: الأول ولد آدم أيضاً. و﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ على هذا: مدة لبثه في بطن أمه إلى أن صار شيئاً مذكوراً بين الناس - ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ نعت، أو: بدل منها. أي: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤] قد امتزج فيها الماءان. ومشجه، ومزجه: بمعنى. و﴿نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ كبرمة أعشار. فهو لفظ مفرد غير جمع؛ ولذا وقع صفة للمفرد. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حال. أي: خلقناه مبتلين. أي: مريدين ابتلاءه بالأمر والنهي ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ذا سمع وبصر.

٣- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يبيننا له طريق الهدى بأدلة العقل والسمع ﴿إِنَّا

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٢﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلْنَا وَسْعِيرًا ﴿٣﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٤﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٥﴾ يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٦﴾

شَاكِرًا ﴿٢﴾ مؤمنًا ﴿٢﴾ وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٢﴾ كافرًا، حالان من الهاء في ﴿هديناه﴾. أي: إن شكر أو كفر فقد هديناه السبيل في الحالين. أو من ﴿السبيل﴾ أي: عرفناه السبيل ﴿إمّا﴾ سبيلاً ﴿شاكراً وإمّا﴾ سبيلاً ﴿كفوراً﴾. ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز.

٤- ولما ذكر الفريقين أتبعهما ما أعدّ لهما فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا﴾ جمع سلسلة. بغير تنوين: حفص، ومكي، وأبو عمرو، وحمة. وبه؛ ليناسب ﴿أغْلَلْنَا وَسْعِيرًا﴾ إذ يجوز صرف غير المنصرف للتناسب: غيرهم ﴿وَأَغْلَلْنَا﴾ جمع غُلّ ﴿وَسْعِيرًا﴾ ناراً موقدة.

٥، ٦- وقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جمع: يرّ، أو: بارّ، كرت، وأرباب، وشاهد، وأشهد. وهم الصادقون في الإيمان، أو: الذين لا يؤذون الذرّ، ولا يضمرون الشرّ - ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ خمر. فنفس الخمر تسمى: كأساً. وقيل: الكأس: الزجاجة إذا كانت فيها خمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما تمزج به ﴿كَافُورًا﴾ ماءً كافورًا. وهو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور، ورائحته، وبرده ﴿عَيْنًا﴾ بدل منه ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي: منها، أو: الباء زائدة، أو: هو محمول على المعنى. أي: يلتذّ بها. أو: يروى بها. وإنما قال أولاً: بحرف ﴿مِنْ﴾ وثانياً بحرف الباء؛ لأنّ الكأس مبتدأ شربهم، وأول غايته. وأما العين فيها يمزجون شرابهم فكأنه قيل: يشرب عباد الله بها الخمر ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ يجرّونها حيث شاؤوا من منازلهم ﴿تَفْجِيرًا﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم.

٧- ﴿يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ﴾ بما أوجبوا على أنفسهم. وهو جواب مَنْ عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك؟ والوفاء بالندّر مبالغة في وصفهم بالتوفّر على أداء الواجبات؛ لأنّ مَنْ وفى بما أوجبه على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرًا، من: استطار الفجر.

وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

٨ - ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ﴾ حب الطعام، أي: مع الاشتهااء والحاجة إليه. أو: على حب الله ﴿ومسكينًا﴾ فقيراً عاجزاً عن الاكتساب ﴿ويَتِيمًا﴾ صغيراً لا أب له ﴿وأسيرًا﴾ مأسوراً مملوكاً أو غيره.

٩ - ثم عللوا إطعامهم فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: لطلب ثوابه. أو: هو بيان من الله عز وجل عمّا في ضمائرهم؛ لأن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئاً ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً﴾ هديّة على ذلك ﴿وَلَا شُكْرًا﴾ ثناء. وهو مصدر، كالشكر.

١٠ - ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ أي: إنّنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة. أو: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ فتصدّقنا لوجهه حتّى نأمن من ذلك الخوف ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ وصف اليوم بصفة أهله من الأشقياء. نحو: نهارك صائم. والقمطرير: الشديد العبوس؛ الذي يجمع ما بين عينيه.

١١ - ﴿فَوَقَّاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ صانهم من شدائده ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أعطاهم بدل عبوس الفجّار ﴿نَضْرَةً﴾ حسناً في الوجوه ﴿وسُرُورًا﴾ فرحاً في القلوب.

١٢ - ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصرهم على الإيثار.

نزلت في عليّ، وفاطمة، وفضّة - جارية لهما -: لما مرض الحسن والحسين - رضي الله عنهم - نذروا صوم ثلاثة أيّام. فاستقرض عليّ - رضي الله عنه - من يهوديّ ثلاثة أصوع من الشعير فطحنّت فاطمة - رضي الله عنها - كلّ يوم صاعاً وخبزت، فأثروا بذلك ثلاث عشايا على أنفسهم مسكيناً، ويتيمّاً، وأسيراً، ولم يذوقوا إلّا الماء في وقت الإفطار^(١) ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً فيه مأكّل هنيءٌ ﴿وحَرِيرًا﴾ فيه ملبسٌ بهيئ.

(١) قال الحكيم الترمذي: هذا حديث مزوق، فهذا وأشباهه عامتها مفتعلة. (نوادير الأصول ١/ ٢٤٦ - ٢٤٧).

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ

١٣ - ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من هم في ﴿جزاهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الأسرة. جمع: الأريكة ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿مُتَّكِئِينَ﴾: غير راثين ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ لأنه لا شمس فيها ولا زمهرير، فظلها دائم، وهوؤها معتدل، لا حرّ شمس يحمي، ولا شدة برد تؤذي. وفي الحديث: «هواء الجنة سحسج لا حرّ ولا قُرٌّ»^(١). فالزمهرير: البرد الشديد. وقيل: القمر. أي: الجنة مضيئة، لا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

١٤ - ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾ قريبة منهم ظلال أشجارها. عُطِفَتْ عَلَى ﴿جَنَّةٍ﴾. أي: ﴿و﴾ جنة أخرى ﴿دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾. كأنهم وعدوا جنتين؛ لأنهم وصفوا بالخوف - بقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ - ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] ﴿وَذُلَّتْ﴾ سَخِرَتْ للقائم والقاعد والمتكبي. وهو حال من ﴿دَانِيَةً﴾ أي: تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها عليهم. أو: معطوفة عليها، أي: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ ومذلة ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها. جمع: قُطْفٌ ﴿نَذْلِيلًا﴾.

١٥، ١٦ - ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ﴾ أي: يدير عليهم خدمهم كؤوس الشراب. والآنية: جمع إناء، وهو وعاء الماء ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: من فضة - جمع: كوب، وهو: إبريق لا عروة له - ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ كان تامة. أي: كوتت فكانت قوارير بتكوين الله. نصب على الحال - ﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ أي: مخلوقة من فضة، فهي جامعة لبياض الفضة وحسنها، وصفاء القوارير وشفيفها؛ حيث يرى ما فيها من الشراب من خارجها. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قوارير كل أرض من تربتها. وأرض الجنة فضة. قرأ نافع، والكسائي، وعاصم، وفي رواية أبي بكرٍ بالتثنية فيهما، وحمزة، وابن عامر، وأبو عمرو، وحفص بغير تنوين فيهما، وابن كثير بتثنية الأول. فالتثنية في الأول لتناسب الآي

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٤/٦٧٠).

قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَتُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَمًّا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ

المتقدمة، والمتأخرة، وفي الثاني لإتباعه الأول. والوقف على الأول قد قيل، ولا يوثق به؛ لأن الثاني بدل الأول ﴿قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ ﴿قوارير من فضة﴾ أي: أهل الجنة قدروها على أشكال مخصوصة، فجاءت كما قدروها تكرمة لهم، أو: السقاة جعلوها على قدر ري شاربها، فهي ألذ لهم، وأخف عليهم. وعن مجاهد: لا يُفيض، ولا يغيض.

١٧، ١٨ - ﴿وَتُسْقَوْنَ﴾ أي: الأبرار ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ خمرًا ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ * عَيْنًا - بدل من ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ - ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿تُسَمَّى﴾ تلك العين ﴿سَلْسَبِيلًا﴾. سميت العين ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ لطعم الزنجبيل فيها، والعرب تستلذه وتستطيه؛ و﴿سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الخلق وسهولة مساغها. قال أبو عبيدة: ماء سلسبيل: أي: عذب طيب.

١٩ - ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين. أو: ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى خدماً لأهل الجنة ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ لا يموتون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ لحسنهم، وصفاء ألوانهم، وانبثاثهم في مجالسهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾. وتخصيص المنثور لأنه أزين في النظر من المنظوم.

٢٠ - ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَمًّا﴾ * ﴿نَمًّا﴾ ظرف. أي: في الجنة. وليس لـ ﴿رَأَيْتَ﴾ مفعول ظاهر، ولا مقدر ليشيع في كل مرئي. تقديره: ﴿وَإِذَا﴾ اكتسبت الرؤية في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً ﴿وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً. يروى: «أن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه»^(١). وقيل: ملك لا يعقبه هُلك. أو: لهم فيها ما يشاؤون، أو يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون في الدخول عليهم.

٢١ - ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالنصب على أنه حال من الضمير في ﴿يطوف عليهم﴾.

ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمْتُهُمْ رِئْهُم شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمِنْهُمْ

أي: ﴿يطوف عليهم ولدان﴾ عاليًا للمطوف عليهم ﴿ثياب﴾. وبالسكون: مدني، وحمزة، على أنه مبتدأ خبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾. أي: ما يعلوهم من ملابسهم ﴿ثياب سندس﴾ رقيق الديباج ﴿خُضْرٌ﴾ جمع: أخضر ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ غليظ. برفعهما؛ حملًا على الثياب، نافع، وحفص. وبجرهما؛ حمزة، وعلي، حملًا على ﴿سندس﴾. ويرفع الأول، وجر الثاني، أو عكسه: غيرهم ﴿وَحُلُّوْا﴾ عطف على ﴿ويطوف عليهم﴾ ﴿أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾. وفي سورة الملائكة ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣] قال ابن المسيب: لا أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: واحد من فضة، وآخر من ذهب، وآخر من لؤلؤ. ﴿وَسَقَمْتُهُمْ رِئْهُم﴾ أضيف إليه تعالى للتحريف والتخصيص. وقيل: إن الملائكة يعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم، ويقولون: لقد طال أخذنا من الوسائط، فإذا هم بكاسات تلاقي أفواههم بغير أكفٍّ من غيب إلى عبد ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ ليس برجس كخمر الدنيا؛ لأن كونها رجسًا بالشرع، لا بالعقل، ولا تكليف ثم. أو: لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة^(١)، وتدوسه الأقدام الدنسة.

٢٢ - يقال لأهل الجنة: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُم جَزَاءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ محموداً، مقبولاً، مرضياً عندنا؛ حيث قلتم للمسكين، واليتيم، والأسير: ﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾.

٢٣، ٢٤ - ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لأن، تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ليتقرر في نفس النبي ﷺ: أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله مفزقاً إلا حكمةً وصواباً. ومن الحكمة: الأمر بالمصابرة ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ عليك بتبليغ الرسالة، واحتمال الأذية، وتأخير نصرتك على أعدائك من أهل مكة ﴿وَلَا تَطْعَمِنْهُمْ﴾ من الكفار للضجر من تأخر

(١) «الوضرة»: الدرن والدسم.

ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ
لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَیْجُوعُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ
خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ
اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾

الظفر ﴿ءَاثِمًا﴾ ركباً لما هو إثم، داعياً لك إليه ﴿أَوْ كُفُورًا﴾ فاعلاً لما هو كفر
داعياً لك إليه؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم، أو كفر،
أو غير إثم، ولا كفر. فنهى أن يساعدهم على الأولَيْنِ دون الثالث. وقيل:
الآثم: عتبه؛ لأنه كان ركباً للمآثم والفسوق. والكفور: الوليد، لأنه كان
غالياً في الكفر والجحود. والظاهر: أن المراد كلُّ آثم وكافر. أي: لا تطع
أحدهما. وإذا نهى عن طاعة أحدهما لا بعينه فقد نهى عن طاعتهما، ومتفرقاً.
ولو كان بالواو لجاز أن يطيع أحدهما؛ لأن الواو للجمع فيكون منهيًا عن
طاعتهما، لاعت طاعة أحدهما. وقيل: ﴿أَوْ﴾ بمعنى ولا. أي: ولا تطع أثماً
ولا كفوراً.

٢٥، ٢٦ - ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ صلِّ له ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾
صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وبعض الليل فصل صلاة العشاءين
﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ تهجد له هزيعاً طويلاً من الليل ثلثيه، أو نصفه، أو
ثلثه.

٢٧ - ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة ﴿يُجْهِنُونَ الْعَاجِلَةَ﴾ يؤثرونها على الآخرة ﴿وَيَذْرُونَ
وَرَاءَهُمْ﴾ قدامهم، أو خلف ظهورهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً لا يعبؤون به، وهو
يوم القيامة؛ لأنَّ شدائده تثقل على الكفار.

٢٨ - ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا﴾ أحكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ خلقهم. عن ابن عباس
- رضي الله عنهما - والفراء ﴿وَلِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: ﴿إِذَا شِئْنَا﴾
إهلاكهم أهلكناهم و﴿بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ﴾ في الخلقة ممن يطيع.

٢٩ - ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾
بالتقرب إليه بالطاعة له واتباع رسوله.

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

٣٠، ٣١ - ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ اتخذ السبيل إلى الله - وبالياء، مكِّي، وشامي، وأبو عمرو - ومحل ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ النصب على الظرف أي: إلا وقت مشيئة الله. وإنما يشاء الله ذلك ممن علم منه اختياره ذلك. وقيل: هو لعموم المشيئة في الطاعة، والعصيان، والكفر، والإيمان فيكون حجة لنا على المعتزلة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون منهم من الأحوال، ﴿حَكِيمًا﴾ مصيباً في الأقوال والأفعال، ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ هم المؤمنون ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ جنته؛ لأنها برحمته تنال. وهو حجة على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: قد شاء أن يدخل كلاً في رحمته؛ لأنه شاء إيمان الكل. والله تعالى أخبر أنه يدخل من يشاء في رحمته، وهو الذي علم منه أنه يختار الهدى ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الكافرين - لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها - ونصب بفعل يفسره ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، نحو: أوعد، وكافأ.

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① فَالْعَصْفَاتِ ② عَصْفًا ③ وَالنَّشِيرَاتِ ④ نَشْرًا ⑤ فَالْفَرَقَاتِ ⑥ فَرَقًا ⑦ فَالْمُلْقِيَاتِ ⑧ ذِكْرًا ⑨ عَذْرًا ⑩ أَوْ نُذْرًا ⑪

١ - ٧ - ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① فَالْعَصْفَاتِ ② عَصْفًا ③ وَالنَّشِيرَاتِ ④ نَشْرًا ⑤ فَالْفَرَقَاتِ ⑥ فَرَقًا ⑦ فَالْمُلْقِيَاتِ ⑧ ذِكْرًا ⑨ عَذْرًا ⑩ أَوْ نُذْرًا ⑪﴾ أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره، فعصفن في مضيهن، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن نفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين، ففرقن بين الحق والباطل، فالقن ﴿ذَكَرًا﴾ إلى الأنبياء - عليهم السلام - ﴿عَذْرًا﴾ للمحقين ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ للمبطلين. أو: أقسم بريح عذاب أرسلهن، فعصفن، وبريح رحمة نشرن السحاب في الجو، ففرقن بينه - كقوله: ﴿وَجَعَلَهُمْ كِسْفًا﴾ [الروم: ٤٨] - فالقن ﴿ذَكَرًا﴾ إِمَّا ﴿عَذْرًا﴾ للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم، واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، وإِمَّا إنذاراً للذين لا يشكرون، وينسبون ذلك إلى الأنواء. وجعلن ملقيات للذكر باعتبار السبية ﴿عُرْفًا﴾ حال. أي: متتابعة كعرف الفرس، يتلو بعضه بعضاً. أو مفعول له. أي: أرسلن للإحسان والمعروف. و﴿عَصْفًا﴾ و﴿نَشْرًا﴾ مصدران ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ أبو عمرو، وكوفي، غير أبي بكر، وحماد. والعذر والنذر مصدران من: عذر إذا محا الإساءة، ومن: أنذر إذا خوف، على فعل؛ كالكفر والشكر.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ
 سُفِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْنِتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
 الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ آلَتْ نُهُلُكَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾

وانتصابهما على البدل من ﴿ذكرًا﴾؛ أو على المفعول له ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ إن الذي
 توعدنه من مجيء يوم القيامة ﴿لَوَفْعٍ﴾ لكائن، نازل، لا ريب فيه. وهو جواب
 القسم. ولا وقف إلى هنا لوصل الجواب بالقسم.

٨- ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ محيت، أو ذهب بنورها. وجواب ﴿فَإِذَا﴾ محذوف.
 والعامل فيها جوابها، وهو وقوع الفصل ونحوه. و﴿النجوم﴾ فاعل فعل
 يفسره: ﴿طمست﴾.

٩- ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ فُتِحَتْ فكانت أبواباً.

١٠- ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ﴾ قلعت من أماكنها.

١١- ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْنِتْ﴾ أي: (وقَّت) كقراءة أبي عمرو، أبدلت الهمزة من
 الواو. ومعنى توقيت الرسل: تبين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على
 أممهم.

١٢- ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ﴾ أخرت وأمهلت. وفيه تعظيم لليوم، وتعجيب من
 هوله. والتأجيل من الأجل، كالتوقيت من الوقت.

١٣- ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ بيان ليوم التأجيل. وهو اليوم الذي يفصل فيه بين
 الخلائق.

١٤- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ تعجيب آخر وتعظيم لأمره.

١٥- ﴿وَبَلْ﴾ مبتدأ - وإن كان نكرة. لأنه في أصله مصدر منصوب ساد
 مسدّ فعله ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه
 للمدعو عليه، ونحوه: ﴿سَلَّمْ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] - ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه
 ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بذلك اليوم، خبره.

١٦- ﴿آلَتْ نُهُلُكَ الْأَوَّلِينَ﴾ الأمم الخالية المكذبة.

١٧- ﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ مستأنف بعد وقف. وهو وعيد لأهل مكة. أي:

كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْسًا شَدِيدَةً ﴿٢٧﴾ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾ أَنْظِلُّوْا إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ثم﴾ نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين؛ لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم.

١٨ - ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بكل من أجرم.

١٩ - ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بما أوعدنا.

٢٠، ٢٢ - ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ حقير، وهو النطفة ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الماء ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ مقر يتمكن فيه، وهو الرحم. ومحل ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ الحال؛ أي: مؤخرًا إلى مقدار من الوقت ﴿معلوم﴾ قد علمه الله وحكم به، وهو تسعة أشهر، أو ما فوقها، أو ما دونها.

٢٣ - ﴿فَقَدَرْنَا﴾ فقدرناه ذلك تقديرًا ﴿فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ فنعم المقدرون له نحن. أو ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على ذلك ﴿فنعلم القادرون﴾ عليه نحن. والأول أحق لقراءة نافع، وعليّ بالتشديد، ولقوله: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُوا﴾ [عبس: ١٩].

٢٤ - ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بنعمة الفطرة.

٢٥، ٢٦ - ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ هو من: كَفَت الشيء؛ إذا ضمه وجمعه. وهو اسم ما يكفت، كقولهم: الضمام لما يضم. وبه انتصب ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ كأنه قيل: كافته ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾. أو: بفعل مضمر يدل عليه ﴿كِفَاتًا﴾ وهو تكفت. أي: تكفت ﴿أَحْيَاءً﴾ على ظهرها ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ في بطنها. والتكثير فيهما للتفخيم. أي: تكفت ﴿أَحْيَاءً﴾ لا يعدون ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ لا يحصرون.

٢٧، ٢٨ - ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْسًا﴾ جبالًا ثوابت ﴿شَدِيدَةً﴾ عاليات ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ عذبًا ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه النعم.

٢٩ - ﴿أَنْظِلُّوْا إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي: يقال للكافرين يوم القيامة: سيروا إلى النار التي كنتم بها تكذبون.

أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ
كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا
يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ

٣٠- ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِلَى ظِلٍّ﴾ دخان جهنم ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يتشعب لعظمه ثلاث شعب. وهكذا الدخان العظيم يتفرق ثلاث فرق.

٣١- ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ نعت ﴿ظِلٍّ﴾. أي: لا مُظِلٌّ من حرّ ذلك اليوم وحرّ النار ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ في محل الجز. أي: وغير مغن عنهم ﴿مِنَ اللَّهَبِ﴾ ﴿مِنْ﴾ حرّ ﴿اللهب﴾ شيئاً.

٣٢-٣٤- ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار ﴿تَرْمِي بِشَرِّ﴾ هو ما تطاير من النار ﴿كَالْقَصْرِ﴾ في العظم. وقيل: هو الغليظ من الشجر. الواحدة قَصْرَةٌ ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ﴾ (١) كوفيٌّ، غير أبي بكر. جمع جَمَلٍ. ﴿جِمَالَاتٍ﴾ غيرهم. جمع الجمع ﴿صُفْرٌ﴾ جمع أصفر. أي: سود تضرب إلى الصفرة. شُبّه الشرر بالقصور، لعظمه وارتفاعه، وبالجمل للعظم والطول واللون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأنّ هذه صفتها.

٣٥- ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وقرئ بنصب اليوم. أي: ﴿هَذَا﴾ الذي قصّ عليكم واقع يؤمّنذ. وسئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] فقال: في ذلك اليوم مواقف: في بعضها يختصمون، وفي بعضها لا ينطقون. أو: ﴿لا ينطقون﴾ بما ينفعهم. فجعل نطقهم كلا نطق.

٣٦، ٣٧- ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عطف على ﴿يُؤْذَنُ﴾ منخرط في سلك النفي، أي: لا يكون لهم إذن واعتذار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا اليوم.

٣٨-٤٠- ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحقّ والمبطل، والمحسن والمسيء بالجزاء

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿جِمَالَةٌ﴾. وهي قراءة من ذكرهم.

جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤١﴾ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٢﴾ وَفَوْقَهُمْ مَائِشَتُهُمْ ﴿٤٣﴾ كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٥﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٦﴾ كُلُّوا وَتَمَنَعُوا فَلَيْلًا ﴿٤٧﴾ إِنَّا نَجْزِي الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكِعُوا لَا يَرْكُعُونَ ﴿٥٠﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٥١﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

﴿جَمَعْتَكُمْ﴾ يا مكذبي محمد ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ والمكذبين قبلكم ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حيلة في دفع العذاب ﴿فَكِيدُونِ﴾ فاحتالوا عليّ بتخليص أنفسكم من العذاب. والكيد متعمد، تقول: كدت فلاناً: إذا احتلت عليه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث.

٤١-٤٥- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ عن عذاب الله ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ جمع ظلّ ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية في الجنة ﴿وَفَوْقَهُمْ مَائِشَتُهُمْ﴾ أي: لذيذة مشتهاة ﴿كُلُّوا وَأَشْرَبُوا﴾ - في موضع الحال من ضمير ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ في الظرف الذي هو ﴿فِي ظِلَالٍ﴾. أي: هم مستقرون ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ مقولاً لهم ذلك - ﴿هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسنوا تجزوا بهذا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالجنة.

٤٦، ٤٧- ﴿كُلُّوا وَتَمَنَعُوا﴾ كلام مستأنف خطاب للمكذبين في الدنيا على وجه التهديد، كقوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿فَلَيْلًا﴾ لأن متاع الدنيا قليل ﴿إِنَّا نَجْزِي الْمُجْرِمُونَ﴾ كافرون. أي: إن كل مجرم يأكل ويتمتع أليماً قلائل، ثم يبقى في الهلاك الدائم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالمنعم.

٤٨، ٤٩- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكِعُوا﴾ اخشعوا لله، وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه، ودعوا هذا الاستكبار ﴿لَا يَرْكُعُونَ﴾ لا يخشعون، ولا يقبلون ذلك، ويصرون على استكبارهم. أو: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ صلّوا لا يصلّون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالأمر والنهي.

٥٠- ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي: إن لم يؤمنوا بالقرآن مع أنه آية مبصرة، ومعجزة باهرة من بين الكتب السماوية، فبأي كتاب بعده يؤمنون؟!.

سُورَةُ النَّبَأِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُوْ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

١ - ٣ - ﴿عَمَّ﴾ أصله ﴿عن ما﴾. وقرئ بها. ثم أدغمت النون في الميم فصار ﴿عَمَّا﴾ وقرئ بها. ثم حذفت الألف تخفيفاً لكثرة الاستعمال في الاستفهام. وعليه الاستعمال الكثير. وهذا استفهام تفخيم للمستفهم عنه؛ لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً. أو: يسألون غيرهم من المؤمنين. والضمير لأهل مكة. كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث، ويسألون المؤمنين عنه على طريق الاستهزاء ﴿عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾ أي: البعث. وهو بيان للشأن المفخم. وتقديره: ﴿عَمَّ يتساءلون﴾؟ يتساءلون ﴿عن النبأ العظيم﴾ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمنهم من يقطع بإنكاره، ومنهم من يشك. وقيل: الضمير للمسلمين والكافرين، وكانوا جميعاً يسألون عنه. فالمسلم يسأل ليزداد خشيةً، والكافر يسأل استهزاءً.

٤، ٥ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاختلاف، أو: التساؤل هزواً ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عياناً: أن ما يتساءلون عنه حق ﴿تُوْ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كثر الردع للتشديد. و﴿ثم﴾ يشعر بأن الثاني أبلغ من الأول، وأشد.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾

٦ - ١٦ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ﴾ لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من أضيف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة؟ فلم تنكرون قدرته على البعث، وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات؟ أو قيل لهم: لم فعل هذه الأشياء؟ والحكيم لا يفعل عبثاً، وإنكار البعث يؤدي إلى أنه عابث في كل ما فعل؟ ﴿مِهْدًا﴾ فراشاً فرشها لكم حتى سكتموها، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ للأرض لثلاثيم بكم، ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكراً وأنثى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قطعاً لأعمالكم، وراحة لأبدانكم. والسبت: القطع ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ سترأ يستركم عن العيون إذا أردتم إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه، ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقت معاش تتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم، ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديدة. أي: محكمة، قوية، لا يؤثر فيها مرور الزمان، أو: غلاظاً غلظ كل واحدة مسيرة خمسمئة سنة ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ مضيئاً وقادراً، أي: جامعاً للنور والحرارة. والمراد: الشمس ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أي: السحاب إذا أعصرت، أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر. ومنه: أعصرت الجارية: إذا دنت أن تحيض. أو: الرياح؛ لأنها تنشئ السحاب وتدرّ أخلافه. فيصح أن تجعل مبدأاً للإنزال. وقد جاء: أَنَّ الله تعالى يبعث الرياح، فتحمل الماء من السماء إلى السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ منصّباً بكثرة ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ بالماء ﴿حَبًّا﴾ كالبز والشعير ﴿وَنَبَاتًا﴾ وكلاً ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ ملتفة الأشجار. واحدها: لفّ، كجذع، وأجذاع، أو: لفيف، كشریف، وأشراف. أو: لا واحد له، كأوزاع. أو: هي جمع الجمع. فهي: جمع لفّ. وَلُفٌّ جمع لَفَاء، وهي: شجرة مجتمعة. ولا وقف من ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ إلى ﴿أَلْفَافًا﴾. والوقف الضروري على ﴿أَوْتَادًا﴾ و﴿مَعَاشًا﴾.

١٧ - ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين المحسن والمسيء، والمحق والمبطل ﴿كَانَ مِيقَتَنَا﴾

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابَا ﴿٢٢﴾ لِيَبْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا
يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾

وقتاً محدوداً، ومُنْتَهَى معلوماً لوقوع الجزاء، أو: ميعاداً للثواب والعقاب.

١٨ - ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ بدل من ﴿يوم الفصل﴾ أو: عطف بيان ﴿فِي الصُّورِ﴾ في القرن ﴿فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ حال. أي: جماعات مختلفة. أو: أمم، كل أمة مع رسولها.

١٩ - ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ خفيف، كوفي. أي: شقت لتزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ فصارت ذات أبواب، وطرق، وفروج، وما لها اليوم من فروج.
٢٠ - ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

٢١، ٢٥ - ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طريقاً عليه ممر الخلق، فليؤمّن يمرّ عليها والكافر يدخلها. وقيل: المرصاد: الحد الذي يكون فيه الرصد، أي: هي حدّ الطاغين الذين يرصدون فيه للعذاب، وهي مأبهم. أو: هي مرصاد لأهل الجنة، ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها؛ لأنّ مجازهم عليها ﴿لِلطَّاغِينَ مَنَابَا﴾ للكافرين مرجعاً ﴿لِيَبْثِينَ﴾ ماكثين - حال مقدرة من الضمير في ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ حمزة: ﴿لَبْثِينَ﴾. واللَّبْث أقوى؛ إذ اللابث من وجد منه اللَّبْث وإن قلّ، واللَّبْث من شأنه اللَّبْث والمقام في المكان ﴿فِيهَا﴾ في جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف جمع: حَقْب. وهو الدهر. ولم يرد به عدد محصور بل الأبد، كلما مضى حَقْب تبعه آخر إلى غير نهاية. ولا يستعمل الحقب والحُقْبَةُ إلا إذا أريد تتابع الأزمنة وتواليها. وقيل: الحقب ثمانون سنة. وسئل بعض العلماء عن هذه الآية فأجاب بعد عشرين سنة: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: غير ذائقين. حال من ضمير ﴿لابثين﴾. فإذا انقضت هذه الأحقاب التي عذبوا فيها بمنع البرد والشراب بدّلوا بأحقاب آخر فيها عذاب آخر. وهي: أحقاب بعد أحقاب لا انقطاع لها. وقيل: هو من: حقب عامنا إذا قلّ مطره وخيره، وحقب فلان: إذا أخطأه الرزق، فهو حقب، وجمعه:

إِلَّا حِمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ

أحقاب. فينتصب حالاً عنهم. أي: لابئين فيها حَقِيبين ﴿٢٥﴾ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴿٢٦﴾ تفسير له. وقوله: ﴿إِلَّا حِمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾^(١) استثناء منقطع أي: ﴿لا يذوقون﴾ في جهنم أو: في الأحقاب ﴿برداً﴾ روحاً ينفس عنهم حرَّ النار، أو نوماً. ومنه: منع البرد ﴿ولا شراباً﴾ يسكن عطشهم، ولكن يذوقون فيها ﴿حيماً﴾ ماءً حاراً يحرق ما يأتي عليه ﴿وغساقاً﴾ ماء يسيل من صديدهم. وبالتشديد كوفي غير أبي بكر.

٢٦، ٢٧ - ﴿جَزَاءً﴾ جوزوا جزاءً ﴿وَفَاقًا﴾ موافقاً لأعمالهم. مصدر بمعنى الصفة، أو: ذا وفاق. ثم استأنف معللاً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لا يخافون محاسبة الله إياهم. أو: لم يؤمنوا بالبعث ليرجوا حساباً. ٢٨ - ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ تكذيباً. وفعال في باب فعل كُله فاش.

٢٩، ٣٠ - ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ نصب بمضمر يفسره ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ مكتوباً في اللوح. حال، أو: مصدر في موضع إحصاء. أو: أحصينا في معنى: كتبنا. لأن الإحصاء يكون بالكتابة غالباً. وهذه الآية اعتراض؛ لأن قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات. أي: ﴿فَذُوقُوا﴾ جزاءكم. والالتفات شاهد على شدة الغضب ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. في الحديث: «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار»^(٢).

٣١ - ٣٥ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ مَفْعَلٌ من: الفوز يصلح مصدراً، أي: نجاة من كل مكروه، وظفراً بكل محبوب. ويصلح للمكان، وهو الجنة. ثم أبدل منه بدل البعض من الكل فقال: ﴿حَدَائِقَ﴾: بساتين فيها أنواع الشجر المثمر. جمع:

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿وَعَسَّاقًا﴾ بالتخفيف. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٤٨/٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم والثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/٦٩٠).

وَأَعْتَبْنَا ﴿٢٢﴾ وَكَوَاعِبَ آثَرَابَا ﴿٢٣﴾ وَكَأْسَا دِهَاقَا ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءُ مَن
رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابَا ﴿٢٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابَا ﴿٢٧﴾ يَوْمَ
يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابَا ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ
الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابَا ﴿٢٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبَا

حديقة ﴿وَأَعْتَبْنَا﴾ كروماً - عطف على ﴿حَدائق﴾ ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ نواهد ﴿آثَرَابَا﴾ لَدَاتٍ
مستويات في السن ﴿وَكَأْسَا دِهَاقَا﴾ مملوءة ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة. حال من
ضمير خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا كِذْبًا﴾ الكسائي: خفيف بمعنى مكاذبة.
أي: لا يكذب بعضهم بعضاً. أو: لا يكاذبه.

٣٦ - ﴿جَزَاءُ﴾ مصدر. أي: جزاهم جزاء ﴿مِنَ رَبِّكَ عَطَاءٌ﴾ مصدر، أو: بدل
من ﴿جزاء﴾ ﴿حِسَابَا﴾ صفة. يعني: كافياً. أو على حسب أعمالهم.

٣٧ - ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ بجزءها، ابن عامر، وعاصم،
بدلاً من ﴿رَبِّكَ﴾. ومن رفعهما فـ ﴿رَبُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره
﴿الرحمن﴾. أو ﴿الرحمن﴾ صفته و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبر. أو: هما خبران. والضمير في
﴿لا يملكون﴾ لأهل السموات والأرض، وفي ﴿مِنْهُ خِطَابَا﴾ الله تعالى. أي:
لا يملكون الشفاعة من عذابه تعالى إلا بإذنه. أو: لا يقدر أحد أن يخاطبه تعالى
خوفاً.

٣٨ - ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إن جعلته ظرفاً لـ ﴿لا يملكون﴾ لا تقف على ﴿خطاباً﴾
وإن جعلته ظرفاً لـ ﴿لا يتكلمون﴾ تقف ﴿الرُّوحُ﴾ جبريل، عند الجمهور.
وقيل: هو ملك عظيم، ما خلق الله تعالى بعد العرش خلقاً أعظم منه
﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ حال. أي: مصطفين ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: الخلائق ثم خوفاً
﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الكلام، أو: الشفاعة ﴿وَقَالَ صَوَابَا﴾ حقاً. بأن قال
المشفوع له: لا إله إلا الله في الدنيا. أو: لا يؤذن إلا لمن يتكلم بالصواب في
أمر الشفاعة.

٣٩ - ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ الثابت وقوعه ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابَا﴾ مرجعاً
بالعمل الصالح.

٤٠ - ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ في الآخرة؛ لأن ما هو آتٍ

يَوْمَ يُنْظَرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿١٠﴾

قريب ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ الْمَرْءُ﴾ أي: الكافر - لقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ - ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الشر - كقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ﴿[آل عمران: ١٨١-١٨٢] وتخصيص الأيدي، لأن أكثر الأعمال تقع بها، وإن احتمل ألا يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع المضممر لزيادة الذم. أو: ﴿المرء﴾ عام. وخص منه الكافر. و﴿ما قدمت يداه﴾ ما عمل من خير وشر. أو: هو المؤمن لذكر الكافر بعده، وما قدم من خير. و﴿ما﴾ استفهامية منصوبة بـ ﴿قدمت﴾ أي: ﴿ينظر﴾ أي شيء ﴿قدمت يداه﴾؟ أو: موصولة منصوبة بـ ﴿ينظر﴾ يقال: نظرت. يعني: نظرت إليه. والراجع من الصلة محذوف. أي: قدمته ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ في الدنيا، فلم أخلق، ولم أكلف. أو: ﴿ليتني كنت تراباً﴾ في هذا اليوم، فلم أبعث. وقيل: يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتصر للجَمَاء من القرناء، ثم يرده تراباً، فيود الكافر حاله. وقيل: الكافر إبليس يتمنى أن يكون كآدم مخلوقاً من التراب ليثاب ثواب أولاده المؤمنين.

* * *

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّيْحَاتِ سَبَاحًا ﴿٣﴾ فَالسَّيِّدَاتِ سَبَاحًا ﴿٤﴾
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾

١ - ٥ - ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّيْحَاتِ سَبَاحًا ﴿٣﴾ فَالسَّيِّدَاتِ سَبَاحًا ﴿٤﴾﴾
سَبَاحًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ لا وقف إلى هنا، ولزم هنا؛ لأنه لو وصل لصار ﴿يوم﴾ ظرف ﴿المُدَبِّرَاتِ﴾ وقد انقضى تدبير الملائكة في ذلك اليوم. أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد ﴿غَرْقًا﴾ أي: إغراقاً في النزاع، أي: تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها، ومواضع أظفارها. وبالطوائف التي تنشطها، أي: تخرجها. من: نَشْط الدلو من البئر: إذا أخرجها. وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي: تسرع، فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبر ﴿أمرًا﴾ من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم، أو دنياهم؛ كما رسم لهم. أو: بخيل الغزاة التي تنزع في أعتتها نزعاً، تغرق فيه الأعتة لطول أعناقها؛ لأنها عراب، والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب. من قولك: ثور ناشط: إذا خرج من بلد إلى بلد. والتي تسبح في جريها، فتسبق إلى الغاية، فتدبر أمر الغلبة والظفر. وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه. أو: بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب. وإغراقها في النزاع: أن تقطع الفلك كله حتى تنحط في أقصى الغرب. والتي تخرج من برج إلى برج، والتي تسبح في الفلك

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿١﴾ تَتَّبِعُهَا الرّٰادِفَةُ ﴿٢﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٣﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٤﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿٥﴾ أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا نَّخْرَةً ﴿٦﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿٧﴾

من السيّارة، فتسبق، فتدبرُ أمراً من علم الحساب. وجواب القسم محذوف، وهو: لتبعثنّ، للدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.

٦-٩- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تتحرك ﴿الرّٰادِفَةُ﴾ حركةٌ شديدة - والرجف: شدة الحركة ﴿الراجفة﴾ النفخة الأولى، وصفت بما يحدث بحدوثها؛ لأنها تضطرب بها الأرض؛ حتّى يموت كلّ من عليها - ﴿تَتَّبِعُهَا﴾ حال عن ﴿الراجفة﴾ ﴿الرّٰادِفَةُ﴾ النفخة الثانية؛ لأنها تردف الأولى، وبينهما أربعون سنة والأولى تमित الخلق، والثانية تحييهم ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ قلوب منكري البعث ﴿وَاجِفَةٌ﴾ مضطربة. من: الوجيف، وهو الوجيب. وانتصاب ﴿يوم ترجف﴾ بما دلّ عليه ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجفة﴾ أي: ﴿يوم ترجف﴾ وجفت القلوب. وارتفاع ﴿قُلُوبٌ﴾ بالابتداء. و﴿واجفة﴾ صفتها ﴿أَبْصَرُهَا﴾، أي: أبصار أصحابها ﴿خَشِيعَةٌ﴾ ذليلة لهول ما ترى، خبرها.

١٠، ١١ - ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: منكرو البعث في الدنيا، استهزاء وإنكاراً للبعث: - ﴿أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي: أنردّ بعد موتنا إلى أوّل الأمر، فنعود أحياء كما كنّا؟ والحافرة: الحالة الأولى. يقال لمن كان في أمر، فخرج منه، ثمّ عاد إليه: رجع إلى حافرته، أي: إلى حالته الأولى. ويقال: النقد عند الحافرة. أي: عند الحالة الأولى. وهي: الصفقة. أنكروا البعث، ثمّ زادوا استعباداً، فقالوا: ﴿أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا نَّخْرَةً﴾ بالية. ﴿ناخرة﴾ كوفيّ غير حفص و﴿فَعِلٌ﴾ أبلغ من فاعل. يقال: نخر العظم، فهو نخر، وناخر. والمعنى: أنردّ إلى الحياة بعد أن صرنا عظاماً بالية؟ و﴿إذا﴾ منصوب بمحذوف، وهو: نبعث.

١٢- ﴿قَالُوا﴾ أي: منكرو البعث: ﴿تِلْكَ﴾ رجعتنا ﴿إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ رجعة

ذات خسران، أو: خاسر أصحابها. والمعنى: أنها إن صحّت وبعثنا فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا بها. وهذا استهزاء منهم.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَّ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزُكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى
رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾

١٣ - ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متعلق بمحذوف. أي: لا تحسبوا تلك الكثرة صعبة على الله عز وجل؛ فإنها سهلة هيته في قدرته، فما هي إلا صيحة واحدة. يريد: النفخة الثانية. من: زجر البعير: إذا صاح عليه.

١٤ - ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها. وقيل: الساهرة: أرض بعينها بالشام إلى جنب بيت المقدس، أو: بيت المقدس، أو: أرض مكة، أو: جهنم.

١٥ - ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ استفهام يتضمن التنبيه على أن هذا مما يجب. والتشريف للمخاطب به.

١٦ - ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ حين ناداه ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المبارك المطهر ﴿طُوًى﴾ اسمه.

١٧ - ﴿أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ﴾ على إرادة القول. ﴿إِنَّهُ ظَنَّ﴾ تجاوز الحد في الكفر والفساد.

١٨، ١٩ - ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزُكَّى﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان بالطاعة والإيمان؟ ويتشديد الزاي حجازي ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفة الله بذكر صفاته فتعرفه ﴿فَتَخْشَى﴾؛ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء به. وعن بعض الحكماء: اعرفوا الله، فمن عرف الله، لم يقدر أن يعصيه طرفة عين. فالخشية ملاك الأمر. من خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر. ومنه الحديث: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»^(١). بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض؛ كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرقيق، ليستدعيه باللطف في القول، ويستنزله بالمداواة من عتوه؛ كما أمر بذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُمُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾ [طه: ٤٤].

فَارْتُ الْآيَةِ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعْتَهَا فَسَوَّيَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾

٢٠ - ٢٢ - ﴿فَارْتُ الْآيَةِ الْكُبْرَى﴾ أي: فذهب فأرى موسى فرعون العصا. أو: العصا، واليد البيضاء؛ لأنهما في حكم آية واحدة ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى والآية الكبرى، وسماهما ساحراً وسحراً ﴿وَعَصَى﴾ الله تعالى ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾ تولى عن موسى ﴿يَسْعَى﴾ يجتهد في مكايده. أو: لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً يسرع في مشيته، وكان طيئاشاً خفيفاً.

٢٣، ٢٤ - ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع السحرة وجنده ﴿فَنَادَى﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ لا رب فوقي. وكانت لهم أصنام يعبدونها.

٢٥ - ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾ عاقبه الله عقوبة الآخرة. والنكال: بمعنى التنكيل، كالسلام: بمعنى التسليم. ونصبه على المصدر؛ لأن أخذ بمعنى: نكل. كأنه قيل: نكل الله به ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾ أي: الإحراق ﴿وَالْأُولَى﴾ أي: الإغراق. أو: ﴿نَكَالَ﴾ كلمتيه ﴿الْآخِرَةِ﴾ - وهي: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ - ﴿وَالْأُولَى﴾ وهي: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وبينهما أربعون سنة، أو: ثلاثون، أو: عشرون.

٢٦ - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ الله.

٢٧ - ٢٩ - ﴿أَنتُمْ﴾ يا منكري البعث ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعب خلقاً، وإنشاء ﴿أَمِ السَّمَاءِ﴾ أي: أم السماء ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ ثم بين كيف خلقها فقال: ﴿بَنَاهَا﴾ أي الله. ثم بين البناء فقال: ﴿رَفَعَ سَعْتَهَا﴾ أعلى سقفها. وقيل: جعل مقدار ذهابها في سمت العلو رفيعاً مسيرة خمسمئة عام ﴿فَسَوَّيَهَا﴾ فعدلها مستوية بلا شقوق ولا فطور ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أبرز ضوء شمسها. وأضيف الليل والشمس إلى السماء؛ لأن الليل ظلها، والشمس سراجها.

٣٠، ٣١ - ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ بسطها، وكانت مخلوقة غير مدحوة،

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا ﴿٣٢﴾ مَتَّعًا لَكُمْ وَلَئِنْ نَسِيتُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتْ
الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ
طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾

فدحيت من مكة بعد خلق السماء بألفي عام. ثم فسر البسط فقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتفجير العيون ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ كلاها؛ ولذا لم يدخل العاطف على ﴿أخرج﴾. أو: ﴿أخرج﴾ حال بإضمار قد.

٣٢، ٣٣ - ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾ أثبتها. وانتصاب ﴿الأرض﴾ و﴿الجبال﴾ بإضمار: دحا، وأرسي على شريطة التفسير ﴿مَتَّعًا لَكُمْ وَلَئِنْ نَسِيتُمْ﴾ فعل ذلك تمتعاً ﴿لكم ولأنعامكم﴾.

٣٤ - ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ الداهية العظمى؛ التي تطم على الدواهي، أي: تعلو، وتغلب. وهي: النفخة الثانية، أو: الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار.

٣٥ - ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ بدل من ﴿إذا جاءت﴾. أي: إذا رأى أعماله مدونة في كتابه يتذكرها، وكان قد نسيها ﴿مَا سَعَى﴾ «ما»: مصدرية. أي: سعيه. أو: موصولة.

٣٦ - ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ﴾ وأظهرت ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ لكل راء؛ لظهورها ظهوراً بيئاً.

٣٧ - ٣٩ - ﴿فَأَمَّا﴾ جواب ﴿فإذا﴾. أي: إذا ﴿جاءت الطائفة﴾، فإن الأمر كذلك ﴿مَنْ طَغَى﴾ جاوز الحد فكفر ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة باتِّباع الشهوات ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ مأواه. والألف واللام بدل الإضافة. وهذا عند الكوفيين. وعند سيبويه والبصريين ﴿هي المأوى﴾ له.

٤٠، ٤١ - ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: علم أن له مقاماً يوم القيامة لحساب ربه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾ الأمانة بالسوء ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ المُرْدِي. أي: زجرها عن اتِّباع الشهوات. قيل: هو الرجل يهتّم بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب، فيتركها.

فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْتُلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

والهوى: ميل النفس إلى شهواتها ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي المرجع.

٤٢ - ﴿يَسْتُلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها. أي: إقامتها. يعني: متى يقيمها الله تعالى، ويثبتها؟

٤٣، ٤٤ - ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم، وتعلمهم به؟ أي: ما أنت من ذكراها لهم وتبين وقتها في شيء؟ كقولك: ليس فلان من العلم في شيء. وكان رسول الله ﷺ لم يزل يذكر الساعة، ويسأل عنها حتى نزلت، فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها. أي: أنهم يسألونك عنها؛ فلحرصك على جوابهم؛ لا تزال تذكرها، وتسال عنها ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ منتهى علمها متى تكون، لا يعلمها غيره. أو: ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم عنها. أي: ﴿فِيمَ﴾ هذا السؤال؟ ثم قال: ﴿أنت من ذكراها﴾ أي إرسالك - وأنت آخر الأنبياء - علامة من علاماتها، فلا معنى لسؤالهم عنها. ولا يبعد أن يوقف على هذا على ﴿فِيمَ﴾. وقيل: ﴿فِيمَ أنت من ذكراها﴾ متصل بالسؤال. أي: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ ويقولون: أين أنت من ذكراها؟ ثم استأنف، فقال: ﴿إلى ربك منتهاه﴾.

٤٥ - ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ أي: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدتها ﴿منذر﴾ منون، يزيد، وعيَّاش.

٤٦ - ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا﴾ أي: الساعة ﴿لَمْ يَلْبِسُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي: ضحى العشيّة. استقلوا مدة لبثهم في الدنيا لما عاينوا من الهول؛ كقوله: ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥] وقوله: ﴿قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]. وإنما صحت إضافة الضحى إلى العشيّة للملاسة بينهما؛ لاجتماعهما في نهار واحد. والمراد: أنّ مدة لبثهم لم تبلغ يوماً كاملاً، ولكن أحد طرفي النهار عشيته أو ضحاها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾

١ ، ٢ - ﴿عَبَسَ﴾ كَلَح. أي: النبي ﷺ ﴿وَتَوَلَّى﴾ أَعْرَضَ ﴿أَنْ جَاءَهُ﴾ لَأَنْ جَاءَهُ - ومحلُّه نصب لأنَّه مفعول له. والعامل فيه ﴿عَبَسَ﴾ أو ﴿تَوَلَّى﴾ على اختلاف المذهبين ﴿الْأَعْمَى﴾ عبد الله بن أمِّ مكتوم. وأمُّ مكتوم أمُّ أبيه، وأبوه شريح بن مالك. أتى النبي ﷺ وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام. فقال: يا رسول الله علِّمني مما علمك الله! وكثر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم. فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه. فنزلت. فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعده، ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربِّي»^(١) واستخلفه على المدينة مرتين.

٣ ، ٤ - ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأي شيء دارياً بحال هذا الأعمى؟ ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ لعلَّ الأعمى يتطهر بما يسمع منك من دنس الجهل. وأصله: يترزَّى، فأدغمت التاء في الزاي. وكذا ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ﴿فَتَنْفَعَهُ﴾ نصبه عاصم غير الأعشى، جواباً ل: «لعلَّ». وغيره رفعه عطفاً على ﴿يَذَّكَّرُ﴾ ﴿الذِّكْرَى﴾ ذكراك. أي:

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٩٧).

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَإِنَّ لَمْ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْزُقَ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَإِنَّ عَنَّهُ لَتَلَهَّى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴿١٧﴾

موعظتك. أي: إنك لا تدري ما هو مترقب منه؛ من ترك، أو تذكر. ولو دريت لما فرط ذلك منك.

٥ - ٧ - ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ أي: من كان غنياً بالمال ﴿فَإِنَّ لَمْ تَصَدَّى﴾ تتعرض بالإقبال عليه حرصاً على إيمانه. ﴿تَصَدَّى﴾ بإدغام التاء في الصاد، حجازي ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْزُقَ﴾ وليس عليك بأس في ألا يتزكى بالإسلام. إن عليك إلا البلاغ.

٨ - ١٠ - ﴿وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ يسرع في طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ الله، أو الكفار، أو الكبوة؛ كعادة العميان ﴿فَإِنَّ عَنَّهُ لَتَلَهَّى﴾ تتشاغل. وأصله: تلهى. وروي: أنه ﷺ ما عبس بعدها في وجه فقير قط، ولا تصدى لغني. وروي: أن الفقراء في مجلس الثوري كانوا أمراء.

١١ - ﴿كَلَّا﴾ ردع. أي: لا تعد إلى مثله ﴿إِنَّهَا﴾ إن السورة، أو: الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.

١٢ - ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ فمن شاء الله أن يذكره. أو ذكر الضمير؛ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ. والمعنى: فمن شاء الذكر ألهمه الله تعالى.

١٣ - ١٦ - ﴿فِي صُحُفٍ﴾ صفة لتذكره. أي: أنها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح. أو خبر مبتدأ محذوف. أي: هي في صحف ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ عند الله ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ في السماء، أو: مرفوعة القدر والمنزلة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ عن مس غير الملائكة، أو عما ليس من كلام الله ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كتبة - جمع: سافر. أي: الملائكة يتسخون الكتب من اللوح - ﴿كِرَامٍ﴾ على الله، أو: عن المعاصي ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء. جمع: بار.

١٧ - ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ﴾ لعن الكافر، أو: هو أمية، أو: عتبة ﴿مَا أَكْفَرُ﴾ استفهام توبيخ، أي: أي شيء حمله على الكفر؟ أو: هو تعجب، أي: ما أشد كفره!

مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ ﴿١٨﴾ مِنْ تُطْفِئُ خَلَقْتُمْ فَقَدَرْتُمْ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرْتُمْ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَّانَهُمْ فَأَقْبَرْتُمْ ﴿٢١﴾ ثُمَّ
إِذَا شَاءَ أَنْشَرْتُمْ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرْتُمْ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ
صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبَاً وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا تَحْلًا ﴿٢٩﴾
وَعَدَايَ نَبًا ﴿٣٠﴾ وَفَلَكَهًا ﴿٣١﴾ مَنَعًا لَكُمْ وَلَئِنَّمَكُمُ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٣٣﴾

١٨ ، ١٩ - ﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ﴾ من أي حقير حقير ﴿خلقه﴾؟ وهو استفهام، ومعناه: التقرير. ثم بين ذلك الشيء فقال: ﴿مِنْ تُطْفِئُ خَلَقْتُمْ فَقَدَرْتُمْ﴾ على ما يشاء من خلقه.

٢٠ - ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرْتُمْ﴾ نصب السبيل بإضمار يَسِّر. أي: ثم سهل له سبيل الخروج من بطن أمه. أو بين له سبيل الخير والشر.

٢١ - ﴿ثُمَّ أَمَّانَهُمْ فَأَقْبَرْتُمْ﴾ جعله ذا قبر يوارى فيه، لا كالبهائم، كرامة له. قبر الميِّت: دفنه. وأقبره: أمره أن يقبره ومكَّنه منه.

٢٢ - ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرْتُمْ﴾ أحياء بعد موته.

٢٣ - ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن الكفر ﴿لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرْتُمْ﴾ لم يفعل هذا الكافر ما أمره الله به من الإيمان.

٢٤ - ولَمَّا عدد النعم في نفسه من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ الذي يأكله ويحيا به كيف دبرنا أمره!

٢٥ - ﴿أَنَا﴾ بالفتح، كوفي، على أنه بدل اشتغال من الطعام. وبالكسر، على الاستئناف، غيرهم ﴿صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ يعني: المطر من السحاب.

٢٦ - ٣٢ - ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ بالنبات ﴿فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالبر والشعير وغيرهما مما يتغذى به ﴿وَعَبًّا﴾ ثمرة الكرم - أي: الطعام والفاكهة - ﴿وَقَضْبًا﴾ رطبة - سُمِّيَ بمصدر قضبه. أي: قطعه؛ لأنه يقضب مرة بعد مرة ﴿وَزَيْتُونًا تَحْلًا﴾ * وعدايتي ﴿بساتين﴾ ﴿غُلَبًا﴾ غلاظ الأشجار. جمع: غلباء ﴿وَفَلَكَهًا﴾ لكم ﴿وَأَبَّا﴾ مرعى لدوابكم ﴿مَنَعًا﴾ مصدر. أي: منفعة ﴿لَكُمْ وَلَئِنَّمَكُمُ﴾.

٣٣ ، ٣٧ - ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ صيحة القيامة؛ لأنها تصُخ الأذان. أي:

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٥﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٦﴾ وَصَدِيقِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٧﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٨﴾ وَوَجُوهُ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٤٠﴾ وَوُجُوهُ عَلَيْهِمْ غَبْرَةٌ ﴿٤١﴾ تَرَهَقَهَا قَرَّةٌ ﴿٤٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٣﴾

تصمها. وجوابه محذوف لظهوره ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ لتبعات بينه وبينهم، أو: لاشتغاله بنفسه ﴿وَصَدِيقِيهِ﴾ وزوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ بدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة، والبنين، لأنهم أحب. قيل: أول من يفر من أخيه: هابيل، ومن أبويه: إبراهيم، ومن صاحبتة: نوح، ولوط، ومن ابنه: نوح - عليهم السلام - ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ في نفسه ﴿يُغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن غيره.

٣٨، ٣٩ - ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ مضبئة، من قيام الليل، أو من آثار الضوء ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: أصحاب هذه الوجوه - وهم المؤمنون - ضاحكون مسرورون.

٤٠، ٤١ - ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهِمْ غَبْرَةٌ﴾ غبار ﴿تَرَهَقَهَا قَرَّةٌ﴾ يعلو الغبرة سواد كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه.

٤٢ - ﴿أُولَئِكَ﴾ أهل هذه الحال ﴿هُمُ الْكَافِرَةُ﴾ في حقوق الله ﴿الْفَجَرَةُ﴾ في حقوق العباد. أو: لما جمعوا الفجور إلى الكفر، جمع إلى سواد وجوههم الغبرة.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ
عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾

١ - ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ذهب ضوؤها. من: كُوِّرَت العمامة: إذا لففتها. أي: يلف ضوؤها لفاً، فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق. وارتفاع ﴿الشمس﴾ بالفاعلية. ورافعها: فعل مضمر يفسره: ﴿كُوِّرَتْ﴾ لأنّ «إذا» يطلب الفعل؛ لما فيه من معنى الشرط.

٢ - ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ تساقطت.

٣ - ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض وأبعدت. أو: ﴿سُيِّرَتْ﴾ في الجوّ تسيير السحاب.

٤ - ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ جمع عشراء. وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ﴿عُطِّلَتْ﴾ أهملت، عطّلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم، وكانوا يحبسونها إذا بلغت هذه الحال لعزّتها عندهم، ويعطلون ما دونها. ﴿عطلت﴾ بالتخفيف، عن البرّيّ.

٥ - ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعت من كلّ ناحية. قال قتادة: يحشر كلّ شيء حتّى الذباب للقصاص، فإذا قضي بينها ردّت تراباً، فلا يبقى منها إلّا ما فيه

وَاِذَا الْيَحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَاِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَاِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَاِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَاِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَاِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾

سرور لبني آدم؛ كالتطاووس ونحوه. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: حشرها: موتها. يقال: إذا أبحفت السنة بالناس وأموالهم: حشرتهم السنة.

٦ - ﴿وَاِذَا الْيَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ﴿سُجِّرَتْ﴾ مكِّي وبصريٌّ. من سجر التنور: إذا ملأه بالخطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً. وقيل: ملئت نيراناً لتعذيب أهل النار.

٧ - ﴿وَاِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ﴾ قرنت كل نفس بشكلها: الصالح مع الصالح في الجنة، والطالح مع الطالح في النار. أو: قرنت الأرواح بالأجساد. أو: بكتبها وأعمالها. أو: نفوس المؤمنين بالخور العين، ونفوس الكافرين بالشياطين.

٨، ٩ - ﴿وَاِذَا الْمَوْءِدَةُ﴾ المدفونة حية. وكانت العرب تئد البنات خشية الإملاق، وخوف الاسترقاق ﴿سُيِّلَتْ﴾ سؤال تلطف، لتقول: بلا ذنب قُتِلَتْ. أو: لتدخل على قاتلها. أو: هو توبيخ لقاتلها بصرف الخطاب عنه، كقوله: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ...﴾ الآية [المائدة: ١١٦] ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وبالتشديد يزيد. وفيه دليل: على أن أطفال المشركين لا يعذبون، وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنب.

١٠ - ﴿وَاِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾^(١) فتحت. وبالتخفيف مدني، وشامي، وعاصم، وسهل، ويعقوب. والمراد صحف الأعمال. تطوى صحيفة الإنسان عند موته ثم تنشر إذا حوسب. ويجوز أن يراد ﴿نشرت﴾ بين أصحابها، أي: فرقت بينهم.

١١ - ﴿وَاِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف.

١٢ - ﴿وَاِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾^(٢) أوقدت إيقاداً شديداً، وبالتشديد، شامي،

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿نُشِّرَتْ﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، ويحيى، والأعمش، وخلف، معجم القراءات القرآنية (٨٣/٨).

(٢) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿سُعِّرَتْ﴾ بالتخفيف. وهي قراءة: ابن =

وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ ﴿١٢﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴿١٦﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي
الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ

ومدنيّ، وعاصم، غير حماد، ويحيى، للمبالغة.

١٣، ١٤ - ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ﴾ أدنيت من المتقين كقوله: ﴿وَأُنْزِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] فهذه اثنتا عشرة خصلة: ستّ منها في الدنيا، والبقية في الآخرة، ولا وقف مطلقاً من أوّل السورة إلى ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾ لأنّ عامل النصب في ﴿إِذَا الشَّمْسُ﴾ وفيما عطف عليه، جوابها وهو ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كلّ نفس. ولضرورة انقطاع النفس على كلّ آية جوّز الوقف ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾ من خير وشرّ.

١٥ - ٢١ - ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ لا زائدة ﴿بِالْخُنُوسِ﴾ بالرواجع، بينا ترى النجم في آخر البرج إذ كَرَّ راجعاً إلى أوّله ﴿الْجَوَارِ﴾ السيّارة ﴿الْكُنُوسِ﴾ الغيب. من: كنس الوحش: إذا دخل كناسه. قيل: هي الدراريّ الخمسة: بهرام، وزحل، وعطارد، والزهرة، والمشتري، تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتّى تخفى تحت ضوء الشمس. فخنوسها: رجوعها. وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾، أقبل بظلامه، أو: أدبر، فهو من الأضداد ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ امتدّ ضوؤه. ولما كان إقبال الصبح يلازمه الرّوح والنسيم، جعل ذلك نفساً له مجازاً. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ - أي: جبريل عليه السلام. وإنما أضيف القرآن إليه؛ لأنّه هو الذي نزل به - ﴿كَرِيمٍ﴾ عند ربّه ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ قدرة على ما يكلف، لا يعجز عنه، ولا يضعف ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ عند الله ﴿مَكِينٍ﴾ ذي جاه ومنزلة - ولما كانت حال المكانة على حسب حال الممكن، قال: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ ليدلّ على عظم منزلته ومكانته ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السموات يطيعه من فيها. أو: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: عند الله: يطيعه ملائكته المقربون يصدرون عن

أَمِينٌ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئُقِ الْمُنِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾

أمره، ويرجعون إلى رأيه ﴿أَمِينٌ﴾ على الوحي .

٢٢ - ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تزعم الكفرة . وهو عطف على جواب القسم .

٢٣ - ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام على صورته ﴿بِالْأَفْئُقِ الْمُنِينِ﴾ بمطلع الشمس .

٢٤ - ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ﴾ محمداً على الوحي ﴿بِضَنِينٍ﴾ ببخيل . من الضنَّ، وهو: البخل . أي: لا يبخل بالوحي كما يبخل الكهان رغبة في الحُلُوان، بل يعلمه كما عُلِّمَ، ولا يكتُم شيئاً ممَّا عُلِّمَ . ﴿بِظَنِينٍ﴾ مكِّيٍّ، وأبو عمرو، وعليٍّ . أي: بمتهم فينقص شيئاً ممَّا أوحى إليه، أو يزيد فيه . من: الظنَّة . وهي: التُّهمَة .

٢٥ - ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ طريد . وهو كقوله: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] أي: ليس هو بقول بعض المسترقة للسمع، وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة .

٢٦ - ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلال لهم، كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بُنَيَات الطريق: أين تذهب؟ مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل . وقال الزجاج: معناه: فأئني طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بيئت لكم؟ وقال الجنيذ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ عنا، وإن من شيء إلا عندنا؟

٢٧ ، ٢٨ - ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ما القرآن إلا عظة للخلق ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ بدل من العالمين ﴿أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي: القرآن ذِكْرٌ لمن شاء الاستقامة . يعني: أن الذين شأوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المتفعون بالذكر . فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعوظين جميعاً .

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

٢٩ - ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالك الخلق

أجمعين .

* * *

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ

١ - ٥ - ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ انشقت ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ تساقطت ﴿وَإِذَا
الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ فتح بعضها إلى بعض، وصارت البحار بحراً واحداً ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ﴾ بحث وأخرج موتاها. وجواب إذا: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾ أي: كل نفس برة
وفاجرة ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ ما عملت من طاعة ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وتركت فلم تعمل، أو:
﴿ما قدمت﴾ من الصدقات ﴿و﴾ ما ﴿أخَّرت﴾ من الميراث.

٦، ٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَنُ﴾ قيل: الخطاب لمنكري البعث ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي: شيء خدعك حتى ضيعت ما وجب عليك مع
كرم ربك؛ حيث أنعم عليك بالخلق، والتسوية، والتعديل؟ وعنه عليه السلام حين
تلاها: «غره جهله»^(١). وعن عمر رضي الله عنه: غره حقه. وعن الحسن: غره
شيطانه. وعن الفضيل: لو خطبت؛ أقول: غرتني ستورك المرحاة. وعن
يحيى بن معاذ: أقول: غرتي برك بي سالفاً وآناً ﴿فَسَوِّكَ﴾ فجعلك مستوى

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (حاشية الكشف ٤/٧١٥).

فَعَدَّكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كُنِينٍ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا

الخلق سالم الأعضاء ﴿فَعَدَّكَ﴾^(١) فصيرك معتدلاً متناسب الخلق، من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض، وبعضها أسود. أو: جعلك معتدل الخلق، تمشي قائماً، لا كالبهائم. وبالتخفيف كوفيٌّ. وهو بمعنى: المشدّد. أي: عدل بعض أعضائك ببعض؛ حتى اعتدلت، فكنت معتدل الخلقة متناسباً.

٨ - ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ «ما»: مزيد للتوكيد؛ أي: ﴿رَكَّبَكَ﴾ في أي صورة اقتضتها مشيئته من الصور المختلفة في الحسن، والقبح، والطول، والقصر. ولم تعطف هذه الجملة كما عطف ما قبلها لأنها بيان لـ ﴿عَدَّكَ﴾. والجَارُ يتعلّق بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ على معنى وضعك في بعض الصور ومكّنك فيها. أو بمحذوف. أي: ﴿رَكَّبَكَ﴾ حاصلاً في بعض الصور.

٩ - ١٢ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الغفلة عن الله تعالى ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أصلاً. وهو الجزاء، أو: دين الإسلام، فلا تصدّقون ثواباً، ولا عقاباً ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿كِرَامًا كُنِينٍ﴾. يعني: أنكم تكذبون بالجزاء، والكاتبون يكتبون أعمالكم لتجاوزوا بها ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم. وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء وأنه^(٢) عند الله من جلائل الأمور. وفيه إنذار وتهويل للمجرمين ولطف للمتقين. وعن الفضيل: أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين.

١٣ - ١٦ - ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إن المؤمنين لفي نعيم الجنة ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وإن الكفار لفي النار ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ يدخلونها يوم الجزاء ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿فَعَدَّكَ﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وجعفر، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/٨٩).

(٢) في الأصل المخطوط زيادة لفظ «من» ولا معنى له.

يَعَايِنَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ
نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

يَعَايِنَ ﴿١٦﴾ أي: لا يخرجون منها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

١٧ - ١٩ - ثم عظم شأن يوم القيامة فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ فكرر للتأكيد والتهويل. وبينه بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تستطيع دفعاً عنها، ولا نفعاً لها بوجه. وإنما تملك الشفاعة بالإذن. ﴿يَوْمُ﴾ بالرفع مكّي وبصري. أي: هو ﴿يوم﴾ أو: بدل من ﴿يوم الدين﴾. ومن نصب فبإضمار اذكر. أو: بإضمار يدانون؛ لأنّ الدين يدلّ عليه ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي: لا أمر إلاّ لله تعالى وحده، فهو القاضي فيه دون غيره.

* * *

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

١ - ٣ - ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ للذين يخسون حقوق الناس في الكيل، والوزن ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافية تامة. ولما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل ﴿على﴾ مكان من للدلالة على ذلك. ويجوز أن يتعلق ﴿على﴾ بـ ﴿يستوفون﴾ ويقدم المفعول على الفعل؛ لإفادة الاختصاص. أي: يستوفون على الناس خاصة. وقال الفراء: من وعلى يعتقان في هذا الموضع؛ لأنه حق عليه. فإذا قال: اكلت عليك؛ فكأنه قال: أخذت ما عليك. وإذا قال: اكلت منك؛ فكأنه قال: استوفيت منك. والضمير المنصوب في ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ راجع إلى الناس، أي: كالوا لهم، أو: وزنوا لهم، فحذف الجار وأوصل الفعل. وإنما لم يقل: أو اتزنوا، كما قيل: ﴿أو وزنوهم﴾ اكتفاء. ويحتمل: أن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل لتمكّنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنهم يزعمون، ويحتالون في الملء. وإذا أعطوا كالوا، أو وزنوا؛ لتمكّنهم من البخس في النوعين ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ينقصون. يقال: خسر الميزان وأخسره.

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا
إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾

٤ - ٦ - ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة. أدخل همزة الاستفهام على لا النافية توبيخاً. وليست ﴿أَلَا﴾ هذه للتنبيه. وفيه إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجترأ على التطفيف. كأنهم لا يخطر ببالهم، ولا يَحْتَمِنُونَ تخميناً: أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة. ولو ظنوا أنهم يبعثون ما نقصوا في الكيل والوزن. وعن عبد الملك بن مروان: أنَّ أعرابياً قال له: قد سمعت ما قال الله في المطففين - أراد بذلك: أنَّ الْمُتَطَفِّفَ قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به - فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن؟! ونصب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ بـ: ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأمره وجزائه. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه قرأ هذه السورة. فلما بلغ هنا بكى نحيباً، وامتنع من قراءة ما بعده.

٧ - ٩ - ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه. أي: ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف، والغفلة عن البعث والحساب، ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه. ثم أتبعه وعيد الفجار على العموم، فقال: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ﴾ صحائف أعمالهم ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا سِجِّينٌ﴾ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾. فإن قلت: قد أخبر الله تعالى عن كتاب الفجار بأنه في سجين، وفسر سجيناً بكتاب مرقوم. فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم، فما معناه؟ قلت: سجين: كتاب جامع هو ديوان الشر، دون الله فيه أعمال الشياطين، والكفرة من الجن والإنس. وهو كتاب مرقوم، مسطورٌ بيّن الكتابة، أو: مُعْلَم، يعلم من رآه: أنه لا خير فيه، من: رقم الثياب: علامتها. والمعنى: أنَّ ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان. وسَمِيَ: سَجِيناً، فعلاً من: السجن، وهو: الحبس والتضييق، لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، أو: لأنه مطروح تحت الأرض السابعة في مكان وحشٍ مظلم، وهو مسكن إبليس وذريته. وهو: اسم علم منقول من وصف؛ كحاتم، منصرف لوجود سبب واحد، وهو: العلمية فحسب.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾
 إِذَا تُنْثَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا
 إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُوعُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
 تَكْذِبُونَ ﴿١٧﴾

١٠ - ١٣ - ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم يخرج المكتوب ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ * الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ
 الَّذِينَ ﴿الجزء والحساب﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ ﴿بذلك اليوم﴾ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ مجاوز للحد،
 ﴿أَثِيمٍ﴾ مكتسب للإثم ﴿إِذَا تُنْثَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي
 أحاديث المتقدمين. وقال الزجاج: ﴿أَسَاطِيرُ﴾ أباطيل، واحدها: أسطورة،
 مثل: أحذوثة، وأحاديث.

١٤ - ﴿كَلَّا﴾ ردع للمعتدي الأثيم عن هذا القول. ﴿بَلْ﴾ نفى لما قالوا.
 ويقف حفص على ﴿بَلْ﴾ وقفة ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ غطاها كسبهم.
 أي: غلب على قلوبهم حتى غمرها ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من المعاصي. وعن
 الحسن - رضي الله عنه -: الذنب بعد الذنب حتى يسود القلب. وعن الضحاك:
 الرين: موت القلب. وعن أبي سليمان - رحمه الله -: الرين والقسوة زماما
 الغفلة، ودواؤهما: إيمان الصوم. فإن وجد بعد ذلك قسوة فليترك الإدام.

١٥ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الكسب الرائن على القلب ﴿إِنَّهُمْ عَنْ﴾ أي: رؤية
 ﴿رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُوعُونَ﴾ لمنعون. والحجب: المنع. قال الزجاج: في الآية دليل
 على أن المؤمنين يرون ربهم وإلا لا يكون التخصيص مفيداً. وقال الحسين بن
 الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في العقبى عن رؤيته. قال
 مالك بن أنس - رحمه الله -: لما حجب أعداءه فلم يروه، تجلّى لأوليائه حتى
 رأوه. وقيل: ﴿عَنْ﴾ كرامة ﴿رَبِّهِمْ﴾ لأنهم في الدنيا لم يشكروا نعمه، فينسوا
 في الآخرة عن كرامته مجازاة. والأول أصح؛ لأن الرؤية أقوى الكرامات،
 فالحجب عنها دليل الحجب عن غيرها.

١٦ - ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ بعد كونهم محجوبين عن ربهم لداخلو النار.

١٧ - ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي: ﴿هَٰذَا﴾ العذاب هو ﴿الذي﴾
 كنتم ﴿تَكْذِبُونَ به في الدنيا وتتكرون وقوعه﴾.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُرَقُّونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾

١٨ - ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التكذيب ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ ما كتب من أعمالهم. والأبرار: المطيعون الذين لا يطففون، ويؤمنون بالبعث؛ لأنه ذكر في مقابلة ﴿الفجار﴾ وبين الفجار بأنهم المكذبون بيوم الدين. وعن الحسن - رضي الله عنه -: البر: الذي لا يؤذي الذر ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ هو علم لديوان الخير؛ الذي دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين. منقول من جمع: عَلِيٌّ، فَعِيلٌ، من العلو. سمي به؛ لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة. أو: لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريماً له.

١٩ - ٢١ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ما الذي أعلمك يا محمد ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ [أي شيء] ^(١) هو؟ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ يشهده المُرَقُّونَ ﴿تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل: يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء إذا رفع.

٢٢ - ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ تنعم في الجنان.

٢٣ - ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ﴾ الأسرة في الحجال ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى كرامة الله ونعمه وإلى أعدائهم كيف يعذبون.

٢٤ - ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ بهجة التنعم وطراوته.

٢٥، ٢٦ - ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ شراب خالص ﴿مَخْتُومٍ﴾ خِتَمُهُ مِسْكٌَ ﴿تَحْتَمُ أَوَانِيَهُ بِمِسْكِ﴾ بدل الطين الذي يختم به الشراب في الدنيا. أمر الله تعالى بالختم عليه إكراماً لأصحابه. أو: ﴿خَتَمَهُ مِسْكَ﴾ مقطعه رائحة مسك. أي: توجد رائحة المسك عند خاتمة شربه. (خاتمته) عليٌّ ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الرحيق، أو النعيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فليرغب الراغبون. وذا إنما يكون بالمسارعة إلى الخيرات، والانتهاز عن السيئات.

(١) في الأصل المخطوط: أيش.

وَمَزَاجُهُم مِّن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا
فَكَهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾

٢٧- ﴿وَمَزَاجُهُم﴾ ومزاج الرحيق ﴿مِّن تَسْنِيمٍ﴾ هو علم لعين بعينها سميت بالتسليم؛ الذي هو مصدر: ستمه: إذا رفعه، لأنها أرفع شراب في الجنة. أو: لأنها تأتيهم من فوق، وتنصب في أوانيهم.

٢٨- ﴿عَيْنًا﴾ حال أو نصب على المدح ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: منها ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾. عن ابن مسعود رضي الله عنه: يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين.

٢٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ كفروا ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ في الدنيا استهزاء بهم.

٣٠- ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يشير بعضهم إلى بعض بالعين طعناً فيهم، وعيباً لهم. قيل: جاء عليّ - رضي الله عنه - في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون، وضحكوا، وتغامزوا، وقالوا: أترون هذا الأصلع؟ فنزلت قبل أن يصل عليّ إلى رسول الله ﷺ.

٣١- ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ أي: إذا رجع الكفار إلى منازلهم ﴿انْقَلَبُوا فَكَهِينَ﴾ متلذذين بذكرهم، والسخرية منهم. وقرأ غير حفص ﴿فاكهين﴾ أي: فرحين.

٣٢- ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ رأى الكافرون المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ أي: خدع محمد ﷺ هؤلاء، فضلوا، وتركوا اللذات، لما يرجونه في الآخرة من الكرامات، فقد تركوا الحقيقة بالخيال، وهذا هو عين الضلال.

٣٣- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ وما أرسل الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَفِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أحوالهم، ويرقبون أعمالهم، بل أمروا بإصلاح أنفسهم، فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبع غيرهم وتسفيه أحلامهم.

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤْثِرُونَ عَلَى الْكَافِرِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

٣٤ - ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكَافِرِ يَضْحَكُونَ﴾ ثم، كما ضحكوا منهم هنا مجازاة.

٣٥ - ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ حال من ﴿يضحكون﴾. أي: ﴿يضحكون﴾ منهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار، بعد العزة والاستكبار، وهم ﴿على الأرائك﴾ آمنون. وقيل: يفتح للكَفَّارِ باب إلى الجنة فيقال لهم: هلموا إلى الجنة، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم.

٣٦ - ﴿هَلْ تُؤْثِرُونَ عَلَى الْكَافِرِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هل جوزوا بسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا إذا فعل بهم ما ذكر؟!

* * *

سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾

١ - ٥ - ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ تصدّعت، وتشقّقت ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأطاعت وأجابت ربّها إلى الانشقاق، ولم تأب، ولم تمتنع ﴿وَحُقَّتْ﴾ وحقّ لها أن تسمع وتطيع لأمر الله؛ إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت، وسويت باندكاك جبالها وكلّ أمتٍ فيها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ رمت ما في جوفها من الكنوز والموتى ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وخلت غاية الخلو، حتى لم يبق شيء في باطنها؛ كأنّها تكلفت أقصى جهدها في الخلو. يقال: تكرّم الكريم: إذا بلغ جهده في الكرم، وتكلّف فوق ما في طبعه ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخلّيها ﴿وَحُقَّتْ﴾ وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع. وحذف جواب ﴿إِذَا﴾ ليذهب المقدّر كلّ مذهب، أو: اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكويد والانفطار، أو: جوابه: ما دلّ عليه ﴿فملاقية﴾. أي: ﴿إِذَا السماء انشقت﴾ لاقى الإنسان كدحه.

٦ - ٨ - ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ﴾ خطاب للجنس ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ جاهد ﴿إِلَى﴾ لقاء ربك ﴿كَدْحًا﴾ وهو الموت، وما بعده من الحال الممثلة باللقاء ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ الضمير للكدح، وهو: جهد النفس في العمل، والكدّ فيه؛ حتّى يؤثر فيها.

فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾

والمراد: جزاء الكدح إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ. وقيل: لقاء الكدح: لقاء كتاب فيه ذلك الكدح. يدل عليه قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي: كتاب عمله ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلاً هيناً، وهو: أن يجازى على الحسنات، ويتجاوز عن السيئات. وفي الحديث: «من يحاسب يعذب» فقيل: فأين قوله: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ قال: «ذلكم العرض. من نوقش في الحساب عذب»^(١).

٩- ﴿وَنَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين، أو: إلى فريق المؤمنين، أو: إلى أهله ﴿في الجنة من الحور العين﴾ ﴿مَسْرُورًا﴾ فرحاً.

١٠- ١٢- ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ قيل: تغلّ يمينه إلى عنقه، وتجعل شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ يقول: وا ثبوراه! والثبور: الهلاك ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ - عراقي غير عليّ - ﴿سَعِيرًا﴾ أي: ويدخل جهنم.

١٣- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا﴾ في الدنيا ﴿فِي أَهْلِهِ﴾ معهم ﴿مَسْرُورًا﴾ بالكفر، يضحك ممن آمن بالبعث. قيل: كان لنفسه متابعاً، وفي مراتع هواه راتعاً.

١٤- ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ﴾ لن يرجع إلى ربّه تكذيباً بالبعث. قال ابن عباس - رضي الله عنها -: ما عرفت تفسيره حتى سمعت أعرابية تقول لبتها: حوري. أي: ارجعي.

١٥- ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد النفي في ﴿لَنْ يَحُورَ﴾. أي: ﴿بلى﴾ ليحورن ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ﴾ وبأعماله ﴿بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه، فلا بد أن يرجعه فيجازيه عليها.

١٦ - ١٩ - ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ فأقسم بالبياض بعد الحمرة، أو الحمرة

وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ جمع، وضَمَّ. والمراد: ما جمعه من الظلمة والنجم. أو: ما عَمِلَ فيه من التهجد وغيره ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ اجتمع وتمَّ بدرًا - افعل من الوسق - ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها الإنسان على إرادة الجنس ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال، كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول. فالطبق: ما طابق غيره. يقال: ما هذا بطبق لذا، أي: لا يطابقه. ومنه قيل للغطاء: الطبق. ويجوز أن يكون جمع: طبقة. وهي: المرتبة، من قولهم: هو على طبقات. أي: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أحوالاً بعد أحوال؛ هي: طبقات في الشدة، بعضها أرفع من بعض، وهي: الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها. ومحلُّ ﴿عَنْ طَبَقٍ﴾ نصب على أنه صفة لـ ﴿طَبَقًا﴾ أي: ﴿طَبَقًا﴾ مجاوزاً لـ طبق. أو: حال من الضمير في ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أي: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا﴾ مجاوزين لـ طبق. وقال مكحول: في كلِّ عشرين عاماً تُحدثون أمراً لم تكونوا عليه. ويفتح الباء: مكِّيٌّ وعليٌّ، وحمزة. والخطاب له ﷺ: أي: ﴿طَبَقًا﴾ من أطباق السماء بعد ﴿طَبَقٍ﴾ أي: في المعراج.

٢٠، ٢١ - ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فمالهم ألا يؤمنوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون.

٢٢، ٢٣ - ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ بالبعث والقرآن ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يجمعون في صدورهم، ويضمرون من الكفر وتكذيب النبي ﷺ. أو: بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء، ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب.

٢٤، ٢٥ - ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبرهم خبراً يظهر أثره على بشرتهم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع. أو: غير منقوص.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ مَّشْهُودٍ ﴿٣﴾

١ - ٤ - ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ هي: البروج الاثنا عشر. وقيل: النجوم. أو: عظام الكواكب ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة ﴿وَشَاهِدٍ مَّشْهُودٍ﴾ أي ﴿وشاهد﴾ في ذلك اليوم ﴿ومشهود﴾ فيه. والمراد بالشاهد: من يشهد فيه من الخلائق كلهم، وبالمشهود فيه: ما في ذلك اليوم من عجائبه. وطريق تنكيرهما إمّا ما في قوله ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ كأنه قيل: وما أفرطت كثرت من شاهد ومشهود. وإمّا للإبهام في الوصف، كأنه قيل: ﴿وشاهد ومشهود﴾ لا يكتنه وصفهما. وقد كثرت أقاويل المفسرين فيهما. فقيل: محمد ﷺ ويوم القيامة. أو: عيسى عليه السلام - وأمته؛ لقوله: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] أو: أمة محمد، وسائر الأمم. أو: الحجر الأسود والحجيج. أو: الأيتام، والليالي، وبنو آدم، للحديث: «ما من يوم إلا وينادي: أنا يوم جديد، وعلى ما يفعل في شهيد. فاغتنمني»^(١). أو: الحفظة وبنو آدم. أو: الله تعالى والخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنْفَنَّا بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] أو: الأنبياء ومحمد

(١) رواه الديلمي (٦١٦٠) بنحوه.

قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿١﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُودِ ﴿٢﴾ إِذْ

عليهم السلام. وجواب القسم محذوف يدلّ عليه ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ أي: لعن. كأنّه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنّهم ملعونون. يعني: كفّار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود. وهو: [جمع] ^(١) خدّ أي: شقّ عظيم في الأرض. روي عن النبي ﷺ: «أنّه كان لبعض الملوك ساحر، فلما كبر ضمّ إليه غلاماً ليعلمه السحر. وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه. فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحبّ إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها. فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص. وعمي جليس للملك فأبرأه. فأبصره الملك فسأله: من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربّي. فغضب، فعذّبه، فدلّ على الغلام، فعذّبه، فدلّ على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فقدّ بالمنشار. وأبى الغلام فذهب به إلى جبل لي طرح من ذروته فدعا، فرجف بالقوم، فطاحوا، ونجا. فذهب به إلى قرقور ^(٢)، فلجّجوا به ليغرقوه، فدعا فانكأفت بهم السفينة، فغرقوا. فقال للملك: لست بقاتلي حتّى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنائتي، وتقول: باسم الله ربّ الغلام، ثمّ ترميني به. فرماه، فوقع في صدغه، فوضع يده عليه ومات. فقال الناس: آمنا برّب الغلام. ف قيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر. فخذ أخدوداً، وملأها ناراً، فمن لم يرجع عن دينه طرحه فيها، حتّى جاءت امرأة معها صبيّ، فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبيّ: يا أمّاه! اصبري، فإنك على الحق. فألقي الصبيّ وأمّه فيها ^(٣).

٥ - ﴿النَّارِ﴾ بدل اشتمال من ﴿الأخدود﴾ ﴿ذَاتِ الْوُوقُودِ﴾ وصف لها بأنّها عظيمة، لها ما يرتفع به لهبها من الخطب الكثير، وأبدان الناس.

٦ - ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ ﴿قتل﴾ أي: لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصل المخطوط.

(٢) «الْقَرْقُور»: السفينة العظيمة.

(٣) رواه أحمد (٥/١، ١٣) ومسلم (٣٠٠٥).

هُرَّ عَلَيْنَا قُعُودٌ ﴿١﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فُتِمَ لَهُمْ بِتُوبَتِهِمْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

﴿هُرَّ عَلَيْنَا﴾ أي: الكفار على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ جلوس على الكراسي.

٧ - ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك: أَنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَفْرُطْ فِيمَا أَمْرَ بِهِ، وفوض إليه من التعذيب.

وفيه: حث للمؤمنين على الصبر، وتحمل أذى أهل مكة.
٨، ٩ - ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان كقوله:

ولا عيب فيهم غير أَنَّ سيوفهم
وقوله:

ما نقموا من بني أمية إك لا أنهم يلمون إن غضبوا
وقرىء ﴿نَقَمُوا﴾ بالكسر. والفصح هو الفتح.

﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ذكر الأوصاف التي تستحق بها أن تؤمن به، وهو كونه: عزيزاً، غالباً، قادراً، يخشى عقابه، حميداً، منعماً، يجب له الحمد على نعمته، ويرجى ثوابه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكل من فيهما يحق عليه عبادته، والخشوع له تقريراً؛ لأن ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل، وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب عظيم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعيدٌ لهم. يعني: أنه علم ما فعلوا، وهو مجازيهم عليه.

١٠ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يجوز أن يريد بالذين فتنوا: أصحاب الأخدود خاصة، وبالذين آمنوا: المطروحين في الأخدود. ومعنى فتنوهم: عذبوهم بالنار، وأحرقوهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ يرجعوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ في الدنيا؛ لما روي: أَنَّ النَّارَ

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا

انقلبت عليهم فأحرقتهم. ويجوز أن يريد: الذين فتنوا المؤمنين. أي: بلوهم بالأذى على العموم، والمؤمنين: المفتونين، وأنَّ للفاتنين عذابين في الآخرة؛ لكفرهم، ولقتلتهم.

١١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي: الذين صبروا على تعذيب الأخدود. أو هو عام.

١٢ - ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البطش: الأخذ بالعنف. فإذا وصف بالشدة؛ فقد تضاعف، وتفاقم. والمراد: أخذ الظلمة والجبابة بالعذاب والانتقام.

١٣ - ﴿إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: يخلقهم ابتداءً، ثم يعيدهم بعد أن صيرهم تراباً. دلَّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه. أو: أوعد الكفرة بأنه يعيدهم؛ كما أبداهم؛ ليبطش بهم؛ إذ لم يشكروا نعمة الإبداء، وكذبوا بالإعادة.

١٤ - ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الساتر للعيوب، العافي عن الذنوب ﴿الْوَدُودُ﴾ المحب لأوليائه. وقيل: الفاعل بأهل الطاعة ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا.

١٥ - ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكة ﴿الْمَجِيدُ﴾^(١) حمزة، وعليٌّ على أنه صفة للعرش. ومجد الله: عظيمته. ومجد العرش: علوه وعظمه.

١٦ - ﴿فَعَالٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿لِمَا يُرِيدُ﴾ تكوينه، فيكون فيه دلالة خلق أفعال العباد.

١٧ - ٢٠ - ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ خبر الجموع الطاغية في الأمم الخالية ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من الجنود. وأراد بفرعون: إياه وآله. والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود للرسول، وما نزل بهم لتكذيبهم ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿الْمَجِيدُ﴾ بالكسر، وهي قراءة من ذكرهم.

﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ ١٩ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ ٢٠ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴾ ٢١ ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ ٢٢

﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ واستيجاب للعذاب، ولا يعتبرون بالجنود، لا لحفاء حال الجنود عليهم، لكن يكذبونك عناداً ﴿والله من ورائهم محيط﴾ عالم بأحوالهم، وقادر عليهم، وهم لا يعجزونه. والإحاطة بهم من ورائهم مثل؛ لأنهم لا يفوتونه؛ كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به.

٢١، ٢٢ - ﴿بَلْ هُوَ﴾ هذا الذي كذبوا به ﴿قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴾ شريف، عالي الطبقة في الكتب، وفي نظمه، وإعجازه، ليس كما يزعمون: أنه مفترى، وأنه أساطير الأولين ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من وصول الشياطين ﴿محفوظ﴾ نافع صفة للقرآن. أي: من التغيير والتبديل. واللوح عند الحسن: شيء يلوح للملائكة فيقرؤونه. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - هو: من درة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، قلمه نور، وكل شيء فيه مسطور. مقاتل: هو: على يمين العرش. وقيل: أعلاه معقود بالعرش، وأسفله في حجر ملك كريم.

* * *

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

١ - ٤ - ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ عَظُمَ قَدْرُ السَّمَاءِ فِي أَعْيُنِ الْخَلْقِ لَكُونِهَا مَعْدَنُ رِزْقِهِمْ، وَمَسْكَنُ مَلَائِكَتِهِ، وَفِيهَا خَلْقُ الْجَنَّةِ، فَأَقْسَمَ بِهَا وَبِالطَّارِقِ. والمراد: جنس النجوم، أو: جنس الشهب التي يَرْجَمُ بِهَا لِعَظَمِ مُنْفَعَتِهَا. ثُمَّ فَسَّرَهُ بِالنَّجْمِ الثَّاقِبِ. أي: المضيء، كَأَنَّهُ يَثْقُبُ الظَّلَامَ فَيَنْفِذُ فِيهِ. وَوَصَفَ بِالطَّارِقِ؛ لِأَنَّهُ يَبْدُو بِاللَّيْلِ، مَا يُقَالُ لِلَّاتِي لَيْلًا: طَارِقٌ. أو: لِأَنَّهُ يَطْرُقُ الْجَنِّيَّ، أي: يَصْكَه. وَجَوَابُ الْقِسْمِ ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ لِأَنَّ ﴿لَمَّا﴾ إِنْ كَانَتْ مُشَدَّدَةً بِمَعْنَى إِلَّا، كَقِرَاءَةِ عَاصِمٍ، وَحِزَّةٍ، وَابْنِ عَامِرٍ، فَتَكُونُ ﴿إِنْ﴾ نَافِيَةً أَيْ: مَا ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ إِلَّا ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾. وَإِنْ كَانَتْ مُخَفَّفَةً كَقِرَاءَةِ غَيْرِهِمْ، فَتَكُونُ ﴿إِنْ﴾ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ. أَيْ: ﴿إِنْ كُلِّ نَفْسٍ﴾ لَعَلَّيْهَا ﴿حَافِظٌ﴾ يَحْفَظُهَا مِنَ الْآفَاتِ أَوْ يَحْفَظُ عَمَلَهَا وَرِزْقَهَا وَأَجَلَهَا إِذَا اسْتَوْفَى ذَلِكَ مَاتَ. وَقِيلَ: هُوَ كَاتِبُ الْأَعْمَالِ. فَمَا زَائِدَةٌ. وَاللَّامُ فَارِقَةٌ بَيْنَ النَّافِيَةِ وَالْمُخَفَّفَةِ. وَ﴿حَافِظٌ﴾ مُبْتَدَأٌ وَ﴿عَلَيْهَا﴾ الْخَبَرُ. وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ ﴿كُلِّ﴾ وَأَيْتُهُمَا كَانَتْ فَهِيَ مِمَّا يَتَلَقَّى بِهِ الْقِسْمُ.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ﴿١٤﴾

٥ - ٧ - ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لما ذكر أن على كل نفس حافظاً أمره بالنظر في أول أمره، ليعلم: أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الجزاء، ولا يُعْمَلُ على حافظه إلا ما يسره في عاقبته. و﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ استفهام. أي: من أي شيء خلق؟. جوابه: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾. الدفق: صب في دفع. والدفق في الحقيقة لصاحبه، والإسناد إلى الماء مجاز. وعن بعض أهل اللغة: دفقت الماء دفقاً: صببته. ودفق الماء بنفسه؛ أي: انصب. ولم يقل: من مائين لامتزاجهما في الرحم واتحادهما حين ابتدئ في خلقه ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة. وهي: عظام الصدر؛ حيث تكون القلادة. وقيل: العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرأة.

٨، ٩ - ﴿إِنَّهُ﴾ إن الخالق، لدلالة ﴿خلق﴾ عليه. ومعناه: إن الذي خلق الإنسان ابتداءً من نقطة ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ على إعادته خصوصاً ﴿لَقَادِرٌ﴾ لبيّن القدرة، لا يعجز عنه؛ كقوله: إنني لفقير. ونصب ﴿يَوْمَ تُبْلَى﴾ - أي: تكشف - بـ ﴿رَجْعِهِ﴾، أو: بمضمّر دلّ عليه قوله ﴿رَجْعِهِ﴾. أي: مبعثه ﴿السَّرَائِرُ﴾ ما أسر في القلوب من العقائد، والنيات، وما أخفى من الأعمال.

١٠ - ﴿فَمَا لَهُ﴾ للإنسان ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ في نفسه على دفع ما حلّ به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يعينه ويدفع عنه.

١١ - ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي: المطر. وسُمّي به لعوده كل حين.

١٢ - ﴿وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدْعِ﴾ هو ما تتصدّع عنه الأرض من النبات.

١٣، ١٤ - ﴿إِنَّهُ﴾ إن القرآن ﴿لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ فاصل بين الحقّ والباطل كما قيل له: فرقان ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ﴾ باللعب والباطل. يعني: أنه جدّ كله، ومن حقّه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه أن يلمّ بهزل، أو يتفكّه بمزاح.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَتَيْنَهُمُ رُؤُوسًا﴾ ﴿١٧﴾

١٥ - ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني مشركي مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعملون المكائد في إبطال أمر الله، وإطفاء نور الحق.

١٦ - ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأجازيهم جزاء كيدهم باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون، فسمي جزاء الكيد: كيداً، كما سمي جزاء الاعتداء والسيئة: اعتداءً، وسيئة، وإن لم يكن اعتداءً وسيئة. ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى إلا على وجه الجزاء كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

١٧ - ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا تدع بهلاكهم، ولا تستعجل به ﴿أَتَيْنَهُمُ﴾ أنظرهم. فكرر، وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير ﴿رُؤُوسًا﴾ إمهالاً يسيراً. ولا يتكلم بها إلا مصغرة. وهي من: رادت الريح، ترود، رُوداً: تحركت حركةً ضعيفةً.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾

١ - ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ نزه ذاته عما لا يليق به . والاسم : صلة ، وذلك بأن يفسر ﴿الأعلى﴾ بمعنى العلو؛ الذي هو القهر ، والاقتدار ، لا بمعنى العلو في المكان . وقيل : قل : سبحان ربي الأعلى . وفي الحديث : لما نزلت قال ﷺ : «اجعلوها في سجودكم»^(١) .

٢ - ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي : ﴿خلق﴾ كل شيء ﴿فسوى﴾ خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم حكيم . أو : سواه على ما فيه منفعته ، ومصلحته .

٣ - ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي : ﴿قدر﴾ لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه ، وعرفه وجه الانتفاع به . أو : ﴿فهدى﴾ وأضل . ولكن حذف «وأضل» اكتفاء ، كقوله : ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل : ٩٣] ﴿قدر﴾ علي .

٤ - ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أنبت ما ترعاه الدواب .

(١) رواه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (٢٩٩/١) .

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾
وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَنْجِبُهَا
الْأَشَقَى ﴿١١﴾

- ٥- ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ يابساً هشيماً ﴿أَحْوَى﴾ أسود. فـ ﴿أَحْوَى﴾ صفة لـ ﴿غُثَاءً﴾.
- ٦، ٧- ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ سنعلمك القرآن حتى لا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن ينسخه. وهذا بشارة من الله لنبیه أن يحفظ عليه الوحي؛ حتى لا ينفلت منه شيء؛ إلا ما شاء الله أن ينسخه، فيذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته. وسأل ابن كيسان النحويّ جنيداً عنه فقال: ﴿فلا تنسى﴾ العمل به فقال: مثلك يصدر. وقيل: قوله: ﴿فلا تنسى﴾ على النهي. والألف مزيدة للفاصلة، كقوله: ﴿الَسَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. أي: فلا تغفل قراءته، وتكريره، فتنساه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن ينسيكه برفع تلاوته ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي: إنك تجهر بالقرآن مع قراءة جبريل - عليه السلام - مخافة التفلت، والله يعلم جهرك معه، وما في نفسك ممّا يدعوك إلى الجهر. أو: ما تقرأ في نفسك مخافة النسيان. أو: يعلم ما أسررتهم وما أعلنتهم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وما بطن من أحوالكم.
- ٨- ﴿وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ معطوف على ﴿سنقرئك﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ اعتراض. ومعناه: ونوفّقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل. يعني حفظ الوحي. وقيل: للشریعة السمحة التي هي أيسر الشرائع، أو: نوفّقك لعمل الجنة.
- ٩- ﴿فَذَكِّرْ﴾ عطف بالقرآن ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ جواب ﴿إِنْ﴾ مدلول قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾. قيل: ظاهره شرط، ومعناه استبعاد لتأثير الذكرى فيهم. وقيل: هو أمر بالتذكير على الإطلاق كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] غير مشروط بالنفع.
- ١٠، ١١- ﴿سَيَذَكِّرُ﴾ سيتعظ ويقبل التذكرة ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ الله وسوء العاقبة ﴿وَيَنْجِبُهَا﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿الْأَشَقَى﴾ الكافر، أو: الذي هو أشقى الكفرة؛ لتوغله في عداوة رسول الله ﷺ. قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة.

الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

١٢، ١٣ - ﴿الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ يدخل نار جهنم. والصغرى: نار الدنيا ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة يتلذذ بحياته. وقيل بـ ﴿ثم﴾: لأن الترحح بين الحياة والموت أقطع من الصلّي، فهو متراح عنه في مراتب الشدة.

١٤ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ نال الفوز ﴿مَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من الشرك، أو: تطهر للصلاة، أو: أدى الزكاة. تفعل من الزكاة، كتصدق من الصدقة.

١٥ - ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ وكبر للافتتاح ﴿فَصَلَّى﴾ الخمس. وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة عطف عليها، وهو يقتضى المغايرة؛ وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ذكر معاده ووقوفه بين يدي ربه فصل له. وعن الضحاك: ﴿وذكر اسم ربه﴾ في طريق المصلّي ﴿فصلّى﴾ صلاة العيد.

١٦ - ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة، فلا تفعلون ما به تفلحون. والمخاطب به الكافرون. دليله: قراءة أبي عمرو ﴿يؤثرون﴾ بالياء.

١٧ - ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أفضل من نفسها وأدوم.

١٨ - ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ «هذا»: إشارة إلى قوله ﴿قد أفلح﴾ إلى ﴿أبقى﴾. أي: إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. أو: إلى ما في السورة كلها. وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة؛ لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة.

١٩ - ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ بدل من ﴿الصحف الأولى﴾. وفي الأثر: وفي صحف إبراهيم - عليه السلام -: ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسان، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا
حَامِيَةً ﴿٤﴾

١ - ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها. يعني: القيامة. وقيل: النار. من قوله: ﴿وَتَقَشَّى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

٢ - ٦ - ﴿وَجُوهٌ﴾ أي: وجوه الكفار. وإنما خصّ الوجه؛ لأنّ الحزن والسرور إذا استحكما في المرء أثرا في الوجه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ غشيت ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة لما اعترى أصحابها من الحزي والهوان ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جزؤها السلاسل، والأغلال، وخوضها في النار؛ كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبة في صعودٍ من نار، وهبوطها في حدور منها. وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء، والتذّت بها، وتنعمت، فهي في نصب منها في الآخرة. وقيل: هم أصحاب الصوامع. ومعناه: أنها خشعت لله، وعملت، ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب، والتهجد الواصب ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ تدخل ناراً قد أحميت مدداً طويلة، فلا حرّ يعدل حرّها ﴿تَصَلَّى﴾

تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا
عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ

أبو بكر وأبو عمرو ﴿تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ من عين ماء قد انتهى حرُّها. والتأنيث في هذه الصفات والأفعال راجع إلى الوجوه. والمراد: أصحابها؛ بدليل قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ وهو نبت يقال لِرَطْبِهِ: الشَّبْرُق. فإذا يبس فهو ضريع. وهو سمٌ قاتل. والعذاب ألوان، والمعذبون طبقات. فمنهم أكلة الزقوم. ومنهم أكلة الغسلين. ومنهم أكلة الضريع. ولا تناقض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ﴾ [الحاقة: ٣٦].

٧- ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ مجرور المحل؛ لأنه وصف ﴿ضريع﴾ ﴿وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾. أي: منفعتا الغذاء متنفيتان عنه، وهما: إمطة الجوع، وإفادة السمن في البدن.

٨- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ ثم وصف وجوه المؤمنين. ولم يقل: ووجوه؛ لأن الكلام الأوّل قد طال وانقطع ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ متنعمة في لين العيش.

٩- ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضيت بعملها وطاعتها لما رأت ما أذاهم إليه من الكرامة والثواب.

١٠- ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ من علوّ المكان أو المقدار.

١١- ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب، أو: الوجوه ﴿فِيهَا لَغِيَةً﴾ أي: لغواً، أو: كلمة ذات لغو، أو: نفساً تلغو. لا يتكلّم أهل الجنة إلّا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم ﴿لَا يُسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ مكّي، وأبو عمرو. ﴿لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ نافع.

١٢- ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: عيون كثيرة؛ كقوله: ﴿عَمَّتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤].

١٣- ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ جمع سرير ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ من رفعة المقدار، أو: السمك؛ ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوّله ربّه من الملك والنعيم.

١٤- ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب. وهو القدح. وقيل: آنية لا عروة لها

مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارُ مَصْفُوفَةٍ ﴿١٥﴾ وَزُرِّيَّاتٌ مَّبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ
خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِّحَتْ ﴿٢٠﴾

﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم؛ ليتلذذوا بها بالنظر إليها. أو: موضوعة على حافات
العيون معدة للشرب.

١٥- ﴿وَنَارُ﴾ وسائل ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ بعضها إلى جنب بعض مساند ومطارح
أيما أراد أن يجلس جلس على مسورة واستند إلى الأخرى.

١٦- ﴿وَزُرِّيَّاتٌ﴾ ويسط عراض فاخرة. جمع: زُرِّيَّة ﴿مَبْنُوتَةٌ﴾ مبسوطة، أو:
مفرقة في المجالس.

١٧- ٢٠- ولما أنزل الله تعالى هذه الآيات في صفة الجنة، وفسر النبي ﷺ:
بأن ارتفاع السرر يكون مئة فرسخ، والأكواب الموضوعة لا تدخل في حساب
الخلق لكثرتها، وطول النمارق كذا، وعرض الزرابي كذا؛ أنكر الكفار وقالوا:
كيف يصعد على هذا السرير، وكيف تكثر الأكواب هذه الكثرة، وتطول
النمارق هذا الطول، وتنسبط الزرابي هذا الانبساط، ولم نشاهد ذلك في الدنيا؟
فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ طويلة، ثم تبرك حتى
تركب، و يحمل عليها، ثم تقوم. فكذا السرير يطأطىء للمؤمن كما يطأطىء
الإبل، ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعا بعيد المدى بلا إمساك وعمد، ثم نجومها
تكثر هذه الكثرة فلا تدخل في حساب الخلق، فكذلك الأكواب، ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصبا ثابتا، فهي راسخة لا تميل مع طولها، فكذا النمارق، ﴿وَإِلَى
الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِّحَتْ﴾ سطحها بتمهيد وتوطئة، فهي كلها بساط واحد، ينسبط
من الأفق إلى الأفق، فكذا الزرابي. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى﴾
هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق؛ حتى لا ينكروا اقتداره على البعث،
فيسمعوا إنذار الرسول، ويؤمنوا به، ويستعدوا للقائه. وتخصيص هذه الأربعة
باعتبار أن هذا خطاب للعرب وحث لهم على الاستدلال. والمرء إنما يستدل
بما تكثر مشاهدته له. والعرب تكون في البوادي، ونظرهم فيها إلى السماء
والأرض والجبال، والإبل أعز أموالهم، وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾
فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

الحيوانات؛ لأنها تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان، وهي: النسل، والدرّ، والحمل، والركوب، والأكل بخلاف غيرها، فإنه سخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمته، لا تعازٍ ضعيفاً، ولا تمنع صغيراً، وبرأها طوال الأعناق؛ لتتوء بالأوقار، وجعلها بحيث تترك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وتجرها إلى البلاد الشاحطة^(١). وصبرها على احتمال العطش؛ حتى إنَّ ظمأها^(٢) ليرتفع إلى العشر فصاعداً، وجعلها ترعى كل نابت في البراري ممّا لا يريها سائر البهائم.

٢١ - ﴿فَذَكِّرْ﴾ هم بالأدلة ليتفكروا فيها ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ليس عليك إلا التبليغ.

٢٢ - ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ بمتسلط. كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] ﴿بمصيطر﴾ مدني، وبصري، وعاصم، وعليّ.

٢٣، ٢٤ - ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ الاستثناء منقطع. أي: لست بمستولٍ عليهم. ولكن من تولى منهم، وكفر بالله؛ فإن الله الولاية عليه والقهر، فهو يعذبه العذاب الأكبر، وهو عذاب جهنم. وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾. أي: ﴿فَذَكِّرْ... إلّا من﴾. انقطع طمعك من إيمانه و ﴿تَوَلَّى﴾ فاستحق العذاب الأكبر. وما بينهما اعتراض.

٢٥ - ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم. وفائدة تقديم الظرف: التشديد في الوعيد، وأنَّ إِيَابَهُمْ ليس إلّا إلى الجبار المقتدر على الانتقام.

٢٦ - ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ فيحاسبهم على أعمالهم، ويجازيهم بها جزاء أمثالهم. و﴿على﴾ لتأكيد الوعيد لا للوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيء.

* * *

(١) «الشاحطة»: البعيدة.

(٢) «الظم»: حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيْلٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝

١ - ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، وهو الصبح، كقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]. أو: بصلاة الفجر.

٢ - ﴿وَلَيْلٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذي الحجة. أو: العشر الأول من المحرم. أو: من الأواخر من رمضان. وإنما نكرت لزيادة فضيلتها.

٣ - ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ شفع كل الأشياء ووترها. أو: شفع هذه الليالي ووترها. أو: شفع الصلاة ووترها. أو: يوم النحر؛ لأنه اليوم العاشر، ويوم عرفة؛ لأنه اليوم التاسع. أو: الخلق والخالق ﴿وَالْوَتْرِ﴾ حزة وعليّ. وبفتح الواو غيرهما، وهما لغتان. فالفتح حجازيّ. والكسر تميميّ.

٤ - بعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم فقال: ﴿وَاللَّيْلِ﴾. وقيل: أريد به ليلة القدر ﴿إِذَا يَسَّرُ﴾ إذا يمضي. وياء ﴿يسر﴾ تحذف في الدرج اكتفاءً عنها بالكسرة. وسأل واحد الأخفش عن سقوط الياء، فقال: لا، حتى تخدمني سنة. فسأله بعد سنة فقال: الليل لا يسري، إنما يسري فيه،

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾

فلما عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقةً. وقيل: معنى ﴿يسري﴾ يسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، أي: ينام فيه.

٥ - ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿قَسَمٌ﴾ أي: مقسم به ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ عقل؟ سُمِّيَ به؛ لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمِّيَ عقلاً ونَهْيَةً؛ لأنه يعقل، وينهى. يريد: هل يحقُّ عنده أن يُعْظَمَ بالإقسام بها؟ أو: ﴿هل في﴾ إقسامي بها إقسام ﴿لذِي حِجْرٍ﴾؟ أي: هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه؟ أو: هل في القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لذی عقل ولب؟ والمقسم عليه محذوف. وهو قوله: ليعذبن. يدل عليه قوله: ﴿ألم تر﴾ إلى قوله: ﴿فصبت عليهم ربك سوط عذاب﴾.

٦، ٧ - ثم ذكر تعذيب الأمم التي كذبت الرسل فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٥﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: ألم تعلم يا محمد علماً يوازي العيان في الإيقان؟ وهو استفهام تقرير. قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد. كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى. و﴿إرم﴾: تسمية لهم باسم جدهم. ولمن بعدهم: عاد الأخيرة. فأرم عطف بيان لعاد، وإيذان: أنهم عاد الأولى القديمة. وقيل: إرم بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها. ويدل عليه قراءة ابن الزبير ﴿بعادٍ*إِرَمَ﴾ على الإضافة. وتقديره: بعاد أهل إرم؛ كقوله: ﴿وَسَّالِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث. و﴿ذات العمداء﴾ إذا كانت صفة للقبيلة فالمعنى: أنهم كانوا بدويين أهل عمد. أو: طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة. وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى: أنها ذات أساطين.

وروي: أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد، فملكا وقهرا، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشداد، فملك الدنيا، ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمئة سنة. وكان عمره تسعمئة سنة. وهي: مدينة عظيمة، قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار. ولما تم

الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلْدَادِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي
الْأَوْدَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْإِلْدَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾

بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا.

وعن عبد الله بن قلابه: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثم. وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد. وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر، أشقر، قصير على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له. ثم التفت فأبصر ابن قلابه [فقال] ^(١): هذا والله ذلك الرجل ^(٢).

٨ - ﴿الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلْدَادِ﴾ أي: مثل عادٍ في قوتهم، وطول قامتهم. كان طول الرجل منهم أربعمئة ذراع. أو: لم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا.

٩ - ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ﴾ قطعوا صخر الجبال، واتخذوا فيها بيوتاً. قيل: أول من نحت الجبال والصخور ثمود. وبنوا ألفاً وسبعمئة مدينة كلها من الحجارة ﴿بِالْوَادِ﴾ بوادي القرى.

١٠ - ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ﴾ أي: ذي الجنود الكثيرة. وكانت لهم مضارب كثيرة يضربونها إذا نزلوا. وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها؛ كما فعل بآسية.

١١، ١٢ - ﴿الَّذِينَ﴾ في محل نصب على الذم. أو: الرفع على: هم الذين. أو: الجز على وصف المذكورين عاد، وثمود، وفرعون ﴿طَعَوْا فِي الْإِلْدَادِ﴾ تجاوزوا الحد ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ بالكفر، والقتل، والظلم.

(١) ساقطة من الأصل المخطوط.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي (ابن قلابه) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخلل، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع بعدم صحته. انظر تفسير ابن كثير (٤/٦٠٢).

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ صَادٍ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا

١٣ - ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ مجاز عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه؛ إذ الصب يشعر بالدوام، والسوط بزيادة الإيلام. أي: عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً.

١٤ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ صَادٍ﴾ هو المكان الذي يُرصد؛ أي يترقب فيه الرصد. مفعال، من: رصده. وهذا مثل؛ لإرصاده العباد، وأنهم لا يفوتونه، وأنه عالم بما يصدر منهم، وحافظه، فيجازيهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

١٥ - ٢٠ - ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيق عليه وجعله بمقدار بلغته ﴿فَقَدَرُ﴾ شامي، ويزيد ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ أي: الواجب لمن ربه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة ولا تهمة العاجلة. وهو قد عكس. فإنه إذا امتحنه ربه بالنعمة والسعة ليشكر قال: ربّي أكرمني. أي: فضّلني بما أعطاني. فيرى الإكرام في كثرة الحظ من الدنيا. وإذا امتحنه بالفقر فقدّر عليه رزقه ليصبر قال: ربّي أهانني فيرى الهوان في قلة الحظ من الدنيا؛ لأنه لا تهمة إلا العاجلة وما تلذه وتنعّمه فيها. فردّ عليه زعمه بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلته، بل الإكرام في توفيق الطاعة، والإهانة في الخذلان. وقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿الإنسان﴾ ودخول الفاء لما في ﴿أَمَّا﴾ من معنى الشرط. والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير. كأنه قيل ﴿فَأَمَّا الإنسان﴾ فقاتل ربّي أكرمني وقت الابتلاء. وكذا ﴿فَيَقُولُ﴾ الثاني خبر المبتدأ وتقديره: ﴿وَأَمَّا﴾ هو ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ ربه. وسمى كلا الأمرين - من بسط الرزق وتقديره - ابتلاء؛ لأنّ كلّ واحدٍ منهما اختبار للعبد. فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر. وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَرَسًا﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وإنما أنكر قوله: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾. مع أنه أثبت به قوله ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ لأنه قال على قصد خلاف

بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ
الْثَرَاتِ أَكْثَلًا ﴿١٩﴾ وَتُحْبِثُونَ أَمْوَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا
دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
الْإِنْسَنُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾

ما صححه الله عليه وأثبتته وهو قصده إلى أن الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له لاستحقاقه كقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] وإنما أعطاه الله تعالى ابتلاءً من غير استحقاق منه.

﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: بل هناك شر من هذا القول. وهو أن الله يكرمهم بالغنى فلا يؤذون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة، وحض أهل على طعام المسكين ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ﴾ الميراث ﴿أَكْثَلًا﴾ ذالماً. وهو الجمع بين الحلال والحرام. وكانوا لا يورثون النساء والصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم ﴿وَتُحْبِثُونَ أَمْوَالَ﴾. يقال: حبه وأحبه بمعنى ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص ومنع الحقوق ﴿رَبِّي﴾ حجازي، وأبو عمرو ﴿يكرمون﴾ ﴿ولا يحضون﴾ ﴿ويأكلون﴾ ﴿ويحبون﴾ بصري.

٢١ - ٢٤ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك، وإنكاراً لفعلهم. ثم أتى بالوعيد، وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة فقال: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾ إذا زلزلت ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ دكاً بعد دك. أي: كرر عليها الدك حتى عادت هباءً منبثاً ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ - تمثيلٌ لظهور آيات اقتداره، وتبيين آثار قهره وسلطانه. فإن واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصه. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أمره وقضاؤه ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: ينزل ملائكة كل سماء، فيصطفون صفّاً بعد صف، محدقين بالجن والإنس ﴿وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قيل: إنها بُرزت لأهلها كقوله: ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] وقيل: هو مُجْرَى على حقيقته. ففي الحديث: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»^(١) ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَنُ﴾ أي: يتعظ ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ومن

يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾
يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي
جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

أين له منفعة الذكرى؟ ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ هذه، وهي حياة الآخرة، أي: يا ليتني قدّمت الأعمال الصالحة في الحياة الفانية لحياتي الباقية.

٢٥، ٢٦ - ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ أي: لا يتولى عذاب الله أحد لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿وِثْقَاهُ أَحَدًا﴾. قال صاحب الكشف: لا يعذب أحدٌ أحدًا كعذاب الله، ولا يوثق أحدٌ أحدًا كوثاق الله ﴿لَا يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ عليّ. وهي قراءة رسول الله ﷺ. ورجع إليها أبو عمرو في آخر عمره. والضمير يرجع إلى الإنسان الموصوف، وهو الكافر. وقيل: هو أبي بن خلف. أي: ﴿لَا يُعَذِّبُ﴾ أحدٌ مثل عذابه ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بالسلاسل مثل وثاقه؛ لتناهيه في كفره وعنده.

ثم يقول الله تعالى للمؤمن: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ﴾ إكراماً له، كما كلم موسى عليه السلام، أو يكون على لسان ملك ﴿الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآمنة؛ التي لا يستفرّجها خوف ولا حزن. وهي النفس المؤمنة، أو المطمئنة إلى الحق؛ التي سكّنها ثلج اليقين، فلا يخالجهما شك. ويشهد للتفسير الأول قراءة أبي: (يا أيُّهَا النفس الآمنة المطمئنة) - وإنما يقال لها عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنة: ﴿أَرْجَىٰ إِلَىٰ﴾ موعد ﴿رَبِّكَ﴾ أو ثواب ربك ﴿رَاضِيَةً﴾ من الله بما أوتيت ﴿مُرْضِيَةً﴾ عند الله بما عملت ﴿فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلوكهم ﴿وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم. وقال أبو عبيدة: أي: مع عبادي، وبين عبادي. أي: خواصّي؛ كما قال: ﴿وَأَدْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقيل: النفس: الروح. ومعناه: ﴿فأدخلي في﴾ أجساد ﴿عبادي﴾ لقراءة عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - (في جسد عبدي). ولما مات ابن عباس بالطائف جاء طائر لم ير على خلقته، فدخل في نعشه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر ولم يُدر من تلاها. قيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب. وقيل: في خبيب الذي صلبه أهل مكة. وقيل: هي عامة للمؤمنين؛ إذ العبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾

١ ، ٢ - ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بالبلد الحرام، وبما بعده على أن الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد. واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي: ومن المكابدة: أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد. يعني: مكة كما يستحل الصيد في غير الحرم. عن شرحبيل: يحرمون أن يقتلوا بها صيداً، ويستحلون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت [لرسول]^(١) الله وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته. أو سأل رسول الله ﷺ بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد. واعترض بأن وعده فتح مكة تميماً للتسليّة والتنفيس عنه فقال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر. وذلك: أن الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له، وما فتحت على أحد قبله، ولا أحلت له، فأحل ما شاء وحرم ما شاء: قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صُبابة وغيرهما. وحرم دار

(١) في الأصل المخطوط: من رسول.

وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٢﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿١﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَعَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ

أبي سفيان ونظير قوله: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ﴾ في الاستقبال قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلِئَنَّمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وكفاك دليلاً على أنه للاستقبال: أَنَّ السورة مكية بالاتفاق. وأين الهجرة من وقت نزولها؟ فما بال الفتح؟!

٣ - ﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هما آدم - عليه السلام - وولده. أو كلّ والدٍ وولده. أو: إبراهيم - عليه السلام - وولده ﴿وما﴾ بمعنى مَنْ أو بمعنى الذي.

٤ - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ جواب القسم ﴿فِي كَبَدٍ﴾ مشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وعن ذي النون: لم يزل مربوطاً بحبل القضاء، مدعواً إلى الائتمار والانتها.

٥، ٦ - والضمير في ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَعَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ لبعض صناديد قريش؛ الذين كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد. ثم قيل: هو أبو الأشد. وقيل: الوليد بن المغيرة. والمعنى: أيطنّ هذا الصنديد القوي في قومه، المتضيق للمؤمنين: أن لن تقوم قيامة، ولن يقدر على الانتقام منه. ثم ذكر ما يقوله في ذلك اليوم، وإنه ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ أي: كثيراً. جمع: لُبْدَة. وهو ما تلبّد. أي: كثر واجتمع. يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ومعالي.

٧ - ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق ما ينفق رياءً وافتخاراً. يعني: أَنَّ الله تعالى كان يراه، وكان عليه رقيباً.

٨ - ١٠ - ثم ذكر نعمة عليه فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما المراثيات ﴿وَلِسَانًا﴾ يعبر به عما في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغره، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب، والنفخ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ طريقي الخير والشر، المفضيين إلى الجنة والنار. وقيل: الثديين.

١١ - ١٧ - ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ

ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصَّوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾

ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يعني فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب، أو إطعام اليتامى، والمساكين، ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة، وأساس كل خير، بل غمط النعم وكفر بالمنعم. والمعنى: أن الإنفاق على هذا الوجه مرضي نافع عند الله، لا أن يهلك ماله لبدأ في الرياء والفخار. وقلما تستعمل «لا» مع الماضي إلا مكررة. وإنما لم تكرر في الكلام الأوضح؛ لأنه لما فسر اقتحام العقبة بثلاثة أشياء صار كأنه أعاد «لا» ثلاث مرات. وتقديره: فلا فك رقبة، ولا أطلع مسكيناً، ولا آمن. والاقترام: الدخول والمجازاة بشدة ومشقة. والقحمة: الشدة. فجعل الصالحة عقبة، وعملها اقتحاماً لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقة، ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبة والله شديدة، مجاهدة الإنسان نفسه، وهواه، أو عدوه الشيطان. والمراد: بقوله: ﴿ما العقبة﴾: ما اقتحامها؟ ومعناه: أنك لم تدر كنه صعوبتها على النفس، وكنه ثوابها عند الله. وفك الرقبة: تخليصها من الرق، أو الإعانة في مال الكتابة ﴿فك رقبة﴾ أو أطعم مكي، وأبو عمرو، وعلي، على الإبدال من ﴿اقتحم العقبة﴾. وقوله: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ اعتراض. غيرهم: ﴿فك رقبة أو إطعام﴾ على: اقتحامها ﴿فك رقبة أو إطعام﴾. والمسغبة: المجاعة. والمقربة: القرابة. والمترية: الفقر. مفعلات من سغب: إذا جاع. وقرب في النسب. يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقرتي. وترب: إذا افتقر. ومعناه: التصق بالتراب، فيكون مأواه المزابيل. ووصف اليوم بذي مسغبة؛ كقولهم: هم ناصب. أي: ذو نصب ومعنى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ أي: داوم على الإيمان. وقيل: ﴿ثم﴾ بمعنى الواو: وقيل: إنما جاء بـ«ثم» لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت؛ إذ الإيمان هو السابق على غيره، ولا يثبت عمل صالح إلا به ﴿وتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعات، والمحن التي يبتلى بها المؤمن ﴿وتَوَّصَّوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بالتراحم فيما بينهم.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

١٨ - ٢٠ - ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالقرآن، أو بدلائلنا ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أصحاب الشمال. والميمنة والمشأمة: اليمين والشمال. أو اليمن، والشؤم. أي: الميامين على أنفسهم، والمشائيم عليهن ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾^(١) وبالهمز: أبو عمرو، وحمة، وحفص. أي: مطبقة. من: أوصدت الباب، وأصدته: إذا أطبقته، وأغلقتة.

* * *

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٨/ ١٥٣).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾

- ١ - ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ وضوؤها إذا أشرقت وقام سلطانها.
 - ٢ - ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ تبعها في الضياء والنور. وذلك في النصف الأول من الشهر يخلف القمر الشمس في النور.
 - ٣ - ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ جلى الشمس، وأظهرها للرائين. وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه؛ لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء. وقيل: الضمير للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر؛ كقوله: ﴿مَا تَرَكْ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].
 - ٤ - ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يستر الشمس، وتُظلم الآفاق.
- والواو الأولى في نحو هذا للقسم بالاتفاق. وكذا الثانية عند البعض. وعند الخليل: الثانية للعطف؛ لأن إدخال القسم على القسم قبل تمام الأول لا يجوز. ألا ترى: أنك لو جعلت موضعها كلمة الفاء، أو ثم لكان المعنى على حاله. وهما حرفا عطف. فكذا الواو. ومن قال: إنها للقسم احتجّ بأنها لو كانت

وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾

للعطف لكان عطفاً على عاملين؛ لأنّ قوله ﴿والليل﴾ - مثلاً - مجرور بواو القسم. و﴿إذا يغشى﴾ منصوب بالفعل المقدّر الذي هو أقسم. فلو جعلت الواو في ﴿والنهار إذا تجلّى﴾ للعطف لكان النهار معطوفاً على الليل جرّاً، و﴿إذا تجلّى﴾ معطوفاً على ﴿إذا يغشى﴾ نصباً. فصار كقولك: إنّ في الدار زيداً والحجرة عمراً. وأجيب: بأنّ واو القسم تنزلت منزلة الباء والفعل حتّى لم يجز إبراز الفعل معها. فصار كأنّها العاملة نصباً وجرّاً، وصارت كعامل واحد له عملاق. وكلّ عامل له عملاق يجوز أن يعطف على معموليه بعاطف واحد بالاتفاق. نحو: ضرب زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها. فكذا هنا.

٥ - ٨ - و﴿ما﴾ مصدرية في ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا﴾ و﴿نَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي: وبنائها، وطحوها. أي: بسطها، وتسوية خلقها في أحسن صورة - عند البعض. وليس بالوجه لقوله: ﴿فألهمها﴾ لما فيه من فساد النظم. والوجه فيه: أن تكون موصولة، وإنّما أوثرت على مَنْ لإرادة معنى الوصفية؛ كأنه قيل: ﴿والسما﴾ والقادر العظيم الذي بناها ﴿ونفس﴾ والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها. وإنّما نكرت النفس؛ لأنّه أراد نفساً خاصّة من بين النفوس وهي نفس آدم؛ كأنه قيل: وواحدة من النفوس. أو: أراد كلّ نفس، والتذكير للتكثير كما في: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤] ﴿فألهمها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فأعلمها طاعتها ومعصيتها، أي: أفهمها: أنّ أحدهما حسنٌ والآخر قبيحٌ.

٩ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ - جواب القسم. والتقدير: لقد أفلح. قال الزجاج: صار طول الكلام عوضاً عن اللام. وقيل: الجواب محذوف، وهو الأظهر. تقديره: لَيْدَمَدَمَنْ الله عليهم. أي: على أهل مكة، بتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنّهم كذبوا صالحاً. وأمّا ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فألهمها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء - ﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾ طهرها الله، وأصلحها، وجعلها زاكيةً.

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١٠﴾ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِيبُهُمْ فَسْوَنَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

١٠ - ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ أغواها الله. قال عكرمة: أفلجت نفس زكّاه الله. وخابت نفس أغواها الله. ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد. والتدسية: النقص، والإخفاء بالفجور. وأصل دسى: دسس. والياء بدل من السين المكررة.

١١ - ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ بطغيانها؛ إذا الحامل لهم على التكذيب طغيانهم.

١٢ - ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ حين قام لعقر الناقة ﴿أَشْقَاهَا﴾ أشقى ثمود: قدار بن سالف، وكان أشقر أزرق قصيراً. و﴿إِذِ﴾ منصوب بـ ﴿كَذَبَتْ﴾ أو بالطغوى.

١٣ - ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نصب على التحذير. أي: احذروا عقرها ﴿وَسُقْيَاهَا﴾؛ كقوله: الأسد الأسد.

١٤ - ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: الناقة. أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً؛ كقوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، لرضاهم به ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿يَذِيبُهُمْ﴾ بسبب ذنبهم، وهو تكذيبهم الرسول، وعقرهم الناقة ﴿فَسَوَّنَهَا﴾ فسوى الدمدمة عليهم، لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم.

١٥ - ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة. أي: فعل ذلك غير خائف أن تلحقه تبعه من أحد؛ كما يخاف من يعاقب من الملوك؛ لأنه فعل في ملكه، ومملكه ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] (فلا يخاف مدنيّ، وشاميّ).

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَالْفَقْرَ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾

١ - ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ المغيشيُّ إما الشمس من قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤]، أو: النهار من قوله: ﴿يُغْشَى أَلَيْلَ النَّهَارِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أو: كل شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

٢ - ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل.

٣ - ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ والقادر العظيم القدرة؛ الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد.

٤ - وجواب القسم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ إن عملكم لمختلف. وبيان الاختلاف فيما فصل على أثره.

٥ - ٧ - ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ حقوق ماله ﴿وَالْفَقْرَ﴾ ربّه فاجتنب محارمه ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ بالملة الحسنی، وهي: ملة الإسلام، أو: بالمشوبة الحسنی، وهي: الجتة. أو: بالكلمة الحسنی وهي: لا إله إلا الله ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ فسنيته للخلّة اليسرى، وهي: العمل بما يرضاه ربّه.

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾

٨، ١٠ - ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بماله ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ عن ربه فلم يتقه، أو: استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ بالإسلام، أو: الجنة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ للخلّة المؤدية إلى النار، فتكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشدّه. أو سقى طريقة الخير ياليسرى؛ لأنّ عاقبتها اليسر، وطريقة الشرّ بالعسرى؛ لأنّ عاقبتها العسر. أو: أراد بهما طريقي الجنة والنار.

١١ - ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ ولم ينفعه ماله إذا هلك. و﴿تَرَدَّى﴾ تفعل، من الردى، وهو: الهلاك. أو: ﴿تَرَدَّى﴾ في القبر، أو: في قعر جهنم. أي: سقط.

١٢، ١٣ - ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ إنّ علينا الإرشاد إلى الحقّ بنصب الدلائل، وبيان الشرائع ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ فلا يضرنا ضلال من ضلّ، ولا ينفعنا اعتداء من اهتدى. أو: إنّهما لنا، فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق.

١٤، ١٨ - ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم ﴿نَارًا تَلَظَّى﴾ تلهب، ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ لا يدخلها للخلود فيها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿إِلَّا الْكَافِرَ الَّذِي كَذَّبَ الرَّسُولَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴿الْأَتْقَى﴾ المؤمن ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ للفقراء ﴿يَتَزَكَّى﴾ من الزكاة. أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، لا يريد به رياء، ولا سمعة. أو يتفعل من الزكاة. و﴿يَتَزَكَّى﴾ إن جعلته بدلاً من ﴿يؤتي﴾ فلا محلّ له؛ لأنّه داخل في حكم الصلة. والصلات لا محلّ لها. وإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿يؤتي﴾ فمحله النصب. قال أبو عبيدة: ﴿الْأَشْقَى﴾ بمعنى: الشقيّ وهو الكافر. و﴿الْأَتْقَى﴾ بمعنى: التقى. وهو المؤمن؛ لأنّه يختصّ بالصليّ أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء. وإن زعمت أنّه نكر النار فأراد ناراً مخصوصةً بالأشقى فما تصنع بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ لأن المتقي يُجَنَّبُ تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تَجَزَّى ﴿١٩﴾ إِلَّا أَنْفَاءً وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾

خاصّة. وقيل: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما فقليل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلي، كأنّ النار لم تخلق إلّا له، وقيل: الأتقى وجعل مختصاً بالنجاة، كأنّ الجنّة لم تخلق إلّا له. وقيل: هما أبو بكر - رضي الله عنه - وأبو جهل. وفيه بطلان زعم المرجئة؛ لأنهم يقولون: لا يدخل النار إلّا كافر.

١٩، ٢٠ - ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تَجَزَّى إِلَّا أَنْفَاءً وَجْهِ رَبِّهِ﴾ أي: ﴿وما لأحدٍ﴾ عند الله نعمة يجازيه بها؛ إلّا أن يفعل فعلاً يبتغي به وجه ربّه، فيجازي عليه ﴿الْأَعْلَى﴾ هو الرفيع بسلطانه، المنيع في شأنه وبرهانه. ولم يرد به العلو من حيث المكان. فذا آية الحدّثان.

٢١ - ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ مَوْعِدٌ بالثواب الذي يرضيه ويقرّ عينه. وهو كقوله تعالى لَنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

* * *

سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ
الْأُولَى ﴿٤﴾

١ - ٣ - ﴿وَالضُّحَى﴾ المراد به: وقت الضحى، وهو: صدر النهار حين ترتفع الشمس. وإنما خص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام، وألقي فيها السحرة سجداً. أو: النهار كله لمقابلته بالليل في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي: سكن. والمراد سكون الناس والأصوات فيه. وجواب القسم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ أي: ما تركك منذ اختارك، وما أبغضك منذ أحبك. والتوديع مبالغته في الودع؛ لأن من ودَّعَكَ مفارقاً فقد بالغ في تركك. روي: أَنَّ الوحي تأخر عن رسول الله ﷺ أياماً، فقال المشركون: إِنَّ محمداً ﷺ ودَّعه ربُّه، وقلاه. فنزلت^(١). وحذف الضمير من ﴿قَلَى﴾ كحذفه من الذكريات في قوله: ﴿وَالَّذِكْرُ لِلَّهِ كَثِيرٌ أَوَّلُ الذِّكْرِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] يريد: والذكريات. ونحوه ﴿فَأَوَى﴾ ﴿فَهْدَى﴾ ﴿فَأَغْنَى﴾. وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف.

٤ - ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي: ما أعد الله لك في الآخرة من المقام

(١) رواه ابن مردويه. (حاشية الكشف ٤/٧٦٦).

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا

المحمود، والحوض المورد، والخير الموعود، خير مما أعجبك في الدنيا. وقيل: وجه اتصاله بما قبله: أنه لما كان في ضمن نفي التوديع والقلي أن الله مواصلك بالوحي إليك، وأنت حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك، أخبره: أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك؛ لتقدمه على الأنبياء، وشهادة أمته على الأمم، وغير ذلك.

٥ - ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ في الآخرة من الثواب، ومقام الشفاعة، وغير ذلك ﴿فَتَرْضَى﴾. ولما نزلت قال ﷺ: «إِذَا لَا أَرْضَى قَطَّ وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ»^(١). واللام الداخلة على ﴿سوف﴾ لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة. والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك. ونحوه ﴿لأقسم﴾ فيمن قرأ كذلك؛ لأنّ المعنى: لأننا أقسم، وهذا لأنها إذا كانت لام قسم فلامه لا تدخل على المضارع إلّا مع نون التوكيد. فتعيّن أن تكون لام الابتداء، ولامه لا تدخل إلّا على المبتدأ والخبر. فلا بدّ من تقدير مبتدأ وخبر كما ذكرنا، كذا ذكره صاحب الكشف. وقال صاحب الكشف: هي لام القسم، واستغني عن نون التوكيد؛ لأنّ النون إنّما تدخل ليؤذن: أنّ اللام لام القسم لا لام الابتداء. وقد علم: أنه ليس للابتداء؛ لدخولها على ﴿سوف﴾ لأنّ لام الابتداء لا تدخل على سوف. وذكر: أنّ الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير يؤذن بأنّ العطاء كائن لا محالة وإن تأخر.

٦ - ثمّ عدّد عليه نعمه من أوّل حاله، ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه، لئلا يتوقع إلّا الحسنى وزيادة الخير، ولا يضيق صدره، ولا يقلّ صبره، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ وهو من الوجود الذي بمعنى العلم. والمنصوبان مفعولاه. والمعنى: ألم تكن يتيمًا حين مات أبوك ﴿فَآوَى﴾ أي: فأواك إلى عمك أبي طالب، وضمّك إليه، حتّى كفلك، وربّاك.

٧ - ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي: غير واقفٍ على معالم النبوة، وأحكام الشريعة،

(١) رواه الخطيب في تلخيص المشابه. (الدر المنثور ٨/ ٥٤٢).

فَهْدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

وما طريقه السمع ﴿فَهْدَىٰ﴾ فعرفك الشرائع والقرآن. وقيل: ضلّ في طريق الشّام حين خرج به أبو طالب فردّه إلى القافلة. ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حقّ، ووقوع في غيٍّ. فقد كان ﷺ من أوّل حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذورات أهل الفسق والعصيان.

٨ - ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيراً ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك بمال خديجة - رضي الله عنها -
أو: بما أفاء عليك من الغنائم.

٩ - ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقّه لضعفه.

١٠ - ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجر، فأبذل قليلاً، أو: ردّ جميلاً. وعن السديّ: المراد: طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره.

١١ - ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: حدّث بالنبوة التي آتاك الله. وهي أجلّ النعم. والصحيح أنها تعمّ جميع نعم الله عليه. ويدخل تحته تعليم القرآن والشرائع.

* * *

سُورَةُ الشَّرْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

١ - ﴿اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك. ولذا عطف عليه ﴿وَضَعْنَا﴾ اعتباراً للمعنى. أي: فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم، حتى وسع هموم النبوة، ودعوة الثقلين. فأزلنا عنه الضيق، والخرج الذي يكون مع العمى والجهل. وعن الحسن: ملئ حكمة وعلماً.

٢ - ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وخففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها. وقيل: هو زلة لا نعرفها بعينها. وهي: ترك الأفضل مع إتيان الفاضل. والأنبياء يعاتبون بمثلها. ووضع عنه: أن غفر له. والوزر: الحمل الثقيل.

٣ - ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أثقله حتى سمع نقيضه، وهو صوت الانتقاض.

٤ - ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ رفع ذكره أن قرن بذكر الله في كلمة الشهادة، والأذان، والإقامة، والخطب، والتشهد، وفي غير موضع من القرآن ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: ١٣]

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وفي تسميته: رسول الله، ونبي الله. ومنه: ذكره في كتب الأولين.

وفائدة ﴿لك﴾ ما عرف في طريقة الإبهام والإيضاح؛ لأنه يفهم بقوله: ﴿لم نشرح لك﴾ أن ثم مشروحاً، ثم أوضح بقوله: ﴿صدرك﴾ ما علم مبهماً، وكذلك: ﴿لك ذكرك﴾ و﴿عنك وزرك﴾.

٥ ، ٦ - ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ أي: إن مع الشدة التي أنت فيها من مقاساة بلاء المشركين ﴿يسراً﴾ بإظهار إيّاك عليهم حتى تغلبهم. وقيل: كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر حتى سبق إلى وهمه: أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله. فذكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم. ثم قال: ﴿إن مع العسر يسراً﴾ كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله ﴿فإن مع العسر﴾ الذي أنتم فيه ﴿يسراً﴾. وجيء بلفظ ﴿مع﴾ لغاية مقاربة اليسر العسر زيادة في التسلية، وتقوية القلوب. وإنما قال ﷺ عند نزولها: «لن يغلب عسر يسرين»^(١) لأن العسر أعيد معزفاً فكان واحداً؛ لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى. واليسر أعيد نكرة، والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت الثانية غير الأولى. فصار المعنى: ﴿إن مع العسر﴾ يسرين. قال أبو معاذ: يقال: إن مع الأمير غلاماً، إن مع الأمير غلاماً. فالأمير واحد ومعه غلامان. وإذا قيل: إن مع الأمير الغلام، إن مع الأمير الغلام. فالأمير واحد والغلام واحد. وإذا قيل: إن مع أمير غلاماً، إن مع أمير غلاماً، فهما أميران وغلامان. كذا في «شرح التأويلات».

٧ - ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الرب. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿فإذا فرغت﴾ من صلاتك فاجتهد في الدعاء. واختلف: أنه قبل السلام أو بعده. ووجه الاتصال بما قبله: أنه لما عدّد عليه نعمه السالفة، ووعدّه الآتية، بعثه على الشكر

وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

والاجتهاد في العبادة، والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض ولا يُخلّي وقتاً من أوقاته منها . فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى .

٨ - ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلا فضله، متوكلاً عليه .

* * *

سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سَيْنِينَ ۝

١ - ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة. روي: أنه أهدى لرسول الله ﷺ طبق من تين، فأكل منه، وقال لأصحابه: «كلوا، فلو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع من الثَّفَرَسِ»^(١) وقال: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحفرة»^(٢). وقال: «هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي»^(٣). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو تينكم هذا وزيتونكم. وقيل: هما جبلان، بالشام ينبتانهما.

٢ - ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ أضيف الطور وهو: الجبل إلى سينين، وهي: البقعة. ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالواو والياء، والإقرار على الياء، وتحريك النون بحركات الإعراب.

(١) رواه أبو نعيم في الطب (ص ٨٢).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط. (مجمع الزوائد ٢/ ١٠٠).

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٢﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾

٣ - ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني: مَكَّةُ ﴿الْأَمِينِ﴾، من: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وأمانته: أنه يحفظ من دخله، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه. ومعنى القسم بهذه الأشياء: الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والأولياء. فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم، ومولد عيسى - عليهما السلام -، ومنشؤه. والطور: المكان الذي نودي منه موسى - عليه السلام - ومَكَّةُ: مكان البيت الذي هو هدى للعالمين، ومولد نبينا، ومبعثه ﷺ. أو: الأولان قَسَمَ بمهبط الوحي على عيسى - عليه السلام - والثالث على موسى - عليه السلام - والرابع على محمد ﷺ.

٤ - وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ - وهو جنس - ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ في أحسن تعديل لشكله وصورته، وتَسْوِيَةٍ لأعضائه.

٥ - ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية أن رددناه أسفل من سفلى خلقاً وتركيباً. يعني: أقبح مَنْ قُبَحَ صورةً، وهم أصحاب النار. أو: أسفل من سفلى من أهل الدرجات. أو: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ﴾ بعد ذلك التقويم والتحسين ﴿أَسْفَلَ﴾ من سفلى في حسن الصورة والشكل، حيث نكسناه في خلقه فقوَّس ظهره بعد اعتداله، وابتيض شعره بعد سواده، وتشنَّ جلده^(١)، وكلَّ سمعه وبصره، وتغيَّر كل شيء منه، فمشيه دليف^(٢)، وصوته خفات، وقوته ضعف، وشهامته خَرَفُ.

٦ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ودخل الفاء هنا دون سورة الانشقاق للجمع بين اللغتين. والاستثناء على الأول متصل، وعلى الثاني منقطع. أي: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب غير منقطع على

(١) تشنَّ: ييس.

(٢) دليف: أي: متقارب الخطو.

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

طاعتهم، وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق، والقيام بالعبادة.

٧ - والخطاب في: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ للإنسان على طريقة الالتفات. أي: فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع، والبرهان الساطع بالجزاء. والمعنى: إن خلق الإنسان من نطفة، وتقويمه بشراً سوياً، وتدرجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر، لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق، وأن من قدر على خلق الإنسان على هذا كله لم يعجز عن إعادته. فما سبب تكذيبك بالجزاء؟ أو: لرسول الله ﷺ. أي: فمن ينسبك إلى الكذب بعد هذا الدليل؟ «فما» بمعنى: مَنْ.

٨ - ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ وعيد للكفار، وأنه يحكم عليهم بما هم أهل له. وهو من الحكم: القضاء.

* * *

سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد - رحمه الله - هي: أول سورة نزلت. والجمهور على أن الفاتحة أول ما نزل، ثم سورة القلم.

١، ٢ - ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ محل ﴿باسم ربك﴾ النصب على الحال. أي: ﴿اقرأ﴾ مفتوحاً ﴿باسم ربك﴾ قل: باسم الله، ثم اقرأ. ﴿الذي خلق﴾ لم يذكر لخلق مفعولاً لأن المعنى: ﴿الذي﴾ حصل منه الخلق، واستأثر به، لا خالق سواه. أو: تقديره: خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق، لأنه مطلق. وليس بعض المخلوقات بتقديره أولى. وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لشرفه، ولأن التنزيل إليه. ويجوز أن يراد ﴿الذي خلق﴾ الإنسان، إلا أنه ذكر مبهماً، ثم مفسراً تفخيماً لخلقه، ودلالة على عجب فطرته ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ وإنما جمع ولم يقل: من علقه؛ لأن الإنسان في معنى الجمع.

٣ - ٥ - ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كريم.

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٦﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

ينعم على عباده النعم، ويحلم عنهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه. وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال: ﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ الكتابة ﴿بِالْقَلَمِ﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، فدل على كمال كرمه بأنه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة. وما دوت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضببطت أخبار الأولين، ولا كتب الله المنزلة، إلّا بالكتابة. ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا. ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلّا أمر القلم والخط لكفى به.

٦- ﴿كَلَّا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه، وإن لم يذكر، لدلالة الكلام عليه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ نزلت في أبي جهل إلى آخر السورة.

٧- ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أن رأى نفسه. يقال في أفعال القلوب: رأيتني، وعلمتني. ومعنى الرؤية: العلم. ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين ﴿أَسْتَفْقَى﴾ هو المفعول الثاني.

٨- ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ تهديه للإنسان من عاقبة الطغيان على طريق الالتفات. و﴿الرجعى﴾ مصدر بمعنى: الرجوع. أي: إنّ رجوعك إلى ربك، فيجازيك على طغيانك.

٩- ١٤- ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ أي ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أبا جهل ينهى محمداً ﷺ عن الصلاة ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ أي: ﴿إِنْ كَانَ﴾ ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ النّاهي مكذباً بالحق، متولياً عنه، كما نقول نحن ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ويطلع على أحواله من هداة وضلاله، فيجازيه على حسب حاله. وهذا وعيد. وقوله: ﴿الذي ينهى﴾ مع الجملة الشرطية مفعولا ﴿أَرَأَيْتَ﴾، وجواب الشرط

كَلَّا لَئِنْ لَزَّ بَتَيْ لَسَفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

محذوف، تقديره: ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهَدْيِ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني. وهذا كقولك: إِنْ أَكْرَمْتُكَ أَتَكْرِمُنِي؟ و﴿أَرَأَيْتَ﴾ الثانية مكررة زائدة للتوكيد.

١٥ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله، وأمره بعبادة الأصنام. ثُمَّ قَالَ: ﴿لَئِنْ لَزَّ بَتَيْ لَسَفَعَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لناخذن بناصيته ولنسحبته بها إلى النار. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. وَكَبَّتُهَا فِي الْمَصْحَفِ بِالْأَلْفِ عَلَى حَكْمِ الْوَقْفِ. واكتفى بلام العهد عن الإضافة للعلم بأنها ناصية المذكور.

١٦ - ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية. لأنها وصفت بالكذب والخطأ بقوله: ﴿كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ على الإسناد المجازي. فهما لصاحبها حقيقة. وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطيء.

١٧، ١٨ - ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ * سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ﴿النَّادِي﴾: المجلس الذي يجتمع فيه القوم. والمراد: أهل النادي. روي: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَصَلِّي فَقَالَ: أَلَمْ أَهْكَ؟! فَأَغْلَظَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فقال: أَتَهْدِدُنِي وَأَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْوَادِي نَادِيًا؟ فَتَزَلْتُ^(١). والزبانية لغة: الشرط. الواحد: زَبْنِيَّة. من: الزبن. وهو: الدفع. والمراد: ملائكة العذاب. وعنه ﷺ: «لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ الزَّبَانَةُ عِيَانًا»^(٢).

١٩ - ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل. ﴿لَا نُطِيعُهُ﴾ أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه، كقوله: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [القلم: ٨] ﴿وَأَسْجُدْ﴾ ودم على سجودك. يريد: الصلاة ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ وتقرّب إلى ربك بالسجود؛ ف «إِنْ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ إِذَا سَجَدَ»^(٣). كذا الحديث.

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٣٤٩).

(٢) رواه أحمد (٣٧٠ / ٢) ومسلم (٢٧٩٧).

(٣) رواه مسلم (٤٨٢).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

١ - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ عظم القرآن حيث أسند إنزاله إليه دون غيره، وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه. ورفع مقدار الوقت الذي أنزل فيه روي: أنه أنزل جملة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. ثم كان ينزله جبريل على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها. والقدر: بمعنى التقدير. أو سُميت بذلك لشرفها على سائر الليالي. وهي ليلة السابع والعشرين [من رمضان] ^(١). كذا روى أبو حنيفة - رحمه الله - عن عاصم، عن زَرٍّ: أنَّ أَبِي بن كعب - رضي الله عنه - كان يحلف على ﴿لَيْلَةٍ﴾: أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان، وعليه الجمهور. ولعلَّ الداعي إلى إخفائها: أن يحجب من يريدّها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها. وهذا كإخفاء الصلاة الوسطى، واسمه الأعظم، وساعة الإجابة في الجمعة، ورضاه في الطاعات، وغضبه في المعاصي. وفي الحديث: «من أدركها يقول: اللهم إِنَّكَ عَفْوٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي» ^(٢).

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٥٠).

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَوْثُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

٢، ٣ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ أي: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها. ثم بين له ذلك بقوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ليس فيها ليلة القدر. وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من تنزل الملائكة والروح، وفصل كل أمر حكيم. وذكر في تخصيص هذه المدة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر. فعجب المؤمنون من ذلك وتقاشرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلة هي خيرٌ من مدة ذلك الغازي.

٤ - ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَوْثُ﴾ إلى السماء الدنيا، أو إلى الأرض ﴿وَالرُّوحُ﴾ - جبريل - عليه السلام - أو خلق من الملائكة لا يراهم الملائكة إلا تلك الليلة. أو: الرحمة ﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي تنزل ﴿من﴾ أجل ﴿كل أمر﴾ قضاء الله لتلك السنة إلى قابل. وعليه وقف.

٥ - ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ ما هي إلا سلامة. خبر ومبتدأ. أي: لا يقدر الله فيها إلا السلامة والخير. ويقضي في غيرها بلاء وسلامة. أو: ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلّمون على المؤمنين. قيل: لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنةً إلا سلّموا عليه في تلك الليلة ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ إلى وقت طلوع الفجر. وبكسر اللام عليّ، وخلف. وقد حُرِّمَ من السلام الذين كفروا.

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

١ - ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى. فأهل الرجل: أخص الناس به، وأهل الإسلام: من يدين به ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأصنام ﴿مُنْفَكِينَ﴾ منفصلين عن الكفر. وحذف؛ لأن صلة ﴿الذين﴾ تدل عليه ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة. والمراد: محمد ﷺ. يقول: لم يتركوا كفرهم حتى بُعث محمد ﷺ. فلما بُعث أسلم بعض، وثبت على الكفر بعض.

٢ - ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: محمد ﷺ. وهو بدل من البينة ﴿يَتْلُو﴾ يقرأ عليهم ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس ﴿مُطَهَّرَةً﴾ من الباطل.

٣ - ﴿فِيهَا﴾ في الصحف ﴿كُتِبَ﴾ مكتوبات ﴿قِيمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل.

٤ - ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ فمنهم من أنكر

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

نبوته بغياً وحسداً، ومنهم من آمن. وإنما أفرد أهل الكتاب بعد ما جمع أولاً بينهم وبين المشركين؛ لأنهم كانوا على علم به؛ لوجوده في كتبهم. فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

٥ - ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي: في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير شرك ونفاق ﴿حُنَفَاءَ﴾ مؤمنين بجميع الرسل، مائلين عن الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: دين الملة القيمة.

٦، ٧ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿ونافع يهزهما. والقراء على التخفيف. والنبي والبرية مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل.﴾

٨ - ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إقامة ﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول أعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابها ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرضا ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

وقوله ﴿خير البرية﴾ يدل على فضل المؤمنين من البشر على الملائكة لأن البرية: الخلق. واشتقاقها من برا الله الخلق. وقيل: اشتقاقها من البرى، وهو التراب. ولو كان كذلك لما قرؤوا البرينة بالهمز. كذا قاله الزجاج.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾

١ - ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: حركت زلزالها الشديد الذي ليس بعده.
وقرىء بفتح الزاي. فالكسور: مصدر، والمفتوح: اسم.

٢ - ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ كنوزها وموتاهها. جمع: ثِقْل، وهو: متاع البيت. جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها.

٣ - ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة، ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ موتاهها أحياء، فيقولون ذلك، لما يظهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].
وقيل: هذا قول الكافر؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث. فأما المؤمن فيقول: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]

٤ - ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا﴾. وناصبهما ﴿تُحَدِّثُ﴾. أي: ﴿تُحَدِّثُ﴾ الخلق ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فحذف أول المفعولين؛ لأن المقصود ذكر تحديثها الأخبار،

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّسِرِّهِمْ أَعْمَلْتُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

لا ذكر الخلق. قيل: ينطقها الله، وتخبر بما عمل عليها من خير وشر. وفي الحديث: «تشهد على كل واحد بما عمل على ظهرها»^(١).

٥ - ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: ﴿تحدث أخبارها﴾ بسبب إحياء ربك ﴿لها﴾ أي: إليها، وأمره إيّاها بالتحديث.

٦ - ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أَشْتَاتًا﴾ بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين. أو: يصدرون عن الموقف أشتاتاً يتفرق بهم طريقا الجنة والنار ﴿لِّسِرِّهِمْ أَعْمَلْتُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم.

٧ - ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ نملة صغيرة ﴿خَيْرًا﴾ تميز ﴿يَرَهُ﴾ أي: ير جزاءه.

٨ - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قيل: هذا في الكفار، والأول في المؤمنين. ويحكي: أن أعرايياً آخر ﴿خيراً يره﴾. فقيل له: قدمت وأخرت فقال:

خُذَا بَطْنَ هَرَشَىٰ أَوْ قَفَّاهَا فَإِنَّهُ كِلَا جَانِبَيْ هَرَشَىٰ لَهْنٌ طَرِيقُ

وروي: أن جدّ الفرزدق أتاه عليه السلام ليستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية، فقال: «حسبي حسبي»^(٢). وهي أحكم آية، وسميت الجامعة.

* * *

(١) رواه أحمد (٣٧٤/٢) والترمذي (٣٣٥٣) والحاكم (٥٣٢/٢) وابن حبان في صحيحه (٧٣٦٠).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٩٦/٨).

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا ﴿١﴾ فَأَلْمُورِبَتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَأَلْمُغِيرَتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾

١ - ٨ - ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا﴾ أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح. والضبح: صوت أنفاسها إذا عدون. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه حكاه فقال: أخ، أخ. وانتصاب ﴿ضَبْحًا﴾ على يَضْبَحُنْ ضَبْحًا ﴿فَأَلْمُورِبَتِ﴾ توري نار الحباب^(١). وهي: ما ينقذ من حوافرها ﴿قَدْحًا﴾ قاذحات صاكات بحوافرها الحجارة. والقذح: الصك. والإبراء: إخراج النار. تقول: قدح فأورى. وقدح فأصلد^(٢). وانتصب ﴿قَدْحًا﴾ بما انتصب به ﴿ضَبْحًا﴾ ﴿فَأَلْمُغِيرَتِ﴾ تغير على العدو ﴿صُبْحًا﴾ في وقت الصبح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فهيجن بذلك الوقت غباراً ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ بذلك الوقت ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء. ووسطه بمعنى: توسطه. وقيل: الضمير لمكان الغارة، أو: للعدو الذي دل عليه: ﴿والعاديات﴾. وعطف ﴿فَأَثَرْنَ﴾ على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه؛

(١) «الحباب»: اسم رجل بخيل، كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان، فضربوا به المثل حتى قالوا: نار الحباب؛ لما تقدحه الخيل بحوافرها.

(٢) «أصلد»: صوت ولم يخرج ناراً.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ
 لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ
 بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

لأنَّ المعنى: واللاتي عدون، فأورين، فأغرن، فأثرن. وجواب القسم: ﴿إِنَّ
 الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ لكفور. أي: أنه لنعمة ربّه خصوصاً لشديد الكفران
 ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإنَّ الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على كنوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾. يشهد على نفسه. أو:
 إنَّ الله على كنوده لشاهد، على سبيل الوعيد ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وإنّه
 لأجل حبِّ المال لبخيلٌ ممسك. أو: وإنّه حبّ المال لقويّ، وهو لبّ عبادة الله
 ضعيف.

٩ - ١١ - ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ بعث ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ من
 الموتى. و﴿مَا﴾ بمعنى مَنْ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ميز ما فيها من الخير والشرّ
 ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ لعالم فيجازيهم على أعمالهم من الخير والشر؟ وخصّ
 ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان؛ لأنَّ الجزاء يقع ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾

١ ، ٢ - ﴿الْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ مبتدأ ثان ﴿الْقَارِعَةُ﴾ خبره. والجمله خبر المبتدأ الأول، وكان حقه: ما هي. وإنما كرر تفخيماً لشأنها.

٣ - ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ أي: أي شيء أعلمك ما هي؟ ومن أين علمت ذلك؟

٤ - ﴿يَوْمَ﴾ نصب بمضمر دلّت عليه ﴿القارعة﴾ أي: تفرع ﴿يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾. شبههم بالفراش في الكثرة، والانتشار، والضعف، والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب؛ كما يتطاير الفراش إلى النار. وسمي فراشاً لتفرشه، وانتشاره.

٥ - ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ وشبه الجبال بالعهن - وهو الصوف المصبغ ألواناً - لأنها ألوان ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧] وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها.

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾

٦ - ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ باتباعهم الحق، وهي: جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله. أو: جمع ميزان. وثقلها: رجحانها.

٧ - ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ذات رضا، أو: مرضية.

٨ ، ٩ - ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ باتباعهم الباطل ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ فمسكنه ومأواه النار. وقيل للمأوى: أم على التشبيه؛ لأنّ الأم مأوى الولد ومفزع.

١٠ ، ١١ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾ الضمير يعود إلى هاوية. والهاء للسكت. ثم فسرها فقال: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ بلغت النهاية في الحرارة.

* * *

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾

١ - ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ شغلكم التباري في الكثرة، والتباهي بها في الأموال والأولاد عن طاعة الله.

٢ - ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حتى أدرككم الموت على تلك الحال، أو: حتى زرتكم المقابر، وعددتكم من في المقابر من موتاكم.

٣ - ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همّه ولا يهتم بدينه ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر، أو عند النزع سوء عاقبة ما أنتم عليه.

٤، ٥ - ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرير الردع للإنذار والتخويف ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف. أي: ﴿لو تعلمون﴾ ما بين أيديكم ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ علم الأمر اليقين. أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم التكاثر، أو لفعلتم ما لا يوصف، ولكنتكم ضلالاً جهلة.

لَتَرْوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرْوُنَهَا عَلَيْنِ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

٦ - ﴿لَتَرْوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هو جواب قسم محذوف. والقسم لتوكيد الوعيد ﴿لَتَرْوُنَّ﴾ بضم التاء شامي، وعلي.

٧ - ﴿ثُمَّ لَتَرْوُنَهَا﴾ كرره معطوفاً بشم تغليظاً في التهديد، وزيادة في التهويل. الأول بالقلب، والثاني بالعين ﴿عَلَيْنِ الْيَقِينِ﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته.

٨ - ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ عن الأمن والصحة فيم أفنيتموهما، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - . وقيل: عن التنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه. وعن الحسن: ما سوى كن يؤويه، وثوب يواريه، وكسرة تقويه. وقد روي مرفوعاً.

* * *

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

١ - ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: (والصلاة الوسطى صلاة العصر) في مصحف حفصة - رضي الله عنها - ولأنَّ التكليف في أدائها أشق؛ لتهافت الناس في تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعاشهم. أو: أقسم بالعشيِّ كما أقسم بالضحى؛ لما فيها من دلائل القدرة. أو: أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب.

٢ - وجواب القسم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي: جنس الإنسان لفي خسران من تجارتهم.

٣ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا، وسعدوا ﴿وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ﴾ بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله من توحيد الله، وطاعته، واتباع كتبه، ورسله ﴿وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعات، وعلى ما ييلو به الله عباده ﴿وتواصوا﴾ في الموضعين فعل ماضٍ معطوف على ماضٍ قبله.

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾

١ - ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي: الذي يعيب الناس من خلفهم ﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي: من يعيهم مواجهة. وبناءً فَعَلَةٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ عَادَةٌ مِنْهُ. قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وكانت عادته الغيبة. وقيل: في أمية بن خلف. وقيل: في الوليد. ويجوز أن يكون السبب خاصاً، والوعيد عاماً، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح.

٢ - ﴿الَّذِي﴾ بدل من كل. أو نصب على الذم ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ ﴿جَمَعَ﴾ شامي، وحزمة، وعليّ مبالغة. وهو مطابق لقوله: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ أي: جعله عُدَّةً لحوادث الدهر.

٣ - ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي: تركه خالداً في الدنيا لا يموت. أو: هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم. فأما المال فما أخلد أحداً فيه.

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطْلُعُ
عَلَى الْآفِئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

٤ - ﴿كَلَّا﴾ ردع له عن حسابانه. ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ الذي جمع ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقي فيها.

٥ - ٧ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تعجب وتعظيم ^(١) ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: هي نار الله ﴿الْمَوْقِدَةُ﴾ نعتها ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْآفِئِدَةِ﴾ يعني: أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم، وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب. ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشدّ ألماً منه بأذى أذى يمسه. فكيف إذا أطلعت عليه نار جهنم، واستولت عليه؟ وقيل: خصّ الأفئدة؛ لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة. ومعنى اطلاع النار عليها: أنها تشتمل عليها.

٨ - ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: النار، أو الحطمة ﴿مُّوَصَّدَةٌ﴾ مطبقة.

٩ - ﴿فِي عَمَدٍ﴾ ^(٢) بضمين كوفي غير حفص. الباقون ﴿فِي عَمَدٍ﴾ وهما لغتان في جمع: عماد، كإهاب وأهب، وحمار وحر ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي: تؤصد عليهم الأبواب، وتمدد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق. في الحديث: «المؤمن كيتس فطن، وقاف مثبّت، لا يعجل، عالم، ورع. والمنافق هزرة، لمزة، حطمة، كحاطب الليل، لا يبالي من أين اكتسب، وفيم أنفق» ^(٣).

* * *

(١) في الأصل المخطوط: تعذيب، والمثبت من المطبوع، وهو أنسب.

(٢) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿عُمَدٍ﴾ وهي: حمزة، والكسائي، وعاصم، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٢٣٥/٨).

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٦٥٤٤) وانظره في فيض القدير (٩١٥٨).

سُورَةُ الْفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي تَرَىٰ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ

١ - ﴿الَّذِي تَرَىٰ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ «كيف» في موضع نصب بـ ﴿فعل﴾ لا بـ ﴿ألم تر﴾ لما في ﴿كيف﴾ من معنى الاستفهام. والجملة سدّت مسدّ مفعولي ﴿تر﴾. وفي ﴿ألم تر﴾ تعجيب. أي: عجب الله نبيه من كفر العرب، وقد شاهدت هذه العظيمة من آيات الله. والمعنى: إنك رأيت آثار صنع الله بالحبشة، وسمعت الأخبار به متواترة، فقامت لك مقام المشاهدة ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

روي: أن أبرهة بن الصبّاح ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي، بنى كنيسةً بصنعاء، وسماها: القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج. فخرج رجل من كنانة فقعدها فيها ليلاً، فأغضبه ذلك. وقيل: أجمت رفقة من العرب ناراً، فحملتها الريح، فأحرقتها، فحلف ليهدم الكعبة. فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه: محمود - وكان قوياً عظيماً - واثنان عشر فيلاً غيره. فلما جاء مُغَمَّسَ خَرَجَ إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى وعبأ جيشه، وقدم الفيل، فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن هروا، فأرسل الله طيراً، مع كلّ طائر حجر في منقاره، وحجران في رجله أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة. فكان الحجر يقع على رأس الرجل،

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه، ففروا، وهلكوا. وما مات أبرهة حتى انصدع صدره عن قلبه. وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يخلق فوقه حتى بلغ النجاشي، فقص عليه القصّة، فلما أتمّها وقع عليه الحجر، فخر ميتاً بين يديه.

وروي: أنّ أبرهة أخذ لعبد المطلب مئتي بعير، فخرج إليه فيها. فعظم في عينه، وكان رجلاً جسيماً وسيماً. وقيل: هذا سيّد قریش، وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال. فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عيني، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك، وشرفكم في قديم الدهر، فألهاك عنه ذود^(١) أخذ لك! فقال: أنا ربّ الإبل، وللبيت ربّ سيمنعه.

٢ - ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ في تضليل وإبطال. يقال: ضلّل كيده: إذا جعله ضالاً ضائعاً. وقيل لامرئ القيس: الملك الضليل؛ لأنه ضلّل ملك أبيه. أي: ضيّعه. يعني: أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس، ليصرفوا وجوه الحاجّ إليه فضلّل كيدهم بإيقاع الحريق فيه. وكادوه ثانياً بإرادة هدمه، فضلّل [كيدهم]^(٢) بإرسال الطير عليهم.

٣ - ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ حزائق^(٣)، الواحدة: إباله. قال الزجاج جماعات من ها هنا، وجماعات من ها هنا.

٤ - ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - ﴿يرميهم﴾ أي: الله، أو: الطير؛ لأنه اسم جمع مذكر. وإنما يؤنث على المعنى ﴿بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ﴾ هو معرّب من: «سَنَك كُلُّ» وعليه الجمهور، أي: الآجر.

٥ - ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ زرع أكله الدود.

(١) «الدّؤد»: جماعة الإبل بين الثلاث والعشر.

(٢) ليست في الأصل المخطوط.

(٣) أي: جماعات، وحزائق: جمع خزيقة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَهَ إِلَّا قُرَيْشٌ

١ - ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا قُرَيْشٌ﴾ متعلق بقوله ﴿فليعبدوا﴾. أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط. أي: إن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة. أو بما قبله أي: ﴿لَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] ﴿لإيلاف قريش﴾ يعني: أن ذلك الإتلاف لهذا الإيلاف. وهذا كالتضمنين في الشعر، وهو: أن: يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به. وهما في مصحف أبي سورة واحدة بلا فصل. ويروى عن الكسائي ترك التسمية بينهما. والمعنى: أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيحترمواهم فضل احترام؛ حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم، فلا يجترأ أحد عليهم. وقيل المعنى: اعجبوا ﴿لإيلاف قريش﴾. (لإلاف قريش) شامي، أي: لمؤالفة قريش. وقيل: يقال: ألفته، إلفاً، وإلافاً. وقريش: ولد النضر بن كنانة. سمّوه بتصغير القرش. وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن فلا تطاق إلا بالنار. والتصغير للتعظيم. فسمّوا بذلك لشدة بهم، ومنعتهم تشبيهاً بها. وقيل:

إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي
أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

من القرش، وهو الكسب؛ لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد.

٢ - ﴿إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أطلق الإيلاف، ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف، وتذكيراً لعظيم النعمة فيه. ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به. وأراد رحلتي الشتاء والصيف. فأفرد لأمن الإلباس.

وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون، ويتجرون. وكانوا في رحلتهم آمنين؛ لأنهم أهل حرم الله، فلا يُتعرَّضُ لهم، وغيرهم يُغارُ عليهم.

٣، ٤ - ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ والتنكير في ﴿جوع﴾ و﴿خوف﴾ لشدةهما. يعني: ﴿أطعمهم﴾ بالرحلتين ﴿من جوع﴾ شديد كانوا فيه قبلهما ﴿وآمنهم من خوف﴾ عظيم، وهو خوف أصحاب الفيل، أو: خوف التخطف من بلدهم ومسايرهم. وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف، والعظام المخرقة ﴿وآمنهم من﴾ خوف الجذام، فلا يصيبهم ببلدهم. وقيل: ذلك كله بدعاء إبراهيم عليه السلام.

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّنِّ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْصُ
عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾
الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

١ ، ٧ - ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّنِّ﴾ أي: هل ﴿رأيت الذي يكذب﴾ بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه ﴿فَذَلِكَ﴾ الذي يكذب بالجزاء هو ﴿الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وأذى، ويرده ردّا قبيحا بزجر وخشونة ﴿وَلَا يَحْصُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ولا يبعث أهله ﴿على﴾ بذل ﴿طعام المسكين﴾. جعل علم التكذيب بالجزاء، منع المعروف، والإقدام على إيذاء الضعيف. أي: لو آمن بالجزاء، وأيقن بالوعيد لخشي الله وعقابه، ولم يقدم على ذلك. فحين أقدم عليه دلّ أنه مكذب بالجزاء. ثم وصل به قوله ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يعني بهذا: المنافقين. أي: لا يصلونها سرا؛ لأنهم لا يعتقدون وجوبها، ويصلونها علانية رياء. وقيل: ﴿فويل﴾ للمنافقين ﴿الذين﴾ يدخلون أنفسهم في جملة المصلين صورة، وهم غافلون عن صلاتهم، وأنهم لا يريدون بها قربة إلى ربهم، ولا تأدية لفرض. فهم ينخفضون ويرتفعون ولا يدرون ماذا

يفعلون، ويظهرون للناس أنهم يؤدّون الفرائض، ويمنعون الزكاة وما فيه منفعة.

وعن أنس والحسن قالا: الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم﴾ ولم يقل: في صلاتهم؛ لأنّ معنى «عن»: أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين. ومعنى «في»: أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان، أو حديث نفس. وذلك لا يخلو عنه مسلم، وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره.

والمراعاة مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يري الناس عمله، وهم يُروّنه الشناء عليه والإعجاب به. ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار الفرائض. فمن حقّها الإعلان بها، لقوله ﷺ: «ولا غُمة في فرائض الله»^(١). والإخفاء في التطوّع أولى. فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. والماعون: الزكاة. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: ما يتعاونُ في العادة بين الناس من القدر، والدلو، والمقدّحة، ونحوها. وعن عائشة رضي الله عنها: الماء، والنار، والملح.

* * *

(١) قال في: الكشف (٨٠٥/٤): لا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لأنها أعلام الإسلام وشعائره الدين.

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ
الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

١ - ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ هو فاعل من الكثرة، وهو المفرط الكثرة. وقيل: هو نهر في الجنة أحلى من العسل، وأشدّ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الرُّبْد. حافته الزبرجد، وأوانيه من فضة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو الخير الكثير. فقيل له: فَإِنَّ نَاساً يَقُولُونَ: هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير.

٢ - ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فاعبد ربك، الذي عزك بإعطائه، وشرفك، وصانك من ممن الخلق، مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله ﴿وَأَنْحَرْ﴾ لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفاً لعبدة الأوثان في النحر لها.

٣ - ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ﴾ إِنَّ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كلّ خير لا أنت؛ لأنّ كلّ من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك. وذكرك مرفوع على المنابر وعلى لسان كلّ عالم وذاكر إلى آخر الدهر. يبدأ بذكر الله، ويثنى بذكرك. ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له: أبتر، إنّما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة. قيل: نزلت في العاص بن وائل. سماء: الأبتر. والأبتر: الذي لا عقب له. وهو خبر إن. و﴿هو﴾ فصل.

لَا تُدِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

اللفظان. ولم يصح في الأول «مَنْ» وصح في الثاني «مَا» بمعنى الذي.

٦ - ﴿لَا تُدِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(١) لكم شرككم ولي توحيدي. وفتح الياء نافع وحفص.

روي: أَنَّ ابن مسعود - رضي الله عنه - دخل المسجد والنبي ﷺ جالس، فقال له: «نابذ يا ابن مسعود» فقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾. ثُمَّ قال له في الركعة الثانية: «أخلص». فقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾. فلَمَّا سَلَّمَ قال: «يا ابن مسعود سل تجب».

* * *

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿ولِي﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وحزمة، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٢٥٧/٨).

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

١ - ﴿إِذَا﴾ منصوب بسبح، وهو لما يستقبل. والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة وروي: أنها نزلت في أيام التشريق بمِنَى في حَجَّةِ الْوَدَاعِ ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ النصر: الإعانة والإظهار على العدو. والفتح: فتح البلاد. والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب، أو: على قريش وفتح مكة، أو: جنس نصر الله للمؤمنين، وفتح بلاد الشرك عليهم.

٢ - ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾ هو حال من الناس على أَنَّ ﴿رَأَيْتَ﴾ بمعنى: أبصرت، أو عرفت، أو مفعول ثانٍ على أَنَّهُ بمعنى علمت ﴿فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ هو حال من فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾. وجواب إذا ﴿فَسَبِّحْ﴾. أي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إِيَّاكَ على من ناوأك، وفتح البلاد، ورأيت أهل اليمن يدخلون في ملة الإسلام جماعاتٍ كثيرة بعد ما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً، واثنين اثنين.

٣ - ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل: سبحان الله حامداً له، أو: فصل له

وَأَسْتَغْفِرُكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ تَوَابًا ﴿٢﴾

﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ تواضعاً وهضماً للنفس، أو: دم على الاستغفار ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ﴾ ولم يزل ﴿تَوَابًا﴾.

ويروى: أن عمر - رضي الله عنه - لما سمعها بكى، وقال: الكمال دليل الزوال، وعاش رسول الله ﷺ سنتين بعدها.

* * *

سُورَةُ الْمَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾

١ - ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ التباب: الهلاك. ومنه قولهم: أشابة أم تابة؟ أي: هالكة من الهرم. والمعنى: هلكت يداه، لأنه فيما يروى أخذ حجراً ليرمي به رسول الله ﷺ ﴿وَتَبَّ﴾ وهلك كله. أو جعلت يداه هالكيتين، والمراد هلاك جملة كقوله: ﴿يَمَّا قَدَمَتَا يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. ومعنى ﴿وَتَبَّ﴾: وكان ذلك وحصل، كقوله:

جَزَانِي جَزَاءُ اللَّهِ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ، وَقَدْ فَعَلَ
وقد دلَّ عليه قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه - (وقد تب). روي: أنه لما نزل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ رقي الصفا، وقال: يا صباحاه، فاستجمع إليه الناس من كل أوب، فقال ﷺ: «يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: فإنني نذير لكم بين يدي الساعة». فقال أبو لهب: تباً لك. ألهذا دعوتنا؟ فترلت^(١). وإنما كناه

(١) رواه البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨).

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَأَتُهُ
حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

والتكنية تكريمة لاشتهاره بها دون الاسم، ولكراهة اسمه، فاسمه عبد العزى، ولأن ماله إلى نار لهب، فوافقت حاله كنيته، ﴿أبي لهب﴾ مكّي.

٢ - ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ ﴿مَا﴾ للنفي ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مرفوع. وما موصولة، أو مصدرية. أي: ومكسوبه أو وكسبه. أي: لم ينفعه ماله الذي ورثه من أبيه، والذي كسبه بنفسه. أو: ماله التالد والطارف. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿ما كسب﴾، ولده. وروي: أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً؛ فانا أفندي منه نفسي بمالي، وولدي.

٣ - ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ سيدخل ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ البرجمي عن أبي بكر. والسين للوعيد. أو: كائن لا محالة؛ وإن تراخى وقته ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ توقد.

٤ - ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ هي: أم جميل، بنت حرب، أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك، فتنتثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. وقيل: كانت تمشي بالنميمة، فتشعل نار العداوة بين الناس. ونصب عاصم ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ على الشتم. وأنا أحب هذه القراءة. وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بجميل من أحب شتم أم جميل. وعلى هذا يسوغ الوقف على ﴿وامراته﴾ لأنها عطفت على الضمير في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ أي: سيدخل هو وامراته. والتقدير: أعنى ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾. وغيره رفع ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ على أنها خبر ﴿وامراته﴾. أو: هي ﴿حَمَّالَةُ﴾.

٥ - ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ حال، أو خبر آخر. والمسد الذي قتل من الحبال فتلاً شديداً من ليف كان، أو جلد، أو غيرهما. والمعنى: ﴿في جيدها حبل﴾ ممّا مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك، وتربطها في جيدها؛ كما يفعل الخطّابون، تحقيراً لها، وتصويراً لها بصورة بعض الخطّابات؛ لتجزع من ذلك، ويجزع بعلمها، وهما في بيت العزّ والشرف، وفي منصب الثروة والجلّة.

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

١ - ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿هو﴾ ضمير الشأن. و﴿الله أحد﴾ هو الشأن؛ كقولك: هو زيد منطلق. كأنه قيل: الشأن هذا، وهو: أن الله واحد لا ثاني له. ومحلُّ ﴿هو﴾: الرفع على الابتداء. والخبر هو الجملة، ولا يحتاج إلى الرجوع؛ لأنه في حكم المفرد في قولك: زيد غلامك؛ في أنه هو المبتدأ في المعنى. وذلك: أن قوله: ﴿الله أحد﴾ هو الشأن الذي ﴿هو﴾ عبارة عنه. وليس كذلك: زيد أبوه منطلق، فإن زيد والجملة يدلان على معنيين مختلفين، فلا بد مما يصل بينهما.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قالت قریش: يا محمد صف لنا ربك الذي تدعوننا إليه. فنزلت. يعني: الذي سألتموني وصفه ﴿هو الله﴾. وعلى هذا ﴿أحد﴾: خبر مبتدأ محذوف. أي: هو ﴿أحد﴾. وهو بمعنى: واحد، وأصله وَحَدٌ، فقلبت الواو همزة لوقوعها طرفاً. والدليل على أنه واحد من جهة العقل: أن الواحد إما أن يكون كافياً في تدبير العالم وتخليقه أو لا يكون. فإن

اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾

كان كافياً؛ كان الآخر ضائعاً، غير محتاج إليه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلهاً. وإن لم يكن كافياً فهو ناقص، ولأنّ العقل يقتضي احتياج المفعول إلى فاعل، والفاعل الواحد كافٍ، وما وراء الواحد فليس عدد أولى من عدد، فيفضي ذلك إلى وجود أعدادٍ لا نهاية لها، وذا محال. فالقول بوجود إلهين محال، ولأنّ أحدهما إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر، أو لا يقدر. فإن قدر لم يستر المستور عنه جاهلاً، وإن لم يقدر لم يستر كونه عاجزاً. ولأنّا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود، فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كلّ واحدٍ منهما عاجزاً، والعاجز لا يكون إلهاً. وإن قدر أحدهما دون الآخر فالآخر لا يكون إلهاً. وإن قدرا جميعاً فإما أن يوجد بالتعاون، فيكون كلّ واحدٍ منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر، فيكون كلّ واحدٍ منهما عاجزاً. وإن قدر كلّ واحدٍ منهما على إيجاده بالاستقلال، فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال. وإن لم يبق فحينئذ يكون الأوّل مزيلاً قدرة الثاني، فيكون عاجزاً ومقهوراً تحت تصرّفه، فلا يكون إلهاً. فإن قلت: الواحد إذا أوجد مقدوراً بنفسه فقد زالت قدرته، فيلزمكم أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزاً. قلنا: الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته، ومن نفذت قدرته لا يكون عاجزاً. وأمّا الشريك فما نفذت قدرته، بل زالت قدرته بسبب قدرة الغير فكان ذلك تعجيزاً.

٢ - ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هو فَعَلٌ بمعنى مفعول من: صمد إليه: إذا قصده. وهو السيّد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: ﴿هو الله﴾ الذي تعرفونه، وتقرون بأنّه خالق السموات والأرض، وخالقكم، وهو واحد لا شريك له، وهو الذي يصمّد إليه كلّ مخلوق، لا يستغنون عنه، وهو: الغني عنهم.

٣ - ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ لأنّه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. وقد دلّ على هذا المعنى بقوله: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كلّ مولود محدث وجسم. وهو قديم لا أول لوجوده؛ إذ لو لم يكن قديماً لكان حادثاً لعدم الوسطة بينهما. ولو

وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ

كان حادثاً لافتقر إلى محدث. وكذا الثاني، الثالث. فيؤدي إلى التسلسل، وهو باطل. وليس بجسم لأنه اسم للمتركب. ولا يخلو حينئذ من أن يتصف كل جزء منه بصفات الكمال فيكون كل جزء إلهاً فيفسد القول به كما فسد بإلهين. أو غير متصف بها بل بأضدادها من سمات الحدث، وهو محال.

٤ - ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ ولم يكافئه أحد. أي: لم يماثله.

سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته تعالى. فقوله: ﴿هو الله﴾ إشارة إلى أنه خالق الأشياء وفاطرها. وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم؛ لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم، لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام. وفي ذلك وصفه بأنه حي؛ لأن المتصف بالقدرة والعلم لابد وأن يكون حياً. وفي ذلك وصفه بأنه سميع، بصير، مريد، متكلم، إلى غير ذلك من صفات الكمال، إذ لو لم يكن موصوفاً بها لكان موصوفاً بأضدادها، وهو نقائص، وذا من أمارات الحدث، فيستحيل اتصاف القديم بها. وقوله: ﴿أحد﴾ وصف بالوحدانية، ونفي الشريك، وبأنه المتفرد بإيجاد المعدومات، والمتوحد بعلم الخفيات. وقوله: ﴿الصمد﴾ وصف بأنه ليس إلا محتاجاً إليه. وإذا لم يكن إلا محتاجاً إليه فهو غني لا يحتاج إلى أحد، ويحتاج إليه كل أحد. وقوله: ﴿لم يلد﴾ نفى للشبه والمجانسة. وقوله: ﴿لم يولد﴾ نفى للحدث، ووصف بالقدم، والأولية. وقوله: ﴿لم يكن له كفواً أحد﴾ نفى أن يماثله شيء. ومن زعم أن نفي الكفاء - وهو المثل - في الماضي لا يدل على نفيه للحال، والكفار يدعون في الحال؛ فقد تاه في غيّه؛ لأنه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورة؛ إذ الحادث لا يكون كفواً للقديم. وحاصل كلام الكفرة يؤول إلى الإشراك، والتشبيه، والتعطيل. والسورة تدفع الكل كما قرّنا.

واستحسن سيبويه تقديم الظرف إذا كان مستقراً؛ أي: خبراً؛ لأنه لما كان محتاجاً إليه قدم ليعلم من أول الأمر أنه خبر لا فضلة؛ وتأخيرها إذا كان لغواً؛ أي: فضلة؛ لأن التأخير مستحق للفضلات. وإنما قدم في الكلام الإفصح؛

لأنّ الكلام سبق لنفي المكافأة عن ذات الباري، وهذا المعنى مصبّه ومركزه هذا الظرف، فكان الأهمّ تقديمه.

وكان أبو عمرو يستحبّ الوقف على ﴿أحد﴾ ولا يستحبّ الوصل. قال عبد الوارث: على هذا أدركنا القراء. وإذا وصل نوّن، وكسر، أو حذف التنوين كقراءة ﴿عَزَّوَجَلَّ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿كُفُوا﴾ بسكون الفاء والهمزة: حمزة وخلف ﴿كُفُوا﴾ مثقلة غير مهموزة، حفص. الباقيون: مثقلة مهموزة. وفي الحديث: «من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن»^(١) لأنّ القرآن يشتمل على توحيد الله، وذكر صفاته، وعلى الأوامر والنواهي، وعلى القصص والمواعظ. وهذه السورة تجرّدت للتوحيد والصفات، فقد تضمّنت ثلث القرآن. وفيه دليل شرف علم التوحيد. وكيف لا يكون كذلك والعلم يشرف بشرف المعلوم، ويتضع بضعته؟! ومعلوم هذا العلم هو الله وصفاته. وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه. فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله؟! اللهم احشرونا في زمرة العالمين بك والعاملين لك، الراجين لثوابك، الخائفين من عقابك، المُكْرَمين بِلِقَائِكَ. وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ فقال: «قد وجبت» ف قيل: يا رسول الله ما وجبت؟! قال: «وجبت له الجنة»^(٢).

* * *

(١) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (١١٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٧).

سُورَةُ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

١ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي: الصبح، أو الخلق، أو: هو وادٍ في جهنم، أو: جب فيها.

٢ - ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: النار، أو الشيطان. و﴿مَا﴾ موصولة، والعائد محذوف. أو: مصدرية، ويكون الخلق بمعنى المخلوق. وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - ﴿مِنْ شَرِّ﴾ بالتنوين. و﴿مَا﴾ على هذا مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر بدل من ﴿شَرِّ﴾ أي: من شر خلقه. أي: من خلق شر. أو: زائدة.

٣ - ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الغاسق: الليل إذا كثف ظلامه. ووقوبه: دخول ظلامه في كل شيء. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تعوذي بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب»^(١). ووقوبه: دخوله في الكسوف واسوداده.

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

٤ - ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ النفاثات: النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها، ويرقن. والنفث: النفخ مع ريق. وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر، وظهور أثره.

٥ - ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه؛ لأنّه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضارّ لنفسه لاغتمامه بسرور غيره، وهو الأسف على الخير عند الغير.

والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأنّ شرّ هؤلاء أشدّ. وختم بالحسد ليعلم أنّه شرّها. وهو أوّل ذنب عصي الله به في السماء من إبليس، وفي الأرض من قابيل. وإنّما عرّف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه؛ لأنّ كلّ نفّاث شريرة؛ فلذا عرفت النفاثات؛ ونكر غاسق؛ لأنّ كلّ غاسق لا يكون فيه الشرّ. إنّما يكون في بعضٍ دون بعض. وكذلك كلّ حاسد لا يضر. وربّ حاسدٍ يكون محموداً كالحسد في الخيرات.

* * *

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾

١ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي: مربيهم ومصلحهم.

٢ - ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ مالِكهم ومدير أمورهم.

٣ - ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ معبودهم. ولم يكتف بإظهار المضاف إليه مرّة واحدة؛ لأنّ قوله: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ * إله الناس ﴿عطف بيان﴾ ﴿لربّ الناس﴾. لأنّه يقال لغيره: ربّ الناس، ومَلِكِ الناس، وأما ﴿إله الناس﴾ فخاصّ لا شركة فيه. وعطف البيان للبيان، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار. وإنّما أضيف الربّ إلى الناس خاصة، وإن كان ربّ كلّ مخلوق، تشريفاً لهم، ولأنّ الاستعاذة وقعت من شرّ الموسوس في صدور الناس. فكأنّه قيل: أعوذ من شرّ الموسوس إلى الناس برّبهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم. وقيل: المراد بالناس الأوّل: الأطفال، ومعنى الربوبية يدلّ عليه، وبالثاني: الشباب، ولفظ الملك المنبئ عن السياسة يدلّ عليه، وبالثالث: الشيوخ، ولفظ الإله المنبئ عن العبادة يدلّ عليه، وبالرابع: الصالحين، إذ الشيطان مولع بإغوائهم،

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفَاسِ ﴿١﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٢﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٣﴾

وبالخامس: المفسدين؛ لعطفه على المعوذ منه.

٤ - ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى: الوسوسة، كالزلزال بمعنى: الزلزلة. وأما المصدر: فوسواس - بالكسر - كالزلزال. والمراد به: الشيطان. سمي بالمصدر: كآته وسوسة في نفسه لأنها شغله الذي هو عاكف عليه. أو أريد ذو الوسواس. والوسوسة: الصوت الخفي ﴿الْخَفَاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس. منسوب إلى الخنوس وهو: التأخر، كالعواج، والبتات. لما روي عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى، وإذا غفل رجع ووسوس إليه.

٥ - ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ في محل الجر على الصفة. أو: الرفع، أو: النصب على الشتم. وعلى هذين الوجهين يحسن الوقف على ﴿الخفاس﴾.

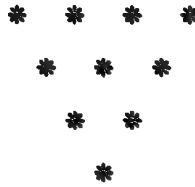
٦ - ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، على أن الشيطان ضربان: جنّي، وإنسي، كما قال: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وعن أبي ذر - رضي الله عنه - : أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطان الإنس؟

روي: أنه ﷺ سحر فمروض. فجاءه ملكان وهو نائم فقال أحدهما لصاحبه: ما باله؟ فقال: طُب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي. قال: وبم طبه؟ قال: بمشط ومشاطة في جُفٍّ طلعة، تحت راعوفة في بئر ذي أروان. فانتبه ﷺ، فبعث زبيراً، وعليّاً وعماراً - رضي الله عنهم - فنزحوا ماء البئر وأخرجوا الجفّ فإذا فيه مشاطة رأسه، وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر. فنزلت هاتان السورتان، فكُلَّمَا قرأ جبريل آية انحلت عقدة، حتى قام ﷺ عند انحلال العقدة الأخيرة، كأنما نشط من عقال. وجعل جبريل يقول: باسم الله أرقيك، والله يشفيك من كلّ داء

يؤذيك^(١) ولهذا جوزوا الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسوله ﷺ، لا بما كان بالسريانية، والعبرانية، والهندية، فإنه لا يحلُّ اعتقاده والاعتماد عليه.

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا، ومن شرِّ ما عملنا وما لم نعمل، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيه وصفيّه أرسله ﴿يَا هُدًى وَدِّينَ الْحَقِّ يُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله مصابيح الأنام، وأصحابه مفاتيح دار السلام.

والله أعلم بالصواب، وإليه الملجأ والمآب.



الفهارس العلمية

- (١) فهرس الأحاديث النبوية
- (٢) فهرس الآيات للجزء الثالث

حرف همزة الوصل

٣٩٩/١	«اتخذ الله إبراهيم خليلاً»
٣٢٣/٢	«اتقوا الشُّرك الأصغر»
٣٤٢/٢	«اتلو القرآن وابكوا»
٤٢٨/٣	«اجعلوها في ركوعكم»
٦٣٠/٣	«اجعلوها في سجودكم»
٦٩١/١	«احبسوا عليَّ الرُّكْب»
٢٣٦/٢	«اختلط الإيمان بلحمه ودمه»
٣٣٣/١	«ارجعي حتى أنظرَ ما يُحدث الله»
٤١/٣	«ارفعوا طعامكم»
٣٤٥/١	«استوصوا بالنساء خيراً»
٢٢٢/٢	«اسقه عسلاً»
٤٤٣/٢	«اصبروا فإنني لم أُمِر بالقتال»
٥٥١/١	«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة»
٣٢٥/١	«اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران»
٣٤٢/٣	«اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ»
٥٠٣/٣	«اكتمي عليَّ»
٥٠٢/٢	«التمسوا الرزق بالنكاح»
٤٥٥/٣	«امضوا فإنكم أول الحشر»
٥٨٩/٢	«اهجهم، فوالذي نفسي بيده»
٢٩٦/٢	«اتنوني غداً أخبركم»

حرف همزة القطع

- «أبايعكن على ألا تشركن» ٤٧٢/٣
- «أبشزي يا حميراء فقد أنزل الله براءتك» ٤٩١/٢
- «أبقِ على نفسك» ٣٥٦/٢
- «أبكي على أصحابك» ٦٥٧/١
- «أبو عبدة أمين هذه الأمة» ٢٤٠/٢
- «أتبع السيئة الحسنة تمحها» ٨٩/٢
- «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم» ٢٧٩/١
- «أجل، هي شجرة أخي يونس» ١٣٧/٣
- «أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله» ٤٨/٢
- «أحلت لنا ميتتان ودمان» ١٥١/١
- «أخبرني عن ربنا» ١٤٦/٢
- «إذا اقشعرَّ جلدُ المؤمن» ١٧٧/٣
- «إذا أنعم الله على عبده نعمة» ٣٥٧/١
- «إذا دخل أهل الجنة الجنة» ١٨/٢
- «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح» ٥٣٥/١
- «إذا رأوا منازلهم في الجنة» ٣٣٦/٢
- «إذا رأيت الله تعالى ينعم على عبد» ٥٢٥/٣
- «إذا رأيتم أخاكم قد زلَّ زلة فسددوه» ١٩٨/٣
- «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا» ٣٨١/١
- «إذاً لا أرضى قط وواحد» ٦٥٤/٣
- «أرجى خمساً، وآوى أربعاً» ٣٩/٣
- «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم» ١٥/٢
- «أريدُ منك أن تقول: لا إله إلا الله» ٦٥٠/٢
- «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم» ٢٢٩/٢
- «أطَّت السماء وحق لها أن تئط» ٢٤٥/٣

- «أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب» ١٤٤/٣
- «أعلمكم بالله أشدكم له خشية» ٨٦/٣
- «ألا أنبئكم بخير أعمالكم» ٦٧٩/٢
- «ألا إن الذين قبل الوصية» ٣٣٧/١
- «ألا إن القوة الرمي» ٦٥٤/١
- «ألا إنها النخلة» ١٧٢/٢
- «ألا لا يحجّن بعد هذا العام مشرك» ١٢٢/١
- «ألحقوا الفرائض بأهلها» ٤٢٢/١
- «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ» ٢٣٦/١
- «ألظفوا بياذا الجلال والإكرام» ٤١٣/٣
- «الله أكبر» ٥٦٢/٣
- «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» ٧٠٤/٢
- «اللهم اخسفهما بما شئت» ١٤٧/٢
- «اللهم اشدّد وطأتك على مضر» ٥٥٦ و ٥٢١ و ٢٨٨/٣
- «اللهم أعم أبصارهم» ٦٨١/١
- «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» ٤٢٨/١
- «اللهم صلّ على آل أبي أوفى» ٧٠٤/١
- «اللهم لا تكني إلى نفسي طرفة عين» ٢٧١/٢
- «ألم أقل لك اكتمي عليّ؟» ٥٠٤/٣
- «أليس كانوا يُحلّون لكم» ٢٦٢/١
- «أليس اليهود عبدوا عزيزاً» ٤٢١/٢
- «أمّا أوّل أشراط الساعة» ٣١٠/٣
- «أما والذي أحلف به لأمثلن» ٢٤٢/٢
- «أؤمنون أنتم؟!» ٧١٠/١
- «أنا ابن الذبيحين» ١٣٢/٣
- «أنا دعوة أبي إبراهيم» ١٣٠/١
- «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» ٥٩٦/٢

- «أنت الفاروق» ٣٦٨/١
- «أنتَ ومالكُ لأبيكَ» ٥٢٠/٢
- «إنك لعريض القفا» ١٦٢/١
- «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً» ٥٧٣/١
- «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليَّ» ١٦٣/١
- «إنما أنا رحمة مهداة» ٤٢٣/٢
- «إنما أنا لكم مثل الوالد» ٤٥٧/٢
- «إن الأحزاب سائرون إليكم» ٢٥/٣
- «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين» ٧٠٣/١
- «أن الجنَّ كانت تسترقُّ السَّمعَ» ٣١٧/٣
- «إن الجنة محرمة على الأنبياء» ٣٩٠/٣
- «أن الحمد والنعمة لك» ٢٣/٣
- «أن أدنى أهل الجنة منزلة» ٥٨٠ و ٣٨٥/٣
- «إن أقرب ما يكون العبد إلى ربِّه إذا سجد» ٦٦٤/٣
- «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله» ٦٧٩/٢
- «أن التوبة النصوح: أن يتوب» ٥٠٧/٣
- «إن الذي أمشاهم على أقدامهم» ٢٧٩/٢
- «إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز» ٧٩/٣
- «إن شاء الله» ٣١٢/١
- «إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس» ٦٥٤/١
- «إن صلاته ستنهاه» ٦٧٩/٢
- «إن صلاته لتردعه» ٦٧٩/٢
- «إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها» ٨٩/٢
- «إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يسّ» ١١٥/٣
- «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدو» ٢٠٠/٣
- «إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد» ٢٢٨/٣
- «إن الله تعالى سمّاني في القرآن» ٩٥/٣

- «إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة» ١٧١/٢
- «إن الله تعالى يقبل توبة العبد» ٢٤٢/١
- «إن الله حلّو يُحبُّ الحلاوة» ٤٧١/١
- «إن الله عزَّ وجلَّ أخرج من صُلب آدم» ٧٠٠/٢
- «إن الله عفا عن أمتي ما حدّثت به أنفسها» ٢٣١/١
- «إن الله كتب عليكم الحجَّ» ٢٧٧/١
- «إن الله لينصر هذا الدين» ٥٠٤/٢
- «إن الله وكَّل بي مَلَكَيْن» ٤٤/٣
- «إن الله يحب الحيي الحليم» ٢٢٣/١
- «إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته» ٥٦٨/٣
- «إن من عبادي المؤمنين من لا يُصلح إيمانه» ٢٥١/٣ و ٦٨٥/٢
- «إن المسجد الحرام وضع قبل بيت المقدس» ٢٧٥/١
- «إن المؤمن إذا خرج من قبره» ٨/٢
- «أنه ﷺ قرأ هذه الآية فصعق» ٥٥٧/٣
- «أنه ﷺ كان إذا وضع رجله في الرُّكاب قال» ٢٦٦/٣
- «أنه كان لبعض الملوك ساحر» ٦٢٣/٣
- «إنها ستكون هجرة بعد هجرة» ٤١٢/٢
- «إنها شجرة الحنظل» ١٧٢/٢
- «إنها الصلاة التي شُغل عنها سليمان» ٢٠٠/١
- «إنكم في منازلكم» ٢٧/٣
- «إني ذاكر لك أمراً» ٢٨/٣
- «إني على جناح سفر» ٧٠٩/١
- «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها» ٤٩٨/٣
- «أوحى الله إلى إبراهيم» ٤٥٠/٣ و ٣٣٨/٢
- «أوحى الله تعالى إلى إبراهيم» ١٢٧/١
- «أعيزكما بكلمات الله الثَّامة» ١٢٣/٢
- «أولاد الكفَّار خدام أهل الجنة» ٤٢١/٣

- «أولئك جنٌ نصيبين» ٣١٨/٣
 «أوله سفاح، وآخره نكاح» ٤٨٨/٢
 «إياكم وعقوق الوالدين» ٢٥٣/٢
 «أيعجز أحدكم أن يتخذ عند كل صباح ومساءً...؟!» ٣٥٢/٢
 «الأنصار شعار والناس دثار» ٢٨٥/١

حرف الباء

- «باسم الله أرقبك» ٧٠٠/٣
 «بارك الله فيما أعطيت» ٦٩٧/١
 «بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة» ٣٣٦/٣
 «بدء أمره أنه وجدَ في الكتب» ٣١٧/٢
 «بُعِثت بين يدي الساعة» ٧٠/٣
 «بل الله خير وأبقى» ٦١٤/٢
 «بل للناس عامة» ٨٩/٢
 «بل نحن وأنتم، لم نؤت من العلم إلا قليلاً» ٢٧٥/٢
 «بيننا أنا في المسجد الحرام» ٢٤٤/٢
 «بيننا رجل مستلق على فراشه» ٣٢١/١
 «البلاء موكلٌ بالقول» ٣٥٤/٣

حرف التاء

- «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» ٦٩٦/٢
 «تشهد على كل واحد بما عمل» ٦٧٠/٣
 «تعوذي بالله من شر هذا» ٦٩٧/٣
 «تقول النار للمؤمن» ٣٤٧/٢
 «تنزلوا على حكمي» ٢٧/٣

حرف الناء

- «ثم تعود روحه في جسده» ١٧٢/٢

- «ثنتان يعجلهما الله في الدنيا» ١٥/٢
 «الثلاثان جميعاً من أمتي» ٤٢١/٣

حرف الجيم

- «جاء الحق وزهق الباطل» ٧١/٣
 «جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يُخاصمونهُ» ٤٠٧/٣
 «جبريل...» ١١٣/١
 «جريان، والذيال، والطارق، وقابس...» ٩٤/٢

حرف الحاء

- «حُبِّبَ إلي من دنياكم ثلاث» ٢٧٦/١
 «حسبنا» ٣٥٩/١
 «حسبي، حسبي» ٦٧٠/٣
 «الحديث في المسجد يأكل الحسنات» ٧١١/٢
 «الحرائر صلاح البيت» ٣٥٠/١
 «الحمد رأس الشكر» ٢٩/١
 «الحمد لله الذي أذهب عنكم عُيَّةَ الجاهلية» ٣٥٧/٣
 «الحمى حظ كل مؤمن من النار» ٣٤٧/٢

حرف الخاء

- «خذوا عني قد جعلَ الله لهن سبيلاً» ٣٤٠/١
 «خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرتُ» ٣٨/٣
 «خلق الله الجنة فقال لها» ٤٥٨/٢
 «خلق الله خلقه في ظلمة» ٤٨٩/١
 «خُلقت المرأة من الرجل» ٣٢٧/١
 «خير المال سكة مأبورة» ٢٥٠/٢
 «الخيلُ معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» ١٥٤/٣

حرف الدال

- «دع ما يرييك إلى ما لا يرييك» ٣٨/١
 «دعي الصلاة أيام أقرائك» ١٨٩/١
 «الدعاء هو العبادة» ٢١٨/٣
 «الدنيا حلوة خضرة» ١١/٢

حرف الذال

- «ذلك لا ينفعه، وكنت أرجو» ٦٩٩/١
 «ذلكم العرض، من نوقش الحساب» ٦٢٠/٣
 «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» ٣٠/٢
 «ذو بطنٍ خارجةٍ جارية» ٩١/٣

حرف الراء

- «رحم الله أخي يوسف» ١١٩ و ١١٣/٢
 «رضا الله في رضا الوالدين» ٢٥٣/٢
 «رؤيا الأنبياء وحي» ٢٦٢/٣
 «الرشوة في الحكم» ٤٤٨/١
 «الرعد مَلَكٌ موَكَّلٌ بالسحاب» ١٤٦/٢
 «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً» ٣٠/٢

حرف الزاي

- «زُد في الخطر، وأبعد في الأجل» ٦٩٠/٢
 «الزكاة فنطرة الإسلام» ١٧/٢

حرف السين

- «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج» ٨٨/٣

- «سألت رسول الله ﷺ عن معنى آمين» ٣٣/١
- «سألت الله تعالى ألا يبعث على أمتي عذاباً» ٥١٢/١
- «سُئِلَ أي الأعمال أفضل» ٦٧٩/٢
- «سئل رسول الله ﷺ عن حقيقة الروح» ٢٧٤/٢
- «سئل رسول الله ﷺ عن الروح» ٢٩٦/٢
- «سئل النبي ﷺ عن الأنبياء» ٤٤٧/٢
- «سباب المؤمن فسوق» ١٦٩/١
- «سبحان الله مقلب القلوب» ٣٢/٣
- «سبحانك! بلى» ٥٧٥/٣
- «سبقك بها عكاشة» ٥٨٣/١
- «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» ٧١٦/٢
- «سُمِّيَ ذا القرنين لأنه طاف» ٣١٦/٢
- «سياحُ أمتي الصيامُ» ٧١٣/١
- «سيد البشر آدم، وسيد العرب...» ٢١١/١
- «سيكون قوم يعتدون في الدعاء» ٥٧٤/١
- «الاستثناء في الآيتين لأهل الجنة» ٨٥/٢
- «السابق يدخل الجنة بغير حساب» ٨٨/٣

حرف الشين

- «شارب الخمر كعابد الوثن» ٤٧٣/١
- «شاهت الوجوه» ٦٣٧/١
- «شغلونا عن الصلاة الوسطى» ٢٠٠/١
- «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» ٨٧/١
- «شيبتي هود» ٨٨/٢

حرف الصاد

- «صغ بالناس» ٦٧٢/١

- «صدقة تصدَّق الله بها عليكم» ٣٩٠/١
 «صدقتك على المسكين صدقة» ١٥٣/١
 «صل من قطعك» ٦٢٧/١
 «الصَّعُود: جبل من نار» ٥٦٤/٣

حرف الطاء

- «طلاق الأمة تطليقتان» ١٨٩/١
 «طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالب» ٦٢١/٦

حرف الظاء

- «الظلم ظلمات يوم القيامة» ١٩٣/٣

حرف العين

- «عبادة العالم يوماً واحداً تعدل» ٤٤٩/٣
 «عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق» ١٥٥/١
 «علموا أرقاءكم سورة يوسف» ١٤٠/٢
 «على ملة إبراهيم» ٢٤٥/١
 «عليك بآخر الحشر» ٤٦٤/٣
 «عَيَّرَت نساء النبي ﷺ أم سلمة» ٣٥٤/٣
 «العجماء جبار» ٤١٥/٢
 «العين حقٌّ، وإنَّ العين لتدخل» ٥٢٧/٣

حرف الغين

- «غَرَّه جهله» ٦١٠/٣

حرف الفاء

- «فاتحة الكتاب شفاء من كل داء إلا السَّامَ» ٢٥/١

- «فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشي» ٢٥/١
 «فإنها تغرب في عين حامية» ٣١٧/٢
 «فضل العالم على العابد» ٤٤٩/٣

حرف القاف

- «قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة» ١٥٥/٣
 «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي» ٢٦/١
 «قال له أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين» ٣٠٩/٣
 «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً» ٢٤٤/١
 «قتلتموه إرادة ما معه» ٣٨٦/١
 «قد استجيب لك» ٤١٣/٣
 «قدم النبي ﷺ المدينة فصلَّى نحو بيت المقدس» ١٤٠/١
 «قد وجبت له الجنة» ٦٩٦/٣
 «قرناء السوء شر من شياطين الجن» ٥٣١/١
 «قضى أوفاهما وتزوج صغراهما» ٦٤٠/٢
 «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ٢٣٣/٢
 «قل وروح القدس معك» ٥٨٩/٢
 «قيام العبد من الليل» ٩/٣
 «القتلى سواء» ٤٥٣/١
 «القرآن حبل الله المتين» ٢٧٩/١
 «القلبُ يجزع، والعين تدمع» ١٣٠/٢

حرف الكاف

- «كان أناس من أصحاب النبي ﷺ يصلون من صلاة المغرب» ٩/٣
 «كان ذلك حلالاً لإبراهيم» ٢٧٤/١
 «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران» ٦٥/١
 «كان رسول الله ﷺ يقرأ كلَّ ليلة» ١٩٦/٣

- «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر» ٢٠١/٢ و ٨٦/١
- «كان رسول الله ﷺ يأكل الدجاج والفالوذح» ٤٧١/١
- «كان رسول الله ﷺ يدير الماء على مرفقيه» ٤٣٠/١
- «كان عمر رضي الله عنه يحبُّ ضربَ الحجاب» ٤٢/٣
- «كان ﷺ إذا أفصح الغلام» ٢٨٤/٢
- «كان ﷺ خلقه القرآن» ٥١٩/٣
- «كان ﷺ يقول إذا أصبح» ٣٩٥/٣
- «كان يكره رسول الله ﷺ التَّغَلُّ» ٥٠٣/٣
- «كانوا أهل قرية لناماً» ٣١٣/٢
- «كانوا ثمانية: نوح وأهله» ٥٩/٢
- «كذب النسَّابون» ١٦٤/٢
- «كرامة الكتاب ختمه» ٦٠٢/٢
- «كلا إن عماراً ملئ إيماناً» ٢٣٦/٢
- «كل حلالاً، وقل صدقاً» ٤٥١/٣
- «كل عبادي خلقتُ حنفاءً» ٦٩٩/٢
- «كل مولود يولد على الفطرة» ٦٩٩/٢
- «كلوا، فلو قلت: إن فاكهة» ٦٥٩/٣
- «كما تدين تُدان» ٢١٤/٣
- «كما تكونوا يولّى عليكم» ٢٤٧/١
- «كنتُ على جبل حراء فنوديتُ» ٥٦١/٣
- «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري» ٦٤٤/٢

حرف اللام

- «لزوال الدنيا أهون على الله» ٣٨٥/١
- «لقاب قوس أحدكم من الجنة» ٣٩٠/٣
- «لقد أنزل الله في شأنك قرآناً» ٣٦٧/١
- «لقد عجبت من يوسف وكرمه» ١١٦/٢

- «للمتكلف ثلاث علامات» ١٦٧/٣
- «لما أخذ الله قريش بالسنين» ٤٧٦/٢
- «لما أصيب إخوانكم بأحد» ٣١٠/١
- «لما نزلت هذه الآية ما كلم النبي» ٣٤٧/٣
- «لمن لم يُبَيِّت الصيام» ١٩٧/١
- «لن يغلب عسرٌ يسرين» ٦٥٧/٣
- «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبوها» ٩٨/١
- «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً» ٤٣٥/٣
- «لو دعا نادية لأخذته الزبانية» ٦٦٤/٣
- «لو قالت كما قالت لهداه الله تعالى» ٦٣٠/٢
- «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة» ٧٢/١
- «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد» ٩٨/١
- «لو نزل عذاب من السماء» ٦٥٧/١
- «لو يعلم العبد قدر عفو الله» ١٩٢/٢
- «لها السكنى والنفقة» ٥٠٠/٣
- «ليت شعري ما فعل أبواي؟» ١٢٥/١
- «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» ١٩٨/٢

حرف الميم

- «ما اصطيذ حوت في البحر» ٢٥٩/٢
- «ما أجد أحداً أوثق في نفسي» ٣٣/٣
- «ما أحبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» ١٨٧/٣
- «ما أدِّي زكاته فليس بكثر» ٦٧٧/١
- «ما أصبر من استغفر» ٢٩٤/١
- «ما أنا بطارد المؤمنين» ٥٠٦/١
- «ما تشاور قوم قطُّ إلا هُذوا» ٣٠٦/١
- «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم» ٦٨٠/٢

- «ماذا تسألوني» ١٤٤/٣
- «ما السموات السبع في الكرسي» ٢١١/١
- «ما عندي من أمرك شيء» ٤٤٤/٣
- «ما قرئت هذه الآية في دار» ٢١١/١
- «ما كنت جديراً بذلك» ١٦١/١
- «مالك؟ إن عادوا لك فعُدْ لهم» ٢٣٦/٢
- «مالي أرى حمرة اللحم في أفواهكما» ٣٥٦/٣
- «مالي أراكم سكوتاً» ٤١٨/٣
- «ما من رجل يرفع صوته بالغناء» ٧١١/٢
- «ما من مكروب يدعو» ٤١٨/٢
- «ما منكم من أحد إلا وله منزلان» ٤٦٠/٢
- «ما من مولود يُولد إلا والشيطان يمسه» ٢٥١/١
- «ما من يوم إلا ويُنَادِي» ٦٢٢/٣
- «ما نقصت زكاه من مال قط» ٢٢٥/١
- «مخرجاً من شبهات الدنيا» ٤٩٨/٣
- «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ٦٠١/٣
- «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة» ٤٩/١
- «مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم» ٦٥٦/١
- «مسح رسول الله ﷺ على ناصيته» ٤٣٠/١
- «معاذ الله أن أشرك بالله غيره» ٦٨٧/٣
- «مفاتيح الغيب خمس» ٧٢٣/٢
- «ملوك الجنة من أمتي» ٢٤٦/١
- «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» ٤١٦/١
- «المسلمون تتكافأ دماؤهم» ١٥٥/١
- «المعدة بيت الداء» ٥٦٤/١
- «المؤمن أكرم على الله من الملائكة» ٢٦٩/٢
- «المؤمن كيِّسٌ فطِنٌ» ٦٧٩/٣

- «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته» ١٤٤/١
- «من استرعى الذئب ظلم» ١٢٨/١
- «من آذى جاره ورَّثه الله داره» ١٦٦/٢
- «من أحبَّ أن يرتع في رياض الجنة» ٣٢١/١
- «من أحب أن يكون أقوى الناس» ٩٢/٢
- «من أدركها يقول: اللهم إنك عفوٌ» ٦٦٥/٣
- «من أكرم مؤمناً فقد أكرمني» ٣٨١/٣
- «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر» ٢٨١/١
- «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً..» ١٩٩/٢
- «من بلغه القرآن فكأنما رأى محمد ﷺ» ٤٩٥/١
- «من تصدَّق بدم فما دونه كان كفارة له» ٤٥٠/١
- «من حفر لأخيه جباً» ٩٣/٣
- «من حلف على يمين فرأى غيرها» ١٨٧/١
- «من خاف أدلج» ٥٩٧/٣
- «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبَّ» ٨٨/٢
- «من سرَّه أن يكون أكرم الناس» ٣٥٧/٣
- «من شأنه أن يغفر ذنباً» ٤١٣/٣
- «من الشُّرك الخفي أن يصلِّي الرجل لمكان الرجل» ١٨٨/٣
- «من صام رمضان إيماناً واحتساباً» ١٥٩/١
- «من صبر على حرِّ مكة ساعة» ٢٧٧/١
- «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض» ٦٨٣/٢ و ٣٨٨/١
- «من قال حين يُصبح: فسبحان الله..» ٦٩٥/٢
- «من قال لا إله إلا الله كان له» ٣٥٢/٢
- «من قتل قتيلاً فله سلبه» ١٩٨ و ٣٩/١
- «من قرأ ﴿آمن الرسول﴾ إلى آخره في ليلة» ٢٣٤/١
- «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة» ٢١٠/١
- «من قرأ آية الكرسي عند منامه» ٢١١/١

- «من قرأ الآية عند منامه خلق الله تعالى» ٢٤٢/١
- «من قرأ ﴿ألم تنزل﴾ السجدة» ١٣/٣
- «من قرأ ثلاث آيات من أول الأنعام» ٥٥٣/١
- «من قرأ سورة الكهف» ٣٢٣/٢
- «من قرأ سورة الإخلاص» ٦٩٦/٣
- «من قرأ سورة الواقعة» ٤٣١/٣
- «من قرأ يسَ أمام حاجته» ١١٥/٣
- «من قرأ هاتين الآيتين حتى يُمسي» ٢١١/١
- «من قرأها في ليلة جمعة» ٢٨٦/٣
- «من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب» ٥١٠/٣
- «من قرأهما بعد العشاء الآخرة» ٢٣٤/١
- «من كتم علماً عن أهله ألجمه الله» ٣١٩/١
- «من كثرت صلاته بالليل» ٣٤٥/٣
- «من كُسر أو عرج فقد حلَّ» ١٦٧/١
- «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه» ٢٩٣/١
- «من لقي الله تعالى لا يُشرك به شيئاً» ٣٦٤/١
- «من لم يسأل الله من فضله غضب عليه» ٣٥٤/١
- «من لم يستشف بالقرآن» ٢٧٣/٢
- «من مات في أحد الحرمين بُعث» ٢٧٦/١
- «من مات يوم الجمعة كتب الله له» ٤٨٢/٣
- «من منع زكاة ماله يصير حيّة» ٣١٦/١
- «من نوقش الحساب عُدّب» ١٥١/٢
- «من هداه الله للإسلام، وعلمه القرآن» ٢٨/٢

حرف النون

- «نُصِرْتُ بالصَّبَا» ٥٢٩ و ٣٧٨ و ١٩/٣ و ٦٤٩/١
- «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا» ٢٠/٣

- «نعم، كل شيء يؤدي المؤمن فهو مصيبة» ١٤٤/١
 «نعم، ويبيعك ويدخلك جهنم» ١١٣/٣
 «نعم، الإنابة إلى دار الخلود» ١٧٦/٣
 «نعم السواك الزيتون» ٦٥٩/٣
 «نفث في روعي» ٢٦٢/٣

حرف الواو

- «واشدد وطأتك على مضر» ٤٢٤/٢
 «وأعفوا اللّحي» ٥٨٨/١
 «والذي نفس محمد بيده! إن الرجل من أهل الجنة» ٧٠/١
 «والذي نفس محمد بيده لو خرجوا» ٤٨٣/٣
 «والذي نفسي بيده! إن الهلاك قد تدلّى» ٢٦١/١
 «والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ» ٢٤٥/٢
 «والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم» ٢٦٥/٢
 «والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه» ٣١٣/٣
 «ولا غمّة في فرائض الله» ٦٨٥/٣
 «وأنا أقسم ألا أحلّهم» ٧٠٦/١
 «وأي شيء أقول؟» ٤١٩/١
 «وفي عمله كل يوم بأربع ركعات» ٣٩٥/٣
 «وما يدريك يا عمر! لعلّ الله» ٤٦٦/٣
 «ويل للأعقاب من النار» ٤٣٠/١
 «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» ٣٢٠/١
 «ويل لمن قرأ هذه الآية فمَجَّ بها» ١٤٨/١
 «ويل واد في جهنم» ١٠٤/١
 «الورود: الدخول» ٣٤٧/٢

حرف الهاء

- «هذا بقية آبائي» ١٣٢/١
- «هذا مقام إبراهيم» ١٢٨/١
- «هذا وذووه، لو كان الإيمان» ٤٥٥/١
- «هذا وقومه، والذي نفسي بيده» ٢٣٢/٣
- «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان» ٥٤٩/١
- «هذه قسمتي فيما أملك» ٤٠٢/١
- «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار» ٥٩٢/٣
- «هكذا أنزلت» ٤٦٢/٢
- «هواء الجنة سحسج لا حر ولا قَر» ٥٧٩/٣
- «هو أن تذكر أخاك بما يكره» ٣٥٥/٣
- «هو أهل أن يُتقى» ٥٦٩/٣
- «هو الجدول» ٣٣٢/٢
- «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» ٢٧٨/٣
- «هي جزاؤه إن جازاه» ٣٨٥/١
- «هي سواكي وسواك الأنبياء» ٦٥٩/٣
- «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم» ٣٠/٢

حرف «لا»

- «لا أشك ولا أسأل» ٤١/٢
- «لا أفخر على أحد في الحساب» ٣٥٤/٣
- «لا، إلا كما يضّر العضاة الخبط» ٦٥٨/٢
- «لا تزال يدُ الله مبسوطة» ٧٦/٣
- «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» ٣٠٤/٣
- «لا سكنى لك ولا نفقة» ٥٠٠/٣
- «لا صلاة إلا بطهور» ٥٤١/٢

- «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن» ٢٥/١
- «لا صيام لمن لم يعزم الصيام» ١٩٧/١
- «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ٣٦٨/١
- «لا عبادة كالتفكير» ٣٢١/١
- «لا غرار في تسليم» ٣٨١/١
- «لا غمة في فرائض الله» ٣٣/٢
- «لا كبيرة مع الاستغفار» ٢٩٤/١
- «لا يُتم بعد البلوغ» ١٠٥/١
- «لا يُتم بعد الحلم» ٣٢٧/١
- «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره» ٢٢٦/١
- «لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله» ٧١/٢
- «لا يقرأ أهل الجنة إلا طه ويس» ٣٩٢/٢
- «لا يقولن أحدكم زرعتم» ٤٢٦/٣
- «لا ينبغي أن يُسجد لأحد» ٢٦٨/١
- «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته» ٢٨٨/١
- «لا ينبغي لمخلوق أن يسجد لأحد» ٨٠/١
- «لا يترع رجل في الجنة من ثمرها» ٢٨١/٣

حرف الباء

- «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين...» ٦٨١/١
- «يا بني عبد المطلب!» ٦٩١/٣ و ٥٨٦/٢
- «يا جبريل ما منعك أن تزورنا» ٣٤٤/٢
- «يا عثمان! ما سألتني عنها أحد» ١٩١/٣
- «يا علي! أشقى الأولين» ٥٨٢/١
- «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» ٥٠٢/٢
- «يا ويح ثعلبة» ٦٩٦/١
- «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب» ٣٤٦/١

- «يَسْرُوا وَلَا تُعْصِرُوا» ٦٢٦/١
- «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث أصناف» ٥٣٧/٢
- «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات» ٥٣٠/٣
- «يفعل البارّ ما شاء أن يفعل» ٢٥٣/٢
- «يُقَالُ للكافر يوم القيامة» ٢٧٣/١
- «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجزى» ١٠٩/٣
- «يقول الله تعالى: من أهان لي وليّاً» ٤٤٤/١
- «يُنَادِي منادٍ يوم القيامة» ٢٥٩/٣ و ٢٩٣/١
- «ينزل عيسى خليفة على أمتي» ٢٥٩/١
- «يهون يوم القيامة على المؤمنين» ٥٣٤/٢
- «يُؤْتَى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام» ٦٤١/٣

فهرس الآيات

الموضوع	الصفحة
(٣٢) السجدة	
تفسير الآيات (١ - ٣)	٥
تفسير الآيات (٤ - ٧)	٦
ت	
فسير الآيات (٨ - ١١)	٧
تفسير الآيات (١٢ - ١٤)	٨
تفسير الآيات (١٥ - ١٧)	٩
تفسير الآيات (١٨ - ٢٢)	١٠
تفسير الآيات (٢٣ - ٢٦)	١١
تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)	١٢
تفسير الآية (٣٠)	١٣
(٣٣) الأحزاب	
تفسير الآية (١)	١٤
تفسير الآيات (٢ - ٤)	١٥
تفسير الآيتين (٥ - ٦)	١٧
تفسير الآية (٧)	١٨
تفسير الآيتين (٨ - ٩)	١٩
تفسير الآية (١٠)	٢٠
تفسير الآيات (١١ - ١٣)	٢١

٢٢	تفسير الآيتين (١٤ - ١٥)
٢٣	تفسير الآيات (١٦ - ١٩)
٢٤	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)
٢٥	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
٢٦	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٦)
٢٧	تفسير الآيتين (٢٧ - ٢٨)
٢٨	تفسير الآيتين (٢٩ - ٣٠)
٢٩	تفسير الآيات (٣١ - ٣٣)
٣٠	تفسير الآيتين (٣٤ - ٣٥)
٣١	تفسير الآية (٣٦)
٣٢	تفسير الآية (٣٧)
٣٣	تفسير الآية (٣٨)
٣٤	تفسير الآيتين (٣٩ - ٤٠)
٣٥	تفسير الآيات (٤١ - ٤٤)
٣٦	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٨)
٣٧	تفسير الآية (٤٩)
٣٨	تفسير الآية (٥٠)
٣٩	تفسير الآية (٥١)
٤٠	تفسير الآية (٥٢)
٤١	تفسير الآية (٥٣)
٤٣	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٦)
٤٤	تفسير الآيتين (٥٧ - ٥٨)
٤٥	تفسير الآيتين (٥٩ - ٦٠)
٤٦	تفسير الآيات (٦١ - ٦٣)
٤٧	تفسير الآيات (٦٤ - ٦٨)
٤٨	تفسير الآيات (٦٩ - ٧٢)
٤٩	تفسير الآية (٧٣)

(٣٤) سبأ

٥١	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٢	تفسير الآيتين (٣ - ٤)
٥٣	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٥٤	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٥٥	تفسير الآيتين (١٠ - ١١)
٥٦	تفسير الآيتين (١٢ - ١٣)
٥٧	تفسير الآية (١٤)
٥٨	تفسير الآية (١٥)
٥٩	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٦٠	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٦١	تفسير الآيات (٢١ - ٢٣)
٦٢	تفسير الآية (٢٤)
٦٣	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٩)
٦٤	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٦٥	تفسير الآيتين (٣٢ - ٣٣)
٦٦	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)
٦٧	تفسير الآيتين (٣٨ - ٣٩)
٦٨	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٢)
٦٩	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
٧٠	تفسير الآية (٤٦)
٧١	تفسير الآيات (٤٧ - ٤٩)
٧٢	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٧٣	تفسير الآيتين (٥٣ - ٥٤)

(٣٥) فاطر

٧٥	تفسير الآية (١)
٧٦	تفسير الآيتين (٢ - ٣)

٧٧	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٧٨	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٧٩	تفسير الآية (١٠)
٨٠	تفسير الآية (١١)
٨١	تفسير الآيتين (١٢ - ١٣)
٨٢	تفسير الآيتين (١٤ - ١٥)
٨٣	تفسير الآيات (١٦ - ١٨)
٨٤	تفسير الآيات (١٩ - ٢٢)
٨٥	تفسير الآيات (٢٣ - ٢٦)
٨٦	تفسير الآيتين (٢٧ - ٢٨)
٨٧	تفسير الآيات (٢٩ - ٣١)
٨٨	تفسير الآية (٣٢)
٨٩	تفسير الآية (٣٣)
٩٠	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)
٩١	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٠)
٩٢	تفسير الآيتين (٤١ - ٤٢)
٩٣	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٥)
	(٣٦) يس
٩٥	تفسير الآيات (١ - ٤)
٩٦	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٩٧	تفسير الآيات (٩ - ١٢)
٩٨	تفسير الآيتين (١٣ - ١٤)
٩٩	تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)
١٠٠	تفسير الآيات (١٧ - ٢٢)
١٠١	تفسير الآيات (٢٣ - ٢٩)
١٠٢	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٣)
١٠٣	تفسير الآيتين (٣٤ - ٣٥)

١٠٤	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٩)
١٠٥	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٤)
١٠٦	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٩)
١٠٧	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٥)
١٠٨	تفسير الآيات (٥٦ - ٦١)
١٠٩	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٦)
١١٠	تفسير الآيات (٦٧ - ٦٩)
١١١	تفسير الآيتين (٧٠ - ٧١)
١١٢	تفسير الآيات (٧٢ - ٧٦)
١١٣	تفسير الآيات (٧٧ - ٧٨)
١١٤	تفسير الآيات (٧٩ - ٨١)
١١٥	تفسير الآيتين (٨٢ - ٨٣)

(٣٧) الصفات

١١٦	تفسير الآيات (١ - ٤)
١١٧	تفسير الآيات (٥ - ٨)
١١٨	تفسير الآيات (٩ - ١١)
١١٩	تفسير الآيات (١٢ - ١٨)
١٢٠	تفسير الآيات (١٩ - ٢٥)
١٢١	تفسير الآيات (٢٦ - ٣٣)
١٢٢	تفسير الآيات (٣٤ - ٤٣)
١٢٣	تفسير الآيات (٤٤ - ٥٠)
١٢٤	تفسير الآيات (٥١ - ٥٩)
١٢٥	تفسير الآيات (٦٠ - ٦٦)
١٢٦	تفسير الآيات (٦٧ - ٧٤)
١٢٧	تفسير الآيات (٧٥ - ٨٢)
١٢٨	تفسير الآيات (٨٣ - ٨٩)
١٢٩	تفسير الآيات (٩٠ - ٩٤)

١٣٠	تفسير الآيات (٩٥ - ١٠٢)
١٣١	تفسير الآيات (١٠٣ - ١٠٥)
١٣٢	تفسير الآيتين (١٠٦ - ١٠٧)
١٣٣	تفسير الآيات (١٠٨ - ١١٢)
١٣٤	تفسير الآيات (١١٣ - ١١٨)
١٣٥	تفسير الآيات (١١٩ - ١٣٠)
١٣٦	تفسير الآيات (١٣١ - ١٤٣)
١٣٧	تفسير الآيات (١٤٤ - ١٤٩)
١٣٨	تفسير الآيات (١٥٠ - ١٥٨)
١٣٩	تفسير الآيات (١٥٩ - ١٦٦)
١٤٠	تفسير الآيات (١٦٧ - ١٧٣)
١٤١	تفسير الآيات (١٧٤ - ١٨٠)
١٤٢	تفسير الآيتين (١٨١ - ١٨٢)

(٣٨) ص

١٤٣	تفسير الآيتين (١ - ٢)
١٤٤	تفسير الآيات (٣ - ٥)
١٤٥	تفسير الآيات (٦ - ١٠)
١٤٦	تفسير الآيات (١١ - ١٤)
١٤٧	تفسير الآيات (١٥ - ١٨)
١٤٨	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)
١٤٩	تفسير الآيتين (٢١ - ٢٢)
١٥٠	تفسير الآية (٢٣)
١٥١	تفسير الآية (٢٤)
١٥٢	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
١٥٣	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
١٥٤	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٢)
١٥٥	تفسير الآيتين (٣٣ - ٣٤)

١٥٦	تفسير الآيات (٣٥ - ٣٨)
١٥٧	تفسير الآيات (٣٩ - ٤٢)
١٥٨	تفسير الآيتين (٤٣ - ٤٤)
١٥٩	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٦)
١٦٠	تفسير الآيات (٤٧ - ٥٣)
١٦١	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٩)
١٦٢	تفسير الآيات (٦٠ - ٦٣)
١٦٣	تفسير الآيات (٦٤ - ٧٠)
١٦٤	تفسير الآيات (٧١ - ٧٥)
١٦٥	تفسير الآيات (٧٦ - ٧٨)
١٦٦	تفسير الآيات (٧٩ - ٨٧)
١٦٧	تفسير الآية (٨٨)

(٣٩) الزمر

١٦٨	تفسير الآيات (١ - ٣)
١٦٩	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
١٧٠	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
١٧١	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
١٧٢	تفسير الآية (١٠)
١٧٣	تفسير الآيات (١١ - ١٥)
١٧٤	تفسير الآيات (١٦ - ١٨)
١٧٥	تفسير الآيات (١٩ - ٢١)
١٧٦	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
١٧٧	تفسير الآية (٢٤)
١٧٨	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٩)
١٧٩	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٢)
١٨٠	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٦)
١٨١	تفسير الآيتين (٣٧ - ٣٨)

١٨٢	تفسير الآيات (٣٩ - ٤٢)
١٨٤	تفسير الآيات (٤٣ - ٤٦)
١٨٥	تفسير الآيات (٤٧ - ٤٩)
١٨٦	تفسير الآية (٥٠)
١٨٧	تفسير الآيات (٥١ - ٥٣)
١٨٨	تفسير الآيات (٥٤ - ٥٦)
١٨٩	تفسير الآيات (٥٧ - ٦٠)
١٩٠	تفسير الآيات (٦١ - ٦٣)
١٩١	تفسير الآيتين (٦٤ - ٦٥)
١٩٢	تفسير الآيتين (٦٦ - ٦٧)
١٩٣	تفسير الآيتين (٦٨ - ٦٩)
١٩٤	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٢)
١٩٥	تفسير الآيتين (٧٣ - ٧٤)
١٩٦	تفسير الآية (٧٥)
		(٤٠) غافر
١٩٧	تفسير الآيات (١ - ٣)
١٩٨	تفسير الآية (٤)
١٩٩	تفسير الآيتين (٥ - ٦)
٢٠٠	تفسير الآية (٧)
٢٠١	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٢٠٢	تفسير الآية (١١)
٢٠٣	تفسير الآيات (١٢ - ١٥)
٢٠٤	تفسير الآيتين (١٧ - ١٨)
٢٠٥	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)
٢٠٦	تفسير الآيات (٢١ - ٢٥)
٢٠٧	تفسير الآيتين (٢٦ - ٢٧)
٢٠٨	تفسير الآية (٢٨)

٢٠٩	تفسير الآيات (٢٩ - ٣١)
٢١٠	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٤)
٢١١	تفسير الآيتين (٣٥ - ٣٦)
٢١٢	تفسير الآيات (٣٧ - ٤٠)
٢١٣	تفسير الآيات (٤١ - ٤٣)
٢١٤	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٧)
٢١٥	تفسير الآيات (٤٨ - ٥١)
٢١٦	تفسير الآيات (٥٢ - ٥٦)
٢١٧	تفسير الآيات (٥٧ - ٥٩)
٢١٨	تفسير الآيتين (٦٠ - ٦١)
٢١٩	تفسير الآيات (٦٢ - ٦٦)
٢٢٠	تفسير الآيات (٦٧ - ٧٢)
٢٢١	تفسير الآيات (٧٣ - ٧٧)
٢٢٢	تفسير الآيات (٧٨ - ٨٠)
٢٢٣	تفسير الآيات (٨١ - ٨٣)
٢٢٤	تفسير الآيتين (٨٤ - ٨٥)
		(٤١) فصلت
٢٢٥	تفسير الآيات (١ - ٤)
٢٢٦	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٢٢٧	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٢٢٨	تفسير الآية (١١)
٢٢٩	تفسير الآية (١٢)
٢٣٠	تفسير الآيات (١٣ - ١٥)
٢٣١	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٢٣٢	تفسير الآيات (١٨ - ٢١)
٢٣٣	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٥)
٢٣٤	تفسير الآيات (٢٦ - ٢٩)

٢٣٥	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٢٣٦	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٥)
٢٣٧	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٨)
٢٣٨	تفسير الآيات (٣٩ - ٤١)
٢٣٩	تفسير الآيات (٤٢ - ٤٤)
٢٤٠	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٧)
٢٤١	تفسير الآيات (٤٨ - ٥٠)
٢٤٢	تفسير الآيتين (٥١ - ٥٢)
٢٤٣	تفسير الآيتين (٥٣ - ٥٤)
	(٤٢) الشورى
٢٤٤	تفسير الآيات (١ - ٤)
٢٤٥	تفسير الآيتين (٥ - ٦)
٢٤٦	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٢٤٧	تفسير الآية (١١)
٢٤٨	تفسير الآيات (١٢ - ١٤)
٢٤٩	تفسير الآية (١٥)
٢٥٠	تفسير الآيات (١٦ - ١٨)
٢٥١	تفسير الآيات (١٩ - ٢١)
٢٥٢	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
٢٥٣	تفسير الآية (٢٤)
٢٥٤	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
٢٥٥	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
٢٥٦	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٢٥٧	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٦)
٢٥٨	تفسير الآيات (٣٧ - ٤٠)
٢٥٩	تفسير الآيات (٤١ - ٤٤)
٢٦٠	تفسير الآيات (٤٥ - ٤٨)

٢٦١	تفسير الآيات (٤٩ - ٥١)
٢٦٢	تفسير الآية (٥٢)
٢٦٣	تفسير الآية (٥٣)
	(٤٣) الزخرف
٢٦٤	تفسير الآيات (١ - ٥)
٢٦٥	تفسير الآيات (٦ - ١٠)
٢٦٦	تفسير الآيات (١١ - ١٤)
٢٦٧	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٢٦٨	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٢٦٩	تفسير الآيات (٢١ - ٢٣)
٢٧٠	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٩)
٢٧١	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣٢)
٢٧٢	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٦)
٢٧٣	تفسير الآيات (٣٧ - ٣٩)
٢٧٤	تفسير الآيات (٤٠ - ٤٥)
٢٧٥	تفسير الآيات (٤٦ - ٤٩)
٢٧٦	تفسير الآيات (٥٠ - ٥٢)
٢٧٧	تفسير الآيات (٥٣ - ٥٧)
٢٧٨	تفسير الآية (٥٨)
٢٧٩	تفسير الآيات (٥٩ - ٦٣)
٢٨٠	تفسير الآيات (٦٤ - ٦٩)
٢٨١	تفسير الآيات (٧٠ - ٧٥)
٢٨٢	تفسير الآيات (٧٦ - ٨٠)
٢٨٣	تفسير الآيات (٨١ - ٨٤)
٢٨٤	تفسير الآيات (٨٥ - ٨٨)
٢٨٥	تفسير الآية (٨٩)

(٤٤) الدخان

٢٨٦	تفسير الآيات (١ - ٣)
٢٨٧	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٢٨٨	تفسير الآيات (٨ - ١٢)
٢٨٩	تفسير الآيات (١٣ - ١٨)
٢٩٠	تفسير الآيات (١٩ - ٢٣)
٢٩١	تفسير الآيات (٢٤ - ٣١)
٢٩٢	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٧)
٢٩٣	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٣)
٢٩٤	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٨)
٢٩٥	تفسير الآيات (٤٩ - ٥٥)
٢٩٦	تفسير الآيات (٥٦ - ٥٩)

(٤٥) الجاثية

٢٩٧	تفسير الآيات (١ - ٥)
٢٩٨	تفسير الآيتين (٦ - ٧)
٢٩٩	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٣٠٠	تفسير الآيات (١١ - ١٤)
٣٠١	تفسير الآيات (١٥ - ١٨)
٣٠٢	تفسير الآيات (١٩ - ٢١)
٣٠٣	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٣٠٤	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٨)
٣٠٥	تفسير الآيات (٢٩ - ٣٣)
٣٠٦	تفسير الآيات (٣٤ - ٣٧)

(٤٦) الأحقاف

٣٠٧	تفسير الآيات (١ - ٤)
٣٠٨	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٣٠٩	تفسير الآيتين (٩ - ١٠)

٣١٠	تفسير الآية (١١)
٣١١	تفسير الآيات (١٢ - ١٥)
٣١٢	تفسير الآية (١٦)
٣١٣	تفسير الآية (١٧)
٣١٤	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٣١٥	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
٣١٦	تفسير الآيتين (٢٥ - ٢٦)
٣١٧	تفسير الآيات (٢٧ - ٢٩)
٣١٨	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٣١٩	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٥)
	(٤٧) محمد

٣٢١	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٣٢٢	تفسير الآيتين (٣ - ٤)
٣٢٤	تفسير الآيات (٥ - ١١)
٣٢٥	تفسير الآيات (١٢ - ١٥)
٣٢٦	تفسير الآيات (١٦ - ١٩)
٣٢٧	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)
٣٢٨	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٥)
٣٢٩	تفسير الآيات (٢٦ - ٣٠)
٣٣٠	تفسير الآيات (٣١ - ٣٥)
٣٣١	تفسير الآيات (٣٦ - ٣٨)

(٤٨) الفتح

٣٣٣	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٣٣٤	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٣٣٥	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٣٣٦	تفسير الآية (١١)
٣٣٧	تفسير الآيات (١٢ - ١٥)

٣٣٨	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٣٣٩	تفسير الآيات (١٨ - ٢٠)
٣٤٠	تفسير الآيات (٢١ - ٢٤)
٣٤١	تفسير الآية (٢٥)
٣٤٢	تفسير الآية (٢٦)
٣٤٣	تفسير الآية (٢٧)
٣٤٤	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
	(٤٩) الحجرات
٣٤٦	تفسير الآية (١)
٣٤٧	تفسير الآية (٢)
٣٤٨	تفسير الآية (٣)
٣٤٩	تفسير الآية (٤)
٣٥٠	تفسير الآيتين (٥ - ٦)
٣٥١	تفسير الآيتين (٧ - ٨)
٣٥٢	تفسير الآيتين (٩ - ١٠)
٣٥٣	تفسير الآية (١١)
٣٥٥	تفسير الآية (١٢)
٣٥٦	تفسير الآية (١٣)
٣٥٧	تفسير الآية (١٤)
٣٥٩	تفسير الآيات (١٥ - ١٧)
٣٦٠	تفسير الآية (١٨)
	(٥٠) ق
٣٦١	تفسير الآيات (١ - ٣)
٣٦٢	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٣٦٣	تفسير الآيات (٨ - ١٥)
٣٦٤	تفسير الآيتين (١٦ - ١٧)
٣٦٥	تفسير الآيات (١٨ - ٢٣)

٣٦٦	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٨)
٣٦٧	تفسير الآيات (٢٩ - ٣٢)
٣٦٨	تفسير الآيات (٣٣ - ٣٧)
٣٦٩	تفسير الآيات (٣٨ - ٤١)
٣٧٠	تفسير الآيات (٤٢ - ٤٥)

(٥١) الذاريات

٣٧١	تفسير الآيات (١ - ٦)
٣٧٢	تفسير الآيات (٧ - ١٣)
٣٧٣	تفسير الآيات (١٤ - ٢٠)
٣٧٤	تفسير الآيات (٢١ - ٢٣)
٣٧٥	تفسير الآيتين (٢٤ - ٢٥)
٣٧٦	تفسير الآيات (٢٦ - ٣٠)
٣٧٧	تفسير الآيات (٣١ - ٣٨)
٣٧٨	تفسير الآيات (٣٩ - ٤٥)
٣٧٩	تفسير الآيات (٤٦ - ٥٢)
٣٨٠	تفسير الآيات (٥٣ - ٥٦)
٣٨١	تفسير الآيات (٥٧ - ٦٠)

(٥٢) الطور

٣٨٢	تفسير الآيات (١ - ٧)
٣٨٣	تفسير الآيات (٨ - ١٦)
٣٨٤	تفسير الآيات (١٧ - ٢٣)
٣٨٥	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٩)
٣٨٦	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٦)
٣٨٧	تفسير الآيات (٣٧ - ٤٣)
٣٨٨	تفسير الآيات (٤٤ - ٤٩)

(٥٣) النجم

٣٨٩	تفسير الآيات (١ - ٥)
-----	-------	----------------------

٣٩٠	تفسير الآيات (٦ - ١١)
٣٩١	تفسير الآيات (١٢ - ١٧)
٣٩٢	تفسير الآيات (١٨ - ٢٣)
٣٩٣	تفسير الآيات (٢٤ - ٢٩)
٣٩٤	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)
٣٩٥	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٧)
٣٩٦	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٦)
٣٩٧	تفسير الآيات (٤٧ - ٥٥)
٣٩٨	تفسير الآيات (٥٦ - ٦٢)

(٥٤) القمر

٣٩٩	تفسير الآيات (١ - ٣)
٤٠٠	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٤٠١	تفسير الآيات (٨ - ١٢)
٤٠٢	تفسير الآيات (١٣ - ١٧)
٤٠٣	تفسير الآيات (١٨ - ٢٤)
٤٠٤	تفسير الآيات (٢٥ - ٣١)
٤٠٥	تفسير الآيات (٣٢ - ٤٠)
٤٠٦	تفسير الآيات (٤١ - ٤٥)
٤٠٧	تفسير الآيات (٤٦ - ٥٠)
٤٠٨	تفسير الآيات (٥١ - ٥٥)

(٥٥) الرحمن

٤٠٩	تفسير الآيات (١ - ٥)
٤١٠	تفسير الآيات (٦ - ٩)
٤١١	تفسير الآيات (١٠ - ١٥)
٤١٢	تفسير الآيات (١٦ - ٢٧)
٤١٣	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)
٤١٤	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٣)

٤١٥	تفسير الآيات (٣٤ - ٤٢)
٤١٦	تفسير الآيات (٤٣ - ٥٦)
٤١٧	تفسير الآيات (٥٧ - ٧٠)
٤١٨	تفسير الآيات (٧١ - ٧٨)
	(٥٦) الواقعة
٤١٩	تفسير الآيات (١ - ٤)
٤٢٠	تفسير الآيات (٥ - ١٤)
٤٢١	تفسير الآيات (١٥ - ١٩)
٤٢٢	تفسير الآيات (٢٠ - ٣٠)
٤٢٣	تفسير الآيات (٣١ - ٤١)
٤٢٤	تفسير الآيات (٤٢ - ٥٠)
٤٢٥	تفسير الآيات (٥١ - ٥٨)
٤٢٦	تفسير الآيات (٥٩ - ٦٤)
٤٢٧	تفسير الآيات (٦٥ - ٧٠)
٤٢٨	تفسير الآيات (٧١ - ٧٥)
٤٢٩	تفسير الآيات (٧٦ - ٨٢)
٤٣٠	تفسير الآيات (٨٣ - ٩١)
٤٣١	تفسير الآيات (٩٢ - ٩٦)
	(٥٧) الحديد
٤٣٢	تفسير الآيات (١ - ٣)
٤٣٣	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٤٣٤	تفسير الآيات (٨ - ١٠)
٤٣٥	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٤٣٦	تفسير الآيتين (١٣ - ١٤)
٤٣٧	تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)
٤٣٨	تفسير الآيات (١٧ - ١٩)
٤٣٩	تفسير الآيتين (٢٠ - ٢١)

٤٤٠	تفسير الآيتين (٢٢ - ٢٣)
٤٤١	تفسير الآيتين (٢٤ - ٢٥)
٤٤٢	تفسير الآيتين (٢٦ - ٢٧)
٤٤٣	تفسير الآيتين (٢٨ - ٢٩)

(٥٨) المجادلة

٤٤٤	تفسير الآية (١)
٤٤٥	تفسير الآيتين (٢ - ٣)
٤٤٦	تفسير الآية (٤)
٤٤٧	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٤٤٨	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٤٤٩	تفسير الآيتين (١٠ - ١١)
٤٥٠	تفسير الآية (١٢)
٤٥١	تفسير الآيات (١٣ - ١٦)
٤٥٢	تفسير الآيات (١٧ - ٢١)
٤٥٣	تفسير الآية (٢٢)

(٥٩) الحشر

٤٥٤	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٤٥٦	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٤٥٧	تفسير الآية (٧)
٤٥٨	تفسير الآيتين (٨ - ٩)
٤٥٩	تفسير الآية (١٠)
٤٦٠	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٤٦١	تفسير الآيات (١٣ - ١٦)
٤٦٢	تفسير الآيات (١٧ - ١٩)
٤٦٣	تفسير الآيات (٢٠ - ٢٢)
٤٦٤	تفسير الآيتين (٢٣ - ٢٤)

(٦٠) الممتحنة

٤٦٥	تفسير الآية (١)
٤٦٧	تفسير الآيتين (٢ - ٣)
٤٦٨	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
٤٦٩	تفسير الآيات (٦ - ٩)
٤٧٠	تفسير الآية (١٠)
٤٧١	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)
٤٧٢	تفسير الآية (١٣)

(٦١) الصف

٤٧٤	تفسير الآيات (١ - ٣)
٤٧٥	تفسير الآيات (٤ - ٦)
٤٧٦	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٤٧٧	تفسير الآيات (١١ - ١٤)

(٦٢) الجمعة

٤٧٩	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٤٨٠	تفسير الآيات (٣ - ٥)
٤٨١	تفسير الآيات (٦ - ٨)
٤٨٢	تفسير الآيات (٩ - ١١)

(٦٣) المنافقون

٤٨٤	تفسير الآيات (١ - ٣)
٤٨٥	تفسير الآية (٤)
٤٨٦	تفسير الآية (٥)
٤٨٧	تفسير الآيات (٦ - ٨)
٤٨٨	تفسير الآيات (٩ - ١١)

(٦٤) التغابن

٤٩٠	تفسير الآيتين (١ - ٢)
-----	-----------------------

٤٩١	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٤٩٢	تفسير الآيات (٧ - ١١)
٤٩٣	تفسير الآيات (١٢ - ١٤)
٤٩٤	تفسير الآيات (١٥ - ١٨)

(٦٥) الطلاق

٤٩٦	تفسير الآية (١)
٤٩٧	تفسير الآية (٢)
٤٩٨	تفسير الآية (٣)
٤٩٩	تفسير الآيات (٤ - ٦)
٥٠١	تفسير الآيات (٧ - ١٠)
٥٠٢	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)

(٦٦) التحريم

٥٠٣	تفسير الآية (١)
٥٠٤	تفسير الآيتين (٢ - ٣)
٥٠٥	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
٥٠٦	تفسير الآيات (٦ - ٨)
٥٠٧	تفسير الآيتين (٩ - ١٠)
٥٠٨	تفسير الآيتين (١١ - ١٢)

(٦٧) الملك

٥١٠	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥١١	تفسير الآيات (٢ - ٤)
٥١٢	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٥١٣	تفسير الآيات (٩ - ١٣)
٥١٤	تفسير الآيات (١٤ - ١٧)
٥١٥	تفسير الآيات (١٨ - ٢١)
٥١٦	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٧)
٥١٧	تفسير الآيات (٢٨ - ٣٠)

(٦٨) القلم

٥١٨	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥١٩	تفسير الآيات (٣ - ٩)
٥٢٠	تفسير الآيات (١٠ - ١٥)
٥٢١	تفسير الآيات (١٦ - ٢٠)
٥٢٢	تفسير الآيات (٢١ - ٢٨)
٥٢٣	تفسير الآيات (٢٩ - ٣٦)
٥٢٤	تفسير الآيات (٣٧ - ٤٢)
٥٢٥	تفسير الآيتين (٤٣ - ٤٤)
٥٢٦	تفسير الآيات (٤٥ - ٥٠)
٥٢٧	تفسير الآيتين (٥١ - ٥٢)

(٦٩) القلم

٥٢٨	تفسير الآيتين (١ - ٥)
٥٢٩	تفسير الآيتين (٦ - ١٠)
٥٣٠	تفسير الآيتين (١١ - ١٨)
٥٣١	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٤)
٥٣٢	تفسير الآيتين (٢٥ - ٣٤)
٥٣٣	تفسير الآيتين (٣٥ - ٤٣)
٥٣٤	تفسير الآيتين (٤٤ - ٥٢)

(٧٠) المعارج

٥٣٥	تفسير الآيات (١ - ٣)
٥٣٦	تفسير الآيات (٤ - ٩)
٥٣٧	تفسير الآيات (١٠ - ١٧)
٥٣٨	تفسير الآيات (١٧ - ٢٨)
٥٣٩	تفسير الآيات (٢٩ - ٣٧)
٥٤٠	تفسير الآيات (٣٨ - ٤٤)

(٧١) نوح

٥٤١	تفسير الآيات (١ - ٤)
٥٤٢	تفسير الآيات (٤ - ٨)
٥٤٣	تفسير الآيات (٩ - ١٢)
٥٤٤	تفسير الآيات (١٣ - ١٨)
٥٤٥	تفسير الآيات (١٩ - ٢٤)
٥٤٦	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٨)

(٧٢) الجن

٥٤٨	تفسير الآية (١)
٥٤٩	تفسير الآيات (٢ - ٦)
٥٥٠	تفسير الآيات (٧ - ١١)
٥٥١	تفسير الآيات (١٢ - ١٦)
٥٥٢	تفسير الآيات (١٧ - ٢١)
٥٥٣	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٥٥٤	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٨)

(٧٣) المزمّل

٥٥٥	تفسير الآيات (١ - ٤)
٥٥٦	تفسير الآيات (٥ - ٨)
٥٥٧	تفسير الآيات (٩ - ١٣)
٥٥٨	تفسير الآيات (١٤ - ١٨)
٥٥٩	تفسير الآيتين (١٩ - ٢٠)

(٧٤) المدثر

٥٦١	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٦٢	تفسير الآيات (٣ - ٩)
٥٦٣	تفسير الآيات (١٠ - ١٦)
٥٦٤	تفسير الآيات (١٧ - ٢٤)

٥٦٥	تفسير الآيات (٢٥ - ٣١)
٥٦٧	تفسير الآيات (٣٢ - ٣٩)
٥٦٨	تفسير الآيات (٤٠ - ٥٠)
٥٦٩	تفسير الآيات (٥١ - ٥٦)

(٧٥) القيامة

٥٧٠	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٥٧١	تفسير الآيات (٣ - ١٣)
٥٧٢	تفسير الآيات (١٤ - ٢١)
٥٧٣	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٩)
٥٧٤	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٩)
٥٧٥	تفسير الآية (٤٠)

(٧٦) الإنسان

٥٧٦	تفسير الآيات (١ - ٣)
٥٧٧	تفسير الآيات (٤ - ٧)
٥٧٨	تفسير الآيات (٨ - ١٢)
٥٧٩	تفسير الآيات (١٣ - ١٦)
٥٨٠	تفسير الآيات (١٧ - ٢١)
٥٨١	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٤)
٥٨٢	تفسير الآيات (٢٥ - ٢٩)
٥٨٣	تفسير الآيتين (٣٠ - ٣١)

(٧٧) المرسلات

٥٨٤	تفسير الآيات (١ - ٦)
٥٨٥	تفسير الآيات (٧ - ١٧)
٥٨٦	تفسير الآيات (١٨ - ٢٩)
٥٨٧	تفسير الآيات (٣٠ - ٣٨)
٥٨٨	تفسير الآيات (٣٨ - ٥٠)

(٧٨) النبأ

٥٨٩	تفسير الآيات (١ - ٥)
٥٩٠	تفسير الآيات (٦ - ١٧)
٥٩١	تفسير الآيات (١٨ - ٢٤)
٥٩٢	تفسير الآيات (٢٥ - ٣٢)
٥٩٣	تفسير الآيات (٣٣ - ٤٠)

(٧٩) النازعات

٥٩٥	تفسير الآيات (١ - ٥)
٥٩٦	تفسير الآيات (٦ - ١٢)
٥٩٧	تفسير الآيات (١٣ - ١٩)
٥٩٨	تفسير الآيات (٢٠ - ٣٠)
٥٩٩	تفسير الآيات (٣١ - ٤٠)
٦٠٠	تفسير الآيات (٤١ - ٤٦)

(٨٠) عبس

٦٠١	تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٠٢	تفسير الآيات (٥ - ١٧)
٦٠٣	تفسير الآيات (١٨ - ٣٣)
٦٠٤	تفسير الآيات (٣٤ - ٤٢)

(٨١) التكويد

٦٠٥	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٠٦	تفسير الآيات (٦ - ١٢)
٦٠٧	تفسير الآيات (١٣ - ٢١)
٦٠٨	تفسير الآيات (٢٢ - ٢٨)
٦٠٩	تفسير الآية (٢٩)

(٨٢) الانفطار

٦١٠	تفسير الآيات (١ - ٧)
-----	----------------------

٦١١ تفسير الآيات (٨ - ١٦)

٦١٢ تفسير الآيات (١٧ - ١٩)

(٨٣) المطففين

٦١٣ تفسير الآيات (١ - ٣)

٦١٤ تفسير الآيات (٤ - ٩)

٦١٥ تفسير الآيات (١٠ - ١٧)

٦١٦ تفسير الآيات (١٨ - ٢٦)

٦١٧ تفسير الآيات (٢٧ - ٣٣)

٦١٨ تفسير الآيات (٣٤ - ٣٦)

(٨٤) الانشقاق

٦١٩ تفسير الآيات (١ - ٦)

٦٢٠ تفسير الآيات (٧ - ١٦)

٦٢١ تفسير الآيات (١٧ - ٢٥)

(٨٥) البروج

٦٢٢ تفسير الآيات (١ - ٣)

٦٢٣ تفسير الآيات (٤ - ٦)

٦٢٤ تفسير الآيات (٧ - ١٠)

٦٢٥ تفسير الآيات (١١ - ١٩)

٦٢٦ تفسير الآيات (٢٠ - ٢٢)

(٨٦) الطارق

٦٢٧ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٢٨ تفسير الآيات (٥ - ١٤)

٦٢٩ تفسير الآيات (١٥ - ١٧)

(٨٧) الأعلى

٦٣٠ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٣١ تفسير الآيات (٥ - ١١)

٦٣٢ تفسير الآيات (١٢ - ١٩) (٨٨) الغاشية

٦٣٣ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٣٤ تفسير الآيات (٥ - ١٤)

٦٣٥ تفسير الآيات (١٥ - ٢٠)

٦٣٦ تفسير الآيات (٢١ - ٢٦) (٨٩) الفجر

٦٣٧ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٣٨ تفسير الآيات (٥ - ٧)

٦٣٩ تفسير الآيات (٨ - ١٢)

٦٤٠ تفسير الآيات (١٣ - ١٧)

٦٤١ تفسير الآيات (١٨ - ٢٣)

٦٤٢ تفسير الآيات (٢٤ - ٢٦) (٩٠) البلد

٦٤٣ تفسير الآيتين (١ - ٢)

٦٤٤ تفسير الآيات (٣ - ١٤)

٦٤٥ تفسير الآيات (١٥ - ١٧)

٦٤٦ تفسير الآيات (١٨ - ٢٠) (٩١) الشمس

٦٤٧ تفسير الآيات (١ - ٤)

٦٤٨ تفسير الآيات (٥ - ٩)

٦٤٩ تفسير الآيات (١٠ - ١٥) (٩٢) الليل

٦٥٠ تفسير الآيات (١ - ٧)

٦٥١ تفسير الآيات (٨ - ١٨)

٦٥٢ تفسير الآيات (١٩ - ٢١)

(٩٣) الضحى

٦٥٣	تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٥٤	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٦٥٥	تفسير الآيات (٨ - ١١)

(٩٤) الشرح

٦٥٦	تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٥٧	تفسير الآيات (٥ - ٧)
٦٥٨	تفسير الآية (٨)

(٩٥) التين

٦٥٩	تفسير الآيتين (١ - ٢)
٦٦٠	تفسير الآيات (٣ - ٦)
٦٦١	تفسير الآيتين (٧ - ٨)

(٩٦) العلق

٦٦٢	تفسير الآيات (١ - ٣)
٦٦٣	تفسير الآيات (٤ - ١٤)
٦٦٤	تفسير الآيات (١٥ - ١٩)

(٩٧) القدر

٦٦٥	تفسير الآية (١)
٦٦٦	تفسير الآيات (٢ - ٥)

(٩٨) البينة

٦٦٧	تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٦٨	تفسير الآيات (٥ - ٨)

(٩٩) الزلزلة

٦٦٩	تفسير الآيات (١ - ٤)
٦٧٠	تفسير الآيات (٥ - ٨)

	(١٠٠) العاديات
٦٧١	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٧٢	تفسير الآيات (٦ - ١١)
	(١٠١) القارعة
٦٧٣	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٧٤	تفسير الآيات (٦ - ١١)
	(١٠٢) التكاثر
٦٧٥	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٧٦	تفسير الآيات (٦ - ٨)
	(١٠٣) العصر
٦٧٧	تفسير الآيات (١ - ٣)
	(١٠٤) الهمزة
٦٧٨	تفسير الآيات (١ - ٣)
٦٧٩	تفسير الآيات (٤ - ٩)
	(١٠٥) الفيل
٦٨٠	تفسير الآية (١)
٦٨١	تفسير الآيات (٢ - ٥)
	(١٠٦) قريش
٦٨٢	تفسير الآية (١)
٦٨٣	تفسير الآيات (٢ - ٤)
	(١٠٧) الماعون
٦٨٤	تفسير الآيات (١ - ٧)
	(١٠٨) التكاثر
٦٨٦	تفسير الآيات (١ - ٣)
	(١٠٩) الكافرون
٦٨٧	تفسير الآيات (١ - ٥)
٦٨٨	تفسير الآية (٦)

	(١١٠) النصر
٦٨٩	تفسير الآيات (١ - ٣)
	(١١١) المسد
٦٩١	تفسير الآية (١)
٦٩٢	تفسير الآيات (٢ - ٥)
	(١١٢) الإخلاص
٦٩٣	تفسير الآية (١)
٦٩٤	تفسير الآيتين (٢ - ٣)
٦٩٥	تفسير الآية (٤)
	(١١٣) الفلق
٦٩٧	تفسير الآيات (١ - ٣)
٦٩٨	تفسير الآيتين (٤ - ٥)
	(١١٤) الناس
٦٩٩	تفسير الآيات (١ - ٣)
٧٠٠	تفسير الآيات (٤ - ٦)
٧٠٤	فهرس الأحاديث النبوية
٧٢٥	فهرس الآيات